الجامعة الإسلامية العالمية
إسلام آباد – باكستان
كلية أصول الدين

"داو ده جين"
ترجمة وشرحا ودراسة مقارنة بالإسلام

تحت إشراف
الأستاذ الدكتور خالد العلوي
الأستاذ بقسم مقارنة الأديان
الجامعة الإسلامية العالمية
إسلام آباد – باكستان

الإعداد:

أيوب نور الحق دين شي رين (Ding Shi Ren)
(لنيل درجة الدكتوراة)
العام الدراسي ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بالهدى إلى يوم الدين .

وبعد: فإن الصين بلاد الأسرار والأساطير وبلاد العلوم والفنون، واسعة المساحة، وكثيفة السكان، وتعددت فيها اللغات و تنوعت فيها الأجناس، وهي تعتبر من أقدم بلاد العالم حضارة وثقافة وديانة. ولها تاريخ مجيد وحضارة عريقة وقد دهش العالم منذ القديم بحضاراتها الراقية حيث ازدهرت فيها من فجر التاريخ علوم كعلم الفلسفة والطب والتنجيم والفلك والهندسة والفلاحة والكيمياء وغير ذلك مما يحتاج إليه التقدم البشري كما اخترع أبناؤها صناعة الورق والطباعة والبارود والإبرة المغناطسية واشتهرت بهذه "المخترعات الأربعة الكبري" في العالم القديم كله ، كما اخترع أبناؤها صناعة الورق والحرير والبارود والمغناطسية سبقا علي جميع الأمم وبجانب ذلك ظهرت فيها المدارس الفكرية والمذاهب الدينية.

ولا شك أن الصين نجمة من نجوم لامعة في شرق العالم منذ التاريخ الطويل ، وهذه الشهرة لم تكن ترجع إلي ترقيها في المنتجات المادية فحسب بل ترجع كذلك إلي عظمة إنتاجها في فكر الإنسان وإلي علو شأنها في مدارج الرقي الروحي والمعنوي وهذه العناصر شكلت للثقافة الصينية ملامح زاهية مما يعتزّ به أبناؤها وينبهر به غيرهم.

إن مقومات الثقافة الصينية كثيرة الأبعاد و واسعة الأطراف ولكنها من الناحية الفكرية قد تشعبت فيما بعد عموما إلي مجريين مهمين وهما الداوية والكنفوشية والكلام عن الثقافة الصينية يتناول عموما هذين المجريين وإنهما في الحقيقة يتدارك أحدهما الآخر حينا ويتضاد بعضهما بعضا حينا آخر ولعل يصدق قول القائل بأن الداوية بخصائصها المتميزة تمثل باطن الثقافة الصينية بينما الكنفوشية تمثل ظاهرها. وإننا لو أمعنا النظر اليوم إلي أي جانب من جوانب السلوك والتفكير عند الصينيين ودرسناه من غوره لوجدناه متصلا بالداوية أو بالكنفوشية بطريقة أو بالأخري. ولكن من الأسف الشديد أن حكام الصين منذ وقت طويل لأغراض سياسية رفعوا الكنفوشية فوق الداوية وجعلوها صورة رسمية للثقافة الصينية وأنزلوا الداوية إلي مقام التقاليد الشعبية أو صورة ثانوية للثقافة الصينية.

إن الصينيين منذ زمن قديم يعتبرون أنفسهم أصحاب الحضارات والآداب ويعتبرون غيرهم أقواما همجية غير مثقفة فقل ما حاولوا أن يتعرفوا علي ثقافات الآخرين وأما نحو ثقافة أنفسهم فكانوا متحمسين ومنشغفين وقد بحثوا و كتبوا ما فيها من كل الدقائق ولم يتركوا

الصينيين وقد استعان عدة غربيين من علماء الغرب بهذه الدراسة وحاولوا أن يكتشفوا ما في هذه البلاد من الأسرار والفنون وتوصلوا إلي مستوي عال في البحث والدراسة . ولكن بما أن الكنفوشـــية كانت مدرسة رسمية سائدة في الصين منذ وقت طويل فإذا قام أحد من الأجانب بالدراســة الصينية كان حتما يتوجه إلي الكنفوشية باعتبارها مدرسة ممثلة للفلسفة الصينية وثقافـــتها ويغفل عن بقية المدارس وخاصة المدرسة الداوية. وهذا إلي حد كبير انحرف عن أحد المجاري الرئيسية للثقافة الصينية ومن جانب آخر غفل عن مكانة مؤسس المدرسة الداوية لوتس وكتابه في تكوين الثقافة الصينية وتأثيرهما في مجالات الحياة لشعب الصين ، فلوتس و كتابه (داو ده جين) في خارج الصين لم ينالا مكانا كما ينبغي لهما.

وأمـــا العرب والمسلمون خارج الصين عموما فلم تتح لهم فرصة لدراسة لوتس وكتابه لعدم توفـــر الكتابات عنهما باللغة العربية، ولعلنا نجد في بعض الكتب إشارة عابرة عنهما لا تشفي غليل من يرغب في معرفة الثقافة الصينية بصورة كاملة.

ولذلـــك نـــري أنـــه من حقنا أن نقدم للقراء العرب ترجمة عربية لكتاب (داو ده جين) وتكـــون خدمة متواضعة منا لهم ولعلم مقارنة الأديان ونتمني أن تنفع هذه الترجمة من يريد معـــرفة الثقافة الصينية عموما وتساعد من يقوم بالدراسة الصينية علي فهم لوتس ومدرسته بوجه الخصوص.

نظـــرا إلـــي صـــعوبة فهم النصوص من مجرد الترجمة أضفنا شرحا وتعليقا لكل نص مســـتعينا بكتب التفاسير والتحقيقات ونعاهد أننا قدّمنا أمام القراء صورة صحيحة لفكر لوتس ممـــا وصلنا إليه بالدراسة والبحث ولا نبعد أن هناك رأي يخالف رأينا في قضية من القضايا لأن ذلك الخلاف أمر وارد بين الباحثين في كل المسائل.

وبمـــا أن الكـــتاب غريب على القراء المسلمين كتبت تمهيداً طويلا أرمي به إلي التعريف بالكتاب ومؤلفه وأهم مصطلحاته حتي تكون للقاري معرفة شاملة عن الكتاب من البداية فيفهم النصوص علي وجه صحيح عند القراءة.

ومن جانب آخر فإن فكرة لوتس لغموضها أثارت شكوكا واختلافات في العصر الحديث كمـــا وجّـــه إليه بعض سهام التهمة من قبل العلماء المحدثين علي بعض أفكاره فحاولنا أن نكشـــف حقيقة أفكار لوتس من صميم أقواله تجنبا من شروح المتأخرين وتصورات المنتمين إلـــيه وقمـــنا بشيء من المقارنة مع الفكر الإسلامي ولا شك أننا إذا قرأنا كتاب لوتس من وجهة النظر الإسلامية سنجد أشياء لا يجدها الآخرون . .

ولا ننكر أن الدراسات عن لوتس وأفكاره قد كونت في الصين مكتبة غنية وتناول العلماء والكتّاب والمؤلفون في القديم والحديث كل جوانب أفكاره ولكن لا يزال هناك جوانب تحتاج إلى البحث والتحقيق من مواقف مختلفة فالدراسة عن لوتس من موقف الإسلام لن تكون دراسة مملة فاقدة الجدوي ولا تكرارا لما سبق بل تكون دراسة مثمرة ولعلنا نكشف بعض حقائق في فكر لوتس ما لم يكشفه الآخرون . وإننا أصلا نعتبر دراسة عقيدة الألوهية في بحثنا قضية جديدة في دراسة لوتس ولم يسبقنا أحد في هذا المجال بالدراسة الموضوعية لتلك المسألة ونتمني أن تكون هذه الدراسة المقارنة جذابة لمن له إلمام عميق بالثقافة الصينية ولمن له إطّلاع واسع بالحضارة الإسلامية بحد السواء .

البحث الذى نقدمه بين أيدى القراء الكرام هو ثمرة عملنا المتواضع ونرجو أننا قد أضفنا لبنة في علم مقارنة الأديان وإننا عشنا مع هذا البحث حوالي ثلاث سنوات.وككل الباحثين صادفنا مشاكل علمية وإدارية أثناء الكتابة وتم البحث بعناية الله سبحانه وتعالي وبتوجيهات الأساتذة الكرام فهناك أسماء لا ينبغي نسيانها في ختام هذا العمل وهي للذين ساعدوني علي إنجاز هذه الرسالة ، منهم مشرفي الحالي الأستاذ الدكتور خالد العلوي ومشرفي السابق الأستاذ الدكتور محمود سلامة كما أوجه الشكر الخصوصي إلي أستاذي الدكتور دين محمد وإلي الأستاذ إبراهيم حماد. جزاهم الله عنا خير الجزاء. ولو عملت شيئا ذا قيمة فيرجع فضل ذلك إليهم جميعا.

وما التوفيق إلا من عند الله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الطالب / أيوب نور الحق . يوم الجمعة ، ٢/٣/٢٠٠٣م . إسلام آباد ـــ باكستان .

فهرست

التمهيد

< داو – ده – جين>[1] و مؤلفه:

إن الكلام عن الكتاب و مؤلفه قد يثير شكوكا و ريبة في نفوس القراء حول قيمة الكتاب و قدر مؤلفه إذ أن الكتاب مع مؤلفه لا يزال محاطا بألغاز لم تحل بعد حلا نهائيا وكان النزاع يدور حول تاريخ تدوين الكتاب وشخصية مؤلفه والأسئلة تطرح علي النحو التالي : متي كتب هذا الكتاب؟ ومن المؤلف ؟ وفي أي عصر كان يعيش ؟

المؤلف:

إن لوتس (Lao zi) شخصية تاريخية و قد طلع كنجمة زاهرة علي سماء العالم الشرقي القديم ويعتبر من أبرز الشخصيات التي أثّرت في طريق تفكير الصينيين عامة والمثقفين منهم بصفة خاصة وعاش في القرن السادس قبل الميلاد و يشير البحث الحديث إلي أنه ولد في سنة ٥٧١ قبل الميلاد ولقد تداول الناس الكتاب أكثر من ألفي سنة وكان القدماء لم يعترهم الشك ولا الريبة في الكتاب والمؤلف وكانوا متيقنين من أن الكتاب للحكيم الصيني لوتس إلا أن بعض الناس في العصور المتأخرة بدأوا يشكون في صحة نسبة الكتاب إليه وفي تاريخ تدوينه حتي شك بعضهم في وجود لوتس نفسه ففي القرن الحادي عشر أبدي بعض العلماء شكوكهم وطرحوا الأسئلة المذكورة إلا أنهم لقلة عددهم لم يقدروا علي خلق الجو العلمي الذي يؤدي إلي الريب الكامل في حين كان الرأي التقليدي سائدا فلم يكن لهم مكان في أوساط العلماء ثم عاد تيار الشكوك في القرن الثامن عشر واشتد النزاع بعد ذلك وقد وصل موقف الشك إلي أوجه في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث انقسم العلماء إلي عدة فرق وناقشوا الموضوع من وجهة نظرهم علي المستوي العلمي ولا يزال الجدال قائما إلي اليوم.

وكل ما نعرفه عن الكتاب وعن مؤلفه هو ما يحدثنا به أقدم مؤرخي الصين " سي ما چيان"(٨٥Si machian ق.م – ٤٥ ق.م) في كتابه< التسجيل التاريخي > بالفقرة القصيرة التي هي بمثابة المرجع الأصلي لحياة لوتس و هي ما يعتمد عليه كل من يبحث عن لوتس و حياته .

و يحسن بنا أن ننقل تلك الفقرة بكاملها قبل استعراض آراء العلماء في الموضوع لكيلا نقع في قيل و قال و يكون لدينا حجة علي ما نحكم عليه .

---

[1] Dao De Jing

يقول (سي ما چيان) : .

" أما لوتس(Lao zi) فهو من أبناء "چيو رين لي" (Chu Ren Li) و البلدة " لي" (Li) في المحافظة الملكية " كو" (Ku) بالمملكة " چيو" (Chu) و كان إسم عائلته " لي" (Li) و إسمه " عه" (Er) و لقبه " دن" (Dan) و كان مديرا لدار الكتب المحفوظة في عهد الأسرة " جيو" (Zhou) .

وصل كنفوشيوس(Kun fuzi) إلي المملكة "جيو" (Zhou) و إستفسر عن اللآداب من لوتس و قال لوتس :" إنما تقول بأن الإنسان يفني مع عظامه و يبقي كلامه وأن الرجل الشريف إذا كان محظوظا يطير و إذا كان غير محظوظ يمشي بائسا و متعبا ، وإني سمعت أن التاجر الماهر يخفي ثروته ويظهر كفقير وأن الرجل الشريف الفاضل يظهر مظهر السفيه فعليك أن تبتعد عن التكبر و الشهوات وإنها لا تنفع جسمك . وكل ما أقوله هو هذا" و لما عاد كنفوشيوس إلي بلده قال لتلاميذه :" إن الطيور أعرف أنها تقدر علي الطيران و الأسماك أعرف أنها تقدر علي السباحة و أن البهائم أعرف أنها تقدر علي الجريان ... أما التنين فلا أعرف كيف يصعد إلي السماء راكب الرياح و السحاب و اليوم لقيت " لوتس " كأني رأيت التنين".

إن لوتس يشتغل ب"داو" و "ده" و من تعاليمه إهتمام بالخفاء الذاتي و إخفاء الإسم .

و قد أمضي أكثر أوقاته في المملكة "جيو " (Zhou) و لما رآها تنحط فارقها و عندما وصل إلي الحدود ألح عليه أحد حراس الثغر يقال له " يين شي" (Yin Xi) قائلا : الأستاذ العظيم ! إنك ستختفي و عليك أن تكتب لي كتابا فألف كتابا ذا فصلين : الفصل العلوي والفصل السفلي يبين فيهما معاني "داو" و "ده" بخمسة آلاف كلمة ثم انسحب إلي حيث لم يعرف أحد مصيره .

وقيل إن " لو لي تس "(Lao Lai Zi) أيضا من أبناء مملكة " چيو" (Chu) وكتب خمس عشرة مقالة يتحدث فيها عن فضائل المدرسة الداوية و كان معاصرا لكنفوشيوس . وعلي هذا يكون لوتس عاش أكثر من مائة و ستين سنة و قيل أكثر من مائتين و كان يشتغل ب"داو" و بحفظ الحياة.

و بعد موت كنفوشيوس بمائة و تسعة و عشرين سنة إلتقي موظف مملكة "چيو" و هو" دن" بالملك "چين شيان قون (Ching Xian Gong) وقال :كانت مملكة "چين " (Chin) تتحد مع مملكة "جيو"(Zhou) في البداية ثم إنفصلت و بعد الإنفصال بخمسمائة سنة إتحدت معها مرة أخري و بعد سبعين سنة من الإتحاد ظهر الطغاة .

و قيل إن "دن " هو لوتس و قيل لا و لا يعرف أحد من العلماء حقيقة ذلك .

و إن لوتس رجل متنسك و إبنه يقال له "جون" (Zong) و كان قائد الجيش في مملكة "وي" (Wei) و نال منصبا عند " دوان قان" [2] (Duan Guan) و إبن "جون"(Zong) يقال له " جو" (Zhu) و إبن "جو" يقال له " قون" (Gong) و حفيد " قون" من الجيل الرابع يقال له " جا" (Jia) و إشتغل(جا) في حكومة الملك" شياو وون" (Xiao Wen) في أسرة " خان" (Han) و إبن "جا" يقال له " جه" (Jie) و كان "جه" سلطانا في منطقة " جاو سي " (Jiao Xi) و يقيم في مملكة "جي" (Chi) .

و الذين هم علي تعاليم لوتس كانوا يعيبون المدرسة الكنفوشية كما أن الكنفوشية كانت تعيب لوتس و ذلك أنه "يختلف الطريق فلا يوجد الإتفاق بينهم" أليس كذلك ؟ إن " لي عه" (Li Er) يقوم ب"عدم الفعل" فيصلح بنفسه و كان صفيا و يستقيم بنفسه ---إنتهي

و هذا ما سجل لنا المؤرخ في كتابه < التسجيل التاريخي > عن لوتس و الجدير بالذكر أن المؤرخ نفسه كان معاصرا لحفيد لوتس من الجيل الثامن و هو "جه"(Jie) ومحبا للوتس و معجبا بأفكاره[3] فلا بد من أن يكون له إتصال وثيق مع أسرة لوتس. ومن هنا نتأكد أن ما سجله "سي ما جيان"(Si Ma Chian) عن لوتس كان خبرا صادقا وقد كتب ماعرفه أو سمعه ولكن التسجيل عن شخصية لوتس لا يزال يتضمن بعض المبهمات كأن المؤرخ نفسه كان مضطربا بين ثلاثة أسماء فانفتح باب الشك والنقاش حتي ظهرت الأراء المتضاربة عن شخصية لوتس و يتلخص النزاع في النقاط التالية : من هو لوتس ؟ متي عاش ؟ هل كان قبل الحكيم كنفوشيوس أم بعده ؟ هل هو الذي ألف كتاب داو- ده-جين ؟ و متي ؟

و حول هذه المسائل إنقسم العلماء إلي عدة فرق و سنعرض فيما يلي آراء هم ومواقفهم .

و قبل أن نعرض آراء كل الفرق مع حجتها علينا أن نستنتج من التسجيل السابق أهم الحقائق التاريخية وهي :

(١) إن لوتس رجل تاريخي عاش في آخر عهد الأسرة " جيو" (Zhou حوالي القرن السادس قبل الميلاد) و عمل مديرا لدار الكتب المحفوظة الملكية.

(٢) إن الحكيم كنفوشيوس إلتقي بلوتس و إستفسره عن أحكام الشريعة فكان لوتس معاصرا لكنفوشيوس وقد يكون أكبر منه بعشرين سنة كما يقال .

---

[2] أحد الأمراء في ذلك الوقت .

[3] Ma Zhong: المناهج الكبري للحكماء الصينية ، المطبعة الشعبية في شان سي ، ١٩٩٣م ص: ٦٣٢

(٣) إنه ألف كتابا ذا فصلين وهو ما يعرف فيما بعد ب "داو –ده –جين" (Dao de jing) وكان زاهدا متنسكا واختفي في أخر حياته ولم يعرف أحد مصيره .

و هذا أقل ما يمكن أن نفهم من التسجيل بل هو ما يهمنا أكثر في موقفنا من هذه المسائل وهذه هي حقيقة لوتس تحت قلم المؤرخ وأما الإشكال فيرجع إلي ركاكة العبارات في التسجيل إذ إن المؤرخ ذكر ثلاثة أشخاص و هم (لوتس) و(لو لي تس) و (دن) مما يجعل القراء يظنون أن المؤرخ نفسه يشك في هذا الأمر ولكن لو قرأنا العبارة قراءة دقيقة ليتضح لنا أن المؤرخ لم يشك في شخصية لوتس ولا فيما عرفه عن حياته و أعماله وقد ذكر مسقط رأسه و عصره ونهاية حياته بل ذكر سلسلة أحفاده حتي عصره هو . ونأخذ من هذا أن المؤرخ لم يلتبس عليه الأمر بل يتيقن من أن لوتس هو الذي قابله كنفوشيوس واستفسره بعض الأمور والذي ألف كتاب (داو—ده—جين) وإنما ذكر الرجلين الآخرين لتشابه اسميهما وشيوع إلتباس الناس بهما.

وعلي كل حال فبعص الناس أنكروا هذه الحقيقة لأسباب وأغراض شتي وأثاروا النزاع حتي إنقسم العلماء في هذه القضية إلي عدة فرق :

الفريق الأول:

أصحابه يرون أن لوتس فعلا عاش في آخر عصر "الربيع و الخريف"[٤] (في أسرة "جيو" حوالي القرن السادس قبل الميلاد) و كان معاصرا لكنفوشيوس بل أكبر منه و استفسره كنفوشيوس عن الشريعة و هذا هو الرأي التقليدي و مذهب القدماء وكثير من العلماء في الوقت الحاضر والذي أميل إليه .

حجتهم :

(١) تتفق الرواية في كتاب <التسجيل التاريخي > مع التسجيلات في الكتب الكنفوشسية علي أن لوتس معاصر لكنفشيوس بل أكبر منه والتقي كنفوشيوس بالحكيم لوتس واستفسره عن الشعائر .[٥]

(٢) إن المؤرخ سجل مسقط رأس لوتس بالتفاصيل و يدل هذا علي أنه لم يشك في شخصيته وفي قصة اللقاء بين الحكيمين [٦].

---

[4] هنا نشير إلي مفهوم مهم لفترة زمنية في تاريخ الصين و هو عصر "الربيع و الخريف" و هو فترة زمنية معينة بدأت من سنة ٧٧٠ قبل الميلاد و إنتهت السنة ٤٧٥ قبل الميلاد و سميت بهذا الإسم علي أساس كتاب مسمي بهذا الإسم و هو الكتاب الذي يبحث فيه القضايا السياسية و الإجتماعية ما بين سنة ٧٧٠ ق .م و سنة ٤٧٤ ق .م فسمي العصر المبحوث باسم الكتاب .

[٥] أنظر Gu Li : حديث عشرة أيام عن لوتس ، المطبعة الفنية في مقاطعة لن خون ١٩٩٤م ص:٧

[٦] أنظر المرجع السابق. ص: ٥-٧

(٣) حفيد لوتس من الجيل الثامن كان يعمل في حكومة أسرة "خان"(Han) مع حفيد كنفوشيوس من الجيل الثاني عشر أو الثالث عشر وكانا معاصرين للمؤرخ ولم يكن بينهما خلاف في تاريخ آبائهما وهذا إن دل علي شيئ فإنما يدل علي وجود شخصية لوتس تاريخيا.

(٤) كتاب <جوان تس > الذي كتب في القرن الرابع قبل الميلاد ذكر اسم لوتس وأشار إلي بعض أقواله كذلك فعله كتاب < خان في تس > الذي كتب في القرن الرابع قبل الميلاد و هذا شاهد علي أن لوتس قد عاش قبلهما و له كتاب كان يتداول في أيدي الناس حينذاك [٧] .

(٥) في كتاب< الحوار> الذي هو بمثابة أحاديث كنفوشيوس ذكر بعض الأقوال المقابلة لأقوال لوتس مثلا قال كتاب الحوار : " يسأل ، هل يقابل العدوان بالفضيلة أم كيف ؟ قال كنفوشيوس :كيف يقابل العدوان بالفضيلة ؟ فليقابل العدوان بالعدل و يقابل الفضيلة بالفضيلة" .

ومن المعروف أن عبارة "يقابل العدوان بالفضيلة" كانت مأخوذة من كلام لوتس ويتبين من هذا أن كنفوشيوس قد عرف لوتس و أفكاره و أقواله [٨] ويدل علي أن لوتس سابق علي كنفوشيوس أو علي الأقل معاصر له .

هذه بعض الحجج التي اعتمد عليها من يري أن لوتس رجل تارخي عاش في القرن السادس قبل الميلاد معاصرا لكنفوشيوس بل أكبر منه .

أما الفريق الثاني فيري أن لوتس عاش متأخرا في عصر "الدول المتحاربة "[٩](حوالي القرن الرابع قبل الميلاد) و أنه ظهر بعد كنفوشيوس بزمن و أما القصص التي تقول بالتقاء الحكيمين فهي قصص مكذوبة تهدف إلي رفع مكانة لوتس .

و حججهم كما يلي [١٠] :

(١) كل من " كنفوشيوس" (Kong fuzi ٥٥١ ق.م--٤٧٩ ق.م) و" منغ تس" (Men zi ت ٣٧١م ق.م) و " مه تس" (Mo zi ٤٧٩ ق.م --٣٨١ ق.م) لم يذكروا شيئا عن اسم لوتس و هم مؤسسو المدارس الفكرية و لهم الاختلافات مع المدرسة الداوية ولو كان لوتس سابقا عليهم لذكروه في كتاباتهم .

---

[٧] أنظر Ren Ji Yu : الشرح الجديد للوتس ، المطبعة للكتب القديمة بالمدينة شان هاي ١٩٨٧م ،ص: ٢

[٨] أنظر Gu Li : حديث عشرة أيام عن لوتس ، ص: ١٦

[٩] وهو فترة زمنية بدأت من السنة ٤٧٥ ق.م و إنتهت إلي السنة ٢٥٦ ق.م و ظهرت في هذه الفترة دويلات كثيرة تتحارب بعضها بعضا فسميت هذه الفترة بعصر الدول المتحاربة .

[١٠] ذكرت هذه الحجج في <الشرح الجديد للوتس> Ren Ji Yu ص:٥-٧

(٢) حفيد لوتس من الجيل الثامن يعاصر حفيد "كنفوشيوس" من الجيل الثالث عشر وهذا يدل علي أن لوتس عاش متأخرا عن كنفوشيوس .

و قد رد علي هذه الحجة أناس كثيرون بأن ذلك لا يبطل معاصرة الحكيمين إذ لا تبعد معاصرة أجيال مختلفة من أصل واحد ولا سيما من أصول مختلفة .

(٣) إن كلا من كتاب <التسجيل التاريخي > و < جوان تس > اللذين سجل فيهما حياة لوتس ليس من الكتب التاريخية بل هي كتب أسطورية فالحكاية عن لوتس ليست صادقة .

و قد رد علي هذه الحجة بأن كتاب < التسجيل التاريخي > من الوثائق التاريخية المعتمد عليها منذ القدم إلي اليوم .

(٤) بعض الأقوال في داو-ده-جين لا يشبه أقوال الناس في القرن السادس من ناحية الحماسة و الحرية .

(٥) كتاب < الحوار > لكنفوشيوس يعتبر أقدم الكتب الشخصية [11] فلا يكون داو-ده-جين أسبق منه .

(٦) إن كتاب <التسجيل التاريخي > ذكر رجلا يقال له (دن) الذي عاش بعد موت كنفوشيوس بمائة و تسع و عشرين سنة و هو في الحقيقة لوتس .

و قد رد علي هذا بأن المؤرخ ذكر ثلاثة أشخاص لتشابه أسمائهم أو وظائفهم و لم يقل بأن (دن) هو الذي كتب داو-ده-جين .

(٧) إن "داو-ده-جين" رد علي بعض أفكار كنفوشيوس مثل تعظيم الآداب و المحبة كما نقد بعض أفكار "مه تس" الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد فيما يتعلق بتعظيم الحكماء و تعظيم العدل و يدل هذا علي أن "داو-ده-جين" ظهر بعدهما وخاصة ظهر بعد القرن الخامس قبل الميلاد .

بناء علي هذه الحجج يري هذا الفريق أن لوتس عاش في عصر "الدول المتحاربة " (القرن الرابع ق.م) بعد كنفوشيوس و يرد بعض الناس تاريخه إلي ما بعد القرن الرابع .

و المهم أن خطورة القضية ليست في مسألة قرنين من الزمن و إنما الأمر يتعلق بمسألة أصالة الفكرة الداوية و مشربها و من جانب آخر أن الرأي الأخير يبطل كل الروايات المعتمدة والآراء التقليدية عن لوتس ومكانته كما يبطل أسبقية لوتس و مكانة المدرسة الداوية وينكر التاريخ المعروف الذي يعتمد عليه الناس منذ القدم .

---

[11] قد شاعت الحكاية بين الناس منذ القديم أن كنفوشيوس هو أول من فتح المدرسة الأهلية في تاريخ الصين و أول كاتب غير حكومي ويبدو من هذا أن العلماء كانوا لا يكتبون إلا الوثائق الحكومية أو يكتبون التاريخ ويسجل الأحداث السياسية تحت توظيف الحكومة وليس لهم مؤلفات شخصية فيحكي أن كنفوشيوس أول من ألف كتابا بنفسه من غير توظيف الحكومة .

الفريق الثالث و هم أصحاب الديانة الداوية (Religious Taoism):

إنهم يؤمنون بأن لوتس هو الإله الأعلي و كان أزليا و أبديا و يتجسد في كل عصر ليقيم الدين وقد ظهر علي الأرض متجسدا عدة مرات قبل كنفوشيوس كما يتجسد بعده في كل العصور .

لذلك لم يهتم أصحاب الديانة الداوية بحياة لوتس في زمن معين بل يؤمنون بأنه موجود في كل مكان و زمان [١٢] و من ثم لم يخوضوا في النزاع الذي دار بين العلماء خارج دائرة الديانة الداوية .

لكن الأساطير الشعبية قد أحاطت هذا الحكيم بالأعاجيب والخوارق التى وضعت فيما بعدُ تهدف إلى رفع شأن لوتس على نحو ما فعله البوذيون لبوذا كما روى فى بعض الكتب الداوية أن النجم نزل على العذراء ـــــ أم لوتس في زمن قديم فحملت وبقى لوتس فى بطن أمه اثنين وسبعين عاماً وفى الرواية الأخرى واحدا وثمانين عاما ثم شق جنب أمه الأيمن فخرج من البطن مشتعل الرأس (لذلك أطلق عليه اسم لوتس بمعنى الطفل المتشيخ) واتفق أن وردت أمه تحت شجرة برقوقة عند الولادة ولم يخرج لوتس من بطن أمه إلا وكان يتكلم وقال مشيرا إلى شجرة البرقوقة : هذا يكون اسم عائلتى فجعل اسم عائلته " لي"(Li)[١٣] وفى الرواية الأخري أنه لما خرج من بطن أمه قال مشيرا إلى السماء ثم إلي الأرض: "أنا أعظم ممن فى السماء والأرض"[١٤] .

ويزعم بعض الكتب أن لوتس بعد الانسحاب من ميدان الحياة ذهب إلى الهند وعلم بوذا علوما و قيل إن بوذا هو نفس لوتس و ظهر فى صورة بوذا.

فعلي هذه الأسطورة يكون بوذا من أحد تجسدات لوتس وإن لوتس عند هذا الفريق يكون الإله الأعلي و يتجسد في كل عصر و زمن .

إضافة إلي الآراء المذكورة هناك من يري أن لوتس ليس شخصية تاريخية بل أسطورية صنعها كتاب < جوان تس > و لم يقبل هذا الرأي إلا أناس قليلون ولم تأخذه الأوساط العلمية مأخذ الجد إذ إنه لا يوافق الحقائق التاريخية ولم يبن علي أدلة مقنعة .

---

[١٢] انظر رسالة الماجستير للباحث ، ص: ١٥٣

[١٣] البرقوقة يقال لها (لي) باللغة الصينية .

[١٤] < تاريخ الداوية> ،وا ده جون ، مطبعة الترجمة ب شان هاي ١٩٧٨م ، ص : ٣٨

بعد إستعراض هذه الأقوال عن تاريخ لوتس علي اختلاف الآراء يبدو لي أن الفريق الأول كان علي الصواب فإن لوتس شخصية تاريخية عاش في القرن السادس قبل الميلاد و كان معاصرا لكنفوشيوس بل أكبر منه بعشرين سنة . لأن رواية <التسجيل التاريخي> ليست عبثا بل قامت علي الشواهد القاطعة و الأخبار الصادقة مع أن المؤرخ نفسه كان معاصرا لحفيد لوتس من الجيل الثامن والتاسع فلا يتصور أنه كان يكذب أو كان إخباره غير صادق ومن جانب آخر إن لوتس مؤسس المدرسة الداوية وله أتباع في حياته وبعد مماته كما كان له خصوم في مجالات فكرية فهو شخصية مشهورة معروفة لدي الناس منذ وقت حياته ولا يتصور أن يزيف أحد تاريخه .

قد أثبتت بعض البحوث الحديثة أن لوتس ولد في سنة ٥٧١ قبل الميلاد في المحافظة "كو" (Ku) بالمملكة "جو" (Chu) و هي حاليا المحافظة " لو يي" (Lu Yi) بمقاطعة "خه نان" (He Nan) في وسط الصين الحالية وعاش عمرا طويلا وقضي نحبه في الزهد و الخفاء.

قد اهتم بدراسته العلماء بالغرب في العصر الحديث باعتباره أحدا من ممثلي الثقافة الصينية القديمة أو مؤسس إحدي المدارس الفكرية ولما ترجم كتابه إلي اللغات الغربية أثار موجا غير خفيف في أوساط العلماء والمثقفين وأعجب كثير منهم بعمق فكره ودقة نظره فنجد بعض العلماء المشهورين في الغرب قد عرفوا شيئا عنه وعن أفكاره ومدرسته وعلي سبيل المثال كان الفيلسوف الألماني هيقل يوجّه اهتمامه الخاص إلي فلسفة لوتس ولا شك أنه قد أعجب بها لما قرأها حتي علّق عليها ويبدو أن معرفته به ليست يسيرة . فأصبح لوتس اليوم شخصية عالمية .

كتاب داو –ده–جين (Dao De Jing):

إن " داو –ده – جين " الذي نحن بصدده هو كتاب ينسب إلي الحكيم لوتس وهو أهم الكتب للمدرسة الداوية و بمثابة الكتاب المقدس للديانة الداوية وإنه صغير الحجم وقصير الفصول حيث يحتوي علي خمسة آلاف كلمة ويقسم حاليا إلي واحد و ثمانين فصلا و

اشتهر منذ القدم باسم "خمسة آلاف كلمة" أو " لوتس"(سمي باسم المؤلف كما هو شائع عند القدماء) أو " داو—ده—جين " [15].

إن هذا الكتاب هو الذى وضع العقائد الأساسية للديانة الداوية كما وضع حجر الأساس للنظرية الفلسفية الداوية ، وليس هذا فحسب وإنما أثر هذا الكتاب في كل مجالات الحياة لأصناف الخلق بالصين إذ يقرؤه الناس من كل الطبقات كمصدر الحكمة ويستفيدون منه قل أو كثر وفي الحقيقة إنه كتاب موجز يتيسر الإطلاع عليه لصغر حجمه ولكنه شامل وعميق ويحتوي كل عباراته علي وجوه متعددة تكاد تستجيب لكل من يرجع إليه ويجد كل واحد فيه ما يشفي غليله فاتخذه الفلاسفة أصلا لهم لبيان الحقائق الكونية واتخذه متدينون مصدرا مقدسا لهم لإقامة عقائدهم الدينية واتخذه الأخلاقيون أساسا لهم للدعوة إلى السلوك الحسن والأعمال الصالحة واتخذه السياسيون مرجعا لهم في حل المشاكل الواقعية وإصلاح الفساد الاجتماعي حتي يأخذه علماء الصحة سندا لهم لاستخراج الطرق الرياضية لاكتساب الخلود و لذلك قيل إنه " دائرة معارف في أوجز صور " .

كما أن شخصية لوتس أثارت نزاعا شديدا في أوساط العلماء منذ زمن طويل كان النزاع لا بد من أن يتعدي إلي تاريخ تأليف الكتاب "داو –ده–جين" لشدة الارتباط بينهما لأنه علي القول المأثور ينسب إلي لوتس فمن الطبيعيَ أن يثير النزاع حول الكتاب كذلك .

و قبل أن نستعرض أراء العلماء مع حججهم في الموضوع لنرجع إلي المصدر الأصلي لتاريخ الصين و هو <التسجيل التاريخي > لنستشهد به علي الحقيقة التاريخية المتعلقة بكتاب "داو—ده – جين " فنري أن المصدر الأصلي يثبت بالصراحة أن لوتس ألف كتابا ذا فصلين : الفصل العلوي و الفصل السفلي و يتحدث فيهما عن "داو" و "ده" .

هذا الوصف ينطبق مع "داو–ده–جين" الموجود لدينا اليوم لأنه في القديم يقسم إلي قسمين :القسم الأول يتحدث عن "داو" و القسم الآخر يتحدث عن" ده" . فلا نشك في أن الكتاب الذي لدينا اليوم هو ما قاله المؤرخ.

من جانب آخر أن المؤرخين والعلماء القدماء لم يشكوا في أن لوتس ألف كتاب داو ده جين كما لم يشكوا في نسبة الكتاب المتداول إلي لوتس. ولكن تغير الوضع بعد القرن الحادي عشر و بدأ بعض الناس يشكون في الكتاب و مؤلفه .

إن رجلا عاش في القرن السادس الميلادي لأول مرة أبدي شكه في نسبة الكتاب إلي لوتس و لكن في العصر الذي كان الرأي التقليدي فيه سائدا لم ينتبه إليه أحد .

[15] من المعروف أن لوتس نفسه لم يسم بهذه الأسماء ويبدو أنه لم يكن له إسم في البداية فسمي فيما بعد حسب عدد الكلمات أو باسم المؤلف و أما الاسم "داو –ده—جين " فجاء متأخرا حسب أهم مضمون في الكتاب إذ أنه يتحدث أساسا عن "داو" و "ده" وقيل إن هذا الإسم ظهر حوالي القرن الثالث الميلادي .

ثم انتشر الشك في أوسع نطاق بعدالقرن الثامن عشر و وصل النزاع إلي أشده في الثلاثينات من القرن العشرين حتي يكاد يتفق العلماء علي تكذيب ما سجله كتاب < التسجيل التاريخي > من أن لوتس معاصر لكنفوشيوس و يرون أن الكتاب يرجع تأليفه إلي عصر "الدول المتحاربة" [١٦] وهو عصر يلي عصر كنفوشيوس(حوالي القرن الرابع) و بذلك أنكروا حادثة لقاء كنفوسيوس مع لوتس و استفساره منه كما أنكروا أصالة الفكر الداوي .

لكن في الوقت الحاضر ظهر كثير من العلماء يؤيدون الرأي التقليدي من أن داو ده جين من تأليف لوتس الذي تعلم منه كنفوشيوس في أواخر عصر الربيع و الخريف .

الجدير بالذكر أن أصحاب الديانة الداوية يؤمنون منذ البداية بأن لوتس هو الإله الأعلي و أن هذا الكتاب هو الوحي منه .

علي كل حال بعد ظهور النزاع حول شخصية مؤلفه صار الكتاب مشكوكا فيه عند بعض الناس و حول هذه القضية انقسم العلماء إلي عدة فرق.

الفريق الأول :

هم الذين يرون أن لوتس عاش معاصرا لكنفوشيوس في القرن السادس قبل الميلاد ولكن الكتاب داو–ده–جين ليس من عمل يده بل نتيجة تطور أفكاره علي أيدي أتباعه أو هو من أقواله وجمعها أتباعه من بعده في صورة الكتاب [١٧] .

الفريق الثاني يرون أن لوتس كان يعيش في عصر الدول المتحاربة و الكتاب هو ما ألفه لوتس بيده .

الفريق الثالث وهم علي الرأي التقليدي يرون أن لوتس عاش في عصر الربيع و الخريف و أن الكتاب فعلا من عمله [١٨] .

الفريق الرابع هم أصحاب الديانة الداوية الذين يؤمنون بأن لوتس هو الإله الأعلي الموجود من الأزل و ينزل إلي الدنيا بين حين و آخر متجسدا ليلقي وحيه علي من يشاء ويقيم دينه علي الأرض

فالكتاب داو ده جين هو ما أوحاه علي رجل يقال له" يين سي "(yin xi) من أجل إقامة دينه.

---

[16] وهو فترة زمنية بدأت من السنة ٤٧٥ ق.م و إنتهت إلي السنة ٢٥٦ ق.م و ظهرت في هذه الفترة دويلات كثيرة تتحارب بعضها بعضا فسميت هذه الفترة بعصر الدول المتحاربة .

[١٧] انظر <الشرح الجديد للوتس> Ren Ji Yu ص:٢

[١٨] انظر Gu Li : حديث عشرة أيام عن لوتس ، ص:١٨

ولكني أميل ----كما ذهب كثير من العلماء ----- إلي ما سجل لنا <التسجيل التاريخي> من أن لوتس كان معاصرا لكنفوشيوس بل أكبر منه و ألف بيده الكتاب داو ده جين ولكن أري أنه لايستبعد أن بعض الكلمات قد غير بمرور الزمان أو أدخل بعض الكلمات علي أيدي الأتباع من بعده إلا أن أصل الكتاب كان من تأليف لوتس والدليل علي ذلك أننا وجدنا العلماء في القرن الرابع قبل الميلاد قد ذكروا بعض النصوص من الكتاب "داو ده جين" يستدلون بها كما أنه لدينا شرح لهذا الكتاب من أحد علماء القرن الثالث قبل الميلاد وهو "خان في تس " (Han Fei zi ٢٨٠ ق.م---٢٣٣ق.م) الذي شرح الكتاب في مجلدين :< تفسير داو ده جين > و< تأويل داو ده جين > وإن كان شرحه لم يكن كاملا بل كان لجزء من الكتاب إلاّ أن النصوص المشروحة كلها موجودة في نسخ لدينا حتي اليوم مع اختلاف بسيط في بعض الكلمات و ترتيب الفصول وكذلك في القرن الرابع قبل الميلاد ظهر شرح كامل للكتاب علي يد العالم المشهور "خه شان قون" (He shang gong القرن الرابع قبل الميلاد) .

يدل لنا هذا علي أن النسخة الكاملة كانت منتشرة ومتداولة علي أيدي الناس في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فلا يستبعد أنه يرجع إلي عمل من كان يعيش في القرن السادس قبل الميلاد و هو لوتس .

أقدم النسخ لكتاب داو ده جين :

لقد مر علينا أكثر من خمسة و عشرين قرنا من الزمن بعد ما اختفي لوتس ومن المعروف أنه ألف كتابا ذا فصلين ولكن ليس لدينا اليوم ما كتبه لوتس بيده ولذلك شب النزاع علي نحو ما ذكرناه آنفا و كل ما لدينا هو ما نسخه المتأخرون منسوبا إلي لوتس ولم نعرف نصوص الكتاب إلا من كتب المتأخرين أو ما نسخه العلماء بعد قرون من وقت التأليف وإن الكتاب لصغر حجمه و عمق مضمونه لم يكن يوما كتابا مستقلا بل بقي دائما مع بعض شروحه و الشروح المختلفة حفظت لنا نصوصا بطريقة أو أخري ويحسن بنا أن نذكر بعض كتب التفاسير والعلماء الذين نقلوا إلينا نص الكتاب وكان سعيهم مشكورا :

"جوان تس " (Zhuang zi, ٣٦٩ق.م---٢٨٦ق.م) من علماء القرن الرابع قبل الميلاد وكان عالما وفيلسوفا وقد تأثر بلوتس تأثرا عميقا بل ورث أفكاره ثم طور فكر لوتس علي

يديه فكان مكملا للأفكار الداوية ولذلك يعتبر من مؤسسي الفلسفة الداوية وإنه ألف كتابا معروفا ب<جوان تس>[19] يبين فيه أفكار لوتس و مبادئ الفلسفة الداوية و قد ذكرفي كتابه بعض النصوص من الكتاب< داو ده جين> و هو أقدم كتاب ذكر فيه إسم لوتس و أشار إلي أقواله و أفكاره. ولكن هذا الكتاب نفسه مثل كتاب (داو—ده – جين) هو مدار خلاف بين العلماء حول المؤلف و وقت التأليف إذ يرجع أقدم نسخه إلي عصر متأخر وإنما عرفنا وجوده من < التسجيل التاريخي > . وعلي كل حال هذا الكتاب هو أحد الشواهد التي تعيننا علي معرفة نصوص (داو—ده –جين).

ثم شرح "خان في تس"(Han fei zi, ٢٨٠ق.م---٢٣٣ق.م) كتاب "داو ده جين" وهو من علماء القرن الثالث قبل الميلاد وقد شرح الكتاب في مجلدين :< تفسير داو ده جين> و < تأويل داو ده جين > غير أن شرحه لم يكن شاملا لجميع النصوص بل جزءا منه ولا يزيد علي ألف كلمة و علي الرغم من هذا فإن النصوص المشروحة كلها موجودة في النسخ الموجودة لدينا مع اختلاف بسيط في بعض الكلمات و ترتيب الفصول وإنه حفظ لنا جزءا من نصوصه .

شرح "خه شان قون"(القرن الرابع قبل الميلاد) الكتاب بكامله ولأول مرة سجل لنا جميع النصوص حتي نري صورته الكاملة و لكن أقدم نسخة لهذا الشرح لدينا اليوم يرجع تاريخ نسخها إلي القرن السادس الميلادي علي يد أحد الرسامين المشهورين و ينسب إلي "خه شان قون" مما جعل الناس يشكون في صحة هذه النسبة .

ثم جاء علي إثره علماء فسروا الكتاب مرة بعد مرة إلي أن ظهر العالم المشهور" وان بي " (Wang bi, ٢٢٦م ----٢٤٩م) و فسر الكتاب و كان تفسيره أكثر إنتشارا في أوساط العلماء حتي لشهرته كاد النص الذي اعتمد عليه يصبح نصا معياريا ومرجعا أصليا لكتاب "داو ده جين" لمن جاء بعده إلي يومنا هذا ويعتبر هذا الشرح مع النص من أقدم النسخ لكتاب "داو—ده –جين" بغض النظر عن نسخه المختلفة .

هولاء العلماء قد ساهموا مساهمة عظيمة في دراسة الكتاب و في بحث علمي للفلسفة الداوية و من جانب آخر و هو الأهم أنهم حفظوا لنا نصا كاملا لكتاب "داو ده جين " حتي تيسر للناس أن يقرؤوا الكتاب علي صورته الأولي و كانت النصوص المحفوظة في تفسير "خه شان قون" و تفسير" وان بي" أكثر تداولا يتناقلها العلماء جيلا بعد جيل إلي الوقت

[19] سمي الكتاب باسم المؤلف كما هو معروف عند القدماء و يبدو أن المؤلفين القدماء لا يضعون إسما لكتبهم فيسمي كتبهم بأسمائهم من جاء بعدهم .

الحاضر و هذه النسخ من التفاسير تعتبر منذ قرون أقدم الكتب التي نقلت إلينا نصوص الكتاب .

أما اليوم فلدينا ما أكتشف في سنة ١٩٧٣ في أحد القبور القديمة وكان مدفونا في القبر كالأضحية للميت كما هي العادة عند الصينيين و هي عبارة عن نسختين من نصوص كتاب "داو-ده-جين " مخطوطة علي قماش و أثبت العلماء أن إحداهما يرجع تاريخ نسخها إلي ما بين سنة ٢٠٦ ق.م و سنة ١٩٥ ق.م و الأخري إلي ما بين سنة ١٧٩ ق.م و سنة ١٦٩ ق.م .[٢٠] و لكن لطول الدفن في القبر و فساد القماش الذي كتب عليه نص الكتاب سقطت بعض الكلمات من كل واحد منهما غير أنهما يتدارك أحدهما الآخر حتي نحصل علي صورة شبه كاملة للكتاب .

ثم أكتشفت في سنة ١٩٩٣م نسخة أخري في أحد القبور القديمة مخطوطة علي قطع من القصب وإن كانت غير كاملة لفقدان بعض القطع القصبية ويثبت العلماء أن الكتاب دفن في القبر ما بين القرن الرابع والثالث قبل الميلاد[٢١] ويثبت هذا أن الكتاب نفسه أقدم من وقت الدفن .

من العجب أن النصوص المكتشفة في هذه المخطوطات لا تختلف كثيرا عن النصوص الموجودة في النسخ المتداولة لدي الناس اليوم.

و باكتشاف هذه النسخ القديمة تتقارب آراء العلماء إلي أن أصل الكتاب هو ما ألفه لوتس بيده في عصر " الربيع و الخريف " و هذا يؤيد الرأي التقليدي.

أشهر التفاسير لكتاب داو ده جين

إن "داو ده جين " يعتبر أحد الأسرار الثلاثة من بين الكتب القديمة[٢٢] و أعجب به العلماء في كل العصور وانغمس كثير منهم طوال حياتهم في دراسة هذا الكتاب رغما عن صغر حجمه و بما أنه يحتوي علي ألغازو غموض يتعسر علي الناس فهمها و لذلك ظهرت له التفاسير واحدا بعد الآخر منذ القدم و قد فسره أناس من مختلف الطبقات و الطوائف كالعلماء و الفلاسفة و الملوك و الوزراء و الكهنة و النساك ولا يقل عدد هذه

---

[20] انظر <عشرة أيام للحديث عن لوتس> ل Gu di ، المطبعة الفنية بمقاطعة آن خوي ، ١٩٩٤، ص ٥٥.

[21] <دراسة داو-ده-جين> ، قاو دين يي ، مطبعة معهد المذياع ببكين ، ١٩٩٩م ، ص:٩ .

[22] كتاب <داو ده جين> و كتاب <جوان تس> وكتاب <التغيرات> وهذه الكتب الثلاثة لصعوبة فهمها تعتبر الأسرار الثلاثة

التفاسير المعتمد عليها إلي اليوم عن ثلاثمائة. ونذكر فيما يلي أهم التفاسير مع ذكرأبرز خصائصها .

(١) <تفسير لوتس > و < تأويل لوتس>

هما كتابان من تأليف العالم المشهور "خان في تس" في القرن الثالث قبل الميلاد و قد شرح فيهما نصوص كتاب "داو ده جين" غير أنه لم يشرح النصوص بكاملها بل جزءا منها و لا يتجاوز النصوص المشروحة ألف كلمة وكان الشارح لم يقصد أن يبين معاني النصوص بل إختار منها ما يؤيد رأيه الفلسفي ويناقشه حسب أفكاره الفلسفية و ترك الباقي دون الشرح.
و الكتابان مع عدم إستيعابهما لجميع النصوص يعتبران من أقدم تفاسير "داو ده جين" و من المصادر الأساسية لتحقيق نص الكتاب .

وأبرز خصائص هذا الشرح أن الشارح يشرح النصوص من الناحية الفلسفية و كان موقفه يميل إلي المذهب المادي فلا يذكر النصوص إلا ما يوافق مذهبه[23] و يصرف النظر عن النص الذي فيه معاني روحية و لا يذكر النص الذي يشير إلي أن داو خالق الأشياء وكان يحاول أن يخضع معني النص لمراده نفسه لا مراد المؤلف .

(٢) تفسير خه شان قون :

" خه شان قون" كان عالما رياضيا عاش في منتصف عصر "الدول المتحاربة " حوالي القرن الثالث قبل الميلاد و يحكي أنه كان ناسكا وكاهنا يشتغل بالرياضة البدنية و النفسية بواسطة ضبط التنفس في داخل الجسم فاشتهر في هذا المجال وحكي أنه صاحب تفسير معروف اليوم بتفسير خه شان قون الذي يعتبر أول التفاسير للنصوص الكاملة و كان تفسيره أقدم التفاسير من حيث الزمن ولكن أقدم نسخة له لدينا اليوم هي ما يرجع تاريخ نسخها إلي القرن السادس الميلادي علي يد الرسام المشهور "وان شي تس" (Wang xi zi,321-349م) و نسب إلي "خه شان قون" ولا يزال هناك إشكال أن الكتب القديمة لم تذكر شيئا عن تأليف الكتاب من "خه شان قون" إلا أن رجلا في القرن الثالث بعد الميلاد ذكر أن "خه شان قون " ألف كتابا ونسب ما لديه إلي خه شان قون فعرف بعد ذلك بتفسيره[24] وهذا ما يجعل العلماء يشكون في صحة نسبة الكتاب إليه.
و يري بعض العلماء أن أصل الكتاب لم يكن من عمل يده بل كتبه الناس في القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد ثم نسبوه إليه[25] لأن "خه شان قون" اشتهر في ذلك الوقت بعلمه و منهجه

---

[23] انظر المصدر السابق ص : ٥٩
[24] < دراسة داو -- ده -- جين > ، ص : ١٣.
[25] انظر المصدر السابق ص :٦٢

الرياضي و شاع صيته في الآفاق فلا يبعد أن ينسب إليه بعض الكتب و الأقوال لمختلف الأغراض .

و الرأي المحايد عندي أن أصل الكتاب من "خه شان قون" نفسه إما كتبه بيده أو ألقاه علي تلاميذه ثم تناقلوه شفهيا جيلا بعد جيل وأخيرا دون في وقت متأخر ومن هذا المنطلق لا يبعد أن فيه بعض أقوال المتأخرين كما هو شأن معظم الكتب القديمة .

ميزة هذا التفسير أنه يوضح معاني النصوص بعبارات قصيرة و يشرح النص جملة جملة و وضع لكل فصل عنوانا معينا يطابق مضمونه، و قد قسم الكتاب لأول مرة إلي واحد و ثمانين فصلا مما جعل الناس يحذون حذوه إلي اليوم في تقسيم الكتاب و من أهم أفكاره أنه يدعو إلي حفظ المزاج و ضبط التنفس و الاهتمام بالرياضة البدنية و محاولة لتمديد الحياة ويري أن أصل الكون تنفس و بالتنفس يتحد الإنسان مع الكون فيبقي خالدا . ولذلك يحاول بكل إستطاعته أن يصرف معني النصوص إلي هذه الجهة.

(٣) تفسير " شان عه"

هو ما فسره مؤسس الديانة الداوية " جان داو لين" (Zhang dao ling, مات سنة ١٧٨ م) في القرن الثاني الميلادي و قيل هو من عمل حفيده "جان لو" (Zhang lu سقطت مملكته سنة ٢١٥م) و مهما كان فإن الكتاب له مكانة رفيعة عند العلماء وعامة المعتنقين الداويين إذ يمثل المصدر الأساسي لمعرفة نشأة الديانة الداوية وصورتها الأولي كما احتوي علي عقائدها وأهم أفكارها وهو الكتاب الذي حول الفلسفة الداوية إلي ديانة و حول الأفكار إلي عقائد و انبثق منه أهم المعتقدات الداوية .

و أبرز خصائص هذا التفسير أنه يعتبر الكتاب وحيا من الإله الأعلي و أعطي لكل كلمة معني دينيا كما قدس لوتس و رفعه إلي مكانة الإله الأعلي حيث يري أنه تجسدا ل"داو" وإن المفسر وضع بهذا التفسير حجر الأساس للديانة الداوية .

و عدد كلمات النص في هذا التفسير يطابق العدد المعروف وهو خمسة آلاف تماما.

(٤) تفسير "وان بي"

هو من أشهر التفاسير ل"داو ده جين" وفسره العالم الجليل "وان بي" (wang bi,٢٢٦م-—٢٤٩م) و صار أحد المصادر الأساسية لتحقيق نص داو ده جين و لفهم معانيه حتي أصبح أكثر إنتشارا من بين كتب التفسير والنص الذي اعتمد عليه صار مصدرا أساسيا لنص الكتاب و يأخذه الناس مأخذ المعيار .

أبرز خصائص هذا التفسيرهو وضوح الشرح و بساطة التعبير وكان المفسر يوضح معاني النصوص من الناحية الفلسفية ولم يهتم بتحقيق الكلمات ولا البحث التاريخي بل يوجه اهتمامه إلي مناقشة الأفكار الأساسية وكان يبدي رأيه أحيانا علي خلاف ظاهر نص الكتاب .

(٥) المرجع إلي لوتس

هو ما فسره "يان جوين بين" (Yan jun pin) في القرن الأول الميلادي وقد قسم الكتاب إلي ثلاثة عشر جزءا والأجزاء السبعة الأولي منها تتحدث عن "ده" و الأجزاء الستة الأخيرة تتحدث عن" داو" إلا أن الأجزاء الستة الأخيرة قد ضاعت بعد القرن الثالث عشر ولكن من المحظوظ أن الكتب القديمة حفظت لنا كثيرا من النصوص المفقودة و قد بذل بعض العلماء المعاصرين أقصي جهدهم في جمع الأقوال المفقودة من الكتب المتفرقة حتي كادوا يعيدونه إلي صورته الأولي .

أبرز خصائصه أنه لا يشرح معاني الكلمة ولا يفسر جملة جملة بل يذكر فصلا كاملا ثم يأتي ببيان طويل من عنده بعيدا عن ظاهر النص و كان أكثر ميلا إلي النزعة الدينية .

التفاسير المذكورة آنفا هي بعض التفاسير القديمة ذات القيمة البالغة علي المستوي العلمي و الديني و كانت هذه الكتب تعتبر من المصادر الأساسية لفهم كتاب داو ده جين و يبين كل هولاء المفسرين نصوص الكتاب برأيه مع ميل إلي موقف معين و أكثر ما يفعلونه هو كشف الخفاء و التأويل بالرأي .

أما التفسير في العصر الحديث فهو عبارة عن ترجمة و تحقيق و استدلال أكثر من أن يكون تفسيرا إذ أن أصل النص مكتوب باللغة القديمة و يتعسر فهمها علي الناس في العصر الحديث ومن ثم يبذل العلماء أكثر جهودهم في ترجمة النصوص القديمة إلي اللغة الحديثة استدلالا بما فسره العلماء القدامي ولم يزيدوا علي ذلك إلا قليلا و من جانب آخر فإن بعض النسخ القديمة قد أكتشفت في الكهوف و القبور القديمة و بظهور هذه المخطوطات ظهرت الاختلافات في بعض الكلمات و الجمل و ترتيب الفصول فركز العلماء المعاصرون جهودهم علي التحقيق و المقارنة و التصحيح ولم يتجاوزوا في الفهم القدر الذي فهمه العلماء القدامي غير أن بعض العلماء حاولوا أن يكشفوا فيه ما يوافق المعلومات الحديثة و الأفكار الجديدة و لذلك ظهر عدد كبير من التحقيقات في العصر الحديث وقيل قد وصل

عدد النسخ المحققة إلي أكثر من ثلاثة آلاف [٢٦] و نكتفي بذكر أسماء بعضها لتشابه المنهج في العموم :

(١) < تحقيق لوتس > ل JIANG XI CHANG

(٢) <تحقيق لو تس > لGAO HENG

(٣) < الترجمة الجديدة للوتس > لREN JI YU

(٤) < لو تس ترجمة و تعليقا > ل CHNG GU YNG

(٥) < لو تس حياته و كتابه و أفكاره> لyan jian fen

(٦) < الفهم الجديد للوتس > ل nan huai jing

(٧) < لو تس ترجمة و تحقيقا > لzhu qian zhi

(٨) < تحقيق لوتس > ma shu lun

(٩) < تفهيم لوتس > YAN LING FENG

(١٠) <تحقيق داو ده جين >ZHANG SUN RU

ترجمات داو ده جين باللغات الأجنبية

إن < داو ده جين > يعتبر أحد الكتب النافعة للصينيين منذ القدم ويتداول في أيدي الناس كأحد ينابيع الحكمة و يهتم بدراسته العلماء و المعتنقون الداويون علي حد سواء وقد اشتهر في داخل الصين و خارجه علي أنه المصدر الأساسي للديانة الصينية و الفلسفة الداوية وقد ترجم إلي كثير من اللغات الأجنبية منذ وقت مبكر و يحكي أنه قد ترجم إلي اللغة السنسكريتية في القرن السابع الميلادي علي يد أحد نساك البوذية وهو الذي بعثته الحكومة الصينية إلي الهند من أجل دراسة الديانة البوذية ومن أجل حمل كتبها إلي الصين وأقام الناسك في الهند ما يقرب من خمسة عشر عاما و في أثناء إقامته تعلم اللغة السنسكريتية وترجم كتاب" داو ده جين" إليها . ولا ندري مدي صحة هذه الرواية إذ لم ير أحد هذه الترجمة إلي اليوم .

---

[26] < ما ذا يقول لوتس فعلا > قوا شي مني ، مطبعة اللغة الصينية ، ١٩٩٩م ، ص: ٠١٤.

أما ترجمة الكتاب كنشاط علمي فلم تحدث إلا بعد ما فتح المبشرون الغربيون بلاد الصين و التقوا بالثقافة الصينية في العصر الحديث وكان أول الترجمات ظهر علي يد أحد المبشرين و هو ما ترجمه Stanislas Julien إلي اللغة الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٦م .

ثم ترجمه Leipzip إلي اللغة الألمانية و طبع في سنة ١٨٧٠م وكان أول الترجمات بالإنجليزية ظهر في سنة ١٨٨٤م علي يد F.H.Dalfour .

و بعد ذلك تتابعت الترجمات واحدة بعد أخري باللغات المختلفة و تتجدد الترجمة بين حين و آخر في كل لغة حتي قيل تكاد تظهر ترجمة جديدة كل سنة بمختلف الألسنة و تشير الإحصائية العابرة إلي أن جميع الترجمات تتجاوز مائة ترجمة وأن الترجمات الإنجليزية منها لا تقل عن خمسين [٢٧] .

و من الملاحظ أن نشاط الترجمة بدأ علي أيدي العلماء الغربيين و لم يخض فيها العلماء الصينيون في البداية إلا في ثلاثينات القرن العشرين وأول الترجمات قام به أهل الصين ظهر علي يد Hu ze ling في سنة ١٩٣٦م ثم ترجم الكتاب بعد ذلك عدة مرات و من بينها < حكمة الشعب الصيني > (The wisdom of Chinese people) وهي أحسنها وأكبر أثرا في الغرب و هي ما قام به العالم الصيني لين يو تان و طبع في سنة ١٩٤٨م .

أما الترجمة باللغة العربية فلم أعثر عليها و قيل إنه قد ترجم إلي العربية إلا أن الترجمة لم تكن من الأصل الصيني فرأيت ، وأنا صيني وناطق باللغة التي كتب بها هذا الكتاب ، أنه ربما كان من حق القارئ العربي السابق علينا أن نقدم له ترجمة دقيقة لهذا العمل بقدر الإمكان مع تقديرنا لجهد المترجم العربي ونعتقد أن المهتمين بالأفكار الصينية عامة والفلسفة الداوية خاصة سوف يجدون في ترجمتنا ما لا يجدون في الترجمة السابقة .

الصعوبات في فهم نصوص كتاب "داو ده جين"

إن < داو ده جين > عبارة عن خمسة آلاف كلمة بحجم مقالة قصيرة في أيامنا و لكنه حاوٍ لأفكار عميقة و معان دقيقة حتي أنه يصعب علي الناس فهمه دون التفاسير و

---

[27] قال Paul Lin في كتابه : < Lao Tzu s Tao Te Ching and Wang Bis commentary > الذي طبع في السنة ١٩٧٧م : إن ترجمة داو ده جين باللغة الإنجليزية قد وصلت إلي أكثر من ثمانين مرة و قال Chan Wing Tsit في السنة ١٩٦٣م بأن الترجمة الإنجليزية قد وصلت إلي أربع و أربعين نوعا .

• انظر : Lao Zi , The Chinese English Bilingual series of Chinese classics ص: ٥

الشروح و لذلك يعتبر منذ القدم أحد الأسرار الثلاثة مع كتاب < التغيرات > و كتاب < جوان تس > إشارة إلي صعوبة فهمه و عسر الخوض فيه ويرجع ذلك إلي أسباب شتي تختص بالكتب القديمة عموما و بكتاب "داو -- ده-- جين " علي وجه الخصوص و نذكر ---- فيما يلي ----- بعض الصعوبات و أسبابها لفهم هذا العمل العجيب :

(١) إن< داو ده جين > مكتوب باللغة الصينية القديمة التي إستخدمت قبل الفي سنة و قد تغيرت اللغة تغيرا كبيرا خلال هذه الفترة الطويلة بحيث إن بعض الكلمات قد ألغيت أو بدلت بالكلمات الجديدة و بعض الكلمات قد تغير معناها و أستخدمت اليوم بمعني آخر فيصعب علي الناس اليوم فهم النص علي معناه الأصلي من غير معرفة تطوراته .

(٢) من ميزة اللغة الصينية أن كل كلمة تشكل وحدة كاملة مستقلة بمعني خاص وفي نفس الوقت كل كلمة تحمل عدة معان متطورة و تستخدم كالاسم حينا و الفعل حينا آخر و إذا ركبت مع كلمات أخري فهي تعطي معاني أكثر وربما قد تغيرت من المعني الأصلي وهذا هو شأن < داو ده جين > ولا نجد فيه علامة الفصل ولا حرف الوصل بين الجمل والتراكيب ويستطيع كل واحد من الباحثين أن يقطع الكلمات أو يوصل الجمل حسب ما يفهمه وبالتالي يتغير المعني لعبارة قصيرة عند مختلف الأشخاص فيصعب علي الباحثين معرفة الحقيقة لعدم وجود المعيار ويصعب علي عامة القراء أن يميزوا الصواب من الخطأ.

(٣)ليس لدينا اليوم نسخة أصلية مما كتبه لوتس بيده و كل ما نقل إلينا هو من تناقل المتأخرين أو من نسخ المتأخرين بعد قرون من موت لوتس و من الطبيعي أنه قد حدثت الزيادة و النقص أثناء النقل ولا يبعد أن بعض الناس قد أدخلوا فيه شيئا بالقصد أو بلا قصد و الدليل علي ذلك أننا لا نجد بين النسخ القديمة إتفاقا كاملا في الكلمات و تقسيم الفصول .

(٤) من أسلوب العلماء الصينيين في الكلام أن يحبوا استخدام الإيجاز و يفضلون التضمين و التعميق عند التعبير و لذلك يلجأون غالبا إلي المعاني الباطنة وإلي التمثيل و التشبيه و الاستعارة و التلميح حتي السكوت كما يحكي أن حكيمين إلتقي أحدهما بالآخر وضحكا و انصرفا دون كلام فبمجرد هذا اللقاء الصامت فهم كل واحد ما عند الآخر فضحك كلاهما وكان الصينيون يعتبرون التبادل الروحي أعلي صور التعبير عن الأفكار.

ومن المعروف أن المعني المعبر عنه بهذا الأسلوب يحمل غموضا وفيه مجال واسع للنظر والنقاش إذ هو لا يعطي معني بالدقة فيمكن تصريفه إلي هذا أو ذاك و كان "داو ده جين " أكثر ما يميل إلي هذا الأسلوب .

(٥) إن لوتس لمكانته الرفيعة في تاريخ الصين تلقي تعظيما بالغا من قبل الناس و كثيرا ما يعمق الناس أقواله و يغمضونها أو يقدسونها حتي صار كلامه في معني غير ما قصد لوتس نفسه أو لم يقصده أصلا كما يقال:ما دمنا لم نر لوتس و لم نسأله عن مقصوده فكل كلام عنه يكون مجرد رأي[٢٨] . ويعني أن كل التأويلات لكلام لوتس يكون صحيحا ومقبولا وقد نجد اليوم أن بعض الشروح أصعب من النص نفسه أو بعيد عن المعني الظاهر فبهذا التعقيد إزدادت الصعوبة علي من كان مضطرا إلي الإعتماد علي الشروح لفهم النص .

(٦) إنه كتاب مختصر ولكن جامع لتناول مجالات الحياة ويحمل كل جملة فيه معاني ذات جوانب عديدة ويفهم كل واحد حسب مستواه جانبا منها أو أكثر فيفهم العلماء منه مالا يفهمه عامة الناس من ظاهر النص وكان الفلاسفة و المفكرون يركزون علي اكتشاف الحقائق الخفية من الكتاب ذاهبين إلي البعيد ويستنبطون منه ما يريدون بلا حدود ولا نهاية فجعلوا المجال مفتوحا حتي يشعر كل من يشتغل به بأنه بعد السنوات الطويلة من الدراسة لا يزال في بدايةالطريق أو يشعر بأنه هو وحده قد وصل إلي الحقيقة القصوي فيصعب علي عامة الناس إدراك المعني الحقيقي لكل الكلمة .

هذه المشكلات تقوم كعوائق تحول بين المرء وفهم كتاب "داو ده جين" و تسد الطريق إلي دراسته حتي ابتعد عامة الناس اليوم عنه كيلا يضلوا في الأقوال المتناقضة و الآراء المتضاربة الناشئة من التفاسير المختلفة كما يلتقط بعض الناس الكلمات منه يتذوقونها ويستخدمونها أثناء الكلام مجردة لأجل إظهار مستواهم الثقافي دون فهم معانيها الحقيقية.
أما أصحاب الديانة الداوية فهم ، وإن كانوا من الناحية النظرية يعتبرونه الكتاب المقدس ،إلا أنهم قد أهملوه في الواقع إذ لم يعتمدوا عليه في عقائدهم و عباداتهم[٢٩] وكان الكتاب قد انحصر دوره في التلاوة فقط في بعض الحالات .

لعلنا قد نستطيع أن نعرف صعوبة فهم الكتاب من ظهور عدد هائل من التفاسير و الشروح والتحقيقات والتعليقات علي كتاب "داو ده جين" في العصر الحاضر وقد قام بالإحصائية بعض الناس و تشير النتيجة إلي أن التفاسير والتحقيقات والتأويلات قد بلغت إلي أكثر من ثلاثة آلاف وهذا يدل علي مدي إهتمام العلماء بهذا الكتاب من جانب، و من جانب آخر يشير إلي صعوبة فهمه .

---

[28] انظر < الحديث عن لوتس> ل نان خواي جين ، مطبعة الجامعة فو دان ،١٩٩٦م ، ص: ٤٩

[29]. لأنهم يرون أن الوحي يستمر و يتجدد بين حين و آخر وقد أنزلت كتب كثيرة بعد < داو ده جين > مما حلت محله ولقد تبنى الداويون كتبا أخري في مجال العقيدة و العبادات وفي الحقيقة لم يذكر < داو ده جين > شيئا عن العبادات وكانت الشعائر الداوية مأخوذة غالبا من البوذية في العصور المتأخرة فالكتاب لم يكن مصدرا للشعائر.

الداوية

بفرعيها ------الفلسفي و الديني

كلمة " الداوية " مشتقة من لفظ "داو" وهو ما جاء به لوتس في كتابه داو ده جين وأما الداوية فهي ما نشأت مبدئيا عن مفهوم "داو" من سلسلة الأفكار و العقائد التي تكونت منها مدرسة فلسفية من جهة ثم تحولت إلي ديانة من جهة أخري فالداوية عبارة عن المدرسة الداوية و الديانة الداوية فإحداهما فلسفة و الأخري ديانة وهما جانبان من تطور مفهوم "داو" و لعلهما في البداية لم تنفصل إحداهما عن الأخري عند لوتس إلا أنهما مع مرور الأيام إنفصلتا وذهب كل واحد منهما إلي جهة معينة وكلما بعد عن منبعه زاد الخلاف بينهما حتي أن المدرسة الداوية تخالف الديانة الداوية تماما في بعض القضايا كأنهما نهران من ينبوع واحد سار أحدهما بواد و الأخر بواد آخر يقول أحد العلماء المعاصرين : "إن تعاليم المدرسة الداوية تختلف عن تعاليم الديانة الداوية بل هما متضادتان أحيانا إذ أن المدرسة الداوية تدعو الناس إلي إطاعة القوانين الطبيعية بينما الديانة الداوية تدعو إلي مخالفتها والمثال علي ذلك أن المدرسة الداوية تعتبر الحياة والموت عملية طبيعية للحياة الإنسانية فعلي الناس أن يقبلوا هذه العملية بكل طاعة وأما الديانة الداوية فكانت تعاليمها ترمي إلي كيفية الفرار من الموت وتبحث عن طرقه "[30] وإن الفاصل الأساسي بينهما هو أن الديانة الداوية تقدس "داو" علي أنه إله مشخص ووجود روحي بينما المدرسة الداوية لا تري ألوهيته بل تعتبره مبدأ أساسيا من مبادئ الكون وليس له وجود حقيقي فيقال له " العدم " أو تعتبره مادة أصلية يتكون منها الكون فيكون له وجود حقيقي فيقال له "الوجود".

ولذلك فإن الحديث عن الداوية يقتضي منا اليوم أن نفرق بين المفهومين لأنهما وإن كانا من مشرب واحد إلا أنهما اتجها إلي جهتين مختلفتين -----الفلسفة والدين .

و نود أن نلقي ضوءا علي كلا المسلكين من ناحية التاريخ و أهم الأفكار حتي نعرف العلاقة بينهما و نحاول أن نذكر النقاط الأساسية لهما لكي نضع أمام القاري صورة واضحة بسيطة لكل واحد منهما علي حدة .

---

[30] < التاريخ المختصر للفلسفة الصينية > ، فون يو لان ، مطبعة جامعة بكين ، ١٩٨٥م ، ص: ٥—٦.

الداوية الفلسفية :

فنقول إن المدرسة الداوية هي ما أنشأها لوتس أو بالأحري ما نشأ من أفكار لوتس في أواخر عصر "الربيع و الخريف" (حوالي القرن السادس قبل الميلاد) من مجموعة الأفكار والآراء عن الكون و الإنسان و الحياة ثم تحولت إلي المنهج الفكري الذي اتخذ التخلق ب"داو" هدفا للحياة و اتخذ الصفاء و عدم الفعل طريقا للسلوك.

و من أجل معرفة المدرسة الداوية من كل جوانبها يحسن بنا أن نتحدث عنها إبتداء من نشأتها و تطورها و انتهاء بأهم أفكارها.

إن المدرسة الداوية ليست منفصلة عن الثقافة القديمة السابقة عليها و لا بعيدة عن الأحوال الجارية حينذاك بل هي نتيجة طبيعية لتطور الأفكار الصينية علي مدي التاريخ الطويل أو ما نشأ علي أنقاض التقاليد القديمة فهي فلسفة أصيلة تطورت في تربة الصين غير منفصلة عن جذورها ولا نعرف الداوية حق المعرفة إلا إذا رجعنا إلي ينابيعها الأولي .

إن تاريخ حضارة الصين كما هو معروف يرجع إلي ما قبل خمسة آلاف سنة و كان التسجيل التاريخي قد بدأ من سنة ٨٤١ قبل الميلاد ولا نعرف كثيرا عن الأحوال السابقة علي ذلك الزمن إلا بعض الأحداث مثل تغير الأسر الملكية وحدوث الكوارث الطبيعية والحروب ونشاطات الملوك وعرفنا ذلك من خلال الوثائق التاريخية التي نقشت علي عظام الحيوان والوثائق عبارة عن مجموعة الأدعية وجهت إلي الإله الأعلي لقضاء مختلف الحاجات و الشكوي إليه مما أصاب الناس من مصائب كما سجلت فيها أفعال الملوك .

نحن من خلال دراسة هذه الوثائق عرفنا صورة مطلقة لحياة الأقدمين و أفكارهم و عقائدهم وتشير الوثائق إلي أن الناس قبل خمسة وعشرين قرنا كانوا يعيشون علي أساس التجمع القبلي وأن القبائل كانت تحكم البلد وكان رئيس القبيلة هو الحاكم وأن تقاليد القبيلة تقوم مقام الدستور و كان الناس يعبدون الها يسمونه "شان دي" (Shang Di بمعني الملك الأعلي) و يعبدون الأسلاف أويمكن أن نقول أنهم يعظمون الأسلاف في صورة عبادة فكثر عدد الأسلاف المعبودة بكثرة القبائل.

ثم حدث التغير الهائل في تاريخ الصين بعد القرن الحادي عشر قبل الميلاد إذ أن هنالك قبيلة يقال لها "جيو"(Zhou) أو أسرة "جيو" تغلبت علي القبائل الأخري و وحدت بلاد الصين [٣١] من أيدي القبائل المتقاتلة و تولي رئيس قبيلة "جيو" الحكم و صار إمبراطورا وحيدا فاتحدت الدولة تحت ملك واحد و تطبق نظاما واحدا و يحكي أن الملك من أجل التغلب علي الأعداء استمد قوته أثناء الحرب من القوة الدينية حيث يزعم أنه يحارب الأعداء بأمر من

---

[٣١] كانت الصين عبارة عن جزء يسير من مساحة اليوم وهي تقع في وسط الصين حاليا .

الإله الأعلي وأنه مرسل من قبل الإله كما يزعم أنه إبن الإله و يتلقي الوحي منه وأنه تولي الحكم بإرادة الإله من أجل تطبيق النظام الإلهي علي الأرض ولأجل إنقاذ الناس من الظلم والهموم و لذلك لما استولي علي البلاد أصدر القرارات باسم الإرادة الإلهية حتي جعل البلد بلدا دينيا بكل معني حيث لا تنفصل السياسة عن الدين و جعل القانون الديني دستورا للبلد و من ناحية العقائد الدينية لايزال الناس يعبدون الإله الأعلي ولكن سمّوه "تيانْ" (Tian بمعني السماء) بدلا من "شان دي" ولايزالون يعبدون أسلافهم والجدير بالذكر أنه باتحاد البلد والحكم صار الإله الأعلي واحدا مشتركا لكل القبائل بعد ما كان لكل القبيلة إله أعلي. ولم يلبث ذلك إلا ثلاثة قرون حتي إنقلب الوضع فجاء عصر آخر إبتداء من القرن الثامن تفكك فيه النظام الديني والإجتماعي و ظهرت الفوضي في السياسة و العقائد ومن ثم عمت الفتن وإنتشرت المفاسد وإرتفعت الأصوات للإنقاذ و الإصلاح وبالتالي ظهر المفكرون و المصلحون و السياسيون واحدا بعد الآخر وكان ذلك هو العصر الذي ظهر فيه لوتس و كنفوشيوس .

ومن ميزة عصرهما تحلل النظام الديني وتحلل البلد المتحد إلي دويلات متحاربة مع كثرة الحروب[٣٢] وخلو البلاد من الدستور وإضطراب في العقائد والنظم وظهور الآراء و الأفكار بدلا من دستور واحد و كان أهم تغير حدث حينذاك هو إنتقال الحكم من النظام الديني إلي النظام العلماني الذي يقوم علي النظريات والآراء . وكان ذاك العصر نقطة التحول في مجري التاريخ إذ ألغي النظام القديم ولم يقم نظام جديد.

ففي هذه البيئة المضطربة قام رجال بالإصلاح تلبية لنداء العصر و دعوا إلي إقامة نظام جديد للقضاء علي الفتن والفوضي والفساد و أبدوا لذلك آراءهم وأتوا بأفكارهم ومن ثم ظهرت المذاهب الفكرية و المدارس الفلسفية وكان كل مذهب يقدم رأيه في منهج الإصلاح و يدعو إليه فمنهم من يري أن الإصلاح يكون بالقانون وهم أصحاب المذهب القانوني ومنهم من يري أن المحبة و الرفقة هما أساس الإصلاح ومنهم من يري أن التعظيم للإله هو مناص تخلص المجتمع من الفوضي و المفاسد ومنهم من يري أن الرجوع إلي الشريعة السابقة قد ينقذ الناس من الفتن و هذا الرأي الأخير هو رأي كنفشيوس .

ومن الملاحظ أن ظهور الفلاسفة والمصلحين و المفكرين في ذلك العصر ليس أمرا بالصدفة وإنما هو ناشئ عن مقدمات قامت منذ قرون وترجع جذورها الكلية إلي إلغاء النظام القديم وهو النظام الديني وعدم وجود البديل محله .

[٣٢] تحكي لنا الكتب التاريخية أنه في عصر الربيع والخريف من خلال مائتين وأربعين سنة حدثت حرب بين الدويلات أكثر من أربعمائة وثلاث وثمانين مرة . أنظر <تفسير دلو ده جين > ل "ليو خاو ولن" ص: ٣

وفي هذه البيئة الثقافية و الإجتماعية ظهر لوتس وأبدي رأيه في إصلاح المجتمع سياسيا واجتماعيا بعد التفكير العميق و النظر الدقيق و دعا إلي إلغاء جميع ما كان موجودا من النظام الاجتماعي والعقائد الدينية أوإلي مخالفة كل ذلك من أجل إقامة النظام الشامل الجديد فأتي بمفهوم جديد وهو "داو" وجعله مبدأ لجميع مجالات الحياة من العقيدة والدستور والأخلاق والسياسة وغيرها فنشأت منه المدرسة الداوية .

ثم تابعه العلماء من بعده و طوروا أفكاره حتي جاء عالم جليل في القرن الرابع ق.م وهو "جوان تس "(Zhuang Zi) وورث أفكار لوتس وطورها و بينها بصورة جديدة في كتابه المشهور < جوان تس > وبذلك إكتملت أصول المدرسة الداوية وتمت نشأتها فشخصية "جوان تس " مع كتابه الشهير < جوان تس > تعتبران مكملتين للمدرسة الداوية .

فالمدرسة الداوية هي ما وضع لوتس حجر الأساس لها بكتابه < داو ده جين> و طورها أتباعه من بعده وأكمله "جوان تس" أخيرا.

الجديربالذكر أن الفلسفة الصينية عموما تختلف عن الفلسفة اليونانية إذ أن أهم الموضوعات في الفلسفة الصينية هو الإنسان و المجتمع بينما موضوع الفلسفة اليونانية هو الكون و الطبيعة وهذا هو الفرق بين الفلسفتين ولذلك لما جئنا إلي المدرسة الداوية وجدنا هذه الميزة واضحة فيها إذ هي لا تتحدث عن الكون والطبيعة إلا علي أنها صورة مكبرة للمجتمع الإنساني و أنهما مثل أعلي للحياة الإنسانية ولوجئنا إلي الفلسفة الكنفوشية لوجدناها تتحدث تماما عن الأمور الإنسانية و لا تخوض في غيرها .

علي كل حال إن الفكر الأساسي أو الجوهر الأساسي في المدرسة الداوية هو التخلق ب"داو" و يتشخص هذا الجوهر في خصلتين :حفظ الصفاء والتمسك بعدم الفعل .

الصفاء : هو خلو القلب من الشهوات ونقاء النفس من الغرائز الفاسدة .

وأما عدم الفعل فهو البعد عن الأفعال التي تخالف النظام الطبيعي للإنسان والموجودات وإبقاء الأشياء علي طبيعتها .

و لا نطيل الكلام هنا في بيان الآراء الفلسفية عند المدرسة الداوية لأن هذا البحث نفسه يرمي إلي مناقشة الأفكار الفلسفية عند الداوية من جوانبها المختلفة و سنذكرها بالتفصيل في مكانها إن شاء الله.

الداوية الدينية:

أما الديانة الداوية فهي ديانة أصيلة للشعب الصيني أسسها رجل يقال له "جان داو لين" (Zhang dao ling,مات سنة ١٧٨م) في القرن الثاني بعد الميلاد ولا يعني ذلك أنه لم يكن هناك ديانة قبل الداوية كلا بل الطابع الديني كان سائدا في المجتمعات قبل ذلك حتي كان

البلد محكوما بالدين في فترة من الزمن كما ذكرنا و لم يطلق الناس علي ذلك الدين اسما معينا وأحري أن نعتبرها ديانة شعبية يتوارثها الناس جيلا بعد جيل كعادة دينية و أما الديانةالداوية التي نحن بصددها فلها مؤسس و كتاب و لها شرائع و أحكام فهي ديانة بكل المعني غير أننا لا نعرف كثيرا عن حياة مؤسسها و عن الصورة الأولي لها ولقد سجل لنا المؤرخون قطعا بسيطة عن حياة "جان داو لين" و نشاطاته في إقامة الداوية و يحسن بنا أن نرجع إلي تلك الشذرات لكي نتعرف علي العقائد الأساسية و الصورة الأولي لهذه الديانة.

تروي لنا الكتب التاريخية :

" كان جان داو لين يشتغل ب"داو" في عهد أسرة " خان "(han) علي جبل " خه مين " (He ming) ويؤلف كتب "داو" ."

" في عهد الملك " خين "(Heng, ١٣٧-١٤٤م) ألف (جان داو لين) كتاب "التعويذ ".

وإستوطن مملكة "شو" (Shu, وهي مقاطعة si chuan حاليا في وسط الصين) و ينشر تعاليم "داو" في جبل "خه مين" و يألف كتب "داو" و بذلك يضل الناس و من يتبعه يدفع خمس " ديو " (Dou) من الأرز تبرعا و لذلك يقال لهم سارقو الأرز .

العبارات المذكورة هي أقدم ما سجل لنا التاريخ من قبل الحكومة عن الداوية و نلاحظ أن فيها شيئا من الإهانة و العداوة لأنها في البداية تعتبر بدعة ولكننا نستطيع أن نعرف من خلال هذه العبارات أهم عقائدها و تعاليمها .

تشير الدراسة الحديثة إلي أن "جان داو لين" كان كاهنا من أبناء محافظة " فون "(Fen) بمقاطعة "جيان سو" (Jiang su) في وسط الصين حاليا و ذهب إلي مقاطعة "سي تشوان (si chuan) في فترة ما بين سنة ١٢٦م وسنة ١٤٤م و تنسك بجبل "خه مين" ثم اشتهر كطبيب روحي يعالج الأمراض بالماء المقدس [٣٣] وبالتعويذ و بطرد الشياطين وكثر المعجبون به حتي تجمع حوله أناس بعدد غير قليل فأقام بذلك (جان داو لين) ديانة جديدة و هولاء المعجبون صاروا أتباعه الأولين.

يحكي أن "جان داو لين" كان مشتغلا بالرياضة لاكتساب الخلود ومنغرسا في دراسة كتاب " خانغ دي"(Huang Di)[٣٤] و كتاب (داو ده جين) وبينما كان يعتكف علي الجبل نزل إليه الإله الأعلي "تي شان لو جون"(Tai Shang Lao Jun) [٣٥] و علمه " الشريعة الحقيقية للسموات الثلاث" (San Tian Zhen Fa) و وهب له لقب " المعلم السماوي".

---

[33] الماء الذي نقعت فيه ورقة الأدعية .

[34] كتاب ينسب إلي رجل اسطوري يقال له "خوانغ دي " بمعني الملك الأصفر ويحكي أنه جد أعلي للشعب الصيني فالكتاب له اهمية كبيرة في الأوساط العلمية إذ هو يعتبر من أقدم الكتب الفلسفية و الطبية وهو لا يزال إلي اليوم يقوم مقام المصدر الأصلي للطب الصيني.

[35] بمعني السيد الشيخ الأعلي و هو إله متجسد من "داو" وفي الحقيقة هو لوتس بعد ما قدسه الناس و رفعوه إلي مقام الإله الأعلي .

حدث ذلك في سنة ١٤٢ م فأعلن (جان داو لين) دعوته بين الناس وكان يأمر الناس بعبادة الإله الأعلي وحده وهو "تي شان لو جون"(Tai Shang Lao Jun) و نهي عن عبادة الآلهة الأخري و عن عبادة الشياطين إلا عن الذكري لأرواح الأسلاف ورب المطبخ[٣٦] في وقت معين وكان يعالج الأمراض بالماء المقدس كما يعالجها بالتوبة حيث يكتب إسم المريض مع توبته النصوح من الخطايا التي إرتكبها منذ سنه السابع علي ثلاث أوراق وتعتبر الأمراض ناشئة من الذنوب ثم ترمي الواحدة منها علي قمة جبل والثانية في الماء و الثالثة تدفن تحت الأرض و هي عبارة عن المعاهدة مع أرباب السماء و الأرض و الماء ألا يعود إلي الخطايا التي هي مصدر الأمراض و كان من تعاليمه تلاوة كتاب "داو ده جين" وإصلاح الطرق و التطبيق لتقنية الجماع (قانون العلاقة الجنسية) وقد بني أربعة وعشرين مركزا في مناطق مختلفة موافقا لأربعة وعشرين من مواقع النجوم وعين لكل مركز رئيسا يشرف علي شئون المعتنقين وكان الرئيس في الحقيقة حاكما في المنطقة للمعتنقين و من شعائر دينه حضور الاجتماعات الثلاثة بأن يجتمع المعتنقون في مراكزهم ثلاث مرات كل سنة وهي : اليوم السابع من الشهر الأول بالسنة القمرية واليوم السابع من الشهر السابع و اليوم الخامس من الشهر العاشر فيسجلون أسماءهم في المراكز و يسمعون النصائح و يدفع كل واحد من المعتنقين خمس "ديو"[٣٧] من الأرز إلي مركز منطقته ولذلك سميت هذه الديانة ب" وو ديو مي داو" بمعني داوية خمس ديو من الأرز .

وبهذا تمت نشأة الديانة الداوية عقيدة و شريعة و هذه هي الصورة الأولي للداوية ثم تطورت الداوية علي أيدي الأتباع بعد ذلك حتي تغير وجهها بكامله وصار دينا يعبد الآلهة المتعددة ويجعل الخلود في الدنيا هدفا نهائيا للحياة .

فالداوية هي ديانة أصيلة للشعب الصيني أقامها " جان داو لين" ثم طورها أتباعه من بعده ومن أهم عقائدها الإيمان ب"تي شان لو جون" كإله أعلي و بالآلهة الأخري كأرباب ملكوت السموات والأرض والإيمان بخلود الإنسان علي الأرض إذا وصل إلي درجة الرجال المقدسين.

مفهوم "داو" عند لوتس

[٣٦] يري الداويون أن الدنيا مملوءة بالآلهة و الأرباب و لكل نوع من الأشياء رب يحفظ هذا النوع فعلي سبيل المثال هنا يتواجد رب للباب ورب للبيت و رب المطبخ و رب للماء ورب للجبل وغير ذلك و يبدو أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد دون هذه الأرباب إلا أنهم يقدمون القرابين لأرواح الأسلاف ولرب المطبخ فقط لذكراهم لأنهم أقرب إلي الناس .

[٣٧] وعاء خشبي يكال به الحبوب يساوي خمس كيلو بالوزن الحالي .

إن الكلام عن "داو" (Dao) مسألة ذات خطورة كبيرة إذ إنه نقطة مبدئية عند لوتس و لا نعرف حقيقة فكر لوتس دون فهم هذا المفهوم كما هو في نفس الوقت الجوهر الأساسي لكل من المدرسة الداوية و الديانة الداوية غير أن الديانة الداوية تفهم منه ما لا تفهمه المدرسة الداوية فمعرفة هذا المفهوم تساعدنا علي فهم حقيقة الداوية بفرعيها ---- الديانة و الفلسفة فمسألة مفهوم "داو" هي الأساس لفهم أفكار لوتس و مبادئ الداوية بفرعيها .

إن "لوتس" لم يكن أول من جاء بكلمة "داو" بل سبقه آخرون ولكنه هو أول من أعطي لكلمة "داو" معني فلسفيا و دينيا و جعله مفهوما جامعا معقدا يعبر به عن الأصول و المبادئ للطبيعة و المجتمع و الإنسان .

و كلمة "داو" لغة تعني طريقا و تكلما وقد رأينا في الكتب القديمة مثل كتاب <التغيرات > و كتاب < الشعر >[38] أن الكلمة أستخدمت في المعنيين المذكورين [39] وتدل علي شيئ ملموس و فعل محسوس ولم تبلغ دلالتها إلي مجال المعقولات ثم تغير معناها مع مرور الزمن وتحول من دائرة الحسيات إلي دائرة المعقولات ففي عصر "الربيع و الخريف " بدأ الناس يسمون حركة الأفلاك بالطريق السماوي و يسمون النظم التي يتبعها الناس في أفعالهم بالطريق الإنساني [40] وبعبارة أخري أنهم يعتبرون النظام الكوني والطبيعي طريقا سماويا و يعتبرون النظم الإجتماعية أوالأخلاق طريقا إنسانيا و لا شك أن هذا التحويل لم يكن تم في يوم واحد بل أخذ قرونا حتي إعتاد الناس علي التحويل ولما جاء عصر لوتس كان الناس قد تعودوا علي المفاهيم المعنوية المختلفة للكلمة واستخدموها بالمفاهيم المذكورة ولكن لوتس لم يتبعهم في استخدام هذه المفاهيم فحسب بل زاد علي ذلك معاني جديدة لم يسبق إليها أحد وقد ذكر كلمة "داو" في كتابه ثلاثا و سبعين مرة ولم يكن ذلك بمعني واحد بل بمعان متعددة [41] .

نري أن لوتس قبل كل شيئ قسم مفهوم "داو" إلي صنفين : "داو" الدائم و "داو" الممكن الوصف [42] وأساس هذا التقسيم كما يري لوتس أن الصنف الأول غير قابل للوصف وبعبارة أخري أنه غير مدرك بالحواس ولا معروف كنهه بالعقول فيتعذر الكلام عنه وأما الأخير فهو ما يمكن وصفه بالكلام و إدراكه بالعقول و هو قابل للفهم و البيان كما قال لوتس في الكتاب: إن "داو" الذي يمكن الكلام عنه ليس ب"داو" الدائم (ف:١).

---

[38] هما من أقدم الكتب الصينية ويحكي أنهما من مؤلفات القرن الحادي عشر قبل الميلاد .
[39] حكمة لو تس ، جيو لي شين ، المطبعة الشعبية ب خه باي ، ١٩٩٧ م ص: ٢٤--٢٥
[40] انظر إلي < مقاصد داو > وان يو ده ، دار الكتب تشي لو ، ١٩٨٧م ص : ١
[41] انظر < لو تس دراسة و تعليقا ، ، تشين قو يين ، دار الكتب الصينية ، ١٩٨٤، ص : ١٣
[42] بمعني أنه يمكن وصفه باللسان أو يمكن التعبير عنه بالكلام

يتبين من هذه العبارة البسيطة أن ما لا يمكن الكلام عنه هو "داو" الدائم وما يمكن الكلام عنه هو "داو" بنوع آخر وقد نسميه نحن ب"داو" الممكن لأنه " يمكن الكلام عنه"

فحصل لنا مفهومان : "داو" الدائم و "داو" الممكن الوصف. وقد سمي لوتس النوع الأول ب "الدائم" لأنه يراه أزليا و أبديا وأما الآخرفيكون عكس ذلك . وحسب نصوص الكتاب إن "داو" الدائم يكون واحدا بلا ثان وأما "داو" الممكن الوصف فهو متعدد

وسنذكر كلا المفهومين علي حدة حسبما دلت عليه النصوص .

(ا) "داو" الدائم

إن "داو" الدائم عند لوتس --- فيما نري نحن و قد سبق إلي ذلك كثير من العلماء --- يراد به الإله الواحد و هذا ما انفرد به لوتس عن السابقين في تجديد مفهومه ، يقول لوتس : هنالك شيئ متوحد ، وجد قبل السماء والأرض ، يا للغربة و ياللوحشة إنه قيوم لا يتغير و فعال لا يتوقف و قد يكون أم السماء و الأرض ولا أعلم اسمه فسميته "داو" علي الجبر و سميته العظيم علي الجبر(ف:٢٥) .

إن النص وصف لنا حالة "داو" قبل وجود السماء والأرض وكان وجودا متوحدا بحيث لا يتجزأ وهو قائم بذاته و فعال أزلي بل مبدئ الكائنات كما كان واحدا ولا شيئ معه لأنه في غاية الغربة و في غاية الوحشة وهو فريد من كل الوجوه . ولم يستطع لوتس أن يجد لذلك الشيء المطلق اسما مناسبا فسماه ب "داو" علي الجبر من أجل تسهيل الذكر لا من حيث الحقيقة لأن الاسم تابع للصورة أو الهيئة أو الحقيقة ولكن "داو" لم يكن له صورة و لا تعرف حقيقته فلا اسم له من هذه النواحي .

ولو تدبرنا النص المذكور لتبين لنا أن لوتس حاول بهذا النص أن يعطينا تصورا عاما عن الإله الواحد لأن الأوصاف المذكورة ل"داو" لا تنطبق إلا علي الإله الخالق و يقول أحد العلماء المعاصرين : إن "داو" لا يزال يملك الكائنات بإرادته و لذلك إن "داو" في تصور لوتس .... يكون الإله الحاكم للكون [43] و يقول عالم آخر من المعاصرين : إن "داو" ليس فقط أصل الكائنات بل مخالف للكائنات و من الواضح أنه إسم آخر للإله [44].

إذ يقول لوتس : كون"داو" شيئا يكون بين اللبسة والغيبوبة.

يا للبسته وغيبوبته ! إن فيه هيئة .

و يا لغيبوبته ولبسته ! إن فيه شيئا .

يا لغموضه وخفائه ! إن فيه جوهرا ، وجوهره فى غاية اليقين و فيه الحقيقة .

---

[43] انظر < الترجمة الجديدة للوتس > ، رين جي يو ، مطبعة الكتب القديمة بشان هاي ، ١٩٨٥م ص : ٢٦

[44] انظر المصدر السابق : ص: ٢٨

١

(ف:٢١)

إن "شيئ" في النص لا يراد به شيئ مادي وإنما المراد منه وجود أو كائن بل وجود روحي أو كائن روحي و جاء لوتس بكلمات يصف بها شيئا ماديا مثل "شيئ " و "هيئة " و"جوهر" ولكن في نفس الوقت نفي عنه الأوصاف المادية بكلمات مثل "اللبسة " و "الغيبوبة" و"الغموض" و " الخفاء" وإنما يصفه علي هذا النحو لتأكيد حقيقية وجوده لا إثبات ماديته كأنه يقول بأن وجوده في غاية اليقين ويقول النص الأخر:إن "داو" ولد واحدا والواحد ولد إثنين والاثنان ولد ثلاثة و الثلاثة ولد الكائنات (ف٤٢) . إذا كانت الكائنات يراد بها الأشياء المادية فالواحد و الإثنان والثلاثة تكون أم المواد وهي تكون مغايرة للمادة أوإذا كانت هذه الثلاثة يراد بها عناصر مادية يتكون منها الأشياء فـ"داو" يكون أمها ويلزم ذلك أن "داو" مغاير للعناصر المادية فهو وجود روحي .

نري مفهوم "داو" أكثر وضوحا فيما شرحه العالم الجليل "جوان تس" (Zhuang zi) الذي يعتبر مكملا لفكر لوتس وقال إن "داو" له الشعور و الأمانة وليس له عمل ولا صورة وهو قابل للفهم ولا يعبر عنه وقابل للإدراك ولا يري وكان أزليا بذاته و أصليا بذاته ولم يزل باقيا قبل السماء و الأرض ويصرف الشياطين والملوك ويولد السماء والأرض [٤٥] ...

و من المعروف أن "جوان تس" أعلم الناس بلوتس وأحقهم ببيان أفكاره وكان يري أن "داو" نفسه يشعر بل يلتزم بالأمانة وهو خالق السموات والأرض ورب الشياطين والأرواح . نفهم من هذا أنه وجود روحي وأنه الإله الأعلي للكون ويكون أبديا وأزليا .

ولذلك يري كثير من العلماء أن "داو" عند لوتس يقابل الإله في الأديان ومن الممتع أن بعض العلماء النصاري لم يزعموا ذلك فحسب بل يدعون أنه منصوص باسم "يهوي " (إله بني إسرائيل) وإستدلوا علي ذلك بالنص الذي يقول : "ما لا يرى يقال له شفوف وما لا يسمع يقال له رقَة وما لا يلمس يقال له لطافة" (ف:١٤) . و الكلمة شفوف في النص منقولة من كلمة صينية تنطق بـ"يي" (Yi) و رقة بـ"شي" (Xi) و لطافة بـ"وي"(Wei) ولو جمعت هذه الكلمات الثلاث لصارت "يي شي وي " وهوأقرب إلي نطق "يهوي" (ahowah أو Yhwh) [٤٦].

علي كل حال ليس لدينا أي دليل علي أن لوتس أراد بهذه الكلمات الثلاث إسم "يهوي " و كان يبين بها أوصاف "داو" ولكن لا يخفي علي الباحثين المحققين أن "داو" في النصوص

---

[٤٥] كتاب < جوان تس > الفصل السادس من الفصول الداخلية

[٤٦] انظر < لوتس و المسيح > يولن بو جيا ، مطبعة العلوم الإجتماعية بالصين ١٩٩٧م ص : ٨---١٠

المذكورة يراد به الإله و هو ما إنفرد به لوتس في مفهوم "داو" ولا يخلو تأويل النصاري لهذه الكلمات من تعسف .

ثم إن نصوص الكتاب في بعض الأماكن تصرح لنا أن "داو" خالق الكون ومدبر العالم ورب الكائنات وسنفصل ذلك في حينه إن شاء الله تعالي ويثبت كل هذه أن داو الدائم يحمل مفهوم الإله .

من العلماء من يري خلافنا أن داو الدائم هو ما يتبعه العالم من القوانين والنواميس وقد استدلوا علي ذلك بنصوص من الكتاب ولكننا نري أن داو وإن كان يفيد مفهوم النواميس والقوانين الطبيعية حسب بعض النصوص إلا أن مفهوم الإله واضح كل الوضوح حسب نصوص أخري فنقول بأن داو الدائم هو الإله عند لوتس بينما مفهوم القوامين والنواميس يكون أحد مفاهيم داو الممكن الوصف الذي سنشرحه فيما يلي.

(ب) "داو" الممكن الوصف

إن "داو" الذي سميناه ب"داو" الممكن هو ما يمكن أن يوصف باللسان و يعبر عنه بالكلمات وهو مقابل ل"داو" الدائم مغاير له من كل وجوه و إن كان الدائم واحدا فالممكن متعدد وإن كان الدائم وجودا فوق الطبيعة فإن الممكن يكون في الطبيعة ولذلك كان "داو" الدائم وجودا مطلقا لا مثيل له فلا ينقسم وأما الممكن فيمكن تقسيمه إلي عدة أقسام ويبلغ إليه التعبير اللغوي .

و يري بعض العلماء أن مفهوم "داو" ذو مراتب و طبقات وأعلاها "داو" الدائم وهو وجود ما وراء الطبيعة ثم ينزل هذا المفهوم إلي مستوي الطبيعة فصار "داو" ممكن الوصف وتعددت مفاهيمه إذ تعددت طبقات الوجود ومراتبه و"داو" بهذا المستوي هو ما يهتم به الفلاسفة وكان البحث علي هذا المستوي في الحقيقة هو مجال بحوث المدرسة الداوية ونذكر هنا بالاختصار أنواع مفاهيم "داو" بعد ما نزل إلي مستوي الطبيعة.

(١) داو ---- نظام الطبيعة

يقول لوتس :"إن العودة حركة ل"داو" (ف:٤٠)

يري بعض العلماء أن "داو" في هذا النص يراد به نظام الطبيعة لأن النظام الطبيعي يجري علي قاعدة العودة كما أن الكائنات تنشأ من البذرة ثم تنمو ثم تزدهر ثم تتدهور وتنتهي أخيرا إلي نقطة البداية ثم تتكرر هذه العملية من جديد وهكذا يعمل نظام الطبيعة ولما قال لوتس بأن العودة حركة ل"داو" استدلوا علي أن داو" هو نظام الطبيعة.

"وإنّ طريقة السماء أن يغلب دون منازعة وأن يستجيب دون كلام وأن يأتي دون دعوة" (ف:٧٣).

"أليست طريقة السماء كالقوس المشدود فلو كان مائلا إلى الأعلى يخفض ولو كان مائلا إلى الأسفل يرفع ولو كان زائدا في القوة يخفف ولو كان ناقصا في القوة يزيد وإن طريقة السماء أن تنقص الزائد و تزيد الناقص"(ف:٧٧).

"إن الطريقة السماوية لا قرابة لها وتبقى مع المحسن دائما"(ف:٧٩)

إن "الطريقة" في هذه النصوص كانت كلمة "داو" في الأصل الصيني و ترجمتها إلي "طريقة" لأن كلمة "داو" لغة تعني الطريق ثم استخدم في مفهوم الأسلوب أو الطبيقة ولا يخفي علي من يتدبرهذه النصوص أنها تتحدث عن القواعد التي تجري في الكائنات وأن لوتس أراد بكلمة "داو" أو الطريقة نظاما في الطبيعة .

(٢) "داو" ---- النظام الإجتماعي أو الدين

من القضايا التي تهتم بها الفلسفة الصينية أكثر من غيرها من الفلسفات الأمور الإنسانية و الشئون الاجتماعية ولم يستثن فكر لوتس من هذا المنهج وكان أكثر اهتمامه موجها إلى الشؤون الاجتماعية فأتي بمفهوم "داو" ليعبر به عن النظام المثالي للمجتمعات الذي يأمل به إصلاح الحالات الإجتماعية حينذاك فقال : إن كان في العالم "داو" يشتغل الجواد في الحقل وإن لم يكن في العالم "داو" تضع الخيل حملها في المعركة (ف:٤٦).

يعني النص أنه لو كان في العالم نظام عادل نافع يحمي الناس و يحفظهم من الفساد و الفتن ويقودهم إلي السعادة و المحبة لما شبت الحروب و لما أصيب الناس بالبلايا والمشقات و لما أفضت الأمور إلي القتال بل لا تحدث الحرب أصلا فلا يحتاج إلي الآلات الحربية و لا الأسلحة القاتلة حتي يستغني عن الخيول الحربية فتعمل في الحقول بين أيدي الفلاحين و كل هذا يرجع فضله إلي النظام العادل الفاضل وأما إذا فات النظام في البلد فلا مفر من الحرب و القتال ولا أحد ينجو من هذه الفتن حتي أن الخيول الحبلي لم تنج فتستخدم في المعركة و تضع حملها أثناء القتال .

فمن الواضح أن "داو" في هذا النص يراد به نظام عادل يكفل سعادة الإنسان و المجتمعات . و كذا جاء النص الآخرعلي المعني المشار إليه . يقول لوتس :

"إن الذين يحسنون الاشتغال ب"داو" في القديم لا يجعلون الناس بصراء بل يجعلونهم جهلاء وإنما تصعب السيطرة علي الناس لكثرة ذكائهم " (ف:٦٥).

معني النص أنه من كان يحسن السياسة و يعرف كيفية الحكم لا يعطي الشعب فرصة ليطلعوا علي حقيقة سياستهم حتي لا يعلموا واجبات الحكام وحقوق المحكومين فلا يسترجعون حقوقهم ولا يقاومون الحكام علي ما فاتهم من أداء واجباتهم .

النص يتحدث عن الأمور السياسية و عن أساليب الحكم ولذلك "داو" في هذا المكان يراد به النظام الإجتماعي .

أري أن كلام لوتس كله لم ينفصل عن "داو" مع أنه الإله الواحد ويتحدث كل الأمور الاجتماعية في حدود مفهوم "داو" فالنظام الإجتماعي الذي جاء به لإصلاح المجتمعات لا بد من أن يكون نظاما قدسيا أو دينيا والنظام الإجتماعي الذي يتكلم عنه هو في الحقيقة الدين إذ لا فرق بين النظام الإجتماعي و الدين إذا كانت أحكامه مبنية علي الإرادة الإلهية أو الهدايات السماوية .وقد رأينا لوتس كلما يتكلم عن النظام الإجتماعي كان كلامه أقرب إلي مناقشة القضايا الدينية وخير دليل علي هذا هو نصوص الكتاب فلنأت ببعض منها :

"إن الذين يدعمون سيد القوم ب"داو" لا يقهرون العالم بالجيش لأن جزاء ذلك ميسور" (ف:٣٠)

" ومن ثم إذا فقد "داو" يؤتى بالفضيلة وإذا فُقد الفضيلة يؤتى بالرحمة وإذا فُقدت الرحمة يؤتى بالعدل وإذا فُقد العدل يؤتى بالآداب" (ف:٣٨)

"ولما سمع الإنسان العالى "داو" يطبقه بالجد ولما سمع الإنسان المتوسط "داو" يضطرب بين وجوده وعدمه [بين التصديق و التكذيب] و لما سمع الإنسان السافل "داو" يضحك عاليا وإنه لا يكون "داو" إذا لم يُضحَك عليه"(ف:٤١).

"لو كان لى علم ضئيل لَسرتُ على "داو" العظيم و لم أخش إلا الضلال .إن "داو" العظيم فى غاية الاستواء ولكن الإنسان يحب الإنحراف " (ف:٥٣) .

"حكم البلد الكبير كطبخ السمك الصغير وإذا حكم البلاد ب"داو" عجزت الشياطين"(ف:٦٠)

لو تدبرنا معني "داو" في هذه النصوص لوجدنا أن معناه لا يستقيم بمفاهيمه المذكورة إلا إذا فهمنا "داو" علي أنه الدين أو منهج الحياة الرباني أو النظام الإلهي الاجتماعي الكامل ولذلك إن "داو" في النصوص المذكورة فيما أري يراد به الدين . ومما يؤيد ما قلناه أن المعلمين الداويين يسمون ديانتهم ب"داو" [٤٧].

(٣) داو ------ منهج الحياة

[17] شيو دي شان : < تاريخ الديانة الداوية > ، مطبعة الكتب القديمة ، شان هاي ، ١٩٩٩، ص:٩.

قد سبق القول أن القضايا الأساسية للفلسفة الصينية هي معالجة أمور الإنسان من حيث حقيقته وسلوكه وأخلاقه وعلاقاته مع سائر البشر ونري ذلك بوضوح عندما نأتي إلي فلسفة لوتس فقد كان من أعظم الفلاسفة والمصلحين وقد تحمل رسالة تاريخية أن يصلح أخلاق الناس حينذاك ويصلح النظام الاجتماعي في عصره . وكان من ذكاء لوتس أنه ابتدع مفهوما شاملا لجميع الحقائق في الكون والمجتمع و الإنسان وهو مفهوم "داو" وقد ذكرنا مفهومه في مستوي الطبيعة و المجتمع ونذكر ، فيما يلي ، نصا يدل علي أن "داو" يحمل معني منهج الحياة أو نظام الحياة الفردية .

يقول لوتس : الإصرار علي امتلاء كامل ليس بأفضل من الوقوف عند الحد .

حدة النصل لاتدوم طويلا...... ومن الطريق السماوي إنسحاب بعد النجاح (ف:٩).

معني النص أن الحالات القصوي في كل الشيئ لا تبقي وقتا طويلا وإنها حسب قانون "العودة" ستتطور إلي نقيضها لأنه لا شيئ بعد الحالة القصوي إلا العودة نحو بدايته ولذلك حالة الامتلاء الكامل لا تلبث إلا أن تتحول إلي النقص بطريقة تدريجية كما أن النصل الحاد يتحول إلي كليل لكثرة الاستعمال وعلي هذا إذا توصل أحد إلي حد النجاح ونال حظا وافرا من الشهرة فعليه أن يكتفي بذلك الحد بل ينسحب من ميدان الشهرة و يخفي نفسه ولا يطلب مزيدا من ذلك لأنه ليس بعد ذلك إلا أن ينتقل من حالة النجاح إلي حالة الفشل علي ما يجري عليه قانون العودة فالانسحاب من ميدان النجاح بعد نيل حظ منه يكون منهجا رفيعا من الهدي السماوي للناجحين في مجالات الحياة .

والذي يهمنا هنا أن الطريق في هذا النص (كان في الأصل كلمة "داو") يراد به منهج رفيع للحياة الإنسانية .

نهاية القول أننا بعد ما قدمنا عرضا موجزا لمفاهيم "داو" قد نتعجب من شموليته وإنه ليحمل مفاهيم تتخلل أهم مجالات الحياة من العقائد الدينية والحقائق الكونية والنظم الإجتماعية و السلوك الفردي كما يشتمل علي الحقائق في الوجود بالمستويات أعلاها الإله الواحد وأدناها منهج الحياة والمهم أن "داو" قبل كل شيئ "الوجود" فيما وراء الطبيعة ثم يتنزل إلي طبقة الطبيعة وإلي طبقة المجتمع وإلي طبقة الحياة الفردية و لا نبالغ إذا قلنا إن مفهوم "داو" لا مثيل له في عالم المصطلحات من ناحية كثرة الدلالة و الشمولية. ولعل هذا المفهوم قد دل علي أسلوب الصينيين في المعاملة وفيما يسعون إليه في صياغة الكلام من التعميق والتضمين والتوسيع في الدلالة ولا يخفي أن فيه شيئا من التعقيد خلافا

لما عند الغربيين من التبسيط و التدقيق و التعيين وقد بلغ الأمر إلي أن العلماء بعد خمس و عشرين قرنا لا يزالون يناقشون حقيقة "داو" هل هي وجود روحي أم شيء مادي .

علي كل حال بين أيدينا مفهوم كهذا و ليس من الحكمة أن نتعامل مع جميع جوانبه معاملة واحدة أو نفهم منه علي أنه يشير إلي شيئ معين واحد بل ينبغي لنا أن نفرق معانيه المختلفة في ضوء ما أشرنا إليه سابقا وهذا ما يريده لوتس ولعله هو نفسه لم يقسم مفهوم "داو" علي نحو ما فعلناه ولم يفعل ذلك بل كان يعتبره شيئا مطلقا و لكنه في الحقيقة قابل لهذا التقسيم .

معني "ده" عند لوتس

بعد ما تكلمنا عن "داو" أري ضرورة أن نشير إلي معني "ده" (De) لأنهما لا ينفصل بعضهما عن بعض و الكلام عن أحدهما يقتضي الحديث عن الأخر و لشدة علاقتهما ركب الواحد مع الآخر وصار كلمة واحدة تحمل معني مستقلا ومن جانب آخر أن قضية "ده" تكون أحد القضيتين الأساسيتين في الكتاب ويدل علي أهميتها أن لوتس ذكر هذه الكلمة واحدا وأربعين مرة و كان كتاب (داو—ده---جين) يتحدث أساسا عن القضيتين وهما قضية "داو" و قضية "ده" و يؤيد ذلك ما سجله لنا أقدم الكتب التاريخية (التسجيل التاريخي) بأن لوتس " *ألف كتابا ذا فصلين : الفصل العلوي و الفصل السفلي يبين فيهما معاني "داو" و "ده" بخمسة آلاف كلمة* " حتي سمي هذا الكتاب بهما ولقد عرفنا إسم الكتاب ب"داو ده جين " وهو بمعني كتاب داو و ده لأن كلمة "جين" تعني كتابا . و كل هذا يدل علي أهمية مفهوم "ده" فلا يمكن إغفاله .

و لكن إختلف العلماء في فهم هذه الكلمة و أتوا بمفاهيم متعددة فقيل إن "ده" هو صفة "داو" وقيل هو عمل "داو" و قيل هو أثر "داو" و قيل هو مظهر "داو" حيث إنه يظهر في الكائنات بواسطة "ده" وقيل هو صورة "داو" و قيل إن "داو" مضمون "ده" ولا ينفصل بعضهما عن البعض و لولا "داو" لما بقي نفع "ده" و لولا "ده" لما تظهر قوة "داو" و قيل إن "ده" مرادف ل"داو" و قيل إن حضور "داو" في نفس الإنسان يقال له "ده" و قيل إن النظم والخصائص التي حصلت علي الكائنات من "داو" يقال لها "ده".

هكذا تعددت الآراء و تنوعت الأقوال ولكن كل ذلك يرجع فيما أري إلي إختلاف التعبير ويكاد يتفق الجميع في الحقيقة بأن "داو" هو الحقيقة و"ده" مظاهرها أو بعبارة أخري أن "داو" ذات و "ده" صفاته أو أن "داو" مؤثر و"ده" أثره .

قد نفهم هذه العلاقة أكثر وضوحا في بيان أحد العلماء المعاصرين (تشين قو يين) حيث قال : " أولا إن "داو" لا يملك صورة وإنه يؤثر في الكائنات فلا بد من أن يظهر أثره بواسطة الكائنات فالأثر الذي أظهره "داو" يقال له "ده".

ثانيا إن الكائنات ناشئة عن "داو" و إن "داو" الذي يتخلل الكائنات لا بد من أن يخلع خصائصه في الكائنات و كان "ده" عبارة عن هذه الخصائص .

ثالثا إن "داو" الذي هو ما وراء الطبيعة لما نزل إلي طبقة الحياة الإنسانية يقال له "ده". ومعني ذلك أن "داو" خفي ولا يظهر وإنما تظهر مظاهره " -------إنتهي .

بعد ما قدمنا عرضا موجزا لهذا المفهوم علي ألسنة العلماء يمكننا أن نأتي بنتيجة دراستنا لآراء العلماء و يتبين لنا من نصوص الكتاب و شروح العلماء أن "ده" يجب أن نتكلم عنه علي مستويين : المستوي الكوني و المستوي الإنساني أو بعبارة أخري أنه قد يقسم إلي قسمين : قسم ما يظهر في الكائنات و الآخر ما يظهر في الإنسان .

إن "داو" ، سواء كان إلها كما نفهم نحن وبعض العلماء أو نظاما طبيعيا كما فهمه الفلاسفة و العلماء الماديون ، كان لطيفا أو تصورا معنويا فلا يري ولا يلمس ولا يمكن أن يظهر نفسه بنفسه وإنما يظهر في حركات الكائنات و خصائصها فنعتبر كل ما في الكائنات من الخصائص و النظم عملا ل"داو" أو أثرا له أو صفات له وهذا كله نقول له "ده" و علي هذا فبين "داو" و "ده" علاقة الذات مع صفاتها و لذلك يقول النص : ولذلك ينجبه "داو" ويربيه "ده" ثم ينميه ويربيه و يخرج إنتاجه و ينضجه ويراعيه ويحفظه (ف:٥١) .

معني ذلك أن "داو" وجود لطيف وله قوي متعددة .و صفات مختلفة فلا يعمل عملا ذاتيا بل يمد قواه إلي الكائنات و يصرف بها الكون ولذلك بعد ما أوجد العالم يربيه بقوته الربوبية وينميه بقوته النامية ويحفظه بقوته الحافظة إلي غير ذلك . و هذه القوي و الصفات يعبر عنها النص ب"ده" . و يمكن أن نقول له ب"ده" علي المستوي الكوني وإن "ده" علي هذا المستوي لا يخالف "داو" في شيئ لأن الأثر لا يخالف مؤثره والمظاهر لا تخالف حقيقتها وهذا ما أشار إليه النص : ولذلك لم يكن كائن من الكائنات إلا و يعبد "داو" ويعظم "ده" (ف:٥١) ومعني النص أن جميع الكائنات تتبع القوانين التي أوجدها "داو" فيها ويطيعها طوعا وكرها و لا يخالفها أو معناه أن الكائنات تحفظ خصائص ما طبعه عليها "داو" حين أوجدها .

أما "ده" علي المستوي الإنساني فنراه أخلاقا أي ما تخلق الإنسان بخلق "داو" . وإنه يختلف قدره عند مختلف الأشخاص لأن للإنسان اختيار و حرية و إرادة فيقدر علي أن

يتخلق بخلق "داو" بقدر كبير أو قليل . ولذلك ذكر النص قسمين من "ده" : "ده" العليا و "ده" السفلي كما قال : إن صاحب الفضيلة (ده) العليا لا يزعم بامتلاك الفضيلة لأنه يمتلك الفضيلة وإن صاحب الفضيلة السفلى لا يزعم بضياع الفضيلة لأنه لا يمتلك الفضيلة(ف: ٣٨)

وحسب مفهومه ترجمته إلي " الفضيلة " ولا يخفي أن العليا والسفلي لا يراد بهما إلا قدر كبير من الفضائل و الأخلاق وقدر قليل منهما . وهذا ما يوافق قول القائل بأن حضور "داو" في نفسي يقال له "ده" .فالإنسان تختلف أخلاقه باختلاف قدر حضور "داو" في نفسه وكلما كثر الحضور إرتفعت أخلاقه وإلا ساءت الأخلاق والإنسان بالدرجة الأولي هو من تخلق بجميع أخلاق "داو" .

علي كل حال فإن "ده" بهذا النوع عبارة عن قدر ما اتصف به الإنسان من أوصاف "داو" أو هو قدر ما يتخلق به الإنسان من أخلاق "داو" و علي هذا فيمكن أن نترجمه إلي الفضيلة أو الأخلاق.

الجدير بالذكر أن كلمة "داو" و"ده" ركب بعضهما ببعض وصارتا كلمة واحدة مركبة تعني مكارم الأخلاق أو الفضائل ولا يخفي أن هذا المعني مأخوذ من المعني الأصلي للكلمتين إذ هما تعني خصائص "داو" و من المعروف أن جميع خصائص "داو" حسن وخير فلا عجب أن تعبر هذه الكلمة المركبة عن معني مكارم الأخلاق أو الفضائل.

"داو–ده–جين"

للفيلسوف الحكيم لوتس (ولد سنة ٥٧١ قبل الميلاد)

القسم الأول قسم الترجمة والشرح والتعليق

تنبيه :

بين أيدينا كتاب يعتبر أحد الأسرار الثلاثة من بين التراث الصيني فننبّه القاري بألا يقرأ الكتاب فصلا فصلا و لا يقرأه جملة جملة بل يقرأه كلمة كلمة ولعل كلمة واحدة منه تعالج قضية مستقلة وإنما ترجمنا الكتاب وشرحناه حسب ما تهيأ لنا من المراجع وما توصلنا إلَيه بفهمنا وإن كان فكر لوتس أوسع من أن يحصر فيما فهمناه فيسوغ لكل من يقرأ نصوص الكتاب أن يفهمها علي غيرما فهمناه.

الفصل الأول الألوهية--داو وصفاته[48]

إن "داو" الذي يمكن الكلام عنه ليس ب"داو" الدائم

و إن إسما يمكن التسمية به ليس باسم دائم

إن الوجود مبدء السماء والأرض وأما العدم فأم الكائنات

ولذلك كان عدما دائما بالنظر إلي سره و وجودا دائما بالنظر إلي آثاره

و هذان إسمان متغايران من مصدر واحد وكلاهما سر بل سر الأسرار و باب لجميع الحكم[49].

الشرح

[داو] : هو مفهوم هام لدي الداوية سواء كانت الداوية الدينية أو الداوية الفلسفية إذ هو نقطة مبدئية يدور حولها النقاش بين العلماء فيما يتعلق بأصول العقائد لدي الديانة الداوية وبمقومات الفلسفة عند المدرسة الداوية وذلك أن الكلمة تحتوي علي معان متعددة ووجوه متباينة حيث إنها تعني لغة الطريق و التلفظ ثم أستخدمت بمفاهيم مختلفة وكانت الكلمة

---

[48] لم يضع لوتس نفسه عنوانا لكل فصل بل لم يقسم الكتاب إلي الفصول وإنما قسّمه العلماء بعده ولم يضع العلماء عنوانا لكل الفصل إلا قليل منهم وكان خه شان قون أول من وضع عناوين ونحن من أجل التعريف بمضمون كل فصل أتينا العناوين التي وضعها خه شان قون ولكن العناوين هنا من الفصل الأول إلي الفصل الرابع عشر وضعها أستاذنا الجليل الشيخ الدكتور حسن محمود الشافعي حسب مضمون كل النص وأما العناوين بعد الفصل الرابع عشر فهو من خه شان قون .

[49] إن النص يتعامل أساسا مع مفهوم "داو" الدائم ، وقد فصّل بعض جوانبه ففي هذا النص نري أن "داو" وجود حقيقي غامض لايدرك بالحواس ولا يوصف بالألسنة و لايسمي باسم ولا يظهر في صورة ولكنه أصل الكائنات ومصدر لجميع الأسرار والحكم.

وقد أكد النص وجوده تأكيدا حتي سماه مجازا ب"الوجود" ومن جانب آخر كان خفيا وغير مدرك فبالنظر إلي غموضه و خفائه سماه مجازا ب"العدم" .

والحاصل أن "داو" هو غيب ولكنه مولّد الكائنات أو خالق الكون. ولذلك بنت الديانة الداوية عقيدتها في الألوهــية علي هذا النص حيث جعلت "داو" الإله الأعلي للعالم وعبدته كخالق الكون. ومن معطيات هذا الــنص أن "داو" هو الخالق المبدئ الحكيم الظاهر الباطن الأزلي الأبدي ولا يخفي علينا أن "داو" بالمفهوم المشار إليه يطابق بعض الجوانب للإله الواحد الذي يؤمن به أصحاب الديانات السماوية فكأن النص يتحدث عــن بعض صفات الله ولذلك يمكننا أن نقول بأن "داو" هو الإله عند لوتس كما اعتقده أصحاب الديانة الداوية فيما بعد .

والجديــر بالذكــر أن النص لم يعطنا مفهوما كاملا ل "داو" بل ذكر بعض جوانبه وسوف نعرف المفهوم الكامل من نصوص أخري في الفصول المتفرقة من كتاب داو – ده –جين .

عند لوتس تعني أشياء كثيرة : منها القوانين الطبيعية و النظم الإجتماعية و نواميس الكون ومنهج الحياة وطريقة السلوك كما أنها تتضمن معني الإله الواحد للكون و معني الدين أو المنهج الرباني للحياة .

و يبدو أن كل واحد من هذه المعاني قد عبر عن جانب واحد من جوانبها و أن المجموع قد يعبر عن معناها الكامل كما سنراه من جميع النصوص التي تتعلق بهذا المفهوم في كتاب "داو-ده-جين ".

[الذي يمكن الكلام عنه ليس ب داو الدائم]:

يبدو أن مفهوم داو علي صنفين ؛ صنف هو ما يمكن الكلام عنه و الآخر ما لا يمكن الكلام عنه فالأول قد نقول عنه ب"داو" الممكن الوصف والثاني "داو" الدائم ف" داو" الممكن الوصف هو ما يمكن الوصف بأوصافه حسب حقيقته وخواصه المحسوسة كمثل "داو" الذي يعبر عن نظام الكون و منهج الحياة وقوانين الإجتماع و أما داو الدائم فهو مالا يمكن وصفه إذ أنه لا تعرف حقيقته عن طريق إدراك الحواس و لا يبلغ إليه تعبير اللسان بل هو وجود غامض فوق التصور .

و النص إن دلّ علي شيء فإنما يدل علي أن هنالك شيئا يقال له " داو" وهو وجود خالد غامض ولا يمكن وصفه باللسان وكان أبديا وأزليا كما نفهم ذلك من وصف لوتس له بالدائم و يقول أحد المفسرين القدماء "هان في تس" (Han Fei Zi) بأن الدائم هو ما وجد قبل ظهور السماء والأرض ولا يموت بعد فناء السماء والأرض. [٥٠]

ومعني ذلك أن "داو" الدائم هو الأبدي الأزلي .

[إن إسما يمكن التسمية به ليس باسم دائم]:

كما قلنا إن داو الدائم لايوصف بالألسنة ولا يدرك بالحواس فلا إسم له وذلك أن التسمية لشيء مبنية إما علي صورته أو خواصه أوحقيقته أو غايته فيسمي حسب تلك العناصر ولكن "داو" الدائم ليس من قبيل ما يعرف بهذه العناصر فاستحالت التسمية له بشيئ . وبأي اسم سمينا ذلك الوجود الغامض ليس ذلك اسما حقيقيا له ولا يكون اسما للدائم .

وقد يسئل : لماذا سمي ب"داو" ؟

والجواب عنه أن صاحب الكتاب حاول أن يجد اسما مناسبا لذلك الوجود الغامض الأزلي ولكنه لم يجد إلي ذلك سبيلا لأنه ليس مما يعرف بالحواس فيسمي علي خواصه بل هو

---

[50] قاو دين يي :< دراسة داو ده جين > ، مطبعة معهد الإذاعة ، بكين ، ١٩٩٩، ص:٥٠.

متعذر المعرفة ومتعذر التسمية وأخيرا سماه صاحب الكتاب ب"داو" علي الإجبار من باب تسهيل الذكر لا من حيث الحقيقة فاسم "داو" ليس اسما حقيقيا له ولا يكون اسما دائما .

[إن الوجود مبدء السماء والأرض و أما العدم فأم الكائنات]

العدم والوجود هنا يراد بهما "داو" الدائم وإذ هما صفتان متضادتان له فإن "داو" يتصف بالوجود لأنه كائن حقيقي و كذلك هو العدم و العدم هنا لايعني عدما بحتا أو شيئا معدوما بل يراد به الغياب عن الأبصار والخفاء عن الحواس كما قال " وان بي"(Wan Bi) أحد المفسرين المشهورين في القرن الثالث الميلادي : " لو نقول بأنه العدم فكيف تولدت منه الكائنات ولو نقول بأنه الوجود فلا نري صورته "[٥١] . و معني ذلك أنه وجود باعتبار ثبوته الحقيقي في الواقع وهو عدم باعتبار خفائه عن الحواس.

وقيل أن العدم يراد به عدم الاسم بمعني عديم الاسم ويعني أن "داو" عديم الإسم .

وعلي كل حال فإن النص يعني أن "داو" بداية السموات و الأرض بل أم الكائنات بمعني أنه خالق الكون و مبدع الموجودات .

ولقد اختلف العلماء في فهم هذا النص منذ القديم وكان أكثرهم علي النحو الذي ترجمناه وأما بعضهم ففهموه علي وجه آخر قائلين بأن معني النص يكون : "إن صاحب الاسم مبدء السماء والأرض وأما عديم الاسم فأم الكائنات " [٥٢].

[ولذلك كان عدما دائما بالنظر إلي سره وكان وجودا دائما بالنظر إلي آثاره]:

إن "داو" عدم دائم لأنه لايدرك بالحواس. و يغيب عن الأبصار و كانت حقيقته سرا للإنسان ولكنه كائن حقيقي و أم الكائنات ودلت علي وجوده السموات و الأرض حيث أن الكائنات كلها آثار خلقه و لا سيما تدل علي وجوده

[هذان اسمان متغايران من مصدر واحد]:

لقد إختلف العلماء في معني هذه العبارة وكثرت شروحهم لها ولكن الأظهر عندي أن "داو" واحد وله اسمان متغايران وهما "العدم" و "الوجود" و كلاهما اسم ل"داو" الواحد .

[51] وان بي ، < تفسير وان بي > ، النص منشور في < ماذا يقول لوتس فعلا > ، قوه شي مين ، مطبعة اللغة الصينية ، ص: ٣٤٧.
[52] أنظر الترجمة الإنجليزية .<Sacred books of the East >edited by Max Muller vol p 47.

[كلاهما سر]:

إن "داو" شيء غامض لا تعرف حقيقته ولاتدرك أحواله سواء سمي ب"العدم" أو "الوجود" فالحقيقة التي يعبران عنها هي سر أو معناه أنه لاتدرك كيفية وجوده ولا تبصر أحوال ذاته فهو سر.

[بل سر الأسرار و باب لجميع الحكم]:

ليس "داو" نفسه سرا فحسب وإنما سر الأسرار لأن جميع الأسرار التي وجدت في السموات والأرض ترجع إليه إذ أنه أم السموات والأرض فجميع الأسرار فيهما ناشئة منه.

ثم ما نشاهده في الكون من جمال في مناظر الطبيعة وروعة في تناسق الكائنات وإتقان في نظام الكون وغيرها مما تتضمنه الطبيعة كلها حكمة من حكم ذلك السر الغامض و قد صدرت منه وترجع إليه فهو باب لجميع الحكم .

بعد هذا الشرح لا جرم أن ننقل شرحا كاملا من أحد المفسرين القدماء وهو "فأن يين يوان" (Fan Yin Yuan) إذ قال: إن "داو" خالد و واجب الوجود ؛ لايمكن تسميته بشيء وكان عدما دائما بالنظر إلي غموضه وخفائه وكان وجودا دائما بالنظر إلي جلائه ثم بما أنه كائن بين العدم والوجود ولاسبيل إلي البحث عن حقيقته كان سرا وإنه كالسحاب من ناحية الغموض والبعد وإنه ليس عدما ولا وجودا ولاتعرف حقيقته ولايميز بالأسماء بل الكائنات تولدت منه وإن في كل نوع من الكائنات حكمة من الحكم وكان "داو" بابا لجميع تلك الحكم."[٥٣]

---

[٥٣] < دراسة داو ده جين > ، ص:٥٧.

لما عرف العالم الجمال جمالا نشأ القبح و لما أدرك الخير خيرا نشأ الشر ؛ إن الوجود والعدم يتوالدان كما كان الصعب والسهل يتكاملان والطول والقصر يتعاقبان والرفع والخفض يتضامنان والصوت والنطق يتطابقان والأمام والخلف يتتابعان . هكذا ا لأمر منذ الأزل.

الشرح:

[لما عرف العالم الجمال جمالا نشأ القبح]:

يشير النص إلي أن الأشياء كلها نسبية فلم يكن هناك جمال إلا إذا قورن بقبح كما أن القبح ظهر بعد المقارنة بالجمال؛ ولذلك عندما عرف العالم الجمال جمالا نشأت فكرة القبح ولو لم يكن الخير لما عرف الشر كما يقال يعرف الشيء بضده فالاساس في معرفة الأشياء هو المقارنة .

[إن الوجود والعدم يتوالدان]:

العدم والوجود هنا لايراد بهما "داو" كما في الفصل السابق بل يراد بهما حالة الموجودات قبل الوقوع وبعده فالوجود هو وقوع الشيء في الخارج والعدم هو حالة الشيء قبل الحدوث كما يشرح العالم المعاصر " تشين قو يين"(Chen Gu Yin):" إن الوجود والعدم يراد بهما وجود الكائنات وعدمها" [٥٤] . وهاتان الحالتان يلازم إحداهما الأخري ويتبع بعضهما بعضا بحيث لو غاب أحدهما ظهر الآخر كما لو إنتهت حالة الوجود حصلت حالة العدم و كذلك العكس.

وهكذا جميع الأشياء المتضادة . فإن إنتفاء أحدهما يلازم ظهور الآخر و لايعرف أحدهما إلا إذا قوبل بالآخر كما أن السهولة لاتدرك إلا إذا قيست بالصعوبة.

---

[54] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٥٥.

[والصوت والنطق يتطابقان]:

أشار النص إلي القانون السببي بأن العلة لا تؤخر عن المعلول فالنطق علة بينما الصوت معلوله والصوت يطابق النطق ولايؤخر عنه ويتلازمان دون المخالفة فلا تقديم ولا تأخير.

يشير النص إلي أن الأمور في الدنيا كلها نسبية و تعرف أحوالها من خلال المقارنة بغيرها وأن الأشياء هي هي بطبيعتها و خولصها ولايحكم عليها بشيء وأما الأحكام فهي إعتبارات عارضة خارجة عن ذاتها و جاءت بعد المقارنة .

فالقبح مثلا لايعرف إلا إذا عرف الجمال و كذلك العلاقة بين الخير والشر و بين الصعوبة والسهولة و بين الرفع والخفض وبناء علي هذا فتكون القيم كلها ليست ثابتة بل متغيرة لأنها تختلف باختلاف ما يقارن به فالشيء يكون خيرا إذا قيس بما دونه وفي نفس الوقت يكون شرا إذا قيس بما هو أعلي منه. وهكذا جميع الأمور .

ويبدو من النص أن من طرق المعرفة عند "لوتس" المقارنة إذ يري أنه لا يعرف شيء إلا إذا قورن بشيء آخر ثم إذا تدبرنا النص تدبرا دقيقا لوجدنا أن لوتس أشار في نفس الوقت إلي طريقة أخري غير طريقة المقارنة ، ألا وهي طريقة البديهة فكأن لوتس يستخدم الطريقة البدهية فيما يتعلق بالمعقولات مثل الخير و الجمال وأن طريقة المقارنة تستخدم في الأشياء المحسوسة وذلك أنه قال " لما عرف العالم الجمال جمالا نشأ القبح " فأصل الجمال وهو حكم أصلي لا بد أن يعرف بالبده لا بالمقارنة وإلا لحصل الدوران ولا يبلغ إلي أي حكم ولذلك الحكم الأصلي كان ناشئا من البداهة ثم يتبني عليه حكم آخر بالمقارنة لأن الحكم لشيء بواسطة المقارنة يتوقف علي حكم سابق عليه .فمعرفة الحكم الأصلي تعتمد علي الطريقة البدهية وقال " وان بي"(Wang Bi) : "المراد بالجمال هو ما تشتهيه النفوس و القبح ما تكرهه " [55]. ويعني ذلك أن الإنسان يعرف بنفسه بعض الأشياء العقلانية مثل الجمال والخير كأصل الأحكام ثم يقيس عليها أشياء أخري .

وأما معرفة المحسوسات مثل الطول و الرفع كانت مبنية علي أساس المقارنة بحيث يظهر الاختلاف بين شيئين محسوسين عند المقارنة .

[ولذلك كان الحكماء يتعاملون مع الأمور بعدم الفعل]:

كلمة الحكماء هنا ترجمتها من كلمة "شين رين "(Sheng Ren) في أصل النص الصيني وكان لها معان مختلفة عند عدة مذاهب إذ أنها يراد بها عند الكنفوشية رجل فاضل

---

[55] لين يو تان :< حكمة الصين >، (باللغة الإنجليزية) ، ص:٣٣.

حكيم أو كامل الأخلاق و عند الديانة الداوية يراد به رجل متمسك ب"داو" و متحرر من كل الشهوات والرغبات و محافظ علي صفاء القلب وسكينة النفس و ملتزم ب"عدم الفعل" . وقال بعض العلماء الداويين بأن "شين رين " هو صاحب "داو" أو من تذوق "داو" ففني فيه . و لو فهمنا "داو" علي أنه الإله الواحد فالمتمسك به أو صاحبه يكون من يؤمن به ويتحد به أو العارفين فترجمت الكلمة بالحكيم نظرا إلي أن كلمة الحكيم قد تعبّر عن جانب من المعاني التي يتصورها كل مذهب .

و أما المسلمون في الصين فقد إستعاروا الكلمة للتعبير عن معني النبي وطبعا أن النبي عند المسلمين يختلف عن مفهوم "شين رين" لدي الصينيين حيث النبي في الإسلام هو من اصطفاه الله تعالي من قوم معينين في وقت معين وأنزل عليه الوحي وأرسله إلي قومه ليبلغ أحكام الله إليهم و أما "شين رين" في تصور الصينيين فليس شرطا أن يكون قد تلقي الوحي من السماء بل هو الفاضل أو الحكيم أو الرجل المقدس أو كامل الاخلاق وقد توصّل إلي هذا المقام بجهده وسعيه . فمفهوم "شين رين" الذي يعبّر عن النبي عند المسلمين يختلف عما هو عند غيرهم .

كلمة "عدم الفعل" ترجمتها من كلمة "وو- وي"(Wu Wei) وهي تعني لغةً التخلي عن العمل وهو مفهوم هام في الفلسفة الصينية عموما والفلسفة الداوية بوجه خاص وإنه في الحقيقة لايراد به تعطيل العمل أو التوقف عن الفعل بل يراد به ترك العمل الزائد أو الفعل المفرط أو البعد عن العمل الإضافي الذي يفسد طبيعة الأشياء أو عدم التدخل في تغيير الطبيعة فهو لا يعني أكثر من ترك الفعل من أجل المحافظة علي طبيعة الأشياء أو يعني العمل المناسب من أجل تسيير الشيء علي طبيعته .

يري الداويون أن الكون وجود كامل تتناسق جميع أجزائه تناسقا دقيقا وأن كل الكائنات فيه مطبوعة بطبيعة معينة وأن هذه الطبيعة تعمل بنفسها في الأشياء حيث لو يترك شيء علي طبيعته العاملة لسارالشيء إلي طريق صحيح ولا يحتاج إلي قوة خارجية تساعده ولو تدخل الإنسان فيه وحاول بأفعاله الزائدة أن يغير طبيعة الشيء أو يسد طريقها لأفسد ذاك الشيء وأهلكه.

لذلك كانت أحسن الوسائل لمعالجة الأمور هي عدم الفعل الزائد أو المفرط و بالعبارة الأخري ترك الأشياء علي طبيعتها دون إدخال أيدي الإنسان فيها فتفسد الأمور.

ومن ثم كان الحكماء يتعاملون مع الأمور بذلك الموقف وهو "عدم الفعل". وسوف نبين هذا المفهوم بالتفصيل في مكانه .

[" ويربّون الناس تربية غير كلامية] :

إن القدوة خير من الدعاية وكان الحكماء يربون الناس تربية عملية تطبيقية بسلوكهم الحسن حيث يقيمون لهم قدوة ومثالا حتي يقتدوا بها دون إجبارهم علي طاعة أقوالهم و قد شرح "خه شان قون"(He Shang Gong) معني النص بقوله : " يرشدون الناس بالفعل" [٥٦]

قيل إن كلمة "كلامية" هنا يراد به قوانين و نظم فالمعني حينئذ يكون أن الحكماء لايكلفون الناس بشيء ولايحاسبونهم بالقوانين والنظم لأن قيام الواجبات تحت سلطة القوانين يسلب روح الإخلاص من صاحبه ولايأتي إلا بصورة العمل خاليا من الروح فيه.

[ويتركون الكائنات تزدهر بلا توجيه وينشؤونها بلا تملك]:

يتركون الكائنات تنمو وتزدهر بنفسها ولايدخلون الجهود البشرية في سبيلها حتي ولو فعلوا شيئا من أجل حفظ طبيعتها لا يدعون فضلهم عليها و لا يمتلكونها كأنهم لم يفعلوا شيئا لها.

[وبماأنهم لايفتخرون لا ينعدم فضلهم]:

إذا نجحوا في الحياة أو أنجزوا أمرا من الأمور لاينسبون النجاح إلي أنفسهم ولايفتخرون به فلا يحسدهم أحد فيبقي فضلهم ولذلك كان الحكماء يخفون حسناتهم حتي يستمرّ نفعهم للناس.

[56] خه شان قون :< تفسير خه شان قون > ، دار الكتب الصينية ، سنة ١٩٩٣. ص:٦.

لا تجل الفضلاء حتي لايجاريهم العوام و لا تعز أشياء نادرة حتي لا تدفع الناس إلي السرقة؛ ولا تبد مغريّات حتي لا تضطرب بها قلوب الناس . ولذلك كان من تربية الحكيم تخلية القلوب وإملاء البطون و تضعيف الهمم وتقوية الأبدان حتي لايكون لدي العوام العلم ولا الطمع و يحذر العقلاء من تصرفاتهم .

إعمل من أجل "عدم الفعل" فلا يكون شيء غيرمصلح .[٥٧]

الشرح:

[لا تجل الفضلاء حتي لايجاريهم العوام]:

لاترفع مقام الفضلاء فوق العوام حتي لايسعي الناس إلي المجاراة بهم ولا يلجأوا إلي التزيي بزيهم و إلي الإدعاء بالفضل والتكالب علي الشهرة والاحترام الذي يتمتع به الفضلاء فيظهر التخاين والتغابن بين الناس.

شرح "خه شان قون" هذه العبارة بقوله : لا تفضلّوا الفضلاء بالرواتب ولا بالمناصب[٥٨].

---

[57] يدعو النص إلي أحد مبادئ السياسة عند لوتس وهو المساواة بين الناس حتي عدم التفرقة بين الفضلاء وبين العوام كما لا ينبغي التفرقة بين أشياء نادرة وبين أشياء عامة . ولعل لوتس أراد بهذه السياسة دعوة إلي روح رفيعة و خلق جميل وابتعاد عن السلبيات التي تنشأ من إجلال بعض الناس علي بعض و إجلال المغريات المادية وإلا فلا معني لمنع إجلال الفضلاء بل يكون ذلك ضروريا في الواقع لأن الفضلاء بطبيعتهم يختلفون عن عامة الناس في الدرجة ويجب أن يفضلّوا علي غيرهم .

وكانت السياسة المثالية عند " لو تس " هي إمداد الناس بلوازم الحياة وتضعيف عزائمهم حتي لايمتلكوا العلم ولا الطمع. ونري من هذا أن لوتس قد إتخذ سياسة تبعد عامة الناس عن دائرة السياسة وتحاصرهم في مشاغل حياتهم وتجعلهم في مقام لا يسمح لهم أن يتدخلوا في شئون الدولة ولايعلموا ما يجري في الطبقات العليا ولا يعرفوا ما يتمتع به الملوك والأمراء من السلطة و الحياة المترفة حتي لايشتهوها ولايثوروا عليهم . وهذا يعيد فكرة أخري عند القدماء الصينيين بأن أكثر ما يهم الشعب هو الأكل كما قال كنفشيوس :" إن الشعب يتخذ الأكل إلههم " بمعني أن الشعب إذا ارتضي بما عنده من الأكل فقد ارتاح فلا يفكر في شيئ غيره ولا يسألون عن الحاكم ولاعن الحكم .

وهذه الفكرة تتضمن جانبا إيجابيا وجانبا سلبيا فالجانب الإيجابي هو إمداد الناس بما يحتاجون إليه في الحياة اليومية من المأكل والمشرب والملبس وغيرها من لوازم الحياة وأما الجانب السلبي فهو تجهيل الناس وإبعادهم عن الشئون السياسية حتي لا يسألوا عما جري في البلاط والحكومة وقد برّر بعض العلماء لوتس من هذه التهمة بقولهم إن هذا لا يقال له التجهيل بل هو طريقة إلي تطهير القلوب وتقليل الشهوات .

وألقي النص إلينا ضوءا أكثر لمفهوم " عدم الفعل " إذ هو لا يكون تعطيل الفعل بل هو نوع من الفعل وهو نفسه يحتاج إلي عمل .

قيل إن الفضلاء ينبغي أن ينالوا الاحترام من قبل الناس ولكن لابد من الابتعاد عن النتائج السيئة الناشئة من ذلك. [٥٩]

[و لا تعز أشياء نادرة حتي لا تدفع الناس إلي السرقة]:

الشيء يكون ثمينا إذا كان نادرا كما يقول المثل الصيني : يغلي الشيء بندرته . فلو كان الناس مفتونين بالأشياء الثمينة لسعي بعض الذين لايملكون شيئا إلي السرقة.

قال "خه شان قون": يعني ذلك أن الملوك إذا لم يرغبوا في الذخائر فيتركون الذهب في الجبال ويتركون اللؤلؤ في البحار؛ وإذا كان الصفاء سائدا في الأعلي (الحكام) لا يكون الطمع في الأسفل (الشعب)"[٦٠].

[ولذلك كان من تربية الحكيم تخلية القلوب و إملاء البطون و تضعيف الهمم وتقوية الأبدان]:

كان من وسائل التربية الفعالة لدي الحكماء تخلية قلوب الناس من الطبائع الخسيسة و الشهوات الذميمة ومن جانب آخر يوفرون للناس ما يحتاجون إليه من ضرورات الحياة مثل الطعام والشراب حتي لا يلجأوا إلي الفساد بسبب الجوع.

وقال "خه شان قون" : إملاء القلوب يراد به امتلاء القلوب ب"داو"[٦١].

و من وسائل التربية لدي أصحاب "داو" تضعيف الهمم بمعني تقليل عزائم الناس أو تضعيف هممهم للمنازعة والمنافسة حتي يكونوا متواضعين وسالمين .

ومعني ذلك أن الطرق الفعالة للتربية عند لوتس هي أن يجعل الناس أغنياء من الناحية المادية وفقراء من الناحية الروحية .

[حتي لايكون لدي العوام العلم ولا الطمع]:

إن العلم وسيلة إلي المعرفة و أن الإنسان لايشتهي شيئا إلا بعد أن عرف نفعه و لايطمعه إلا إذا لم يحصل عليه بعد الطلب وإذا لم يحصل عليه يلتجئ إلي الحيل والخداع . فالعلم هو ذريعة إلي الطمع والشهوة والخداع .

قال " وان بي" : معني النص : " ليتمسك الإنسان بالفطرة الحقيقية ". [٦٢] والفطرة الحقيقية هي تلك الحالة التي لا يوجد فيها للإنسان علم ولا طمع وهي حالة الطفولة .

قيل إن العلم في النص يراد به الحيلة والخدعة[٦٣] . فالعلم هنا يقصد به علم ضار .

---

[58] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠.
[59] < دراسة دلو ده جين > ، ص:٧٠.
[60] المصدر السابق ،ص:٧٠.
[61] المصدر السابق ،ص:٧٠.
[62] < شرح وان بي > ، النص منشور في < ماذا يقول لوتس فعلا > ، قوه شي مين ، مطبعة اللغة الصينية ،ص:
[63] < لو تس شرحا وتعليقا > ، ص:٧٦.

قيل يقصد بالعلم ذلك العلم الذي يعرف به طريق الشهرة و الحصول علي المنافع الشخصية[٦٤].

وعلي هذا يكون النص يدعو إلي تصفية النفس وقد ترجم أحد العلماء هذا النص بمعني " لكي يطهّر الناس أفكارهم وطموحهم "[٦٥].

[ويحذر العقلاء من تصرفاتهم]:

إذا لم يجل الناس العقلاء و لم يرفعوا مقامهم فوق العوام لايشعر الفضلاء بتفوقهم علي غيرهم ولا يشعروا بأفضليتهم علي العوام ولايظنون أن لهم السلطة علي الناس وبالتالي لايتصرفون حسب رغباتهم متعالين علي العوام .

قيل معناه لكيلا يُكثر الأمور من يدعي بالحكمة والذكاء[٦٦] .

[إعمل من أجل "عدم الفعل" فلا يكون شيئ غير مصلح]:

قد ذكرنا مفهوم "عدم الفعل"بأنه لايقصد به تعطيل العمل أو الوقوف عن الفعل بل يراد به وقوف عن العمل الزائد خلافا لطبيعة الأمور أو البعد عن العمل المفرط وكذلك يعني حفظ طبيعة الأشياء وتركها علي طبيعتها . فعدم الفعل فد يكون حالة نفسية و قد يكون عملا حقيقيا وإذا كان حالة نفسية فيراد بها تلك الحالة التي تكون النفس فيها ساكنة ومطمئنة حين تجري الأمور علي طبيعتها ولاتحتاج إلي عمل وتبقي الأمور علي طبيعتها ، وإذا كان عملا حقيقيا فهو يراد ذلك العمل الذي حاول الإنسان به أن يحفظ طبيعة الأشياء ويعيد الأمور إلي طبيعتها وإلي التوسط بين الإفراط والتفريط .وهذا النوع من العمل يقال له العمل من أجل "عدم الفعل" .

ومعني النص أنه إذا قام أحد بعمل علي هذا النحو فهو يحل جميع المشاكل.

ويشير النص كذلك إلي أن عدم الفعل ليس تعطيلا لأعمال بل هو نفسه يحتاج إلي فعل وعمل .

---

(٦٤) المصدر السابق :ص: ٧٦

(٦٥) < حكمة الصين > ص:٣٣.

(٦٦) < دراسة داو ده- جين> ، ص ٧٣.

إن "داو" خال ولكن فعله لا ينقطع
يا لقدمه ! كأنه أصل الكائنات ؛ يا لغموضه ! كأنه الوجود بين العدم ولاأدري ممن تولد كأنه وجد قبل الملك.[٦٧]

الشرح:

[إن "داو" خال ولكن آثاره لاتنقطع]:

يعني أن "داو" وجود روحي و مجرد من المادة و الصورة و غير متحيز فليس له ذات محسوسة ولا جسم متكثف كأنه فارغ و خال .

ولكن هذا "داو" الخالي لايتوقف عن العمل فالحركات في الكائنات كلها تعتبر آثارعمله ومن ثم مهما كان خلاؤه و فراغه إلا أن آثاره باقية لاتنقطع .

شرح "خه شان قون" بأن "داو" متواضع دائما بلا تكبر[٦٨] .

قال العالم المعاصر " تشين قو يين": إن ذات "داو" فارغ وهذا لايعني أن ذاته لا شيئ بل مراده أن ذاته تملك العناصر الضرورية لخلق الكائنات ولذلك لا تنتهي أعماله . [٦٩]

---

[67] إن النص يؤكد أن "داو" قديم روحي غير متحيز و متعال عن الأوصاف المادية فلا يدرك بالأبصار ولكنه في نفس الوقت فعال إذ لاينقطع عمله .

بناء علي الأوصاف المذكورة نري أن لوتس لم يقصد من "داو" إلا الإله الأزلي.

يري بعض العلماء المحدثون أن لوتس لايؤمن بأي إله ودليل ذلك أن الملك الذي يعتبره الصينيون كالإله الأعلي كان متأخرا عن وجود "داو" كما يشير إليه نص الكتاب فلا يخلو من أن لوتس كان ينكر ألوهية الملك وأسقطه من مقام السلطان الكوني .

ولكن بعد التحقيق الدقيق والدراسة الشاملة يتبين أن الإله الذي يؤمن به لوتس غير ما يتصوره عامة الناس ويعبدونه ويري لوتس أن الناس قد شوّهوا الإله الحق بأفعالهم الوثنية ولذلك أنكر كون الملك إلها ولكنه كان يؤمن بالإله الحق وعبّر عنه ب"داو" و جعله يحل محل الملك المعبود عند الناس . وفي الحقيقة لم يقصد لوتس ب"داو" إلا الإله الحق بالاسم الجديد.

ويمكننا أن نثبت بهذا النص أن لوتس كان يؤمن بإله وهو الإله الحق عنده وكان يحاول أن يثبت ألوهيته بطرق مختلفة ويبين أوصافه بوسائل شتي.

[68] < تفسير خه شان قون > ، ص: ١٤.

[69] < لوتس شرحا وتعليقا > ص: ٧٧.

[يا لقدمه ! كأنه أصل الكائنات]:

إن "داو" قديم أزلي وجد قبل كل شيئ و تولدت منه الكائنات فهو أصل الكائنات والكلمة التي ترجمتها إلي معني "قدم" كانت بمعني العمق فأري أن العمق من ناحية الزمن أقرب إلي معني القدم .

[كأنه الوجود بين العدم]:

كما شرحنا أن "داو" كائن حقيقي ولكنه غير مدرك بالحواس فهو الوجود من جانب والعدم من جانب آخر أي ظاهر من ناحية وباطن من ناحية أخري ولذلك قال لوتس : كأنه وجود بين العدم .

[كأنه وجد قبل الملك]:

إختلف العلماء في المراد من كلمة الملك فقيل مراده الملك السماوي الذي يعبده الصينيون القدامي كالإله الأعلي ويسمونه ب"شان دي"(Shang Di) بمعني الإله الأعلي ولذلك ترجمها "لين يو تان"(Ling Yu Tang) وغيره إلي كلمة God[٧٠].

وقيل مراده الملك الأصفر الذي يحكي أنه من أقدم البشر علي الأرض وأنه الجد الأعلي للصينين ويقال إنه وحّد بلاد الصين و أنقذها من أيدي القبائل المتقاتلة ولذلك يعبده الصينيون بعد موته كالجد الأعلي وأطلقوا عليه اسم الملك الأصفر.

علي أية حالة فإن الصينيين يرون أن الملك سواء كان الملك السماوي أو الملك الأصفر هو أقدم حالات الوجود علي الأرض ولكن فيما يري لوتس أن "داو" أقدم منه كناية عن أنه أزلي وأبدي .

[70] انظر < حكمة الصين > ، ص:٣٣.

<Sacred books of the East >edited by Max Muller translated by Oriental scholars, vol p 50.

لاتتعاطف السماء والأرض فتعتبران الكائنات كلبا عشبيا و لا يتعاطف الحكيم فيعتبر الشعب كلبا عشبيا . ألم يكن ما بين السماء والأرض كالمنفاخ و مهما كان خلاؤه لاينتهي عمله وكلما يتحرك تزداد آثاره.

كثرة الكلام تؤدي إلي النفاد وإنها ليست أفضل من حفظ التوسط.[71]

الشرح:

[لاتتعاطف السماء والأرض فتعتبران الكائنات كلبا عشبيا]:

السماء والأرض يراد بهما العالم الطبيعي فالعالم الطبيعي ليس له عواطف بأن يحب شيئا و يكره شيئا فهو لايميل إلي شيئ دون الآخر بالمحبة كما أن الشمس تطلع علي الجميع بقدر السواء و أن القمر ينير الجميع بنفس النور و يعني أن الطبيعة تعامل الجميع معاملة واحدة.

الكلب العشبي هو ما يصنع من الحشائش والعشب في صورة الكلب و ينصب علي المنضد كقربان عند الاستسقاء والدعاء لرفع البلايا والمشقات وكان الكلب العشبي يستخدم في مثل هذه المناسبات فقط وبعد ذلك يرمي بعيدا كأشياء فضولية ولا يهتم به أحد .

و بهذا يتبين أن السماء والأرض لا تتعاطفان مع نوع معين من الكائنات ولا ميل لهما بمحبة خاصة بل تعتبران كل الكائنات كلبا عشبيا و تعاملان جميع أفرادها معاملة واحدة.

---

[71] إن النص يدعو إلي معاملة الناس بالعدل والسواسية ولايريد الاستهانة بالناس من تشبيههم بالكلب العشبي بل يشير إلي أنه من الحكمة معاملة الناس بالحق والعدل لا بالعواطف الشخصية وهذا هو دأب الحكماء .ويشير النص إلي فكرتين مهمتين في الفلسفة الداوية وهما فكرة "العدم" وفكرة الوسطية.

أولا: مفهوم العدم مفهوم هام عند الفلسفة الداوية إذ إنها لاتعتبر العدم شيئا معدوما بل تراه حالة لنوع من الوجود وعلي سبيل المثال أن الإناء يكون خاليا في جوفه فيراه الناس عدما في جوفه ولكن تراه الداوية وجود الفراغ فيه من ناحية أخري وإنما تتحقق فائدة الإناء بذلك العدم أو الفراغ.

وعلي هذا لايكون العدم عند الداوية عدما مطلقا وفاقد الفوائد بل هو حالة وجودية تظهر بها قيمة الشيئ وتتحقق فائدته .

الاهتمام بفلسفة العدم من أهم خصائص الفلسفة الداوية ،

ثانيا: الوسطية عبارة عن حالة معتدلة بين التفريط والإفراط ، و هي منهج الحياة عند الداوية كما هي المعيار الأخلاقي عندها .

شرح أكثر المفسرين بأن السماء والأرض ليست كالإنسان الذي يمتاز بالإحساس والشعور والعواطف والذي يميل إلي شيئ دون آخر ويفضل البعض علي بعض . [٧٢]

[لا يتعاطف الحكيم فيعتبر الشعب كلبا عشبيا]:

الحكيم يتعلم من خصائص السماء والأرض و يتخلق بأخلاقهما فلا يتعاطف مع أحد ولا يميل إلي بعض الناس دون آخر لأنه يعتبر كل واحد كليا عشبيا و يعاملهم معاملة واحدة . و معني ذلك أن الحكيم لايفرق بين الناس ولايفضل بعضهم علي بعض .

و قال "خه شان قون": إن السماء والأرض في أثناء نشوء الأشياء لم تخصصا لشيئ بفضلهما وتتشؤ الأشياء بنفسها حسب الطبيعة وإنهما أنجبتا الكائنات و كان الإنسان أفضل من بينها ولكن السماء والأرض تعتبرانه كلبا عشبيا فلا تنتظران منه الجزاء وكذلك الحكيم فإنه يربي الشعوب ولايمن علي بعضهم بفضل خاص وإنما يتعلم من السماء والأرض فيتركهم علي طبيعتهم و يعتبرهم كلبا عشبيا فلا ينتظر منهم شكورا.--إنتهي[٧٣]

[ألم يكن ما بين السماء والأرض كالمنفاخ]:

المنفاخ عند الصينيين عبارة عن صندوق خال فيه قطعة من الخشب كمحرك الهواء متصلا بالعود إلي الخارج و في نهاية العود ممسكة فيحرك المحرك من الخارج حتي يثير الهواء وفي الجهة الأمامية من الصندوق حفرة كمخرج الهواء وفي الجهة الخلفية حفرة كمدخل الهواء وكلما يتحرك المحرك يدخل الهواء من المدخل وينفخ إلي الخارج حتي يشعل نارا. فالسماء من أعلي والأرض من أسفل و بينهما فضاء والمجموع كمنفاخ ضخم .

[وكلما يتحرك تزداد آثاره]:

كلما تزداد حركة المحرك يشتد الهواء وكذلك شأن السماء والأرض إذ تزداد قوة النماء و النشوء في العالم بحركة أفلاك السماء والأرض.

[كثرة الكلام تؤدي إلي النفاد وإنها ليست أفضل من حفظ التوسط]:

الكلام يعبر عما في القلب وفالكلام محدود و ينفد إذا كثر و قيل معناه أن قلة العمل مع كثرة الكلام تجعل صاحبه في موقف الحرج والتوقف عن العمل لأنه لا يقدر علي تطبيق كل ما تكلم والنتيجة تكون إعراضا عما قال و من الأفضل أن يتكلم الإنسان بقدر ما يستطيع أن يعمل به حتي يقدر علي التطبيق ولايكون الكلام خاليا من النتيجة.

---

[72] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص ٧٨-٧٩.

[73] تفسير خه شان قون : ص:١٨.

وقيل : معناه أن كثرة الكلام يؤذي صاحبه وينتهي به إلي الهلاك والأفضل أن يحفظ قلبه. فالتوسط يراد به القلب لأنه يقع في وسط الصدر .

وقيل يراد بالكلام القوانين فمعناه أن كثرة القوانين تقيد حركات الإنسان وتضيق حياتهم وبالتالي تهلك الحياة الإنسانية.

ويبدو لي أن النص يدعو إلي الالتزام بالتوسط في الكلام وفي كل الشيئ.

روح الوادي لن تموت ؛ وهي أنثي غامضة وإن باب الأنوثة الغامضة مصدر السماء والأرض وتبقي أبديا ولا ينقطع عملها.

الشرح:

[روح الوادي لن يموت]:

ومن المعروف أن الوادي هو مسيل وعبارة عن مكان خال واسع بين الجبال ويمتاز بصفة الخلو والسعة . فروح الوادي يراد بها الكائن الخالي كالوادي كناية عن أن "داو" يمتاز بصفة الفضاء الذي لا يتحيز ولا يتحدد وليس له جسم كثيف بل هو كائن روحي ويؤيد هذا الرأي معظم العلماء قائلين بأن المراد بروح الوادي هو "داو"[٧٤] .

شرحه "وان بي" بأن روح الوادي هو ما يخلو وسطه و ليس له صورة ولا ظل.[٧٥] ويقصد أنه كائن لطيف غير محسوس.

ومعني النص يكون :أن "داو" كائن روحي غير مدرك بالحواس يبقي أبدا و لن يموت. إن النص أشار إلي مزيد من جوانب "داو" حيث بيّن أنه حي لايموت وهو كائن غير متحيز كأنه الخالي وفعال أبدي بل هو مبدؤ السموات والأرض .

[وهي أنثي غامضة]:

إن "داو" غير مدرك و لاتعرف حقيقته ولكنه من جانب آخر مبدأ الموجودات و أم الكائنات فهو كالأنثي و تنجب أولادها بطريقة غامضة .

نري من النص أن "داو" لم يتوقف عن العمل بعد إبداع السماء والأرض بل يستمر عمله في إيجاد الأشياء الجديدة إلي الأبد وقد شبّه النص "داو" بالأنثي لوجه أنه يصدر الأشياء كما تنجب المرأة الأولاد .

[وإن باب الأنوثة الغامضة مصدر السماء والأرض]:

باب الأنوثة هو ما يخرج منه الوليد وقد شبهت قوة الخلق والإيجاد بباب الولادة و يعني النص أن "داو" مصدر الكائنات وبعبارة أخري إنه سبب كل شيئ.

---

74 المصدر السابق ، ص: ٨٦.

75 < شرح وان بي > ، ص:٣٤٣.

ونلاحظ أن لوتس في قضية نشأة الكائنات لم يذهب إلي فكرة الخلق بل عبّر عن ذلك بالولادة والإنجاب ولعل ذلك أسهل علي العقول لفهم حدوث الأشياء من العدم كما فعل الفلاسفة اليونانيون فيما ذهبوا إليه من نظرية الفيض فرارا من نفس المشكلة .

تبقي السماء وتخلد الأرض . إن السماء والأرض قديمتان باقيتان وذلك لأنهما لا تتوالدان بنفسيهما ومن ثم تخلدان .
إن الحكيم يتخلف عن الناس ولكنه يقدمه غيره إلي الأمام وإنه لا يبالي بنفسه ولكن حفظت حياته . ألاوليس له طموح شخصي ولكن حصل كل ما اشتهي .[٧٦]

الشرح :

[تبقي السماء وتخلد الأرض----ومن ثم تخلدان]:

البقاء والخلد هنا لا يراد بهما القدم و الأزل وإنما يراد بهما طول العمر واستمرار الوجود ، وفي الحقيقة أن النص هنا يستدل ببقاء السماء والأرض علي حدوثهما كما استدل علي وجود مبدئهما وطريقة الاستدلال هي أن السماء والأرض تبقيان وذلك لأنهما لم تخلقا نفسيهما بل خلقهما خالق آخر وذلك الخالق خلقهما وأبقاهما علي صورتهما الحالية منذ زمن قديم ومن ثم نري السماء والأرض تبقيان علي صورتهما وتخلدان ولو أنهما قادرتان علي الخلق لتغيرتا بنفسيهما ولتجددتا مرة بعد أخري فلم تبقيا علي صورة واحدة. فبقاؤهما علي صورة واحدة دليل علي وجودهما من مصدر آخر حيث دل علي أنهما مخلوقتان و لهما خالق .

---

[76] إن النص عرض لنا طريقة الاستدلال علي وجود الخالق و حدوث العالم عند لوتس . وكان النص يريد أن يبين سبب بقاء السماء والأرض وطول عمرهما بأنهما لم تخلقا أنفسهما ولم تقدرا علي تغيير نفسيهما فطال لهما العمر . لكنه بذاك دل علي أنهما مخلوقتان فيلزم ذلك إيمانا بوجود الخالق لأن المخلوق لا بد له من الخالق وأن الحادث لا بد له من المحدث فالمحدث هو "داو" الذي خلق السماء والأرض .
ثم بين النص أهم عناصر الأخلاق و هو الكرم و عدم طلب المآرب الشخصية . و يفهم من خلال دراسة النص أن الحكماء كذلك لايخلون من المآرب الذاتية كما يقول النص :"حصلوا ما يشتهون " ولكن طريقة تحقيق المآرب عند الحكماء تختلف عن طريقة العوام إذ أن الحكماء يعملون للمصالح العامة و يغفلون عن أنفسهم فيعود عليهم جزاء تلك الحسنة و بذلك يحققون مآربهم بينما العوام يسعون من أجل تحقيق المصالح الشخصية فيجلبون لومة اللائم دائما و من الأظهر أن الطريقة الأولي أذكي لأنها تحصل نفعا لنفس الفاعل وخدمات لغيره ولايجلب إلا الحسنة.

[إن الحكيم يتخلف عن الناس ولكنه يقدمه غيره إلي الأمام]:
إن صاحب "داو" لا يحب أن يظهر نفسه أمام الناس بل يتواضع فيتخلف عن الناس و ينسحب إلي الخلف ولكن الناس يقدمونه إلي الأمام لحسن سلوكه وفضله أو معناه أن أصحاب "داو" لايريدون الرئاسة فيختفون وراء الناس ولكن لما عرف الناس فضلهم دفعوهم إلي مقام الرئاسة كما شرح "خه شان قون": من يقدّم غيزه علي نفسه يحترمه العالم ويجعله رئيسا[٧٧] .

[ولا يبالي بنفسه ولكن حفظت حياته]
الحكيم ينشغل في الشؤون العامة ومصالح الناس دون انتباه إلي نفسه حتي لا يبالي بحياته من أجل مصالح الناس ولكنه كلما بذل في ذلك أكثر حصل لنفسه سلامة أكثر كما قال " خه شان قون " : من يستخف نفسه ويعظم غيره يحبه الشعب كأبويهم ويحفظه الآلهة كابنها الحبيب ولذلك يكون في العافية دائما [٧٨].

[ألاوليس له طموح شخصي فقد حصل كل ما اشتهي]:
الحكماء ليست لهم مآرب شخصية وكل ما يعملونه كان من أجل الآخرين ، ولكن جهودهم التي بذلوها للمصالح العامة تعود عليهم بجزائها .
شرح "خه شان قون" : إن الحكماء يحبهم الناس و ينصرهم الآلهة ؛ أليس ذلك من نتيجة عدالتهم و عدم طموحهم الذاتي ؛ و من يعمل لنفسه يعظم نفسه و الحكماءلا يعملون لأنفسهم فنالوا التعظيم من الناس ولذلك حصلوا علي ما يشتهون[٧٩].

---

77 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٢٦.
78 المصدر السابق ، ص: ٢٦.
79 المصدر السابق ص: ٢٦.

الفضيلة العليا مثل الماء وإن الماء ينفع الكائنات من غير أن ينافسها وينزل في مكان يكرهه الناس ولذلك أقرب إلي "داو".
إن (صاحب الفضيلة العليا) يحب الأرض الطيبة للبقاء ويحب التعمق عند التفكير ويحب الرحمة عند المعاملة ويحب الأمانة عند الكلام ويحب الإصلاح في السياسة ويحب تقدير القدرة قبل العمل و يحب اختيار الوقت قبل الفعل .
لأنه لا ينافس فلا لوم فيه.[80]

الشرح :
[وإن الماء ينفع الكائنات من غير أن ينافسها]:
صاحب الفضيلة العليا يمتاز بطبيعة الماء و من المعروف أن الماء أساس الحياة و يغذي جميع الموجودات مع أنه لا ينافس شيئا حيث يجري في مجراه و يقف عند موانع و يسيل إذا كان مخرج ويسير سيرا طبيعيا .
كذلك الفضلاء فإنهم ينفعون الناس ولا ينافسون أحدا كما يشرح "خه شان قون" :"إن صاحب الفضيلة العليا مثل الماء وأن الماء لوكان في السماء كان ضبابا وندي ولو كان علي الأرض صار عيونا "[81]. ويعني أن الماء ينفع الناس علي أية حال .

---

[80] لقد وضع النص بعض مبادئ الأخلاق للداويين وإنه قد شبّه صاحب الفضيلة العليا بالماء الذي فيه النفع للجميع وعدم المنافسة مع أي أحد و الذي يقف في الأسفل ويشير إلي أن من تحلي بأوصاف الماء فقد اقترب من "داو".

ويري لوتس أنه ينبغي للفضلاء أن يراعوا الأمور التالية : مصاحبة الفقراء و التعمق عند الفكر والرحمة في المعاملة والأمانة عند الكلام والاهتمام بالإصلاح في السياسة و تقدير طاقة أنفسهم قبل العمل و اختيار أنسب الوقت للعمل.

والنص يعلم الناس فن المعاملة ويبين ما يجب عليه الفضلاء فيؤكد أهمية عدم المنافسة باعتباره سرّ النجاح والفلاح كما أن الماء لا يتنافس مع شيئ بل يتغلب علي جميع الأشياء.

والنص في الحقيقة يبين بعض أوصاف "داو" من خلال استعارة طبيعة الماء كما يدعو الفضلاء إلي التحلي بها وأهم هذه الطبيعة هي عدم المنافسة والتواضع .

[81] المصدر السابق ص: ٢٨.

[وينزل في مكان يكرهه الناس]:

الماء يجري من مكان مرتفع إلي مكان منخفض و يبقي في أسفل الأرض حيث لايحب الناس البقاء فيه و هذا كناية عن أن الفضلاء هم الذين يتركون المقام الرفيع و ينزلون إلي أسفل المجتمعات و يقفون مع الطبقات السفلي التي يكره الأشراف زيارتها ومن ثم كان الفضلاء يعرفون مشقات الفقراء والمساكين و يحلون لهم المشاكل .

وشرح العالم المعاصر "تشين قو يين" هذه العبارة بأن أصحاب الفضيلة العليا يذهبون إلي مكان لا يريد الذهاب إليه الآخرون و يعملون عملا لا يريد عمله الآخرون [٨٢].

[ولذلك أقرب إلي "داو"]:

بما أن صاحب الفضيلة العليا يمتاز بتلك الأوصاف المحمودة كان أقرب إلي "داو" .

وقيل أن الماء أقرب إلي "داو" بما يمتاز به من بعض الخواص التي تختص ب"داو"

[إن (صاحب الفضيلة العليا) يحب الأرض الطيبة للبقاء]:

إنه يختار لنفسه مكانا يحفظ فيه الفضائل ويساعد نفسه علي نمّو الأخلاق . وقيل إن هذا النص يجب أن يترجم علي النحو التالي : "إنه يحب مكانا منخفضا للإقامة ". بمعني أن الفاضل يكون مع الناس في طبقات الأسفلين و هم الفقراء والمسكين كما أن الماء يبقي في مكان منخفض .

[ويحب الإصلاح في السياسة]:

إنه عندما في يده سلطة الرئاسة يجعل إصلاح المجتمعات أساس سياسته وهدف حكمه .

[ويحب تقدير القدرة عند العمل]:

إن الفاضل قبل العمل يقدر قوة نفسه ، ويفكر هل هو قادر علي ذلك أم لا . إذا كان في مقدرته عمل وإلا فلا .

[لأنه لا ينافس فلا لوم فيه]:

الفاضل لا يتنافس مع أحد في شيئ فلا يعتدي عليه أحد و لايلومه أحد .

شرح "خه شان قون" بأن الماء إذا سده شيئ وقف وإذا فتح جري و هكذا كان الماء يطيع إرادة الإنسان ، وتلك هي طبيعة الماء ولذلك لا أحد في العالم يلوم الماء [٨٣].

---

[82] < لوتس شرحا و تعليقا> ص :٩١ .

[83] < تفسير خه شان قون > ، ص: ٣٠.

الإصرار علي الامتلاء الكامل ليس بأفضل من الوقوف عند الحد .
حدة النصل لاتدوم طويلا ، وإن الذهب والأحجار الكريمة لا يمكن حفاظها ولوكانت تملؤ بالبيت ، التفاخر بالغني يجلب سوء العاقبة .
ومن الطريق السماوي إنسحاب بعد النجاح .

الشرح:

[الإصرار علي الامتلاء الكامل ليس بأفضل من الوقوف عند الحد]:
إذا صب الماء في إناء يجب أن يكتفي قبل الامتلاء الكامل وإلا فيفيض الماء لأن ليس بعد الامتلاء إلا الفيض وهذا كناية عن أن الإنسان لو كان يشعر نفسه بالكمال لا بد أن يفيض منه التكبر والتعالي فيؤدي ذلك إلي الفشل والنقص لأن الشيئ يعود إلي نقيضه بعد ما وصل إلي القمة فمن الأفضل للإنسان أن يتمسك بالحالة الوسطية بين التكبر والتذلل كما كان خيرا للإناء أن لا يمتلئ امتلاء كاملا بل يكتفي بحد معقول .

[حدة النصل لاتدوم طويلا]:
النصل الحاد يقطع كل شيئ ولكن حدته لاتبقي لوقت طويل عند الاستعمال وهذا كناية عن أن شوكة الإنسان لاتبقي مدة طويلة وأنها تنفد بمواجهة المشقات و التعب فمن الأحسن ألا يظهرالإنسان شوكته حتي تبقي الشوكة وقتا طويلا .

[وإن الذهب والأحجار الكريمة لا يمكن حفاظها ولوكانت تملؤ بالبيت ، التفاخر بالغني يجلب سوء العاقبة]:
حياة الرفاهية لا تبقي وقتا طويلا لأن الثروات ولو كانت ملأت بالبيت ستنفد بعد مرور الزمن من الاستهلاك .
شرح "خه شان قون" هذا النص بأن الشهوة تضر الروح و أن الثروة تتعب الجسم [٨٤].
معني ذلك أن الإنسان لا ينبغي أن يسعي وراء الثروات لأنها تضر صاحبها في النهاية.
النص يؤكد فكرة الوسطية بأنها حالة أفضل لنفسية الإنسان وحياته و أن لكل الشيئ حدودا و يجري كل أمر في حدوده وأما النهاية أو الحد الأقصي فلا يتيسر الوصول إليها حتي إذا ما توصل إليها الإنسان أحيانا لايبقي عندها طويلا. وليس من مقدرة الإنسان أن يصل إلي

[٨٤] المصدر السابق ص: ٣٢.

الكمال النهائي في كل الأمور ولوحدث ذلك صدفة لا يدوم فالإنسان لا ينبغي أن يطلب الحد الأقصي في الأمور بل يكتفي بقدر معقول حتي إذا وصل إلي الحد الأقصي يجب أن ينسحب بنفسه إلي حد التوسط لكي يبقي ناجحا. وهذا الموقف يوافق الإرادة الإلهية فيما يراه لوتس .

والحاصل أنه ليس من الحكمة أن يبذل الإنسان كل جهده في السعي وراء الثروة والجاه والمنصب وأن يجعل ذلك مبلغ علمه ومقصد حياته . فعليه أن يلتزم بالتوسط في كل شيئ لكيلا تنفد طاقته أثناء السعي لعدم الأهبة .

لعل الحديث النبوي الشريف عبر عن هذا المعني بصورة رائعة إذ يقول النبي صلي الله عليه وسلم : "خير الأمور أوسطها" .

[ومن الطريق السماوي إنسحاب بعد النجاح]:

لو فاز أحد في أمر من الأمور أو نجح في مجال معين و اشتهر به فعليه أن يختفي حينئذ و ينسحب من الميدان الذي نال فيه الشهرة ولو انهمك في شهرته و شغل بها عن العمل الحقيقي لعقبه الفشل والفساد فمن مقتضي الحكمة انسحاب بعد النجاح و من سلك هذا السبيل فقد سلك الطريق السماوي وهو سنة "داو" .

ألا يمكن تمسك الروح بالواحد دون انفصال .
ألا يمكن جمع التنفس لأجل التليين ليكون كالوليد.
هل يمكن عدم اللطخة إذا طهّر مع الإطلاع السري
هل يكون عدم الفعل إذا حكم البلد بحب الشعب .
هل يكون كالأنثي إذا فتح الباب السماوي .
هل يكون جهل إذا إطلع علي كل شيئ .[٨٥]

الشرح:
لقد اختلف المفسرون في فهم هذه الاستفهامات في النص فمنهم من يراها الاستفهامات التقريرية و منهم من يراها الاستفهامات الإنكارية ومنهم من يراها مختلطة بينهما فيختلف معني النص باختلاف الرأي في طبيعة هذه الاستفهامات.

[ألا يمكن تمسك الروح بالواحد بلا انفصال]:
هذه العبارة تتحدث عن الرياضة الروحية التي هي أهم جوانب الحياة عند الداوية و تشير إلي فكرة الإتحاد مع دلالة علي أن الاتحاد ب"داو" هو مقام أعلي للرياضة كما أن النص يؤكد إمكانية الإتحاد .
الواحد هنا يراد به "داو" كما يري معظم المفسرين؛
ومعني النص : هل تتحد روح الإنسان ب"داو" دون الانفصال بينهما ؟ وإن كان كذلك فيكون ذلك أحسن حالة نفسية و روحية. فيجب علي السالك أن يجتهد في الحصول علي تلك الوحدة وأن يحافظ عليها بلا إنفصال بقدر الإمكان .

---

[85] إن النص مع قصره وضع أهم المبادئ لكثير من مجالات الحياة كما قرّر أصولا للرياضة الروحية والبدنية وقد جعل إتحاد الروح ب"داو" هدفا نهائيا للرياضة الروحية و جعل اللين كالوليد أقصي حالة مطلوبة للرياضة البدنية و اعتبر الاطلاع السري أعلي مراتب العلم في المعرفة و جعل الحب أهم وسائل الحكم في السياسة و طبيعة الأنوثة أكمل خصال في المعاملة و الشعور بالجهل أعلي حالة نفسية عند طلب العلم .
فالنص اشتمل علي أهم مبادئ الرياضة و وضع أصولا لأهم جوانب الحياة .
وقد اعتمد عليه العلماء في البحث عن مناهج الرياضة والمعرفة عند لوتس وفي الحقيقة إن هذا النص يمثل نظرية أساسية للوتس في المجالين المذكورين .

والكلمة التي ترجمتها إلي معني الروح هي في الأصل الصيني تنطق ب " يين بوه " (Yin Po) وقد كثرت تفاسير حولها فقيل المراد منها قوتان للحياة أو إلهان في الجسم أحدهما في الكبد والآخر في الرئة و قيل بأن "يين" هو الهواء الذكوري بينما "بوه" هو الصورة و قيل المراد منها الروح وغير ذلك من الأقوال [٨٦] .

وآثرت منها معني الروح فالاستفهام هنا يكون استفهاما إنكاريا .

[ألا يمكن جمع التنفس لأجل التليين ليكون كالوليد]:

العبارة تتحدث عن الرياضة البدنية التي هي من أهم جوانب الحياة لدي الداوية وتعتبر الداوية الحالة الطفولية أحسن حالة صحية و بدنية للإنسان وتري أن الإنسان قد يتوصل إلي تلك الحالة بضبط التنفس و تسييره في داخل الجسم والنتيجة من ذلك هي أن يلين الجسم حتي كجسم الطفل الحديث الولادة.

و معني النص : هل يلين الجسم كالوليد بضبط التنفس؟ وإن كان كذلك فيكون ذلك أحسن حالة بدنية فعلي السالك أن يجتهد في الرياضة البدنية بضبط التنفس من أجل الحصول علي تلك الحالة .

والاستفهام هنا استفهام إنكاري .

[هل يمكن عدم اللطخة إذا طهّر مع الإطلاع السري]:

معناه : إذا طهّر الإنسان نفسه من الشهوات والأهواء ثم حصل له الإطلاع السري من ذلك هل تبقي بعد ذلك لطخة في نفسه ؟ والقصد من النص أنه لا تبقي لطخة الشك والريبة بعد تخلية الشهوات من النفس مع بقاء الإطلاع السري والاستفهام هنا استفهام إنكاري .

كلمة اللطخة هنا أصلا يراد بها شيئ قذر في داخل الأحجار الكريمة يلوث صفاء الحجرة وشفافها ثم استخدم في النص بمعني عدم الوضوح في المعرفة أو الريب و الشك.

و "الإطلاع السري" مفهوم خاص عند لوتس ولم نجده عند من قبله فشرح العلماء بمعان مختلفة فقال "خه شان قون" : أن يغسل القلب دائما حتي يكون نظيفا ويبقي في العمق فيطلع علي الأشياء وهذا ما يقال له الإطلاع السري وأما اللطخة فهي الشهوات" [٨٧] و قال "تشين قو يين": هو كناية عن الصفاء في أعماق القلب كالمرآة [٨٨]. و قيل إن

---

[86] انظر في < دراسة داو ده جين > ص: ٩٧-٩٨ وأيضا انظر في داو ده-جين شرحا و تعليقا ص:١٠١.

[87] < تفسير خه شان قون > ص: ٣٤-٣٥.

[88] < لوتس شرحا و تعليقا> ، ص: ٨٩.

الإطلاع السري هو نور في القلب و مرآة تعكس ما وراء الطبيعة و تطلع علي الكائنات [٨٩]. وقيل هو إطلاع قلبي وبالجملة هو المعرفة المباشرة دون الاعتماد علي البراهين الحسية والعقلية .

ويري "تشين قو يين" أن النص يدعو إلي تخلية الأفكار الفاسدة وترك الآراء الباطلة والعودة إلي البصيرة الأصلية المتكمنة داخل النفس [٩٠].

وإذا شرحنا الإطلاع السري بالعرفان الوجداني أو المعرفة الباطنية التي لا تعتمد علي البرهان العقلي والحسي لم نكن بعيدين عن قصد لوتس .

[هل يكون عدم الفعل إذا حكم البلد بحب الشعب] :

يجب علي الإنسان أن يلتزم بعدم الفعل في كل شيئ ولكن كيف يوفّق بين عدم الفعل و بين إدارة شئون البلاد التي تحتاج إلي الجهد والأعمال ؟ والجواب أن الحب من قبيل عدم الفعل وأن الحكم الناجح يكون هو ما خلا فيه من قوانين قاسية وعقوبات مخيفة . و إذا كان أساس الحكم قائما علي المحبة صلح الشعب والبلد و ذلك هو عين "عدم الفعل" لأن ذلك يوافق طبائع الناس . فعلي الحكام أن يتمسكوا بعدم الفعل في صورة الحب .

[هل يكون كالأنثي إذا فتح الباب السماوي] :

الأنثي يراد بها هنا الأوصاف الأنوثية مثل الصفاء و الهدوء والسكون .

الباب السماوي يراد به وسائل المعرفة كالعقل والحواس ؛ وقيل هو القلب.

ومعني النص : إذا فتحت وسائل المعرفة للإنسان وعرف الأشياء هل يستطيع أن يتمسك بالهدوء والسكون كالمرأة ؟ وذلك لأن المعرفة بشيء قد تحركه وتجره إلي امتلاكه وتشوّقه إلي حصوله .

والنص يدعو إلي التمسك بالحالة الأنوثية بعد امتلاك وسائل المعرفة و يعتبر ذلك من أحسن حالة نفسية.

[هل يكون جهل إذا إطلع علي كل شيئي]:

لما عرف الإنسان كل شيئ يعتبر نفسه عالما ولا يدعي بالجهل . ولكن النص يطلب من العلماء أن يعتبروا أنفسهم جهلاء بعد ما حصلوا علي العلوم والمعارف فلايتكبروا و لا يتوقفوا من الدراسة والتعلم ومعناه أن اعتبار نفسه جاهلا لا يعني جهلا حقيقيا.

وهذا يكون أحسن المواقف في طلب العلم.

---

[٨٩] المصدر السابق ، ص: ٨٩.

[٩٠] المصدر السابق ص: ١٠١.

يتكون الدولاب من ثلاثين شعا وبما أن فيه العدم تحققت فائدة العجلة و يصنع الإناء من إعتجان الطين و بما أن فيه العدم تحققت فائدة الإناء و تبني الغرفة من التشقيق للباب والنافذة وبما أن فيه العدم تحققت فائدة الغرفة و من ثم بالوجود تتحقق الإفادة وبالعدم يتم النفع .[٩١]

الشرح :

[يتكون الدولاب من ثلاثين شعا]:

من عادة الصينيين أن يتبعوا قوانين الطبيعة في كل شيئ فيجعلون دولاب العربة يتكون من ثلاثين شعا وفقا لثلاثين يوما في كل شهر[٩٢] .

[وبما فيه العدم تحققت فائدة العجلة]:

العدم في العجلة يراد به الحفرة في وسطها التي يدخل فيها المحمل ولولا هذه الحفرة لما أمكن إدخال المحمل في الدولاب ولا سبيل إلي تركيب الدولاب علي العربة . فالحفرة تلعب دورا أساسيا في العجلة والحفرة هي عدم وهذا كناية عن أن العدم لايخلو من الفائدة .

وكذلك الإناء وإنه لخلاء جوفه تحققت فائدة الإناء ومن أمثلة ذلك نافذة وباب علي جدران الغرفة وهما عبارة عن حفرة كبيرة في الجدران . و لو لا هذا العدم في الجدران لما استطاع الإنسان الدخول و الخروج منها فلا تصلح للسكني وفاتت فائدة الغرفة .

---

[91] يتحدث النص عن فلسفة العدم فيؤكد فائدة العدم . و كثيرا ما يتصور الإنسان أن العدم هو نفي وجود الشيء في الواقع وبالتالي يخلو من الفوائد و لكن تري الفلسفة الداوية أن العدم هو نوع من الوجود بمعني وجود الخلاء و الفضاء و تعتبره كائنا لا معدوما فالعدم علي هذا المعني لا يخلو من الفوائد .

إن الوجود و العدم مفهومان نقيضان في تصورالإنسان ولكنهما يتحدان في كثير من الأحيان كما يتحدان في الإناء والدولاب بل تتم فائدة هذه الأشياء بالعدم الذي فيها وكانت العلاقة بين الوجود والعدم علاقة وثيقة لا ينفصل أحدهما عن الآخر .

وكان لوتس يهتم بجانب العدم في الأشياء حتي ينظر كثيرا من الأشياء والأمور بعين العدم وكذا الفلاسفة الصينيون بعده .

[92] < تفسير خه شان قون > ص:٤١.

[بالوجود تتحقق الإفادة وبالعدم يتم النفع]:

الشيء يكون مفيدا إذا كان موجودا و لوكان معدوما بحتا لما كان الكلام عن نفعه فالانتفاع بشيئ يقتضي ثبوته واقعيا ثم إن كثيرا من الأشياء يستفاد من الخلاء في جوفها . و تتحقق فائدة تلك الأشياء بذلك الخلاء و علي سبيل المثال إن الإناء لو لم يكن في جوفه خلاء لما يسع لشيئ ومن جانب آخر لولا نفس الإناء لما وجد شيء يقال له إناء أصلا فالخلاء هو ما عبّر عنه النص بالعدم ولذلك إن الوجود يفيد ثبوت الشيء وإنه ب"العدم" فيه يتحقق نفعه .

وقد شرح بعض العلماء هذا النص بالقول :" إن الوجود قدم أساسا وشرطا للانتفاع فتحقق به شيء "[٩٣] .

[٩٣] < ماذا يقول لوتس فعلا > ، ص:٧٧.

إن الألوان الخمسة تعمي الأبصار وأن الأصوات الخمسة تصم الأسماع وأن الطعوم الخمسة تضعف الأذواق كما أن السعي للصيد وراء الرغبات يجن القلوب وأن البضائع النادرة تجر الناس إلي الفواحش. ومن ثم كان الحكماء يعملون من أجل البطون لا من أجل الأبصار فيأخذون هذا و يتركون ذاك.[٩٤]

---

[٩٤] إن النص يشير إلي أهم الأفكار الفلسفية عند الصينيين و هي خماسية العناصر بأن العالم تكون من خمسة عناصر أساسية : الماء - - الخشب- - النار- - التراب - - المعدن.

وحسب هذه النظرية إن العناصر يتوالد بعضها بعضا علي الترتيب المذكور و هو أن الماء يولّد الخشب و الخشب يولّد النار و النار يولّد التراب والتراب يولّد المعدن ثم لا تقف سلسلة الولادة عند المعدن بل تستمرّ التوليد بأن المعدن يعود يولّد الماء ويبدأ الدور الثاني من جديد وهكذا يتوالد بعضها عن بعض فنشأ العالم من توالد هذه العناصر .

ثم هذه العناصر لم تكن يتوالد بعضها بعضا فحسب بل من العجب أن تتغالب العناصر بعضها بعضا ويقضي عليه علي عكس الترتيب المذكور و وذلك أن المعدن يغلب التراب ويقضي عليه ويغلب التراب النار ويغلب النار الخشب ويغلب الخشب الماء ولم تقف المغالبة عند الماء كذلك بل عاد يغلب الماء المعدن وتبدأ المغالبة من دور جديد وكانت المغالبة تلعب دورا لحفظ التوازن في التركيبات وإن العالم يبقي بفضل توازن أجزائه ويرجع فضل ذلك إلي قوة المغالبة في العناصر .

وإن فكرة خماسية العناصر لم تكن محصورة في تحليل قضية نشأة العالم بل تسرّبت الفكرة في جميع مجالات الطبيعة وذلك أن الصينيين القدامي يرورن لكل عنصر من العناصر خواص معينة و بما أن العالم تكوّن من العناصر الخمسة فيظهر أثرها في كل نوع من الأشياء في العالم أوفي مجال من مجالات الطبيعة وعلي سبيل المثال : إن الربيع يمتاز بخاصية الخشب فتنبت فيه الأشياء والصيف الحار يمتاز بخاصية النار والصيف الطويل يمتاز بخاصية التراب والخريف يمتاز بخاصية المعدن والشتاء يمتاز بخاصية الماء وهو بارد وهذا من ناحية تقسيم الفصول .

وأما من ناحية تقسيم الجهات فالشرق يمتاز بخاصية الخشب والجنوب يمتاز بخاصية النار والوسط يمتاز بخاصية التراب والغرب يمتاز بخاصية المعدن والشمال يمتاز بخاصية الماء .

ومن ناحية الطعم فالحمض يمتاز بخاصية الخشب والمرارة تمتاز بخاصية النار والطعم القابض يمتاز بخاصية المعدن والملوحة تمتاز بخاصية التراب والحلاوة تمتاز بخاصية الماء .

ومن ناحية الألوان السمرة تمتاز بخاصية الخشب والحمرة تمتاز بخاصية النار والصفرة تمتاز بخاصية التراب والسواد يمتاز بخاصية المعدن والبياض يمتاز بخاصية الماء .

والإنسان وحدة واحدة ولكنه يمتاز بجميع خواص العناصر فالكبد يمتاز بخاصية الخشب والقلب يمتاز بخاصية النار والمعدة تمتاز بخاصية التراب والرئة تمتاز بخاصية المعدن والكلية تمتاز بخاصية الماء ثم في الأعضاء الخارجية تمتاز العين بخاصية الخشب واللسان يمتاز بخاصية النار والفم يمتاز بخاصية التراب والأنف يمتاز بخاصية المعدن والأذن تمتاز بخاصية الماء . وفي الشعور الإنساني الغضب يمتاز

الشرح:

[إن الألوان الخمسة تعمي الأبصار]:

تري الفلسفة الصينية أن العالم يتكون من خمسة عناصر و هي الماء والنار و التراب والخشب والذهب فالعالم عبارة عن تركيبات العناصر الخمسة ومن ثم جميع الأشياء في العالم تمتاز بخصائص العناصر الخمسة وقد تسربت هذه الخصائص في كل شيئ بل في كل الحالات و الظواهر . و هذه الفكرة يقال لها عند الصينيين فكرة "خمسية العناصر" أو "خماسية العناصر" .

وبناء علي ذلك كانت الألوان مقسمة علي الخمس وهي السمرة والحمرة والصفرة والبياض و السواد .فيري لوتس أن الانغماس في الملونات يعمي الأبصار و يضعف حس البصر . و النص كناية عن أن الحب للملونات يغشي بصر الإنسان عن رؤية الحق فيجب أن يقلل الشهوة في الملونات والمزينات حتي لا تسلب بصر الإنسان .

[وأن الأصوات الخمسة تصم الأسماع]:

الأصوات في الموسيقي الحديث تنقسم إلي سبعة أصوات ولكنها عند القدماء الصينيين خمسة وفق فكرة خماسية العناصر . ويري لوتس أن الانغماس في الموسيقي والأصوات يضعف حاسة السمع كناية عن أن حب الحياة المترفة يسد الناس من سماع الحق . وكذلك الطعوم الخمسة تضعف حاسة الذوق كناية عن أن الإشتهاء بالملذات المادية يمنع الناس من القول الحق و يغير الفطرة الأصلية .

بخاصية الخشب والفرح يمتاز بخاصية النار والشوق يمتاز بخاصية التراب والحزن يمتاز بخاصية المعدن والعجب يمتاز بخاصية الماء . وهكذا يمتاز كل شيء في العالم بخاصية من خواص العناصر .

إن قاعدة توالد العناصر وتغالبها هي قاعدة كلية عند الصينيين قديما وحديثا ويحلّلون كل الأمور بهذه القاعدة وعلي سبيل المثال إن الفحص الطبي علي الطريق التقليدي قائم علي هذه القاعدة فإن كان المرض في القلب الذي يمتاز بخاصية النار فهو يظهر أثره في تغير اللون علي اللسان فيظهر الحمر علي الوجه وتظهر المرارة في الفم و القلق في الجسم فالقلب واللسان والحمر والمرارة كلها يمتاز بخاصية النار ثم العلاج يكون باستخدام ما يغلب خاصية النار التي يمتاز بها القلب والأدوية تكون من الأشياء التي تمتاز بخاصية الماء وحسب هذه القاعدة الكلية يفحص الأطباء الأمراض ويصفون الأدوية .

شرح "خه شان قون" : "حب الفواحش والنساء يضر الروح والبصر حتي لايدرك الإنسان لون ما لا لون له و حب الأصوات الخمسة يقضي علي توازن القلب حتي لا يدرك الإنسان صوت مالا صوت له ومن ينغمس في الطعوم الخمسة يهلك فمه ويغيب "داو" في كلامه [٩٥] .

[السعي للصيد وراء الرغبات يجن القلوب]:

كان من عادة الناس أن يصيدوا في أوقات الفرح و السرور ويشغلهم ذلك عن واجباتهم و يخفّض هممهم فالإشتغال بالصيد وراء الشهوات يجن القلوب ويصرف الناس إلي ما لا يعنيهم شغلا عن واجباتهم.

[البضائع النادرة تجر الناس إلي الفواحش]:

حب الدنيا رؤس كل الخطيئة فمن كان في نفسه حب الثروات لا يرجي منه النجاة من الأخطاء و الفواحش.

البضائع النادرة عبارة عن الأشياء الثمينة لأن الشيئ الذي يصعب المنال يغلي ثمنه ومن طبيعة الإنسان أن يحب الأشياء الثمينة ويطمع فيها ولكن ذلك يترك في نفس الإنسان الشهوة وعدم القناعة ويجعله عبيدا للثروة بحيث تدفعه إلي جمعها بكل وسعه و لو بالوسائل الخسيسة حتي من إرتكاب الجرائم إذا تعسر الحصول عليها .

قال "وان بي": إن البضائع التي يصعب المنال تحول بين المرء و الصراط المستقيم و تجر الناس إلي الفواحش" [٩٦] .

والنص يؤكد حقيقة ما ذكره الحديث الشريف : "حب الدنيا رؤس كل خطيئة " فإن الألوان والأصوات والبضائع النادرة كلها من مغريات الحياة و إنها تغر الإنسان في هذه الدنيا بل الإنغماس في حب هذه الأشياء يضر الإنسان روحيا نفسيا و جسميا ويفسد طبيعته و أخلاقه فيجب علي الناس أن يتحذرها و يبتعدوا عن الإنغماس فيها.

[كان الحكماء يعملون من أجل البطون لا من أجل الأبصار]:

حب الألوان و الأصوات والبصائع النادرة كلها يجر الإنسان إلي الفواحش ولذلك كان الحكماء يكسبون بقدر ما يملأ بطونهم و يقوي أجسامهم ولا يخوضون في المغريات من الألوان والأصوات.

---

[٩٥] < تفسير خه شان قون > ص: ٤٥.
[٩٦] < تفسير خه شان قون > ،ص:٤٥.

وقال "وان بي" : الذين يعملون للبطون يستخدمون الأشياء لتقوية أنفسهم والذين يعملون للعيون يجعلون أنفسهم عبيدا للأشياء[٩٧] .
وقيل أن البطن يراد به النفس الداخلية (Inner self , the unconcious,the instinctive) ويراد بالعين النفس الخارجية أو العالم المحسوس [٩٨] .

[فيأخذون هذا و يتركون ذاك]:
أي يعملون من أجل البطون و يتركون العمل من أجل العيون .
و قال "خه شان قون" : يترك الرأي الباطل و يتمسك بتقوية الجسم .

[٩٧] المصدر السابق
[٩٨] انظر < حكمة الصين > ، ص:٣٦.

إن التكريم والتذليل يثيران الدهشة و(علي الإنسان) أن يحذر من الكوارث كالجسم وما يدريك أن التكريم والتذليل يثيران الدهشة ؟ إن التكريم رذيل حيث يثير الدهشة عند حصوله كما يثير الدهشة عند ضياعه   فهكذا أن التكريم والتذليل يثيران الدهشة . وما يدريك وجوب الحذر من الكوارث كالجسم ؟ ذلك أني أعاني الكوارث لأني أملك جسدا وإذا لم يكن لي جسد فما لي وللكوارث.

و من ثم من كان يهتم بالعالم كاهتمامه بنفسه يستحق أن يولي عليه أمور العالم و من كان يحب العالم كحبه لنفسه يستحق أن يوكل عليه العالم.[٩٩]

الشرح:

[إن التكريم والتذليل يثيران الدهشة]:

الإنسان يندهش بحصول التعظيم البالغ حين لا يتوقع كما يندهش من الذل الغليظ فيما لم يخطر بباله .

[أن يحذر من الكوارث كالجسم]:

يجب علي الإنسان أن يبتعد عن الكوارث و يحذر منها كما يحذر من الضرر علي إيذاء الجسم فينبغي للإنسان أن يحذر من الكوارث بقدر ما يعتني بجسمه.

و قيل إن النص الأصلي قد يكون بعبارة أخري أي : عليه أن يهتم بالجسم كالكوارث ، ثم قلب الناس الترتيب بين الجسم و الكوارث . وعلي هذا فيكون معني النص : علي الإنسان أن يحفظ جسمه من الضرر كما يفرّ من الكوارث .

---

[٩٩] يشير النص إلي أن حب النفس رأس كل الكوارث حيث أن المصائب و النكبات تنشؤ من حب الإنسان لنفسه لأن الحب الذاتي لا بد من أن يؤدي إلي الإساءة إلي الآخرين و إهدار حقوقهم فتنشؤ منه النتيجة السيئة كرد الفعل . و الإنسان بطبيعته يحب نفسه ويحب أن ينال العزة و يكره أن يقع في الذلة وهذا ما لا يلام فيه ولكن يجب أن يحذر ويبتعد عن السلبيات التي تنتج منه .فالملوك إذا إتخذوا سياسة الحب و أحبوا الشعب كحبهم لأنفسهم تأهلوا للحكم و الرئاسة و إلا فالكوارث حليفهم .

[إن التكريم رذيل. حيث يثير الدهشة عند حصوله كما يثير الدهشة عند ضياعه]:
إذا يتنعّم الإنسان في التكريم و يتمتع بمقام رفيع قل ما يفكر في حقيقة التكريم و أسبابه بل بالعكس كثيرا ما يذهب إلي الفخر والتكبر. فلو طال الوقت علي هذه الحالة لينقلب الوضع إلي نقيضه ويصير التكريم تذليلا ولذلك التكريم رذيل.
قال "وان بي" : بعد التكريم لا بد من التذليل و بعد العزة لا بد من الذلة ولذلك يستوي التكريم و التذليل و تستوي العزة و الذلة[100] .
يري "تشين قو يين" أنه لا فرق بين التذليل و التكريم في إهانة حرمة الإنسان إذ أن التذليل -- كما هو معلوم --عبارة عن إهانة حرمة الإنسان أما التعظيم فكذلك يسلب استقلال الشخصية الإنسانية لأنه من نال التعظيم يشعر دائما بأنه نال حظا خاصا فيحفظه بكل الدقة والحذر خوفا من الضياع و لكنه يستذل أمام من يمنح له التعظيم و يجامله فتضيع شخصيته كما هو شأن التذليل[101] .

[ذلك أني أعاني الكوارث لأني أملك جسدا]:
يشير النص إلي أن حب النفس أساس جميع الكوارث لأن الإنسان عادة يعمل لتحقيق متطلبات الجسم و يسعي وراء الملذات الجسمانية و الشهوات المادية فيجلب لنفسه المشقات والأخطار فلو لم يبال بنفسه في خدمة الآخرين ما ذا يصيبه ؟
وقيل إن الكوارث تنشأ من الجسم ولذلك يجب علي الناس أن يهتموا بالجسم و يتنبه به حتي لا تخرج منه الكوارث[102] .

[من ثم من كان يهتم بالعالم كاهتمامه بنفسه يستحق أن يولي عليه أمور العالم]:
إن الإنسان بطبيعته يحب نفسه ويهتم بنفسه فتنشؤ منه الكوارث والمصائب فلو يوجه هذا الحب و الإهتمام إلي العالم لكان يستحق أن يكون حاكما للعالم

100 <.شرح وان بي > :ص:٣٤٦.
101 انظر < لوتس شرحا و تعليقا> ، ص:١١٢.
102 انظر المصدر السابق ، ص: ١١٠.

ما لا يرى يقال له شفوف وما لا يسمع يقال له رِقّة وما لا يلمس يقال له لطافة
وهذه الثلاثة لا يبحث عنها و قد اتّحدت كالواحد. فلا يتنَور أعلاه ولا يتظَلم أسفله .
يا لقدمه إنه يتعالى عن التسمية فيعود إلى العدم و هذا ما يقال له "الوضع بلا هيئة" و
"الصورة بلا جوهر" وهو غامض فلا يرى وجهه عند المقابلة كما لا يرى ظهره عند المتابعة
وإذا تمسّكت بالقانون الماضى تقدر على سيطرة الحاضر.
والمعرفة بالبدء القديم أساس لمعرفة "داو".

الشرح:

[ما لا يرى يقال له شفوف وما لا يسمع يقال له رقّة وما لا يلمس يقال له لطافة]

ما لا يري ولا يسمع ولا يلمس يراد به "داو" لأن "داو" سر غامض لا يدرك بالحواس و أما الشفوف والرقة واللطافة فهي من خواص "داو"   والقصد من هذه الكلمات أن "داو" وجود غيبي لا يري و لايسمع و لا يلمس كما شرح "خه شان قون" : الشفاف ما لا لون له والرقيق ما لا صوت له و اللطيف ما لا صورة له[١٠٣] . فمن المعروف أنه يراد به "داو" .
و هذه الكلمات الثلاثة تنطق في النطق الصيني ب"يي"(Yi) "شي" (Xi) "وي"(WEi)   و من الغريب أن بعض العلماء النصاري لما إطلعوا علي هذا فرحوا به لأنهم وجدوا أن نطق هذه الكلمات الثلاثة قريبة من نطق" يهوي"---الإله الواحد عند اليهود فاتخذوها حجة لعظمة الديانة الإسرائيلية واعتبروها   شيئا من الإعجاز وزعموا أن إلههم مذكور في الكتاب المقدس الصيني [١٠٤] .

[وهذه الثلاثة لا يبحث عنها و قد إتحدت كالواحد]:

الخواص الثلاثة لا تدرك حقيقتها لأنها غير محسوسة ولا سبيل إلي معرفة طبيعتها فمن هذه الناحية تعتبر واحدة . أو معناه أن الخواص الثلاثة قد اجتمعت في ذات "داو" .
وقال "خه شان قون" : إن ما لا لون له ولا صوت له ولا صورة   لا يعبّر عنه باللسان ولا يكتب بالقلم بل يدرك بالسكون ويطلب بالروح [١٠٥]. ولا شك أن "خه شان قون" أراد بذلك "داو" لأنه قد يدرك بالوجدان الروحي .

[١٠٣] انظر < تفسير خه شان قون ،، ص: ٥٢.
[١٠٤] انظر انظر < حكمة لوتس ،، ص:٣٧.
[١٠٥] < تفسير خه شان قون > ، ص: ٥٣.

[لا يتنّور أعلاه و لا يتظلّم أسفله]:

إن جسما أو شيئا ماديا لا بد له من الطرف الأعلي والأسفل ويكون أعلاه مبصرا و أسفله مظلما فالأعلي يتنّور والأسفل يتظلم . و أما "داو" فهو لا يتنّور أعلاه و يتظلم أسفلهم لأنه لم يكن له الأعلي والأسفل اللذان هما من خصائص الأشياء المادية الجسمية .

[فيعود إلى العدم]:

ما دام "داو" شفافا و رقيقا و لطيفا لا يري ولا يسمع ولا يلمس فهو كالعدم بمعني غيابه عن الحواس و هو موجود بلا صورة محسوسة .

يصور لنا النص حالة وجود "داو" بأنه لا يري و لا يسمع و لا يلمس و تكون ذاته شفافة و رقيقة و لطيفة و متنزّهة عن جميع الخصائص المادية مثل اللون والصورة والصوت . وقد وصفه بالعدم ولم يرد بذلك إنكار وجود ه بل كان القصد هو تنزيهه عن الأوصاف المادية كما قال "تشين قو يين" : "إن "داو" وجود ما فوق التجربة و قد استخدم لوتس أسلوبا خاصا للتعبير عنه حيث أتي بالمصطلحات التي تختص بعالم التجربة محاولة لوصفه ولكن ذكر بعد ذلك عدم صلاحيتها لذات "داو" فأنكرها واحدة بعد أخري حتي يشير إلي أن "داو" يخالف جميع الكائنات مع إثبات وجوده "[١٠٦].

و النص يثبت أن "داو" كائن روحي و متنزه عن الأوصاف المادية.

[هذا ما يقال له "الوضع بلا هيئة" و "الصورة بلا جوهر"]

ما دام "داو" وجودا حقيقيا لا بد له من الصورة لوجوده وإن الشفوف والرقة و اللطافة و العدم وغيرها كلها تكون من صور وجوده ولكن ليس لهذه الصور أوضاع مرئية ولذلك يقال له الوضع بلا هيئة و الصورة بلا جوهر .

قال "خه شان قون" : إن الواحد ليس له هيئة و لكنه يجعل لكل الشيئ هيئة و ليس له صورة ولكنه يجعل لكل الكائنات صورة [١٠٧].

و قال "وان بي" : لو نقول عنه العدم فكيف تولدت منه الكائنات ولو نقول عنه الوجود لا نري له صورة و هذا هو الوضع بلا هيئة و الصورة بلا جوهر. [١٠٨] ومعني ذلك أن "داو" وجود غيبي

---

[106] . لوتس شرحا و تعليقا> ، ص:١١٦.

[107] . تفسير خه شان قون > ، ص: ٥٣.

[108] . شرح وان بي > ، ص:٣٤٧.

[إذا تمسّكت بالقانون الماضي تقدر على سيطرة الحاضر]

القانون السماوي واحد منذ القديم إلي اليوم و لا يتغير فمن عرفه و تمسك به لتمكن له أن يعرف الماضي كما يعرف الحاضر ولاستطاع أن يدبر الأمور الحاضرة حسب القانون القديم قياسا علي القانون القديم ولعل هذا كان نظرية لوتس للتطور التاريخي .

وهذا هو استخدام القديم للجديد .

[المعرفة بالبدء القديم أساس لمعرفة "داو"]:

البدء القديم يراد به بداية العالم . فمن عرف كيف نشأ العالم و كيف خرج من العدم إلي الوجود فقد عرف خالق العالم و لذلك المعرفة بالبدء القديم أساس لمعرفة "داو" .

الفصل الخامس عشر تجلي الأخلاق[١٠٩]

إنَ اللذين يحسنون الاشتغال ب"داو" فى القديم كانوا أصحاب الأسرار والأبصار وهم فى غاية العمق حيث لا يعرفون وبما أنَهم لا يعرفوّن يوصفون على وجه التقريب:

يا للتحير كأنهم يعبرون أنهار الشتاء.

يا للحذر كأنهم يتوقّون الجيران.

يا للوقار كأنهم يحضرون مجلس الضيافة.

يا للانبساط كأنما يذوب الجليد .

يا للبساطة كأنهم مواد خام

يا للتفتح كأنهم أودية خالية.

يا للغفلة كأنهم ماء عكر.

من ذا الذى يتصفّى رويدا من الكدرة بالسكون .

ومن ذا الذى ينمي رويدا بالحركة في السكون.

ومن يحافظ علي هذا الطريق لا يتكبر وبما أنه لا يتكبر يختفي ولا يُحدث شيئا

الشرح:

[إنَ اللذين يحسنون الاشتغال ب"داو" فى القديم كانوا أصحاب الأسرار والأبصار]:

الذين يسلكون سبيل "داو" و يطلبون الإتحاد به هم أصحاب الأسرار و ذوو الأبصار لأن الحياة الأسمي عند الداوية هي السير في "داو" وأن الغاية الأسمي للسير هي تذوق "داو" أوالإتحاد به و يعني النص أن الذين يشتغلون بالسيرفي "داو" لأجل تذوّقه والإتحاد به يملكون الأسرار ويبصرون الحقائق .

[يا للتحير كأنهم يعبرون أنهار الشتاء]:

يقول المفسرون إن الحيوان يتحير عند المشئ علي الجليد فيقدّم القدم ويؤخّر الأخري فكذلك يجب علي السالك أن يتنبه في سلوكه ويتحذر كما يتنبه الحيوان عندالمشئ علي الجليد .

[يا للحذر كأنهم يتوقّون الجيران]:

إن الإنسان حين يرتكب الجرائم يكون أول ما يخافه هو أن يطلع عليه جيرانه فلذلك يخفي جرائمه عن الجيران أولا حتي لا يسيئ القريب به الظن و لا يهجره المجتمع .فكذلك يجب

[١٠٩] العناوين من الفصل الخامس عشر فصاعدا نقلناها من تفسير خه شان قون ونلاحظ أن معظم العناوين لا يفهم ولا يوافق مضمون النص وإنما وضعها خه شان قون فنقلناها كما هي .

علي السالك أن يحذر في سلوكه و يتوقي الوقوع في الأخطاء كما يتوقي أن يتطلع علي جرائمه الجيران .

[يا للانبساط كأنما يذوب الجليد]:
إن السالك يغلب عليه الكرم والمودة وينشرح صدره وبحرارة هذه الطبيعة يذوب جميع العداوة كما يذوب الجليد تحت الشمس وهذا كناية عن أنه بقوة الانبساط تلين القلوب القاسية و تدفؤ النفوس الباردة وتتصلح المسالك الخاطئة فيتحل جميع المشاكل .

[يا للسذاجة كأنهم مواد خام]:
السذاجة يراد بها الفطرة النقية أو الطبيعة الأصلية والمواد الخام هي ما لم يقطع ولم يشكل بشكل غير طبيعي . ويشير النص إلي أن السالكين كانوا يحافظون علي الفطرة و يتمسكون بالصفاء و الصدق والبساطة و لم يتلوثوا بشيء من قذرات ثقافية أو لم يتغيروا من أصل الطبيعة .

[يا للتفتح كأنهم أودية خالية]:
يقصد به أن صدورهم واسعة كالوادي المفتوح كناية عن كرمهم و سماحتهم .

[يا للغفلة كأنهم ماء عكر]:
يقصد أن السالكين لا يبالون بشيئ ولا تعجبهم مغريات الحيات فكأنهم غفلان مثل ماء عكر و لا يميزون بين الخير و الشر وهذا كناية عن أنهم يحافظون علي الطبيعة الأصلية.[١١٠]
لا يخفي علي أحد أن النص يصف مقامات السالكين و أحوالهم و يبين طريقا يجب أن يقطعه السالك من أجل الوصول إلي الغاية وكانت الغاية الأسمي للرياضة عند لوتس هي تذوق "داو" والإتحاد به .
و من المقامات التي وضعها لوتس التنبه و الحذر والوقار والانبساط والسذاجة و الكرم و الغفلة (بمعني عدم المبالاة بالمصالح الذاتية) و صفاء القلب و السكون والتواضع . و نري من هذه المقامات أن الرياضة الروحية سواء كانت داوية أو إسلامية تشترك في بعض عناصرها من حيث الأسلوب و لو فهمنا تذوق ب"داو" علي أنه الفناء في الله عند الصوفية الإسلامية لكانت الرياضة الداوية التقت بالتصوف الإسلامي في هذه النقطة .

---
١١٠ < دراسة داو ده جين > ص:١٢٢.

وأشار النص إلي قانون العودة بمعني تناقل النقيضين وهو أن الشيء إذا وصّل إلي القمة يعود إلي نقيضه فالسكون مثلا لو وصل إلي غايته تنشؤ منه الحركة كما أن الحركة إذا وصلت إلي الغاية يظهر السكون .

إن أصحاب "داو" يعرفون هذا القانون فلما أرادوا الحركة لا يتحركون مباشرة بل يتمسكون بالسكون حتي إذا وصلوا إلي غاية السكون تنشؤ الحركة تلقائية بطريقة أو أخري.

ومن أجل توضيح مدلول هذا النص يستحسن بنا أن ننقل بعض الكلمات من أحد العلماء المشهورين في العصر الحاضر وقال :[إن هذا الفصل يصف أحوال من يتذوّق "داو" وإن "داو" سر غامض لا يدرك لغيبوبته ولذلك كان أصحاب "داو" متعمقين وصامتين فتصعب معرفتهم وأما أصحاب الدنيا فكانت صورهم ومزاجهم متدنسة و قلوبهم منحرقة للمصالح والشهوات فتنكشف أعماقهم بمجرد النظر ...... وقد وصف النص هيئة أصحاب "داو" وأحوالهم النفسية بالورع والتنبه و الوقار والانبساط والصدق والكرم والسذاجة والسكينة والحرية وغيرها من حالات روحية . و إن الكدر مقابل للصفاء والسكينة للحركة وهذا يشير من جانب إلي أن عملية نشاطة الحياة تنحدر من غاية الحركة إلي السكون كما أن عملية نشاطة الحياة ترتفع من غاية السكون إلي الحركة .... ويجب علي أصحاب "داو" أن يلجأوا إلي التربية الذاتية وإلي الاطمئنان القلبي حتي يحصلوا علي حالة الصفاء والنقاء إستعانة بقوة السكون في حين كانوا في أوضاع القلق والاضطراب . وهذا يوضح عملية نشاطة الحياة بأن تنحدر من غاية الحركة إلي السكون. وكذلك لو بقي أصحاب "داو" طويلا في حالة السكون العميق يتحركون ويفضيهم ذلك إلي عمل الإبداع وهذا يوضّح عملية نشاطة الحياة بأن ترتفع من غاية السكون إلي الحركة][١١١].

والنص علي كل حال وضع أصولا ومبادء للرياضة الروحية والبدنية للداوية .كما ذكر فيه أهم الجوانب للرياضة .

[من ذا الذى يتصفّى رويدا من الكدرة بالسكون]:

الماء يتكدر بالقلق والتحريك و يصفي بالسكون و هذا كناية عن أن الإنسان يقدر علي تصفية نفسه بسكون القلب والخواطر و الغاية من النص أن السالكين هم الذين يقدرون علي ذلك .

---

[١١١] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ١٢٢- ١٢٣.

[ومن ذا الذى ينمي الأشياء رويدا بالحركة من السكون]:

الشيئ يكون ساكتا جامدا في حالة السكون و يكون ناميا ومنتجا في حالة الحركة لأن الحركة عبارة عن تغير الوضع بينما السكون عبارة عن الثبوت في حالة واحدة . وحسب قانون العودة عند لوتس إذا وصل الشيء إلي غايته سيعود إلي نقيضه و لذلك إن الحركة إذا وصلت إلي الغاية ظهرمنها السكون و أن السكون إذا وصل إلي الغاية يعود إلي الحركة .

و بناء علي هذا القانون فيكون معني النص أنه من ذا الذي يقدر علي أن يتمسك بالسكون حتي إلي غايته فتنشؤ منه الحركة و بها يتقدم رويدا[١١٢].

و يريد النص أن أصحاب "داو" هم الذين يستطيعون ذلك .

و قيل معني النص : من ذا الذي يقدر علي تحريك الشيئ الساكن فيتحرك و ينمي [١١٣] .

[وبما أنه لا يتكبر يختفي ولا يحدث شيئا]:

لقد اختلفت عبارة هذا النص عند العلماء واخترت منها العبارة المذكورة مأخوذة من تفسير "خه شان قون" وتفسير "وان بي" ومعني النص واضح بأن صاحب "داو" لا يتكبر بل يختفي وراء الناس و لا يحدث أمورا تلفت إليها أنظار الناس .

---

112 < لوتس شرحا و تعليقا> ص:١٢٢.

113 < دراسة دلو دە-جين > ص:١٢٣.

(عليك) أن تلتزم بغاية الخلو وأن تحافظ علي غاية السكون .إنّ الكائنات تزدهر ولكنى أراها تعود فالكائنات متنوعة ويعود كل نوع إلى أصله.

العودة إلى الأصل يقال لها السكون والسكون هو عودة إلى الفطرة والعودة إلى الفطرة يقال لها الدوام والعلم بالدوام يقال له البصيرة .والجهل بالدوام يجلب الفوضى.

ومن عرف الدوام فهو محيط والمحيط عادل والعادل ملِك والملك مع السماء و السماء مع "داو" و"داو" خالد.

(من وصل إلى هذا المقام) لا يتعرض للخطر.[١١٤]

الشرح :

[(عليك) أن تلتزم بغاية الخلو وأن تحافظ على غاية السكون]:

---

[114] يشير النص إلي أهم القوانين الطبيعية فيما يري لوتس وهو قانون العودة بأن الأشياء الطبيعية تستمر حياتها بصورة دورانية حيث تنشؤ من أصل بسيط ثم تتطور حتي تزدهر ثم تتدهور حتي تـــعود إلي بدايتها وهكذا يتم دور واحد للحياة ثم تبدأ الحياة مرة أخري من دور جديد فعلي المستوي الكوني تري الداوية أن الكائنات صدرت من "داو" وستعود إلي "داو" وأنها بدأت من العدمْ وستعود إلي العدم . ولم يكن لوتس يري جريان قانون العودة في الأشياء الطبيعية فحسب بل يري أن المجتمع الإنساني كذلك يتبع هذا النظام حيث يبدؤ من الضعف ثم يتقوي حتي يصل إلي قمة الازدهار ثم يضعف حتي يعود إلي الحالة الأولي .

إن قانون العودة فيما أري قد يصلح لشرح الظواهر الطبيعية المتغيرة لأننا نشاهد تلك العودة في الكائنات وأما المجتمع الإنساني فإنه يتردد بين القوة والضعف وبين الازدهار والتخلف وكأنه يتبع قانون العودة ولكنه لا يعود إلي نفس البداية في كل مرة لأن المجتمع حين يجري علي طريق العودة يترقي كليا .

وقد أشار النص إلي أهم مبادئ الرياضة كما لمّح إلي شروط يتأهل بها المرء أن يكون ملكا ويبدو أن الملك عند لوتس يظهر ممن بلغ إلي مقام رفيع في مدارج روحية فكان التمسك بالسكون هو مبدؤ أساسي في طريق الرياضة وهو عبارة عن اطمئنان القلب وتخلية النفس من الشهوات وإن السكون يؤدي إلي البصيرة وإلي السلامة ثم يشير إلي أن نهاية الرياضة هي الاتحاد ب"داو" وأن الهدف من ذلك الإتحاد هو الخلود.

ربما الخلود عند لوتس كان يقصد الخلود الروحي ولكن الداوية بعد لوتس جعلته خلودا روحيا وجسديا معا باعتبار أن الإنسان المتحد ب"داو" يصعد إلي العالم الملكي حيا بروحه وجسده .

الخلو يراد به خلو القلب من الشهوات و الصفات المذمومة بينما السكون يراد به السكينة و الأمن من الضجر و كان الخلو والسكون من أصل طبيعة الإنسان كما كان الناس علي صفاء القلب ونقاء النفس أيام طفولتهم. فالنص يدعو بالعودة إلي الفطرة والصفاء كما قال "خه شان قون" :أصحاب "داو" يبتعدون عن الشهولت والغرائز ويطهّرون خمسة الأعضاء الداخلية حتي يصلوا إلي غاية الخلو.[115]

[إنّ الكائنات تزدهر ولكنى أراها تعود]:

كل شيء حسب القانون الطبيعي يبدؤ من العدم و يعود إلي العدم حيث أنه ينشؤ و يتطور ثم يتشيخ حتي يفني .فيري لوتس أن الكائنات إن كانت في حالة الازدهار فإنها حسب القانون الطبيعي قد بدأت العودة إلي طريق التدهور والضعف .

ولعل لوتس يقصد بهذا أن القانون الطبيعي يعمل عملا دورانيا فالنباتات مثلا تنبت من البذر ثم تنمو و تزدهر ثم تصفر و تثمر و ينتهي الأمر إلي البذور و هكذا يتم دور واحد لحياتها .

و قيل إن الأشياء تعود إلي أصلها و الأصل هو "داو" فمعني النص يكون أن الكائنات صدرت من "داو" و ستعود إلي "داو" .

وقد استخلص بعض العلماء من هذا النص رأيا عن طبيعة النفس الإنسانية وعن منهج التطور التاريخي قائلين بأن طبيعة الإنسان كانت صافية و نقية في الطفولة ثم تلوثت بالشهوات والمعارف فيما بعد ولكن تعود الطبيعة إلي أصل الصفاء والنقاء بواسطة البعد عن الشهوات والطموع . وأما التطور التاريخي فإن العصور الأولي هي عصور الكمال والأخلاق ثم تحول الوضع من السوء إلي الأسوء حينا بعد حين حتي صار العصر الحالي عصرا وصل فيه إنحطاط الأخلاق إلي قمته (قال نفس الكلام أناس في كل العصور كأن الناس في كل عصر يعتبرون عصرهم أسوأ العصور) ولكن يأتي زمان يبدأ الحال يعود من السوء إلي الحسنة حتي يرجع إلي حالته الأولي من الكمال والأخلاق والصدق و الأمانة .[116]

[والسكون هو عودة إلى الفطرة]:

معني ذلك أن السكون هو حالة أصلية لفطرة الإنسان وإنه لما يعود إلي الأصل فقد عاد إلي حالة السكون ويري "خه شان قون" إذا عاد الإنسان إلي الفطرة فلا يموت[117].

---

115 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٦٣.

116 انظر < لوتس شرحا و تعليقا >. ص: ١٢٦-١٢٧.

117 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٦٣.

و من المعروف أن "خه شان قون" هو من الأوائل الذين يدعون إلي الرياضة البدنية بضبط التنفس و تسييره و يلتمسون بذلك طول الحياة و بقاء النفس ، ولذلك نري أنه يفسر النصوص حسب مذهبه .

[والعودة إلى الفطرة يقال لها الدوام]:

إن الإنسان بالعودة إلي أصل الطبيعة والتمسك بها تطيل حياته فيبقي دائما كما شرح "وان بي" قائلا : من عاد إلي الفطرة فقد حصل علي دوام الحياة [118] .

ويري "خه شان قون" أن الدوام يراد به دوام سنن "داو" في الخلق[119] ويري " تشين قو يين" أن الدوام يراد به دوام عمل القانون الطبيعي[120] .

[والعلم بالدوام يعتبر البصيرة]:

العلم بدوام الحياة أو بالقانون الدائم لدوزانية الحياة يعتبر بصيرة.

[من عرف الدوام فهو محيط] :

العارف بالدوام المذكور يكون بصيرا ومحيطا بكل شيء علما وشرح " خه شان قون" بقوله :" من كان يعرف دوام عمل "داو" فقد طهر نفسه من جميع الغرائز ونسي جميع الشهوات فلم يكن شيء إلا وقد أحاط به "[121].

[والمحيط عادل والعادل ملك .والملك مع السماء و السماء مع "داو"]:

من عرف القانون الدائم فقد أحاط بالأشياء علما وصار قادرا علي حفظ التوازن بين الأشياء فيستحق أن يكون ملكا يحكم البلد بالعدل ؛ و الملك العادل يتطابق مع الطبيعة (السماوية) و بالتالي ينسجم مع "داو" فيخلد مع "داو".

ولعل خير الشرح لهذا النص هو ما شرحه " خه شان قون" بقوله : من كان محيطا فيكون عادلا بلا أنانية ولا تعتريه الشرور ومن كان عادلا يستحق أن يكون ملكا للعالم ومن يقدر علي حكم البلد توافقت أخلاقه مع إرادة الآلهة فتنسجم مع السماء ومن كانت أخلاقه تنسجم مع السماء فقد إتحد ب"داو" ومن يتحد ب"داو" يبقي خالدا [122].

---

118 < تفسير وان بي > ، ص:٣٤٨.

119 انظر < تفسير خه شان قون > ، ص: ٦٣.

120 < لوتس شرحا و تعليقا >. ص: ١٢٧.

121 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٦٣.

122 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٦٣-٦٤.

ويبدو أن لوتس يشير إلي مراتب الترقي الروحي للإنسان وهي تبدؤ من الإحاطة ثم العدل والكفاية للملك و الانسجام مع القانون السماوي و الانسجام مع "داو" ثم الخلود مع "داو" ويتبين من هذا أن الملك ينبغي أن يكون قد بلغ إلي مقام رفيع من الترقي الروحي وبعبارة أخري أن الملك المؤهل عند لوتس لا بد أن يكون من الحكماء وسيأتي ذكرهذه النقطة في حينها .

[(من وصل إلي هذا المقام) لايتعرض للخطر]:

العبارة "من وصل إلي هذا المقام " لم تكن في النص الأصلي ولكنها مفهومة من السياق والسباق بمعني أنه من كان يتحد ب"داو" لا يتعرض لنفسه خطر لأنه يعلم الخطر قبل ظهوره فيبتعد عنه فلا يلحقه الخطر .

المنتهى الأعلى لا يُعرَف وجوده ثم يتقرب إليه بالمدح ثم يخشي ثم يطعن فيه و من الناس من لا يؤمن به إيمانا كافيا ومنهم من لا يؤمن به .
يا لجلاله ،إنّه ندر كلامه حتى إذا أكمل أمرا لم يشعر به الناس فيقولون نحن كنا كذلك[١٢٣].

الشرح:

[المنتهى الأعلى لا يُعرَف وجوده]:

قيل إن المنتهي الأعلي يراد به أحسن القرون [١٢٤] فيكون معني النص أن خير القرون ما لم يشعر الشعب بوجود الملك وذلك أن أحسن الملوك هو من يعطي الشعب حرية كاملة و لا يثقل عليهم بالقوانين و لا الرسومات و لا شيئ من هذا القبيل حتي كأن هناك لم يكن ملك و قيل إن المنتهي الأعلي يراد به أقدم الملوك كما يراه " وان بي" وشرح بأن الملك رجل عظيم وهو في الأعلي و لذلك يقال له المنتهي الأعلي [١٢٥] . وكذا رأي " خه شان قون" فالمنتهي الأعلي عندهما كان ملكا بشريا .

ولكن فيما أري أن المنتهي الأعلي قد يراد به الإله الأعلي بمعني أنه رب الأرباب ومسيطر علي العالم من الفوق وبما أنه غير مدرك بالحواس فلا يعرف وجوده .

وهناك اختلاف بين نسخ الكتاب في عبارة هذا النص فجاءت في بعض النسخ العبارة " المنتهي الأعلي يعلمه السافلون" فحمل بعض العلماء معني المنتهي الأعلي إلي الملك الأفضل وفي بعض النسخ جاءت عبارة " المنتهى الأعلى لا يُعرَف وجوده"

---

123 يري جميع المفسرين أن هذا النص يتحدث عن الفكرة السياسية عند لوتس حيث قسم الملوك حسب تأثيرهم علي الشعب إلي ثلاثة أصناف : من لا يعرف وجوده ثم من يتقرب إليه الناس بالمدح ثم من يخشاه الناس و من يطعنون فيه . ويري بعض العلماء أن النص يشير إلي تغير القرون من خير إلي شر وكان السابق أفضل من اللاحق فخير القرون أقدمها ثم قرن يليه ثم قرن يليه .

ولكنه لما كان النص يقبل شروحا مختلفة يمكننا أن نفهمه من الموقف الديني بصورة أخري و هي أن العبارة الأولي تبين حقيقة "داو" بأنه لا يدرك وأما الجمل التالية فتتحدث عن أصناف الناس لموقفهم من الإله وهم ثلاثة فمنهم من يتقرب إليه بالمدح ويليه من يخشاه و يليه من يطعن فيه كما أنه من الناس من ينقص فيهم الإيمان ب"داو" ومنهم من لا يؤمن به .

ونستنبط من عبارة " إنّه ندر كلامه" أن لوتس يؤمن بأن الإله يتكلم بكلام خاص مع ندرته فكأن لوتس يعترف بإمكانية الوحي الإلهي إلي البشر.

124 < لوتس شرحا و تعليقا >، ص:١٣٠.

125 <تفسير وان بي > ، ص:٣٤٩.

وإنما إخترت الأخيرة لموافقة طبيعة "داو" بأنه فوق الإدراك ولا يحس بوجوده فهو لا يعرف.

[ثم يتقرب إليه بالمدح ثم يخشي ثم يطعن فيه]:
لو فهمنا المنتهي الأعلي علي أنه خير القرون أو خير الملوك فالنص يتحدث عن مواقف الشعب من أصناف الملوك ؛ فأحسن القرون أو الملوك هو ما لا يشعر الشعب بوجوده ثم يليه من يحسن إلي الناس فيتقربون إليه بالمدح ثم يليه من يحكم الناس بالعقوبات المخيفة فيخشاه الناس ثم يليه من وضع القوانين القاسية حتي يظلم علي الناس فيطعنون فيه .

ولكني أري أن النص قد يمكن أن يشير إلي مواقف الناس من الإله حيث يتحدث عن أصناف الإنسان من ناحية إيمانهم بالإله وذلك أن الإله الأعلي لا يدرك و لا يعرف وجوده بالحواس و لذلك من الناس من كان يعبده ويحبه و يتقرب إليه بالمدح ثم من عرف عظمته و جلاله يخافه وأما من لم يعرفه لايؤمن به فيطعن فيه .

[من الناس من لا يؤمن به إيمانا كافيا ومنهم من لا يؤمن به]:
هذا النص له ترجمة أخري : كلما نقصت الأمانة فاتت الثقة . يعني أنه إذا قلت الأمانة عند الملوك ففاتت ثقة الشعب بهم.
وكان جميع المفسرين علي هذا الفهم ولكن أري من الملائم أن نترجم هذا النص بالعبارة : "من الناس من لا يؤمن به إيمانا كافيا ومنهم من لا يؤمن به" . وذلك أن معني الإيمان والأمانة والثقة في اللغة الصينية يعبر عن الجميع بكلمة واحدة وهي "شين " (Xin) و قد يراد بها هذا أو ذاك ومن جانب آخر أن هذه الترجمة توافق ما ذهبنا إليه من أن المنتهي الأعلي يراد به الإله الأعلي .

[إنه ندر كلامه]:
إن المنتهي الأعلي صامت لا يتكلم بكلام مسموع وقيل إن أحسن الملوك يقلل من الكلام خوفا من مخالفة "داو" . و قيل إن الحكماء لا يتكلمون بل يعملون و قيل معناه أن أحسن الملوك لا يصدر القوانين الثقيلة ولا القرارات المزعجة و شرح "خه شان قون": السيد الأعلي يتحذر في الأفعال و يهتم بالكلام خوفا من الإبتعاد عن "داو" ومن ضياع الطبيعة [126]

[126] المصدر السابق ص: ٦٩.

وأري أن معناه لا يتكلم الإله الأعلي بالكلام المسموع البشري .

[حتى إذا أكمل أمرا لم يشعر به الناس فيقولون نحن كنا كذلك]:

إن أحسن الملوك لا يشعر الناس بوجوده حتي إذا فعل شيئا لهم لم يشعروا بذلك فيقولون : تمّ الأمر لنا تلقائيا . و شرح "خه شان قون": حتي إذا سلم العالم لا يعرف الناس فضل السيد الأعلي فيظنون أن ذلك نصيبهم [١٢٧].

وأري أن معناه : إن "داو" فعال لما يريد و يربي العالم من حيث لا يشعر الإنسان فإذا قضي أمرا وأتمّه لم يشعر الناس بذلك فيقولون إن الأمر هكذا طبيعي .

---

127 المصدر السابق ص: ٦٩.

لما أُبطل "داو" العظيم ظهر الحب والعدل ولما برز الذكاء وُجدت الأباطيل. ولما تعادى الأقرباء ظهر البر ولما وقع البلد فى الفوضى ظهر الوزراء المخلصون[١٢٨].

الشرح :

[لما أُبطل "داو" العظيم ظهر الحب والعدل]:

"داو" في هذا النص لا يراد به الإله بل مراده نظام ناجح و أقول قد يراد به الدين فمعني النص يكون : "داو" نظام كامل للحياة وهو يشتمل علي جميع الحسنات فإن كان "داو" سائدا في المجتمع لما احتاج الناس إلي الدعوة بحسنة معينة وأما إذا ابتعد الناس عن "داو" و أعرضوا عنه ظهر الفساد و الظلم فيضطرّ الناس إلي الدعوة بالحب والعدل وغيرهما من الحسنات الجزئية.

شرح "وان بي" أن المراد من إبطال "داو" هو عدم الالتزام ب" عدم الفعل" في الأمور وتبديله بعمل الحسنات والصالحات [١٢٩].

يقول "خه شان قون": في عصر "داو" العظيم يكون في كل البيت أولاد مطيعون وفي كل الأسرة أبناء أمناء فلا يري الحب والعدل(كميزة خاصة للأسرة) و لما أبطل "داو " العظيم ظهر الشر والعقوق فصار الحب والعدل غاية الإحسان [١٣٠].

---

[128] كما ذكرنا أن لكلمة "داو" مفاهيم متعددة وقد سبقنا أهم مفهومه وهو الإله الواحد وأما "داو" هنا فيراد به النظام الكامل الذي يحتوي علي الحب والعدل و غيرهما من الخيرات و الحسنات وكان الحب والعدل جزءا منه فلا يعني أنهما أفضل من "داو" العظيم بل هما دونه. كما أن البر في حالة العداوة خير ولكنه ليس بأفضل من التواد بين الأقرباء في أيام السلام ولفهم هذا النص بأحسن الوجه يستحسن بنا أن ننقل قول أحد العلماء عن المراد من هذا النص : إن السمك يعيش في الماء ولا يحس بقيمة الماء وأن الإنسان يعيش في الهواء ولا يحس بقيمة الهواء وإذا كان "داو" العظيم مزدهرا ويشمل فيه الحب والعدل فلا ضرورة للدعوة إليهما . حتي إذا ما بدأ الناس الدعوة إليهما كان المجتمع قد وقع في الفساد. فالدعوة إلي شيء تدل علي فقدانه في الواقع .

فليس ظهور الحب والعدل خيرا من وجود "داو" لأن العلاقة بين ذلك هي علاقة الكل مع الجزء وكان لوتس يدعو بهذا النص إلي الالتزام ب"داو" وتطبيقه في الحياة كنظام كامل.

[129] < تفسير وان بي > ص:٣٤٩.

[130] < تفسير خه شان قون > ، ص:٧٣.

[ولما برز الذكاء وُجدت الأباطيل]:
الذكاء هنا يراد به التحايل و الخداع فلو إستخدم بعض الناس ذكاءهم في المعاملة لاضطر الآخرون إلي نفس الطريق ومن الطبيعي أن يظهر التحايل والخداع في أثناء المباراة بالذكاء.
يقول "خه شان قون" : الذكي يفضل الكلام علي السلوك ويفضل الظاهرة علي الحقيقة ولذلك يعامله الآخرون بالخداع و الأباطيل"[131] .

[ولما تعادى الأقرباء ظهر البر]:
يعني لما ظهرت العداوة والفتن بين الأقرباء ظهرت قيمة الأبرار لأن البر وحده يخفف العداوة و يقضي عليها و بعبارة أخري أنه لا تتحقق أهمية البر إلا إذا كان هناك الفتنة والفوضي في الأسرة كما أن نور المصباح لا يكون شيئا تحت الشمس ولكنه يكون نورا مضيئا في الليلة المظلمة . .

[ولما وقع البلد فى الفوضى ظهر الوزراء المخلصون]:
لايميز بين المخلص و المنافق إلا في حالات الشدة و هي بمثابة الإختبار فتفصل بين البار والفاجر من خلال الفتنة وإن جميع الوزراء كانوا يتظاهرون بالإخلاص والأمانة في أيام الأمن و لم تظهر قيمة المخلص علي المنافق ولكن يتبين ذلك في الأزمة .

---

[131] المصدر السابق ص: ٧٣.

(علي الحاكم) قطع القداسة وترك الفطانة حتى يفيد الشعب مائة مرة
(عليه) قطع المحبة و ترك العدالة حتى يعود الناس إلى الطاعة
(عليه) قطع الذكاء و ترك المنفعة حتى ينعدم اللصوص.
و هذه الثلاثة غير كافية مع كونها مكتوبة ومن ثم لو أراد الإنسان لنفسه مرجعا فليتقشف و ليقلّل من الشهوات وليترك التعليم حتى لا يصيبه الحزن.[١٣٢]

الشرح:
[(علي الحاكم) قطع القداسة وترك الفطانة حتى يفيد الشعب مائة مرة]:
يبدو أن الحكام كانوا كثيرا ما يدّعون لأنفسهم القداسة لكي يجذبوا الناس إليهم فيحكمونهم بها وقد انتقد لوتس هذا الأسلوب من الحكم . وأما الفطانة هنا فلا يراد بها الفطانة الفطرية التي تفهم بها الأشياء و حقائقها بل يراد بها الادّعاء بالفطانة أو الفطانة المزعومة وهي في الحقيقة خيانة و خدعة ولذلك دعا لوتس إلي تركها .
والمراد من النص أن يدعو الحكام بالعودة إلي الطبيعة الفطرية و ترك التصنعات الزائفة لكي يبنوا الحكم علي أساس الصدق والأمانة حتي ينتفع به الشعب .
شرح "خه شان قون" هذه العبارة بترك صنعات الحكماء وعودة إلي الأصل وترك الذكاء والنفع وعودة إلي "عدم الفعل" [١٣٣].

---

[132] إن النص عرض لنا بعض الأمراض الإجتماعية وهي أن الحكام يدّعون لأنفسهم القداسة والفطانة والمحبة والعدالة والذكاء ويبتغون من ذلك أغراضا شخصية فينتشر الفساد في الأرض و كذلك قدّم لنا النص علاجا لتلك الأمراض بأن يوقف الحكام تلك الدعايات ثم يلتزموا بالتقشف في الحياة و يقلّلوا من الشهوات .

وقد وضع النص بعض مبادئ الأخلاق كالصدق والأمانة والزهد والتقشف ودعا الناس إلي الالتزام بها وخاصة الحكام منهم وكان الإصلاح عند لوتس يجب أن يبدأ من الطبقات العليا حتي يصل فضل الإصلاح إلي الأسفل فينصلح بذلك الشعب .

يبدو من ظاهر النص أن لوتس يعارض التعلم و الدراسة و يقلل شأن العلوم والمعارف و الحكمة حيث أنه يدعو إلي ترك هذه الأشياء ولكنه في الحقيقة يعارض من العلم ما يؤدي الناس إلي التحايل والمآمرة و الخدعة وغيرها من الفساد وكان يحذّر من العلم ما يتخذ كوسيلة الحيل و الفساد . وبناء علي هذا فيكون موقفه من العلم موقفا إيجابيا لا سلبيا وأما العلم الحقيقي النافع فلا يعارض وسنتكلم هذا الموضوع في حينه.

[١٣٣] < تفسير خه شان قون > ، ص:٧٥.

[(عليه) قطع المحبة و ترك العدالة حتى يعود الناس إلى الطاعة]:

وكذلك المحبة والعدالة هنا يراد بهما الدعاية بذلك فيجب علي الحكام أن يبتعدوا عن تلك الدعاية لأن المحبة و العدالة بحد ذاتهما حسنات فلو يتحلي بها حكام لكان خيرا ولكن الدعاية بشيء تدل علي فقدانه فإن كان الحكام يدعون بذلك فمعناه أنهم لا يملكونها وإنما يدعون لأغراضهم الشخصية و قال "تشين قو يين" : إن المحبة والعدالة كانتا من الفضائل التي يجب أن يتصف بها المحسنون ولكن الناس فيما بعد يتصنعون المحبة والعدالة و يبغون من ورائهما المصالح الشخصية وهولاء لما وصلوا إلي مقام مرموق يتظاهرون كشيوخ الأخلاق ويضعون الأسماء الجميلة كالمحبة والعدالة في جيوبهم ويستخدمونها كيف يشاؤون [١٣٤]. فلو كان الحكام يتحلون فعلا بالمحبة الحقيقية والعدالة الحقيقية لأطاعهم الناس .

[(عليه) قطع الذكاء و ترك المنفعة حتى ينعدم اللصوص]:

الذكاء في هذا الكتاب يستخدم دائما بمعني الدعاية بالذكاء و التظاهر به وهو ما سماه الصينيون بالذكاء الأصغر وأما الذكاء الأكبر أو الذكاء الحقيقي فهو عدم إظهاره مع وجوده بل يتظاهر بالجهل كما يقول لوتس :"إن الذكاء الأكبر كالسفه" (ف: ٤٥) . فالذكاء عنده يعني دائما الذكاء الأصغر وهو يرادف التحايل و الخدعة.

وأما المنفعة فهي المنافع الشخصية فلو كان الحكام يسعون وراء النفع الذاتي ويجمعون لأنفسهم الأموال والثروات فماذا يبقي للشعب و ليس لهم السبيل إلي الحياة إلا السرقة . وأما إذا توقّف الحكام من هذه الفواحش لبقي الناس علي الصدق والسلامة والغني فلا يلجأون إلي السرقة واللصوصة . يقول "خه شان قون" : قطع الذكاء يراد به البعد عن التباس الحق بالباطل و ترك المنفعة يراد به سدّ طريق الطمع وإغلاق باب السلطة وإذا إنصلح الأعلي بالعدل لم توجد الشهوات والفواحش في الأسفل[١٣٥].

[هذه الثلاثة غير كافية مع كونها مكتوبة]:

الطرق الثلاثة المذكورة لإصلاح الشعب مكتوبة كالدستور وأصول الحكم ولكن الكتابة غير كافية للإصلاح والحكم بل يطالب من الناس أن يتقشف ويقلل من الشهوات منطلقا من الأخلاق لا من القانون .

---

١٣٤ < لوتس شرحا و تعليقا >. ص: ١٣٩.

١٣٥ < تفسير خه شان قون > ، ص: ٧٦.

وشرح "تشين قو يين" هذه العبارة بقوله : هذه الثلاثة كانت مزينة بالأدب وغير كافية (للحكم)[١٣٦] بمعني أن القداسة والمحبة و الذكاء قد وصفها الأدباء بعبارات جذابة و جملوها بالزينة الأدبية المعسولة و لكن بهذه الثلاثة لا يمكن حكم البلاد لأنها جذابة في الكتابة ولا تكون فعالة في السياسة الواقعية .

[ويترك التعليم حتى لا يصيبه الحزن]:
معظم العلماء وضعوا هذه العبارة في بداية الفصل العشرين و لكن صياغة العبارة تقتضي أن توضع في هذا المكان كما فعله "تشين قو يين" و غيره . و معناه : من كان يريد أن يقوم علي أساس متين في حياته فليتقشف وليقلل من الشهوات و يبتعد عن المعارف التي يتطلع بها علي المنافع فيطمع فيها . وإذا إلتزم بذلك لبقي قانعا ولم يحزن علي ما فاته من المنافع لأنه لا يعلم ذلك .

---

136 < لوتس شرحا و تعليقا >، ص:١٣٨.

الفصل العشرون مخالفة العادة

كم من بُعد بين "وِى"(لبّيك) وبين "آ" (نعم) .و كم من فرق بين الخير و الشر. وما يخافه الناس لا بد من خوفه. يا لسعته ؛ كأنه لا حد له !

و إنّ الناس فى السرور والفرح كأنّهم يتمتعون بمأدبة غنية أو صعدوا على منقب الربيع بينما أنا وحدى هادئ غير مكترث . يا للسذاجة كأنى طفل لم يعرف الضحك.

إن الناس جميعا ذوو المآثر وأنا وحدى عنيد وبليد. وأغاير جميع الناس و أمجّد الأم المطعمة.[١٣٧]

الشرح:

[كم من بُعد بين "وى"(لبّيك) وبين "آ" (نعم)]:

الكلمة "وي"(wei) من حروف الإجابة في اللغة الصينية بمعني "لبّيك" تستخدم للتعظيم و كذلك الكلمة "آ" من حروف الإجابة بمعني "نعم" و لايفيد الاحترام بل شيئا من الإهانة. فكلاهما من حروف الإجابة ولكن الفرق بينهما كبير في الاستعمال حيث أن أحدهما للتعظيم و الآخر للإهانة و هذا كناية عن أن الأشياء كما هي وليس فيها ما يفرّق بين العلو والردء ولكن الناس يفرّقون ذلك فيعظّمون هذا ويهينون ذاك .

[كم من فرق بين الخير و الشر]:

---

137 والمتكلم في النص يمثل جميع الحكماء الذين يشتغلون ب"داو" ويقومون بالرياضة الروحية .
إن عبارة هذا النص ركيكة ومعانيه غامضة ولكن القصد من النص واضح أن الحكيم يغاير سائرالخلق من ناحية الحالات النفسية والروحية فهو فيما يبدو للعوام ساذج و سفيه و طفولي كأنه لا يعرف ما يشتهيه الناس من الخير والجمال والمتعة ولكنه في الحقيقة عارف بكل شيء وإنما همه لا تكون في العالم المادي بل في العالم الروحي فلا يكترث بالملذات المادية ولا بالتمتع الجسماني .
والنص يبيّن لنا أن نظرية القيم عند الحكماء تختلف عما عند العوام فيقوّم الناس أشياء بمنافعها المادية بينما يقوّمها الحكماء بقيمتها الروحية فيري لوتس كأحد من الحكماء أن الأشياء في حد ذاتها لا يقال لها خير أو شر وأن الفرق بينهما ضئيل من ناحية القيمة الروحية ولكن الناس فرقوا ذلك من ناحية المنافع المادية فاختلاف نظرية القيم بين الحكماء وبين العوام قائم علي هذا الأساس ومن ثم تظهر مغايرة الحكماء من العوام في كل شيء.

كما ذكر لوتس في الفصل الثاني أن الأشياء في العالم نسبية بحيث لما عرف الناس الخير خيرا عرفوا بذلك شرا وإن شيئا يكون خيرا إذا قيس بما هو أدني منه ويكون شرا إذا قيس بما هو أعلي منه وعلي هذا فيكون الشيء في حد ذاته لا خير ولا شر وإنما يختلف بما ينسب إليه ولذلك لم يكن هنالك فرق بين الخير والشر في ذات الشيء وإنما يفرّق ذلك الإنسان .

[وما يخافه الناس لا بد من خوفه]:

. إن الأشياء في حد ذاتها لم تكن خيرا أو شرا ولكن الناس اعتبروا بعضها خيرا وبعضها شرا فيقتربون من الخيرالذي اعتبروه ويبتعدون عن الشر في عيونه وبعد ما حصلت لهم هذه الاعتبارات لا بد من متابعتها من أجل موافقتهم في قيم الأشياء وإلا فيكون المرء غريبا بين سائر الخلق .

[يا للسعة كأنه لا حد له]:

وقد إختلف العلماء في شرح هذه العبارة . فقيل إنها تصف عمق الحقيقة المذكورة أن ما يخافه الناس لا بد من الخوف [١٣٨] و قيل إنها تصف سعة الميدان الروحي [١٣٩] و قيل إن لوتس يصف نفسه بأنه يتعالي عن السماوات والأرض وأنه محيط بكل شيئ [١٤٠]

ولكن "وان بي" يري أن لوتس يتعجب من البعد بين نفسه وبين العادات في الموقف من الحياة كأن بينهما خليجا واسعا [١٤١] . و أري أن شرح "وان بي" أقرب إلي الصواب.

[و إنَ الناس فى السرور والفرح كأنَهم يتمتعون بمأدبة غنية أو صعدوا على منقب الربيع بينما أنا وحدى هادئ غير مكترث]:

منقب الربيع يراد به المكان المرتفع الذي يشرف منه إلي المناظر الجميلة في فصل الربيع و معني النص أن الناس يتمتعون بالملذات المادية و يفرحون بها ولكن لوتس يقول عن نفسه : إني أختلف عنهم إذ أني لا تعجبني الملذات المادية و لاتحركني الفرحات الجسمية كأني لا أشعر بالفرح منها ولا أعرف التمتع بها .

---

[١٣٨] انظر < دراسة داو-ده-جين > ، ص: ١٤٦.

[١٣٩] انظر < لوتس شرحا و تعليقا >، ص: ١٤٦

[١٤٠] الشرح المبين للكتاب ده-ده-جين . للعالم المشهور الداوي في القرن العشرين جان شين تشان و ألف هذا الكتاب وهو ابن أربع سنوات من عمره ولذلك يعتبر طفلا مقدسا و طبع كتابه هذا في المعبد الداوي ببكين . ص: ١٨

[١٤١] انظر <شرح وان بي > ، ص:٣٥٠.

[حقا إن قلبى كقلوب السفهاء]:

يقول لوتس إني أغاير الناس في كل شيء ولا أشاركهم في تقويم الأشياء حتي أكون في عيونهم سفيها وحقا إن قلبي كقلوب الذين يراهم الناس سفهاء لمغايرة أفكاري عن أفكارهم.

[يا للهدوء كأنه بحر ! وياللجريان ، كأنه لا نهاية له]:

إن لوتس يصف نفسه بأنه في غاية الهدوء كأنه بحر لجي ولكن فكره وروحه تطيران في أطراف السماء والأرض وكذا حالة الحكماء .

قال "خه شان قون: معناه : أنا وحدي غفلان كما تسيل مياه الأبحار والأنهار بلا انقطاع وأنا وحدي سائح كما أني أطير وأسبح في الفضاء بلا نهاية ولكن هدفي في العالم الإلهي[١٤٢] . فالهدوء يقصد به سكون الجسم وهدوء الطبيعة وأما الجريان فيراد به تحرك الروح وجريان التصورات والأفكار.

[و أمجّد الأم المطعمة]:

الأم المطعمة يراد بها "داو" كما قاله معظم العلماء وعلي رأسهم "خه شان قون" لأن "داو" أصدر الكائنات و ربّاها و وفر لها رزقها و أطعمها فكأنه الأم المطعمة . ومعني النص أنني (يقول لوتس) أغاير الناس فلا أطمع فيما يسعي إليه الناس من الملذات المادية لأن ذلك مبلغهم من الحياة وأما أنا فأبتغي ما هو أعلي من ذلك وكان "داو" هو نهاية طلبي و وأمجّده و أسلك فيه.

---

142 < تفسير خه شان قون > ، ص:٨١.

صورة "ده" الكبرى لا تكون إلا فى متابعة "داو" . وكون"داو" شيئا يكون بين اللبسة والغيبوبة.
يا للبسته ويا لغيبوبته ! إن فيه هيئة. و يا لغيبوبته ويا لبسته ! إن فيه شيئا. يا لغموضه ويا لخفائه ! إن فيه جوهرا، وجوهره حقيقي فى الغاية و فيه اليقين. ولا ينقلب اسمه من قديم الزمان إلى اليوم و به تُعرَف البدايات، كيف أعرف أحوال البدايات ؟ لا سبيل إلا به.[١٤٣]

الشرح :

[صورة "ده" الكبرى لا تكون إلا فى متابعة "داو"]

إن كلمة "ده "(De) هي إحدي الكلمات التي ركبت منها اسم "داو – ده --جين " وقد شرحنا بعض معاني "داو" ولا نزال نقابل معاني جديدة لها في النصوص الآتية وأما كلمة "ده " فلأول مرة نقابلها وإنها لغة تعني الفضيلة كما يفهمها عامة الناس و رأي بعض العلماء أن "ده" هو صفات "داو" فالعلاقة بينهما علاقة الذات مع الصفات ولذلك قيل إنهما واحد وقيل إن "ده" هو فعل "داو" وقيل أثر "داو" وقيل مظهر "داو" وقيل صورة

[143] يري أكثر العلماء أن النص بيّن لنا علاقة "داو" مع "ده" بأن علاقتهما هي علاقة الذات مع الصفات أو علاقة الفاعل مع أفعاله وقد يستحسن بنا أن نورد قول أحد العلماء لفهم هذا الفصل إذ قال :[إن الفضيلة الكبري من ناحية ظاهرها تابعة ل"داو" لأنها أفعال "داو". ولولا الحركات لذات "داو" لما كانت الفضيلة الكبري وإنما وصفت ب"الكبري " لأنها ناشئة من "داو" ، ولذلك وجود "داو" قائم علي وجهين :الذات والصفات . وإن ذات "داو" خالية بمعني غير متحيز ولكنها تضمر صور الكائنات وأن ظاهره غامض ولكنه يتضمّن أرواح الكائنات وإن "داو" -- هذا الكائن الروحي -- بما أنه يمتاز بفضيلة كبري في أن يحمل الكائنات و يبقي اسمه دائما وقد يعتبر أبا للكائنات].

وأري أن النص بيّن لنا حقيقة الفضيلة عند لوتس وهي أن الفضيلة لا تكون إلا في متابعة "داو" وبعبارة أخري أن الأعمال التي توافق قوانين "داو" ومبادئه يقال لها الفضيلة وقد أرسي النص حجر الأساس لنظرية الأخلاق عند الداوية فالأخلاق عندها تكون عبارة عن الإتباع ل"داو" أو طاعة قوانينه .

وقد نسب لوتس مفهوم "شيء" و"جوهر" و "هيئة " إلي "داو" وأراد بذلك إثبات وجود "داو" وجودا واقعيا وفي نفس الوقت نزّهه من جميع الأوصاف المادية حتي يثبت أنه كائن روحي .

و ذكر لوتس أن "داو" هو أصل الكائنات ومصدرها ومن عرفه فقد عرف كيف نشأت الكائنات و كيف كانت الأشياء قبل نشأتها .

"داو" وقيل إنهما لا ينفصل الواحد عن الآخر [١٤٤] وقيل إنه الأوصاف الإيجابية ل"داو" و المبادئ الأخلاقية[١٤٥] .

و شرح "خه شان قون" مفهوم "ده" بأنه لما تمكن "داو" في نفسك يقال له "ده" .

وبناء علي هذا الشرح فنقول إن "ده" يراد به الفضيلة التي يتحلي بها المرء لأن "داو" إن كان في نفس أحد يظهر منه أثره وذلك هو أخلاق حسنة وهي فضيلة.

و معني النص أن الفضيلة الكبري تظهر في متابعة "داو" و بعبارة أخري أن الفضيلة الكبري لا تحصل إلا عن واسطة متابعة "داو" .

و شرح "خه شان قون" هذا النص بأن صاحب الفضيلة الكبري لا يتبع التقاليد و العادات وإنما يتابع "داو" فقط[١٤٦] .

وعلي ذلك فحقيقة الفضيلة عند لوتس هي متابعة "داو" .

[وكون"داو" شيئا يكون بين اللبسة والغيبوبة]:

إن "داو" كائن حقيقي و قد وصفه لوتس ب"شيئ" تأكيدا لثبوته ولكنه غامض و غائب عن إدراك الحواس فوجوده بين اللبسة والغيبوبة .

و وصف النص "داو" بشيء ولم يرد به شيئا محسوسا ماديا وإنما وصف بذلك لتأكيد وجوده إذ أن "شيء" لا يطلق إلا علي كائن ثابت في الواقع . فكان لوتس لم يرد بهذا النص إثبات مادية "داو" بل إثبات عدم مماثلته للأشياء المادية .

[إن فيه هيئة]:

الهيئة هنا ليست هيئة معينة بل هي هيئة بلا شكل و صورة بلا شيئ كما يفسربذلك كتاب داو–ده–جين نفسه [١٤٧] وأراد لوتس بهذا النص أن يثبت وجود "داو" من جانب وأن ينفي كونه شيئا ماديا من جانب آخر.

[إن فيه جوهرا -----إن فيه اليقين]:

الجوهر هو حقيقة الشيء وشرحه بعض العلماء بأنه أصغر الأشياء [١٤٨] ويبدو أن الجوهر عند بعض العلماء يراد به الروح [١٤٩] و قيل هو قوة الحياة [١٥٠].

---

144 انظر < لوتس شرحا و تعليقا >، ص: ١٤٨.
145 انظر < حكمة الصين > ، ص : ٤١ .
146 < تفسير خه شان قون > ، ص:٨٦.
147 انظر < داو – ده –جين > ، الفصل ١٤.
148 انظر < لوتس شرحا و تعليقا >، ص: ١٥٠.
149 انظر < دراسة داو- ده - جين >. ص: ١٥٠.
150 انظر < حكمة الصين > ، ص : ٤١ .

و علي كل حال تدل كلمة "جوهر" علي أن "داو" ليس عدما بحتا بل هو موجود بجوهره الخاص فيقول النص بأن جوهره حقيقي ثابت وليس فيه غرور ولا كذب و لا يحمل أدني الشك و الريبة .

[ولا ينقلب اسمه]:

يعني أن "داو" دائم و غير متغير فلا يتغير إسمه تبعا لحقيقته ولا ينقلب أبدا .

[به تُعرَف البدايات]:

أن "داو" أصل الكائنات و مصدرها فمن عرف هذا المصدر فقد عرف بداية الكائنات. فالطريق إلي معرفة بداية الكائنات هو معرفة "داو" .

إن كان الانحناء فسيكون الكمال وإن كان العوج فستكون الاستقامة وإن كان الانخفاض فسيكون الامتلاء وإن كان الترك فسيكون التجديد وإن القليل يسهل المنال بينما الكثير يثير الحيران. ولذلك كان الحكماء يتمسكون بالواحد و يجعلونه نموذجا للعالم. وبما أنهم لا يدّعون لأنفسهم الفطانة كانوا على بصبيرة و لا يدّعون لأنفسهم الصواب فاشتهروا ولا يعتزّون بأنفسهم فكانوا ذوى المآثر ولا يفتخرون بأنفسهم فبقوا و كانوا لا ينافسون فلا أحد فى العالم قادر على منافستهم . إن الكلام الذى قيل فى القديم بأن العوج يحفظ الكمال كيف يكون كلاما فارغا وإن الكل يرجع إليه .[١٥١]

الشرح:

[إن كان الإنحناء فسيكون الكمال]:

العبارة تتحدث عن طرق الحفاظ علي النفس في المعاملة بأن التواضع والخفض والتذلل أمام الناس يحفظ صاحبه من إعتداء الآخرين عليه فالانحناء هنا يكني عن التذلل و التواضع .

وشرحه "خه شان قون" : لو كان الإنسان يخضع نفسه للآخرين ولا يتحكم في الأمور لسلمت نفسه [١٥٢] . وقيل معناه أن الشجرة المعوجة تسلم من أيدي القاطعين فتبقي كاملة كما هي لأنها لايرغب فيها أحد. [١٥٣]

---

[151] النص يبيّن لنا أن كل شيء يحمل في نفسه جانبين : إيجابيا وسلبيا وأنهما غير منقطعين أحدهما عن الآخر و ينتقل أحدهما إلي الآخر . فكان الحكماء يعرفون هذه الحقيقة فيلتزمون بالسلبيات دائما حتي تتحول لهم إلي الإجابيات تلقائيا وأما العوام فيرون السلبية سلبية دون معرفة انتقالهما من واحد إلي الآخر فيسعون وراء الجوانب الإيجابية ولكن عاد ذلك عليهم بالسلبيات أخيرا .

ولقد ذكر لوتس الحقيقة الطبيعية من وجود الإجابيات والسلبيات في الأشياء ورأي أن نفس القاعدة تجري في الأمور الإنسانية فدعا إلي التمسك بالسلبيات من عدم الإدعاء بالفطانة وبالصواب وعدم الاعتزاز بالنفس وعدم الفخر وعدم المنافسة لكي تتحول هذه كلها في النهاية إلي الإيجابيات .

وكان الحكماء يعرفون قانون "داو" في الأشياء والأمور بإدراك حقيقة السلبية والإيجابية فيها وانتقالهما فكانوا ينظرون إلي الأمور من جانبين و يلتزمون بالجانب السلبي دائما .

وأراد لوتس بهذا النص أن يشجّع الناس إلي أخلاق رفيعة من التواضع والتذلل والزهد وغير ذلك من الأوصاف التي كانت مبنية علي أساس الذلة لأن مصير ذلك يكون خيرا .

[152] < تفسير خه شان قون > ، ص: ٨٩.

[153] < دراسة داو-ده-جين > ، ص:١٥٦.

[إن كان العوج فستكون الاستقامة]:
يعني أن الصبر والتواضع في المعاملة يمهدان طريقا لصاحبهما إلي الفوز و التقدم كما هو شان اليد إذا كانت منقبضة تقدر علي التمديد . وقد شرح "خه شان قون" : من يقبض نفسه لكي ينشر غيره فسوف ينشر هو نفسه بعد حين [١٥٤]

[وإن كان الانخفاض فسيكون الامتلاء]:
في الأرض المنخفضة تجتمع المياه وهذا كناية عن أن الإنسان بسبب تواضعه يجتمع حوله الناس ويلجأون إليه .
قال "خه شان قون" : إن الأرض إذا كانت منخفضة يأتيها الماء وإن الإنسان إذا كان متواضعا تنزل فيه الفضيلة [١٥٥].

[وإن كان الترك فسيكون التجديد]:
الجديد قائم علي انتفاء القديم وإن لم يترك القديم لما وجد المكان للجديد ومن أراد تجديد نفسه فليترك ما كان عليه من الأفكار القديمة والأوصاف الرذيلة .

[وإن القليل يسهل المنال بينما الكثير يثير الحيران]:
وكلما كان المقصود قليلا سهل مناله و أما إذا كان الهدف شيئا كبيرا فلا يتيسر الحصول عليها ويقع الإنسان في العجز والتحير . وقيل إن الإنسان إذا قصد شيئا قليلا يحصل عليه و يصبح القليل كثيرا بجمع القلة بعد القلة وأما إذا قصد شيئا كثيرا لا يحصل إلا قليلا فيتحير عاجزا[١٥٦].

[الحكماء يتمسكون بالواحد و يجعلونه نموذجا للعالم]:
الواحد هنا يراد به "داو" كما شرح " تشين قو يين" و غيره من العلماء [١٥٧] فمعني النص يكون :إن الحكماء يتمسكون ب"داو" و يجعلونه قانونا للعالم ويحكمون به ولعل "داو" هنا لا يراد به الإله بل المراد به نظام "داو" و قوانينه .

---

154 < تفسير خه شان قون > ص: ٩٠.
155 المصدر السابق ص: ٩٠.
156 < لوتس شرحا و تعليقا >.ص: ١٥٥.

157 المصدر السابق ، ص :١٥٤.

[وبما أنهم لا يدّعون الفطانة-----ولا يفتخرون بأنفسهم فبقوا]
و هذه العبارات تعني أن الحكماء كانوا ذوي البصيرة والفضيلة ومتفوقين علي الناس وكانوا صادقين فيما يقولون فتبقي أسماؤهم بين الناس لصدقهم وحسن معاملتهم .

[وإن الكل يرجع إليه]:
يعني أن جميع الحقائق ترجع إلي هذا الكلام الصادق أن العوج يحفظ الكمال .
وقد اختلفت الآراء في ترجمة هذه العبارة اختلافا كبيرا فترجم "خه شان قون " هذه العبارة بقوله : من يعمل خاضعا يتقوي جسمه ويرجع فضل ذلك إلي أبويه فلا يعتريه أي ضرر[١٥٨] . وترجم "تشين قو يين" : " إن كلام القدماء (إن كان الانحناء فسيكون الكمال) كلام صادق في غاية الصدق " [١٥٩] وقيل : إن كل الأشياء تتبع هذا القانون[١٦٠] .
وقيل : إنه محفوظ والعالم لا يضره [١٦١] وقيل : إن كل الإكمال الحقيقي يفهم منه [١٦٢] . هكذا تتعدد الترجمات ولا تتفق إحداها مع الأخري . والمعني الذي ترجمته طبعا يخالف ما ترجمه الآخرون ولكن أري ذلك يكون قصد لوتس .

158 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٩١.
159 < لوتس شرحا و تعليقا >.، ص:١٥٥.
160 < ما ذا يقول لوتس فعلا > ، ص:١٢٢.
161 < حكمة الصين > ، ص : ٤٢.
162 All real completion is comprehended under it . see <Sacred Book Of The East > p65."

قلة الكلام توافق الطبيعة و إن العواصف لا تستغرق طول الصباح كما أن المطر الغزير لا يمتدّ طول النهار. من ذا الذى جعل هذا ؟

إنه للسماء والأرض.

إن السماء والأرض لا تخلدان فكيف الإنسان ؟

ومن ثم من كان يشتغل ب"داو" يكون مع "داو" كمن يشتغل ب"ده" يكون مع" ده" ومن فقده فقده. ومن كان مع "داو" كان "داو" يحب أن يكون معه ومن كان مع "ده" كان "ده" يحب أن يكون معه ومن كان مع"الفقدان كان الفقدان يحب مصاحبته و من الناس من لا يؤمن به إيمانا كافيا ومنهم من لا يؤمن به .

الشرح:

[قلة الكلام توافق الطبيعة]:

يري لوتس أن أصل طبيعة الإنسان سكون فكثرة الكلام لا توافق تلك الطبيعة وقد مثل لذلك من ظواهر الطبيعة بأن العواصف لا تتواصل ليلا ونهارا و أن المطر الغزير يأتي حينا ويقف حينا آخرا و قل ما يستغرق أياما بلا انقطاع .

و يري بعض العلماء أن قلة الكلام هنا يراد بها قلة صدور القرارات من الحكام[١٦٣] فمعني النص يكون : قلة القرارات توافق طبيعة الناس حيث أن الشعب لا يحب القرارات المتراكمة من قبل الحكام.

وقد ترجم بعض العلماء هذه العبارة ب " لا تتكلموا عن الطبيعة " [١٦٤] وترجمها بعض آخر ب: قل ما تتكلم الطبيعة [١٦٥].

[من ذا الذى جعل هذا ؟ إنه السماء والأرض]:

إن العواصف لا تمتد وأن المطر لا يستغرق فمن جعلهما علي هذه الطبيعة ؟ والجواب عنه أن السماء و الارض جعلتا ذلك .

[163] < لوتس شرحا و تعليقا >.، ص: ١٥٧.

[164] شا شاو خي :< الترجمة الكاملة ل"لو تس " > ، المطبعة الشعبية في لوي جيو ١٩٩٢، ص:٤٤

[165] < حكمة الصين > ، ص : ٤٢.

[إن السماء والأرض لا تخلدان فكيف الإنسان ؟]:
ظاهر النص أن السماء والأرض تفنيان ولا سيما الإنسان كما أن الظواهر الطبيعية لا تدوم علي حالة واحدة .

شرح العلماء هذه العبارة بأن الطبيعة(وهي متكونة من السماء والأرض) لا تقدر علي إبقاء الأفعال الطبيعية مثل تصريف العواصف و إنزال المطر الغزير فكيف يكون الإنسان قادرا علي إدامة ذلك .

وشرح "وان بي" بأن النص كناية عن أن الظلم لا يدوم[١٦٦]

وكذلك " خه شان قون" شرح بأن السماء والأرض من جلالهما تثيران العواصف وتنزلا المطر الغزير ولكنهما لا تقدران علي إدامتهما من الصباح إلي الليل فكيف يكون الإنسان قادرا علي الظلم دائما[١٦٧] .

إن النص يشير إلي أن كل شيء هالك ولا سيما الإنسان فلا يرجي من الإنسان الخلود وإنما الغاية الأسمي في الحياة تكون اتحادا ب"داو" وتحليا بالفضائل . ولكن الداوية بعد لوتس جعلت الخلود غاية ما تسعي إليه خلافا لرأي لوتس .

[ومن ثم من كان يشتغل ب"داو" يكون مع "داو"]:
من كان يسعي للوصول إلي الاتحاد ب"داو" يقدر علي الاتحاد به وهذا يشير إلي إمكانية الاتحاد ب"داو" عند لوتس .

وشرح " خه شان قون" هذا النص بوجه آخر : يجب علي الإنسان أن يتعامل مع الأمور بالهدوء كما يفعله "داو" ولا ينبغي أن يكون كالعواصف والأمطار[١٦٨] .

وقيل معناه أنه منْ يتبع "داو" يكون منسجما مع "داو" [١٦٩].

[كمن يشتغل ب"ده" يكون مع" ده"]:
من كان يشتغل ب"داو" يكون مع "داو" و من كان يشتغل ب"ده "(الفضائل) يكون مع "ده" بمعني أن آثار الفضيلة تظهر فيه دائما .

وأثبت لنا النص إمكانية الإتحاد ب"داو" بأنه من أحب أن يكون مع "داو" كان "داو" يحب أن يكون معه ومن لم يرغب في الاتحاد به فلن يجد إليه سبيلا .

---

166 شرح وان بي ص:٣٥٢.
167 < تفسير خه شان قون > ، ص: ٩٤.
168 المصدر السابق ، ص: ٩٤.
169 < حكمة الصين > ، ص :٤٣.

شيء من الإضافة .إن العلماء شرحوا هذه العبارة بأن الملوك كلما نقصت فيهم الأمانة قلت ثقة الشعب بهم وقيل معناه أنه من لم يكن لديه إيمان كاف لا يقدر علي جلب الثقة من الآخرين [١٧٠] وإنما ترجمت علي هذا النحو لأن سياق النص هنا لم يتحدث عن الملوك و لا الشعب بل يتحدث عن علاقة "داو" مع الإنسان و كيفية البقاء معه . وبناء علي ما ترجمناه فإن المراد من النص يكون :إن "داو" يكون مع الذي يحبه ويشتغل به ، ومن الناس من كان يؤمن بهذه الحقيقة .إيمانا صادقا ومنهم من يشك فيها .

[170] المصدر السابق ص: ٤٣.

لا يقوم من يقف على أطراف أصابع القدم ولا يقطع طويلا من يسرع فى السير ولا يبصر من يزعم لنفسه البصيرة ولا يشتهر من يزعم لنفسه الصواب ولا يملك المآثر من كان يعتزّ بنفسه ولا يبقى من يفتخر بنفسه فيقال إنها في عين "داو" كالحثالة من الطعام و الورم الخبيث (علي الجسم) وتنفر الناس ولذلك لا يعملها أصحاب "داو" .

الشرح :

[لا يقوم من يقف على أطراف أصابع القدم]:

من لا يقوم قياما طبيعيا بل علي أطراف أصابع القدم لايبقي طويلا في تلك الحالة لأنه لم يقم علي أساس ثابت و قيل من قام علي أطراف أصابع القدم وأراد أن يستعلي علي الآخرين لا يقدر علي الاستعلاء الحقيقي[١٧١]

النص كناية عن أن الأعمال التي لا تقوم علي الأساس الحقيقي الثابت لا تدوم .

وشرح "خه شان قون" بأن من كان يحب السلطة والسمعة ويسعي للجاه والمنصب لايقدر علي القيام بالاشتغال ب"داو" [١٧٢].

[ولا يبصر من يزعم ----ولا يبقى من يفتخر بنفسه]:

من يفتخر بنفسه لا يبقي إسمه بين الناس طويلا لأن الفخر يفسد السمعة ويخرب الصيت . فالنص يشير إلي أن الناس يحبون الدعاية بالبصيرة و الصواب و يعتزون بأنفسهم و يفتخرون بها ولكنهم كلما سعوا لذلك تأتي النتيجة نقيضة لغايتهم فلا يبصرون ولا يشتهرون فلا مآثر و لا شرف لهم .

وهناك من ترجم نص " لا يبقى من يفتخر بنفسه " إلي عبارة : "من يفتخر بنفسه لا يكون رئيسا للقوم " [١٧٣] لأن البقاء و الرئيس كلاهما في اللغة الصينية يعبر عنهما بكلمة واحدة.

[فيقال إنها في عين "داو" كالحثالة من الطعام و الورم الخبيث (علي الجسم) فتنفر الناس]:

إن الدعاية بالبصيرة و الصواب و الاعتزاز النفسي و التفخر كلها أفعال خسيسة في عين "داو" ولا قيمة لها فيراها "داو" كبقايا متروكة من الأكلة أو أورام خبيثة علي الجسم .

---

171 < دراسة داو-ده-جين > . ص: ١٦١

172 < تفسير خه شان قون > ص: ٨٩.

173 < حكمة الصين > ، ص :٤٣.

وهذا كناية عن أن هذه الصفات لا تعد خلقا حسنا عند لوتس بل من الأعمال المذمومة التي تقلّل قدر صاحبها وتنفر الناس منها.

بيّن لنا لوتس طريقة فاضلة في المعاملة وشجع الناس إليها كما أشار إلي سلوك خسيس وذمّه وقد مدح الصدق والأمانة باعتبارها خلقا فطريا وعاب التصنع في الأعمال باعتباره غير طبيعية وقد حكم علي التركيز الذاتي بأخس السلوك الإنساني وشبّهه بحثالة الطعام وورم الجسم الذي ينفره الناس .

وأراد لوتس من النص أن يدعو الناس إلي الأخلاق الفاضلة وهي عدم التركيز علي نفسه في كل شيء .

هنالك شيء متوحد ، وُجد قبل السماء والأرض . يا لعزلته ويا لوحشته . إنه قيوم لا يتغير وفعّال لا يتوقف و قد يكون أم السماء والأرض و لا أعلم اسمه فسميته "داو" بالجبر و سميته "العظيم" بالجبر.

إنّ العظمة تعنى الجريان والجريان يعنى البعد والبعد يعنى العودة.

و من ثم إنّ "داو" عظيم والسماء عظيمة والأرض عظيمة و الملِك عظيم ويكون فى الكون أربعة عظماء والإنسان واحد منهم.

إن الإنسان يتّبع الأرض والأرض تتّبع السماء والسماء تتّبع "داو" و"داو" يتّبع واجب الوجود .

الشرح:

[هنالك شيء متوحد]:

قيل :كلمة "متوحد" معناها شيء متكامل غير مركب و قيل: شيء مطلق لا يتجزأ وقيل هو وحدة كاملة . وعلي أي معني فهو يدل علي وحدانيته والمراد بالشيء المتوحد هو "داو". كما شرح " خه شان قون" هذه العبارة بأن "داو" لا صورة له و تكوّنت منه الكائنات في اللبسة فكان قبل السماء والأرض [١٧٤].

[يا لعزلته ويا لوحشته]:

فسر بعض العلماء وعلي رأسهم "خه شان قون" و "وان بي" ب " لا صوت له ولا صورة " بمعني أن "داو" كائن غامض بلا صورة ولا صوت .

وترجم " لين يو تان" في النسخة الإنجليزية هذه الكلمات بالعبارة : صامت ومعزول وقائم بوحده [١٧٥].

و أري أن النص يثبت وحدانية "داو" لأنه كان في العزلة والوحشة ولم يكن معه شيء فكان واحدا بلا شريك .

[إنه قيّوم لا يتغير]:

يعني أن "داو" كان منفردا ومستقلا ولم يكن شيئا بجانبه كما شرح "خه شان قون" : القيوم هو من لا شريك ولا نظير له و لا يتغير [١٧٦] .

---

174 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠١.

175 < حكمة الصين > ، ص :٤٣.

قال "وان بي" بأن معناه يخلق الخلق ويعيده مرة بعد مرة ولا يغير سنته [١٧٧].
وبناء علي ذلك فالنص يؤكد وحدانية "داو" و قدمه .

[وفعّال لا يتوقف]:
إنه يفعل ما يشاء ويخلق في كل حين ولا يتوقف من عمله لحظة .

[فسميته "داو" بالجبر]:
إن "داو" وجود غيبي مطلق ، لا تعرف حقيقته ولا يدرك بالحواس ولذلك لم يكن له إسم لائق به ولكن لما كان وجودا حقيقيا لا بد له من إسم يذكر به سواء كان مناسبا أو غير مناسب. فكان صاحب الكتاب مجبورا علي تسميته بشيئ علي سبيل تسهيل الذكر لا من حيث الحقيقة فسماه "داو" ووصفه ب"العظيم" .

[العظمة تعني الجريان]:
إنه عظيم و عظمته تظهر في جريان حكمه في جميع الكائنات أو كما قيل أن نفسه تجري في جميع الكائنات .
قال "خه شان قون" :إن "داو" عظيم لأنه ليس كالسماء في الأعلي و لا كالأرض في الأسفل بل في كل جهة و لا مقر له و يتسرب في كل موجودات كبيرا كان أو صغيرا [١٧٨] .
و قال "وان بي" : إنه يجري في كل مكان [١٧٩] .
و معني ذلك أن "داو" موجود في كل جهة و كل مكان حتي يبقي في ما ليس فيه الفراغ .

[والجريان يعني البعد والبعد يعني العودة]:
شرح "خه شان قون" بأن البعد يعني أنه ما لا نهاية له و يملؤ السماء و الأرض و يحيط بكل شيئ [١٨٠] . و يعني ذلك أن "داو" بعيد إلي ما لا نهاية و في نفس الوقت يكون في داخل الإنسان . ولعل النص يشير إلي أن مملكة "داو" تمتدّ إلي ما لا نهاية من البعد و تبدؤ من نفس الإنسان من القرب و هذا يذكرنا بما قاله القرآن الكريم عن الله إنه فوق العرش من جانب و أقرب من حبل الوريد من جانب آخر .

---

176 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠١.
177 انظر < شرح وان بي > ص:٣٥٤.
178 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠٢.
179 انظر < شرح وان بي > ص:٣٥٤.
180 < تفسير خه شان قون >، ص:١٠٢.

[الإنسان يتّبع الأرض]:
ينبغي للإنسان أن يتحذ الأرض نموزجا ويتّبعها لأن للأرض أوصافا تستحق بها المدح و التبجيل فهي تحمل الكائنات علي ظهرها بلا تعب ولا تزال ثابتة و تطعم الحيوانات بلا مكافأة ولا تزال هادئة . وهذه الخصائص تجدر بالإنسان أن يتصف بها لأن الأرض أقرب إليه وأوصافها أظهر إليه ثم إن الأرض تتّبع السماء علي الوجه المذكور و السماء تتبع "داو" وتطيع جميع قوانينه . ومعني ذلك أن الإنسان في نهاية المطاف يجب أن يتخلق بأخلاق "داو" ويطيع قوانينه والنص يشير إلي أن نظام "داو" كنظام كلي يجب أن يتبعه الإنسان في حياته .

["داو" يتّبع واجب الوجود]:
واجب الوجود يراد به "داو" نفسه . و إن "داو" وضع لكل شيء طبيعته ثم يتركه علي طبيعته ويلتزم بما وضع له فكأنه يتبع نفسه .
و شرح أحد العلماء بأن "داو" لا يتخلق بشيئ لأنه نهاية كل شيئ ولا شيئ وراءه وإنما نفسه هو مبدأ الكل ولذلك يلتزم نما وضنعه .
وكلمة " واجب الوجود " في أصل النص تنطق ب "تس را ن " (Zi Ran) و هي في المفهوم الحديث تعني "الطبيعة" ولكن معناها الأصلي هو : ما وجد بنفسه أو يبقي علي حالته منذ الأصل وكذلك يعني أنه موجود بلا موجد و أصل لذاته و علة لنفسه . ولذلك ترجمت ب"واجب الوجود " حسب المعني الأصلي طبقا للفلسفة الإسلامية .

ومن المستحسن في هذا المكان أن ننقل بعض التعليقات من أحد العلماء الداوية حيث يقول إن النص بين بعض أهم خصائص "داو" وهي :
١: إن "داو" وجود متكامل و ليس متكونا من العناصر والأجزاء فهو متكامل بنفسه ومستقل وإن العالم المادي متنوع و مركب ولكن "داو" كامل و متكامل .
٢: إنه وجود مطلق واحد بلا ثان بينما كل ما في العالم نسبي وأنه فعال متحرك وأنه لا يضمحل بتغيرات الحركة.
٣: إنه لا صوت له و لا صورة وفي الحقيقة لا ينبغي أن يسمي بشيئ ولكنه اليوم سمي ب"داو" علي سبيل تسهيل الذكر .
٤: إنه وجد قبل السماء و الأرض بل جميع الكائنات صادرة منه .
٥: إنه يعمل عملا دورانيا فيدرج البداية في النهاية .

٦:   إنه "العظيم" يعني أن ملكه عظيم من ناحية الطول والعرض كما يعني أنه فوق جميع الأشياء ._-----إنتهي[١٨١] .

وهذا بعض ما استخلصه علماء الداوية من النص وإذا أردنا أن نضيف شيئا فنقول بأن "داو" عند لوتس ليس إلا الإله الحق وهو الإله الواحد القيوم الذي لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار و هو رب العالمين .

ويشير النص إلي أن لوتس نفسه لم يكن نبيا ولم يتلق الوحي من الله تعالي وإلا فقد عرف اسم الإله وأخبره بذلك ربّه.

---

١٨١ < دراسة دلو-ده-جين > ، ص:١٧٠.

إنّ الثقل أصل للخفّة وإن السكينة مسيطرة علي الضجر ومن ثم كان الفضلاء لا يبرحون عربة الثقال ويملكون القصور الفاخرة متعالين عنها . فلماذا كان سيد آلاف الجنود يخفف نفسه عن العالم.
إن الخفة تؤدى إلى ضياع الأصل وأن الضجر يؤدى إلى ضياع المسيطرة.[١٨٢]

الشرح:

[إنّ الثقل أصل للخفّة]:

يري لوتس أن أصل الشيئ ثقيل و فرعه خفيف كما هو شأن الشجرة فإن أصلها ثقيل و ثابت و متين بينما فرعها خفيف ومتحرك و مضطرب وهذا كناية عن أن الثبات والوقار والسكون من أصل طبيعة الإنسان و أما التصنع و التهور و الطيش مخالف لأصل الطبيعة وأن الأصل يبقي بينما الفرع يزول كما قاله "خه شان قون" : إن سيد القوم لو لم يمتلك الوقار لا احترام له ولو أصلح نفسه بعيدا عن الوقار يفوت مزاجه وإن الأزهار تسقط مع الأوراق لخفتها بينما الأصل يبقي لثقله.[١٨٣]

[وإن السكينة مسيطرة الضجر]:

يعني أن السكينة تغلب شعور الضجر وتهدؤ النفس .

[ومن ثم كان الفضلاء لا يبرحون عربة الثقال]:

الفضلاء هنا يراد بهم قادة الجيش و عربة الثقال يراد بها العربة التي تحمل الزاد و السلاح للجيش و معني النص أن قادة الجيش يهتمون بعربة العد والعد و يحافظون عليها لأنها حاجة أساسية للجيش بل ضمان الانتصار في الحرب كما يقول <قانون الحرب> : إذا فاتت الجيش عربة الثقال يهلك[١٨٤] .

---

[182] ذكر النص بعض المفاهيم المتناقضة مثل الثقل مع الخفة والسكينة مع الضجر وبعضها محمودة عند لوتس والأخري مذمومة و يدعو النص إلي التمسك بالثبات والوقارو السكينة واعتبرها من مكارم الأخلاق كما ذمّ نقيض ذلك واعتبرها خطرا علي الإنسان نفسيا وروحيا وفي الحقيقة يشير هذا النص إلي إحدي مقومات الرياضة الروحية عند لوتس حيث يعتبر التمسك بالثبات والوقار وسيلة من وسائل الرياضة وطريقا إلي حفظ أصل الطبيعة الإنسانية .

[١٨٣] تفسير خه شان قون ص:١٠٦.

[١٨٤] سون تس :< قانون الحرب > والنص منشور في < لوتس شرحا وتعليقا> ص:١٧٢.

و عربة الثقال يكني بها عن الثبات و السكينة و يلمح هذا المثل إلي أن الإنسان الفاضل يجب أن يتمسك بالثبات والسكينة و الوقار ويهتم بها كما يهتم بعربة الثقال قادة الجيش .

[ويملكون القصور الفاخرة متعالين عنها]:

يملكون القصور الفاخرة و يسكنون فيها ولكن لا ينغمسون في الملذات المادية .

و شرح "خه شان قون" بأنهم يبتعدون عن القصور الفاخرة ولا يسكنون فيها[١٨٥] .

[فلماذا كان صاحب آلاف الجنود يخفف نفسه عن العالم] :

صاحب آلاف الجنود يراد به الملك و معني النص : ما للملك أن يتضجر و لا يتمسك بالوقار حتي هبطت عزته و يستخفّه الناس لأن الضجر يقلل قيمة صاحبه .

[إن الخفّة تؤدى إلى ضياع الأصل وأن الضجر يؤدى إلى ضياع المسيطرة]:

إذا إستخف أحد نفسه وترك الوقار فقد أضاع قيمة نفسه و إن الضجر يزيل السكينة و يبعد الناس عن أصل الطبيعة .

شرح "خه شان قون" بأن الملك إذا كان طائشا ينفضّ من حوله الوزراء وأنه إذا كان طائشا يفوت ملكه [١٨٦].

ويري "وان بي" أن الخفّة يراد بها عدم الانتباه وأن ضياع الأصل يراد به هلاك الجسم وأن ضياع المسيطرة يراد به فوت منصب السلطان [١٨٧].

---

[١٨٥] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠٦.

[١٨٦] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠٦.

[١٨٧] انظر : < شرح وان بي > ، ص: ٣٥٥.

حسن السير لا يخلف أثرا و حسن الكلام لا يخلف هفوات وحسن الحساب لا يعتمد على الآلة وحسن الإقفال لايحتاج إلى المرتاج ولا يفتح وحسن الربط لا يحتاج إلى الحبل ولا يحلّ. وكان الحكماء يحبون إنقاذ الناس دائما فلا أحد قد أُهمل و يحسنون استعمال الأشياء فلا شيء قد أُبطل. وهذه هى البصيرة .

لذلك كان الصالح أستاذا للطالح بينما الطالح عبرة للصالح. ومن لم يعظّم أستاذه ولم يتنبه عبرته كان ضالا مهما كان حكيما و هذه هي أسرار الحكمة .

الشرح:

[حسن السير لا يخلف أثرا]:

إن الذي يحسن السير و المشئ لا يترك أثرا في الطريق و هذا كناية عن أن من يحسن العمل لا يترك حجة ضد نفسه .

وشرح "خه شان قون" بأن من يحسن السير في "داو" إنما يسلك لنفسه فلا يخرج من الغرفة و لا يحرج من الباب ومن ثم لا يترك أثرا في الخارج [١٨٨].

وشرح "وان بي" : يعمل حسب الطبيعة ولا يحدث شيئا خلاف الطبيعة حتي إذا حصل المقصود لا يري أي أثر الصنع والاكتساب[١٨٩].

[و حسن الكلام لا يخلف هفوات]:

إن الذي يحسن فن الخطابة لا تظهر في كلامه الهفوة التي قد تؤخذ ضد المتكلم نفسه كما شرح " خه شان قون" : لو يتكلم باختيار ما هو الحسن من الكلام لا تحدث فيه الهفوات التي تضر الناس[١٩٠].

وقيل حسن الكلام يراد به التعليم بلا كلام [١٩١].

[وحسن الحساب---وحسن عقد لا يحتاج إلى الحبل]:

من يحسن الهساب لا يستعمل آلة الحساب بل يحسب حسابا ذهنيا ومن يحسن إقفال الباب لا يستعمل المرتاج و مع ذلك قفل الباب قفلا مشيدا حيث لا يفتح بسهولة و من يحسن ربط شيئ لا يعتمد علي الحبل و مع ذلك يقيد الشيء ولا يحل . ومعني ذلك أن طريقة الحكمة

188 انظر < تفسير خه شان قون > ص:١٠٨.
189 انظر : < شرح وان بي > ، ص: ٣٥٥.
190 انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:١٠٨.
191 انظر : < لوتس شرحا و تعليقا > ص:١٧٤.

والذكاء أقوي أثرا من طريقة مباشرة في الأعمال أو أن الطريقة العقلية أحسن من الطريقة المادية في معاملة الأمور .

و يري العلماء المفسرون أن معني العبارات هو أن معرفة طبيعة الأشياء و معاملتها حسب الطبيعة خير وأسهل طريقا لحل المشاكل كما قال "وان بي" : هذا يعني أنه لا ضرورة للإحداث و التصنع بل يكفي إجراء الأشياء علي طبيعتها دون إحكامها بطريقة محسوسة[١٩٢] .

شرح "خه شان قون" : إن الذين يحسنون إغلاق الشهوات ب"داو" و يحافظون علي الروح ليسوا كمن يغلق الباب بالمرتاج فينفتح و إن الذين يعاملون الأمور ب"داو" و يقبضون القلوب ليسوا كمن يربط الشيئ بالحبل فينحل[١٩٣].

إن النص يعيد فلسفة العدم ويعتبر ذلك من الحكمة كما يشير إلي أن طريقة الحكمة هي أقوي الوسائل في حل المشاكل وقد تستخدم الحكمة في كل المجالات حتي في السلوك والأقوال لأن ما يبني علي الحكمة يكون نافذا و متينا و مؤثرا .

[يحبون إنقاذ الناس دائما فلا أحد قد أهمل ----ولا شيئ قد أبطل]:

أي أنهم يساعدون الناس في كشف ما عندهم من العناصر الإيجابية و يجعلونهم يتطلعون علي مواهبهم و قيمتهم حتي يثقوا بأنفسهم و يساهموا في خدمة الآخرين فلا أحد قد سلب دوره الإيجابي . وكذلك أنهم يكشفون الخصائص الإيجابية في الأشياء فينتفعون من عناصرها الإيجابية ولا شيئ قد أهمل عن نفعه .

ومن دأب الحكماء أن لا يهملوا أحدا و لا يعطلوا شيئا ويكشف الجوانب الإيجابية لكل واحد ولكل شيء فينتفعون بها و في عين لوتس لا أحد في العالم يخلو من القيمة و إن كان خيرا يكون مثالا للناس و إن كان شرا يكون عبرة لهم كما جاء في الحكاية أنه قيل للقمان الحكيم من أين تعلمت الحكمة فقال من طالح و قيل كيف من الطالح فقال لقمان الحكيم : كل ما يعمله لا أعمله و كل ما لا يعمله أعمله و بذلك تعلمت الحكمة.

[192] <شرح وان بي> ، ص:٣٥٦.
[193] <تفسير خه شان قون> ص:١٠٩.

من يعلم الرجولية ثم يتمسك بالأنوثية يكون غديرا للعالم و لكونه غديرا للعالم لا تنصرف عنه الفضيلة الدائمة حتى يعود إلى الطفولية.

ومن يعلم البياض ثم يتمسك بالسواد يكون مثالا للعالم و لكونه مثالا للعالم يملؤ بالفضيلة الدائمة حتى يعود إلى منتهى العدم.

ومن يعلم العزّة ثم يتمسك بالذلّة يكون واديا للعالم ولكونه واديا للعالم تتقوى له الفضيلة الدائمة حتى يعود إلى البساطة .

إن البساطة تنحلّ وتصير أشياء ويستخدمها الحكماء فصاروا بذلك قادة الناس . و من ثم إن النظام الأعظم لا يتجزأ . [١٩٤]

الشرح:

[من يعلم الرجولية ثم يتمسك بالأنوثية يكون غديرا للعالم]:

الرجولية يراد بها القوة و البطشة و الصلابة والشدة و غيرها مما يمتاز به الرجال وأما الانوثية فهي اللينة و الرحمة و الحلم و اللطفة و غيرها مما تمتاز به النسوة وأما الغدير فهو نهر صغير يجري في أسفل الجبال . والغدير يكون في أخفض مكان حيث تضم فيه مياه الجبال.

ومعني النص أنه من الرجال من كان ذا قوة و بطشة و صلابة و مع ذلك لا يبرز رجوليته في الأفعال بل يظهر الرحمة و اللطفة و الحلم فيأوي إليه الناس ويكون ملجأ لهم و مدارهم كما أن الغدير تنضم إليه مياه الجبال و تزيد كميته و تتقوي قوته .

وقد شرح "خه شان قون": الرجولية يراد بها العزة و الأنوثية يراد بها الذلة فعلي الإنسان أن يتمسك بالذلة حين يعلم فضل العزة و أن يترك شدة الرجولية و يلازم لينة الأنوثية وبهذا يصبح مرجع العالم كالغدير الذي يأتي إليه الماء من كل حدب وصوب [١٩٥].

---

[194] وضّح النص بعض المبادئ والأصول للرياضة النفسية وبعض طرق المعاملة وأساليب السياسة ففي مجال الرياضة دعا إلي الرقة والضعف مع وجود القوة والرجولية وفي مجال المعاملة دعا إلي الصبر والذلة والتحمل في حالة العزة و في مجال السياسة يدعو إلي تطبيق قوانين "داو" تطبيقا كاملا دون إقبال إلي بعض و إعراض عن الأخرلأن قوانين "داو" متكاملة و لا تقبل تجزئتها وإلا لأفسدت شموليته .
ولعل النص يلمح إلي فكرة وحدة الوجود بأن "داو" البسيط قد ينحلّ فيتجسد في جميع الموجودات و نفس الفكرة موجودة في الهندوسية.

[195] < تفسير خه شان قون > ، ص:١١٣.

[حتى يعود إلى الطفولية]:

الحالة الطفولية هي غاية ما يطلبها السالكون و الرياضيون عند الداوية لأن الطفل يمتاز بالنقاء و الصفاء و البعد عن الشهوات و الأهواء فهو علي الفطرة النقية . وغاية السلوك و الرياضة عند الصينيين هي الرجوع إلي الفطرة الأصلية . و معني النص أن غاية ما يفعله الناس من ترك الرجولية و التمسك بالأنوثية هي رجوع إلي الحالة الطفولية التي طبع عليها الناس.

[ومن يعلم البياض و يتمسك بالسواد يكون مثالا للعالم]:

البياض يراد به الإظهار بينما السواد يراد به الإخفاء كما شرحه "خه شان قون" . ويعني النص: علي الإنسان أن يخفي نفسه ولا يتقدم أمام الناس ولو كان يعلم. فائدة الإظهار وقيل إن البياض كناية عن النور بينما السواد كناية عن الظلام[١٩٦] .

[حتى يعود إلى منتهى العدم]:

إختلف العلماء في معني "منتهي العدم." فشرح "خه شان قون" و "وان بي" :أن "منتهي العدم " هو ما لا نهاية له ولكن شرح "تشين قو بين" بأنه البساطة الحقيقية و قيل إنه بداية الكون وقيل العدم. هكذا شرح العلماء و يبدو لي من الشروح السابقة أن منتهي العدم قد يراد به "داو" لأن "داو" هو ما لا نهاية له وأصل الكون والعدم. ولعل القصد من العودة إلي منتهي العدم هو الحصول علي الاتحاد ب"داو" أو الفناء فيه لأن الفناء ليس إلا إنعدام النفس.

[يكون واديا للعالم]:

الوادي هو مكان منخفض يجتمع فيه الماء الذي يأتي من الجبال . وهذا كناية عن أنه من يتمسك بالذلة مع الامتلاك بالعزة يحترمه الناس ويلجأون إليه كما أن الماء يجتمع في المسيل .

[إن البساطة تنحلّ إلى الأشياء]:

إختلف العلماء في المراد بالبساطة فشرح بعض العلماء كلمة البساطة ب"داو" كما قال "تشين قو بين" :إن "داو" اللذي هو البساطة الحقيقية لما إنحل تحول إلي الأشياء[١٩٧] .
و شرحها "وان بي" بمعني الحقيقة فقال إن الحقيقة لما إنحلت تحولت إلي الأشياء [١٩٨].

١٩٦ < حكمة الصين > ، ص :٤٥.
١٩٧ < لوتس شرحا و تعليقا >، ص:١٨٢.
١٩٨ < شرح وان بي > ، ص:٣٥٦.

و الراجح عندي هو قول "تشين قو يين" بأن البساطة هي "داو" ؛ و هذا الرأي قريب من رأي الهندوسية في الإله الأعلي عندها إذ قالت الأبانيشادات بأن براهمان إنحلّ إلي الموجودات ومن ثم كل شيئ في العالم جزء من ذاته والعالم هو براهمان و براهمان هو العالم . كما أن هذا الرأي يحمل فكرة وحدة الوجود سواء عند الداوية أم عند الهندوسية فإن الداوية تعتقد بأن كل شيئ يحمل خاصية "داو" ولذلك يتّحد به في النهاية .

[ويستخدمها الحكماء فصاروا قادة الناس]:

قال "تشين قو يين" : أصحاب "داو" إستخدموا البساطة الحقيقية و يعاملون الناس بالبساطة فصاروا قادة الناس[١٩٩] . و قيل إن الحكماء إستخدموا الأشياء واكتشفوا منافعها للناس فارتفع مكانهم بين الناس .

[و من ثم إن النظام الأعظم لا يتجزأ]:

النظام الأعظم هو نظام شامل صالح للتطبيق في جميع الحالات وإنه لا يتجزأ . وقد إختلف العلماء في شرح هذه العبارة فقال "وان بي" بأن النظام الأعظم هو أن يتخذ الحاكم قلوب الناس قلبه و لا يفرق بين القلوب[٢٠٠] . و قيل إذا حكم العالم ب"داو" لا يصيب أحدا ضر و لا يصيبه جرح [٢٠١] .

وقيل معناه أن المبدأ المثالي لحكم العالم هو عدم إفساد كمال "داو" .

وأري أن النص يريد أن النظام الأعظم هو نظام "داو" ، وأنه نظام كامل بحيث يغطي جميع مجالات الحياة فيجب أن يطبق في الحياة بكامله ولا ينبغي أن يطبق بعضه دون البعض وإلا فقد أبطل ذلك النظام ولذلك فإن النظام الأعظم لا يتجزأ .

---

199 انظر < لوتس شرحا و تعليقا >. ص:١٨٢.

200 < شرح وان بي > ، ص:٣٥٧.

201 انظر < دراسة داو-ده-جين > ص:١٤٤-١٤٦.

الفصل التاسع و العشرون   عدم الفعل

إذا أراد أحد أن يحتل العالم و يتصرف فيه فإنه فيما أرى لا ينجح لأن العالم شيء مقدس فلا ينبغى أن يتصرف فيه ولا أن يسيطر عليه ومن تصرّف فيه أفسده و من سيطر عليه فاته.

إن الأشياء إما تابعة أو متبوعة ، إما مدفأة أو مبردة ، إما قوية أو ضعيفة ، إما آمنة أو خطيرة فكان الحكماء ينبذون التطرف و الغلو والترف [٢٠٢].

الشرح:

[لأن العالم شيء مقدس]:

العالم يراد به الإنسان فالإنسان شيئ مقدس بمعني أنه لم يخلقه الإنسان نفسه بل أوجده "داو" المقدس فهو بذلك صار مقدسا "

شرح "خه شان قو": إن الإنسان شيء مقدس في العالم وكان يحب السكينة فلا ينبغي أن يحكم بالأفعال[٢٠٣] . وقيل بأن الإنسان مقدس لأنه أشرف الخلق . و شرح أحد العلماء المعاصرة بأن العالم هو حيز الإله نفسه[٢٠٤] فهو المقدس .

[ومن تصرف فيه أفسده]:

إن الأشياء في العالم كلها مطبوعة علي طبيعة معينة ؛ وإذا كانت الأشياء تجري علي طبيعتها لاستقامت الأمور دون الجهود من الناس ولو تصرف الإنسان فيها بقوته لأفسد طبيعة الأشياء وبالتالي أفسد العالم .

---

202 النص يعبر عن الفكرة السياسية عند لوتس و هي أن البلد لا ينبغي أن يحكم بالقوي العسكرية بل يجب أن تكون السياسة فيه قائمة علي أساس الحكمة بأن تراعي الاختلافات في خصائص الأشياء وطبائع الإنسان التي طبع عليها ومن الطريقة الناجحة في السياسة أن يطلق الناس أحرارا علي ما ترضاه طبائعهم من غير إجبارهم علي ما يعارض نفوسهم.

ونري أن الشعب كان في عين لوتس يحتل مقاما مرموقا وقد أعطاهم مكانا رفيعا .

وكذلك من سياسة الحكمة البعد عن التطرف والغلو والترف وهذه المبادئ لم تكن مهمة في مجال السياسة بل لها أهمية كبيرة لحياة أفراد الإنسان وقد أكّدها لوتس بهذا النص .

203 < تفسير خه شان قون > ص:١١٨.

204 لين يو تان The wisdom of China: the world is God's own Vessel . see page No:46

[و من سيطر عليه فاته]:
العالم ليس شيئا ما يسيطر عليه لأنه يجري ويعمل علي طبيعته ولا يقبل تدخلا خارجيا في سبيله فضلا عن سيطرته و إخضاعه لإرادة أي أحد من الناس وكل ما يمكن أن يفعله الإنسان هو حفظ طبيعته و متابعتها دون تغييرها و سيطرتها و إلا فقد فات العالم .
وشرح " وان بي" : لكل شيء طبيعته ومن يخلق له طبيعة جديدة فقد أفسده ولكل شيء حركاته فمن يمسكه من حركاته فقد فاته [٢٠٥].

[إن الأشياء إما تابعة أو متبوعة]:
يعني أن الأشياء مختلفة الطبائع ولا يمكن أن تعامل الأشياء المختلفة بمعاملة واحدة بل يجب أن تعامل معاملة المثل حسب طبيعتها وإن تعامل بالجبر خلاف طبيعتها فقد أفسدتها .
وشرح بعض العلماء بأن الإنسان مختلف الطبائع وإما يحب أن يكون تابعا للآخرين أو أن يكون متبوعا للناس[٢٠٦].

[فكان الحكماء يعرضون عن التطرف وعن الغلو و عن الترف]:
إختلف العلماء في معني التطرف والغلو و الترف فقال "خه شان قون" بأن التطرف يراد به الشهوة في الأصوات والألوان وأن الغلو يراد به الغلو في الملبس و المأكل و قيل أن التطرف هو الظلم و الغلو هو التكبر و الترف هو كثرة الشهوات و قيل أن التطرف هو غاية الرفاهية و الغلو هو الغلو في الأعمال و الترف هو غاية التمتع و الإسراف.
و علي كل حال إن الثلاث يراد بها الغلو في الشهوات .

---

205 < شرح وان بي > ، ص:٣٥٧.
206 < دراسة دلو-ده-جين > ص:١٨٤.

إن الذين يدعمون سيد القوم ب"داو" لا يقهرون العالم بالجيش لأن جزاء ذلك ميسور . أينما يصل الجيش فثمّ تزدهر الأشواك و يأتى عام مخيف بعد مرور الجيش الجبار .
ومن حسن القيادة الوقوف عند النتيجة وعدم القهر بالقوة فلا يفتخر عند النتيجة ولا يتكبر عند النتيجة و لا يتبجح عند النتيجة و (عليه أن) يعتبر النتيجة شيئا مضطرا فلا يباهى بالقوة. إن الأشياء إذا استغلظت تتشيّخ و ذلك يخالف "داو" وما يخالف "داو" يضمحل مبكرا[٢٠٧].

الشرح:

[لأن جزاء ذلك ميسور]:

وظيفة الجيش حفظ الوطن لا لقهر الناس ولا للقتل وإن يظلموا علي الناس سوف يظلمون لأن جزاء القهر ليس إلا قهرا مثله وكما يغلبون سوف يغلبون وذلك ليس ببعيد . وقد فصّل أحد العلماء هذه العبارة بقوله : من قتل أبا أحد سوف يقتل أبوه ومن قتل أخا أحد سوف يقتل أخوه و هذا هو جزاء ميسور و قيل معناه : لو ظلم أحد غيره فسوف يظلم و هذا هو جزاء ميسور[٢٠٨].

[ومن حسن القيادة الوقوف عند النتيجة]:

من يحسن قيادة الجيش يوقف الحرب بأدني حد النجاح ولا يرغب في القتل . وإختلف العلماء في حد النتيجة في الحرب فقيل إن النتيجة هي إنقاذ الناس من الشدائد و قيل هي القضاء علي الفتنة والفوضي وقيل هي إنتصار الحرب[٢٠٩] .

---

207 إن النص عبر عن الفكرة العسكرية عند لوتس وموقفه من الحرب كما وضع لوتس فيه بعض المبادئ للحرب وكان يعارض الحرب بأشد صوته و يري أن الإنسان شيء مقدس فلا ينبغي أن يقهر بالقوة العسكرية في الحرب ويخوف بالقتل وقد يمكن إخضاعه إلي الطاعة بالحق والعدل وغيرهما من الطرق الحكيمة وأما الجيش فهو آخر طريقة لحل النزاع بل يستخدم تحت الإجبار من غير الرضاء . ولعل لوتس أشار لنا إلي طريق مثالي لحل النزاعات الدولية والإقليمية في العصر الحاضر ولا شك في أنه طريق سديد قابل التطبيق .

وكرر لوتس في هذا النص فكرة الضعف واللينونة ويعتبر ذلك موافقا لطبيعة "داو" ويعتقد بأن صاحب اللينونة والضعف يبقي طويلا كما أن النص أشار إلي قانون العودة وهو أن الشيء إذا وصل إلي قمته سيعود قهقريا إلي أصله .

208 أنظر < دراسة داو-ده-جين > . ص:١٧٦.

209 أنظر < لوتس شرحا و تعليقا > .ص:١٨٩.

ومعني النص أن القتل ليس قصدا للحرب وإنما قصده هو القضاء علي الفتنة .

[يعتبر النتيجة شيئا مضطرا]:

إذا إنتصر أحد الجانبين أو حصل علي الحد الأدني من النجاح لا يجب أن يفرح أو يتكبر بل عليه أن يعتبر نفسه كان مضطرا إلي تلك النتيجة ولم يرد هو نفسه ذلك وقيل معناه أن يتآسي علي تلك النتيجة [٢١٠] .

[إن الأشياء إذا استغلظت تتشيّخ]:

إن الأشياء لو توصلت إلي غاية القوة ستعود إلي الضعف وهذا هو قانون طبيعي كما أن الزروع لما إستغلظت تتشيخ و تصفر و تنتهي حياتها وقال "خه شان قون" : إن العشب والأشجار إذا إستغلظت تصفر و تتحول إلي اليبسة كما أن الإنسان إذا بلغ إلي سن الكهولة يتشيخ و هذا كناية عن أن الأقوياء لا تبقي قوتهم دائما[٢١١] .

[ذلك يخالف "داو"]:

ذلك يشير إلي التشيخ بمعني أن "داو" خالد أبدي لايتشيخ و لا يتغير و أن ظاهرة التشيخ تخالف طبيعة "داو" و كل ما يخالف "داو" يفني سريعا.

[210] < حكمة الصين > ، ص : ٤٧.

[211] < تفسير خه شان قون > ص:١٢٢.

إن الجيش سلاح مشئوم يكرهه الجميع ولذلك لا يستخدمه أصحاب "داو" وإنَ الفاضل يفضّل جهة اليسار عند الإقامة ويفضّل جهة اليمين فى تخطيط الجيش. إن الجيش سلاح مشئوم وليس آلة للفضلاء . وقد يستعملونها عند الضرورة ولكن طاب لهم أن يقلّلوا شأنه و لا فرح للغلبة وأما إذا فرحوا فإنما يفرحون بالقتل . ومن يفرح بالقتل لا يرضى عنه العالم. إن الأمر السعيد يقع فى اليسار بينما الأمر المشئوم يقع فى اليمين . والقائد الجناحى يقف فى اليسار بينما القائد الأعلي يقف فى اليمين ويعني هذا أن الحرب لا بد أن تعتبر جنازة وإذا قُتل خلق كثير لا بد أن يتأسى عليهم بالبكاء و يُحتفل النصر بالجنازة.[٢١٢]

الشرح :

[إن الجيش سلاح مشئوم يكرهه الجميع]:

يعارض لوتس الحرب حتي يري أن الجيش شيئ مشئوم مكروه وذلك أن الحرب لا تخلو من القتل والهلاك و قال "خه شان قون" : كلما يتحرك الجيش يفسد و لذلك يكرهه الخلق [٢١٣].

[وإنَ الفاضل يفضّل جهة اليسار عند الإقامة ويفضّل جهة اليمين فى تخطيط الجيش]:

يري الصينيون أن جهة اليسار جهة الخير والسعادة بينما جهة اليمين هي جهة الشر والشؤم وذلك أن اليسار يعتبر ذكرا حسب الفلسفة الإزدواجية وفيه كل العناصر الإيجابية مثل الخير والحياة وأما اليمين فيعتبر أنثي وفيه كل العناصر السلبية مثل

---

[212] عبّر النص بالوضوح عن مدي كراهية لوتس للحرب ومدي تمنيه للسلم والأمن حتي يحسب الجيش من الأشياء المشئومة ويحذر من الفرح علي النصر ويري أن الإنتصار في الحرب ليس أمرا مفرّحا بل بلاء فيجب أن يحتفل به بطريقة الجنازة .

و يبين النص أنه لا ينبغي أن تشن الحرب لغرض الغلبة أو السيطرة بل تكون للضرورة والاضطرار إليها وتكون الحرب آخر الوسائل لحل النزاع حتي إذا إنتصر فريق في الحرب لا ينبغي أن يفرح ولا يفتخر ولا يسرف في القتل بل يقف عند أدني حد النجاح .

و إن الإنسان من طبيعته حب الحياة و كراهية الموت و بما أن الحرب تهلك الحرث و النسل ينفّرها الإنسان و يبتعد عنها الفضلاء .

والنص عبر عن موقف لوتس من الحرب.

[213] < تفسير خه شان قون >، ص:١٢٥.

الشر والهلاك فالفاضل عندما يختار مكانا للسكني يبحثه في جهة اليسار التي ترمز إلي الخير والحياة ولكن قائد الجيش يختار جهة اليمين التي ترمز إلي البطشة والقتل .

وقال "خه شان قون" : الفاضل يفضّل اللينة و القائد يفضّل القوة ويشير النص إلي أن طريقة قائد الجيش تختلف عن طريقة الفاضل وذلك أن اهتمامهما مختلف[٢١٤] .

[إن الأمر السعيد يقع فى اليسار]:

القدماء الصينيون لما أصابهم الخير يعظمون جهة اليسار و يفعلون كل شيئ في جهة اليسار و لما أصابهم الشر يحترمون اليمين كما فعله الحكيم الصيني كنفوشيوس إذ أنه لما توفيت أخته كان ينحي جسمه إلي جهة اليمين تعبيرا عن شكره لمن أتاه للتعزية وكان في حالة الحزن والشدة ولذلك يعمل كل شيء نحو جهة اليمين .

[والقائد الجناحى يقف فى اليسار]:

القائد الجناحي يراد به نائب القائد وهو يقع في جهة الخير والسعادة وأما القائد الأعلي فيقع في جهة اليمين وهي جهة الشر والشؤم لأن القائد الأعلي في موقع رئيسي ويمثل هو الجيش كله ويشير ذلك إلي أن الحرب أمر مشئوم وشر كالجنازة فالأعمال الرئيسية تعمل في جهة اليمين .

---

214 < تفسير خه شان قون > ص:١٢٥.

إن "داو" خالد بلا اسم وذو البساطة ومهما كان صغيرا لا يقدر العالم على إخضاعه وإن الحكام إذا تمسكوا به خضعت لهم الموجودات و إذا إتَحدت السماء بالأرض نزل الغيث ويتوازن بنفسه ولو لم يأمره أحد. ولما ابتدأ التنظيم كان الاسم ولما وجد الاسم عرف الناس حدودا ولما عرفوا الحدود لم يصبهم الخطر.

إن مثل "داو" في العالم كمثل الأودية مع البحار.

الشرح :

[ذو البساطة]:

يعني أن "داو" كان ولا يزال علي حالته الفطرية وهي البساطة الحقيقية . ويقال أن الخشب إذا لم يشكل كان بسيطا بمعني أنه علي حالته الفطرية [٢١٥].

[ومهما كان صغيرا لا يقدر العالم على إخضاعه]:

هذا لا يعني أن "داو" صغير من ناحية الجسم وإنما لا يري بالعين فكأنه وصل إلي غاية الصغر حتي لا يبصر وإن "داو" يحكم الكائنات في العالم وليس العكس .

و قيل إن "داو" لا إسم له فلا يقال عنه صغير و لا كبير ولكن الحكماء لما رأوه محيطا بكل شيئ سموه كبيرا و لما رأوه يتسرب في كل شيئ سموه صغيرا [٢١٦] .

[وإن الحكام إذا تمسكوا به خضعت لهم الموجودات]:

لو تمسك الحكام ب"داو" لجرت الأمور و الشئون علي الطريق الطبيعي السليم و خضعت لإرادتهم فسلم العالم .

شرح "خه شان قون" بأن الحكام إذا اتبعوا "داو" بواسطة التمسك بعدم الفعل لأطاعتهم الكائنات وخضعت لهم [٢١٧].

أراد النص أن يبين خصلة يجب أن يتحلي بها الحكام وهي خصلة البساطة لأن "داو" ذو بساطة فيجب علي الحكام أن يتخلقوا بهذه الفطرة وإذا تحلوا بها فقد أطاعوا "داو" وذلك إذا توافقت الأفعال الإنسانية مع الإرادة السماوية ستتمتع الأرض بأنواع الأنعم من السماء حتي يرضي الناس .

---

215 انظر < لوتس شرحا و تعليقا >. ص:١٩٤.

216 انظر المصدر السابق ص: ١٩٥.

217 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٢.

[و إذا إتحدت السماء بالأرض نزل الغيث]:

شرح كثير من العلماء بأن الريح الأنثي علي الأرض إذا اجتمعت بالريح الذكر علي السماء نزل المطر لأن السماء حسب الفلسفة الإزدواجية هي الذكر وأن الأرض أنثي .

و شرح "خه شان قون" : لو توافقت أعمال الملوك مع الطريقة السماوية نزل المطر رحمة لهم [218] ولعل الشرح الأخير أقرب إلي المراد ويعني ذلك أنه لو أطاع الإنسان قوانين "داو" و انسجم معه في كل شيء ينظرهم "داو" بعين الرحمة واللطف حتي ينزل عليهم الغيث عند الحاجة

[ويتوازن بنفسه ولو لم يأمره أحد]:

يتوازن المطر بنفسه و لو لم يأمر بتوازنه أحد من الناس و ذلك يعني أن "داو" يجعله متوازنا و ينزله بقدر مطلوب .

وشرح "وان بي" بوجه آخر وقال :معناه أن السماء إذا اتحدت بالأرض نزل الغيث بلا طلب وكذلك إذا تمسك الحكام بالطبيعة الحقيقية وإلتزموا بعدم الفعل لعاد الشعب إلي القناعة دون إصدار القرار[219] .

[ولما ابتدأ التنظيم كان الاسم]:

إختلف العلماء في شرح هذه العبارة فقيل لما نشأت الأشياء و بدأ كل شيئ بالنشأة علي طبيعته وجد التغاير بين الأشياء ووجد إسم لكل نوع [220] . و قيل معناها لما ظهرت الحضارة الإنسانية ظهرت الأسماء .[221]

ويري "خه شان قون" أن معني هذا النص هو أن "داو" خلق الكائنات[222].

و شرح "وان بي" بأن البساطة الأزلية إنحلت فصارت الأشياء و أول ما وجد منها كان قائد الناس و هو بدأ ينظم الأمور و يضع الأسماء فظهر التمييز بين اسم الملك و اسم الرعية و بين إسم الأب و الإبن و بين اسم الزوج و الزوجة و غيرها من الأسماء [223].

علي كل حال فيشير النص إلي أن الكائنات مع أسمائها لم تكن موجودة في البداية ثم وجدت و أن العالم حادث .

---

[218] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٢.

[219] < شرح وان بي > ، ص:٣٥٩.

[220] < لوتس شرحا و تعليقا >. ص:١٩٥.

[221] < حكمة الصين > ، ص :٤٨.

[222] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٢.

[223] < شرح وان بي > ، ص:٣٥٩.

[ولما عرفوا الحدود لم يصبهم الخطر]:

إن الإسم يحدد مسماه و يميز الفرق بين الأسماء و لما عرف الناس الأسماء مع مسماها عرف الحد لكل شيئ كما إذا عرف معني الأب و الإبن عرف الفرق بينهما و عرف رتبتهما فلا يصيبه الغلط و لا يصيبه الخطر لأنه بذلك قد عرف ما هو الجائز و ما هو المحظور .

ويشير النص إلي أن لكل شيء حدودا وضعها "داو" وعلي الإنسان أن يعرف تلك الحدود ويحافظ عليها ولا يتجاوزها حتي لا يقع في الخطر والهلاك .

[إن مثل "داو" مع العالم كمثل الأودية مع البحار]:

شبه "داو" بالوادي لأن "داو" أصدر الأشياء في العالم كما أن الأودية تصدر المياه للبحار . وشرح " خه شان قون": إن "داو" يخاطب الناس في العالم كما أن الأودية تتصل بالبحار[٢٢٤] .

ويذكر لنا لوتس فضل "داو" علي العالم وإنه ينزل عليه نعمته بلا انقطاع كما أن الأودية تضيف للبحار ماءها بلا توقف .

وواضح أن "داو" هنا يراد به الإله الرازق .

---

[224] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٢.

العارف بالناس حكيم والعارف بالنفس بصير والغالب على الناس قوى والغالب على النفس قدير والقانع غنى والساعي بالجدّ ذوالعزم ، ومن لم يزل فى مقامه بقى ومن لم يمت بعد الوفاة يخلد.

الشرح:

[والساعي بالجدّ ذوالعزم]:

من عزم علي شيئ و إجتهد فيه مع صعوبته فقد تحققت عزيمته سواء وجد ما سعي إليه أو لم يجده و شرح " وان بي" : من سعي بالجد فقد حصل بعزيمته علي ما سعي إليه [٢٢٥].

وقيل : النص شبيه بكلام كنفوشيوس حيث قال: نعمل شيئا مع العلم بإستحالته [٢٢٦] ، يعني أنهم يعملون شيئا بكل جهدهم حتي ولو يعرفون أن عملهم لا يؤتي بالنتيجة فهؤلاء هم أصحاب العزيمة .

[ومن لم يزل فى مقامه بقى]:

من يتمسك ب"داو" و لا يغير مسلكه فقد بقي عمله ودام أثره .

قيل معناه : من لم يفته أصله يبق و قيل من لم تفته طبيعته الأصلية يبق[٢٢٧] .

و شرح "خه شان قون" : من يراعي نفسه و لا يضيع الهواء الجوهري الذي تلقّاه من السماء فقد خلد [٢٢٨] .

و قال "وان بي" : من يراقب نفسه بالبصيرة و يعمل بقدر الطاقة و لم يزل من هذا المقام فقد بقي [٢٢٩].

[ومن لم يمت بعد الوفاة يخلد]:

من مات ميتة جسدية و لم يضمحل فكره و اسمه بموته فقد بقي روحيا و فكريا .

و قيل من مات فقد مات جسديا و لا يزال "داو" باقيا فيه و رغما علي فناء الجسد إلا أن روحه باقية [٢٣٠] .

وشرح "وان بي" : مات جسده ولم تمت طريقة حياته فيقال عنه الخلد بعد الموت [٢٣١].

[225] < شرح ولن بي > ، ص:٣٥٩.
[226] < دراسة دلو-ده-جين > ، ص:٢٠٠.
[227] < دراسة دلو-ده-جين > ، ص:٢٠٠.
[228] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٤.
[229] < شرح ولن بي > ، ص:٣٦٠.
[230] انظر < دراسة دلو-ده-جين > ، ص:٢٠٠.

ويستحسن بنا أن نذكر هنا فهم هذا النص من أحد العلماء الداوية مع أنه يختلف قليلا عن فهمنا حتي نري مدي اختلاف الفهم عند العلماء لهذا النص : من يعرف الصواب من الخطء يقال له الحكيم و من يعرف ما حصل له أو فات منه يقال له البصير و من يغلب الناس يقال له ذو القوة و من يغلب شهوات نفسه يقال له القادر و من يسير في "داو" بالجد يقال له ذو العزيمة ومن لم يفته أصل الشخصية يبق و من مات جسده ولم يضمحل يقال له المعمر[٢٣٢] .

وعلي كل حال فإن النص ذكر لنا بعض الحكم التي اكتشفها لوتس في حياته و يشير إلي أن الإنسان قد يكون قويا أمام غيره وعاجزا أمام نفسه و إن العوائق التي تحول بين الرياضة الروحية وبين غايتها ليست إلا نفس الإنسان وأهم ما يجب إصلاحه أثناء الرياضة هو نفسه و كانت معاملة الإنسان مع نفسه أصعب إليه من معاملته مع غيره . وقد ذكر النص مسألة البقاء و الخلود و كان الداويون يرون أن الإنسان يخلد برياضته بمعني أنه يعيش حياة طويلة ثم يصير ملكا ويبقي جسديا إلي الأبد ولعل هذا النص قد أعطاهم دليلا علي ذلك مع أن النص ربما لم يرد ذلك .

---

[231] < شرح ولن بي > ، ص:٣٦٠.

[232] سي جان تشان :< توضيح معاني دلو - ده- جين >. طبع في معبد باي يون . بكين ، ١٩٩٠، ص:٣١.

ينتشر "داو" العظيم فيعمّ يمينا و شمالا . تنمو الكائنات اعتمادا عليه وهو لا يرفضها و إنه لما أنجز أمرا لا يمتلكه و هو يربّي الكائنات بلا زعم بامتلاكها و لم يكن له شهوة أبدا فيُعتبَر صغيرا و تنتمي إليه الكائنات ولا يزعم بامتلاكه فيُعتبَر كبيرا . ولأنه لا يستكبر أبدا فتحصل له العظمة.[٢٣٣]

الشرح:

[ينتشر "داو" العظيم فيعمّ يمينا و شمالا]:

إن "داو" محيط بكل شيء ولم يكن في جهة دون جهة بل في كل الجهات .

و قال "خه شان قون" : معناه أن "داو" محيط فيرتفع حينا و ينزل حينا آخرا كأنه بين الوجود والعدم وإن "داو" قد يكون في جهة اليمين و قد يكون في جهة اليسار و قد يكون في كل الجهات[٢٣٤] .

وقد شرح أحد العلماء هذا النص بوجه آخر فقال : إن "داو" واسع ومحيط وإنه يقدر علي تصريف الكون ويكون في كل مكان [٢٣٥].

وقيل معناه إن "داو" كالسيل يجري في كل مكان وقد يجري إلي اليمين أو إلي الشمال [٢٣٦].

[تنمو الكائنات اعتمادا عليه وهو لا يرفضها]:

نماء الكائنات كلها معتمد علي "داو" و كان مسببا لنشأتها ونموها وليس غافلا عن مسئوليته فلا يرفض رعاية الكائنات .

---

[233] يبين النص بعض جوانب "داو" بأنه لم يكن محدودا في جهة معينة بل هو موجود في كل مكان ، وأنه خلق الكائنات وربّاها ولكنه لا يزعم امتلاكها .

لعل لوتس يعتقد بأن "داو" صامت وساكت لا يتكلم أبدا فيري أنه لا يزعم بشيئ مهما كان . فمفهوم الإله عند لوتس يختلف عما عند الأديان السماوية إذ أن الإله عند الأديان يسمع ويتكلم ويخاطب الناس ويخلق فيصرح بربوبيته و ألوهيته بينما "داو" عند لوتس لا يتكلم ولا يخاطب الإنسان فلا يدعي الربوبية ولا الألوهية مع أن العالم تحت رعايته وتصريفه .

ثم كثيرا ما نري أن لوتس كلما يتحدث عن "داو" لا يقصد بذلك حديثا عن ذات "داو" و إنما يريد بذلك ذكر صفات "داو" لكي يتحلي الناس بها . و من ثم نجد لوتس أراد بهذا النص أن يدعو إلي بعض الصفات المحمودة مثل عدم المن وعدم الدعاية بالمآثر إذا عمل أحد شيئا .

[234] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٦.

[235] < دراسة داو-ده-جين >، ص:٢٠٤.

[236] < حكمة الصين > ، ص :٤٩.

[و إنه لما أنجز أمرا لا يمتلكه]:
لما أكمل "داو" شيئا لا يدعي مآثرالإنجاز لنفسه و لا يزعم أنه هو الذي فعل ذلك .

[فيُعتبَر صغيرا]:
لأنه لا يدعي امتلاك الكائنات مع أن كل شيئ في ملكه ولا يكون له شهوة علي إمتلاك الكائنات فكأنه صغير الشأن . قال "خه شان قون" : إن "داو" يخفي فضائله و يخفي إسمه و يبقي بسيطا فكأنه صغير[٢٣٧] . وقال "وان بي" : إن الكائنات تولدت من "داو" ولكنها بعد الولادة نسيت مصدرها و إذا كان العالم خاليا من الشهوات تجري الكائنات علي طبيعتها فكأن "داو" لم يفعل شيئا نحو الكائنات و لذلك يسمي صغيرا[٢٣٨] .

[فيُعتبَر كبير]:
إنه عظيم الشأن لأن الكائنات مخلوقاته وهو لا يدعي امتلاكها.
وقيل : إن "داو" لا يقال له صغير أو كبير ولكنه يقال له صغير من ناحية أنه لا يملك شيئا من الشهوة ويقال له كبير من ناحية أنه مصير الكائنات من غير الزعم بكونه مالكا لها[٢٣٩] .

---

[237] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٧.
[238] < شرح وان بي > ، ص:٣٦٠.
[239] انظر < دراسة داو-ده-جين > . ص:٢٠٣.

إذا تمسك (أحد) بالصورة الكبرى يلجأ إليه العالم وإذا لجأ إليه العالم من غير ضرر يأمن الجميع.

إن الموسيقى والأطعمة الشهية توقف أقدام المشاة.

وإن "داو" إذا تلفّظ من الفم لا يُشعَر باللذة لأنه أهون من أن يبصر وأن يسمع ولكنه لا ينفد عند الاستعمال.[٢٤٠]

الشرح :

[إذا تمسك (أحد) بالصورة الكبرى يلجأ إليه العالم]:

الصورة الكبري عبارة عن صورة "داو" لأن علماء الداوية يرون أن الصورة الصغري هي الصورة المرئية و أما الصورة الكبري هي صورة بلا صورة مرئية و ليس من أحد صاحب هذه الصورة إلا "داو" كما قال النص: هذا ما يقال له الوضع بلا هيئة و الصورة بلا جوهر (ف:١٤) ومعني النص : إذا تمسك أحد بصاحب الصورة الكبري وهو "داو" يكون مثالا للناس فيرجع إليه العالم .

وشرح "خه شان قون" : الصورة الكبري هي "داو" و إن الحكيم إذا تمسك ب"داو" العظيم فتهوي إليه قلوب الناس[٢٤١].

[وإذا لجأ إليه العالم من غير ضرر يأمن الجميع]:

إذا إجتمع الناس حوله بلا ضرر ولا ضرار يأمن الجميع كما شرح " خه شان قون" : عند ما يرجع إليه الشعب دون أذي ولا عداوة يأمن البلد و يظهر السلم [٢٤٢].

[وإن "داو" إذا تلفّظ من الفم لا يُشعَر باللذة]:

---

240 يري لوتس أن "داو" هو مدار أمن العالم وسلامة البشر فدعا إلي طاعته والتمسك به فلو تمسك به الحكام لسار العالم علي طريق الأمن والسلامة . و يكرر النص أن "داو" كائن روحي لا يدرك بالحواس ولا يوصف باللسان حتي أن الكلام عنه لا يجتذب الأسماع ولا يدخل في قلوب الناس كما أن الموسيقي و الأطعمة الشهية تجذب الناس و توقف أقدام المشاة ويؤكد النص أن "داو" ليس من جنس الكائنات المادية .

241 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٣٩.

242 المصدر السابق ، ص:١٣٩.

إن "داو" ليس مما يدرك بالحواس و يوصف بالكلام فإذا حاول أحد أن يصفه بكلام لن يبلغ إلي ذلك وربما قد انحرف عن جلاله وجماله لأن "داو" أعلي من أن يفهم أويوصف . و إن الموسيقي و الطعم مما يدرك الناس لذته وجماله وإذا تحدث أحد عنهما يجذب الناس إليهما ولكن "داو" ليس كذلك حتي إذا تحدث عنه أحد لا يوجد في كلامه لذة ولا طمع. وهذا كناية عن أن "داو" يخالف الكائنات المادية من حيث الطبيعة .

إذا قصد قبض أحد يُطلق أولا.
وإذا قُصد تضعيف أحد يقوّى أولا.
وإذا قُصد تعطيل أحد يُنشّط أولا.
وإذا قُصد غصب أحد يُعطَى أولا.
هذا هو الظهور فى الخفاء.
إن النعومة تغلب الصلابة ولا ينبغى للسمك أن يخرج من الماء و الآلات الحادة للبلد لا ينبغى أن تُظهر للناس.

الشرح:
[إذا قُصد قبض الشيء......يُعطَى أولا]:
يري لو تس أن كل شيئ يتضمن فيه جانبين متناقضين : الجانب الإيجابي والجانب السلبي وأنهما ينتقلان بعضهما إلي بعض في حالة معينة فالأشياء دائما تتداول بين هذين الطرفين بحيث إذا وصل أحد الجانبين إلي قمته ينتقل إلي الجانب الآخر .

بناء علي هذا يري لوتس من الحكمة أنه إذا أراد الإنسان شيئا يقوي نقيضه حتي يبلغ النقيض غايته فينقلب تلقائيا إلي ما يريد .

لعل لوتس أراد بهذا النص أن يبين طريقة تطور الأشياء والأمور و يري من الحكمة أن يستخدم الناس هذه الطبيعة في معالجة الأمور . ولكن من الناس من يفهم هذه الطريقة علي أنها طريقة الخدعة .

الطريقة الرائعة الفعالة لو أستخدمت في الخير يقال عنها حكمة وإذا أستخدمت في الشر يقال عنها خدعة أو مكر ولعل لوتس علّمنا في النص بعض الطرق من هذا القبيل ولذلك يراه بعض الناس حكيما ويراه البعض الآخر ماكرا . وإن لوتس في هذا قد إعتمد علي القانون الطبيعي في الأشياء وهو قانون الضد بأن الأمور إذا وصلت إلي الحد النهائي ستتطور إلي نقيضها كما أن القمر بعد ما إكتمل ينقص يوما بعد يوم وأن الأزهار يوم تفتحت كاملة تذبل يوما بعد يوم . وهذه الطريقة تستغلّ طبيعة الأشياء للحصول علي المقصود سواء كان للخير أو للشر فهي أسهل وأقوي أثرا .

[هذا هو الظهور فى الخفاء]:
الحقيقة المذكورة تبدو خفية حيث لا يعرفها العوام و لكنها واضحة لدي ذوي الأبصار.

شرح "خه شان قون" : هذه الأمور الأربعة حكمتها خفية ولكن أثرها بيّن [243].

[الآلآت الحادة للبلد لا ينبغى أن تُظهر للناس]:

إختلفت الآراء في معني الآلات الحادة فقيل هي العذاب الأليم و قيل هي السلطة و قيل هي طريقة السياسة [244] . ويري "وان بي" أنها العقوبات فشرح هذا النص بقوله : العقوبات الشديدة لا ينبغي تطبيقها علي الشعب [245].

و أري معناه أن أسرار البلد فيما يتعلق بالسياسة و العسكر لا ينبغي أن تفشي وإلا فتعطل كما أن السمك يجب أن يبقي في الماء العميق و إذا خرج منه يموت.

ويري "لين يو تان" أن الآلات يراد بها الأسلحة فترجم النص بأن الأسلحة الحادة يجب أن توضع في مكان لا يراه الناس [246]. ولعل معني النص عنده : أن توضع الأسلحة في المخازن ولا تستخدم حتي يبتعد الناس عن الحرب .

---

243 < تفسير خه شان قون > ص:١٤٢.
244 أنظر < لوتس شرحا و تعليقا >. ص:٢٠٦.
245 < شرح وان بي > ، ص:٣٦١.
246 < حكمة الصين > ، ص :٥٠.

يبقي "داو" علي عدم الفعل ولكن لا شيء ما لم يعمله . ولو تمسك به الحكام لصلحت الكائنات بنفسها و إذا ظهرت الشهوات فى أثناء الإصلاح سأقهرها ببساطة اللا اسم و إذا قهرت ببساطة اللا اسم لا تبقي الشهوات وإذا انعدمت الشهوات إلى حد السكون صلح العالم بنفسه.

الشرح:

[يبقي "داو" علي عدم الفعل و لكن ------]:

قد سبق القول بأن عدم الفعل عبارة عن ترك الأشياء تجري علي طبيعتها دون التدخل بقوة زائدة و إن "داو" يبقي دائما في حالة عدم الفعل ولكنه بذلك يعمل كل شيء ولا نجد شيئا في الكون ما ليس من عمل "داو" .

وشرح "خه شان قون" بأن "داو" يعمل دائما بعدم الفعل [٢٤٧].

[ولو تمسك به الحكام لصلحت الكائنات بنفسها]:

الضمير هنا يرجع إلي "داو" حسب شروح العلماء ومعني النص يكون : لو تمسك الحكام ب"داو" و طبقوا قوانينه في الحكم لسار كل شيئ علي مساره الطبيعي فصلحت شئون الحكومة و إستقامت أمور الشعب لأن قوانين "داو" توافق طبيعة الأشياء و لا تناقض مصالح الشعب . و شرح "تشين قو يين" بقوله : لو تمسك الحكام ب"داو" لتولدت الكائنات بنفسها و لنمت بنفسها [٢٤٨].

[سأقهرها ببساطة اللااسم]:

اللا إسم يراد به "داو" لأنه لا إسم له كما ذكر الفصل الأول وبساطة اللا إسم يراد بها البساطة التي يمتاز بها "داو" و هي البساطة الحقيقية الفطرية و معني النص : يقول لوتس : إذا ظهرت الشهوات سأزيلها بالبساطة الفطرية . ويشير ذلك إلي أنه ليست هناك طريقة لغلبة الشهوات إلا بقهر البساطة الفطرية . و شرح "خه شان قون" بساطة اللا اسم بالفضائل التي هي عبارة عن صفات "داو" كما ذكرنا سابقا.

ذكر لوتس في النص أصل الفتنة والفساد في المجتمع الإنساني كما وضح طريقة إصلاحها. وكان يري أن أصل الفساد جاء من الشهوات وإنها أفسدت نظام الأشياء وإذا أراد

---

247 < تفسير خه شان قون > ص:١٤٤.

248 << لوتس شرحا و تعليقا >> ص:٢١١.

الإنسان أن يصلح هذا الفساد عليه أن يقهر الشهوات بالبساطة الفطرية ولما عاد كل شيء إلي مساره الطبيعي يجب أن يحفظ تلك الحالة السليمة بعدم الفعل .

[وإذا انعدمت الشهوات إلى حد السكون صلح العالم بنفسه]:

السكون عبارة عن عدم الشهوة لأن الشهوة هي حركة النفس و نهضة الطمح فلوتسكن قلوب الناس و يسلم العالم من شهوات الطامحين و الماكرين يصلح العالم كله .

و يشير النص إلي أن الحكيم لوتس كان يشتغل بقضية الإصلاح و يري أن الإصلاح لا يأتي مع الثورة و الإنقلاب و إنما مع عدم الفعل و البساطة الفطرية و يدعو الحكام إلي التمسك بمنهجه حتي ينصلح الشعب بنفسه وفق طبيعته .

والنص أكد أهمية عدم الفعل والبساطة الفطرية في سبيل الإصلاح .

إن صاحب الفضيلة (ده) العليا لا يزعم بالفضيلة لأنه يملك الفضيلة .وإن صاحب الفضيلة السفلى لا يزعم بضياع الفضيلة لأنه لا يملك الفضيلة. وإن صاحب الفضيلة العليا يتمسك بعدم الفعل و لا يريد الفعل بينما صاحب الفضيلة السفلى يتمسك بعدم الفعل بل يريد الفعل.

إن محب الرحمة يعمل بلا قصد بينما محب العدل يعمل بقصد وإن محب الرسميات يعمل دون نتيجة ولذلك يلوّح بيده و يجبر الناس على طاعته بالقهر.

ومن ثم إذا فُقد "داو" تأتى الفضيلة وإذا فُقدت الفضيلة تأتى الرحمة وإذا فُقدت الرحمة يأتى العدل وإذا فُقد العدل تأتى الرسميات ولذلك كانت الرسميات من قلة الصدق و الأمانة ورأس كل الفتن. وإن التنبؤ ظاهرة "داو" ولكنه بداية الجهل.

ومن ثم كان الرجل العظيم يقف مع الكثافة ولا يقف مع الرقة و يقف مع الحقيقة ولا يقف مع ظاهرتها فيترك هذا ويأخذ ذاك.

الشرح:

[إن صاحب الفضيلة العليا لا يزعم بالفضيلة وإن صاحب الفضيلة السفلى لا يزعم بضياع الفضيلة]:

من يملك شيئا لا يزعم بذلك لأنه ثابت عنده فلا حاجة إلي الدعاية . فمن لم يزعم لنفسه الفضيلة ولا يظهر الفضيلة الشكلية كان علي الفضيلة الحقيقية وهي ما سماه لوتس بالفضيلة العليا وأما من يتمسك بشكل الفضيلة ولا يبرحها لحظة فكان في الحقيقة لا يملك الفضيلة الحقيقية كما شرح " تشين قو يين" بأن الفضيلة العليا هي الفضيلة الباطنية بينما الفضيلة السفلي هي الفضيلة الظاهرية "[٢٤٩].

وشرح "خه شان قون" بأن أصحاب الفضيلة في القديم لا يعلّمون الناس الفضيلة وإنما يدعونهم إلي اتباع الطبيعة ورياضة النفس فلا تري منهم الفضيلة فلذلك يقال إنه لا يزعم الفضيلة وأما أصحاب الفضيلة السفلي فكانت فضيلتهم مرئية وأعمالهم مذكورة علي ألسنة الناس "[٢٥٠].

ويتبين من هذا أن الفضيلة العليا عند "خه شان قون" هي الفضيلة الباطنية غير المرئية بينما الفضيلة السفلي هي الفضيلة المرئية .

---

[٢٤٩] انظر < لوتس شرحا و تعليقا .. ، ص:٢١٢-٢١٣.
[٢٥٠] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٤٧.

[إن صاحب الفضيلة العليا يتمسك بعدم الفعل و لا يريد الفعل]:

سواء كان أصحاب الفضيلة العليا أم الفضيلة السفلي كانوا أصحاب الفضيلة لأنهم يملكون نوعا من الفضيلة وكلا الفريقين يتمسك بعدم الفعل والفرق بينهما أن أحدهما لايريد فعل شيء بينما الآخر يريد شيئا . وقد شرح أحد العلماء بأن أحدهما يطمح شيئا والآخر لا يطمح شيئا [٢٥١] . فالفعل هنا يراد به الطموح أو القصد الخفي كما شرح بذلك "لين يو تان" [٢٥٢].

وشرح "خه شان قون" بأن صاحب الفضيلة العليا لا يريد لنفسه السمعة بينما صاحب الفضيلة السفلي يريد لنفسه ذلك [٢٥٣].

شرح "تشين قو يين" بأن صاحب الفضيلة العليا يتبع الطبيعة و لا يميل إلي فعل شيئ خلاف طبيعته وأما صاحب الفضيلة السفلي فيتبع الطبيعة و يميل إلي فعل شيئ خلافا لطبيعته .[٢٥٤]

[إن محب الرحمة يعمل بلا قصد....محب الرسميات]:

إن النص قسم الناس إلي خمس مراتب و أعلاها صاحب الفضيلة العليا ثم صاحب الفضيلة السفلي ثم محب الرحمة ثم محب العدل ثم محب الرسميات؛ و قد ذكرنا الفرق بين صاحب الفضيلة العليا و السفلي وأما الفرق بين بقية الثلاثة فإنهم جميعا يعملون عملا خلاف طبيعة الأشياء ولكن محب الرحمة يعمل بلا قصد و محب العدل يعمل بالقصد وآخرهم محب الرسميات فهو يعمل ولكنه لما رأي عمله لا يستجاب غضب فيخوّف الناس بتلويح يده لكي يخضعوا له . و الرسميات هنا يراد بها الآداب و المراسيم الشكلية التي يلتزم بها الناس في حياتهم اليومية و كانت الكنفوشيوسية تهتم بالرسميات و تعتبر الالتزام بها واجبة علي الناس و تعتبرها علامة الأخلاق و لكن الداوية تري عكس ذلك فتعتبرها من الأعمال الظاهرية دون الحقيقة بل تراها علامة قلة الصدق و عدم الأمانة و من هنا نري الفرق بين الفلسفة الداوية و بين الفلسفة الكنفوشيوسية إذ أن الأولي تميل إلي الباطن بينما الأخيرة تميل إلي الظاهر .

[ومن ثم إذا فقد "داو" تأتي الفضيلة.....]:

يري لوتس أن "داو" يشمل كل الخيرات والحسنات والفضائل بكاملها ولما فقد "داو" في الناس لجاوا إلي جزء من خصائص "داو" فيدعو الناس إلي الفضائل ولما فقدت الفضائل بكاملها فيهم لجاوا إلي جزء منها مثل الرحمة وعندما فقدت الرحمة لجاوا إلي العدالة

---

[٢٥١] انظر < دراسة داو - ده - جين > . ص:٢١٧.

[٢٥٢] انظر < حكمة الصين > ، ص :٥١.

[٢٥٣] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:١٤٨.

[٢٥٤] < لوتس شرحا و تعليقا > ، ص:٢١٦.

ولما فقدت العدالة لجأوا إلي الرسميات وهي أدني ما يدعو الناس إليه ولكن يري لوتس أن الرسميات هي علامة قلة الصدق والأمانة و رأس كل الفتن لأنها من الشكليات وقد يختفي من ورائها ما هو مخالف للظاهر .

[التنبؤ ظاهرة "داو" ولكنه بداية الجهل]:

لقد إختلف العلماء في معني هذه العبارة فقال "خه شان قون" بأن الجهل مع الدعاية بالعلم يقال له التنبؤ فمعني النص أنه من يفعل ذلك فقد أضاع حقيقة "داو" و تمسك بظاهره"[٢٥٥].

وقيل :التنبؤ هو الظن دون العلم و معني النص يكون : من يظن ب"داو" دون العلم لا يدرك حقيقة "داو" بل يدرك ظاهره فقط وهذا الظن هو بداية الجهل .

و يري كثير من العلماء أن التنبؤ هو علم شيء قبل حدوثه حتي يري "لين يبو تان" أن التنبؤ يراد به النبي (The prophet)"[٢٥٦] .

و علي كل حال فمعني النص أن التنبئ هو ظاهر "داو" وليس حقيقته فإنه يضل الناس ويوقعهم في الجهل .

[ومن ثم كان الرجل العظيم يقف مع الكثافة ولا يقف مع الرقة]:

إختلف العلماء في معني هذا النص فيري "خه شان قون" أن الكثافة هنا يراد بها البساطة وأن الرقة يراد بها مخالفة "داو" وإفساد العالم"[٢٥٧] .

وقيل إن الكثافة يراد بها "داو" وأن الرقة يراد بها الرسميات لأن النص يقول بأن الرسميات قلة الصدق والأمانة"[٢٥٨].

وشرح "تشين قو يين" بأن الرجل العظيم يقف مع البساطة ولايقف مع الطيش"[٢٥٩].

ولعل قصد النص هو دعوة إلي الصدق و الأمانة وإلي البعد عن خفة العقل والطيش.

والجدير بالذكر أن كتاب داو -ده – جين الذي نحن بصدده ينقسم إلي قسمين قسم "داو" وقسم "ده" (الفضيلة) فالنصوص من الفصل الأول إلي الفصل السابع والثلاثين تنتمي إلي قسم "داو" وهو قسم يتحدث غالبا عن حقيقة "داو" وخصائصه وأما النصوص من الفصل الثامن والثلاثين إلي نهاية الكتاب فهي تدخل في قسم "ده" وهو قسم يتحدث

[٢٥٥] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص: ١٥٠.

[٢٥٦] انظر < حكمة الصين > ، ص :٥١.

[٢٥٧] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص: ١٥٠.

[٢٥٨] انظر < دراسة داو - ده - جين > ، ص:٢٢٠.

[٢٥٩] < لوتس شرحا و تعليقا > ، ص:٢١٧.

غالبا عن "ده" وهو عبارة عن مظاهر "داو" في الأشياء والأمور وهي بمثابة المبادئ والأصول لأفراد الإنسان و المجتمع الإنساني فهذا الفصل هو أول الفصول من قسم "ده" .

وأري أن هذا الفصل هو الذي أبدي فيه لوتس رأيه عن مدرسة كنفوشيوس بل إنتقد فكرة كنفوشيوس . ومن المعروف أن كنفوشيوس كان يدعو إلي الرحمة والعدل ويهتم بالرسميات حتي جعلها علامة الثقافة يلتزم بها المثقفون . ولكن لوتس يري أن الفضيلة العليا هي الاتباع ب"داو" والاتصاف بجميع خصائصه وأما الفضيلة السفلي فهي الإتباع ب"داو" والاتصاف ببعض خصائصه . وإن الرحمة والعدل مما دعا إليه كنفوشيوس كلاهما جزء يسير من جملة الفضيلة فيري لوتس أن طرق الإصلاح علي مراتب وأعلاها إصلاح باسم "داو" كالخير كله ثم باسم الفضائل بكاملها ثم باسم بعض الفضائل مثل الرحمة ثم العدل وأما الرسميات التي يعتبرها كنفوشيوس كواجبات المثقفين فهي عند لوتس لم تكن شيئا غير شكليات بل هي علامة لقلة الصدق والأمانة ولا ينبغي أن يكون إحدي طرق الإصلاح فكأن طرق الإصلاح عند الكنفوشية فيما يري لوتس لا تؤدي إلي حقيقة الإصلاح ومن ثم قال لوتس إن الرجل العظيم يقف مع الحقيقة ولا يقف مع ظاهرتها .

ومن كلامه " ومن ثم إذا فقد "داو" تأتي الفضيلة" يبدو أن المبدأ الأعلي للحياة هو "داو" علي أنه المنهج الكامل للإنسان وإذا فقد "داو" فيجعل الناس الفضيلة المبدأ الأعلي وهي في الحقيقة جزء من أخلاق "داو" و قد نفهم هذه العبارة أكثر وضوحا من لسان أحد العلماء المسلمين عن الإسلام وفضائله تمثيلا بذلك حيث قال أبو نصر السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) : يحكي عن محمد بن علي الكتاني أنه قال :كان الناس في ابتداء الإسلام يتعاملون بالدين حتي رق الدين ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتي ذهب الوفاء ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتي ذهبت المروءة ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتي ذهب الحياء ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة [٢٦٠].

ومعني ذلك أن الناس في خير القرون يتعاملون بالإسلام كاملا ثم يتعاملون بجزء منه في قرون تليه ، وكذلك رأي لوتس أن الناس يتعاملون في البداية ب"داو" كاملا ثم أفقدوه ثم يتعاملون بجزء منه مثل الرحمة و العدل والرسميات .

---

[260] - اللمع > ، أبو نصر السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) ، دار الكتب الحديثة بمصر ، ١٩٦٠، ص:١٦٧.

إن الذين إهتدوا إلي الواحد في القديم هم:
السماء إهتدت إلي الواحد فصفت ثم الأرض إهتدت إلي الواحد فأمنت ثم الروح إهتدت إلي الواحد ففطنت ثم الوادي إهتدي إلي الواحد فامتلأ ثم الكائنات إهتدت إلي الواحد فنمت ثم الحكام إهتدوا إلي الواحد فصلح العالم ، وذلك أن السماء إذا لم تصف ستتشقق وأن الأرض إذا لم تأمن ستعطّل، وأن الروح إذا لم تفطن ستفتر وأن الوادي إذا لم يمتلئ سيجف و أن الكائنات إذا لم تنبت ستهلك و أن الحكام إذا لم يصلحوا سيُعزلون من السلطة .
و لذلك إنّ العزّة مبنية علي الذلّة و الرفع مبني على الخفض . ومن ثم كان الحكام يزعمون بالغرابة والقلة و عدم الإحسان ، أليس هذا ما يقال إن العزّة مبنية على الذلّة ؟ أليس كذاك ؟ ولذلك أعلى المدح هو عدم المدح . فلا يريدون أن يكونوا كروعة الزمرد بل يكونون كغلظة الحجر.[٢٦١]

الشرح:
[إن الذين إهتدوا إلي الواحد]:
رأي معظم العلماء أن "الواحد" هنا يراد به "داو" لأنه الواحد الأحد وأما "خه شان قون" -فيري أن الواحد يراد به عدم الفعل[٢٦٢] . وعلي كل حال يعني النص أن العالم كان في الأصل علي قوانين "داو" فاستقامت أمور الدنيا و كل الجزء منها كان يجري علي مساره الطبيعي و يؤدي وظائفه فالسماء تصفو عند الاهتداء إلي "داو" و الأرض تأمن عند الإهتداء به و الأرواح تفطن عند الإهتداء به و هكذا الوادي و الكائنات . و إن الأشراف و الملوك لما إهتدوا إلي "داو" و تمسكوا بنظامه صلح العالم .
و يؤكد النص أن "داو" أساس صلاح العالم و بقاء الموجودات و لولاه لما استقامت أمور الدنيا ولهلك العالم كله كما يدعو الناس والحكام منهم بالأخص إلي التمسك ب"داو" وبقوانينه .

---

[261] إن النص وصف "داو" بالواحد فأثبت وحدانيته ثم بيّن حقيقة أن "داو" هو أساس وجود جميع الكائنات و قوة خفية وراء جريان الكون و صلاح العالم و به كانت الأشياء تعمل علي وظائفها الطبيعية . و يشير النص إلي أن الكائنات لا تفارق "داو" ومن فارقه فقد هلك والنص في الحقيقة يطالب من الحكام أن يتمسكوا ب"داو" بأن يحافظوا علي الذلّة والضعف والتواضع ويعتبر ذلك من صفات "داو" وقد وضع لوتس أحد مبادئ الحياة : العزّة مبنية علي الذلّة .

[262] انظر : تفسير خه شان قون ،ص:١٥٤.

[ومن ثم كان الحكام يزعمون الغرابة و القلة وعدم الإحسان]:

إن الغرابة و القلة و عدم الإحسان من الكلمات التي تدل علي الضعف والذلّة و قلة القوة وهي كلمات يكره الناس استعمالها علي أنفسهم و لكن الملوك يستخدمونها علي أنفسهم لأجل إظهار تواضعهم فيقولون أنا غريب وأنا قليل البضاعة وأنا عديم الإحسان ويقولونها من باب التواضع لا من حيث الحقيقة .

[ولذلك أعلى المدح هو عدم المدح]:

قيل إن الواحد أصل الموجودات و هو أعظم و أعز و لا صورة له ولا صوت و هو لا يدعي الكمال فكيف يدعيه غيره و لذلك من يدعي الجمال لا جمال له[٢٦٣] .

قال "خه شان قون" : إن النص يلمّح إلي أن الحكام الشرفاء لا يهتمون بالألقاب الشريفة ولذلك يعزّزهم الناس [٢٦٤].

وشرح أحد العلماء بأنَ كثرة المدح تؤدي إلي عدم المدح [٢٦٥].

ولعل قصد لوتس هو أن أعلي درجات المدح هو عدم المدح لأن كلا من الاختفاء وعدم الفعل وعدم التقدم أمام الناس كان أعلي مبادئ الحياة عند لوتس ومن يلتزم بهذا فهو طبعا لا يجلب مدحا من غيره ولكن يري لوتس أن ذلك هو أعلي المدح لمن كان يشتغل ب"داو" إذا وصف بذلك .

[فلا يريدون أن يكونوا كروعة الزمرد بل يكونون كغلظة الحجر]

إن الأحجار الكريمة مثل الزمرد جميلة وغالية فكثر المدح عليها وأماالأحجار العادية فغليظة و بسيطة فلايمدحها أحد ولكنها مفيدة للناس في حياتهم وأما الزمرد فليس له قيمة إلا للزينة . فالفضلاء لا يريدون تميزأنفسهم عن الآخرين كتميز الزمرد عن بقية الأحجار بل يريدون كعامة الناس بلا تفضيل ولا تفريق حتي يختفوا في العوام ويلتزموا بعدم الفعل .

---

[٢٦٣] انظر < دراسة دلو-ده-جين ، ص:٢٢٦.

[٢٦٤] . تفسير خه شان قون > ،ص:١٥٧.

[٢٦٥] . دراسة دلو-ده-جين ، ص:٢٢٧.

إن العودة هى حركة "داو" كما أن الضعف هو صفة "داو"
إن الكائنات فى العالم تولّدت من "الوجود" وأن "الوجود" تولّد من "العدم".[٢٦٦]

الشرح :

[إن العودة هى حركة "داو"]:

يعني أن العودة هي منهج "داو" في العمل و العودة (Fan) في اللغة الصينية تحمل معنيين : الانعكاس و هو أن الشيئ يتحول من نقيض إلي نقيض أو معناه الدوران بمعني أن الشيئ يتطور من البداية إلي النهاية ثم يعود إلي البداية و تتكرر هذه العملية كما أن النباتات تنشؤ من البذرة و تخرج من الأرض نباتا ثم تثمر وتصير بذرة أخيرا وتتكرر نفس العملية في العام المقبل وهكذا تدور كل السنة .

ويري لوتس أنه من القوانين الطبيعية أن تجري الكائنات والأمور علي منهج العودة بكلا المعنيين . ويعني أن الأمور قد تنتقل من حالة إلي نقيضها أحيانا أوتتطور ثم تعود بالمراحل إلي نقطة البداية كما أن العزّة قائمة علي الذلّة أو تنتقل من الذلة إلي العزة أو علي العكس و ذلك أن "داو" يعمل وراء هذا الانتقال وأن العودة هي منهج العمل ل "داو" .

[أن الضعف هي صفة "داو"]:

إن "داو" يتصف بالضعف بمعني أنه صاحب عدم الفعل ولا يتدخل في شيء بالقوة و لا يجبر شيئا علي تغيير مساره بل يتركه علي طبيعته لكي يتطور حتي لا يشعر بتدخله فيه

---

[266] أشار لوتس إلي قانون من قوانين الطبيعة بأن الأمور تجري علي مبدأ العودة وهو إما أن يتحول الأمر من ضد إلي ضد أو يتطور الأمر من الضعف إلي القوة ومن القلة إلي الكثرة ومن الصغر إلي الكبر ولما وصل إلي القمة يعود تدريجيا إلي البداية ثم يتطور إلي القمة وهكذا يدور بين الطرفين بالمراحل .

يؤكد النص فكرة عدم الفعل واللين بأن الكائنات تجري علي طبيعتها تحت رعاية "داو" من غير تدخله فيها بالقوة والقهر ومن المعروف أن النص لم يكن ليبيّن أوصاف "داو" فقط بل ليذكّر الناس بالتخلق ب"داو" والالتزام بصفة الضعف .

ويشير النص كذلك إلي أصل الكون وإن اختلف العلماء في تحديد مراده والمؤكد أن الكائنات مخلوقة ولم تكن خالقة نفسها كما دل علي أن العالم حادث ويمكن لنا أن نقول بأن العالم جاء من العدم وسيعود إلي العدم حسب مبدأ العودة .

فكأن"داو" ضعيف لا يؤثر في شيئ كما قال " تشين قو يين" : عندما يخلق "داو" الكائنات و يربّيها لا تشعر الكائنات بأن القوي الخارجية قد نزلت عليها فالضعف عبارة عن أن "داو" لا يقهر شيئا أثناء تدبيره "[٢٦٧].

[إن الكائنات في العالم تولّدت من "الوجود" وأن "الوجود" تولّد من "العدم]:

يري العلماء أن الوجود و العدم هنا يراد بهما "داو" نفسه كما سبق الذكر في الفصل الأول و معني النص يكون أن الكائنات كلها تولدت من "داو" [٢٦٨].

و يري "خه شان قون" أن الوجود يراد به السماء و الأرض لأن لهما جهة و صورة ولذلك يقال لهما الوجود وأن العدم يراد به "داو" الذي ليس له صورة فهو العدم ولذلك قال بأن الكائنات تولدت من السماء و الأرض و أن السماء و الأرض و الأرواح كلها تولدت من "داو" و لذلك يقال إن الكائنات تولدت من الوجود و أن الوجود تولد من العدم [٢٦٩].

إن النص أشار إلي مراتب نشأة الكائنات وأصولها وكان الوجود هو الأصل القريب للكائنات ثم العدم وهو الأصل البعيد وقد اختلف العلماء في المراد من الوجود والعدم ولكن مهما كان معناهما فإن النص يصرح بمراتب نشأة العالم وقد مرت النشأة علي مراحل .

وأري أن " الوجود" قد يراد به "داو" لأنه مصدر الكائنات وأصلها كما صرّح بذلك نص الكتاب وأما العدم فيمكن أن يراد به عدم بحت أي لا شيء ومعني النص حينئذ يكون : إن " داو" خلق الكائنات وهو خلقها من العدم أي لم يخلقها من مادة سابقة .

---

[267] . لوتس شرحا و تعليقا ›. ص:٢٢٦.
[268] انظر ‹ لوتس شرحا و تعليقا ›، ص:٢٢٤.
[269] انظر ‹ تفسير خه شان قون › ، ص:١٦٢.

ولما سمع الرجل العالى عن "داو" يطّبقه بالجدّ ولما سمع الرجل الأوسط عن"داو" يضطرب بين وجوده وعدمه [بين التصديق و التكذيب] و لما سمع الرجل السافل عن "داو" يضحك بصوت عال وإنه لن يكون "داو" إذا لم يُضحَك عليه . ولذلك يقال فى المثل : طريق النور كالظلام و طريق التقدم كالتخلف وطريق الملاسة كالخشونة كما أن الفضيلة العليا كالوادي والفضيلة الواسعة كالناقصة و الفضيلة القوية كالفاترة وإن الصفاء الحقيقى كاللخطة والبياض الأكبر كالدنس والمربّع الأكبر لا زوايا له والشيئ العظيم يتأخر تمامه و الهتف الأكبر لا صوت له و الهيئة الكبري لا صورة لها .

إن "داو" خفى بلا اسم ، وإن "داو" هو الذى يعطى ويكمّل"[٢٧٠].

الشرح:

[لما سمع الرجل العالي "داو" ......]:

"داو" في هذا المكان قد يراد به المنهج الرباني أو الدين حتي يطبقه الناس وقد قسم لوتس الإنسان إلي ثلاثة أصناف حسب مراتبهم في المعرفة فالرجل العالي هو العارف أو طالب الحق أومن يشتغل ب"داو" و لما سمع "داو" سعي إلي تطبيقه لأنه يؤمن به ثم الرجل الأوسط و هو الذي يتحير في "داو" بحيث يضطرب بين التصديق و التكذيب و في قلبه نبرة من الإيمان به مع وجود الشكوك فيه . و أما الرجل السافل فهو الذي لا يصدق "داو" و لا يؤمن به بل يعتبر ذلك باطلا فيضحك عليه .

وشرح "خه شان قون" :إن الرجل السافل كثير الشهوة والطمع ولما رأي "داو" لطيفا ظنّه حقيرا ولما رآه بسيطا ظنّه ذليلا ولذلك يضحك عليه [٢٧١].

---

[270] أشار النص إلي مواقف الناس من "داو" فمنهم من عرفه فيطبقه بالجد و منهم من يشك فيه فيتردد و منهم من لا يعرفه فيكذبه و يضحك عليه . و يبدو من النص أن "داو" يراد به المنهج الرباني للحياة أو الدين .

ويؤكد لوتس فكرة أن حقيقة الشيء مغايرة لظواهره وأن الشيء دائما يظهر بخلاف حقيقته وخصوصا إذا وصل الشيء إلي غايته في وجه من الوجوه يظهرعليه نقيض ذلك كما أن الأرض لضخامة حجمها لا يدرك الإنسان صورتها الدائرية الحقيقية فكأنها ليست لها صورة معينة ومن ثم لا ينبغي للإنسان أن يعتبر ظواهر الشيء حقيقته .

وأخيرا ذكر لوتس "داو" بمفهوم آخر وهو إله العالم وربما أراد لوتس بنصوص سابقة أن يثبت حقيقة أن "داو" وجود حقيقي و لغاية حقيقيته يظهر غامضا وخفيا ولا اسما مناسبا له حتي ينكره بعض الناس لأن حقيقته لم تظهر كما هي ولكن وجوده لا يحمل أي شك .

[271] تفسير خه شان قون : ، ص: ١٦٣.

قيل "إن الذي يطبق "داو" بالجد هو صاحب العزيمة وقد عرف "داو" حق المعرفة و الذي يضحك بصوت عال هو عكس ذلك و الذي يضطرب بين وجوده و عدمه هو من قد عرف "داو" و لكنه لم يره عين اليقين " [٢٧٢]

و قيل إن الذي يضحك علي "داو" هو الرجل السافل و ذلك أنه يعتبر "داو" باطلا و أنه يضحك علي قول أن اللين تغلب الصلابة و الرخاء يغلب علي القوة وأن العزة مبنية علي الذلّة و الرفعة مبنية علي الخفض وعندما سمع ذلك لايصدقه فيضحك عليه[٢٧٣]

[إنه لن يكون "داو" إذا لم يضحك عليه]:

شرح "خه شان قون" : إذا لم يضحك عليه الرجل السافل لا يكون "داو"[٢٧٤] .

وذلك أن "داو" كمنهج كامل للإنسان وطريقة حكيمة للحياة أعلي من أن يدرك عامة الناس حكمته فيعتبرونه باطلا ويضحكون عليه أو كما شرح "تشين قو يين" بأن "داو" وجود غامض لا يدركه الناس فخصائصه تبدو غريبة لعقولهم ولذلك لا يصدقه العوام فيضحكون عليه[٢٧٥] .

[طريق النور كالظلام و طريق التقدم كالتخلف وطريق الملاسة كالخشونة] :

حقيقة الشيئ تختلف عن ظواهره دائما و هذا من قانون الطبيعة الذي وضعه "داو" .

كلمة "الطريق" هنا في أصل النص يعبرعنها بكلمة "داو " وترجمتها إلي معني الطريق كما فعله بعض العلماء [٢٧٦] . ولكن ترجمها بعض آخر حسب فهمهم بصور مختلفة علي النحو التالي : "داو" المنير كالمظلم و "داو" المتقدم كالمتخلف[٢٧٧]

أو العلم ب"داو" كعدم التمييز به [٢٧٨].

وترجم "خه شان قون" : إن الذين يعرفون "داو" كأنهم يجهلون ولا يبصرون شيئا وإن الذين يتقدمون إلي "داو" كأنهم يسعون إلي التخلف [٢٧٩]

و شرح أحد العلماء بأن الذي يعرف "داو" إنما عرفه بقلبه و لا يعرف ذلك الآخرون فكأنه لا يزال يجهله و إن الذي يتقدم إلي "داو" إنما يتقدم إليه بنفسه لا بالقوة الخارجية فلا يعرف ذلك الآخرون و كأنه لا يزال لم يتقدم إليه[٢٨٠] .

---

272 انظر < دراسة داو-ده-جين ، .ص ٢٣١-٢٣٢.
273 المصدر السابق: ص: ٢٣٢.
274 < تفسير خه شان قون > ، ص: ١٦٣.
275 < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٢٣١.
276 < الأيام العشر في الحديث عن لوتس >،ص: ٣٥٧.
277 < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٢٣٠.
278 < دراسة داو-ده-جين > .ص: ٢٣٦.
279 < تفسير خه شان قون > ، ص: ١٦٣-١٦٤.
280 < الشرح المبين ل لوتس ، ص: ١٤٧.

وعلي كل حال فإن النص يشير إلي أن ظاهرة الأمر تخالف حقيقتها دائما .

[الفضيلة العليا كالوادي] :

صاحب الفضيلة العليا متواضع و متعمق كالوادي المنخفض في عمق الأرض كما قال "خه شان قون" : إن صاحب الفضيلة العليا كالوادي المتعمق ولا يستحيي من القاذورات [٢٨١].

[والفضيلة الواسعة كالناقصة]

صاحب الفضيلة الواسعة كمن تنقص فيه الفضائل .

[المربع الأكبر لا زوايا له]:

إن الشكل المربع يتكون من أربعة خطوط متسارية متقاطعة و تشكل منها أربع زوايا و لكن المربع الذي لا يدرك الإنسان نهايته من كبره لا يشعر بأن فيه زوايا كما أن كرة الأرض مدورة ولكن لضخم حجمها لا يشعر الإنسان بدائرية ظهرها .

و النص كناية عن أن الحقيقة الكبري لا يفهمها الإنسان لأنها تظهر عادة بخلاف الحقيقة .

و شرح "خه شان قون" بأن الرجل المستقيم لا يكون في قلبه عوج [٢٨٢].

[الشيئ العظيم يتأخر تمامه]:

هذه العبارة صارت قولا مأثورا كناية عن أن الشيئ كلما يتأخر تكوينه يكون أتم و أكمل كما يقال لمن برع في فن من الفنون في سنه المتأخر : إن الشيئ الأعظم يتكون متأخرا.

[الهتف الأعلى لا صوت له]:

هذا كناية عن أن صوت الحق قد لا يسمع و لكن يستجاب في كل مكان و شرح " وان بي" بأن ما لا صوت له يهتف بأعلي الصوت[٢٨٣] .

[إن "داو" هو الذى يعطى ويكمل]

يعطي "داو" للكائنات خصائصها ويكمل تكوينها .

شرح "تشين قو يين" : إن "داو" هو الوحيد الذي يقوي الكائنات [٢٨٤].

وشرح "خه شان قون" بأن "داو" يعطي الناس روحا ونفسا ويكمل ذلك [٢٨٥].

---

281 < تفسير خه شان قون > ،ص:١٦٤.

282 المصدر السابق : ١٦٥.

283 شرح ولن بي > ، ص: ٣٦٦.

284 < لوتس شرحا وتعليقا > ،ص:٢٣٠.

285 < تفسير خه شان قون > ،ص:١٦٥.

الفصل الثاني و الأربعون إيجاد داو

الاشياء قد تنفع إذا نقصت او تنقص إذا نفعت و ما علمني به الناس اعلمه للناس و إن الجبابرة لا يجدون حسن الموت وسأجعلهم أصلا للعبرة.[٢٨٦]

الشرح :

[إن "داو" ولد واحدا]:

لقد فسر معظم العلماء كلمة الواحد ب"داو" و جعلوا العبارة تعني أن "داو" كان واحدا و لم يكن معه ثان و لم يقصدوا أن "داو" ولد نفسه .

شرح" تشين قون يين": إن "داو" مطلق ولا شريك له و إذا عبر عنه بالعدد فهو الواحد[٢٨٧].

وقيل : إن "داو" في العالم لا ند له. و بما أنه فريد فهو واحد[٢٨٨] ولذلك يقال أن "داو" ولد واحدا. وقال "خه شان قون" بأن ما ولده "داو" يقال له واحد ولم يعين حقيقة الواحد.[٢٨٩]

وقيل معني النص : إن "داو" بدأ عمله من الواحد [٢٩٠] ولم يعين كذلك حقيقة الواحد .

وقيل بأن الواحد هو " تي جي " (Tai Ji) وهو الأصل الأصيل للكائنات عند الكنفوشية [٢٩١] إذ تري أن الموجودات مرت بمراحل متعددة حتي صارت أشياء ففي المرحلة الأولي كان " تي جي " ثم تحول "تي جي " إلي الزوجين الذكر والأنثي ثم ولد

---

[286] هذا النص يمثل نظرية الخلق عند لوتس ويثبت وحدانية "داو" بأنه هو واحد بلا ثان وكان أصل الكائنات و تولد منه العالم كما صرح بأن "داو" هو خالق الكون ومبدع الكائنات . وقد عبّر لوتس عن الخلق بالولادة ولعل الولادة أسهل علي عقول الناس لفهم حدوث شيء من العدم .

و يشير النص إلي أن الكائنات خلقت علي الزوجين الاثنين وكان من القانون الطبيعي أن نشأت الموجودات بانفعال قوي الزوجين وأن العالم مرّ تدريجيا بمراحل قبل ما صار علي صورته الحالية وإن اختلف العلماء في تعيين مراحله كما يفيد كذلك أن العالم لم يكن أزليا قديما بل كان عدما ثم وجد وكان بقاء العالم معتمدا علي وحدة النظام الكوني وتوازن أجزاء الكون .

ووضع النص بعض مبادئ الأخلاق بأن يدعو إلي التواضع والإحسان و يحذر من عاقبة الجبابرة الذين يتكبرون ولا يؤمنون ب"داو" ولا يحسنون إلي الناس .

[287] ، لوتس شرحا وتعليقا >، ص: ٢٣٢.

[288] انظر المصدر السابق : ص: ٢٣٢.

[289] انظر < تفسير خه شان قون ، ص: ١٦٨.

[290] انظر < دراسة داو-ده-جين ، ص: ٢٣٨.

[291] انظر < دراسة داو-ده-جين ، ، ص: ٢٣٨.

الزوجان أربعة عناصر وتكون العالم من العناصر ويبدو أن " تي جي" لم يكن شيئا ماديا بل كان روحيا. فيري بعض علماء الكنفوشية أن الواحد في هذا النص يراد به "تي جي". وقيل بأن الواحد هو هواء بدائي [٢٩٢].

و يمكن أن نفهم علاقة الواحد مع "داو" علي أن الواحد هو نفس "داو" وكان قبل خلق الكائنات وجود مطلق وحيد ولا يقال له واحد من حيث العدد ثم لما أراد خلق الكائنات جعل نفسه أصل الكائنات كأنه واحد بينما سائر الكائنات ترتبت عليه وبدأت من القلة إلي الكثرة كالاثنين و الثلاثة .

و علي كل حال فحقيقة الواحد لا تزال مجهولة لأن لوتس نفسه لم يبيّن ذلك .

[و الواحد ولد اثنين]:

الإثنان هو ما صدر من الواحد و قد إختلف العلماء كذلك في شرح معني الإثنين فقيل هما الهواء الذكوري و الهواء الأنوثي و قيل هما الحركة و السكون و معظم العلماء كانوا علي أحد الرأيين و إن هذين الرأيين يمثلان أهم الاتجاهات الفلسفية نحو نشأة العالم فيقول البعض إن العالم بدأ بالهواء الذكوري و الهواء الأنوثي بأن يتزاوج العنصران فتولدت من هذا التزاوج الكائنات و هذا الرأي يمثل الإتجاه المادي لأصل العالم و يري البعض الآخر أن العالم كان عدما و لم يكن شيئا و في غاية السكون و لما وصل السكون إلي منتهاه نشأت الحركة فتعاقب السكون بالحركة و تتعاقب الحركة بالسكون حتي نشأ من الحركة عنصر ذكوري و من السكون عنصر أنوثي فتكون منهما العالم . و هذا الرأي يمثل الإتجاه الروحي لأصل العالم .

[الاثنان ولدا ثلاثة]:

كما إختلف العلماء في العددين السابقين إختلفوا في الثلاثة فيري أصحاب الماديين أن الثلاثة هو هواء مختلط من الهواء الذكوري و الهواء الأنوثي . و يري أصحاب الإتجاه الروحي أنه حالة مخصوصة غير مميزة بالذكور أو الإناثة .

و يري بعض العلماء أن هذه العبارة تشير إلي عملية نشأة العالم من القلة إلي الكثرة وأن العدد لا يعني شيئا إلا تعاقب الأشياء واحدا بعد الآخر.

ولكن أصحاب الديانة الداوية يرون أنها دليل قاطع علي تثليث الآلهة فيعتقدون بأن "داو" تحول إلي الثالوث وهو ثلاثة الآلهة وهم "يوان شي تيان تسون " (Yuan Shi Tian Zong) و الثاني " لين باو تيان تسون " (Ling Bao Tian Zong) و الثالث " داو ده تيان

---

[292] < دراسة داو-ده-جين > . ص:٢٤١.

تسون " (Dao De Tian Zong) وهذه الأعداد لا يراد بها إلا هذه الآلهة و كان الثلاثة في الواحد و الواحد في الثلاثة .

ويستحسن بنا لفهم النصوص السابقة أن نأتي ببعض الترجمات من العلماء :

ترجمة " تشين قو يين" : إن "داو" واحد بلا ثان و هذا "داو" الوحيد يحمل هواء ذكوريا وهواء أنوثيا ثم يختلط الهواء الذكوري بالهواء الأنوثي فصارت حالة متوازنة ونشأت الكائنات في هذه الحالة .

وترجمة " قاو دين يي"(Gao Ding YI) : إن "داو" ولد هواء بدائيا ثم انقسم الهواء البدائي إلي هواء ذكوري وهواء أنوثي ويمازج الزوجان ويتوازنان فتولد منهما الثلاثة ومن التوازن تولدت الكائنات "[٢٩٣].

وترجمة "رون جو يو" (Ren Ji Yu): إن " داو" أنجب شيئا متوحدا وانقسم الشيء المتوحد إلي نقيضين والنقيضان أنجبا ثالثا جديدا والثالث الجديد أنجب أنواع الكائنات "[٢٩٤].

هكذا اختلفت الأراء والترجمات بين العلماء ولعل لوتس هو أعلم بمراده .

[وإن كل الكائنات طُبعت على حمل الذكور والأنوثة]:

هذا يشير إلي إزدواجية الموجودات بأن "داو" جعل من كل شيء الزوجين الاثنين .

[وتكون منسجمة بتصادم الهواء]:

هذا يشير إلي توازن الأشياء في العالم بقدر معتدل بحيث لا يغلب نوع واحد علي حساب أنواع أخري كما يشير إلي وحدة النظام الكوني ويري لوتس أن لكل الذكور قوة ذكورية كما لكل الإناث قوة أنوثية وكان الانسجام ناشئا من توازن القوتين الاثنتين في العالم ولعل الهواء هنا يراد به القوة .

[وما يكرهه الناس إنما هو الغرابة و القلة وعدم الإحسان] :

إن الناس لا يحبون أن يقولوا إني غريب غير معروف لدي الناس أو قليل البضاعة أو ظالم لأن ذلك يقلل شأنهم وينقص قدرهم ، فلا يقول أحد ذلك عن نفسه ولكن الملوك يقولون ذلك عالمين بأن شأنهم لا يقلل بتلك الأقوال ويقولون ذلك من باب التواضع .

---

[٢٩٣] المصدر السابق ص: ٢٤١.

[٢٩٤] . الترجمة الجديدة للوتس ص: ١٠٢.

شأنهم ولكن كلما يفعلون ذلك يزداد فضلهم .

وشرح "خه شان قون ": إذا تجلب شيئا إليك لا تحصل عليه وإذا تدفعه يعود إليك . فمن أراد الرفعة يهلك ومن طمع في الغني يفتن [٢٩٥].

وشرح " تشين قو يين": إن الأشياء عندما ينقّص منها شيء تزداد وإذا يزاد فيها شيء تنقص

[ما علّمني به الناس أعلّمه للناس]:

أعلم الناس بما تعلمته من الاخرين. وقيل معناه أن لوتس يعلّم الناس بما تتناقل به ألسنة الناس من القدماء ولا يبدع شيئا من نفسه [٢٩٦] .

وشرح " خه شان قون" بوجه آخر : إنما كان الناس يعلّمون كيف البعد عن اللين والأخذ بالقسوة والبعد عن الضعف والأخذ بالقوة ولكني (لوتس) أعلم الناس طريق البعد عن القوة والأخذ بالضعف والبعد عن القسوة والأخذ باللين [٢٩٧].

[إن الجبابرة لا يجدون حسن الموت]:

يري "خه شان قون" أن الجبابرة هم الذين لا يؤمنون بالغيب و يخالفون الفضيلة ولايتبعون تعاليم الكتاب بل يتبعون الهواء . وهؤلاء لايجدون حسن الموت ، بمعني أنهم سوف يهلكون بالأمر الإلهي أو يقتلون بسيوف الجيش أويعدمون تحت قانون الملك بحيث لا يموتون ميتة طبيعية [٢٩٨].

---

٢٩٥ - تفسير خه شان قون : ص:١٦٩.

٢٩٦ - دراسة دلو-ده-جين : ص ١٤٠.

٢٩٧ - تفسير خه شان قون : ص:١٦٩-١٧٠.

٢٩٨ انظر المصدر السابق ، ص: ١٧٠.

إن أكثر الشيء نعومة فى العالم يغلب أكثره صلابة.
إن العدم يدخل فيما ليس فيه الخلاء فعرفتُ به فوائد عدم الفعل.
و قلّ ما يعرف الناس التربية غير الكلامية و حكمة عدم الفعل.[٢٩٩]

الشرح :

[إن أكثر الشيء نعومة فى العالم يغلب على أكثره صلابة] :

أنعم الشيء في العالم هو الماء بينما أصلبه هو الصخرة ومن المعروف أن الماء يغلب الصخرة بحيث أن قطرات الماء تثقب الصخور كما شرح بذلك "خه شان قون" قائلا : أكثر الشيئ نعومة هو الماء و أكثره صلابة هو الذهب و الحجر و إن الماء يتسرب في كل الشيئ [٣٠٠] .

و يقصد بذلك أن الضعف يغلب القوة و اللين تغلب القسوة .

[إن العدم يدخل فيما ليس فيه الخلاء]:

القوة الخفية أو القوة الغيبية تعمل في كل الشيئ وقد يراد أن قوي "داو" تعمل في كل شيء.
و يري "خه شان قون" أن العدم يراد به "داو" وإن "داو" لا صورة له فيدخل في كل ما ليس فيه الخلو [٣٠١].

وقيل معناه أن الشيء الذي لا صورة له قادر علي أن يدخل في كل ما ليس فيه الخلاء [٣٠٢].

و يستدل لوتس بهذا علي أن العدم ليس معدوما بل هي حالة مؤثرة حتي أكثر نفعا من حالة الوجود لأنها فعالة في جميع الحالات.

[299] إن النص يستدل علي فضل صفات اللين واللطف والرخاء ويعتبرها وسائل حكيمة لمعالجة الأمور إذ هي تغلب القسوة والشدة و قد مثل لذلك بمثل الماء مع الصخور.

يعيد لوتس في هذا النص فلسفه العدم واعتبره نوعا من الوجود بل قوة مؤثرة في الاشياء ومن ثم كان عدم الفعل أحسن الطرق قياما بالأعمال و أسهلها حصولا علي الهدف .

ويؤكد لوتس أهمية القدوة العملية ويري أن مجرد الكلام لا ينفع في التربية وإنما العمل الحقيقي هو الذي يربي الناس ويؤثر في نفوسهم .

[300] المصدر السابق ، ص: ١٧٣.

[301] المصدر السابق ، ص: ١٧٣.

[302] دراسة داو-ده-جين ، ص:٢٤٥.

[قلّ ما يعرف الناس التربية غير الكلامية و حكمة عدم الفعل] :

التربية غير الكلامية هي نو ع من عدم الفعل و يراد بها إقامة القدوة الحسنة ليقتدي بها الناس دون إجبار هم إلي فعل شيئ وإن هذه الطريقة الحكيمة للتربية فعالة وفيها حكمة ولكن الناس لا يعلمونها ولا يعملون بها .

أيهما أعزّ ،البدن أم الشهرة ؟ وأيّهما أثمن ، البدن أم البضاعة ؟ وأيهما أكثر ضررا، الحصول أم الفقدان؟ لأجل الحبّ الجمّ لا بد من كثرة الدفع كما أنه لأجل الاكتناز الغنى لا بدّ من كثرة الفقدان . ولذلك لا تصيب الذلّة من يقتنع ولا يصيب الخطر من يعرف الوقوف [عند الحد] فيكون له البقاء.

الشرح:

[وأيّهما أعزّ ......أيهما أثمن ، البدن أم البضاعة ؟]:

يشير النص إلي أن لوتس يهتم بسلامة البدن ويعتبره أصلا للإنسان وأما الشهرة والبضاعة فهما من الأشياء الزائدة علي نفس الإنسان فلا يبالي لوتس بفقدانهما مادام البدن وهو أصل الإنسان آمنا وباقيا .

إن النص عبر عن فكرة الاهتمام بالبدن و الحياة و إهانة السمعة و المنفعة حيث يري أن أعز شيئ لدي الإنسان هو البدن والحياة لأنه أصل الإنسان فينبغي أن يحفظ أمنه و حرمته و أما

بقية الأشياء فهي من الأمور الثانوية ولا ينبغي أن تطلب علي حساب الحياة . و يعترف النص بطبيعة الناس من حب المال و الجاه و النفع و لكن يحذرهم من تجاوز الحد في طلبها ويري أن القناعة تحفظ الإنسان من الخطرات التي يقع فيها أثناء السعي وراء المال والجاه والنفع .

[وأيهما أكثر ضررا ، الحصول أم الفقدان؟]

يري العلماء أن الحصول يراد به حصول علي الشهرة والغني وأن الفقدان يراد به فقدان الحياة والبدن . ومن المعروف أن الناس يفضلون الحصول علي الفقدان ولكن لوتس يري أن الناس من أجل الحصول يدفعون أحيانا ثمن البدن فالحصول ليس أحسن من الفقدان .

[و لأجل الحبّ الجمّ لا بد من كثرة الدفع] :

إن المال و الجاه و المنصب الرفيع و النساء كله مما يشتهيه الإنسان و يحبه حبا جما ولكن من أجل حصول هذه الأشياء لا بد له أن يدفع ثمنا و كلما كان حصوله أصعب كان ثمنه أغلي حتي يؤدي إلي دفع ثمن الحياة أحيانا كما يقول المثل الصيني : إن الإنسان يهلك من أجل المال كما أن الطير تموت من أجل لقمة العيش .

شرح "خه شان قون" : حب النساء يتعب الروح وحب المال يوقع الإنسان في البلاء[٣٠٣] .

وقيل من يحب مدحا علي نفسه يتعب مزاجه ويرعب قلبه ويشغل روحه وينقص ذكاءه ومن يكنز كثيرا يخاف اللصوص ولم يخف علي ضياع المال فحسب بل يخاف علي فقدان النفس [٣٠٤].

[فيمكن له البقاء]:

من يقتنع لا تصيبه الذلة و من يعرف حدود الأشياء ثم يقف عند الحدود لا يصيبه الخطر ومن يفعل ذلك تبقي له العزة و الأمن دون إصابة الذلة و الخطر .

و شرح "خه شان قون" : من يعرف الوقوف عند الحد تعود عليه النعم فإذا قام بالرياضة لا تتعب روحه وإذا حكم البلد لايزعجه الشعب فيبقي طويلا[٣٠٥] .

---

303 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٧٥.

304 انظر < دراسة دلو-ده-جين > ، ص:٣٤٧.

305 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٧٦.

الفصل الخامس والأربعون الكرم الواسع

الكمال الأكبر كالنقص و لا ينفد نفعه والملأ الأكبر كالفراغ ولا ينتهى نفعه والاستقامة الكبري كالعوج والذكاء الأكبر كالغباوة والفصاحة الكبري كالبلادة.
إن السكينة تغلب الضجر كما أن البرودة تغلب الحرارة .
وبالصفاء والسكون يعتدل العالم.

الشرح :

[الكمال الأكبر كالنقص و لا ينفد نفعه]:
والنص يكرر فكرة أن الحقيقة تختلف عن ظواهرها دائما فالأشياء ولو وصلت إلي قمتها لا تزال تبدو عكس ذلك فالكمال إذا وصل إلي حد أقصي فكأنَ فيه نقصا. ولكن نفع الكمال واضح في الخفاء و شرح "خه شان قون" بأن صاحب الفضيلة الكاملة يخفي اسمه ويستر مآثره فكأنه لا يملك شيئا فلوكان علي تلك الحالة فلا يأتيه زمن الضرر [٣٠٦].
وكذلك الملأ الأكبر و الاستقامة الكبري والذكاء الأكبر والفصاحة الكبري فإنها في الحد النهائي تظهر نقيض الحقيقة فلا يغترّ الإنسان بالظواهر .

[والملأ الأكبر كالفراغ ولا ينتهى نفعه]:
وإذا كان الملأ وصل إلي آخر حده لا يظهر أثرالملأ فكأنه فراغ كما أنه إذا إمتلأ الإناء بالماء امتلاءً كاملا حيث يتساوي حد الماء مع نهاية حد الإناء يظهر الإناء خاليا و هذا كناية عن أن من يتمكن بشيئ تمكنا كاملا لا يظهر عليه أثر ذلك بل بالعكس كأنه فاقده ولكن نفع ذلك التمكن قائم .

النص يخبرنا بألا نحكم علي شيئ بظاهره لأن الظاهر قد يختلف عن الحقيقة وإن الفضلاء يخفون أنفسهم دائما ويظهرون بخلاف حقيقتهم من باب الالتزام بعدم الفعل وعدم الشهرة. والنص في الأخير يؤكّد أهمية عدم الفعل والصفاء في السياسة ويعتبرذلك مناطا لصلاح العالم .

[306] المصدر السابق ، ص:١٧٨.

[وبالصفاء والسكون يعتدل العالم]

وقد اختلف العلماء في ترجمة هذا النص : ترجم أحد العلماء بالعبارة " بالصفاء والسكون يسلم العالم "[٣٠٧]. وترجم معظم العلماء بوجه آخر ، منه : "إن الصفاء والسكون أسوة للعالم "[٣٠٨] ومنه " القادر علي الصفاء والسكون يكون سيدا للعالم "[٣٠٩] .

وترجمت علي النحو المذكور لما يوافق سياق النص لأن النص السابق يقول : إن السكينة تغلب الضجر .

[307] < دراسة داو-ده-جين > . ص:٢٥٣.
[308] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٤٣.
[309] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٧٩ . وايضا < الترجمة الجديدة للوتس > ، رون جو يو ص:١٥٨ .

إن كان فى العالم "داو" يشتغل الجواد فى الحقل وإن لم يكن فى العالم "داو" تضع الخيل حملها فى المعركة ولا ذنب أكبر من الشهوة ولا كارثة أكبر من عدم القناعة ولا إثم أكبر من الطموح ولذلك من كان قانعا باقتناعه فهو مقتنع أبدا.

الشرح:

[إن كان فى العالم "داو"..... تضع الخيل حملها]:

إذا كان العالم محكوما ب"داو" يملؤ فيه الأمن و السلامة و تضمحل فيه الحرب و القتل فلا يحتاج إلي المحاربين و لا إلي الجواد فيعمل الجواد في الحقول للحرث . و إذا فقد "داو" في العالم ملأه الفساد و الفوضي فتشب الحرب و بادر الناس إلي القتال وإستخدموا الخيول كلها في المعركة حتي لم يتركوا الخيول الحبلي فتضع الحبلي حملها في المعركة .

وهذا يعني أنه لو فقد "داو" في العالم لفقد فيه النظام فيظهر الفوضي والفتنة وأن جميع الوسائل أستخدمت في الحرب حتي كانت الخيول الحبلي لم تسلم من الفتن ولا سيما الشعب .

[من كان قانعا باقتناعه فهو مقتنع أبدا]:

لعل النص يشير إلي أن القانع علي نوعين : من يملك شيئا فيقتنع بما يملك . ومن لا يملك بل يعرف فضل القناعة ثم يقتنع بما عرف فالأول قانع بالمال و الثاني قانع بالمعرفة و ربما "القانع باقتناعه" في النص يراد به القانع من النوع الثاني فهو مقتنع أبدا بينما الأول إذا نقص من ملكه شيئ يصير مضطربا.

يتبين من النص أن لوتس يكره الحرب و القتل ولا يعتبره وسيلة سليمة لحل المشكلات بل يراه سببا لجميع الفتن والنص عبّر عن موقف لوتس من الحرب وكان يعارض الحرب أشد المعارضة و كان يعتقد بأن "داو" ضمان صلاح العالم وسلامة البشر .

ومن الواضح أن "داو" هنا يراد به المنهج الرباني أو الدين .

يري لوتس أن سبب الحرب ليس إلا الشهوة في المال والثروة والطموح في الأراضي وعدم القناعة بما يملك و أن الحروب تشب عادة من شهوات الملوك والجبابرة .

ويشير النص إلي أن القناعة الحقيقية هي القناعة بالقلب بعد معرفة فضل القناعة لا بما يملكه من الثروات الضخمة فيدعو من يملك البلاد إلي القناعة فلا يثيروا الحرب حسب الشهوات.

[إن الحكيم] يعرف العالم دون الخروج من الباب و يرى الطريق السماوى دون الالتفات من النافذة.

من يخرج أبعد يعرف أقلّ. ولذلك كان الحكماء لا يخرجون ولكن يعلمون بلا سياح ويبصرون بلا نظر ويكملون بلا عمل.

الشرح:

[يعرف العالم دون الخروج من الباب]:

يعني أن المعرفة تنشأ من داخل النفس أي من النفس الصافية و القلب النقي وأن القلب النقي كالمرآة تعكس عليه المعرفة وكلما صفي القلب إزداد وضوح المعرفة عليه و لذلك يعرف الحكماء كل شيئ بقلوبهم الصافية و لا يحتاجون إلي الخروج لطلب المعرفة .

شرح "خه شان قون" بأن الحكماء يعرفون العالم و ذلك أنهم يقيسون الآخرين علي أنفسهم و يقيسون بيوت الآخرين علي بيوت أنفسهم و بذلك يعرفون العالم"[310] .

وشرح " وان بي" : إن "داو" دائم والحق واحد سواء في السابق أو الحاضر فمن عرف الماضي فقد عرف الحاضر و لذلك يعرف العالم دون أن يخرج من البيت"[311].

يشير النص إلي فلسفة المعرفة عند لوتس و كان لوتس يري أن المعرفة تنشأ من القلب الصافي ولا تأتي من التجربة حتي أن التجربة لا تنفع لحصول علي المعرفة بل تعوق أحيانا فلو كان القلب يفتن بالمغريات المادية لا تنعكس فيه الحقائق . ولعل هذه المعرفة يقال لها العلم البديهي أو الوجداني ولكن سماها لوتس بالإطلاع السري كما سيأتي ذكره و يري هيقل الفيلسوف الألماني أن طريقة لوتس في المعرفة تمثل المنهج الشرقي في المعرفة وهو المنهج الباطني أو الوجداني ولا شك أن لوتس من الأوائل الذين نهجوا هذا المنهج في المعرفة بالعالم الشرقي .

[يرى الطريق السماوى دون الالتفات من النافذة]:

الطريق السماوي يراد به القانون الطبيعي أو النواميس الكونية و معني النص :أن الحكماء يعرفون القوانين الطبيعية وحقائق الأشياء دون الالتفات من النافذة إلي الأشياء المرئية .

---

[310] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٨٣.

[311] < شرح ولن بي > ، ص:٣٦٨.

وشرح "خه شان قون" بأن الطريق السماوي يوافق الطريق الإنساني وإن السماء تتصل بالإنسان كما أن الروح تمازج النفس وإن سيد القوم إذا تمسك بالصفاء والسكون يعتدل الجو وإذا كان له شهوات يكون الجو محبس الأنفاس وإن الخير والشر و النفع والضر كله ناشئ من هذا "[٣١٢].

يشير النص إلي أن في الكون نواميس ثابتة وقوانين محكمة ويجري كل شيء فيه علي القوانين ولا ينحرف عنها فلو عرف أحد ما جري في الماضي فقد عرف ما سيجري في المستقبل وكان الحكماء هم الذين عرفوا ذلك واستخدموا القوانين في القيام بأعمالهم فكانت القوانين تعمل لهم استغناء من جهودهم . فيري لوتس أن الإنسان قد يعرف القوانين الكونية ويستخدمها لمصلحته .

[من يخرج أبعد يعرف أقلّ]:

كما سبق الذكر أن المعرفة تنشأ من داخل النفس إعتمادا علي صفاء قلبه فمن غفل عن نفسه و توجه إلي البعيد لطلب المعرفة لا يجد إلا قليلا .

شرح "وان بي" : إن "داو" لا يدرك بالبصر و لا يسمع بالأذن ولا يحس باللمس و العارف لا يخرج من البيت لطلبه و الجاهل كلما يخرج أبعد من أجل المعرفة يضل أكثر "[٣١٣] .

وقيل إن "داو" موجود في كل مكان فمن عرف طريقة المعرفة يعرفه من الأشياء التي هي أقرب إليه فكيف ينتهي (منبع المعرفة) "[٣١٤].

[ولكن يعلمون بلا سياح] :

قال "خه شان قون" :إن الحكاء لا يصعدون إلي السماء و لا يدخلون بوادر البحار و لكنهم يعلمون أمور الدنيا كلها و ذلك أنهم يعرفون الأمور بالقلب "[٣١٥].

وقيل معناه أن الحكماء يعرفون من غير التجربة "[٣١٦].

[ويكملون بلا عمل]:

إنهم عرفوا قوانين الطبيعة و إستخدموها للوصول إلي قصدهم فيتم قصدهم بنفسه اعتمادا علي النظام الطبيعي دون الجهد منهم .

---

[312] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٨٤.
[313] < شرح ولن بي > ، ولن بي ، ص:٣٦٨.
[314] انظر < دراسة داو-ده-جين > ص:٢٥٩.
[315] < تفسير خه شان قون > ص:١٨٤.
[316] < الترجمة الجديدة للوتس > ، ص:١٦٢.

الاشتغال بالعلم يزيد الناس يوما بعد يوم والاشتغال ب"داو" ينقص الناس يوما بعد يوم وينقص كل النقص حتى لا يبقى معه إلا عدم الفعل وإنه بعدم الفعل تتمّ جميع الأمور ومن يريد سيطرة العالم لا يبدع أمورا أبدا حتي إذا ما أبدع الأمور لم يقدر على سيطرة العالم.[317]

الشرح:

[الاشتغال بالعلم .... ينقص الناس يوما بعد يوم]:

الدراسة العلمية تفيد الناس علما وتنفعهم في المعرفة فمن يشتغل بالعلم يستفد منه يوما بعد يوم وأما الاشتغال ب" داو" فيراد به التخلق ب"داو" والتحلي بأوصافه فهو يطالب المشتغلين أن يخلوا أنفسهم من الأوصاف الذميمة ويتركوا الأعمال الفضولية ويقللوا الشهوات ويقضوا علي المزايا الشخصية حتي لا يبقي معهم إلا عدم الفعل.

شرح "خه شان قون" بأن من يتعلم الرسميات ينتفع بها كل يوم من ناحية زيادة الشهرة و التصنع الفني و من يشتغل ب"داو" تنقص شهرته و تصنعاته يوما بعد يوم [٣١٨].

قيل إن القصد من الاشتغال بالعلم هو طلب العلم فينتفع الناس به كل يوم وأما الاشتغال ب"داو" فقصده ترك الأباطيل ولذلك ينقص كل يوم [٣١٩].

---

[317] ذكر النص الاختلاف بين من يشتغل بالعلم وبين من يشتغل ب"داو" والأول يستفيد من اشتغاله يوما بعد يوم وأما الثاني فينقص في نفسه يوما بعد يوم . وكان لوتس يوضّح بذلك طريقة الرياضة الروحية وغايتها ويبدو أن طريقة الرياضة هي تنقيص ذاتي وهو تقليل من الشهوات والغرائز والطموحات وتخلية من الأوصاف الذميمة والأفعال الخسيسة وأن الغاية من الرياضة هي عدم الفعل .

ونري أن الاشتغال ب"داو" ليس إلا تذكية النفس و كانت طريقة التذكية لم تكن بعيدة عن الطريقة الإسلامية لنفس الغاية .

ويثبت لنا النص أن لوتس لم ينكر التعليم ودوره ولم يعارض الدراسة والاشتغال بها وإن النص يكون حجة قاطعة علي من قال بأن لوتس يدعو إلي الجاهلية وينكر العلم والتعليم .

وقد أبدي لوتس بعض آرائه في السياسة فدعا إلي سياسة الحرية والرفق والرخاء ويعتبر ذلك أساس بقاء الحكومة وأمن البلاد .

[318] أنظر < تفسير خه شان قون >، ص:١٨٦.

[319] < دراسة داو-ده-جين > ص:٢٦٣.

[من يريد سيطرة العالم لا يبدع أمورا أبدا]:

من يريد أن يحكم العالم يجب عليه أن يلتزم بعدم الفعل ولا يعمل أعمالا خلاف طبائع الناس ولا يزعجهم ولا يسلب حريتهم .

والحاصل أن الحاكم لا ينبغي أن يزعج الناس بالقوانين القاسية ولا يجبرهم علي ما لا يرضون عنه .

إن الحكيم لا يملك قلبا بل يجعل قلوب الناس قلبه
[قائلا] إن الصالح أحسن إليه كما أن الطالح أحسن إليه كذلك ومن ثم يحصل له الإحسان .
[قائلا] إن الصادق أثق به كما أن غير الصادق أثق به كذلك ومن ثم تحصل له الثقة.
إن الحكيم يسالم الناس فى العالم و يجعل قلبه بسيطا للعالم وإن الناس يهتمون بالسمع والبصر فقط فيعتبرهم الحكيم أطفالا.

الشرح :
[إن الحكيم لا يملك القلب بل يجعل قلوب الناس قلبه]:
الحكيم لا يتمني لنفسه نفعا ولا يطمع في مصلحة لنفسه وإنما يفكر في مصالح العام ويطمع الخير للجميع كما يشرح " تشين قو يين" بأن الحكيم ليس له مطمح ذاتي[٣٢٠] .
وشرح "خه شان قون" بأن الحكيم يتبع الناس فيما يرغبون فيه فيتغير قلبه تابعا لتقلبات قلوبهم فكأنه ليس له قلب[٣٢١] .

وضع النص بعض المبادئ السياسية عند لوتس واشترط علي الملك أو الحاكم أن يكون حكيما فلا يجعل نفسه في مقام مركزي بين الناس و لا يعتبر مصلحته معيارا للخير والشر بل يحاول أن يجعل نفسه أحدا منهم و يزيل الفرق بينه وبين عامة الناس بتقليل شخصيته وفقا لرغبات العوام ويعامل كل الناس بالسواسية ويجعل الإحسان ميزة غالبة في الحكم .
كما يشير النص إلي أن الحاكم الفاضل هو من لا يصدر القرار حسب رغباته بل كانت رغبات الشعب هي المعيار لأخذ القرارات و كان لوتس يطالب الحكام أن يعايشوا الشعب فكرا وشعورا ويعتبروهم أطفالا أصفياء وأصدقاء رحماء ولا يسلبوا مصالحهم وحرياتهم حتي لا يشعروا بالضغط والضيق منهم .

[إن الصالح أحسن إليه كما أن الطالح أحسن إليه كذلك]:
الحكيم يحسن إلي جميع الناس و يفكر في مصالح الكل دون التفريق بين الصالح و الطالح .

---

[320] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٥٥.
[321] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٨٨.

وشرح "خه شان قون" : لو كان الناس مصلحين يحسن إليهم الحكماء ولوكانوا فاسدين يصلحهم الحكماء حتي يرجعوا إلي الحسن [٣٢٢].

وقيل معناه أن الصالح أعتبره صالحا وأن الطالح أعتبره صالحا كذلك [٣٢٣].

[ومن ثم يحصل له الإحسان]:

إن الحكيم يفكر في مصلحة العام و يحسن إلي الجميع فبذلك يعمّ الإحسان في العالم .

[إن الحكيم يسالم الناس في العالم ويجعل قلبه بسيطا للعالم]:

الحكيم لا يخالف الناس في شيء بل يحاول أن ينسجم معهم ولما كان الناس بسطاء فجعل الحكيم قلبه بسيطا وساذجا مثلهم حتي يسايرهم في كل شيء .

جاء بعض العلماء وعلي رأسهم "خه شان قون" بعبارة مختلفة في مكان هذا النص فأتوا بكلمات أخري وهي : إن الحكيم يحذر في العالم .

[فيعتبرهم الحكيم أطفالا]:

إن العوام يعتمدون علي السمع و البصر و غيرهما من الحواس في الحصول علي العلم ولا يتعدون ما وراء الحواس و ذلك مبلغهم من العلم فكانوا بسطاء كالأطفال ولذلك يعاملهم الحكماء كالأطفال.

وقيل معناه أن الحكماء يحبون الناس كحبهم لأبنائهم [٣٢٤] وقيل معناه أن الحكماء يعتبرون العوام كالأطفال الأصفياء [٣٢٥].

---

322 < تفسير خه شان قون > ، ص:١٨٩.

323 ، حكمة الصين > ، ص: ٥٦.

324 انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:١٩٠. وايضا < حكمة الصين > ص: ٥٦.

325 ، الترجمة الجديدة للوتس > ص:١٦٦.

الخروج من الحياة دخول إلى الموت وإن أصحاب الحياة هم ثلاثة من العشر وأصحاب الموت هم ثلاثة من العشر والذين قضيت لهم الحياة ثم سبّبوا لأنفسهم الهلاك هم ثلاثة من العشر ، ما السبب فى ذلك ؟ ذلك لأنهم أفرطوا فى حب الحياة . ويحكي أن الذين يحسنون رعاية الحياة لا يدركهم الكركدنى ولا النمر فى البر ولا يحتاج إلى لبس الدروع فى المعركة لأن الكركدنى لا سبيل له إلى نطحه بالقرن ولا سبيل للنمر إلى افتراسه بالبرثن ولا سبيل للجند إلى جرحه بالسلاح. ما السبب فى ذلك ؟ إنه لا سبيل إلى إهلاكه.[326]

الشرح:

[الخروج من الحياة دخول إلى الموت]:

للإنسان حالتان إما الحياة أو الموت و إذا إنقضي أجل الحياة يأتي الموت وإذا خرج الإنسان من حيز الحياة دخل في عالم الأموات .

و يري بعض العلماء أن هذاالنص يجب ترجمته علي النحو التالي : الخروج حياة و الدخول موت بمعني أن الخروج من بطن الأم يرمز بداية الحياة و أن الدخول في الأرض يرمز إلي الموت . شرح "خه شان قون" : إذا خرجت الشهوات واستقرت الروح فكانت الحياة فالخروج حياة وإذا دخلت الشهوات في الصدر وتعبت الروح فكان الموت ولذلك فالدخول موت[٣٢٧] .

---

[326] يري لوتس أن حياة الإنسان في الخطر دائما وإذا أهمل الإنسان فقد وقع في الموت ولا حالة ثالثة وراء الحياة والموت و يدل النص علي أن لوتس كان يهتم بالبدن والحياة فدعا إلي رعايتها ويري أن الإنسان بجهوده قد يعيش عيشة طويلة ويكمل جميع المراحل لحياته إذا كان يحفظها بالرياضة و أكد قيمة الرياضة بأنها تطيل الحياة إذا قام بها الإنسان علي طريقة صحيحة حتي إذا ما أحسن الرياضة لا يدركه الموت ولو دخل في مواقع الخطر مثل المعركة عند مقاتلة العدو أولقاء الوحوش والسباع .

وبجانب الدعوة إلي رعاية الحياة أبدي أهمية التوسط بين الإفراط و التفريط في الرعاية ورأي أن كليهما يؤدي إلي هلاك الحياة .

[327] - تفسير خه شان قون > ، ص:١٩١.

[وأصحاب الحياة هم ثلاثة من العشر]:

يري الناس أن المراحل الكاملة لحياة الإنسان هي الطفولة و الشبابية و الكهولة و الشيخوخة حيث أن الشيخوخة هي نهاية مراحل الحياة فيقول النص إن الذين يكملون مراحل الحياة قليلون و هم ثلاثة من العشر أي هم ثلث الناس وأما بقية الناس فيموتون مبكرا .

وشرح " وان بي" : الذين يتخذون طريق الحياة ويكملون أجلها هم ثلاثة من العشر[328].

وشرح "تشين قو يين" : المعمّرون من الناس هم ثلاثة في العشر[329] .

ولكن هذا النص عند "خه شان قون" يختلف عما عند الآخرين وجاء بعبارة " أصحاب الحياة هم ثلاثة عشر " بمعنى أن الحياة والموت يتعلقان بثلاثة عشر عضوا من أعضاء الجسم وإن صلحت فكانت الحياة وإلا فالموت . فإذا لم تبصر العين باطلا ولم تسمع الأذن باطلا ولم يشمّ الأنف باطلا و لم يتكلم الفم باطلا ولم يذوق اللسان باطلا ولم تلمس اليد باطلا ولم تمش الرجل في باطل ولم تطمح الروح باطلا كانت الحياة وإلا فالموت [330].

[والذين قضيت لهم الحياة ثم سبّبوا لأنفسهم الهلاك هم ثلاثة من العشر]:

معني النص واضح وشرح أحد العلماء بأن لهم نعمة سماوية و قضي لهم طول العمر ولكنهم لم يحافظوا علي الحياة فأهلكوا أنفسهم [331]. وهؤلاء يمثلون ثلث الإنسان .

[ذلك أنهم أفرطوا فى حب الحياة]:

السبب في قصور عمرهم مع إمكانية طوله هو أنهم أفرطوا في حب الحياة وحاولوا بكل الوسائل و الطرق لإطالته ولكن خطأوا في إختيار الطريقة المناسبة و خالفوا طبيعة الحياة وأفسدوا أسباب الحياة فهلكوا كما حدث لمن شرب إكسير الحياة أملا لتخليد الحياة و لكن قضي به علي الحياة لأن الإكسير بطبيعته سم قاتل خطير علي الحياة .

شرح "خه شان قون" : ذلك أنهم أفرطوا في طلب الحياة وخالفوا "داو" ولم يتبع الطبيعة وساروا ضد القوانين [332].

---

[328] < شرح ولن بي > ، ص:٣٧٠.

[329] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٥٩.

[330] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٩٢.

[331] انظر < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٥٨.

[332] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٩٢.

[إنه لا سبيل إلى إهلاكه]:

إن الذين يحسنون رعاية الحياة لا يصيبهم السباع المفترسة مثل الكركدني و النمر و لا تصيبهم الأسلحة وذلك أنهم اتخذوا طريقة مؤثرة للحفاظ علي الحياة فلا يدركهم الموت بسهولة .

قال "خه شان قون" بأنهم لا يصيبون بذلك لأن الألهة تحفظهم [٣٣٣].

وقيل بأنهم لا يذهبون إلي مكان يتعرض فيه للخطر و الهلاك فلا يدركهم الموت[٣٣٤].

---

[٣٣٣] - تفسير خه شان قون > ، ص:١٩٣.

[٣٣٤] - الترجمة الجديدة للوتس » ، ص:١٦٩.

إن "داو" ولَدَه وأن "ده" ربّاه والمادة شكّلت صورته والبيئة أكملته ولذلك لم يكن من الكائنات إلا و يعبد "داو" ويعظم "ده" و بعبادة "داو" وتعظيم "ده" لم يأمر أحد بل كان هكذا من الأزل ولذلك ولده "داو" ويحميه "ده" ثم ينميه ويربّيه و يخرج إنتاجه و ينضجه ويراعيه ويحفظه.

ومن الفضيلة السرية إيجاد العالم بلا تملك و إزهاؤه بلا فخر وتنميته بلا سيطرة .[335]

الشرح:

[إن "داو" ولَدَه وأن "ده" ربّاه]:

الضمير قد يرجع إلي العالم و يعني أن "داو" خلق العالم ثم ربّاه و شكل صورته بالمواد . الكلمة "ده" هنا يراد بها صفات "داو" كما سبق الكلام عنه ولكن الصفات ليست عين الذات و لا غيره و لذلك كان "ده" في كثير من الأحيان يراد به "داو" نفسه فكأن النص يقول إن "داو" خلق العالم ثم يربّيه بصفته الربوبية .

شرح أحد العلماء : إن خالق العالم هو "داو" ومربيه هو "ده" [٣٣٦].

---

[335] إن النص عبّر عن عقيدة الألهية للوتس فكان "داو" عنده لم يكن أصل الكائنات وأمها فحسب بل هو مربّيها ومصوّرها ومكمّلها وحافظها وبالجملة إن "داو" هو رب العالمين عنده وكان "داو" لم يترك العالم بعد ما خلقها بل يدبّر أموره ويراعيه .ولذلك كانت الكائنات تعبد "داو" وتعظّم أفعاله منذ الأزل . ولعل لوتس بهذا كان يطالب الناس بعبادة "داو" و يلمح إلي وجوب تلك العبادة .

والنص أول مرة ذكر عبادة الكائنات ل"داو" و هذا يذكرنا بالأية الكريمة في القرآن العظيم : ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس (الحج :١٨) . و كما لا ندرك سجود الكل لله تعالي لا ندرك عبادة الكائنات ل"داو" و التعظيم له . وعبر لوتس عن عمل الخلق بكلمة " الولادة " وذلك أسهل علي العقول لفهم إخراج الموجودات من العدم إلي الوجود .

ومفهوم "داو" حسب هذا النص ليس بعيدا عن مفهوم الله عند المسلمين وبما أن لوتس لم يكلمه الله ولم يخاطبه خطابا مباشرا يبقي في عقيدته بعض التخمينات بأن "داو" لا يتكلم ولا يدّعي بشيء حتي لا يدعي بالسيطرة علي العالم والامتلاك بما فيه .

[٣٣٦] أنظر < دراسة داو-ده-جين > ، ص:٢٧٦.

[و البيئة أكملته]:

البيئة يراد بها الظروف الطبيعية مثل الحرارة و البرودة و اليبسة و الرطوبة و غيرها من العناصر الطبيعية وقد يعني النص أن الظروف الطبيعية شكلت طبائع الأشياء .

وقد شرح "خه شان قون" هذه النصوص بوجه آخر وقال : إن "داو" ولد الكائنات وأما "ده" فهو الواحد وإن الواحد يدبّر الهواء فيربّي الكائنات وإن الواحد يصوّر الكائنات وإن الواحد يصنع بيئة الحرارة أو البرودة حتي تكتمل الكائنات [٣٣٧].

[يعبد "داو" ويعظم "ده"]:

إن الكائنات تعبد "داو" و تعظمه ولم يشر لوتس إلي كيفية عبادتها و قد يراد بالعبادة الطاعة لقوانين "داو. ". وشرح "خه شان قون" بأن الكائنات تحترم "داو" و تعظّم "ده" [٣٣٨].

[و بعبادة "داو" وتعظيم "ده" لم يأمر أحد بل كان هكذا من الأزل] :

إن الكائنات تعبد "داو" وتعظّم "ده" ولم يأمر بهذا أحد ولكن الأمر هكذا من الأزل[٣٣٩] .

[ومن الفضيلة السرية إيجاد العالم...]:

إن "داو" خلق العالم ثم يربيه و يحفظه من الخلل و الهلاك و لكنه لا يزعم بالربوبية ولا بسيطرته ولا يفخر بما فعل ولا يزعم لنفسه المآثر و هذه الأوصاف الحميدة يقال له الفضيلة السرية .

وشرح "خه شان قون" بأن "داو" ولد الكائنات ولكنه لا يأخذ منها شيئا للانتفاع ويعطي للكائنات ولا ينتظر شكرها ويربّي الكائنات ولا يقطع منها شيئا للانتفاع وإن النعم التي أنعمها "داو" علي الكائنات خفية لا تظهر[٣٤٠] .

---

[٣٣٧] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٩٦.

[٣٣٨] انظر المصدر السابق ص:١٩٦.

[٣٣٩] انظر < حكمة الصين > ، ص: ٥٧.

[٣٤٠] < تفسير خه شان قون > ، ص:١٩٧.

للعالم بدء وهو أم العالم ومن أدرك الأم يعرف ابنها ومن عرف ابنها عاد يتمسّك بالأم فلا يصيبه الخطر. و من سد مدخله وأغلق بابه لا يتعب طول الحياة ومن فتح المدخل و خاض فى الأشغال لا يتبرأ طول الحياة.

الإطلاع علي الدقائق يقال له البصيرة و الصبر على الضعف يقال له القوة ومن استعمل نوره و عاد الى البصيرة لم يخلف لنفسه بلاء و هذا هو التخلق بالدائم.[341]

الشرح:

[للعالم بدء وهو أم العالم]:

كما سبق النص أن "داو" أصل العالم وكان العالم بدأ منه فكان "داو" أمّا للعالم ويكون العالم ابنه . و من عرف هذا الأصل فقد عرف العالم و من عرف العالم بدقة فقد عرف "داو" أكثر وضوحا و عرف قوانينه و حدوده فلا يصيبه الخطر .

ويري "خه شان قون" أن البدء هو "داو" وهو أم العالم وأما ابنه فهو الواحد [٣٤٢]. ولم يحدد "خه شان قون" حقيقة الواحد.

شرح " وان بي" بأن الأم هي بداية العالم و إبنها هو نهايته[٣٤٣] و معني النص عنده يكون : من عرف بداية العالم فقد عرف نهايته."

---

[341] النص يثبت علاقة العالم مع "داو" بأن "داو" هو الأصل و الأم بينما العالم هو الفرع و الابن و يشير إلي أن العالم حادث حيث كان له بدء وأنه مولود من الأم و من عرف أنه الحادث فقد عرف بأن له محدث.

و قد أبدي لوتس في هذا النص طريقته في معرفة "داو" ويبدو أن طريقته كانت طريقة دائرية بأن يعرف الإنسان "داو" أولا معرفة سطحية بطريقة أو أخري ثم بتلك المعرفة يتوصل إلي معرفة العالم معرفة عميقة ثم بهذه المعرفة عاد يتعرف علي "داو" مرة أخري معرفة حقيقية .

والنص يبين طريقة الحصول علي الراحة الأبدية بأن يسد الإنسان كل مداخل التفكير والعلم و يغلق جميع أبواب الطمح و الشهوات حتي لا يبقي في النفس شيئ متعلق بالعالم و لا ينشغل قلبه بالأمور الخارجية فتحصل له الراحة و السكينة .

كما أشار إلي طريقة حفظ النفس وهي التخلق بأخلاق "داو" في الاطلاع علي دقائق الأمور والتمسك باللين و العودة إلي البصيرة .

[٣٤٢] انظر المصدر السابق ، ص:١٩٩.

[٣٤٣] < شرح وان بي > ، ص:٣٧١.

[و من سد مدخله وأغلق بابه لا يتعب طول الحياة]:
لعل المدخل هنا يراد به مدخل العلم من الحواس والعقل و الباب يراد به باب البيت بمعني من سد وسائل العلم وحبس نفسه في البيت و لا يشتغل بالأمور الخارجية لا يتعب طول الحياة .
قال "خه شان قون" : المدخل هو العين و الباب هو الفم فمن لم ينظر إلي الحرام و لم يتكلم بالحرام لم يتعب طول الحياة .
و قيل المدخل يراد به مدخل الشهوات و الباب يراد به باب الغرائز[٣٤٤] .
وقيل إن المدخل هو الفم بينما الباب هو باب البيت فمعني النص : يجب علي الإنسان أن يمسك لسانه و يغلق بابه لأن فتنة الكلام تخرج من الفم و فتنة الأفعال تخرج من البيت[٣٤٥].

[ومن استعمل نوره وعاد الى البصيرة لم يخلف لنفسه بلاء]:
إختلف المفسرون في المراد بالنور فقيل النور هو نور البصر و قيل الحكمة و قيل هو الحقيقة التي تضمنها النص " الإطلاع علي الدقائق يقال له البصيرة و الصبر علي الضعف يقال له القوة " . و شرح "خه شان قون" بأنه من وجّه نور بصره إلي الخارج ليراقب خير الدنيا وشرها ثم أعاد نوره إلي الداخل لكيلا تفتر روحه لم تفت مزاجه[٣٤٦] .

[و هذا هو التخلق بالدائم]:
الدائم في النص يراد به "داو" ويشير النص إلي أن "البصيرة " و" القوة " و" النور " من صفات "داو" ، ومن يتبع طريقة "داو" في المعرفة والسلوك فقد تخلق بأخلاق "داو" كما شرح "خه شان قون" بأن الإنسان إذا سار علي هذا الطريق فقد اشتغل ب"داو" الدائم[٣٤٧].

---
٣٤٤ . دراسة داو - ده - جين ، ص: ٢٨٠.
٣٤٥ انظر المصدر السابق ص: ٢٨٠.
٣٤٦ . تفسير خه شان قون > ، ص: ٢٠٠.
٣٤٧ المصدر السابق ص: ٢٠١.

لو كان لى علم بسيط لسرتُ على الطريق العظيم و لم أخش إلا الضلال .إن الطريق العظيم فى غاية الاستواء ولكن الإنسان يحب الممشي(الضلال) وإن رأس اللصوصية هو فساد البلاط وعطالة الحقول وخلو الخزانة ولبس الحرير وحمل السيف الصارم وكراهية الأكل و الشرب وجمع الأموال و(كل هذا) ليس ب "داو".

الشرح:

[لو كان لى علم يسير لسرتُ على الطريق العظيم]:

"الطريق" في النص يعبّر عنه في أصل النص بكلمة "داو" واستخدمت بمعناها اللغوي وهو الطريق ويراد به سواء السبيل أو الدين .

ويؤكد النص علي ضرورة العلم في السير إلي الطريق المستقيم . وقيل إن العلم هنا يراد به العلم السياسي بمعني أنه لو كان لي شيئ من العلم السياسي لطبقته في الحياة وشرح "خه شان قون" : إن الملوك في أيام لوتس لا يسيرون علي الطريق المستقيم فقال لوتس هذا أسفا: لو كان لي علم بشؤون السياسة لسرت علي الطريق العظيم وأطبق منهج الإصلاح بعدم الفعل [٣٤٨]

وشرح "وان بي" : لو كان لى علم قليل لطبّقت الطريق العظيم في العالم [٣٤٩] .

[ولكن الإنسان يحب الممشي]:

الممشي هو الطريق الضيق و المعوج و يراد به الضلال كما شرح "خه شان قون" :إن الطريق العظيم مستقيم في الغاية ولكن الناس يحبون الطريق المضلّ [٣٥٠] .

يتمني لوتس أن يعود الناس إلي "داو" وهو الطريق السليم في الحياة وأن يتجنبوا الضلال و يري أن العلم هو أساس الاستقامة في السلوك وأن الطريق المستقيم متهيئ لكل واحد ولكن الناس لقلة علمهم وسوء طبيعتهم لا يسيرون علي الطريق السليم .

---

[٣٤٨] المصدر السابق ، ص:٢٠٣.

[٣٤٩] . شرح وان بي > ، ص:٢٧٢.

[٣٥٠] . تفسير خه شان قون > ، ص:١٠٢.

[وكراهية الأكل و الشرب]:

يعني الشبعان من الطعام و الشراب إلي حد أن يكرههما و هذا كناية عن الترف في الحياة .

وقد ذكر لوتس أشكال الفساد في المجتمع حينذاك واعتبر ذلك رأس اللصوصية فمنها فساد البلاط و عطالة الحقول و خلو الحزانة وذلك لشدة الفساد في أوساط الحكام لم يهتمّ أحد منهم بشؤون الدولة والشعب وكانوا ينغمسون في الملذّات والرفاهية .و من فساد الحكام لبس الحرير للفخر و حمل السيف الصارم للتكبر و كراهية الأكل من الترف و جمع المال للشهوة .

و يدل هذا النص علي أن الظروف الاجتماعية كانت في تلك الأيام فاسدة في الطبقات العاليا ثم أثرت في أسفل المجتمعات مما جعلت لوتس يقوم بالإصلاح .

[و (كل هذا) ليس ب"داو"]:

"داو" هنا يراد به الطريق العظيم فالفساد في البلاط و عطالة الحقول و خلو الخزانة و غيرها من المفاسد كلها يخالف الطريق العطيم المستقيم .

من يحسن البناء لا يقلع ومن يحسن المسك لا يسقط و لا يُحرم من قرابين الأبناء أبدا وإذا كان الإصلاح علي نفسه فحقّت عليه الفضيلة وإذا كان الإصلاح على الأسرة فتفيض الفضيلة وإذا كان الإصلاح على القرية تبقي الفضيلة وإذا كان الإصلاح على البلد تتوفر الفضيلة وإذا كان الإصلاح على العالم تنتشر الفضيلة ولذلك تعرف النفس بالنفس وتعرف الأسرة بالأسرة وتعرف القرية بالقرية ويعرف البلد بالبلد ويعرف العالم بالعالم.

كيف أعرف العالم ؟ بهذا ! [351]

الشرح:

[من يحسن البناء لا يقلع]:

من يتمكن في بناء شخصيته و تترسخ قدمه في سبيله لا يزل .

شرح "خه شان قون" بأنه من تمكن في بناء شخصيته و بناء بلده ب"داو" لا يقلع من الأصل[352] .

و قيل : من يحسن بناء عمله لا يتوقف في وسط الطريق (أي لا يضيعه)[353] .

---

[351] أشار النص إلي قضيتين مهمتين و هما قضية منهج الإصلاح و قضية طريق المعرفة .

أولا : إن الإصلاح يجب أن يبدأ من الإنسان نفسه ثم يعمم الإصلاح إلي الأسرة و إلي المجتمع و أخيرا إلي العالم علي أوسع النطاق وكان هدف الإصلاح هو انتشار الفضيلة في العالم. وربما يوافق هذا المنهج طبيعة الإنسان ولذلك نجد كثيرا من الحكماء يسلكون هذا المسلك وقد رأينا المدرسة الكنفوشية إتخذت هذا المنهج في الإصلاح حيث وضعت خطة الإصلاح تبدأ من نفس الإنسان ثم الأسرة ثم المجتمع ثم العالم كله كما أن نفس المنهج طبقته فرقة الإخوان المسلمين بالعصر الحديث في تربيتهم التي وضع أصولها زعيمهم الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالي .

ثانيا : لقد استخدم لوتس طريقة القياس في العلم والمعرفة ويري أن المعرفة تبدأ من القريب بداية من نفس الإنسان ثم تتعدي إلي البعيد قياسا علي نفسه القريبة حتي يعرف الإنسان كل العالم بهذا الطريق .

ولعل العلوم عند لوتس علي قسمين : التجريبي والبديهي و ذلك أن العلوم التي تحصل بطريقة القياس والتي يعرف بها العالم تكون علوما تجريبية ولكن أصل العلم الذي يبني عليه القياس يكون العلم البديهي لأن العلم الذي يعرف به نفسه لا يكون من الخارج بل من داخل النفس و هو العلم البديهي كما مضي بنا في الفصول السابقة وكان لوتس يقرّ بكلا القسمين من العلم .

[352] المصدر السابق ، ص: ٢٠٧.

[353] الشرح الكامل للوتس > ص: ١٠٩.

[و من يحسن المسك لا يسقط]:

من يتمكن في حفظ شخصيته والتمسك بطريقة عمله لا يفشل .

وشرح "خه شان قون" : من يحسن حفظ الأرواح ب"داو" لا تفته الروح [٣٥٤].

[لا يُحرم من قرابين الأبناء أبدا]:

من ملامح التقاليد الدينية في الصين عبادة الأسلاف و خاصة إذا كانوا أبطال أو فضلاء و العبادة تكون في صورة تقديم القرابين لأرواح الأسلاف و السجود أمام قبورهم أوأمام اللوحة الخشبية التي ترمز إلي أرواحهم و كان القصد من عبادة الأسلاف جلب المنفعة منهم و دفع المضرة لأنهم يعتقدون أن أرواح الأسلاف تنفع الأحياء و تضرهم كذلك إذا لم يعبدوها .

ومعني النص : إذا أحسن واحد من الناس في البناء و التمسك علي الوجه المذكور لم ينقطع تقديم الضحايا له من أولاده بعد موته .

وترجم "خه شان قون" هذا النص بوجه آخر : إن الإنسان لو كان يقدر علي الاشتغال ب"داو" فهو لا يموت ويبقي دهرا فهو يسجد لأسلافه لكونه أحد أبنائهم ولا ينقطع سجوده لهم [٣٥٥].

[و إذا كان الإصلاح علي النفس........ تنتشر الفضيلة] :

يعني أنه من أصلح نفسه و ذكي قلبه فقد حلت فيه الفضيلة و تكون الفضيلة متكمنة في نفسه ثم إذا طبق هذا الإصلاح علي الأسرة تعم الفضيلة في الأسرة و إذا طبق هذا الإصلاح علي القرية تعم الفضيلة في القرية و هكذا إذا طبق هذا الإصلاح علي العالم تعم الفضيلة في العالم .

شرح "خه شان قون" : من يشتغل ب "داو" لأجل نفسه و يراعي التنفس و يحفظ الروح يمتد عمره ومن كان علي هذه الفضيلة فهو الإنسان الحق و من يشتغل ب "داو" لأجل أسرته تعمّ اللطفة من الأب و الطاعة من الإبن و المحبة بين الإخوة و الأمانة من الزوج و العفة من الزوجة و من كان علي هذه الفضيلة تكثر بركاته و تنتقل إلي الأحفاد و من يشتغل ب "داو" لأجل المنطقة يعم فيها الاحترام للكبار و الإعتناء بالصغار و التربية للجهلاء و من كان علي هذه الفضيلة ينتشر ذلك الفضل في كل مكان و من يشتغل ب "داو" لأجل البلد تعم فيه الأمانة من الملك و الطاعة من الوزراء و تنشأ المحبة و العدالة و تزدهر فيه الرسميات بنفسها و يعود الحكم إلي العدل بلا ظلم ومن كان علي هذه الفضيلة

---

[١٩١] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٠٧.

[١٩٢] المصدر السابق ، ص: ٢٠٧.

فيتوفر فضله في البلد و لو كان سيد القوم يشتغل ب "داو" لأجل العالم لصلح الناس بأنفسهم بلا كلام وعادوا إلي الطاعة بلا تربية ولو كان كذلك ليكون فضلا عظيما[٣٥٦] .

[ولذلك تعرف النفس بالنفس]:

نفس الإنسان لا تختلف كثيرا واحدة عن الأخري فالإنسان يقدر علي معرفة نفوس الآخرين قياسا علي نفسه و كذلك الأسر التي تتكون من أفراد النفوس لا تختلف واحدة عن الأخري . فلو عرف الإنسان بيته فقد عرف بيوت الآخرين قياسا علي بيته وهكذا يعرف العالم من العالم .

---

[٣٥٦] المصدر السابق ، ص: ٢٠٧-٢٠٨.

صاحب الفضيلة الوافرة يشبه طفلا فلا تؤذيه الحشرات القاتلة ولا تهاجمه السباع المفترسة ولا تجرحه الطيور المتوحشة.

إن العظم ضعيف والعصب ناعم ولكن قبضة اليد متينة و[الطفل] قبل معرفة العلاقة الجنسية يقوم عضو تناسله و ذلك لتوفّر الحيوية فيه ويبكي طول اليوم من غير بحاحة الصوت، وذلك لغاية التوافق و إنّ معرفة التوافق يقال له "دوام" ومعرفة الدوام يقال لها البصيرة ، ونفع الحياة يقال له الشر وتسلط القلب علي الهواء يقال لها القوة وإنّ الأشياء تشيخ إذا كبرت وهذا ما لا يوافق "داو"، وما يخالف "داو" يفني سريعا[٣٥٧].

الشرح:

[صاحب الفضيلة الوافرة يشبه طفلا]:

الفاضل هو من تخلي من نفسه كل الرذائل و الذميمات و ابتعد عن الشهوات و الطموحات فهو كالطفل الذي علي الفطرة من ناحية الصفاء و النقاء .

المثل الأعلي للإنسان عند لوتس هو الطفل النقي و كان لوتس يدعو الناس أن يرجعوا إلي حالة الطفولة بالابتعاد عن الخصائص التي نشأت علي توالي الدهور خلافا للفطرة .

شرح "خه شان قون" :أن أصحاب الفضيلة تحفظهم الآلهة كما يحفظ الأبوان طفلهما[٣٥٨].

[فلا تؤذيه الحشرات القاتلة]:

---

357 يري لوتس أن المثل الأعلي في الحياة هو طفل نقي إذ هو في حالة فطرية صافية بعيدا عما كان عليه الكبار من الشهوات و الطموحات و الغرائز التي تطورت علي توالي الدهور ومرّ العصور . فالرياضة عند لوتس عبارة عن المحاولة إلي إعادة الحالة الطفولية بواسطة القيام ببعض المجاهدات . يري لوتس أن العالم متكامل ومتوافق فيتوافق كل جزء منه مع غيره فيجب علي الإنسان أن يتوافق مع أجزاء الكون الأخري ثم في نفس الإنسان يجب أن تتوافق جميع الأعضاء الداخلية بعضها مع بعض حتي يصير العالم كله متوافقا سالما و متكاملا بأجزائه بعضها بعضا .

وهذا التوافق لا يوجد إلا عند الأطفال ولذلك كان الطفل هو المثل الأعلي للإنسان فدعا لوتس إلي إحياء الطبائع الطفولية .

إن النص وضع بعض المبادئ والأصول للرياضة الروحية بأن يعيد الإنسان الحالات الطفولية وبكسب القوة الروحية ولعل لوتس كان علي هذا المنهج ويري أن القوة الحقيقية هي قوة روحية .

٣٥٨ المصدر السابق ، ص:٢١١.

إن الطفل لا يعتدي علي شيئ فلا يضره شيئ ولذلك لا تؤذيه الحشرات القاتلة و لا السباع المفترسة ولا الطيور المتوحشة كما شرح " وان بي" علي ذلك النحو [٣٥٩] . وأما "خه شان قون" فيري أن الألهة تحفظهم من الأذي كما سبق القول .

[إن العظم ضعيف والعصب ناعم ولكن قبضة اليد متينة]:

النص يصف حالة الطفل الصغير بأن عظمه ضعيف و عصبه ناعم و لكنه يقبض يده قبضة قوية حيث لا يفتح بسهولة و لا يسقط شيئ من يده إذا وضع فيها و يشير النص إلي وجود القوة الداخلية لدي الطفل علي الرغم من ضعف العظم و نعومة الأعصاب فالفاضل يجب أن يكون كالطفل ضعيفا ناعما في الظاهر و قويا متينا في الباطن .

شرح "خه شان قون" بأن الطفل يمسك شيئا مسكا متينا وذلك لوجود العزيمة لديه [٣٦٠].

وعلي هذا يكون النص يدعو الناس إلي التمسك بالعزائم

[و ذلك لتوفّر الحيوية فيه]:

إن الطفل وإن لم يكبر كانت القوة الرجولية كامنة فيه بل متوفرة و تتدفق أحيانا بلا شعور. وذلك أن الطفل يملك أعضاء سليمة عاملة فيملك القوة الحيوية بل هي متوفرة فيه .

[وذلك لغاية التوافق]:

إن الطفل مهما بكي لا يبح صوته و ذلك أن جميع الأعضاء الداخلية للأطفال تعمل نشيطة بكل وظائفها و يساعد بعضها بعضا في أداء الوظيفة فالعضوُ الصوتي يستمد قواه من الأعضاء الأخري و الجميع يساعد علي البكاء فلا يتعب العضوُ الصوتي وحده و لا يبحّ الصوت .

شرح "خه شان قون" بأنه لا يبحّ صوته لكثرة الهواء المتوازن فيه [٣٦١].

وشرح "وان بي " بأن الطفل ليست له شهوة فلا يبحّ الصوت وإن يبكي طول النهار[٣٦٢] .

[نفع الحياة يقال له الشر]:

نفع الحياة هنا يراد به الشهوة في متاع الحياة [٣٦٣] . فمن يشتهي في التمتع بالحياة يصيبه شر لأن الشهوات تضر صاحبها روحيا وخلقيا .

١

---

[٣٥٩] - شرح وان بي > ، ص:٢٧٢.

[٣٦٠] - تفسير خه شان قون > ،ص:٢١١.

[٣٦١] المصدر السابق ،ص:٢١٢.

[٣٦٢] - شرح وان بي > ،ص:٢٧٣.

[٣٦٣] - الترجمة الجديدة للوتس : ، ص:١٧٩.

[وتسلط القلب علي الهواء يقال له القوة]:

الهواء هنا يراد به القوة الحيوية في نفس الإنسان ولأنها لا تري فهي كالهواء و إن هذه القوة تحرك الخواطر وتثير العزيمة . فالضعف يعني قلة القوة الحيوية في نفس الإنسان بينما القوة تعني توفرها فيها . فإذا امتلأ القلب بالهواء الحيوي وسلّطه فيكون قويا .

قيل معناه : القوة هي أن تتصرّف الشهوات في الهواء الحيوي [٣٦٤].

[وهذا ما لا يوافق "داو"]:

من المعروف أن الأشياء تنفتّر و تتشيّخ بعد ما تطورت إلي القمة و هذا هو القانون الطبيعي في الأشياء . و لكن هذا القانون الطبيعي لا ينطبق علي "داو" لأنه يخالف طبيعة الكائنات وإنه لا يتفتر ولا يتشيخ فهو الأبدي الأزلي فالتشيخ لا يتحقق علي "داو" .

قال "خه شان قون" : إن الأشياء تتشيخ عند غاية القوة و إذا تتشيخ لا تهتدي إلي "داو" فتفني سريعة [٣٦٥].

---

[٣٦٤] المصدر السابق ، ص: ١٧٩.

[٣٦٥] . تفسير خه شان قون > ، ص: ٢١٢.

العارف لا يتكلم والمتكلم لا يعرف و(على الإنسان) سد مداخله وإغلاق أبوابه وتفتير شوكته وإزالة منازعته وتلطيف روعته وتناسق معايشته و هذا يقال له "الوحدة السرية" ومن ثم لا سبيل إلى قربه ولا سبيل إلى بعده ولا سبيل إلى نفعه ولا سبيل إلى ضره ولا سبيل إلى تعزيزه ولا سبيل إلى تذليله فيجلّه العالم.

الشرح:

[العارف لا يتكلم والمتكلم لا يعرف]:

يقول الفصل الأول: *إن "داو" الذي يمكن الكلام عنه ليس ب"داو" الدائم*. و معني ذلك أن "داو" الحقيقي الدائم يعجز عن وصفه لسان الإنسان لأن الكلام --- مهما كان ---محدود بينما "داو" مطلق و المحدود لا يمكن وصف غير المحدود و لذلك من عرف "داو" لا يتكلم عنه و ولا يستطيع أن يتكلم عنه فلو تكلم عنه أحد فقد أثبت لنفسه الجهل لأنه لم يعرفه حق المعرفة .

كما شرح أحد العلماء : إن "داو" لا يعرف و لا يتكلم عنه و العارف يعرف أنه لا يعرف و لا يتكلم عنه فلا يتكلم و المتكلم لايعرف ذلك فيتكلم عنه . و لكن أليس الكتاب نفسه كلاما عنه ؟ إن لوتس يخشي أن يخوض اللاحقون في الحديث عنه و يهملون الحقيقة فدعا الناس إلي فهم المعاني من الألفاظ ثم ينسي الألفاظ بعد فهم المعاني ودعا إلي التذوق ثم العمل[٣٦٦] .

وشرح "خه شان قون" بأن العارف لا يتكلم بل يعمل [٣٦٧].

وشرح "تشين قو يين" :إن الحكيم لا يصدر القرارات ضغطا علي الشعب ومن يصدر القرارات فليس بحكيم [٣٦٨] . فالكلام يراد به إصدار القرار .

[سد مداخله وإغلاق بابه]:

---

٣٦٦ . دراسة داو - ده -جين ، ص:٣٠٢.
٣٦٧ . تفسير خه شان قون > ، ص:٢١٦.
٣٦٨ . لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٨٢.

قد سبق شرحه في الفصل الرابع ومعناه : علي الإنسان أن يسد جميع مداخل الشهوات و الرغبات و يغلق أبواب الأطماع والخيالات . وقيل : سد وسائل العلم وإغلاق أبواب المعرفة [٣٦٩].

[وتفتير شوكته ..... وهذا يقال له "الوحدة السرية"]:

علي الإنسان أن يضعف همه و عزائمه و يزيل الخلافات والمنازعات مع كل واحد و يقلل شخصيته ويخفف هويته و يوفّق حياته مع حياة الآخرين ويعايش الخلق سواء بسواء و هذا كله يهدف إلي إزالة الشخصيات الخاصة لكل واحد والقضاء علي الفروق بين نفسه وبين غيره كما يهدف إلي إذابة الفرد في المجتمع وهذا يقال له "الوحدة السرية" عند لوتس

وشرح "خه شان قون" بأنه من يفعل ذلك فقد وافق السماء في الإتباع ب"داو"[٣٧٠].

ولعله أراد بذلك معني الإتحاد .

أري أن النص يتحدث عن حالة الفناء عند لوتس وقد عبّر عنه ب" وحدة السرية " . ومن المعروف أن الإنسان إذا وصل إلي حال معين أثناء الرياضة لم يقدر علي وصف تلك الحال فكذلك حال الفناء فإنها لا يتكلم عنها ومن يتكلم عنها لم يعرف حقيقة الحال ومن حاول أن يصفها قد أخطأ ولذلك العارف لا يتكلم .

و الذي لا يتكلم عنه العارف هو ما أدركه في حال المعرفة فهو ما لا يمكن الكلام عنه كما قال بعض الصوفية : "من عرف الله تعالي انقطع بل خرس وانقمع"[٣٧١] .

والوحدة السرية عند لوتس هي في الحقيقة عبارة عن إزالة الفروق بين الإنسان نفسه وبين العالم خارجه ويندمج نفس الإنسان في العالم و هذه الحال ليست إلا الفناء عن الخلق علي ألسنة الصوفية الإسلامية إذ يري بعضهم أن الفناء هو عدم إحساس بنفسه وبالعالم خارجه مع وجودهما واقعيا [٣٧٢].

ومن وصل إلي حال الوحدة السرية فقد زال في عينه الفرق بين القرب والبعد وبين الخير والشر وبين النفع والضر وبين العزة والذلة فلا سبيل إلي قربه بشيء ليفرحه أويحزنه .

---

٣٦٩ - الترجمة الجديدة للوتس ، ، ص:١٨١.

٣٧٠ - تفسير خه شان قون > ، ص:٢١٧.

٣٧١ انظر - الرسالة القشيرية > ، الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولي ، ١٩٩٨، ص: ١٠٣.

٣٧٢ الفناء عند بعض الصوفية هو عدم إحساس بنفسه وبالعالم خارجه مع وجودهما واقعيا . انظر < الرسالة القشيرية > ، الإمام أبي القاسم عبد الكريم القشيري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولي ، ١٩٩٨، ص: ١٠٣.

[و من ثم لا سبيل إلى قربه.......]:

ومن وصل إلي "الوحدة السرية " فقد زال أمامه كل الإختلافات بين نفسه وبين الأشياء خارجه وغاب في عينه الفرق بين القرب و البعد و بين النفع و الضر و بين العزة و الذلة فلا سبيل إلي قربه ولا بعده كما لا سبيل إلي نفعه ولا ضره لأن ذلك كله سواء عنده .

ومن وصل إلي هذا المقام يعظمه العالم .

وشرح "وَان بي" : لو أمكن القرب منه لأمكن البعد عنه ولو أمكن نفعه لأمكن ضرّه ....

ولكن لا شيئ يضرّه في العالم [٣٧٣] .

---

[١٦١] : شرح ولن بي > ، ولن بي ، ص:٢٧٤.

(علي الحاكم) حكم البلد بالاستقامة وتخطيط الجنود بالندرة و سيطرة العالم بعدم التكليف .
بماذا أعرف ذلك؟ بما يلي:

كلما كثرت المحظورات زاد الشعب فقرا وكلما كثرت الأسلحة الصارمة عند الناس زاد البلد فوضى وكلما كثر الذكاء إزدادت العجائب وكلما كثرت القوانين إزداد اللصوص ولذلك يقول الحكماء : أتمسك بعدم الفعل فينصلح الناس بأنفسهم وأفضل السكون فيستقيم الناس بأنفسهم ولا أحدث شيئا فيستغني الناس بأنفسهم ولا أمسك شهوة فينقلب الشعب بسطاءَ بأنفسهم.

الشرح :

[حكم البلد بالاستقامة]:

علي الحكام أن يستقيموا أنفسهم أولا ثم يحكموا البلد بالاستقامة ويجعلوها أساس الحكم والاستقامة يراد بها العدل والطريق المستقيم .

[وتخطيط الجنود بالندرة]:

وقد اختلف العلماء في معني الندرة فقال بعضهم : مرادها أسلوب نادر غير عاد . ورأي "خه شان قون" أن الأسلوب النادر هو الخدعة [٣٧٤] و قيل :المراد منها طريقة غريبة لم يعرفها العدو حتي ينتصر عليه من حيث لا يعلم وقيل : مراده هجوم مفاجئ من جهتين علي طرفي العدو [٣٧٥] .

وعلي كل حال يعني النص أنه من أحسن الطرق لتدبير الحرب أن يخطط بصورة رائعة وذكية و يستعمل الأسلوب المجهول لدي العدو حتي ينهزم العدو في حيرته ومن حيث لا يعلم .

[وسيطرة العالم بعدم التكليف]:

التكليف يراد به إحداث الأمور التافهة و إشغال الناس بما لا يهمهم وإزعاجهم بما لا يرضون عنه وإصدار قرارات متتالية خلاف رغبات الشعب .

---

[374] أنظر في < تفسير خه شان قون > ، ص: ٢٢٠.
[375] أنظر < دراسة دلو ده جين > ص: ٣١٤.

و يعني النص أنه علي الحكام أن يرضوا قلوب الناس بعدم التكليف لهم حتي يطيعوهم . و الجدير بالذكر أن آلنصوص المذكورة في هذا الفصل تحمل معاني أخري عند "خه شان قون" إذ ترجمها بقوله : إن الإله يبعث الرجل المستقيم ليملك البلد و يبعث الرجل الخائن ليقود الجيش و يبعث الرجل الذي لا يكلف الناس بشيئ ليكون سيدا للعالم[٣٧٦] .

[كلما كثرت المحظورات زاد الشعب فقرا]:
لأن المحظورات قيدت أيدي الناس و ضيقت مجال الحياة و سلبت من الناس حرية أفعالهم و لذلك يزداد الفقر كلما كثرت القيود .

[وكلما كثر الذكاء إزدادت العجائب]:
الذكاء هنا يراد به الحيل للخداع و الابتكار و كلما كثر هذا النوع من الذكاء عند الشعب تحدث الأمور العجيبة ما لا يتصوره العقل السليم .
شرح "وان بي" :إذا كثر الذكاء عند الشعب ينشؤ منه الخداع و العجب و بالتالي تنشؤ الفواحش[٣٧٧] .

[وكلما كثرت القوانين إزداد اللصوص]:
ويعني أنه كلما دقّت القوانين كثرت فرصة مخالفتها و يراد باللصوص هنا المجرمون .فكلما كانت القوانين مفصّلة وكثرت المحظورات ضاقت دائرة الحياة فلم يتحرك الإنسان إلا وقد تجاوز الحدود و خالف القوانين فيدخل في زمرة المجرمين من غير شعور .

والنص يبين الفكرة السياسية عند لوتس ويشير إلي أن "العدم" أنفع من "الوجود" حيث يري أن الكثرة تؤدي إلي النتائج السلبية وعلي سبيل المثال إذا كثرت المحظورات زاد الفقر وإذا كثرت القرارات، كثر اللصوص .

فعلي الحاكم أن يحكم بالعدم وهو عدم الفعل وعدم التكليف وعدم الشهوة وعدم الحركة حتي لا يشعر الشعب بوجود الحكام علي رؤوسهم وهذا ما أراده لوتس من النص : "المنتهي الأعلي لا يُعرف وجوده "(ف:١٧). ويري لوتس أن الحكام إذا تمسكوا بذلك فقد صلح الشعب بأنفسهم .

---
376 انظر في < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٢٠.
377 < شرح وان بي > ، وان بي ، ص:٢٧٤.

فى سماحة السياسة يستقيم الشعب و في قساوتها يتحايلون . إنّ الشر معتمد الخير وأنّ الخير مختبؤ الشر . فمن يعرف نهايته ؟ وليس فيه ضابط. وإنّ الحق قد يتحول إلى الباطل والخير يتحول إلى الشر وطال الأمد الذي ضل فيه الناس . ومن ثم كان الحكماء عادلين و لكنهم لا يؤذون الناس و كانوا أشداء ولكنهم لا يضرّون الناس وكانوا صريحين ولكنهم لاينحلّون وكانوا مشرقين ولكنهم لا يبهرون الأنظار .[٣٧٨]

الشرح:

[إنّ الشر معتمد الخير]:

كل شيئ في العالم نسبي و كل شيئ يحتوي في نفسه علي ضده وقد ينتقل من وضع إلي وضع آخر فالشيئ قد يكون خيرا من جهة و يكون شرا من جهة أخري أو أن الخير قد ينتقل إلي الشر وكذلك العكس و كثيرا ما يضرب المثل فيه بقصة رجل ضاع منه خيل وكان أهله يحزنون علي ضياع الخيل و لكن الرجل لم يزل مسرورا وسئل عن ذلك فقال :إن الشر معتمد الخير و قد ضاع مني الخيل ولكن الأمر قد يكون خيرا لي . و لم تمض إلا أيام حتي عاد الخيل الضائع ومعه خيل آخر ففرح أهله ولكن الرجل أصبح حزينا و سئل عن ذلك فقال: إن الخير مختبؤ الشر و يبدو أن عودة الخيل الضائع بالخيل الزائد تكون خيرا و لكني أخشي أن يعقبه الشر. و لم تمض إلا أيام حتي سقط ابنه من فوق ذلك

---

378 يبين النص الفكرة السياسية عند لوتس ويري أن القسوة والتشدد والضغط كلها لا تنفع في الحكم ولا تجلب إلا المقاومة والنضال والكفاح وإن السياسة الناجحة تكون علي أساس الرفقة والسماحة حتي يرتاح الشعب دون التعب .

ثم علّمنا لوتس أحد مبادئ الحياة وهو أن كل الأمور لا تكون خيرا مطلقا ولا شرا مطلقا بل تكون خيرا من وجه وشرا من وجه آخر أو تنتقل من وجه إلي نقيضه وقد عبّر لوتس عن ذلك بعبارة جميلة : إنّ الشر معتمد الخير وأنّ الخير مختبؤ الشر. وهذا يذكّرنا بما قاله القرآن : و عسي أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم وعسي أن تحبوا شيئا و هو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (البقرة :٢١٦).

إن الحكماء يختلفون عن العوام في المعرفة والسلوك ومن المعروف أنهم أفضل من غيرهم ولكنهم لا يجعلون أنفسهم متميزين عن بقية الخلق بل حاولوا أن يزيلوا الفرق بينهم وبين العوام ويذيبوا إرادتهم في إرادة الناس.

ويشير النص إلي أن الملك المثالي عند لوتس لابد أن يكون حكيما .

الخيل وكسرت رجله و لما جاء الجيران لعيادة ابنه قال الرجل: لعل هذا الأمر خير لي . و لم تمض إلا أيام حتي شبت الحرب في أطراف البلد وخرج رجال البلد إلي المعركة فهلك هناك من هلك و جرح من جرح و أما ابن الرجل فلم يخرج إلي الحرب بسبب الجراحة في رجله و أنقذ نفسه بذلك من الهلاك في المعركة .
القصة تبين أن كل الأمور تتضمن وجهين و تنتقل من وجه إلي آخر و أن الحكم علي شيئ لا يكون مطلقا بل نسبيا فالشيء يكون خيرا من جهة وفي نفس الوقت يكون شرا من وجهة النظر الأخري وكذلك العكس .
شرح "خه شان قون" :إن الخير يأتي بسبب الشر وذلك أن الإنسان إذا أصابه الشر يتوب ثم يعمل عملا صالحا وبذلك يذهب الشر ويأتي الخير [٣٧٩].

[فمن يعرف نهايته ؟]:
إن الخير يتحول إلي الشر و الشر إلي الخير فمن يعرف إلي متي ينتهي الانتقال بين الخير والشر .

[وليس فيه ضابط]:
لا يثبت الشيئ علي حكم واحد بل ينتقل من حكم إلي حكم فلا ضابط أن يحكم الشيئ بالخير بحتا أو بالشر بحتا .
وشرح " تشين قو يين" : يستمر الانتقال بين الخير والشر ولا ضابط لتعيين الخير أو الشر [٣٨٠] .

[وطال الأمد الذي ضل فيه الناس]:
شرح "وان بي" بأنه طال ما يتحير الناس في الحق و قد فاتهم "داو" [٣٨١] .
شرح "خه شان قون" بأنه طال أمد ضل سيد القوم عن سواء السبيل [٣٨٢] .
و قيل بأن الناس قد طالت عليهم أيام يتحيرون أمام باب الخير والشر ولا يعرفون قانون الانتقال بين النقيضين [٣٨٣].

[ومن ثم كان الحكماء عادلين...... ولكنهم لاينحلّون]:

---

379 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٢٦.
380 < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٩٠.
381 < شرح وان بي > ، ص:٢٧٥.
382 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٢٧.
383 أنظر < دراسة داو ده جين > ص: ٣١٧.

جري الأمر كالعادة علي أن الناس إذا كانوا عادلين فيقيمون العدل علي غيرهم ويعدّلون الآخرين فلا يخلو منهم أن يؤذوا الظالمين و إذا كانوا أشداء للحق فلا يخلو منهم أن يشدّدوا علي المبطلين و إذا كانوا صريحين في الكلام فلا يمسكون ما في قلوبهم بغض النظر أ هي تضر الناس أم لا . و أما الحكماء فلا يفعلون ذلك مثل ما يفعله عامة الناس .

شرح "خه شان قون" :إن الحكماء يسعون للإستقامة لكي يرشدوا الناس لا ليعاتبوهم و أنهم صالحون و أرادوا إصلاح الناس لا إيذاءهم وأنهم وإن كانوا مستقيمين يخضعون أنفسهم للآخرين ولا يطلقون أنفسهم أحرارا "[٣٨٤]

[وكانوا مشرقين ولكنهم لا يبهرون الأنظار]

يعني النص أن الحكماء بقدرهم الحقيقي يتفوقون علي بقية الناس ولكنهم لا يفضّلون أنفسهم علي الآخرين ولا يجعلون أنفسهم في مقام مرموق .

شرح "خه شان قون": إن الحكماء وإن كانوا مبصرين ذوي المعارف الفريدة كانوا كالجهلاء و لا يفتخرون بها "[٣٨٥].

---

384 انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٢٧.

385 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٢٧.

عند القيام بإصلاح الناس وعبادة الإله ما من أمر أهمّ من العناية وإنما العناية يقال لها الإستعداد المبكر والاستعداد المبكر يقال له الاهتمام بجمع الفضائل وإذا اهتم بجمع الفضائل فلا شيئ ما لم يتغلب عليه وإذا يتغلب على كل شيئ لا يعرف منتهاه وإذا لم يعرف منتهاه تمكن من حكم البلاد وإذا كان له أم البلاد يبقى طويلا و هذا هو الطريق إلي عمق الغور وثبوت الأصل و إلى طول الحياة وبقاء النظر .[٣٨٦]

الشرح:

[عند القيام بإصلاح الناس وعبادة الإله ما من أمر أهمّ من العناية]:

إختلف العلماء في ترجمة هذا النص و مدار الاختلاف هو معني الكلمة " تيأن " (Tian) التي ترجمتها ب"الإله " و الكلمة " چان " (Qiang) التي ترجمتها ب"العناية " .

ويرأي العلما ء الماديون أن كلمة " تيأن " يراد بها السماء أو العالم الطبيعي أو الفطرة الإنسانية . و طبعا هذه المعاني لا تناسب هذا المكان و الكلمة "تيأن " تستخدم منذ القديم علي معني الإله فترجمته بالإله كما فعله بعض العلماء القدماء و المحدثين .

ثم كلمة " چان " لها معان عديدة في الأصل الصيني فمنها معني البخل أو المحصولات الزراعية أو الزراعة أوعدم الإسراف أو العناية وغيرها .

---

[386] لقد إختلف العلماء في موضوع هذا النص و كان الإختلاف يرجع إلي العصور القديمة حيث أن فريقا وعلي رأسهم "خه شان قون" يري أن النص يتحدث عن الرياضة الروحية والبدنية لأجل إطالة الحياة والفريق الآخر وعلي رأسهم "وان بي" يري أن النص يؤكد أهمية الفلاحة . و يبدو لي أن النص يشير إلي أصل مهمّ في الحياة سواء كان في الحياة الدينية أو الحياة السياسية و هو أن الفضائل هي أساس النجاح في الحياة إذ أن الفضائل تنتج قوة هائلة تمكن صاحبها بسيطرة علي العالم وتبقي حكمه .

و قد فهم أصحاب الديانة الداوية من العبارة " طول الحياة و بقاء النظر " أن الإنسان يستطيع برياضته الروحية و البدنية أن يعيش حياة طويلة إلي مئات سنين ثم يصعد إلي السماء حيا و ينضم في زمرة النفوس الخالدة بالعالم السماوي . وبناء علي هذا النص تؤمن الديانة الداوية ببقاء الحياة الجسدية علي الأرض إذا قام الإنسان بالرياضة .

وبناء علي هذه الاختلافات تنوعت الترجمات فقيل معني النص : عند القيام بإصلاح الناس و عبادة الطبيعة ما من أمر أهمّ من الاشتغال بالاقتصاد وعناية ثروة المواد و طاقات العباد[٣٨٧] .

و قيل : في إصلاح الناس و عبادة الإله ما من أمر أهم من الاشتغال بالفلاحة[٣٨٨] .

وقيل: في إصلاح الناس و عبادة الإله ما من أمر أهم من عناية الطاقات[٣٨٩].

و قال "تشين قون يين" : في حكم البلد و حفظ النفس ما من أمر أهم من عناية الطاقات. [٣٩٠]

وعلي كل حال فإن النص يعني أن الفضيلة هي أهم شيء في الإصلاح أو في العبادة كما يوضحه النص التالي .

[وإذا يهتم بجمع الفضائل.... لا يعرف منتهاه]:

"العناية" في الأخير يراد بها جمع الفضائل و من جمع علي نفسه الفضائل و الشخصيات الجذابة تفيض منه القوي الروحية الهائلة و يتغلب بها علي جميع المشقات بطريقة أو أخري فلا لا يعرف مدي هذه القوة .

[وإذا كان له أم البلاد يبقى طويلا]:

أم البلد يراد بها أساس إقيامة البلد أو أصول الحكم وهي "داو" علي رأي جمهور العلماء .و معني النص : من يتمسك ب"داو" في الحكم يبق ملكه [٣٩١] .

وشرح "خه شان قون" :إن الجسم كالدولة والأم هي "دلو" فمن يمسك "داو" في جسمه ولا يتعب روحه ولا يزعج الآلهة الخمسة في الجسم يبق خالدا [٣٩٢].

[و هذا هو الطريق إلي عمق الغور وثبوت الأصل]:

العبارة " عمق الغور و ثبوت الأصل " تعني عمق النظر و رسوخ القدم في شيء و أما بقاء النظر فمراده طول الحياة .

وشرح "خه شان قون" بأن "الغور" يراد بها روح الإنسان و "الأصل" يراد به تنفس الإنسان فمن يخفي النَفَس في عمق الجوف و يمسك روحه في الجسم كان علي طريق طول الحياة.[٣٩٣] ولعل قصد النص هو بيان طريقة تقوية السلطة و إدامة الحكم وإن البقاء هنا هو بقاء حكم البلد لا بقاء حياة الأفراد .

---

387 < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٣٢٤.

388 انظر المصدر السابق ، ص: ٣٢٠.

389 < للشرح الكامل للوتس> ، ٢٠.

390 < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢٩٧.

391 قاله العالم الجليل (خن في تس) ،انظر < دراسة داو ده جين > مص:٢٣٢.

392 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٣١.

393 انظر المصدر السابق ، ص: ٢٣١-٢٣٢.

الفصل الستون   الالتزام بالمكانة

حكم البلد الكبير كطبخ السمك الصغير وإذا حكم البلاد ب"داو" عجزت الشياطين وليست الشياطين تعجز فقط وإنما الألهة لا تؤذى الناس وليست الألهة لا تؤذى الناس فقط وإنما الحكماء لا يؤذون الناس أيضا وكلاهما لا يؤذي الناس فتجتمع الفضائل فيهم.[394]

الشرح:

[حكم البلد الكبير كطبخ السمك الصغير]:

أجمع العلماء قديما و حديثا علي أن النص يعني صعوبة حكم البلد الكبير كمثل صعوبة طبخ السمك الصغير حيث أن السمك الصغير ناعم إذا يقلب علي النار أو يحرك عند الطبخ ينكسر و يكون معجونا و كذا البلد الكبير إذا يحرك بالانقلاب و الثورات و يزعج شعبه بالقوانين و العقوبات ينكسر البلد وتسقط السلطة .

قال "خه شان قون" : في وقت طبخ السمك الصغير لا تخرج الأعضاء الداخلية و لا تنظف القشرة ولا يقلب في القدر حتي لا يكسر ولا يدقق وأما حكم البلد فعندما يصدر الإزعاج من الأعلي (الحكام) ينشؤ الفوضي في الأسفل (الشعب) و إذا ظهر الفتور في الرياضة ستهبط الروح [٣٩٥] .

---

394 اختلف العلماء في معاني هذه النصوص وذهب كل واحد إلي ما يراه صوابا وأري أن النص يتحدث عن الفكرة السياسية وعن طريقة بقاء الملك .

وقال لوتس : "إن العالم شيء مقدس " ويعني ذلك أن البلد لا ينبغي أن يحكم بالإرادات الشخصية حسب الرغبات الذاتية بل يجب أن يحكم ب "داو" وهو كمنهج ربّاني يتغلب علي جميع المشاكل التي أثارها الإنس والشياطين .

ويري لوتس أنه إذا كان الحكم قائما علي "داو" يأمن العالم وتعمّ السلامة بين الناس حتي لا يكون الضرر ولا الضرار بين الناس أنفسهم أو بين الإنسان وبين الشياطين و كانت الغاية من تطبيق "داو" في الحكم هي نشر الفضائل في العالم باعتبارها الأوصاف المحمودة ل"داو" .

395 المصدر السابق ، ص:٢٣٥.

و يري "وان بي" أن النص يعني عدم إزعاج الناس في الحكم وأن العجل يضر بينما الهدوء يساعد علي إكمال الأمور فكلما كان البلد أكبر يجب أن يكون الهدوء من قبل الحاكم أكثر حتي ينال قلوب الشعب [٣٩٦] .

[وإذا حكم البلاد ب"داو" عجزت الشياطين]:
يعتقد الصينيون بأن الإنسان بعد موته انضمّت روحه إما إلي صفوف الشياطين إذا كان فاسقا أو إلي جنس الألهة إذا كان صالحا ؛ و إن الشياطين تضر الأحياء بينما الألهة تنفعهم .

لو قام البلد علي نظام "داو" لملأ بالحق و زهق الباطل فعجزت الشياطين عن إغواء الناس عن سوء السبيل .

[وإنما الألهة لا تؤذى الناس]:
يعتقد القدماء الصينيون بتعدد الآلهة في السماء وعلي الأرض بحيث لكل نوع من الموجودات إله معينٌ مثل إله الماء و إله الجبل و إله الباب و إله المطبخ و غير ذلك حتي لكل الأعضاء الداخلية للإنسان إله خاص مثل إله القلب و إله العين و إله المغ و إله الكبد و يؤمنون بأن الآلهة تحكم العالم فلو كان الناس صالحين تحفظهم الألهة من الخارج والداخل وإن كانوا فاسقين تؤذيهم ومن ثم لو طبق الإنسان "داو" كمنهج حياته لا تؤذيه هذه الألهة .

[وإنما الحكماء لا يؤذون الناس]:
إن الحكماء هم الذين فنوا في "داو" و اتحدوا بالطبيعة وسلكوا طريق "داو" فهم يسالمون العالم ولا يؤدون أحدا .

[فتجتمع الفضائل عليهم] :
يجتمع نفع فضائل الألهة بنفع فضائل الحكماء و يرجع النفع كله إلي الناس فهم ينغمسون في الأنعم التي تفضل بها عليهم الآلهة والحكماء .

---

[٣٩٦] انظر < شرح وان بي > ، ص:٢٧٦.

الفصل الواحد والستون   الخضوع

إن البلد الكبير كالمجارى السفلي للأنهار و كالأنثي للعالم و يكون مجمع الأمم . إن الأنوثية تتغلب علي الذكورية بالسكون لأنها هادئة ومتواضعة ومن ثم إذا تواضع البلد الكبير للبلد الصغير يجلب البلد الصغير وإذا تواضع البلد الصغير أمام البلد الكبير يرضى عنه الكبير ولذلك بالتواضع يجلب أو بالتواضع يرضى.

إن البلد الكبير لا يريد أكثر من حفظ الناس وأن البلد الصغير لا يريد أكثر من خدمة الناس فكلاهما وجد ما يبتغى ولكن ينبغى على البلد الكبير أن يتواضع

الشرح:

[إن البلد الكبير .... ومجمع الأمم]:

الماء يجري من المكان المرتفع إلي المكان المنخفض و المجاري السفلي تقع في أسفل الأماكن . و الانخفاض عند القدماء كناية عن التواضع كخفض جناح الذلة . فالبلد الكبير يجب أن يتواضع للبلدان الصغيرة ويحترم حقوقها و يحافظ عليها وحينئذ تتولاه البلاد الصغار وتجتمع حوله الأمم كما تجتمع المياه في المجاري السفلي من كل حدب و صوب .

[إن الأنوثية تتغلب على الذكورية بالسكون]:

العناصر الأنوثية عادة تتغلب علي العناصر الذكورية كما أن المرأة تتغلب علي الرجل و ذلك ليس من غلبة القوة الجسمانية وإنما بالقوة المعنوية مثل الهدوء و التواضع و الحنان و الرحمة و اللين و غيرها كما شرح "خه شان قون" : إن المرأة تغلب الرجل بسبب هدوءها ولطفها وأنها لا تسبقه في كل شيء [٣٩٧] .

[ولذلك بالتواضع يجلب أو بالتواضع يرضي]:

إن البلد الكبير بتواضعه يجلب موالاة البلدان الصغار و احترامها و أن البلد الصغير بتواضعه يجلب رضا البلدان الكبيرة و معاونتها .

وشرح "خه شان قون" : إنما وجد كل واحد مطلوبه بالتواضع [٣٩٨].

[و كلاهما وجد ما يبتغى] :

---

[397] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٣٨.

[398] < شرح ولن بي > ، ولن بي ، ص:٣٧٦.

الغاية الأسمي لتأسيس الحكومة هي المحافظة علي حقوق الناس وحفظ أموالهم وأنفسهم كما من واجبات الحكومة خدمة الناس ومساعدتهم وكان هذا هدفا لكل بلد سواء كان كبيرا أم صغيرا . فلو توثقت العلاقة بين البلد الصغير والكبير علي أساس التواضع من الجانبين لاستفاد كل واحد من هذه الموالاة بوجه من الوجوه حيث أن الكبير حفظ البلد الصغير وسلم البلد الصغير من السقوط وبذلك خدم البلد الصغير للكبير كما خدم لشعبه كذلك وحينئذ حقّق كل واحد هدفه الذي لأجله أسّست الحكومة وهو حفظ الناس وخدمة العوام .

إن النص وضع أصولا لعلاقة خارجية بين البلدان و يتصوّر لوتس أن العلاقة الدولية يجب أن تقوم علي أساس التواضع و الإحترام وأكد لوتس ضرورة تواضع البلد الكبير للبلدان الصغيرة لأنه بالتواضع يلجأ البلد الصغير إلي البلد الكبير فتزداد القوة علي القوة و بالتواضع يسلم البلد الصغير من أيدي البلدان الطاغية . ولعل هذه الصورة من العلاقة الدولية لا تزال مطلوبة إلي يومنا هذا بل في حاجة أمسّ و يجب أن تقوم العلاقات الدولية علي هذا الأساس .

إن "داو" رب الكائنات وخزنة الصالحين و مخبؤ الطالحين . إن حسن الكلام يجلب الاحترام وحسن السلوك يرفع الإنسان و لِمَ يُعطّل الإنسان إذا كان طالحا ؟
ومن ثم عند وقت تأجيج الملك و تعيين الوزراء الثلاثة تعرض اللوحة من الأحجار الكريمة ثم يعقبه إهداء أربعة خيول . و هذا في الحقيقة ليس بأفضل من النصيحة ب"داو".
إن الناس فى القديم يعظمون "داو" . لماذا ؟ ألا يقال: إن المطالب تتحقق وان الذنوب تغفر ؟ ولذلك يعظمه العالم .[399]

الشرح:

[إن "داو" رب الكائنات]:

هكذا جاءت العبارة في أقدم النسخ[400] و جاء في بعض النسخ بعبارة أخري و هي : إن "داو" سر الكائنات فشرح "خه شان قون" بأن "داو" خزنة الكائنات [401] وشرح "وان بي" بأنه ملجؤ الكائنات[402].

[وخزنة الصالحين و مخبؤ الطالحين]:

إن "داو" خزنة الأسرار و الحكم فالصالحون يستمدون منه الحكم و المعارف و يستفيدون منه في سبيل الخير و أما الطالحون فيتخذونه شعارا و يحتمون تحته للمؤامرة و الفساد . قال "خه شان قون" : إن الصالحين يتخذون "داو" شيئا عزيزا لنفسه فلا يخالفه وأن الطالحين يتخذونه محمي لأنفسهم وإذا وقعوا في الشدائد و المشقات يتوبون [403].

---

399 صرّح النص بربوبية "داو" كما يقرّ بكونه مجيب الدعوات وغافر الذنوب وقد نستدل بهذا علي أن من معاني "داو" عند لوتس معني الإله و رب العالمين . ثم يقول النص بأن الناس يؤمنون ب"داو" لأغراض مختلفة فكان الصالحون يؤمنون به لكي يترقوا في مدارج السلوك ومكارم الأخلاق ولكن الطالحين يتخذونه شعارا وجنّة لأغراضهم الخسيسة .

ويري لوتس أن خير ما يهدي إلي الناس لمنافعهم هو النصيحة ب"داو" ، إذ هو يهدي الناس إلي طريق النجاح والسعادة .

والإنسان لا يخلو من الأخطاء وقد يتحول من السوء إلي الصلاح وقد يتحسن بالتأديب والرياضة فلا ينبغي أن يطرد أحد من المجتمع بل يجب أن ينصح ب"داو" و يصلح به.

400 انظر < دراسة داو ده جين > ص:٣٣٣.
401 انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٤١.
402 انظر < شرح وان بي > ، ص:٣٧٧.
403 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٤١.

قيل إن الصالحين يجلّون "داو" و لا ينصرفون عنه و أما الطالحون فهم يعتمدون عليه من أجل حفظ أنفسهم[٤٠٤] .

[و لمَ يُعطّل الإنسان إذا كان طالحا ؟]:

الطالح لا بد أن ينصح ويصلح ب"داو" ولعله يفيد المجتمع في وجه من الوجوه إذا صلح فلا ينبغي أن يخرج من المجتمع كما شرح "خه شان قون" بأن الإنسان إذا كان طالحا ينبغي أن يصلح ب"داو" [٤٠٥].

[ومن ثم عند وقت تأجيج الملك و تعيين الوزراء الثلاثة...]:

وجرت العادة في البلاط القديم أن الملك عندما يتوجّ يقام مهرجان كبير لتلك المناسبة وفي المهرجان تقدم إليه لوحة من الحجر الكريم كعلامة السلطة ثم تهدي إليه عربة يجرها أربعة خيول و كان مثل هذا المهرجان يقام عند تعيين الوزراء. ولعل الوزراء لكل الملك كانوا ثلاثة في الزمن القديم .

[هذا في الحقيقة ليس بأفضل من النصيحة ب"داو"]:

تقديم الهدية من الأحجار الكريمة والعربة لايكون أفضل لهم من النصيحة ب"داو" كهدية لهم .و"داو" هنا يراد به قوانين "داو" وأحكامه أو الدين فإن فيه نفعا لهم وأفضل من الأشياء المادية لإدارة شؤون البلد .

[ألا يقال: إن المطالب تتحقق وان الذنوب تغفر ؟]:

إن الناس كانوا في القديم يعظمون "داو" و يجلّونه لأنهم كانوا يعرفون أن "داو" يحقّق لهم كل مطالبهم و يغفر كل ذنوبهم و لذلك يعظمون "داو" .

وإن النص يثبت أن "داو" عند لوتس هو رب الكائنات والإله الغفار كما أنه يحقّق آمال الناس ويغفر ذنوبهم وهكذا يعتقد لوتس و القدماء قبله .

---

[404] انظر < دراسة داو ده جين > ص:٣٣٣.

[405] انظر < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٤١.

(علي الإنسان) أن يقوم بعمل من أجل عدم الفعل وأن يشتغل دون الشغل وأن يتمتع بما لا طعم فيه و أن يعتبر الكبير صغيرا والكثير قليلا و أن يقابل العداوة بالفضيلة وأن يتغلب علي الصعوبات عند سهولتها و يصنع الكبير من صغره فإن الصعوبة فى العالم تبدأ من السهولة كما أن الأمر العظيم يبدأ من البسيط.

ولذلك كان الحكماء لا يطمعون في الكبير ولكن يحصل لهم الكبير . و من ثم إهانة الموعد تؤدي إلي قلة الأمانة وبقدر كثرة الإستهانة تكثر الصعوبة.

ولذلك كان الحكماء يعتبرون كل الصعوبة صعوبة فلم تكن لهم قط صعوبة.[٤٠٦]

الشرح:

[أن يقوم بعمل من أجل عدم الفعل] :

يشير النص إلي أن عدم الفعل ليس انقطاعا عن الأعمال والأفعال بل هو نفسه يقتضي العمل فعدم الفعل هو نوع من العمل.وشرح "تشين قو يين":أن يعمل بنفسية عدم الفعل [٤٠٧].

شرح " رين جو يو": أن يعتبر عدم الفعل عملا [٤٠٨].

[وأن يشتغل دون الشغل].

شرح "تشين قو يين" : أن يعمل بلا إزعاج الناس.[٤٠٩] و شرح "رين جو يو" : أن يعتبر عدم الشغل شغلا.[٤١٠] وأري أن الشرح الأخير أقرب إلي الصواب .

---

[406] إن النص يعلمنا بعض الفنون والحكم في الحياة و دعا إلي فلسفة العدم . و من فنون الحياة أن يبحث عن الوجود من العدم وأن يبحث عن السعادة من الشقاوة حتي تصبح الحياة العادية متوفرة بالمعاني الرفيعة . ومن فنون الحياة عدم استهانة الشيء الصغير والقليل لأن كل الكبير والكثير ينشؤ من الصغير والقليل فعلي الناس أن يبدؤوا الأمور من الصغير والقليل و يقضوا علي الصعوبات في مهدها كيلا تكبر إلي حد لا يتغلب عليها و من خالف هذه القاعدة يفشل .

وقد أشار النص إلي مبدأ أخلاقي هام لحل النزاع والعداوة بين الناس وذلك هو مقابلة العداوة بالفضيلة ومقابلة السيئة بالحسنة .

[407] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٣٠٧.

[408] "رون جو يو" هو صاحب كتاب < الترجمة الجديدة للوتس > .انظر كتابه .ص:١٩٧.

[409] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٣٠٧.

[410] < الترجمة الجديدة للوتس > ، ص:١٩٧.

[أن يتمتع بما لا طعم فيه] :

شرح " رين جو يو" : أن يعتبر عدم الطعم طعما [٤١١].

قد شرح " وان بي" العبارات السابقة بقوله : علي الناس أن يتمسكوا بعدم الفعل و أن يقوموا بالتربية غير الكلامية و أن يعتبروا العذب طعما ، هذا هو أعلي السياسة[٤١٢] .

وقيل معني هذه العبارات : هو أن يعمل بلا تصنع كما تقتضيه الطبيعة وأن يشتغل بلا إثارة الحوادث بل يتبع الطبيعة وأن يتمتع بالتقشف قناعة بالطبيعة [٤١٣] .

[أن يعتبر الكبير صغيرا والكثيرقليلا]:

بمعني يجب علي الإنسان ألا يصغّر الصغير والقليل لأن الصغير يكبر والقليل يكثر بل إن الكبير برز من الصغير والكثير من القليل . قال أحد العلماء المشهور في القديم : الإنسان يخاف الكبير و يحقر الصغير و يشعر بالصعوبة أمام الكثير و بالسهولة أمام القليل وإنه بما يؤخّر حل الصعوبة و يؤخّر عمل الكبير يفشل دائما و إن الحكيم يسوّي الكبير بالصغير و الكثير بالقليل فيخاف كل الشيء و يستصعب كل شيئ . فحينئذ لا يفشل[٤١٤] .

[ولكن يحصل لهم الكبير]:

الحكماء لا يطمعون في القضايا الكبيرة بل يهتمون بالصغار من الأمور حتي إذا ما أكملوا الأمور الصغيرة واحدة بعد أخري فقد أكملوا شأنا كبيرا لأن الكبير ليس إلا مكونا من الصغائر. وشرح "خه شان قون" : لأنهم متواضعون فيرجع إليهم العالم [٤١٥]فالكبير يراد به العالم.

[إهانة الموعد تؤدي إلي قلة الأمانة]:

من لا يوف وعده تفت ثقته وتضع أمانته . وقال "خه شان قون" : تقلّ أمانته لأنه لا يهتمّ بكلامه. [٤١٦]

---

411 المصدر السابق ، ص: ١٩٧.

412 < شرح وان بي > ، ص:٣٧٨.

413 انظر < دراسة داو ده جين > ص:٣٣٩.

414 انظر المصدر السابق ، ص:٣٣٩.

415 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٤٦.

416 المصدر السابق ، ص:٢٤٦.

يسهل الحفظ عند الأمن ويسهل التخطيط قبل الحدوث ويسهل الحل عند الضعف ويسهل التشتيت عند القلة ويجب العمل قبل الوقت ويجب الإصلاح قبل الفوضى.

إن الشجرة بملئ اليدين نبتت من بذرة صغيرة وأنّ البرج ذا الطبقات التسع ارتفع علي الكومة من التراب وأن القطع لآلاف الأميال يبدأ من الخطوة الأولى .

ومن تصرّف فيه أفسده و من سيطر عليه فاته ولذلك كان الحكماء لا يتصرفون فيه فلا يكون الإفساد وكانوا لا يسيطرون عليها فلا يكون الفوت .إنّ العوام يعملون دائما ولكنهم يفشلون عندما يقتربون من الإكمال ولو كانوا منتبهين منذ البداية لما فشلوا فى النهاية .

وكان الحكماء يريدون ما لا يريده الناس ولا يجلّون ما يصعب المنال ويتعلمون ما لا يتعلمه الناس حتى يقلّبوا ما أحطأ الناس فيه و يساعدون الأشياء في تطورها على الطبيعة ولا يتدخلون فيها.

الشرح:

[يسهل الحفظ عند الأمن] :

الحفاظ علي الشيء متيسر إذا كان في حالة الأمن والسلامة كما أن ازدهار بلد يحصل عندما كان البلد في حالة الأمن .

وشرح " تشين قو يين" بوجه أخر: حالة الأمن يسهل الحفاظ عليها[٤١٧] .

[ويسهل التخطيط قبل الحدوث .... ويجب الإصلاح قبل الفوضى]:

النص متصل بالفصل السابق معنويا ويبيّن أن كلا من الكبير والكثير يبرز من الصغير والقليل كما أن القوي في بدايته كان ضعيفا فكل الأمور يسهل تدبيرها وتسلطها في البداية ويسهل علي الإنسان أن يتصرف فيها إذا عمل تحطيطا قبل العمل.

وهذا يطالب الناس أن يعدّوا أنفسهم وينتبهوا إلي تطور الأمور وإذا تظهر المشاكل يقضوا عليها من بدايتها في مهدها .

---

[417] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٢١١.

[إن الشجرة بملئ اليدين نبتت من بذر صغير]:
الشجرة التي لم تسع اليدان إحاطتها نبتت من البذرة الصغيرة كما أن البرج الشاهق إرتفع علي أساس ضئيل و هو كومة من التراب وهذا كناية عن أن الأمور لا بد أن تبدأ من عمل بسيط ولا ينبغي للإنسان أن يحتقر أشياء صغيرة أو قليلة الشأن .
النص يؤكد حقيقة أن الوقاية خير من العلاج و أن الصغير أصل الكبير و أن العلو يقوم علي أساس الخفض وأن العزة تترتب علي الذلة .
فيجب علي الإنسان أن يبدأ كل العمل من الصغير و البسيط ولا يتجاوز إلي الخطوة الثانية دون إكمال الخطوة الأولي و يهتم بكل خطوة و بكل صغيرة و يعتبر كل خطوة أساسا حاسما للأمر العظيم فمن غفل عن الصغير فاته الكبير. وإن عامة الناس يقعوا دائما في هذه الأخطاء بينما الحكماء عرفوا هذه الحقيقة فيبتعدون عنها ولذلك لا يفشلون .

[وأن القطع لآلاف الأميال يبدأ من الخطوة الأولى]:
إن السفر مهما كان بعده لا بد أن يبدأ من الخطوة الأولي . و هذه العبارة صارت قولا مؤثورا لدي الصينيين للتعبير عن أن القضايا ذات الشأن العظيم تبدأ من الأمور البسيطة و أن المشروع الكبير يبدأ من العمل البسيط.

[ومن تصرّف فيه أفسده و من سيطر عليه فاته]:
هذا النص قد جاء في الفصل التاسع والعشرين ويتكرر هنا وقد شرحناه ويري أكثر العلماء أن النص وضع خطأ في هذا المكان لأنه لا يناسب السياق والسباق .
وعلي كل حال فإن معناه أن العالم شيء مقدس لا ينبغي أن يتصرف فيه الإنسان كما يشاء فلو تصرف فيه بهواه فقد أفسده .

[وكان الحكماء يريدون ما لا يريده الناس]:
الحكماء يختلفون عن بقية الخلق .
شرح "خه شان قون" بأن الناس يريدون الشهرة بينما أصحاب "داو" يريدون الخفاء و أن الناس يريدون التصنع بينما أصحاب "داو" يريدون الصدق وأن الناس يريدون جمال النسوة بينما أصحاب "داو" يريدون جمال الخلق[٤١٨] .
وشرح "رين جو يو" : إرادة الحكماء هي عدم الإرادة [٤١٩] بمعني أنهم لا يريدون شيئا مما يحبه الناس .

---
[418] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٥٠.
[419] < الترجمة الجديدة للوتس > ، ص:٢٠١.

[ويتعلمون ما لا يتعلمه الناس]:

شرح "خه شان قون" بأن الناس يتعلمون الذكاء و الحيل بينما أصحاب "داو" يتعلمون من الطبيعة خصائصها و أن الناس يتعلمون طرق إصلاح البلد بينما أصحاب "داو" يتعلمون طرق إصلاح النفس[420] .

وشرح "زين جو يو" : دراسة الحكماء هي عدم الدراسة [421]. بمعني أنهم لا يدرسون شيئا.

[حتى يقلبوا ما أخطأ الناس فيه]:

إختلف العلماء في ترجمة هذه العبارة فقيل معناه : حتي يبتعدوا عن أخطاء الناس و قيل حتي لا يعيدوا ما أخطأ الناس فيه وقيل معناه حتي يتداركوا ما أخطأوا فيه .

وشرح "خه شان قون" : علوم الناس مقلوبة وذلك أنهم غفلوا عن الأصل وتمسكوا بالفرع وغفلوا عن الحقيقة وتمسكوا بالخيال وأما التقليب فهو أن يقلب ما فعلوه إلي الأصل وإلي الحقيقة .

فترجمت النص حسب رأي "خه شان قون". ومعني النص أن أصحاب "داو" يختلفون عن الناس وهم يقلّبون ما أخطأ فيه الناس إلي الصواب ويعيدون ذلك إلي مكانه الصحيح .

---

420 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٥٠.
421 < الترجمة الجديدة للوتس > ،ص:٢٠١.

إن الذين يحسنون الإشتغال ب"داو" في القديم لا يجعلون الناس بصراء بل يجعلونهم جهلاء وإنما تصعب سيطرة الناس لكثرة ذكائهم ولذلك حكم البلد بالذكاء يساوي السرقة و حكم البلد بلا ذكاء يجلب السعادة . والمعرفة بهذين تكون أصلا من أصول الحكم. ودوام المعرفة بهذاالأصل يقال له الفضيلة السرية

يا لعمقها ،الفضيلة السرية . ويا لبعدها وإنها تخالف الكائنات ولكنها في النهاية تؤدي إلى الطاعة الكبري.[٤٢٢]

الشرح:

[لا يجعلون الناس بصراء بل يجعلونهم جهلاء]:

من ظاهر النص أن لوتس يريد أن يجعل الناس جهلاء حتي يخضعوا لسيطرة البصراء الأذكياء و يستسلمون لهم ولكن أكثر العلماء المتأخرين عارضوا هذا الرأي و قالوا بأن لوتس لا يريد تجهيل الناس بل يريد منهم العودة إلي فطرتهم البسيطة لأن الجهلاء هنا يراد بهم البسطاء الأصفياء الذين هم علي أصل فطرتهم . وأما البصراء هنا فيراد بهم الأذكياء و الذكاء عند لوتس يرادف الخدعة و الحيلة و التصنع فالأذكياء هم المؤامرون علي تعبير لوتس فمعني النص يكون : أصحاب "داو" لا يجعلون الناس متحايلين بل يجعلونهم صادقين. .

---

[422] لا ينبغي لنا أن نفهم النص من ظاهره علي أنه يدعو إلي الجاهلية والجهل لأن الجهل عند لوتس لم يقصد به الخلو من العلم بل يعبّر عن الصفاء والبساطة والصدق وغير ذلك من الخصائص الفطرية للإنسان لأن الطفل وإن كان جاهلا كان علي فطرة تامة فهو متصف بجميع تلك الأوصاف . وبناء علي هذا فإن النص يدعو إلي بعض الأخلاق الفاضلة وهي العودة إلي الصفات الفطرية من الصدق والبساطة . وكان لوتس يعارض معارضة شديدة استعمال الخدعة والحيل في السياسة حتي يعتبر ذلك من أعمال السراق بل أشد من ذلك ضررا علي الشعب .

ويشير النص إلي أن الغاية من الاشتغال ب"داو" و اكتساب الفضيلة كانت حصولا علي حالة الطاعة الكبري وهي فيما أري طاعة مطلقة ل"داو" .

[تصعب سيطرة الناس لكثرة ذكائهم]:

كما سبق الذكر أن الذكاء لا يراد به الفطانة في وجه الخير و إنما يراد به الحيل في وجه الشر . فلو يستخدم كل واحد ذكاءه و يخدع به الآخرين لتعسّرت السيطرة عليهم حتي يعجز الحكام عنهم لأنهم يتجاوزون الحدود و يجدون بذكائهم مخرجا لهم في ذلك.

وقال "خه شان قون" : ذلك لكثرة ذكائهم وكثرة الخدع وكثرة الأباطيل لديهم [٤٢٣].

[والمعرفة بهذين تكون أصلا من أصول الحكم] :

كلمة "هذين" تشير إلي أن " حكم البلد بالذكاء يساوي السرقة و حكم البلد بلا ذكاء يجلب السعادة ". و معرفة هذه الحقيقة هي أصل من أصول الحكم .

[يا لعمقها ،الفضيلة السرية ويا لبعدها]:

من يعرف أصول الحكم فقد امتلك بالفضيلة السرية . و إن الفضيلة السرية خفية و عميقة و بعيدة الغور و إنها أعمق من أن تفهم أو تدرك من الظاهر .

وشرح "خه شان قون" بأن صاحب الفضيلة السرية عميق الفكر و بعيد النظر حتي لا يعرف مداه [٤٢٤].

[ولكنها في النهاية تعود إلى الطاعة الكبري]:

كثير من العلماء شرح الطاعة الكبري بأنها موافقة الطبيعة بمعني أن الفضيلة السرية تخالف الكائنات في الظاهر ولكنها توافق الطبيعة في الخفاء.

و أري أن "خه شان قون" قد شرح هذا النص بشكل مقبول إذ قال إن صاحب الفصيلة السرية أعمق من أن يعرف و أبعد من أن يدرك و أن صاحب الفضيلة السرية يخالف الأخرين إذ أن الأخرين يريدون نفع أنفسهم بينما صاحب الفضيلة السرية يريد نفع غيره و لذلك أداه ذلك إلي الطاعة الكبري أي الطاعة للحقيقة السماوية .

وإني أشعر بأن الطاعة الكبري عند لوتس يراد بها الطاعة المطلقة ل"داو" وأن هذه الطاعة هي غاية للرياضة الروحية عند لوتس كما أنه قد جعل ذلك هدفا أعلي لمن يشتغل ب"داو".

---

[٤٢٣] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٥٥.

[٤٢٤] المصدر السابق ، ص:٢٥٥.

إنما البحر سيد لجميع الأنهار لأنه يقع فى منخفض الأرض ومن ثم يصير سيد الأنهار إن الحكماء لما أرادوا أن يستعلوا على الناس يتواضعون لهم باللسان ولما أرادوا أن يتقدموا على الناس يتخلفون أولا . ومن ثم لما يرأس الحكماء فى الأعلى لا يشعر الناس بثقلهم في الأسفل ولما يقفون فى الأمام لا يشعر الناس بالضرر منهم فالعالم لا يملّ من الطاعة لهم وإنهم لا ينافسون فلا ينافسهم أحد فى العالم.

الشرح :

[إنما البحر سيد لجميع الأنهار]:

إن البحر يكون مجمع الأنهار و مرجعها و ذلك أن البحر يقع في الأرض المنخفض و ترجع إليه الأنهار . والعبارة كناية عن رجوع الشعب إلي الملك إذا كان متواضعا كما شرح "خه شان قون" : إن البحر يقع في المنخفضات فترجع إليه الأنهار فكذلك سيد القوم ، إذا كان متواضعا يلجأ إليه الشعب "[425].

[إن الحكماء .... يتخلفون أولا]:

لما أرادوا أن يسيطروا علي الناس و يكونوا قادة أو حكاما لهم يظهرون التواضع و الرفقة أولا لكي لا يحس الناس منهم بالتكبر و القسوة .

[ومن ثم لما يرأس الحكماء فى الأعلى لا يشعر الناس بثقلهم في الأسفل]:

لما يحكمون البلد لا يكلفون الناس بشيئ ثقيل عليهم بل يتركونهم علي ما ترضي عنه طبائعهم حتي لا يشعر الناس بوجودهم ولا سيما بالضرر و الحرج كما شرح "خه شان قون" : إذا كان الحكماء يرأسون علي الشعب لا يجلّون الأعزاء ولا يحقرون الأذلاء ولذلك يحبهم الشعب ولايعتبرونهم ثقلا عليهم "[426].

يبين النص أن الحكماء القدامي لم يحكموا البلاد بالقوانين بل كانوا يحكمونها بالأخلاق الكريمة و بفضل ذلك تنتظم شؤون البلاد وترتاح نفوس العوام . و يدعو النص هنا إلي بعض المكارم التي تحلي بها الحكماء والتي حكموا بها البلاد مثل الرحمة و الرفقة و عدم المنازعة و قد ضرب فيهم مثلا بالبحر ومن المعروف أن أهم خصائص

---

[425] المصدر السابق ، ص:٢٥٨.

[426] المصدر السابق ، ص:٢٥٩.

البحر هو الوقوع في أسفل الأرض و هذه السفلية سر رجوع الأنهار إليه و أما السفلية في شخصية الإنسان فإنما تظهر في صورة التواضع فالتواضع هو سر ما نجح به الحكماء في حكم البلاد وإرضاء الشعب .فكان لوتس يطلب من الحكام أن يكونوا كالبحر عمقا و رحابة حتي يقبلوا برحابة الصدر و طيبة النفس كل من يلجأ إليهم . وهذا يوافق ما جاء به القرآن العظيم في شأن نبي الله المصطفي : فبما رحمة من الله لنت لهم و لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك(آل عمران :١٥٩) .

١

يقول لي الناس إنّ "داو" عظيم و لا مثيل له ولكونه عظيما لا يشبه شيئا حتى إذا ما أشبه شيئا لبقي ضئيلا..
إن لي ثلاثة ذخائر أتمسك بها و أحافظ عليها :الأولي رحمة ،والثانية تقشف و الثالثة عدم التقدم علي العالم .إن الرحمة تؤدى إلى الشجاعة وأن التقشف يؤدى إلى الوسعة وأن عدم تقدم علي العالم يؤدى إلى الرئاسة علي الكائنات ولكن الناس اليوم يتركون الرحمة لأجل الشجاعة ويتركون التقشف لأجل الوسعة ويتركون التخلف لأجل التقدم . وذلك هلاك. وبالرحمة تغلب الحرب وبها يتمكن الدفاع وإذا أراد الإله أن ينقذ أحدا أحاطه بالرحمة.[٤٢٧]

الشرح :
[فلا يشبه شيئا حتى إذا ما أشبه شيئا لبقي ضئيلا]:
يعتقدالناس أن "داو" لا يشبه شيئا في الأرض و لا في السماء و ليس له شريك و لا مثيل لأن الأشياء محدودة بينما "داو" غير محدود" و لو كان يشبه شيئا لكان محدودا كسائر الأشياء ولكن "داو" غير ذلك و كأن النص يعيد الأية القرآنية : ليس كمثله شيء .

[و الثالثة عدم التقدم إلي العالم]:
الذخيرة الثالثة هي عدم التقدم أمام الناس أو عدم تقديم المصالح الشخصية علي المصالح العامة أو عدم التنازع بالرياسة .

[427] إن النص مع قصره تناول قضية مهمة في العقيدة كما بيّن حكمة مهمة من تجارب الحياة فمن ناحية العقيدة أكّد النص وحدانية "داو" بأنه عظيم ولا مثيل له و لا شريك و يخالف جميع الكائنات وقد نزّهه النص من التشبيه و التمثيل ومن كل الشوائب المادية وواضح أن "داو" هنا عبر عن معنى الإله الواحد .
ومن ناحية حكمة الحياة قدمّ لنا لوتس ثلاثة كنوز من تجاربه الواقعية وهي الرحمة و التقشف و عدم تجاوز العالم ، وإن هذه المبادئ الثلاثة تظهر في الناس بصورة الأخلاق الحميدة و تأتي في الباطن بالنتائج المفيدة لصاحبها نفسه وهي الشجاعة و السعة و الرياسة وبيّن لوتس أن هذه المنافع ينبغي أن يحصل عليها بواسطة تلك الذخائر وهي في الحقيقة فضائل ثلاثة وإلا فكانت العاقبة هلاكا .
وإن الرحمة ليست خلقا عظيما في الناس فحسب بل هي فضل من الإله و يري لوتس أن صفة الرحمة علامة مباركة للشخص لأن الإله إذا أراد أن ينقذ أحدا أحاطه بالرحمة . ولعل الإله هنا يراد به "داو" مع أننا لم نر لوتس في أي مكان قد عبّر عن "داو" بالإله ولعل عبّر هنا بذلك حسب التصور المألوف لدي العوام .

[إن الرحمة تؤدى إلى الشجاعة]:

الرجل الرحيم يغلب الناس برحمته فهو قوي و شجاع من هذا الباب كما قال أحد مؤسسي المدرسة الكنفوشيوسية : لا مثيل لأهل الرحمة[428] .

وقيل الشجاعة هي شجاعة علي التواضع وشجاعة علي الدفاع لا شجاعة علي المنازعة والهجوم [429].

[وأن التقشف يؤدى إلى الوسعة]:

من يقتصد في الحياة وسعت له الأسباب و شرح "خه شان قون" بأن الملك إذا يقتصد في صرف الأموال لتوفرت ثروات الحياة للناس[430] .

[وبالرحمة تغلب الحرب وبها يتمكن الدفاع]:

شرح "خه شان قون" : إن صاحب الرحمة يحبه الشعب وتهوي إليه القلوب ولذلك إذا دخل في معركة القتال هزم العدو وإذا دافع عن نفسه كان دفاعه قويا مُحكما [431] .

[ذلك هلاك]:

إن الشجاعة و الوسعة و الرياسة وغيرها من المعاني الرفيعة هي ما لا ينكره الناس حتي الحكماء و تحبها طبائع الإنسان ويسعي إليها كثير من الناس للحصول عليها ولكنها لا بد أن يحصل بطريقة سليمة و هي أن تطلب الشجاعة بالرحمة و أن تطلب الوسعة بالتقشف وأن تطلب الرياسة بالتخلف . فلو تطلب هذه المعاني بغير الطريقة المذكورة لأدي ذلك إلي هلاك النفوس ولا يأتي إلا بسوء الخاتمة .

---

428 انظر < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٣١٩.

429 انظر المصدر السابق ،ص: ٣١٩.

430 <تفسير خه شان قون > ،ص:٢٦٣.

431 المصدر السابق ، ص:٢٦٣.

من يحسن القيادة لايظهر مهارة المحاربة   ومن يحسن المحاربة لا يغضب ومن يحسن غلب الأعداء لا ينازع ومن يحسن توظيف الناس يتواضع وهذا هو فضيلة عدم النزاع أو قوة التوظيف أوغاية الموافقة للسماء [٤٣٢].

الشرح :

[من يحسن القيادة لايظهر مهارة المحاربة] :

القائد الماهر لا يظهر قوته العسكرية ولا مهارة المحاربة و لا يخوّف الناس بالقوة العسكرية .

شرح "خه شان قون" : من يحسن قيادة الجيش يهتم بالفضائل و لا يعظّم القوة العسكرية[٤٣٣]. والمراد من ذلك أن أحسن قادة الجيش هو من لا يقاتل بالقوة ولا يهزم العدو بالقتل بل يغلبه بالفضائل و الإحسان والحكمة بلا سفك الدماء ولا هلاك النفوس .

[ومن يحسن غلب الأعداء لا ينازع]:

لا يحارب بالقوة العسكرية بل يجعل الأعداء بطريقة أو أخري ينسحبون من المعركة بأنفسهم .

شرح "خه شان قون" : من يغلب الأعداء ب"داو" يعامل الأعداء القريبين بالرحمة و الأعداء البعيدين بالفضائل و لا يحاربهم بالأسلحة فينخضع لهم الأعداء بأنفسهم .

علي كل حال فإن النص لا يشجع إلي القتال ولا إلي سفك الدماء بل يدعو إلي قضاء علي الحرب بلا محاربة . ويقول كتاب قانون الحرب : من أسلوب تخطيط الحرب أنّ حفظ الأعداء يكون أولي بينما تشتيتهم يكون أدني[٤٣٤] .

---

[432] النص عبّر عن موقف لوتس من الحرب وكان لوتس يدعو إلي طريق السلم في حل النزاع ويري أن الصبر والتواضع والصلح وغيره من المواقف أحري أن يؤخذ به و أن خير العاقبة للحرب هو الانتصار بلا قتال ولا هلاك و هذا الطريق موافق لإرادة "داو" و موافق لآمال الشعب كما يري لوتس أن البعد عن الحرب والقتال هو أعلي الفضائل وأفضل المهارة .

[433] المصدر السابق ، ص:٢٦٨.

[434] سو تس :< قانون الحرب > ، ، ص:

من روائع القصص الحربية عند الصينيين أن الرجل في القرن الثالث الميلادي يقال له "جو قه لان"(Zhu Ge Liang) ولا يزال إلي يومنا هذا مضرب المثل في الذكاء و كان مستشارا لأحد ملوك الصين القديمة و ذات مرة كان في إحدي المدن الخالية و معه عدد قليل من رجاله فجاء جيش العدو بعدد هائل فرأي الرجل لوكان يحارب هو ورجاله القلائل مع العدو أو يفر من المدينة ليهلك شر الهلاك و في هذه الحالة الحاسمة أمر رجاله بفتح بوابات المدينة و أمرهم بتنظيف الشوارع خارج البوابات و داخلها و صعد هو نفسه إلي فوق البوابة حاملا آلة الموسيقي فبدأ يعزف كأنه مستعد لإستقبال الضيوف . و لما إقترب جيش العدو إلي المدينة رأوا الحالة علي خلاف العادة بأن البوابات مفتوحة و أن الرجل يعزف بهدوء و ترتيب و إطمأنان وتقدم قائد الجيش يسمع صوت الموسيقي و لم يجد فيه أثر الفزع و الرعب فخاف وظن هنالك مؤامرة خطيرة وراء ذلك فأمر جيشه بالإنسحاب بأسرع ما يمكن فلما انسحب العدو قام الرجل و أمر رجاله بالفرار. و بعد يوم واحد وصل الخبر الصادق إلي العدو بأن المدينة كانت خالية و أن الرجل مع رجاله قد فروا إلي ما لا يمكن إدراكهم .

و هكذا إنتصر "جو قه لان" بذكائه و حيله ولم تهلك النفوس و لم تسفك الدماء . ولعل هذه القصة تفسر النص أكثر وضوحا .

[ومن يحسن توظيف الناس يتواضع]:

من يريد أن يوكل أحداً بشيئ أو يأمر أحدا بشيئ يتواضع له .

التوظيف هنا يراد به استخدام الناس في أمر من الأمور والانتفاع بهم .

[هذا هو فضيلة عدم النزاع وقوة التوظيف]:

كلمة "هذا" تشير إلي الأمور المذكورة في النصوص السابقة ، وقيل تشير إلي التواضع [435] .

[وغاية الموافقة للسماء]:

إن الخصائص المذكورة التي يمتاز بها من يحسن شؤون الحرب توافق متطلبات السير علي المنهج السماوي وقيل أن طريقته توافق الطريقة الطبيعية وشرح "خه شان قون" : من يفعل هذا تشابه فضيلته فضيلة السماء[436] .

---

[435] انظر < دراسة داو ده جين > ص:٣٦٨.

[436] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٦٩.

يقول المثل فى تدبير الحرب : لا أتجرأ علي أن أكون مضيفا بل أكون ضيفا ولا أتجرأ علي التقدم بشبر بل أتخلف ذراعا .
وهذا هو التشكيل بلا صفوف والتهزيز بلا يد والمواجهة بلا عدو و المسك بلا سلاح .
ولا فتنة أكبر من تحقير العدو و بتحقير العدو كادت تفقد ثلاثة ذخائر لي.
ولذلك لما التقي الجمعان المتساويان في العدد ينتصر الجمع الذى يحزن.[٤٣٧]

الشرح:
[لا أتجرأ علي أن أكون مضيفا بل أكون ضيفا]:
إذا دخل رجل في بيت غيره ضيفا يحذر وينتبه حتي لا يسيئ آداب الضيافة فكان الضيف في بيت المضيف يتقيد ويتضيق و يطيع كل ما دبّر له المضيف بينما المضيف علي عكس ذلك فإنه في بيته يفعل ما يشاء حرا وهذا كناية عن أن المضيف حرّ وأما الضيف فهو مضطرّ في أعماله ومعني النص: أريد أن أكون كالضيف مضطرّا إلي لقاء العدو في الحرب ولا أكون كالمضيف حرّا يفعل ما يشاء في شأن الحرب وبعبارة أخري لا أريد أن أكون أول من يهاجم علي العدو بل أنتظر حتي يهجم عليّ . وشرح "تشين قو يين" هذا النص بقوله :" لا أتجرأ علي الهجوم بل أتّخذ موقف الدفاع" [٤٣٨] . و شرحه "قاو دين يي" :"لا أتجرأ علي إثارة الحرب بل أكون مضطرّا إلي مواجهة العدو "[٤٣٩].

[وهذا هو التشكيل بلا صفوف] :
ومن المعروف أن الحرب تنتصر بحسن التدبير حيث يكون هناك خطة كاملة للهجوم والدفاع و يكون الجيش قد شكّل بصورة مناسبة إما في الصفوف أو في الجماعات وغالبا إذا وقف الجمعان وجها بوجه في الصفوف يعنون بذلك استعدادا للقتل والمحاربة . ولكن القائد الماهر لا يدبر الحرب علي الطريقة المألوفة بل يحاول أن يبتعد عن القتال في الصفوف وجها بوجه بل يقوي الدفاع و ينسحب للضرورة فعدم الهجوم و الانسحاب

---

437 يعيد النص موقف لوتس من الحرب و يدل بصورة واضحة علي أنه يعارض الحرب و القتال وحذر الحكام ألا يخوضوا في الحرب إلا إذا أضطروا إليها ويجب الابتعاد عنها بكل الطرق حتي إذا خاضوا فيها يجب عليهم أن يلتزموا بالذخائر الثلاثة وهي الرحمة و التقشف (عدم الغلو في القتل) و عدم التقدم علي العالم (عدم التقدم إلي الحرب و القتل) ولا يفرحوا بالقتل والانتصار .

٤٣٨ < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٣٢٤.
٤٣٩ < دراسة داو ده جين > ، ص:٢٧٣.

من المعركة ليس فرارا من المعركة بل هو جزء من تخطيط الحرب و هو في الظاهر لا يري التنظيم الشكلي للهجوم ولكنه في الحقيقة نوع من التشكيل لمواجهة العدو . قال "خه شان قون" : إنه يريد أن يهزم العدو ولكنه لا يشكل الجيش في الصفوف [440].

[والتهزيز بلا يد... المسك بلا سلاح]:

من عادة الناس أن يهزّز يده عندما يغضب و لكن القائد الماهر لا تحمله نفسه إلي الغضب أيا ما كان حتي إذا أراد تهزيز يده من الغضب لم يجد لذلك سبيلا لغاية الحذر كأنه لم تكن له يد[441] . و قيل معناه حتي إذا أراد تهزيز يده للمحاربة لم يسعه ذلك .

وعلي كل حال فمعني النص أنه من يحسن تخطيط الحرب لا يتجرأ علي الهجوم ولا يحمله الغضب إلي فقدان عقله حتي إذا غضب و أراد تهزيز يده لم يتيسر له فلا يبدأ الهجوم كأنه لم يوجد أمامه العدو ولا يبادر إلي المقاتلة كأنه لا يمسك سلاحا .

ويشير كل هذا إلي أن الحرب لا يحمد عقباها بحيث تسفك الدماء و تهلك النفوس فلا بد من الإبتعاد عنه بقدر الإمكان وقد شرح "خه شان قون" قائلا : لو قاتل قوم غضب عليهم الإله فيعاقبهم عقاب سلطان جائر [442].

[و بتحقير العدو كادت أن تفقد ثلاثة ذخائر لى]:

قد سبق الذكر في الفصل السابع والستين أن الذخائر الثلاثة التي يتمسك بها لوتس هي الرحمة و التقشف وعدم التقدم علي العالم . و كان من متطلبات هذه الذخائر أن يحافظ الناس علي الأمن و السلام و حسن المعاملة و لكن هذه المعاني الرفيعة تضيع بتحقير العدو لأن تحقير العدو يؤدي إلي شن الحروب و سفك الدماء وهلاك النفوس مما يخالف الذخائر .

[ولذلك لما إلتقي الجمعان المتساويان في العدد ينتصر الجمع الذى يحزن]:

وإذا إلتقي الجمعان و كان عددهما متساويا فالفريق الذي يحزن من عقبي الحرب و لا يتجرأ علي الهجوم ينتصر علي الفريق الذي يتكبر و يطمع في القتل والهجوم وقيل إن السبب في ذلك أن الذي يحزن كان مظلوما فيدافع عن نفسه بكل جرأة وقوة ومن ثم ينتصر. [443]

---

440 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٧١.
441 < دراسة دلو ده جين > ص:٣٧١.
442 < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٧١.
443 انظر < دراسة دلو ده جين > ص:٣٧٣.

إن كلامى فى غاية السهولة للفهم وفى غاية السهولة للعمل و لكن لا يفهمه أحد فى العالم و لا يعمل به أحد.

إن الكلام له أصل وأن العمل له سيد ولكن لسبب الجهل لا يعرفنى أحد . قلّ من يعرفنى وندر من يتبعنى وإن الحكماء يلبسون ثوبا خشنا ولكن فى حضنهم حجر كريم[444]

الشرح :

[إن الكلام له الأصل وأن العمل له سيد]:

شرح "خه شان قون" : إن الكلام الذي قلته كان له أصل إذ هو من الأجداد و أفرق بين الطاعة للسيد في الأعلي وللرعية في الإسفل [445].

وقيل أن الأصل و السيد كلاهما يراد الرب و هو "داو" و يعني أن تعاليم الحكماء مهما كثرت فإنها لا تخرج من دائرة "داو" و لذلك يسهل الفهم و يسهل التطبيق.

و أري معني النص يكون : أن الكلام الذي قاله لوتس ليس من عند نفسه بل جاء من مصدر آخر و قد يكون ذلك المصدر هو "داو" و أن العمل الذي يقوم به لوتس ليس عملا لنفسه بل

---

[444] يبدو لي من قراءة هذا النص أن لوتس كان صاحبَ المهمة العظيمة والرسالة العالية وكانت رسالته لم تكن ناشئة من مسؤوليته الوجدانية بل قائمة علي أصل عظيم ولعل ذلك هو "داو" أو الإله . ويتضح من هذا أن لوتس بصورة ما قد اتصل بالإله وربما حصل ذلك بواسطة تعاليم الأنبياء السابقين . والمهم أن لوتس له صلة بالإله .

بناء علي هذا يبدو لي أن دعوة لوتس كانت قائمة علي الوحي الإلهي وإن لم يكن الوحي علي نفسه بل بواسطة الوراثة من الأنبياء وعلي الأقل لا نشك في أن تعاليمه تتضمن جزءا كبيرا من بقايا الرسالة السابقة. ولولا قال لوتس نفسه في أماكن أخري بأنه لم يعرف اسم الإله وأن "داو" لا يتكلم مع أحد لحكمنا عليه بالنبوة بناء علي هذا النص .

وقد طال النزاع بين العلماء المسلمين بالصين في شأن نبوة لوتس فيقرّ بعضهم بنبوته و يكذبها الأكثر كما هناك من لا يصدق نبوته و لا يكذبها من باب الاحتياط ما لم ينص عليه القرآن .

ولا ننكر أن حال لوتس لم تكن بعيدة عن أحوال الأنبياء إذ هو غريب و مهجور في قومه و ولا يتبعه إلا قليل من الناس و لا يفهمه إلا نادر بل ينكره أكثر الناس لجهلهم و عنادهم . وهذا يذكرنا صورة دعوة نبي الله نوح عليه السلام إذ قال :" رب إني دعوت قومي ليلا و نهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا " (سورة نوح :٦) .

[445] < دراسة داو ده جين > ص:٣٧٥.

هو من أجل سيده ولعله يريد بذلك "داو" كما شرح "وان بي" بأن الأصل يعني أصل الكائنات والسيد يعني سيد الكائنات[٤٤٦] ومن المعروف أن كلاهما يراد به "داو" .

[قلّ من يعرفني وندر من يتبعني]:
شرح "خه شان قون" : لا أحد يعرفه ما لم يتوصل إلي "داو"[٤٤٧] .
و معني ذلك أن كلام لوتس و أفعاله و سلوكه كله يوافق "داو " فمن لم يعرف "داو" لم يعرف حقيقة أفعال لوتس .

[ولكن في حضنهم حجر كريم]:
إن الحكماء لا يميزون أنفسهم من بقية الخلق في الظاهر بل يعيشون بتقشفهم حياة الفقراء في الثوب الخشن و لكنهم في الباطن يملكون الحق .

[446] انظر < شرح وان بي > ص:٣٨٢.
[447] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٧٥.

العلم بجهل نفسه شرف والجهل عن جهل نفسه مرض . إنّ الحكماء لا يصيبهم المرض لأنهم يعتبرون المرض مرضا وبما أنّهم يعتبرون المرض مرضا لا يصيبهم المرض

الشرح :

[العلم بجهل نفسه شرف والجهل عن جهل نفسه مرض]:

من يعترف بجهله فهو شريف و من كان جاهلا بل يدعي العلم فهو مريض مرضا نفسيا و أخلاقيا ؛ و قيل معناه أنه من يعلم ثم يقول لا أعلم فهو شريف ومن لا يعلم ثم يدعي العلم فهو مريض كما شرح "خه شان قون" : العلم مع الدعاية بالجهل شرف الأخلاق بينما الجهل مع الدعاية بالعلم مرض الأخلاق[٤٤٨].

شرح بعض العلماء بأن "داو" غيرمدرك بالحواس ولا معلوم فلايوصف بالكلام ولكن من عرفه بوجدانه ثم يقول لاأعلم فهوعالم شريف ومن لم يعرفه ويتكلم عنه فهو جاهل مريض[٤٤٩]

[إنّ الحكماء لا يصيبهم المرض]:

ذلك أنهم إذا عرفوا شيئا لا يزعمون ذلك بل لا يزالون يقولون: لا نعلم و إذا جهلوا شيئا اعترفوا بجهلهم . واعتبر لوتس الادعاء بالعلم مع الجهل به مرضا.

والنص يدعو إلي التواضع و الصدق في العلم بألا يدعي العلم حتي إذا علم ولا سيما عند الجهل . ويري لوتس أن الصدق في العلم شرف لصاحبه بينما الادعاء بالعلم يؤدي إلي الفساد و المرض الأخلاقي . و كان العلم عند كونفوشيوس علي نوعين : علم إذا علم شيئا و النوع الأخر هو قول ب "لاأعلم" إذا جهل كما قال : إذا تعلم قل أعلم و إذا لا تعلم قل لا أعلم و هذا هو العلم .

وعلي كل حال يؤكد النص أن الصدق و الأمانة هما من أهم الخصائص التي يمتاز بها علماء الحق وأن العلماء هم من يعلمون ويعترفون بجهلهم إذا جهلوا . .

---

448 المصدر السابق ، ص: ٢٧٧.

449 أنظر < دراسة داو ده جين >، ص:٣٧٧.

لو كان الشعب لا يخاف التخويف فسينزل عليهم بلاء عظيم. ولا ينبغي أن يضيق سكناهم ولا تضغط حياتهم فإذا لم يضغط عليهم لم يشعروا بالضيق وإن الحكماء يعلمون ولا يدعون بالبصيرة ويحبون أنفسهم ولكن لا يعتزون بها ولذلك يأخذون هذا و يتركون ذاك.[450]

الشرح :

[لو كان الشعب لا يخاف التخويف فسينزل عليهم بلاء عظيم]:

التخويف يراد به تخويف الحكام ومعني النص : ينبغي للشعب أن يحترم قوانين الدولة و يحافظوا علي حدودها ويبتعدوا عن نزول العقوبات فلو سقط منهم حوف للعقوبات ورهبة للسلطة ليأتهم البأس الشديد .

أو معناه : لا ينبغي للحكام أن يشددوا علي الناس ولا يضغطوهم حتي لا يضطروا إلي إهانة الحياة فلا يبالوا بالبأس ولا بالسلطة ويقومون بالثورة ضد الحكام و حينئذ ينزل البلاء العظيم علي الشعب و الحكام علي السواء .

وشرح "خه شان قون" : التخويف يراد به البلاء وإذا لا يخاف الناس بلاء صغيرا ليأتهم بلاء كبير والبلاء الكبير هو الموت [451] .

[ولا ينبغي أن يضيق سكناهم]:

من طبيعة الناس حب الحياة و الحرية و هذا من حقوق الإنسان و لكن إذا سلبت من الناس حقوقهم الأساسية و لا يترك لهم مجال الحياة فماذا يبالون بعد ذلك و الثورة تكون أنسب الطرق لمواجهة الظلم .

---

[450] أشار النص إلي أهمية حفظ الحقوق الإنسانية و أهم حقوق الإنسان هو حق الحياة والبقاء وهو أصل الحاجة البشرية و يترتب عليه أمن الشعب وسلامة الدولة فلو سلب هذا الحق من الناس لما سلم البلد من الفوضي و الثورة لأن الناس لما يئسوا من الحياة لا يخافون شيئا حتي الموت . ولذلك طلب لوتس من الحكام أن يعطوا الناس حرية الحياة و لا يضيقوا معيشتهم كما يطالب الحكام بأن يتعلّموا من الحكماء بعض أوصافهم المحمودة مثل عدم الزعم بالبصيرة وعدم الاعتزاز بالنفس وأراد بذلك أن يحترم الحكام أراء الناس ويحافظوا علي مصالحهم ولا يجعلوا منافعهم محورا لكل شيء .

[451] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٧٨.

[ويحبون أنفسهم ولكن لا يعتزون بها]:

شرح "خه شان قون" بأن أصحاب "داو" يعلمون ما حصل لهم و ما فاتهم و لا يظهرون أخلاقهم الطيبة أمام أعين الناس بل يخفونها في الداخل و إنهم يحبون أنفسهم لكي يحافظوا علي قوتهم الروحية و لكنهم لا يعلنون أسماءهم في الناس و لا يذيعون صيتهم [٤٥٢].

[يأخذون هذا و يتركون ذاك]:

الحكماء يعظّمون العلم و يكرهون الادعاء بالبصيرة و يأخذون الحب الذاتي و يتركون الإعتزاز الذاتي .

[452] المصدر السابق ، ص:٢٧٩.

إنّ الشجاعة مع الجرأة تؤدى إلى القتل وان الشجاعة مع عدم الجرأة تؤدى إلى الحياة فأحدهما خير والآخر شرّ وما تكرهه السماء فمن يدرك علّة ذلك ؟ وإنّ طريقة السماء أن تغلب دون منازعة مع أي شيء وأن تستجيب دون كلام وأن تأتي دون دعوة وأنه تسمح وتحسن التدبير . إنّ الشبك السماوى واسع عريض ولكن لا يفوته شيء.[٤٥٣]

الشرح :

[إنّ الشجاعة مع الجرأة تؤدى إلى القتل] :

فسر أكثر المفسرين الجرأة بالصلابة و القساوة و فسروا عدم الجرأة باللين و الرحمة . و معني النص أن الشجاعة مع صلابة القلب و قساوة الفؤاد تؤدي بصاحبها إلي المحاربة و القتال و الجرائم و أخيرا تهلك حياته و حياة الأخرين و أما الشجاعة التي تملأ بالرحمة و اللين فهي تقضي علي القتل والحرب فتحمي حياة الناس كما شرح "خه شان قون" : الشجاعة مع الجرأة إلي الفعل يجلب هلاكا لصاحبها و الشجاعة مع عدم الجرأة إلي الفعل تحمي حياته[٤٥٤] .

و قيل معناه : إن الجبار يتجرأ علي المنازعة فيصيبه بذلك قتل و أما اللين فلا يتجرأ علي المنازعة ولذلك يبقي حيا [٤٥٥] .

---

453 يبين النص أن مكارم الأخلاق لم تكن زينة للناس فحسب بل هي حسنات يحبها الإله فيجزي من يتحلي بها ويعاقب من يخالفها ومن هذه الحسنات الرحمة و الرخاء و السماحة وعدم المنازعة . و دعا النص إلي الالتزام بطريق السماء وهو عدم المنازعة و قلة الكلام وعدم السعي وراء المصالح الشخصية .

و يشير النص إلي أن لوتس كان يؤمن بالجزاء علي الخير والشر. ويري أنه لا يفوت أحدا جزاؤه خيرا أو شرا.

و يتضح لنا من أقوال لوتس أنه كان يهتم بالحياة و يكره الموت و يعتبر الحياة خيرا وسعادة وفوزا فيبشّر بالحياة من كان يحسن ويخوّف بالموت المفسدين .

٤٥٤ - تفسير خه شان قون > ، ص:٢٨٢.

٤٥٥ انظر < دراسة دلو ده جين ، ص:٣٨٤.

[وما تكرهه السماء فمن يدرك علّة ذلك]:

السماء هنا قد يراد بها الإله أو إله السماء كما تستخدم هذه الكلمة علي هذا المعني منذ القدم . فمعني النص :إن الناس يحبون الشجاعة و يحبون من يقاتل بالشجاعة والجرأة و لكن ذلك شر عند الإله ومكروه لديه . وإن الناس لا يعرفون سبب كراهية الإله للقتل .

•

[وإنّ طريقة السماء أن تغلب دون منازعة وأن تستجيب دون كلام]:

السماء هنا كذلك يراد بها الإله . و معني النص أن الإله قادر علي كل شيئ و غالبه ولا ينازع أحدا ولا أحد ينازعه وإنه لا يتكلم بل يستجيب إذا دعاه أحد . وقيل إن المراد من السماء هو القانون الطبيعي .

شرح "خه شان قون": إن السماء لا تنازع العزة مع الإنسان و لكن الناس بأنفسهم يخافونه و إن السماء لا تتكلم ولكن الكائنات بنفسها تستجيبه وإن السماء لا تأمر بشيء ولكن الكائنات بنفسها صارت ذكورا و إناثا[٤٥٦] . ولعل السماء عند "خه شان قون" يراد بها الإله لأن ذلك الاستعمال كان عاما بين الناس .

[إنّ الشبك السماوى واسع عريض ولكن لا يفوته شيء]:

إن من القانون الإلهي أن يثاب المحسنون و يعاقب المجرمون وهذا القانون كالشبكة العظيمة تحيط بجميع الناس و لا أحد يفر منه أو معني النص أن النظام السماوي كالشبك الكبير يغطي جميع الأشياء و مهما كثرت الكائنات إلا أنه لا شيئ يكون غير مقيد بالنظام الطبيعي. شرح "خه شان قون" بأن السماء تحيط بكل شيئ إحاطة كاملة و تراقب أفعال الإنسان حسنة أو سيئة و لا يفوته شيئ[٤٥٧] .

وقيل : القانون السماوي يجزي الحسنات و يعاقب السيئات و لا يظلم الناس شيئا[٤٥٨] .

---

٤٥٦. تفسير خه شان قون > ، ص:٢٨٣.
٤٥٧ المصدر السابق ، ص: ٢٨٣.
٤٥٨. انظر . دراسة داو ده جين . ص:٣٨٧.

لو كان الشعب لا يخاف الموت فكيف يخوّف بالموت ؟ فلو كان يخاف الموت إذن نقبض على المجرمين ونقتلهم فمن يجرؤ علي الجرائم بعد ذلك . ومن كان مالك القتل يقوم بالقتل ومن كان نائبا عن مالك القتل كمن يقطع الأشجار نيابة عن النجار ومن ينوب عن النجار من أجل قطع الأشجار قلّ ما لا تجرح يده[٤٥٩].

الشرح :

[لو كان الشعب لا يخاف الموت فكيف يخوّف بالموت ؟]:

من طبيعة الإنسان حب الحياة و كراهية الموت و لكن لو وصل الظلم و الجور إلي الغاية لصارت الحياة رخيصة في عيون الناس فهم لا يبالون بالموت و حينئذ التخويف بالموت لا يفيد شيئا .

شرح "خه شان قون" : لو ظلم الحكام الناس بالعذاب و البأس الشديد و سلبوا منهم حقوق الحياة فلا يخافون الموت [٤٦٠].

[ومن كان مالك القتل يقوم بالقتل]:

معني النص أن الحكام يظلمون الناس بالقتل زعما بأنهم يطبقون القانون الإلهي وهولاء الحكام لا ينجون من سوء العاقبة .

مالك القتل عبارة عمن يملك حق القضاء بالحياة أو الموت ويراد به السماء أو الإله فإن له حقا وقدرة علي أن يهلك العصاة و المجرمين و لا أحد يستطيع أن يفر من عقابه . فالإله هو الذي يحيي من يشاء ويميت من يشاء ولا شريك له في ذلك فهو مالك الموت والحياة .

---

[459] يدعو النص إلي سياسة السمحة و الرحمة بعدا عن القسوة و الظلم حتي لا يقنط الشعب من الحياة و يشير إلي أن وظيفة الحكام أن يعتنوا بالشعب و يحكموهم بالرحمة و المحبة .

وأما تنفيذ القتل فليس من شأن الحكام بل هو حق الإله فإنه يثيب المحسنين و يعاقب المجرمين و يهلك من يستحق القتل ومن يدعي بذلك فقد هلك نفسه .

لو كان معني النص هو كما شرحناه أو شرحه العلماء لكان لوتس أراد بذلك أن "داو" هو الإله المحيي والمميت .

[٤٦٠] < تفسير خه شان قون > ، ص:٢٨٥.

وأما النائب عن مالك القتل فيراد به الحكام الذين يقتلون الناس باسم الإله أو السماء أو يزعمون بأنهم ينوبون عن الإله في القتل ، ولكن في الحقيقة ليس لهم حق القتل . و من يفعل ذلك كمن لا يعرف أمر النجار و يقطع الخشب نيابة عنه فهو نفسه لا يسلم من الجرح.

يري "خه شان قون" : أن السماء (الإله) بصيرة في الغاية فتهلك من يستحق الهلاك وتبقي من يستحق البقاء ولا تحتاج إلي أحد ينوب عنها في القتل [٤٦١] .

وشرح العلماء المعاصرون مالك القتل بالحاكم أو المحكم أو دار القضاء .

---

[461] المصدر السابق ، ص: ٢٨٦.

يعيش الشعب في الجوع وإنما يجوع لكثرة الرسوم التي يأكلها الأشراف ويصعب حكم الشعب وإنما يصعب لكثرة التصنع في الأعلى ويستخف الشعب الموت وإنما يستخف الموت لتفريط حب الحياة في الأعلى .
ألا وإن الذين لا يسعون وراء الحياة أفضل من الذين يجلّون الحياة.[٤٦٢]

الشرح :
[يعيش الشعب في الجوع وإنما يجوع لكثرة الرسوم التي أكلها الأشراف]:
الأشراف هم الحكام في المقام العالي . ويعني النص أن الشعب يصيب الفقر و المجاعة وسبب ذلك يرجع إلي كثرة الرسوم التي وضعها الحكام ثم أكلوها فيصيب الشعب من الجوع .

[وإنما يصعب لكثرة التصنع في الأعلى] :
إن الشعب يصعب إصلاحهم ويصعب حكمهم وذلك لكثرة تدخل الحكام في حياة الناس بالقوانين الثقيلة وكلما كثرت القوانين قلّت حرية الشعب وكلما تشدّد القانون كثر مخالفوه لأن الناس كلما يريدون شيئا يجدون أمامهم قانونا يمنعهم منه ولما فعلوا ما أرادوا خالفوا القانون و يصعب علي الحكام حصارهم في حدود القانون كل الوقت فكأنهم لا يطيعون القانون .
أو معني النص أن كثرة القوانين جعلت الناس لا يبالون بالخروج من حدودها فتصعب السيطرة عليهم بالقوانين . و شرح كثير من العلماء التصنع بالشهوات فقالوا معناها أن الشعب لا يصلح و ذلك لكثرة الشهوات لدي الحكام فلا يستطيعون إرشادهم إلي طريق سليم[٤٦٣] .

[462] يري لوتس أن البلاء الطبيعي أو البلاء الإنساني كله نتيجة من فساد الحكام لا من صنع العوام ولذلك يكون الإصلاح لا بد أن يبدأ من الأعلي لا من الأسفل وإذا صلح الأعلي ينصلح الأسفل . و النص يبين فكرة لوتس في علو شأن العوام و خفة شأن الحكام و يري أنه ينبغي أن يكون العوام سادة في البلد ويكون الحكام خداما لهم مع أن الواقع خلاف ذلك وإنما يفشل الحكام في سياستهم لفشلهم في إصلاح أنفسهم .

[463] انظر < دراسة دلو ده جين > ، ص:٣٩٥.

[و إنما يستخف الموت لتفريط حب الحياة في الأعلى]:

إن الحكام يحبون الرفاهية و يفرّطون في التمتع بالحياة و لا ينظرون إلي مشقات الشعب بل يجعلونهم عبيدا لهم في خدمتهم و لا يقتّرون ثمن حياتهم و حينئذ يستخف الناس الموت .

[و إن الذين لا يسعون وراء الحياة أفضل]:

يعني أن الشعب أفضل من الحكام . إن الشعب يسعي وراء المعيشة أو لقمة العيش و أما الحكام فينغمسون في الحياة الطيبة و الترف . و طبعا الشعب أهم من الحكام لأن الشعب هم أساس البلد . وقال "تشين قو يين" : معناه أن الذين يعيشون حياة بسيطة خير من الذين يسعون وراء ملذات الحياة [٤٦٤].

قيل إن الذين يعيشون الحياة الطبيعية البسيطة أفضل من الذين يقومون بالرياضة لتطويل الحياة خلافا لطبيعة الجسم فيقضي علي الحياة [٤٦٥].

---

[٤٦٤] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٣٤٠.
[٤٦٥] انظر < دراسة دلو ده جين > ص:٣٩٦.

إن الإنسان ناعم فى حالة الحياة ثم يصبح صلبا بعد الموت كما أن الأشجار ناعمة في حياتها ثم تصبح يابسة بعد الموت ولذلك كان الأقوياء أصحاب الموت و الضعفاء أصحاب الحياة كما أن الجيش القوى لا ينتصر والخشب الصلب يتعرض للكسر فكل القوى يقع فى الأسفل بينما كل الليّن يقع فى الأعلي

الشرح :

[إن الإنسان ناعم فى حالة الحياة] :

جسد الإنسان ناعم في حياته و يتصلب بعد الموت . وهذا كناية عن أن في اللين و النعومة حياة و أن في اليبسة و الصلابة علامات الموت .

والقصد من النص أن القسوة والشدة والغلظة تؤدي بصاحبها إلي الموت بينما اللين والرحمة والتواضع تؤدي به إلي الحياة .

[ولذلك كان الأقوياء أصحاب الموت]:

نظرا إلي أن النعومة علامة الحياة و أن الصلابة علامة الموت كان الأقوياء الذين يظهرون القوة و الشدة و الصلابة يتعرضون للهلاك لأنهم يعادون الناس فيقتلون أو يقتلون و أما الضعفاء الذين يظهرون النعومة و اللين فلا يعتدون علي أحد فأنقذوا أنفسهم من الهلاك .

[أن الجيش القوى لا ينتصر]:

شرح "وان بي" بأن الجيش القوي يظلم الناس فيكون مكروها لديهم و لذلك لا ينتصر[٤٦٦] .

وشرح "خه شان قون" : إن الجيش القوي يريد الحرب ويحب القتل فأحاطت به عداوة من الناس وإذا تحالف الضعفاء بعضهم بعضا لصاروا أقوياء فيهزمون الجيش القوي المزعوم[٤٦٧] .

466- شرح ولن بي > ، ص:٣٨٤.

467- < تفسير خه شان قون > ،ص:٢٩٢.

شرح "خه شان قون" : الطريقة الإنسانية تخالف الطريقة السماوية إذ أن العوام يسلبون الفقراء ويغنون الأغنياء ويغصبون الضعفاء وينفعون الأقوياء[469] .

[ومن ذا الذى ينفق علي العالم ما عنده من الباقيات؟]:
شرح "خه شان قون" : من ذا الذي في حالة الغني يقتصد ويجمع أمواله ثم ينفقها علي الفقراء ؟ إنما يفعل ذلك أصحاب :داو" [470].

[إن الحكماء يعملون دون الامتلاك]:
إنهم يعملون أعمالا جليلة و لا يدعون بأنهم عملوها .
وشرح "خه شان قون" بأن الحكماء يعملون الحسنات وينفعون الناس و لا يطلبون جزاء ذلك و لا يقفون موقف الفائزين بعد النجاح [471].

469 المصدر السابق ، ص: ٢٩٤.
470 المصدر السابق ، ص: ٢٩٤.
471 المصدر السابق ، ص: ٢٩٥.

الفصل الثامن والسبعون الأمانة

لا شيء في العالم أكثر نعومة من الماء حتي أن القوي المهاجم لا يغلبه ولا ينوب عنه شيء وإن الضعف يغلب القوة واللين يغلب الصلابة . والعالم كله يعلم ذلك ولكن لا يقدر على العمل به.

ولذلك يقول الحكماء : من يتحمل الذلّة عن البلد يستحق أن يكون سيدا له ومن يتحمل شقاوة البلد يستحق أن يكون ملكا له . إن القول الحق كعكسه[٤٧٢].

الشرح :

[لا شيء في العالم أكثر نعومة من الماء]:

القوي المهاجم يراد به الشيئ الصلب مثل الصخرة و الحديد وغيرهما مما عرفه الأقدمون ومعني النص : الماء اللين يكون أقوي في العالم لأنه يقدر علي تثقيب الصخور.

وقال "خه شان قون" بأن الماء يحيط بالجبال وينقص الحديد و يقلل النحاس و لا شيئ يغلبه[٤٧٣] و النص يكرر فكرة فضل اللين و الضعف .

[والعالم كله يعلم ذلك ولكن لايقدر علىالعمل]:

إن الناس يعلمون أن الضعف يغلب القوة و اللينة تغلب الصلابة و لكنهم لا يلتزمون بالضعف و اللين .

و قيل إنهم يعلمون ولا يعملون لأن الشهوات منعتهم من ذلك إذ أن الشهوات تحب القوة و الصلابة[٤٧٤].

---

472 إن النص يوضح فضل اللين والضعف و التواضع بتمثيل الماء اللين الذي يتضمن قوي هائلة ويغلب جميع الأشياء كما أن قطرات الماء تثقب الصخور و أن النهر يسيّر الجبال .

والنص يدعو إلي الإلتزام بخصائص الماء و يطالب الحكام أن يلتزموا بها .

ويري لوتس أن الملوك ليسوا مخلوقين لتمتع الحياة الدنيوية وللسيطرة علي الناس بل له واجبات ومسؤوليات ومن واجباته أن يكون هو أول من يتحمل الذلة والشقاوة قبل إصابتها للشعب كما يقول المثل الصيني في حق الملك الناجح : يحزن قبل ما يحزن العالم و يفرح بعد ما فرح العالم .

ثم يري لوتس أن الحاكم الفاضل يجب أن يلتزم بمبدأ أن ينسب النجاح إلي الشعب و ينسب الفشل إلي نفسه و يتحمل جميع المسئوليات عند الفشل .

473 المصدر السابق ، ص: ٢٩٧.

474 أنظر < دراسة داو ده جين > ، ص:٤١٠.

[من يتحمل ذلّة البلد يستحق أن يكون سيدا له]:

قال "جوان تس" وهو أحد مؤسسي الفلسفة الداوية : إن سيد القوم في القديم ينسب فضل النجاح إلي الشعب و ينسب ذنب الفشل إلي نفسه .

و هذه العبارة تكون خير التفاسير للنص المذكور بمعني أن الملك ينبغي أن يتحمل جميع المسئوليات إذا وقع البلد في مصيبة و ألا يتكبر عندما يزدهر البلد بل ينسب فضل ذلك إلي جمهور الشعب و من يفعل ذلك فقد استحق أن يكون سيد القوم .

[إن القول الحق كعكسه]:

يقول المثل الصيني : إن الكلام النصوح يوجع الأذن ولكنه يفيد السلوك و إن الدواء الشافي يمرّر الفم ولكنه يفيد المرض .

ولذلك كان الناس لا يحبون أن يسمعوا الكلام الحق ولا يعملون به كأنه الباطل . ومن ثم يقال : القول الحق كعكسه .

أو معناه أن الحق لا يفهم بالسهولة فلا يبدو من الظاهر أنه الحق و إذا يتدبر الإنسان من الغور البعيد تتبين له حقيقته و لذلك القول الحق في الظاهر كعكسه .

شرح "خه شان قون" بأن الكلام المذكور (من يتحمل ذلة البلد يستحق أن يكون سيدا له) هو الكلام الحق و لكن الناس لا يفهمونه فيظنون عكس ذلك[٤٧٥].

---

[475] - تفسير خه شان قون >، ص:٢٩٨.

بعد إصلاح العداوة الكبرى لا يخلو من بقاياها و هل هذا إحسان ؟ وكان الحكماء يمسكون الميثاق اليسار و لا يجبرون الناس فصاحب الفضيلة يمسك الميثاق و أما عديم الفضيلة فيعمل للضرائب.

إن الطريق السماوي لا قرابة له ويبقى مع المحسنين دائما.[٤٧٦]

الشرح :

[بعد إصلاح العداوة الكبرى لا يخلو من بقاياها]:

العداوة لا بد من الصلح ولو بعد حين و لكن الصلح لا يمكن أن يزيل العداوة إزالة نهائية بل يبقي شيئ منها و لذلك إنعقاد العداوة ثم الصلح لا يكون إحسانا و إنما الإحسان هو عدم إنعقاد العداوة مطلقا.

[وكان الحكماء يمسكون الميثاق اليسار]:

في القديم إذا إستقرض أحد قرضا ينحت ميثاقا علي الخشب ذي الشقين الشق اليمين و الشق اليسار فالشق اليمين يقال له الميثاق اليمين يمسكه المدين و الشق اليسار يقال له الميثاق اليسار يمسكه الدائن حتي يسترجع به دينه فيما بعد .

و لكن أصحاب "داو" بفضل سماحتهم و إحسانهم رغما عن أنهم يحملون الميثاق اليسار لا يجبرون المدين علي رد الدين و لا يطلبون حقوقهم .

والنص يدعو إلي الرخاء والسماحة والكرم وغيرذلك من الأخلاق الفاضلة .

[فصاحب الفضيلة يمسك الميثاق وأماعديم الفضيلة فيعمل للضرائب]:

الفضلاء هم الذين يمسكون الميثاق اليسار و لا يطلبون حقوقه وأما الذين يجمعون الضرائب و يجبرون الناس علي دفعها دون الرحمة فهم لا يملكون الفضيلة أصلا .

---

[476] النص بيّن أهمية الرحمة والإحسان وقد تفوق لوتس علي الآخرين في مفهوم الإحسان إذ يري الناس أن الصلح إحسان ولكن لوتس يري أن عدم إثارة العداوة خير من الصلح وأن أعلي صورة الإحسان هي عدم عقد العداوة و عدم القسوة في المعاملة .

ويعتقد لوتس أن المحسنين يكونون في عناية الإله ويقتربون منه وبذلك قد اقترب لوتس من تعاليم الإسلام حيث يقول القرآن العظيم : إن رحمة الله قريب من المحسنين .

[إن الطريق السماوي لا قرابة له]:

إن القانون الطبيعي لا يعترف بالقرابة مع أحد و يكون دائما في نفع المحسنين .

أو معناه أن الناس سواسية في عين الإله و ليس لأحد حق أن يزعم بالقرابة له وإنه يكون مع المحسنين و ينصرهم في كل وقت .

(نعم) الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل حتي و لو كان لهم مئة آلة لا يستعملونها
وليخش الناس الموت فلا يهاجروا إلى البعيد حتى ولو كان لهم سفن لا يركبونها ولهم أسلحة
لا يتسلحون بها وليرجع الناس إلى استعمال عقد الحبال.
ليكن طعامهم لذيذا ولباسهم جميلا وليفرحوا بسكناهم ويرضوا عن عاداتهم .
و يري الناس بعضهم بعضا من الدول المجاورة ويسمعون أصوات الديوك والكلاب و لا
يتزاورون بعضهم بعضا أبدا إلى الموت

الشرح :

[(نعم) الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل]:

يري لوتس أن أفضل البلاد هو بلد ذو الشعب القليل و المساحة الصغيرة حيث لا تنشؤ فيه الفتنة لأن البلد الصغير قلت فيه الفتنة و المشاكل و يسهل حكمه و يتيسرللحكام في القضاء علي الفساد الذي يظهر فيه.

وهنا لأول مرة ذكر لوتس " الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل" وهي دولة مثالية عنده ويتمني أن تقوم دولة علي منوالها في الأرض فقدّم تصورا كاملا للدولة المثالية المأمولة . وفي الحقيقة إن جميع أفكاره السياسية التي ذكرناها في السابق كانت بمثابة الدستور والمبادئ لهذه الدولة المثالية وحسب هذا النص سمّي الناس دولته المثالية ب" الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل" .

[و لو كان لهم مئة آلة لا يستعملونها]:

إختلف العلماء في المراد من الآلة فقيل هي آلة الحرب و قيل آلة الزراعة .

يري "خه شان قون" أن للشعب مئات الأدوات الزراعية ولا تغصبها الحكومة .

شرح "وان بي" أن للشعب مئات أنواع من الآلات و لا يستعملونها من الكثرة فكيف يخافون من الفقر[٤٧٧] .

علي كل حال فيعني النص أن الشعب متوفرة له وسائل الحياة من المشرب و المأكل و الملبس و المركب وغيره إلي حد أن بعض الوسائل يستغني عنها فتترك فارغة ولا يستعملها أحد وهذا كناية عن توفر الثروات واسباب الحياة لدي الشعب في الدولة الصغيرة.

---

[477] . شرح ولن بي > ، ص:٣٨٦.

[وليخش الناس الموت فلا يهاجروا إلى البعيد]:
من المعروف أن الإنسان يعزّ عليه الحياة في حالة السعادة و الرفاهية و يهينها عند القنوط و الشقاوة و الظلم و معني النص: يجب علي الحكام أن يوفروا للناس جميع متطلبات الحياة و يجعلوا حياتهم سعيدة و جذابة حتي تعزّ عليهم حياتهم و لا يفكروا في الهجرة إلي بلد آخر طلبا للقمة العيش .
شرح "خه شان قون" : لو كان الملك يجلب المنفعة و يدرع المفسدة من أجل الشعب لحصل كل واحد علي ما أراد فيخاف الشعب الموت و يحب الحياة وإذا كانت السياسة لا تزعج الناس يفرح كل واحد بما يشتغل فلا يهاجر إلي البعيد ولا ينصرف عن مسكنه[١٧٨] .

[وليرجع الناس إلى استعمال عقد الحبال] :
ليرجعوا إلي السذاجة و البساطة و الصدق مما يمتاز به الناس في العصر القديم و عقد الحبال يراد به العصر القديم الذي كان القدماء يعقدون الحبل للحساب و كانوا يثقون بعضهم ببعض و لا يحتاجون إلي الميثاق و الكتابة في المعاملة لعدم الخيانة بين الناس.
ولم يكن المراد من النص أن يدعو إلي الجاهلية ولا إلي التخلف وإنما يدعو إلي الأخلاق الكريمة التي يملكها القدماء الأصفياء .
رسم لنا لوتس بهذا النص صورة واضحة للدولة المثالية عنده و يري أن أحسن البلاد هو "الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل" حيث تتوفر فيه وسائل الحياة وأسباب المعيشة فلا يفكر الناس في الثورة و لا في الإنصراف من البلد و يكون البلد سالما حتي ولو كان له جنود أقوياء وأسلحة حادة لا يستخدمها للحرب والإحتلال ويكون الشعب غنيا بالطعام اللذيذ واللباس الجميل و المسكن المريح و يكونون فرحين بما لديهم من العادات و التقاليد و يكون البلد مستقلا كل الإستقلال حتي لا يتعامل مع البلدان الأخري . وهذا هو البلد المثالي عند لوتس .
ومن المعروف أن لأفلاطون دولة مثالية وهي الجمهورية وكانت للفارابي دولة مثالية وهي المدينة الفاضلة و لكن قلّ من يعرف أن للحكيم الصيني تصور دولة مثالية كذلك . ولم نبالغ إذا قلنا بأن تصور الدولة المثالية عند لوتس يباهي تصور أفلاطون والفارابي ولا يقل عنهما قدرا .
وإن هذا النص وضع حجرة الأساس لدولته المثالية فكل الأفكار السياسية للوتس كانت تدور حول إقامة هذه الدولة المثالية وإدارتها و قد نعتبر هذا النص دستورا للدولة المثالية عند لوتس .

[178] . تفسير خه شان قون > ، ص: ٣٠٢.

الفصل الواحد و الثمانون ظهور الطبائع

الكلام الصادق لا يكون جميلا و الكلام الجميل لايكون صادقا .

المحسن لا يغالط بالكلام و المغالط لايكون محسنا والعارف لا يحيط والمحيط لا يعرف.

إن الحكماء لا يدخرون لأنفسهم شيئا وكلما بذلوا للناس أكثر زادهم ذخورا وكلما أعطوا للناس كثر لأنفسهم. إن طريق السماء أن ينفع ولا يضرّ وإن طريق الحكيم أن يعمل ولا ينافس[٤٧٩].

الشرح :

[الكلام الصادق لا يكون جميلا] :

الكلام الجميل عبارة عن أقوال معسولة وقد عبّرت بأسلوب أدبي و زيّنت بالخيالات الجميلة حتي ملئت بالكذب ولكنها لا تعبّر عن الحقيقة و أما الكلام الصادق فهو ما يعبر عن الواقعية الحقيقية و يكون بالعبارات البسيطة و لم يكن فيه التزين الأدبي و لذلك الكلام الصادق لا يكون جميلا لما أن الواقع لا يكون جميلا كما يتصور .

وقد شرح "خه شان قون" بأن الكلام الصادق لايكون جميلا لأنه بسيط ولم يزيّن [٤٨٠].

[والعارف لا يحيط والمحيط لا يعرف]:

[479] هذا النص يعتبر كلاما مأثورا عند الصينيين إذ يحتوي كثيرا من الحكم والمبادئ للحياة. وقد ذكر النص أضدادا ثلاثة وهي الجمال مقابل الصدق و الإحسان مقابل المغالطة و المعرقة مقابل الإحاطة ويري لونس أن وجود أحدهما ينفي الأخر.

ولعل هذه المبادئ عمومية وقد لا تكون دقيقة وعلي سبيل المثال أن الجمال ليس ضدا حتميا للصدق لأن الكلام الجميل لا يبتعد أن يكون صادقا . فلا نتحكم علي حتمية هذه الأضداد الثلاثة ولكن لا نرفض هذه المبادئ مطلقا لأن إمكانية الضدية بين الثلاثة قائمة بشكل غالب وخاصة القول " العارف لا يحيط والمحيط لا يعرف" يكون كلاما صادقا في العصر الحديث لأن العلوم قد تفرعت إلي ما لا نهاية له فلا أحد يحيط بكل شيء علما ومن يتقن شيئا فهو عالم في ذلك خاصا دون غيزه من المجالات الأخري ومن يعلم شيئا في كل شيء لا يتقن في كل شيء. وعلي كل حال يبيّن النص أحد المبادئ العمومية في المعرفة و قد يساعدنا هذا المبدأ علي معرفة حقيقة الصدق و الإحسان و الجمال .

ويدعو النص إلي إتباع الطريق السماوي الذي ينفع الكائنات ولا يضرّ أحدا واعتبر نفع الآخرين السنة السماوية وطالب الناس أن يسلكوا هذا الطريق.

[٤٨٠] المصدر السابق ، ص:٣٠٧.

من كان عالما في مجال معين و متقنا فيه يكون عالما في هذا المجال و قد يكون جاهلا في مجال آخر لأنه لا يمكن أن يحيط بكل شيئ علما .
بناء علي هذا فمن يزعم بإحاطة كل شيئ علما فهو كاذب لأن الإنسان لا يمكن أن يكون متقنا و مدققا في كل المجالات .
يري "خه شان قون" و غيره من العلماء القدامي أن العارف يراد به العارف ب"داو" و المحيط هو الذي يري كثيرا و يسمع كثيرا .
ومعني ذلك أن العارف لا ينظر إلي الخارج و لا يسمع كثيرا ولكن يكفيه "داو" علما فهو يعرف "داو" وأما من يسمع و يري لحصول علي العلم فلا يعرف "داو" .

[المحسن لا يغالط بالكلام]:
من يحسن إلي الناس يعترف بما فعل سواء كان خيرا أو شرا كما هو و يعترف بما قصر فيه و لا يجمّل ما فعل ولا يقبّح ما لم يفعل.
[إن الحكماء لا يدخرون لأنفسهم شيئا]:
إنهم لا يجمعون لأنفسهم أموالا بل يجمعون الفضائل و شرح "خه شان قون": إنهم يجمعون الفضائل و لا يجمعون الأموال و يعلّمون العوام الأخلاق و ينفقون أموالهم علي الفقراء [481].

[وكلما بذلوا للناس زادهم ذخورا]:
كلما يفيدون الناس بالعلم والخلق يزدادون قدرا و مقاما و كلما ينفقون علي الناس بشيئ مادي يزدادون ترقيا روحيا .
شرح "خه شان قون": كلما ينصحون الناس بالأخلاق زادوا لأنفسهم خلقا و كلما ينفقون علي الناس أموالهم زادهم ثروة كما أن نور الشمس و ضياء القمر لا ينفدان[482] .

[إن طريق السماء أن ينفع ولا يضرّ]:
شرح خه شان قون": إن السماء أصدرت الكائنات ثم تربيها بالمحبة و تنمّيها و لا تضرها شيئا وإن الحكيم يتخلق بالسماء فيعمل وبعد إنجاز العمل لا ينازع من دونه في المآثر فينفعه بفضله.

---
[481] المصدر السابق ، ص:٣٠٨.
[482] المصدر السابق ، ص:٣٠٨.

القسم الثاني :

القسم الدراسي لنصوص "داو ده جين "

الفصل الأول : عقيدة الألوهية

يثبت لنا علم الآثار القديمة أن الإنسان منذ أن خلقه الله علي ظهر الأرض لم يخل يوما من التمسك بالعقائد الدينية وأن جميع الثقافات التي وجدت اليوم-- إذا أمعنا النظر إلي ينابيعها الأولي-- وجدناها متصلة بنوع من الديانة إتصالاً وثيقا ولعل بعضها منبثقة من العقائد الدينية. وهذا هو شأن الثقافات القديمة ولا سيما الثقافات المتحضرة مثل ثقافة مصر و بابل والهند و الصين وكلها لم تستثن من هذه الظاهرة .

وكان الإيمان ب "أوزيريس" و"ايزيس" فتح صفحة أولي لتاريخ الحضارة المصرية كما أن معابد "عشتار" كانت معلما من معالم الحضارة البابلية و من المعروف أن الهند لم نعرف ماضيها إلا عن الروايات و القصص الدينية فكانت الظاهرة الدينية ظاهرة عامة في المجتمعات شرقا وغربا وقديما وحديثا ومهما تطور الإنسان وإرتقت العصور فإن النزعة الدينية لاتزال قائمة في أذهان الناس ومؤثرة في تصرفاتهم بطريقة أو أخري حتي يري بعض العلماء الصينيون أنفسهم " أن الدين في أي وضع من أوضاعه قديم قدم الجنس البشري ذاته وكل محاولة لفهم نشأة الدين في العالم تقتضي حتما التسليم بحقيقة أن في قلب الإنسان وروحه وكيانه نزعة دينية وطلبا دينيا ليغذي كيانه الجسماني ومطالبه " [٤٨٣] ويشهد التاريخ أنه كلما كان الوقت أسبق كانت النزعة الدينية أقوي .

و أما الصين التي عرفت في خارج البلد بالأرض اللا دينية فهي في الحقيقة ترتبط إرتباطا وثيقا بالتقاليد الدينية وقد عرفنا من الوثائق التاريخية التي نقشت علي عظام الحيوان أن العبادات الدينية كانت جزءا مهما لحياة القدماء الصينيين منذما عرفه التاريخ وأن الناس كانوا مرتبطين إرتباطا وثيقا بإله السماء أو الألهة ويزعم القدماء أن الآلهة تحكم العالم الطبيعي و العالم الإنساني . و يحسن بنا في مقامنا هذا أن نقدم عرضا موجزا لتطور عقيدة الألوهية عند القدماء الصينيين حسب ما يراه المؤرخون :

الإعجاب بالظواهر الطبيعية يثير فى نفوس الإنسان الشعور الدينى كما زعمه المذهب الطبيعى فى علم الاجتماع الدينى[٤٨٤] وهذا قد يصح إلى حد ما إذا رجعنا مع علماء المذهب الطبيعي إلى الينابيع الأولي لعقائد أهل الصين القديمة ، فإننا حسب التسجيلات القديمة نري أن

---

[٤٨٣] وان شاو دون: < العقائد البدائية والألهة القديمة فى الصين>، مطبعة الكتب القديمة بشأن هاي" ، ص:١.

[٤٨٤] الدكتور محمد عبد الله دراز: < الدين البحوث المعهدة لتاريخ الأديان>، دار القلم ـــ كويت ١٩٧٠م ، ص : ٨٣.

عبادة الطبيعة هي أقدم صورة التدين عند الصينيين[٤٨٥] وقد حاول العلماء شرح هذه الظاهرة من نواح مختلفة ، منها ما قيل إن القدماء لما شاهدوا القوى الجبارة فى الطبيعة بأنها تنفعهم حينا و تضرهم حينا آخر دون أن يدركوا حقيقتها أعجبوا بها وظنوا أن الطبيعة نفسها هي قوة مهيمنة علي الإنسان فبدأوا يعبدون الظواهر الكونية من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها من الأشياء الطبيعة واعتبروها آلهة لما فيها من النفع والضر على الإنسان[٤٨٦].

ثم تقدم الصينيون بعد ذلك بخطوة عظيمة نحو ما وراء الطبيعة بمعرفة الأرواح فاعتقدوا أن لكل الظواهر الطبيعية روحا خفية وراءها وأن هذه الأرواح هي التي تسيطر على العالم الطبيعي و العالم الإنساني فانطلقوا يعبدون هذه الأرواح وكانوا يسمونها "شِين" (Shen)بمعنى الإله ، وبتعدد الظواهر الطبيعية تعددت الآلهة المعبودة وكانت المعبودات على الرغم من كثرتها تنقسم عندهم إلى ثلاثة أصناف : آلهة السماء وأرباب الأرض وأرواح الإنس .

فآلهة السماء هم الذين يدبرون أمور السماء والفضاء مثل إله البرق وإله المطر وإله الرياح و آلهة الكواكب وإله الشمس وإله القمر وما إلي ذلك[٤٨٧] .

أما أرباب الأرض فهم الآلهة الذين يستوطنون الأرض ويدبرون الأمور عليها مثل رب الربوات ورب الغابات ورب المياه ورب الأنهار ورب المملكة ورب المدينة ورب البيت ورب المطبخ ورب الباب وغيرها [٤٨٨] .

وأرواح الإنس عبارة عن أرواح الموتى ، ويعتقدون أن للإنسان مصيرين بعد موته فالروح الصالحة تصعد إلى السماء وتصير شِيْنْ (Shen الإله) وتنضم فى جملة الآلهة والأرواح الطالحة تدخل تحت الأرض وتصير "قَوِى" (Gui الشيطان) وتقيم فى منطقة تسمى "خَانْغ جوَان" (Huang Quan الينبوع الأصفر) للعذاب و أن "شين" (الأرواح الصالحة أو الآلهة) تحفظ الناس وتنفعهم بينما أن "قوى" (الأرواح الطالحة أو الشياطين) تضر الناس وتعاديهم فكانت العبادة لهما تهدف إلى جلب المنفعة من الأول ودفع المضرة من الأخير[(٤٨٩)] .

وظلت عبادة القدماء الصينيين على هذا النحو فى التعدد عمليا واعتقاديا حتى طرأ عليهم التغير فى العقيدة . ففى القرن الثالث عشر قبل الميلاد تطورت العقيدة تطورا عظيما نحو

---

[485] ولن شاو دون: < العقائد البدائية والألهة القديمة فى الصين>، مطبعة الكتب القديمة بشأن هاي" ، ص: ١٠٢ .

[486] < الديانة الصينية والمسيحية >: ص: ٢٢.

[487] < الديانة الصينية والمسيحية >: ص: ٢٢.

[488] The handbook of Taoism . Edited by Li Yang Zhang . Zhong Zhou book press . 1993 . P 149 - 154)

[489] < العقائد البدائية والألهة القديمة فى الصين> ، ص: ١٤٣.

النزعة التوحيدية[٤٩٠] حيث توصل الناس إلى معرفة إله أعلي من بين الآلهة وأخذوا يعتبرونه باعتباره خالق كل شيء وحاكم السموات والأرض وما بينهما وأطلقوا عليه اسم "شَانْ دِي"(Shang Di بمعنى "السلطان الأعلى") كما دلت عليه الوثائق التاريخية العظمية[٤٩١] .

وفي ضوء ما اكتشف من الآثار القديمة نلاحظ أن القدماء كانوا يؤمنون بهذا الإله الأعلى كرب السماوات والأرض وخالقهما وهو الملك الأعلى فى الكون و يسيطر على الآلهة الطبيعية جميعا ، وليست الآلهة الأخرى إلا وزراء ورسل له وهم يدبرون أمور السماء والأرض نيابة عنه وفقا لإرادته وكانت الملكوت السماوية في تصور القدماء تماثل المملكة الامبراطورية على الأرض بحيث يكون الإله الأعلى ملكا للملكوت السماوية ويخدمه الوزراء والموظفون والخدام من الألهة الصغري [٤٩٢] و وكّل الملك الأعلي هؤلاء الوزراء لسيطرة السماء و الأرض وهو يحكم الكل من بعيد بطريقة غير مباشرة . ومن ثم كانت العبادة في تلك الفترة موجهة إلي هذه الآلهة الصغري و العبادة كانت عبارة عن السجود للآلهة وتقديم القرابين إليها و بما أن الإله الأعلى لم يحكم العالم مباشرة لم يتمتع بهذا النوع من العبادة من قبل الناس بل أن الدعاء كان يوجه إليه كما يوجه إليه المدح وكان الناس يمدحونه ويمجدونه [٤٩٣] .

وهنا لايمنعنا أن نتصور أن عبادة القدماء ل" شَانْ دِى" كانت حق العبادة إذ هي عبادة روحانية وباطنية كالدعاء والمدح بينما عبادة الآلهة الأخرى كانت عبادة جسمانية ظاهرية قصدا لجلب نفعها ودفع ضررها ولعل العبادة للإله الأعلي كانت أصدق عبادة بمعني الكلمة .

وإن هذا الانتقال إلى نزعة التوحيد كان شيئا عظيما فى مجال المعرفة الانسانية وله تأثير عظيم لعقائد الناس فيما بعد .

وبعد القرن الحادى عشر قبل الميلاد حلّ الاسم "تِيَان" (Tian بمعنى السماء) محل الاسم "شَانْ دِى" بل بدأ الإله المرسوم بهذا الاسم يتمتع بالعبادات الجسمانية من قبل الناس حيث أنهم بدأوا يسجدون له ويقدمون إليه القرابين باعتباره الإله الأعلى الذي يراقب الدنيا من فوق[٤٩٤] ويجازى المحسنين ويعاقب العصاة كما يعتقدون أنه يختار من الناس أحسنهم ليكون إبنا له وملكا للناس[٤٩٥] فكان الملك عندهم ذا مقام رفيع وليس هو خليفة للإله فحسب بل هو إبن محبوب له . وصارت العبادة ل "تيان" أعلى صور العبادة ولا تزال هذه العبادة مغايرة عن عبادة سائر الآلهة إذ أن العبادة له تقام عند وقت معين كل سنة في مكان خال بضاحية

---

490 المصدر السابق : ص: ١٤٩.

491 المصدر السابق: ص ١٥٢.

492 < الديانة الصينية والمسيحية> : ص ٢٢ .

493 انظر : < العقائد البدائية والإلهة القديمة فى الصين> ، ص : ١٤٩ .

494 <الديانة الصينية والمسيحية> ، ص: ٢٢ ، ايضا : <تاريخ الداوية> ، ص : ٣٢.

495 < قصة الحضارة > : جـ ٤ ص : ٣١ .

المدينة العاصمة تحت رئاسة الملك (إبن الإله السماوي) وحده وقد أعتبرت هذه العبادة أكبر شؤون الدولة في كل سنة . وفي هذه المراسيم يحضر الملك والأشراف والمواطنون من نفس المنطقة ولكن ليس لأحد الناس غير الملك في أية حال من الأحوال حق أن يرأس مراسيم عبادة "تيان" وكان حق الرياسة محفوظا للملك وحده .

و حدث هذا التغير في عهد أسرة "جيو" (Zhou . كان حكمها من القرن الحادي عشر قبل الميلاد إلي سنة ٧٧١ قبل الميلاد) والأسرة كما يروي عنها كانت تحكم بلاد الصين باسم الإرادة الإلهية و يزعم ملوكها بأنهم أبناء "تيان" و يتلقون الوحي منه و هذه الأسرة أسرة وحيدة في تاريخ الصين من حيث أنها كانت حكومة دينية بتطبيق أوامر الإله . و قد وضعت أسرة "جيو" نظاما للعبادة باسم الإرادة الإلهية حيث حدد للملوك عبادة "تيان" (الإله السماوي) و حدد للأشراف أن يعبدوا آلهة الجبال و السهول ولم يسمح لعامة الناس إلا أن يعبدوا أسلافهم فكل واحد يعبد في الحدود المسموحة له ويعتبر تجاوز الحد فسادا[٤٩٦]

ثم سقطت أسرة "جيو" في القرن الثامن قبل الميلاد وبسقوطها تخلل ذاك النظام الديني و بدأ الأشراف و العوام يعبدون "تيان" كما كان يفعله الملك وحده من قبل ويوجهون السجود والقرابين إليه مباشرة كما يفعلون كذلك للآلهة الأخري .

وعلي أية حال لا يهمنا سقوط تلك الأسرة وإنما المهم هو أن الإله الواحد (تيان) صار معبودا للجميع بعد انقراضها وهذا التغير في العبادة كان ذا شأن عظيم في الديانة الصينية نحو التوحيد . وهذا ما يراه المؤرخون من تطور العقائد الدينية في الثقافة الصينية حسب التسجيلات التاريخية .وقد نوافقهم علي هذا الرأي إلي حد ما لأنه مشهود بالأدلة التاريخية ولكن تاريخ الصين لم يبدأ بهذه التسجيلات بل أقدم من ذلك بكثير حيث مضي لهم وقت طويل قبل أن يسجلوا أفعالهم بالكتابات لأن الكتابة إحدي نتائج العقلية المترقية ولا تحصل إلا بعد التطورات العقلية عبر التاريخ فإننا لا نعرف شيئا عما كان الناس قبل هذه التسجيلات المكتوبة .فلا نستطيع أن نحكم علي القدماء الصينيين بأنهم بدأوا تدينهم بعبادة الظواهر الكونية ثم مروا بتعدد الآلهة وتطوروا إلي نزعة التوحيد ولا يمنعنا من موقف الإسلام أن نتصور بأن التوحيد كانت صورة أولي لديانة الصينيين الأقدمين كما هو شأن لجميع بني آدم ثم انحرف الناس عن التوحيد ووقعوا في الوثنية والشرك حتي جاء نذير من الله و دعا إلي التوحيد فيميلوا إلي النزعة التوحيدية .

---

[٤٩٦] لو قو لون : «فلسفة الديانة الداوية» ، المطبعة هوا شيا ، ١٩٩٧م ، ص: ٣٠ .

ومن الأسف أن الصينيين بعد ما توصلوا إلي النزعة التوحيدية عبر القرون مال بعضهم مع انقراض أسرة "جيو" إلي الشك فى الإله الأعلى و ظهر هذا الاتجاه بين العوام(٤٩٧) فأخذ بعضهم ينكرون وجود الإله في حين ينتقد البعض الآخر عقائد دينية وهكذا لما كان عصر لوتس كان الفساد في الدين والعقيدة قد بلغ إلي عوجه فى المجتمعات الصينية .

ولد لوتس في القرن السادس قبل الميلاد وليس بعيدا عن سقوط أسرة "جيو" و كان عصره عصر الفوضي والاضطراب من تخلل الأخلاق والعقائد بسقوط النظام الديني الذي تحكم به أسرة "جيو" فنزعة الشك والإلحاد كانت شائعة في عصره ولذلك يري كثير من الناس في العصور المتأخرة أن لوتس نفسه ينتمي إلي أناس ممن يشكّ في الإله وينكر وجوده وأن أفكاره خالية من عقيدة الألوهية و قال بعض الباحثين المحدثين بأن لوتس لا يؤمن بإله ولا بأي دين وأنه لم يترك مكانا لإله في الكون [٤٩٨] .

وإننا لن نوافقهم علي أن لوتس ملحد لا يؤمن بالإله ولا بأي الدين وإننا لا نشك في إيمان لوتس بالإله بل نري أنه مصلح ديني كما هو مصلح اجتماعي . ومما أدّي إلي هذا الخلاف بيننا وبينهم هو أن أفكار لوتس كلها تدور حول "داو" ولكن لوتس لم يصرح بألوهية "داو" بل أعطي له مفاهيم عديدة حتي أحيط هذا المفهوم بغموض وإلتباس مما يخيل للناس أن "داو" مجرد التصور أو النظام الطبيعي و ليس له وجود حقيقي خارج الطبيعة ولذلك فتحت المجالات للنزاع والمناقشة ولكن لوتس -- فيما نري -- تناول قضية الألوهية بطريقة غير طريقة علماء الدين وأثبت وجود الإله بأسلوب فلسفي .

ففي بحثنا هذا نود أن نكشف جانب الألوهية في فكر لوتس و نبحثه مستعينا بكتاب "داو ده جين" مقارنا بالآراء الإسلامية .

و الجدير بالذكر أن كل ما سنتكلم به عن عقيدة الألوهية هو مجرد عقيدة لوتس نفسه حسب كتاب "داو ده جين " وليست عقيدة الديانة الداوية عموما إذ أن الديانة الداوية لم تبن عقيدتها علي أفكار لوتس فقط وإنما تعتمد غالبا علي الكتب الأخري و كأن الداوية لم تأخذ من الكتاب إلا مفهوم "داو" مع أن هذا المفهوم إ متزج عندها فيما بعد بشخصية لوتس وتحول إلي مفهوم آخر وهو "تي شان لو جون " (السيد الشيخ الأعلي) و يراد به الإله الأعلي .

كما يجدر بالذكر أيضا أن الجانب الديني من أفكار لوتس هو ما أنكره معظم العلماء في العصر الحديث وإن دراستنا في هذا المجال قد تكون غريبة عند كثير من العلماء بل غير

---

[497] سنون يى كاىٔ : < تاريخ لوتس >، المطبعة الشعبية بان خؤ ١٩٩٢م ، ص: ١٤٧ .

[498] < مائة مسائل عن لوتس > ، ص:

مقبولة لديهم ولكنها دراسة موضوعية جديدة قائمة علي صميم أفكار لوتس في ضوء كتابه "داو ده جين" .

المبحث الأول "داو" -- وجود حقيقي وهو الإله

لقد عرف قدماء الصينيين قبل لوتس أن للعالم إلها وأنه خالق الكون و مدبر السماء والأرض و أنه يراقب شؤون الإنسان حيث يجزيهم علي حسناتهم ويعاقبهم علي سيئاتهم وأنه الإله في السماء والإله في الأرض. وقد أعطاه الناس أسماء مختلفة ويرجع كلها إلي حقيقة واحدة أنه رب العالم وبما أن هذا الإله وجود غيبي لا تدركه الحواس ولا تبلغ إليه العقول اختلف الناس فيه وبالتالي اختلفوا في العقيدة إذ عرفه بعض الناس حق المعرفة بطريقة أو أخري واعتقدوا به اعتقادا صحيحا فعبدوه حق العبادة بينما أخطأ البعض في المعرفة فضلوا في العقيدة والعبادة .

إن الحكيم لوتس كان عالما ومفكرا ومن المؤكد أنه قد إطلع علي تاريخ الثقافة الصينية إطلاعا كاملا حين كان يدير دار الكتب المحفوظة وأنه قد عرف ما كان عليه الناس السابقون من التقاليد والعقائد والنظم كما عرف كذلك ما طرأ علي وجه ذلك من التغير والانحراف . ثم ورث منها العناصر النافعة و ترك ما لا يوافق الحق في رأيه وقد عمل عملا يهذّب الثقافة الصينية ثم يعبّر عنها بصياغة جديدة . والدليل علي ذلك أنه لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا وقد تناولها وكانت فكرته تبدو غريبة لأكثر معاصريه ولكنها لم تكن بدعة في تاريخ الفكر الصيني بل لها أساس من قاع الثقافة الصينية .

وإن لوتس -- كأحد أفراد المجتمع الذي نشأ في تلك البيئة المضطربة و تربي في ذلك الجو الثقافي و رأي بعينه الفساد في الناس -- حاول أن يصلح المفاسد الإجتماعية و لما كانت الحياة الدينية جزءا مهما لحياة الناس لا يتصور أن لوتس قد غفل عن هذا الجانب من الحياة بما أن الحياة الدينية تشكل لب الثقافة الصينية منذ القدم .

إننا نري أن لوتس كان فيلسوفا وحكيما ومؤمنا بالإله ورجلا من طراز الذين توصلوا إلي فكرة كاملة عن الإله و الكون و الإنسان بأسلوبه الخاص ، ثم حاولوا أن يعبروا عن آرائه بلغة فلسفية كما هو شأن الفلاسفة المتدينين ولعل الفيلسوف المسلم أبا نصر الفارابي كان أقرب إلي لوتس في المنهج وفي بعض الآراء حسب ما علمنا .

وتثبت الدراسة الدقيقة لكتاب (داو ده جين) أن لوتس وإن لم يعبّر عن إلهه بلفظ "الإله" إلا أنه كان مؤمنا بالإله الواحد وقد أتي بمفهوم "داو" وأراد أن يحله محل اسم الإله فـ"داو" في الحقيقة هو الإله عند لوتس .

ولما نقرؤ كتاب لوتس أول ما نواجهه هو مفهوم "داو" ثم نجد هذه الكلمة قد احتلت مكانا هاما في الكتاب حتي يدور نصف الكتاب أو كله حول بيان هذا المفهوم .

و كلمة "داو" لغة تعني طريقا و تكلما أو تلفظا ثم أستخدمت في المفاهيم المتعددة السابق ذكرها ثم نري كما يري أصحاب الديانة الداوية و بعض العلماء أن من بين مفاهيمها مفهوم الإله ولم نبن ذلك علي الخيال والفراغ بل إن نصوص الكتاب تشير بكل وضوح إلي ألوهية "داو" وتثبت أنه كائن حقيقي و إله عند لوتس .

وأرسي لوتس حجر الأساس لعقيدته الإلهية بكلامه الشهير :

هناك شيء متوحد ، وُجد قبل السماء والأرض وكان فى غاية الغربة والوحشة وهو قيوم لا يتغير وفعّال لا يتوقف و قد يكون أم السماء والأرض و لا أعلم اسمه فسميته "داو" بالجبر و سميته العظيم" بالجبر .(ف :٢٥) .

العبارة بسيطة و دلالتها واضحة و النص شكّل بيانا قاطعا علي إيمان لوتس وأفادنا أهم الأشياء في عقيدة الألوهية لدي لوتس وهي كما يلي :

أولا : أن هناك كائن حقيقي قبل وجود الكون وهو الأول ولا شيء قبله .

ثانيا: أنه واحد ولم يكن شيء معه قبل نشاة الكون لأنه " متوحد" و "فى غاية الغربة والوحشة"

ثالثا: أنه قائم بذاته وليس له موجد ويبقي حيا أبديا لأنه " قيوم لا يتغير".

رابعا: أنه يفعل ما يريد ويعمل كل ما شاء ولا يتوقف عمله أبدا لأنه " فعّال لا يتوقف".

خامسا: أنه خالق السموات والأرض وليس مخلوقا لأنه " أم السماء والأرض" .

سادسا: ليس له اسم بل سمّاه لوتس بـ"داو" علي الجبر لا علي وجه الحقيقة.

ثم إن "داو" عند لوتس ليس شيئا ماديا وهو منزه من جميع العلائق المادية وقال : ما لا يرى يقال له شفوف وما لا يسمع يقال له رقَة وما لا يلمس يقال له لطافة وهذه الثلاث لا تبحث عنها و قد اختلطت كالواحد. لا يتنور أعلاه ولا يتظلّم أسفله . يا للقدم إنه يتعالى عن التسمية فيعود إلى العدم و هذا ما يقال له الوضع بلا هيئة و الصورة بلا جوهر وهو الغامض فلا يرى وجهه عند المقابلة كما لا يرى ظهره عند المتابعة. (ف : ١٤) .

النص يتحدث عن "داو" بأنه لا يدرك بالبصر ولا بالأذن ولا باليد ولا يعرف بطريقة معروفة حيث أنه لا يري ولا يسمع ولا يلمس وقد إجتمعت هذه الخصائص الثلاثة في نفس

"داو" فليس "داو" كالأشياء المادية التي لها جزء أعلي وجزء أسفل ويكون أعلاه مبصرا وأسفله مظلما وليس كالأشياء التي يقابل من الأمام ويلحق من الوراء وبالجملة إنه ليس من الجنس الذي نستطيع معرفته بالتجارب الحسية ولكنه ليس معدوما أو مجرد تصور بل هو كائن حقيقي ووجود مطلق وله وضع بلا هيئة وله صورة بلا الجوهر المادي فكان وجوده يغاير وجود الكائنات التي نعرفها . وفي الحقيقة أراد لوتس بهذه العبارات أن يثبت روحانية "داو" وينفي منه الأوصاف المادية وبناء علي هذا فإن "داو" عند لوتس هو كائن روحي [٤٩٩] و هو ما لا يدرك بالحواس ولذلك عبّر عنه ب"العدم" فقال : فيعود إلي العدم " و قال في نص آخر : إن العدم مبدأ السماء والأرض " (ف : ١) فالعدم هنا يراد به "داو" ولا يعني أنه معدوما بحتا بل أنه خفي وغائب عن الحواس والقصد من هذا أن يثبت أن "داو" وجود روحي أو كائن غيبي .

فالنصوص السابقة كشفت لنا أهم جوانب "داو" وأعطتنا تصورا واضحا عنه بأنه كائن حقيقي واحد وكائن غيبي وقائم بذاته وفعال وأبدي وأزلي وأنه خالق السموات والأرض.

لنقف هنا قليلا علي مفهوم الله عند المسلمين وإننا لو تتبعنا كتب علم الكلام لوجدنا أن معظم المتكلمين أو كلهم يبدأون بحوثهم عن الإلهيات بإثبات صانعية الله تعالي ويستدلون بوجود العالم علي صانعه ولعل ذلك أظهر في عقول الإنسان لأن عجائب خلق السموات والأرض وبدائع فطرة الحيوان تستدعي الإنسان إلي التصديق بوجود صانعها إذ أن تلك الأمور العجائب وذاك الصنع البديع والترتيب المحكم لا بد له من صانع يدبره ويحكمه ويفرده فالنتيجة من هذا الاستدلال هي أن الصانع هو الله تعالى وهو المبدئ المنشئ تبارك الله رب العالمين . و يشير أسلوب المتكلمين إلي أن أول خصائص للذات الإلهية هو صانعيته أي أن الله صانع العالم . وكذلك قد أثبت لنا لوتس أن "داو" أم السموات والأرض وبعبارة أخري أنه صانع العالم .

ثم يذكر المتكلمون أحوال الذات الإلهية تعالي بقولهم : صانع العالم واحد لا شريك له و صانع العالم قديم لا أول له و صانع العالم ابدي لا آخر له وصانع العالم مخالف للحوادث وصانع العالم ليس بجوهر لأن الجوهر متجزئ وتحله الحوادث وصانع العالم ليس بجسم وصانع العالم ليس بعرض لأن العرض لا قيام له بذاته بل هو مفتقر إلى جسم يقوم به والقديم

---

[٤٩٩]انظر قو دي : < الأيام العشر للحديث عن لوتس > ، المطبعة الفنية بالمقاطعة لن هوي ، ١٩٩٤م ، ص: ١٨٤.

عز وجل قائم بذاته غير مفتقر إلى محل يقوم به و صانع العالم ليس بصورة لأن الصورة تنشأ عن التركيب[500] .

ويعتقد الإسلام بأن الله منزه من كل الأوصاف المادية فلا يراه أحد ولا يدركه أحد كما قال القرآن : لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (الأنعام :١٠٣)
وتفيدنا الآية بأن الله وجود غيبي . وقد وصف الله نفسه ب" الظاهر والباطن" ويريد بذلك " الظاهر بالادلة الدالة عليه والباطن لكونه غير مدرك بالحواس "[501]
ولو قارنا ما يصف الله به المسلمون بما تصوره لوتس عن "داو" لا مفر لنا أن نقول بأن "داو" عند لوتس يقوم مقام الله عند المسلمين وإن الله هو الأول وليس شيء قبله فكذلك "داو" عند لوتس وإن الله خالق السموات والأرض فكذلك "داو" عنده وإن الله قائم بذاته وغير مفتقر إلي غيره فكذلك "داو" عنده وإن الله واحد لا شريك له فكذلك "داو" وإن الله فعال لما يريد فكذلك "داو" وإن الله متنزه من جميع الخصائص المادية فكذلك "داو" وإن الله باطن لكونه غير مدرك بالحواس فكذلك "داو" عند لوتس وقد عبر عن ذلك بالعدم و معني الباطن لا يختلف معني "العدم " عند لوتس فلو يوصف الله بالباطن فكان "داو" موصوفا بالعدم ولا تختلف حقيقتهما .

فلذلك لا شك أن "داو" هو الإله عند لوتس وأن كلمة "داو" .اسم خاص لله عنده ومن ثم نجزم علي أن لوتس كان يؤمن بالإله وأن جزءا من مباحثه عن قضايا "داو" كان يعامل قضية الألوهية .

وقد يطرح هنا سؤال : لوكان لوتس يؤمن بالإله فلماذا لم يذكر في كتابه عن "شان دى" أو "تيان" الذى يعتبر اسم الإله الأعلى منذ القدم إلى عهد لوتس وما بعده في عقيدة الناس ؟

وقد أجاب بعض العلماء قائلا : حقا إن "شان دى" أو "تيان" كان الإله الأعلى عند الناس منذ العصور القديمة كما يشهده التاريخ وكان الناس يعبدونه ولكن أثناء التطور التاريخى طرأت على هذا الإيمان التغيرات ، فاختلطت العبادات النقية بالخرافات والبدع ، وغلب الشرك والوثنية على التوحيد حتى مالت العقائد إلى الوثنية، و العبادات أصبحت شكلية فقدت فيها المعانى النبيلة بل أحيطت حولها بالأهواء والمآرب الشخصية كما أن الحكام كانوا يستخدمون العبادات كوسائل دينية لمصالح سياسية(٥٠٢) ، وإن الناس بأعمالهم الوثنية السيئة دنّسوا اسم "شان دى" واسم "تيان" ، وهذا هو الواقع في زمن لوتس . فأراد لوتس أن يبرئ نفسه من

---

[500] انظر جمال الدين أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد المتوفي سنة ٥٩٣هـ ، < كتاب أصول الدين > ، دار البشائر الإسلامية ،بيروت ،١٩٩٨م. ص: ٦٢-٧٣.

[501] العلام عمر النسفي < التفسير النسفي > ج ٤ ص :٢١٤.

[502] تشين قو بين : < لوتس شرحا وتعليقا > ، دار الكتب الصينية ، ١٩٨٤ ، ص:٢١٧ .

القوم المشركين فعدل عما كانوا عليه ، واختار للإله الأعلى اسما آخر ـــ "داو" ، فعظّمه وقدّره[٥٠٣] .

ومن جانب آخر يمكن لنا القول بأن لوتس كان فيلسوفا ، وكان مصلحا اجتماعيا أكثر منه مصلحا دينيا فعالج قضايا الألوهية بالأسلوب الفلسفي مما جعل الناس متحيرين فى مقاصده ولم تظهر القضية كقضية دينية ، فلا يستغرب أن ينسب إليه الإلحاد أو كان متهما بأنه عالم طبيعى مادي وغير ذلك لعدم فهم الناس لقصده الحقيقى .

وقد شاع بين الناس في العصر الحاضر أن لوتس كان ناقدا لتقاليد الصين بل رافضا لثقافتها كلية فكيف يلتزم بالعقائد القديمة ؟

و الحقيقة أن لوتس قبل رفض الثقافات القديمة قد ورثها جميعا أولا وعرف حقيقتها ثم نقد منها ما لا يوافق الحق في رأيه ورفض منها ما يبدو له باطلا وأثبت الحق الذي كان يتمسك به الحكماء السابقون من رجال الدين و أهل المعرفة و كأن لوتس كان يلعب ذلك الدور الذي يجدد صياغة للثقافة القديمة . وهو من هذا المنطلق قد يعتبر مجددا و مصلحا للتقاليد القديمة بل نقول بأنه كان مصلحا للعقائد الدينية في تاريخ الثقافة الصينية.

وعلي كل حال نقول إن لوتس يؤمن بالإله الواحد في الكون و ليس ملحدا رافضا لوجود الإله كما يزعمه بعض العلماء ونقول كذلك إن لوتس أتي بمفهوم "داو" يعبر به عن مفهوم الإله فكلمة "داو" اسم للإله الواحد عنده .

إنمـــا نخـــوض في إثبات ايمان لوتس بوجود الإله وبألوهية "داو" لأن القضية كانت خفية ومـــبهمة في كتابه حتي يتخيل بعض الناس أن عقيدة الألوهية كانت خالية في فكر لوتس والحقـــيقة عكـــس ذلك وأما الإسلام الذي نقارنه بفكر لوتس فهو واضح كل الوضوح في الإيمان بالله بل أن الإيمان بالله هو ركن من أركان الإسلام وإن أساس الإسلام هو شهادة أن لا إلـــه إلا الله وأن محمـــد رســـول الله ويصرح القرآن بأن الله هو الإله في السماء و الأرض فـــإن كان بعض الناس يشكون في عقيدة لوتس بالإله فإنه ليس لهذا الشك مجال في الإســـلام . وإن قضـــية وجـــود الله هي أهم القضايا في الإسلام وهي تعتبر حدا فاصلا بين الإســـلام وغيره وذلك أن الإسلام يري أن قضية الإيمان بالله ليست قضية علمية تجريبية بل قضية فطرية بحيث لو عاش الإنسان علي فطرته السليمة لاستطاع أن يعرف الله ويؤمن به فالإيمان بالله كان مغروسا في نفوس البشر ويظهر عند تدبره عن نفسه وعن العالم خارجه. إلا إذا سدت العوائق في سبيل الإيمان وانحرفت النفس عن الفطرة السليمة وزلّت الأقدام عن الصراط المستقيم . وقد قال القرآن الكريم :فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس

---

[٥٠٣] المصدر السابق ، ص : ٢١٧ .

علـيها ولا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .(الروم :٣٠) وقد قرر القرآن بهذه الآية أن الإيمـان بوجـود الله أمر تقتضيه الفطرة الإنسانية وتميل إليه نفوسها إذا خلا من العوائق ويؤيد هذا الرأي ما روي عن النبي محمد صلي الله عليه وسلم إذ قال : كل مولود يولد علي فطـرة فـأبواه يهودانـه وينصـرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل تري فيها جدعاء[٥٠٤]

يبيـن لنا الحديث الشريف أن توجيه الوالدين قد يغوي المولودين ويضلهم من سواء السبيل ولو ترك المولود علي فطرته لسار بهدي فطرته السليمة إلي الرشاد والسداد كما برهن لنا بعـض العلمـاء مـن قصة حي ابن يقظان وإن كانت القصة خيالية إلا أنها أعطتنا طرق الاستدلال علي وجود الله وطرق المعرفة بالله اعتمادا علي فطرة الإنسان السليمة.

يبدو أن قضية الإيمان بالإله عند لوتس كانت قضية مسلمة إذ أن السابقين عليه كانوا يؤمنوا بوجود الإله ولم يخالف في ذلك إلا قليل من أهل زمانه وكان لوتس يؤمن به إيمانا يقينا فلم يناقش قضية الألوهية مناقشة جدية كما لم يبذل جهدا كبيرا في الإستدلال علي وجود الإله و لم يستخدم لغة دينية لإثبات وجوده بل عالج القضية بطريقة فلسفية ويدل هذا علي أن مسألة وجود الإله لم تكن مسألة خطيرة حينذاك إذ كانت معروفة لدي الناس وإنما تكلم لوتس عنها كالمسائل الفرعية و أبدي رأيه فيه قصدا لتصحيح بعض التصورات الخاطئة عن هذا الإله عند الناس .

واعتمد لوتس علي بعض أدلة عقلية لإثبات وجود الإله -- "داو" ، منها دلالة الأثرعلي المؤثر كما هو واضح في الفصل الأول من كتابه حيث قال : " ولذلك كان "داو" ... وجودا دائما بالنظر إلي آثاره" (ف: ١) و يعني النص أن "داو" دائم الوجود وكان وجوده مشهودا بوجود السموات و الأرض وهما كآثاره الدالة علي وجوده فوجه الدلالة واضح أن الأثر لا يخلو من المؤثر فبوجود الأثر يثبت وجود المؤثر والمؤثر هو "داو" .

ومن طرق الاستدلال علي وجود الإله عند لوتس أنه استخدم دلالة الحدوث وإن لم يصرّح لوتس نفسه بذلك بل كان الأمر يجري مجري ذاك النوع من الاستدلال و قال لوتس : " تبقي السماء وتخلد الأرض . إن السماء والأرض قديمتان باقيتان وذلك لأنهما لا تتوالدان بنفسيهما ومن ثم تخلدان " (ف:٧) .

واضح من النص أن البقاء والخلود هنا لا يراد بهما وجود أبدي وأزلي بل المراد منه طول الوقت لأن العالم وإن بقي وقتا طويلا إلا أنه مولود من غيره فلا يزال عمره

---

[٥٠٤] رواه البخاري .

محدودا . و وجه دلالة هذا النص علي وجود الإله أن العالم لم يولّد نفسه وكان وجوده أو عدمه يتوقف علي سبب خارج نفسه فهو لا يقدر علي إبقاء نفسه أو إهلاكه ولو بقي وقتا طويلا فذلك ليس من سبب نفسه بل من شيء أخر قد حفظه وأبقاه وذلك الشيء هو "داو".

ولا يخفي أن لوتس في إستدلاله هنا علي وجود الإله اعتمد علي دليل قد يقال له دليل الحدوث أو دليل الخلق لأن العالم لم يولّد نفسه بل ولّده غيره وهذا يشير إلي أن العالم حادث لا قديم فبحدوثه ثبت وجود محدثه أو مولّده وهو "داو" أو أن العالم مخلوق فلا بد لوجوده من خالق والخالق هو "داو" .

إن طرق الاستدلال عند لوتس لم تكن غريبة لنا بل هي معروفة ومشهورة في أوساط العلماء المتدينين إلا أن لوتس أقدم منهم و قد يمكن أن يعتبر لوتس طليعا من طلائع الفلسفة الدينية .

والإســـلام لـــم يترك قضية الإيمان علي فطرة الإنسان وحدها بل أرشدهم إلي إيقاظ هذه الفطـــرة بتلفيت عقولهم وأنظارهم إلي ما خلق الله في الكون وفي أنفس الإنسان حتي يتبين لهـــم أن وجـــود الله حق ، وقال القرآن الكريم : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق (فصلت:٥٣)

القـــرآن يحـــتج علي وجود الله بما خلق في الآفاق وما في الأنفس ويعتبر ذلك آيات لوجوده تعالي فالطريق المباشر إلي معرفة الله يبدؤ من جهتين :

(١) النظر إلي الآفاق.

(٢) النظر إلي الأنفس .

إن الإنســـان إذا رفـــع بصره إلي ما فوقه من السماء وتدبر ما فيها من الجمال والروعة والإتقـــان لاعترف من صميم قلبه بأن هذا الكون وما فيه لم يوجد عبثا ولم يكن موجودا بنفســـه بـــل له خالق حكيم عليم وقد أشار إلي ذلك القرآن العظيم :" إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب " (البقرة :٦٥) .

ثم لو رجعنا بصرنا إلي أنفسنا ونظرنا ما فينا بعين الاعتبار لوجدنا فيها نفس الإعجاب ما لا يقـــل مـــن إعجابنا بالكون العظيم ولقد خلق الله تعالي فينا أكبر الآيات التي تدل علي قدرته ووجـــوده وهي الحياة فإنها ما لايقدر عليه إلا من كان حيا قيوما مبدعا قديرا و قال القرآن الكـــريم : وكـــيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم (البقرة:٢٨) وقال : تبارك الذي بيده الملك وهو علي كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا .(الملك

:١-٣) فالحـــياة ومـــا يتعلق بها من السمع والبصر والعقل وكل ذلك يأخذ بنا إلي إثبات وجود الله كما أن الكون شاهد علي وجوده.

ومن العلماء المسلمين من بذلوا جهودهم في الاستدلال علي وجود الله بناء علي توجيه القرآن الكريم فنأخذ أبا منصور الماتريدي علي سبيل المثال وكان يستدل علي وجود الله بدليل السببية مؤداه " أن العالم لا يستطيع أن يوجد نفسه أو يصلح ما فسد منه إذ يحتاج إلي موجد يوجده" [٥٠٥] ثم يقول الماتريدي : "لوكان يوجد بنفسه لوجب أن يبقي علي حالة واحدة لا يريم عنها أبدا فمن الضروري أن يوجد سبب للتغير" [٥٠٦] . ونلاحظ أن طريق الاستدلال عند الماتريدي قريب من استدلال لوتس من جهة ومخالف له من جهة أخري ولكنهما يعطيان في الأخير نتيجة واحدة وهي أن العالم يفتقر إلي الموجد والخالق وأن وجود العالم يدل علي وجود الموجد .

وليس علماء الكلام هم الذين قد خاضوا في هذه القضية بل كان الفلاسفة المسلمين أكثر نشاطا في هذا المكال باعتبار استخدام الوسائل العقلية في إثبات صانع الكون إحدي وظائفهم فأتي أبو نصر الفارابي بطريق آخر يقال له دليل الوجوب وإنما نذكر الفارابي لأن الطريق الذي أتاه صار طريقا شائعا بين العلماء في ما بعد بل استخدمها الفلاسفة المتدينون عموما . وقد استدل الفارابي علي وجود الله بطرق فلسفية إذ قسّم الوجود إلي واجب الوجود وممكن الوجود وعرّف ذلك بقوله :[الموجودات علي ضربين : أحدهما إذا اعتبرت ذاته لم يجب وجوده ويسمي ممكن الوجود والثاني إذا اعتبرت ذاته وجب الوجود ويسمي واجب الوجود] وفصّل هذه العبارة بصيغة أكثر وضوحا : ممكن الوجود هو الذي [إذا فرضناه غير موجود لم يلزم عنه محال] و واجب الوجود هو [متي فرض غير موجود لزم منه محال][٥٠٧] .

ثم استدل الفارابي بوجود الممكنات علي وجود الله حيث يري أن ممكن الوجود هو ما استوي في أمره الوجود و العدم فلا غني إذن لوجوده عن علة و هذه العلة إذا كانت ممكنة فلا بد لها من علة أخري ولكن [لا يجوز فيما يتعلق بالأشياء الممكنة أن تمر بلا نهاية في كونها علة و معلولة ولا يجوز كونها علي سبيل الدور بل لا بد من إنتهائها إلي شيئ واجب هو الموجود الأول][٥٠٨] ويعني ذلك أن الكائنات كلها ممكن الوجود وأما السبب الأول فهو وحده واجب الوجود وأن الممكنات تنتهي إلي واجب الوجود . وهذا واجب الوجود هو الله فالكائنات في نهاية المطاف تشهد وجود صانعها .

---

[505] أنظر : ابن الرشد : < مناهج الأدلة في عقائد الملة> ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص: ٢٢.
[506] ابن الرشد : < مناهج الأدلة في عقائد الملة> ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص: ٢٢.
[507] ابو نصر الفارابي : < عيون المسائل > ، النص منشور في < المجموع للمعلم الثاني والفيلسوف الإسلامي > ، ص: ٦٦.
[508] < عيون المسائل > ، ص: ٦٦.

نجد من هذه المقارنة أن الإسلام يثبت وجود الله وألوهيته إثباتا مباشرا باللغة الدينية مع تلفيت النظر إلي بعض الشواهد العقلية ثم يأتي العلماء يتفلسفون في الاستدلال علي وجود الله وفي الكلام عن الذات الإلهية ويقال لهذا النشاط علم الكلام أو الفلسفة الدينية وأما ألوهية "داو" فلعلها كانت واضحة في ذهن لوتس ولكنه لم يعبر عن ذلك باللغة الدينة المباشرة بل تناول القضية تناولا فلسفيا فشأنه كشأن الفارابي في الإسلام لما يناقش القضايا الألوهية وكان أسلوب لوتس في الاستدلال لم يختلف عن سائر العلماء اللاهوتيين ولكن لا ننسي أن لوتس يعيش قبل عيسي عليه السلام بخمسة قرون وقد أتي بما يأتي العلماء اللاهوتيون بعده بزمن طويل فكانت فكرته جديرة بالتقدير .

المبحث الثاني خصائص "داو" (الأسماء والصفات)

قد أثبتنا فيما سبق أن لوتس كان يؤمن بالإله ولكنه كان يواجه صعوبة في تسمية ذاك الإله كما قال : "يا للقدم إنه يتعالى عن التسمية " (ف:١٤) "و لا أعلم اسمه" (ف:٢٥) وذلك لأن الإسم تابع لمسماه فيجب أن يطابقه إما من ناحية الحقيقة أو الوظيفة أو الصورة ولكن كل ذلك مستحيل علي ذلك الوجود الغامض الذي يعتقده كالإله إذ هو لا يري ولا يسمع ولا يلمس[٥٠٩] وهو لا يشبه شيئا في الأرض ولا في السماء[٥١٠] ولا يتكلم عنه أصلا[٥١١] فهو وجود مطلق لا تدرك حقيقته وليست له صورة مادية مرئية فلا إسم يناسبه كما يقول النص : و إن إسما يمكن التسمية به ليس بالاسم الدائم (ف:١) و يعني أن الإسم أيا كان فهو لا يطابق هذا الوجود المطلق .

ولكن لوتس من أجل تسهيل الذكر سمّاه "داو" و هذه التسمية ليست علي وجه الحقيقة وإنما سمّاه بذلك علي وجه الجبر كرمز له كما قال : لا أعلم اسمه فسميته "داو" بالجبر و سميته العظيم" بالجبر.(ف :٢٥) والجدير بالذكر أن كلمة "داو" لا تحمل قط معني الإله أو المعبود وإنها لغة تعني طريقا و تكلما فوضعها لوتس رمزا للإله عنده .

و يحسن بنا أن ننقل هنا بعض العبارات من أحد العلماء في العصر الحاضر لهذه القضية :

---

[٥٠٩] يقول لوتس :" ما لا يرى يقال له شفوف وما لا يسمع يقال له رقة وما لا يلمس يقال له لطافة" (< دلو ده جين> الفصل :١٤) ويعني أن "دلو " علي هذه الصفات .

[٥١٠] يقول لوتس :" لا مثيل له ولكونه عظيم لا يشبه شيئا حتى إذا ما أشبه شيئا لبقي ضئيلا. (< دلو ده جين> ، ف:٦٧)

[٥١١] يقول لوتس : إن "دلو" الذي يمكن الكلام عنه ليس ب"دلو" الدائم (< دلو ده جين> ، ف:١) ويعني أن "دلو" لا يمكن أن يتكلم عنه .

" إن "داو" لايمكن أن يعطي له إسم لأنه غير مصور . لماذا فرض لوتس بأن "داو" غير مصور؟ ذلك أنه لوكان ذا صورة أو ذا شكل لأصبح شيئا متحيزا في مكان محدد وفي زمن معين ، فيتغير بتغير الزمان و المكان فلا يكون باقيا . والحقيقة أن "داو" باقٍ بذاته فلا يكون مصوراً ... وكذلك أن "داو" غير محدد ، وإذا سميناه بشيء فقد حددناه به لأننا إذا أطلقنا اسماً على شيء معين فلا نسمي به شيئا آخر لأننا قد حددناه بذلك الإسم ..." إهـ"[٥١٢].

وعلي أية حالة لا نجد اسما مناسبا ل"داو" علي وجه الحقيقة فأجبر لوتس علي تسميته ب"داو" من باب تسهيل الذكر.

وبعد ما سمّاه لوتس ب"داو" علي وجه الجبر أطلق عليه اسماء أخري من نفس المنطلق حسب بعض خصائصه مثل " الوجود " و "العدم " كما قال : إن "العدم" مبدأ السماء والأرض وأما "الوجود" فأم الكائنات " (ف : ١). و"الوجود" و"العدم" هنا يراد بهما "داو" نفسه وهما سمتان متضادتان ل "داو" فأطلقا علي "داو" وأراد لوتس ب"الوجود" وجود ذاته الخالقة و وجود أثره في المخلوقات. وأراد ب"العدم" غيابه عن العيون وخفائه عن الحواس كما قال أحد مفسري كتاب "داو ده جين" في القرن الثالث الميلادي : لو نقول بالعدم فكيف تولدت منه الكائنات ولو نقول بالوجود فلا نرى صورته"[٥١٣] ومعنى ذلك أن "داو" عدم نظرا إلى خفائه عن الحواس وفي نفس الوقت وجود نظرا إلى ظهور أثره في المخلوق وجلائه في العقول[٥١٤] فهو بعبارة أخري الظاهر والباطن.

ولعل أشهر الأسماء بعد اسم "داو" يكون اسم "الواحد " لأن لوتس دائما يعبّر عن "داو" ب"الواحد" كما جاء في النص:إن الذين إهتدوا إلي الواحد في القديم هم: السماء إهتدت إلي الواحد فصفت ثم الأرض إهتدت إلي الواحد فأمنت ثم الروح إهتدت إلي الواحد ففطنت ثم الوادي إهتدي إلي الواحد فامتلأ ثم الكائنات إهتدت إلي الواحد فنمت ثم الأشراف إهتدوا إلي الواحد فصلح بهم العالم (ف:٣٩). ويري العلماء أن كلمة "الواحد" في النص كلها يرد بها "داو" دلالة علي وحدانيته .

وكذلك أطلق عليه اسم أم الكائنات أو أصل الكائنات كما جاء في النصوص التالية:

وأما العدم فأم الكائنات(ف:١)

يا لقدمه ! كأنه أصل الكائنات(ف:٤)

فالاسم الأظهر للإله عند لوتس هو "داو" وأما بقية الأسماء فتستعمل أحيانا ويفهم من مدلولها علي أنها أسماء الإله .

---

[٥١٢] لوتس شرحا وتعليقا ... ، ص:٣.

[٥١٣] شرح وان بي > ، النص منشور في < ماذا يقول لوتس فعلا > ، قوه شي مين ، مطبعة اللغة الصينية ،ص:

[٥١٤] انظر : < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٣.

و قضية التسمية قد تأتي بنا إلي مسألة أخري وهي أن لوتس ربّما لم يتلق الوحي من الإله و لم يكلمه و لم يكن نبيا ولا رسولا من إله العالمين إلا فقد عرف إسم الإله علي الأقل و صرح بما كلّفه ذلك الإله كما يفعله الأنبياء السابقون ولما أرسل موسي عليه السلام إلي بني إسرائيل قال لربه فإذا سألوني ما اسم الإله فماذا أقول قال الله لموسي :" هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم "[٥١٥] وبهذا عرف موسي وبنو إسرائيل أن يهوه إلههم .

ولما أوحي الله إلي رسوله الكريم محمد صلي الله عليه وسلم ثم بينه الرسول لأمته بلسان عربي مبين وفصّل كل شيء تفصيلا فلا يأتيه الريب من بين يديه ولا من خلفه ولما قال الله تعالي في كتابه العزيز :إنه أنا الله العزيز الحكيم " (النمل :٩) عرفنا يقينا بأن ربنا هو الله وقد سمي نفسه باسم الله .

ثم ذكر الله أن له أسماء أخري غير اسم الجلالة وقال : "ولله الأسماء الحسني " (الأعراف :١٨٠) وورد في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال النبي عليه السلام :إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر ".
واختلف العلماء في تحديد بعض الأسماء إلا أن عدد الأسماء لم يتغير وهذه الأسماء في الحقيقة تعبر عن صفات الله تعالي . ونذكر بعضا منها علي سبيل المثال :

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور...... المبدي المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن ......
نكتفي بذكر هذه الأسماء وإنها تمثل خصائص الله ونقدر علي معرفة جوانب الذات الإلهية بها و أما "داو" عند لوتس فكذلك له صفات أو خصائص و نذكر أهمها فيما يلي :

(١) "داو" -- مصدر الكون و مصيره

يري لوتس أن العالم لم يكن ثم وجد و قبل وجوده لم يكن إلا "داو" ثم نشأ منه العالم وقال : إن العدم مبدأ السماء والأرض وأما الوجود فأم الكائنات. (ف:١)
ويقول في مكان آخر : إن الكائنات في العالم تولّدت من "الوجود" (ف:٤٠) .
يا لقدمه ! كأنه أصل الكائنات ؛ (ف :٤) .

---

٥١٩ . العهد القديم > ، خروج ٣٠: ١٥.

المراد ب "العدم" و"الوجود" كما ذكرنا هو "داو" نفسه والنص يثبت أن "داو" هو أصل السموات و الأرض و مصدر الكائنات والنصوص كلها تدل علي أن الكائنات وجدت من "داو" وتولدت منه فهو أصل الكائنات .
وقد نجد فكرة نشأة الكائنات أكثر وضوحا في النص التالي : إن داو ولد واحدا والواحد ولد اثنين والاثنان ولدا ثلاثة والثلاثة ولدوا الكائنات .(ف :٤٢)
إن العلماء وإن إختلفوا في شرح هذه الأعداد إلا أنهم لم يختلفوا في أن النص يعتبر "داو" أصل الكل ومبدأه وبعبارة أخري هو خالق الكون وصانع العالم وأن الكائنات وجدت منه ابتداء من القلة إلي الكثرة كما يدل عليه ظاهر النص .

ثم يري لوتس أن الكون بما فيه الكائنات الفردية يجري علي نظام دوراني حيث يبدأ من نقطة معينة ثم يتطور و يزدهر ثم يتدهور حتي يعود أخيرا إلي نقطة البداية و أن العالم كوحدة واحدة نشأ من "داو" و قد تطوّر إلي ما نراه اليوم من التنوع والإزدهار و لكنه سيعود إلي أصله ويقول لوتس : إنّ الكائنات تزدهر ولكنى أراها تعود. (ف: ١٦)
وبمعني أن الكائنات قد تصل إلي قمة الإزدهار بعد نشأتها من شيء بسيط ولكنها حسب القانون الدوراني تعود أخيرا إلي أصلها وهو "داو" وهو عدم فكما بدأ العالم من العدم يعود إلي العدم فيبقي "داو" بعد ذلك واحدا .
ولعل الإسلام عبّر عن هذا المعني بالأول والآخر بمعني أنه موجود قبل حدوث الكون وأنه باق بعد فناء العالم فقال القرآن : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (الروم:١١) ويعني أن الله كان ولم يكن معه شيء ثم خلق العالم من لا شيء وأبقاه إلي أجل مسمي ثم يهلكه كما قال : "لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه " (القصص:٨٨). فهو المبدئ والمصير وأن العالم جاء من لا شيء و يفني في الأخير ويبقي وجه الله تعالي .
فالله هو الأول والآخر لأنه أزلي وأبدي وقد وجد قبل الزمان ويبقي بعد الزمان كما أن "داو" أصل الكائنات ومصيرها عند لوتس .

(٢) داو ---- مدبّر الكون و رب العالمين

إن كتاب < داو ده جين > يعطينا صورتين لعلاقة "داو" بالكائنات إذ أنه يصف "داو" بمصدر الكائنات وأصل الكون حيث أنه ولّد الكائنات أو صدرت منه وهذا يأتينا بانطباع أن الصدور أو الولادة كان علي الطبع لا من اختيار ولا إرادة .

وإضافة علي ذلك أن لوتس نفسه لم ينسب كلمة "رب العالمين" إلي "داو" صراحة بل ينكر ذلك أحيانا برفض ملكية السموات و الأرض ل"داو" وبنفي تأثيره في الكائنات كما قال : ومن الفضيلة السرية إيجاد العالم بلا تملك و تزهيته بلا تفخر وتنميته بلا سيطرة (ف:٥١)..
وهذا يجعل بعض الناس يعتقدون بأن "داو" مجرد نظام طبيعي اكتشفه العقل الإنسان وليس شيئا مشخصا وبهذا المعني لا يكون "داو" رب العالمين ولذلك ينكر كثير من الناس ألوهية "داو" .

ولكن الدراسة الدقيقة تكشف لنا صورة أخري لعلاقة "داو" بالكائنات و نري أن لوتس قد نسب صفات الربوبية إلي "داو" فقال : ولذلك ولده "داو" ويحميه "ده" ثم ينمّيه ويربّيه و يخرج إنتاجه و ينضجه ويراعيه ويحفظه (ف:٥١).

ذكر لوتس في هذا النص مفهومين: "داو" و"ده" ، وقد تعرّفنا عليهما فيما سبق [٥١٦]. ولا بأس أن نكرر هنا للضرورة إن "داو" هو اسم ذاتي للإله عند لوتس وأما "ده" فهي صفات له. فالعلاقة بينهما هي علاقة الذات بالصفات وكما هو المعروف أن الصفات ليست عين الذات ولا غيره علي ألسنة علماء الكلام في الإسلام فهما في الحقيقة واحد و كذلك "ده" عند لوتس ليس مغايرا لذاته وخارجا عنه ولذلك يقول أحد العلماء القدماء : إن "داو" و"ده" مراد بهما إله السماء و الأرض [٥١٧] . فهما واحد ولذلك الأعمال التي تنسب إلي صفة ترجع في الحقيقة إلي الذات .
فبناء علي هذا يعني النص المذكور أن "داو" بعد ما أصدر العالم لم يتركه ولم يهمله بل حماه و حفظه و ربّاه ولا يزال يعمل هذه الأعمال و لعل خير شرح لقصد النص ما قاله "خه شان قون" من قوله :إن علاقة "داو" بالكائنات هي أنه لم يكتف بإنجابها بل كان يربيها وينضجها ويحفظها و يكمل حياتها[٥١٨] . وواضح من هذا أن لوتس أراد بهذا النص أن يثبت ربوبية "داو" . وقد نستشهد علي هذا ببعض الأقوال من المتخصصين في الفلسفة الداوية مما يدل علي أن "داو" ربّ الكائنات عند لوتس:

"إن علاقة "داو" بالكائنات لن تكون علاقة الولادة فقط و إنما يلدها و يصوّرها و يدبّرها ويكملها" [٥١٩].

" كان لوتس يهتم ب"عدم" ويهتم ب"داو" ولا يهتم ب"وجود" و الأشياء ويري أن داو هو أصل الكل وأن الأشياء مولودة له وبهذا رفع مكانة داو إلي ربّ الكائنات" [٥٢٠]

---

[٥١٦] انظر صفحة من هذا البحث .
[٥١٧] يان جون بين : < المرجع إلي لوتس > ص: ٤٧ ، دار الكتب الصينية ،١٩٩٤م .
[٥١٨] خه شان قون : < تفسير خه شان قون > ص :١٩٧، دار الكتب الصينية ، ١٩٩٣م.
[٥١٩] < المرجع إلي لوتس > ، ص: ٤٦ .
[٥٢٠] انظر < الترجمة الجديدة للوتس > ، ص: ٢٩.

"هذا الفصل أي الفصل الواحد والخمسون يوضح فكرة الربوبية ل"داو" بأنه يربّي الكائنات بواسطة عدم الفعل ، وأن الكائنات تنمو تحت رعايته " "[٥٢١].

"و إن النص يؤكد أن "داو" ولد الكائنات وأن "ده" أعطي لها صورها وربّاها لكي تنبت وتنضج والجدير بالذكر أن "ده" في مذهب فلسفة لوتس ليس غير "داو" نفسه لأن "ده" هو فعل "داو" " [٥٢٢] .

إن "داو" يمتاز بصفات إبداع الكائنات وتربيتها وتنميتها وحفظها وإنه كربّ الكائنات يظهر عديم الفعل ولكن يعمل كل شيء ."[٥٢٣]

ونكتفي بهذه الاقتباسات و تشير هذه الأقوال إلي حقيقة أن لوتس قد أعطي ل"داو" أوصاف الربوبيّة وأن "داو" هو عنده رب العالمين .

وأما إذا أتينا إلي الإسلام فإن القرآن صريح علي إطلاق كلمة الرب علي الله ويثبت ربوبيته بكل طرق إما عن طريق التمثيل أو الحجج العقلية أو تصريح بالآيات كما جاء في القرآن : فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ورب العالمين .(الجاثية :٣٦)
وقوله : الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوي علي العرش مالكم من دونه من ولي و لا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلي الأرض .(السجدة :٤-٥) . فالربوبية في الإسلام لله وحده ولا يشاركه أحد من خلقه ومن أشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا فقد ضل وغوي .

(٣) "داو" ---- الواحد

يعتقد لوتس بأن "داو" واحد و مطلق و لا مثيل له ولا شريك له فهو فريد من كل الوجوه وقد دلت علي وحدانيته حالته قبل خلق السموات والأرض كما يقول النص :" هنالك شيء متوحد ، وُجد قبل السماء والأرض . بالعزلته وبالوحشته " (ف ٢٥).
يعني أن "داو" واحد لا شريك له ولم يكن شيء معه قبل السماء والأرض وكان في غاية الإنفراد والوحشة .

---

[٥٢١] انظر المصدر السابق ص:٢٩.
[٥٢٢] . الأيام العشر للحديث عن لوتس > ، ص: ١٨٢.
[٥٢٣] ور لين به : < الشرح الجديد للوتس ، ص: ١١٧ ، مطبعة جين هوا ، بكين ، ١٩٩٧.

ولا يخفي أن النص يثبت وحدانية "داو" لأن كلمة " المتوحد" و "العزلة" و الوحشة" وإن إختلف العلماء في معناها إلا أنها بأي معني من معانيها تدل علي أحدية "داو"[٥٢٤]. وهناك نص آخر يدل بأكثر وضوحاً على وحدانيته . إذ يقول : " إن داو ولد واحدا والواحد ولد اثنين والاثنان ولدا ثلاثة والثلاثة ولدوا الكائنات .(ف :٤٢)

الظاهرمن النص أن "داو" أصل وحيد للموجودات بحيث تولّد منه الواحد و الإثنان و الثلاثة ثم الكائنات وقد كثر الكلام فى شرح هذه الأعداد ولكن يكاد يتفق المفسرون قديما وحديثا على أن المراد من الواحد هو "داو" نفسه ،ويكون معنى النص أن داو كان واحدا ثم ولد اثنين والثلاثة وأخيرا ولد الكائنات ويستحسن بنا أن نورد بعض الشروح من العلماء المفسرين لهذا النص .

قال أحد العلماء المشهورين في الوقت الحاضر (تِشين قُو بِن) : [إن داو لاشريك له مطلقا ، ولا مثيل لـــــه وإذا عبّر بالعدد فهو واحد] (٥٢٥) وعندما يفسّر عبارة "إن داو ولّد واحدا" قال :[إنّ "داو هو واحد لا شريك له"][٥٢٦].

ويقول عالم فى القرن الأول قبل الميلاد "يياً جون بين" (Yan Jun Pin) : "إن داو ... وحدة مطلقـــة . لا بداية ولا نهاية له ومصدر الكائنات وبداية البدايات فلذلك سمى واحدا (٥٢٧)

وقال "سوجه"(Su Zhe) العالم المشهور في القرن الحادى عشر :[إن داو ليس واحد ولا اثنين ولا شبيه له فى الخلق وهو مفرد بينما الخلق متعدد فلذلك يقال عنه بالواحد"] (٥٢٨) .

وعلى أساس شروح هؤلاء العلماء يكون الواحد يراد به داو نفسه ، فمن المتأكد أن القصد من هذا النص عند لوتس إثبات وحدانية "داو" . وقد يمكن لنا ان نفهم معني عدد الواحد عند لوتس على وجه آخر : وهو ان داو هو الوجود الوحيد ووجد قبل كل شئ ولا ضدّ له ولا ندّ له فلا يقال عنه واحد او اثنان من حيث العدد ، ولكن من حيث أن الموجودات تولّدت منه اعتبره لوتس أول الوجود أو الواحد بالنسبة إلى الكائنات الأخرى فسمّاه "الواحد" حتي صار أحدا من أسمائه .

وفي كثير من الأحيان يعبّر لوتس عن "داو" بكلمة "الواحد " كما جاء في نص الكتاب : إن الذين إهتدوا إلي الواحد فى القديم هم: السماء إهتدت إلي الواحد فصفت ثم الأرض إهتدت إلي الواحد فأمنت ثم الروح إهتدت إلي الواحد ففطنت ثم الوادي إهتدي

---

[524] راجع الشرح للفصل الخامس والعشرين من هذا البحث .

[525] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٢٣٢ .

[526] المصدر السابق ، ص:٢٣٢.

[527] انظر < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص ٣٤٢.

[528] انظر المصدر السابق ٣٤٢.

إلي الواحد فامتلأ ثم الكائنات إهتدت إلي الواحد فنمت ثم الأشراف إهتدوا إلي الواحد فصلح بهم العالم (ف:٣٩)

ولم يختلف العلماء فى أن المراد من الواحد فى هذا النص هو "داو" نفسه ، و معني النص يكون: أن شؤون الكون والإنسان لا تستقيم دون الهدي من الإله الواحد وأن العالم كله لايستغني عن الإله الواحد ولولاه لما كان العالم الطبيعي باقيا منتظما ولاختلّ نظام الكون وفسدت السموات والأرض .

وما يهمنا هنا من النص أن كلمة "الواحد" وردت فى مكان داو مرادفة له ، أو حل الوصف محل الموصوف ، وقد تكرر الذكر بالواحد فربما يقصد من ذلك تأكيدا لوحدانية الإله فى ذاته وصفاته وأفعاله .

والحاصل أن "داو" هو الواحد وهو رب كل شيء .

إن الإسلام قائم علي الاعتقاد بوجود الله و بوحدانيته و لا تنقصنا النصوص القرآنية الدالة علي وحدانية الله فقال القرآن الكريم : قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد له كفوا أحد (سورة الإخلاص)

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (البقرة :١٦٣)

وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد (النحل :٥١)

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (الأنبياء:٢٢) .

وقد استدل علماء المسلمين علي وحدانية الله بعدة طرق منها برهان-التمانع المشار إليه بالآية الأخيرة وتقريره أنه لو أمكن إلهان لأمكن بينهما التمانع بأن يريد أحدهما الحركة في حين يريد الآخر السكون ومستحيل أن يحصل الأمران في آن واحد فيعجز أحدهما بحصول الأمر من أحدهما والعجز إمارة الحدوث والإمكان لما فيه من شائبة الاحتياج فالتعدد محال لإمكان التمانع[٥٢٩] .

وكذلك إستدل الفارابي علي وحدانية الله بالدليل العقلي الآخر وهو أن الله (هو السبب الأول لسائر الموجودات) وهو واحد لأن كل شيء له سبب وكل سبب له سبب متقدم عليه وهكذا إلي السبب الأول الذي لا يتقدمه سبب من الأسباب و إلا لوقعنا في الدور و التسلسل وهما باطلان ولذلك قال الفارابي :إنه هو الموجود الأول الذي أفاد كل واحد سواه الوجود وإنه هو

[٥٢٩] انظر : < شرح العقائد النسفية > ، ص:٢٢.

الواحد الأحد الذي أفاد كل شيء سواه الوحدة ... وإنه لا يمكن أن يكون فيه كثرة أصلا ولا بوجه من الوجوه بل هو أحق باسم الواحد ومعناه وباسم الموجود ومعناه من كل شيء "[٥٣٠]

إن لوتس لم يبذل جهده في الاستدلال علي وحدانية "داو" وإنما ذكر دوره في صفاء السماء وسكون الأرض وإزدهار الكائنات فكأنه يستدل بذلك علي وحدانيته كما فعله علماء المسلمين وبل كان كلامه في ذلك يتضمن دليل التمانع إذ لو تعددت الآلهة أو خلا الكون من إله لبطل كل تلك الظواهر .

(٤) داو ------ قديم

يعتقد لوتس بأن "داو" قديم حيث عبر عن ذلك ب" الدائم" [٥٣١] بمعني أنه أزلي وأبدي و أنه لم يزل موجودا قبل السماء و الأرض و لا يزال باقيا بعد هلاك الكائنات وقال : هنالك شيء متوحد ، وجد قبل السماء والأرض (ف : ٢٥) . وقال أيضا : ولا أدري ممن تولد كأنه وجد قبل الملك.(ف:٤) ويعني النص أن "داو" قديم وأقدم من السماء والأرض حتي أقدم ممن يعتقده الناس أقدم الواحد وهو الملك .

وقد اختلف العلماء في المراد من " الملك " فقيل إنه الملك الأصفر وهو الذي يعتبر أقدم مخلوق علي الأرض ويعتبر جدا أعلي للصينيين و قيل إنه ملك السماء الذي كان يعبده الناس . وعلي كل حال كان "داو" أقدم من كليهما فهو أقدم من كل شيء .

والنص الأخير يثبت لنا أن لوتس يؤمن بقدم "داو" ومن جانب آخر أقرّ بألوهيته مع إنكار ألوهية الملك الذي يعبده الناس كالجدّ الأعلي أو كملك السماء وجعل "داو" في مقام الإله الأعلي للكون وإنما فعل لوتس ذلك لأحد أمرين : إما لأن الإله في تصور القدماء كان جدهم الأعلي فأنكر لوتس ألوهية أمثال هذه الألهة ، أو لأن مفهوم الإله في عصر لوتس قد تدنس بالعقائد الفاسدة والتصورات الخرافية فأراد لوتس أن ينزه الإله من هذه الشوائب و يبرئ نفسه من الخرافات فأتي بمفهوم جديد وهو "داو" وجعله الإله الأعلي باسم جديد لأنه مادام "داو" أقدم من الإله المعروف لدي الناس فهو الإله الحقيقي القديم .

وقيل بأن "الملك " في النص يراد به الآلهة الأخري فلا إشكال في إنكار لوتس لها لأن الإله الحقيقي عنده هو أقدم من كل واحد .

بالجملة مهما كان المعني فالنص يدل علي قدم "داو" . ويؤكد هذا المعني قول "جوان تس" الذي يعتبر مكمّلا لفكرة لوتس وقال بعبارات واضحة :[إن "داو" .....كان أزليا

---

[٥٣٠] أبو نصر الفارابي : < إحصاء العلوم > ، ص: ١٢٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية.

[٥٣١] راجع الفصل الأول من نص < داو ده جين >.

بذاته و أصليا بذاته ولم يزل باقيا قبل السماء و الأرض ويصرّف الشياطين والملوك ويولّد السماء والأرض] [٥٣٢] .

وأما العقائد في "داو" عند أصحاب الديانة الداوية بعد لوتس فهي مصرحة بقدمه ولايخفي أن تلك العقيدة جاءت من فكر لوتس إذ يقول أحد كتب العقائد الداوية عن حالة الإله ("داو") قبل خلق السماء والأرض :

" [فى ذلك الوقت لم يكن هناك سماء ولا أرض ، لا ذكور ولا إناث ، لا شمس ولا قمر ، لانور ولا ضياء ولاشرق ولاغرب ، لا أسود ولا أصفر... لاصالح ولا طالح، لاحياة ولا ممات ، لا أمام ولا وراء... لاصورة ولا شكل ، لاحدود ولا نهاية ...إلا سيدنا (تى شان لو جون وهو "داو") وكان فى عمق الفضاء والغيبوبة وفى غور الغموض ، لا يرى ولا يسمع . لو يقال عنه الوجود فلا ترى صورته ولو يقال عنه العدم فقد تولدت منه الكائنات] [٥٣٣].

يشير هذا النص بوضوح إلي أن "داو" قديم و لم يسبقه العدم ولا سبقه الزمان إذا أخذنا الزمن علي أنه مقدار الحركة لأنه لم يكن مع "داو" شيء في القدم فلا يتصور معه الزمان وأما غيره فكله حادث لأنه وجد بعد ما كان عدما .

يبدو أن عقيدة لوتس في قدم الإله تنطبق مع العقيدة الإسلامية في قدم الله من حيث أن الإله الحق قديم وما سواه حادث والقديم هو غير مسبوق بالعدم وقد استدل علي ذلك العلماء بطرق شتي إلا أن أظهرها عندنا هو دليل الوجوب والإمكان الذي أشرنا إليه فيما سبق ووجه الدلالة هو أن واجب الوجود لا بد من أن يكون قديما وغير مسبوق بالعدم وإلا فافتقر إلي من يخرجه من العدم إلي الوجود وهذا محال علي الله تعالي كما قال سعد الدين التفتازاني " الواجب لا يكون إلا قديما أي لا ابتداء لوجوده إذ لو كان حادثا مسبوقا بالعدم لكان وجوده من غيره ضرورة " [٥٣٤] وكما قال في < شرح المقاصد> :" ولا حاجة إليه بعد إثبات صانع واجب الوجود لذاته لأن من ضرورة وجوب الوجود امتناع العدم أزلا وأبدا" [٥٣٥] فالله قديم .

---

[٥٣٢] كتاب < جوان تس > الفصل السادس من الفصول الداخلية .

[٥٣٣] < فتح تى شان لو جون للسماء> ، النص منشور فى < التعريف بالداوية> ص : ٢٢٦ ، دار الكتب الصينية .

[٥٣٤] < شرح العقائد النسفية > مص :٣٥.

[٥٣٥] سعد الدين التفتازاني < شرح المقاصد > ، دار المعارف النعماني ، لاهور بباكستان ، ج: ٢ مص: ٦٠-٦١.

(٥) داو ----- لا يشبه شيئا

يعتقد لوتس بأن "داو" وجود مطلق وأن الكائنات نسبية فهو مغاير لجميع الموجودات من كل الإعتبارات ولا يشبه شيئا من كل الوجوه و قد بين لوتس هذه المسألة بطريقة فلسفية حيث إستدل علي هذا بالدليل العقلي وقال : يقول لي الناس : إنّ "داو" عظيم ولا مثيل له ولكونه عظيم لا يشبه شيئا حتى إذا ما أشبه شيئا لبقي ضئيلا. (ف:٦٧).
ودلّ النص علي أن "داو" كائن منفرد وليس كمثله شيء و وجه الدلالة هو أن "داو" عظيم بمعني القوي والبالغ والثابت وهو عكس الضئيل حسب النص وأن الموجودات ضعيفة وهالكة ومتعرضة للتغيير والفساد فكان "داو" يغاير الموجودات الضئيلة وإلا لصار واحدا منها فيتغير مثل ما تتغير الموجودات وأخيرا يهلك ويفسد ولكن كل ذلك محال علي "داو" القديم ولذلك كان مغايرا تماما للموجودات ولا يشبهها بأي وجه من الوجوه فهو باق . أو وجه الدلالة هو أن "داو" عظيم إذ هو دائم وباق وأن ماسواه ضئيل إذ هو حادث متغير فلو كان "داو" أشبه شيئا مما سواه لصار حادثا ومتغيرا مثله ولم يكن دائما وباقيا وهذا ينافي طبيعة "داو" ولذلك كان "داو" لا يشبه شيئا .وبهذا استدل لوتس علي أن "داو" لا يشبه شيئا .

لم يختلف لوتس عن الإسلام في هذه النقطة ولا نتصور أن يختلف عنه فيها ما دام يؤمن بأن "داو" كائن منفرد وهذا يتضمن كذلك معني أنه لا يشبه شيئا فإن القرآن يصرح بأن الله " ليس كمثله شيء وهو السميع العليم " (الشوري :١١) ومعناه أن الله ليس كذاته ذات ولا كاسمه اسم ولا كفعله فعل ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة [٥٣٦] فهو منزه عن المثل والند تعالي عن ذلك علوا كبيرا[٥٣٧] ولا شك أنه لو تماثل شيئا من مخلوقاته لصار واحدا منها ولاحتاج إلي من يخلقه وتعالي الله عن ذلك . فطريقة الاستدلال عند لوتس لا تختلف في الحقيقة عن طريقة العلماء المسلمين مع أنه أقدم منهم بألفي سنة .

---

[٥٣٦] قال الواسطي نقلا من < تفسير القرطبي > دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٢ الهجرية ، ج :١٦ص:٧.
[٥٣٧] عضد الله والدين الأيجي :< المواقف في علم الكلام > ، عالم الكتب ، بيروت ، ص:٢٦٩.

(٦) داو ---- فعال

وقد نجد في كتاب "داو – ده –جين" موقفا مضطربا عن وصف "داو" فهو حينا يصفه ب"عديم الفعل " وحينا آخر ب"الفعال" وهما متعارضان ولكن هذا التعارض شكلي دون الحقيقة إذ أن "عدم الفعل" لاينافي عند لوتس فعلا أو عملا وذلك أن عدم الفعل عند لوتس لا يراد به وقوف عن العمل أو ترك الأفعال مطلقا. بل المراد منه ترك الفعل المفرط و العمل الإضافى الذى يخالف طبيعة الأمر[٥٣٨] أوعدم الفعل هو حفظ طبيعة الأشياء وبعبارة أخرى هو ترك الأشياء تجرى على طبيعتها[٥٣٩] فهو إذن لا يزال نوعا من العمل كما أن العمل الملائم لطبيعة الأشياء يعتبر من ضمن عدم الفعل وسوف يأتي التفصيل عن ذلك في مكانه .

ولذلك قال لوتس : إنه قيوم لا يتغير وفعّال لا يتوقف (ف:٢٥) بمعني أنه فاعل لجميع الأفعال ، فلم يزل ولا يزال يعمل ولا يتوقف عن العمل أصلا وكان "داو" له طريقة خاصة للعمل وهي تختلف عن طريقة معروفة لدي الناس فيعمل "داو" بواسطة عدم الفعل و به يكمل جميع أعماله . وبيان ذلك أن "داو" أعطي كل شيء طبيعته ثم تركه عليها لتعمل الطبيعة فيه حتي يتمّ ما قدّر له .

و الذي يبدو من الظاهر أن "داو" لم يعمل في تغير الأشياء بل تعمل الأشياء بنفسها ولكن في الحقيقة كان "داو" يختبئ وراء كل التغيرات و لم يخرج شيء من حكمه و لذلك يقول النص : يبقي "داو" علي عدم الفعل ولكن لا شيء ما لم يعمله (ف:٣٧) بمعني أن "داو" عديم الفعل ولم يعمل عملا ذاتيا بل طبع لكل الأشياء طبيعتها وتعمل الطبيعة في كل الأشياء و كان "داو" وراء الطبيعة وبهذه الصورة يكون "داو" يعمل كل شيء فلا شيء ما لم يكن فيه أثر "داو" وهو بهذا المعني يكون فعّالا .

وقد نري في كتاب (داو ده جين) صورة أخري من طريقة "داو" في العمل وهي أن "داو" يعمل بواسطة صفاته كما يقول النص في شأن العالم : ويحميه "ده" ثم ينمّيه و يربّيه و يخرج إنتاجه و ينضجه ويراعيه ويحفظه . (ف :٥١).

كلمة "ده" في النص يراد بها صفة ل"داو" وقواه كما سبق و معناه أن "داو" كائن لطيف وله قوي متعددة و صفات مختلفة فلا يعمل بنفسه بل مدّ قواه إلي الكائنات و يدبّر بها الكون وهكذا يربّي العالم بقوته الربوبية وينميه بقوته المتنمّية ويحفظه بقوته الحافظة . فإنه لم يتوقف عن العمل بهذه الصورة فهو لم يزل ولا يزال فعالا .

---

(538) See: Brief history of Chinese phylosophy. p: 125.

(539) < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص : ٦٧ .

ما دام لوتس يؤمن بأن "داو" إلهه وخالق الكون فلا نتصور أن الصفات التي يصف بها إلهه مباينة تماما عن الصفات التي يتصف بها الله في نظر الإسلام فصفة الفعال هي إحدي الصفات التي وصف الله نفسه في القرآن إذ قال : إن ربك فعال لما يريد (هود :١٠٧) فالله يفعل في الكون ما يريد ويغير ما يشاء من القوانين وليست السموات والأرض تحت تصريف الله تعالي فحسب بل أن أفعال العباد من خلق الله كما رأي علماء أهل السنة بدليل من القرآن : والله خلقكم وما تعملون (الصافات :٩٦) .

(٧) داو ----- " تس ران" (القيوم والواجب الوجود)

إن كلمة القيّوم هي اسم من أسماء الله الحسني عند المسلمين كما ورد ذلك في القرآن الكريم وقد حدّد العلماء المسلمون معناه بعدة أقوال ، منها أن القيوم معناه قائم بذاته أو دائم الوجود أوالقائم بتدبير خلقه من إنشائهم ابتداءا وإيصال أرزاقهم إليهم أوالدائم القيام بتدبير الخلق و حفظه [540] وقيل الباقي و الدائم[541] و قد فسر بعض العلماء القيام بالذات بوجوب الوجود المستلزم لجميع الكمالات و التنزه عن سائر وجوه النقص.[542] وكان الله قيوما بهذه المعاني .

ولو كانت الكلمة "القيوم " تستخدم علي هذه المعاني فإنها قد يمكن إطلاقها علي "داو" كذلك إذ أن لوتس وصف "داو" بمفاهيم قريبة من المعاني المذكورة .ولذلك ترجمنا أحد النصوص بعبارة : " إنه قيوم لا يتغير " (ف:٢٥) . وقد شرح العلماء أصل العبارة بعدة معان منها : إنه مستغن عن القوي الخارجية أبدا ومنها إنه مستقل وباق ومنها أنه لا شريك له ومنها أنه لا مثيل له أو هو موجود بلا موجد *و أصل لذاته و علة لنفسه ، لا بداية ولا نهاية له . . وهذه الشروح بجملتها تؤدي معني القيام بذاته .

ومن الملاحظ أن معني القيوم حسب الشروح السابقة لا يختلف كثيرا عن مفهوم واجب الوجود إذ عرّف سعد الدين التفتازاني الواجب الوجود بقوله " الذي يكون وجوده من ذاته و لا يحتاج إلي شيء أصلا "[543]. وهذا الوصف كذلك ينطبق علي "داو" إذ أنه عند لوتس كائن مستقل و مستغني عن غيره لأنه لم يزل موجودا قبل السماء و الأرض و لايزال باقيا

---

[540] أبو الفضل محمود الألوسي :<روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني > ، ج :٣ ، ص: ٧ ، دار إحياء التراث العربي بيروت..

[541] الأمام الشاطبي : < كتاب الموافق > ج: ٣ ، ص : ٣٢٢.

[542] المصدر السابق ،ج : ٣ ص: ٨.

[543] العلامة سعد الدين التفتازاني: <شرح العقائد النسفية > ، ص: ٣١ ، مكتبة خير كثير، كراتش .

بعد إنتهاء الكائنات وهو أصل لذاته و علة لنفسه و لم يكن شيئ سببا لوجوده . ولذلك لا نكون من المخطئين إذا أطلقنا علي "داو" اسم واجب الوجود والقيوم .

وكذلك ترجمنا كلمة " تس ران " (Zi Ran) بواجب الوجود في نص ["داو" يتبع واجب الوجود]. (ف:٢٥) وكلمة "تس ران " تعني لغة ما وجد بنفسه أو يبقي علي حالته من أول الأمر و يعني أنه موجود بلا موجد و أصل لذاته و علة لنفسه . فالكلمة تعبّر بالضبط عن مفهوم واجب الوجود أو القيوم . ومن الواضح أن واجب الوجود في النص يراد به "داو" نفسه فيكون معني النص أن "داو" يلتزم بما وضعه نفسه من القوانين كما شرح أحد العلماء بأن "داو" لا يتخلق بشيئ لأنه نهاية كل شيئ ولا شيء وراءه وإنما نفسه هو مبدأ لكل شيء [٥٤٤] ولذلك يلتزم بما وضعه من القوانين والنواميس فمن خصائص "داو" أنه واجب الوجود.

بناء علي النصوص وشروحها من العلماء يتبين لنا أن لوتس قد أعطي لإلهه صفة واجب الوجود.

مفهوم الإله عند لوتس

كما قلنا إن كثيرا من العلماء قديما وحديثا ينكرون جانب الألوهية في فكر لوتس ويجزمون علي أن لوتس لا يؤمن بإله ولا بدين وقد حاولنا فيما سبق تفنيد هذه النظرية بصميم أقوال لوتس وأثبتنا إيمان لوتس بالإله و بعد ما نستقرئ أقواله عن "داو" يمكن لنا أن نستخلص منها مفهوما بسيطا عن الإله ---"داو" عند لوتس وسنعبر عن ذلك نيابة عن لوتس باللغة الدينية علي غرار مفهوم الله عند المسلمين .

فالإله ("داو") عند تصور لوتس هو الكائن الغيبي الذي لا يدرك بالحواس ولا يشبه شيئا من المخلوقات وهو متنزه من جميع الشوائب المادية وهو الأوّل و الآخر (إذ هو مبدأ الكون ومصيره) و هو الظاهر والباطن (إذ هو العدم والوجود) وهو خالق السموات والأرض (إذ هو أصل الكائنات وأم السماء والأرض) ومدبر الكون ورب العالمين وهو الواحد بلا شريك وقائم بذاته بلا وزير وهو الفعّال لما يريد .

ولا شك أن هذا المفهوم إذا قارنناه بمفهوم الله عند المسلمين لنجد أن لوتس عرف جزءا يسيرا من صفات الله وأهم ما نلاحظه في أفكار لوتس أن في الصفات التي ذكرها تنقص

---

[٥٤٤] انظر <لوتس شرحا وتعليقا> ،ص:

الصفات الوجودية أو الصفات الثبوتية مثل الحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام والإرادة مما يجعل إله لوتس كمجرد التصور أو الفكر من غير الذات الحقيقية ونقول من باب المجاز: كأن إله لوتس إله أخرس وتتكمن خصائصه في الكائنات الطبيعية وتظهر إرادته في صورة النظام الطبيعي وإنّ الصفات الوجودية هي أهم ما يثبت ذات الله ووجوده عند المسلمين وكذلك عند غيرهم من أصحاب الديانات . وقد لاحظ الناس هذه الحقيقة منذ القديم ولما أسست الديانة الداوية لم يجعل أصحابها "داو" الإله الأعلي مباشرة بل جعلوا لوتس نفسه متجسدا من "داو" واعتبروه إلههم الأعلي باسم "تي شان لو جون" [٥٤٥] فهو يرفع إلي السماء وينزل علي الأرض ويعلم الناس ويقيم الديانة في كل عصر [٥٤٦] حتي صار إلههم أكثر حيوية وهذا من جانب آخر يشهد أن ألوهية "داو" كانت متأكدة في ذهن لوتس إلا أنه لم يعبر عنها باللغة الدينية المبينة بل حاول أن يبرهن علي وجوده بالأسلوب العقلي ولما لم يتلق لوتس وحيا من الإله لم تثبت له الصفات الوجودية أو الثبوتية فلم يخض فيها ولكن ألوهية "داو" لم تغب من ذهنه . و لا نستبعد أن لوتس كان يعرف إلهه أكثر مما كشفناه من كتابه وأن فهمه عن الإله كان أوسع ولكن كتابه لم يكن مقصودا لبيان جميع الجوانب الإلهية كسائر الكتب الدينية وإنما ذكر هذه الخصائص في الكتاب لحاجته إليها في بيان أساس العقيدة الدينية وتجاوز عن بقيتها . وعلي كل حال لا نشك في أن لوتس بمفهومه الناقص كان يحاول أن يصف الله تعالي ولقصور معرفته به لم يصل إلي صفاته إلا قليلة منها

بعد هذا العرض لعقيدة الألوهية عند لوتس مقارنة بالإسلام نأتي إلي الختام فنقول :

أولا : إن لوتس كان يؤمن بوجود الإله في الكون وعبّر عنه ب"داو" وكان علي دين نفسه وان لم نعرف حقيقته وكان نوعا من الديانة أو علي الأقل عقيدة الألوهية لا كما يقول الناس بأن لوتس ملحد ولا يؤمن بأي دين .

ثانيا : عقيدة الإسلام أوسع من الألوهية عند لوتس ولا يخفي أن لوتس مهما بذل جهده قد قطع شوطا قصيرا في مجال الإلهيات وكشف جزءا يسيرا من الحقائق الألوهية حتي يمكننا أن نقول بأنه ما زال في بداية الطريق في مجال الإلهيات .

ثالثا : قد ندافع عن لوتس بأنه كان فيلسوفا ولم تغلب عليه صفة الرجل الديني فيعالج قضايا الألوهية بأسلوب فلسفي ويستخدم اللغة الفلسفية في بيان العقيدة حتي لا نجد في كتاب (داو – ده– جين) ذكر كلمة الإله في محل "داو" ولم يخض في جميع المباحث الدينية ولذلك يبقي فراغ كبير في مباحث الإلهيات من وجهة النظر الديني .

---

[٥٤٥] The bandbook of Taoism . Edited by Li Yang Zhang . P124)

[٥٤٦] انظر المصدر السابق : ص:١٣٦-١٣٧.

رابعا : عاش لوتس قبل الإسلام بألف سنة ولا نشك أن في زمنه أو قبل زمنه ديانة يتمسك بها الناس فعرف لوتس إلهه من طرق شتي و المعجب به هو أن طرق المعرفة بالله كانت متماثلة بين مختلف الأقوام ولعل هذا يرجع إلي تقارب العقل الإنساني فلا يستغرب من تقارب لوتس من علماء المسلمين بعده في أساليب الاستدلال علي معرفة الله وصفاته .

والله أعلم.

الفصل الثاني   الكون

من المعروف أن قضية الكون وما يتعلق بها من نشأته ومصيره هي المسألة التي شغلت عقول الفلاسفة بل عقول الناس كافة منذ ما بدأ الإنسان يفكر وكانت الفلسفة هي التي تحاول أن تجد لها جوابا. و لما كان لوتس لم يتلق وحيا من الله ليهديه إلي الحقائق عن القضايا الكونية لجأ إلي العقل وحاول أن يعامل جميع قضايا الكون بالطريق الفلسفي.

إن الفلسفة تعني محبة الحكمة وهذا ما عرّفه اليونانيون القدماء وتبعهم الفلاسفة بعدهم جيلا بعد جيل ولكن يري العلماء أن موضوع الفلسفة هو نظر عام عن الكون و الحياة والمعرفة.[٥٤٧] ولعل أهم المباحث منها هي قضية الكون والحياة و أن التفكير فيهما يشكّل هيكل الفلسفة الإنسانية وكان تفكير الإنسان في هذين المجالين هو بالطبع تطور حتمي لعقلية الإنسان إذ أن عقول الإنسان بعد ما قضت مرحلتها الطفولية تتوجه حتما إلي التفكير في نفسه لكونها أقرب إليه ثم في العالم خارجه لأنه يعيش فيه ويحس به .

ولذلك نري أن التفكير الفلسفي لدي الإنسان منذ القديم لم يخرج من إطاري الكون والحياة إلا أن بعض الناس يهتمون بالحقيقة الكونية بينما الآخرون يميلون إلي دراسة الحقيقة الإنسانية. وكان فلاسفة اليونان القدماء ومن تبعهم من الفلاسفة المسلمين يمثلون الاتجاه الأول وأما الفلسفة الصينية عموما تمثل الاتجاه الثاني إذ جعلت الفلسفة الصينية الإنسان وطبيعته مدار الدراسة والمناقشة .

ولا شك أن معظم المدارس الفكرية المعروفة في الصين كانت تهتم بالأمور الإنسانية وتبدأ بحوثها من دراسة طبيعة النفوس الإنسانية و واجبات الإنسان وحقوقه .وهذه المباحث شكلت هيكلا أساسيا للفلسفة الصينية. وعلي سبيل المثال كانت المدرسة الكنفوشية تهتم بتهذيب الأخلاق وقلّ ما تتحدث عن العالم الطبيعي وكانت المدرسة القانونية تهتم بإصلاح المجتمع بالقانون والدستور وقال "فون يو لان "ــ عالم مشهور في العصر الحديث ــ إن وظيفة الفلسفة عند الصينيين ليست لتزيد الناس معارف إيجابية بل هي رفع الأحوال القلبية للناس"[٥٤٨] . وقال كذلك :إن ما تتحدث الفلسفة الصينية عنه هو كيف الوصول إلي حالة "الملك في الظاهر والحكيم في الباطن".[٥٤٩] وأراد أن يبيّن أن أهم القضايا التي عنيت به الفلسفة الصينية هي القضايا الإنسانية ولعله كان علي صواب إلي حد كبير.

---

[547] انظر فون يو لان: < التاريخ المختصر للفلسفة الصينية >، مطبعة جامعة بكين ،١٩٨٥،ص:٤. وأيضا نديم الجسر :< قصة الإيمان > ،دار المثقف المسلم ، قم ،إيران ص:٢٧.

[548] < التاريخ المختصر للفلسفة الصينية >، ص:٨.

[549] المصدر السابق ص:١٢.

ولكن لا نعني بذلك أن القدماء الصينيين لا يتحدثون عن العالم الطبيعي وما فيه من التغيرات مطلقا وإنما قصدنا بذلك أن القضايا الكونية والطبيعية كانت غير منفصلة عند القدماء من قضايا الألوهية وذلك أن الكون سواء كان في عقيدة العوام أو في معرفة يرون أن التغيرات في العالم الطبيعي هي أفعال الآلهة وكل الظواهر الطبيعية توحي نوعا من الإرادة الإلهية كما أن غيوم السماء يدل علي غضبان الإله السماوي وأن الرعد يدل علي سخطه[551]. فمعظم المدارس الفكرية تسكت عن القضايا الكونية والطبيعية ولم تجعلها مجال التفكير لها ولكن لوتس كان شخصية فذة من بين العلماء الصينيين القدامي إذ هو كسائر الفلاسفة والحكماء الصينيين ناقش القضايا الإنسانية وأبدي رأيه فيها وإضافة إلي ذلك قد خاض في القضايا الطبيعية الكونية ولم يسبقه أحد من العلماء في هذا المجال حتي قيل إن لوتس فتح الصفحة الأولي للعلوم الطبيعية في الصين[552] .

إنما نتحدث نظرية الكون عند لوتس في إطار الفلسفة لأن كلامه في هذا الجانب أقرب إلي الفلسفة منها إلي العقيدة الدينية إذ نري أن التغيرات في الطبيعة إذا أعتبرت من أفعال الآلهة وتتضمن تنذيرات وبشارات إلهية فهي نظرية دينية وإن أعتبرت التغيرات الطبيعية نتيجة من قانون حركات المواد فهي نظرية فلسفية وكان لوتس يميل إلي الموقف الأخير إذ يري أن لكل الشيء طبيعة ويعمل ويجري حسب طبيعته وإن "داو" بعد ما منح لكل الأشياء طبائعها ترك كل الشيء يعمل حسب طبيعته ولا يتدخل فيه كما يقول :يبقي "داو" علي عدم الفعل ولا شيء ما لم يعمل (ف:٣٧) [553] وقال كذلك: ألم يكن ما بين السماء والأرض كالمنفاخ و مهما كان خلاؤه لاينتهي عمله وكلما يتحرك تزداد آثاره (ف:٥)[554] فكان "داو" عديم الفعل ويحدث بعض الظواهر الطبيعية حسب القانون الذي وضعه وعلي هذا الأساس نتكلم عن فلسفة لوتس في القضايا الكونية ولم ننكر أن كلامه فيها يحمل طابعا دينيا لأن قضايا الكون والطبيعة في نهاية المطاف لم تنفصل تماما عن "داو" الذي هو الإله فيَ ذهن لوتس .

انظر < حكمة لوتس > ، ص: ٣٨. [550]

[551] انظر < العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين>ص:٣.

[552] جيو لي رين : < حكمة لوتس > ، المطبعة الشعبية ، خه باي ، ١٩٩٧ص:٤١.

[553] انظر شرحنا للفصل السابع والثلاثين من نصوص < داو ده جين > .

[554] انظر شرحنا للفصل الخامس من نصوص < داو ده جين > .

إن القوانين الكونية والطبيعية وما يتعلق بها يقال عند لوتس ب"داو" كذلك ولكن "داو" في هذه المرتبة يحمل معني النواميس الكونية وأحيانا يعبر لوتس عنها ب"داو" السماوي بمعني الطريق السماوي يقابل الطريق الإنساني الذي يأتي ذكره في الفصل القادم .

المبحث الأول أصل الكون ونشأته

العالم في تصور لوتس لم يكن العالم الذي نفهمه اليوم ولم يستخدم لوتس كلمة العالم بل كان يعبّر عنه ب "ما تحت السماء " ولا ندري مدي رحابة العالم في تصور لوتس وكانت معرفته بالعالم لم تتجاوز قطعة من الأرض التي يعيش فيها وما جاورها من البلدان القريبة كما هو شأن القدماء في جميع أنحاء العالم فالعالم عنده عبارة عن الأرض التي يسكن عليها الناس وعن السماء التي يراها فوق رأسه وما بينهما من الموجودات والإنسان.

العالم عند لوتس لم يكن مكونا من الكائنات المحسوسة فحسب بل تكون من الأرواح كذلك إذ يعترف لوتس بوجود الروح للإنسان كما أشار إليه في قوله : ألا يمكن تمسك الروح بالواحد دون انفصال (ف: ١٠) و قد عرفنا أن وجود الأرواح قضية مسلّمة لدي الصينيين منذ القديم لأنهم يؤمنون بها فلا يستغرب أن العالم الروحي جزءا من العالم عند لوتس .

يري لوتس أن هذا العالم لم يكن ثم وجد وقال: هنالك شيئ متوحّد ، وجد قبل السماء والأرض "(ف:٢٥) والنص دليل قاطع علي أن هنالك زمان لم يكن فيه سماء ولا أرض و لم يكن فيه شيء غير الشيء الذي سمّاه لوتس ب"داو". وأن العالم وجد بعد ما لم يكن و أن له بدءا زمنيا وقد أكّد لوتس هذه الحقيقة بقوله " للعالم بدء وهو أم الكائنات " (ف:٥٢) .

يشير هذا إلي أن العالم كان عدما ثم تولّد من أم وهي أصل العالم ولانعني بأصل إلا علة أوسبب وجوده ويري لوتس أن هذا الأصل هو "داو" و قال : أم السماء والأرض و لا أعلم اسمه فسميته "داو" بالجبر (ف: ٢٥) . وقال : يا لقدمه ! كأنه أصل الكائنات ؛ (ف :٤)

ف "داو" أصل العالم أو مصدره و أن "داو" سبّب وجود العالم وأخرجه من العدم إلي الوجود. فنسبة العالم إلي "داو" نسبة المعلول إلي العلة ونسبة السبب إلي المسبب وأن "داو" ليس جزءا من العالم.

ومن العلماء من يري أن "داو" أصل العالم ولكنه كبذرة نبتت منها نبات فصارت البذرة جزءا من النبات فهكذا نبت العالم من "داو" ويرون أن "داو" هو شيء مادي وهو كالمادة الأولي للعالم ثم تفرعت منها إلي الأشياء فكان "داو" جزءا من الموجودات وسوف نفصّل هذا بعد قليل. وعلي كل حال فإن "داو" هو أصل العالم عند لوتس.

وإن مفهوم العالم عند لوتس لو قارنناه بما ذكره القرآن لكان شيئا لا يذكر وإن العالم عند الإسلام متكون من الأرض التي نعيش عليها و من السموات السبع ومن الشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي وجميع ما بين السماء والأرض فيري علماء الإسلام أن العالم هو كل ما سوي الله تعالي [555] .

وكذلك يقول الإسلام بأن العالم لا ينحصر في الموجودات المادية بل هنالك في العالم مخلوقات روحانية من الجن والملائكة والشياطين والأرواح و ذكر القرآن وجود هذه الموجودات و عبر عن جميعها بالعالمين .

إن الإسلام كدين أبان هذه القضية بلسان مبين حيث يصرح القرآن بأن الله هو الخالق بديع السموات والأرض وأوجد العالم من العدم وأنه مخالف عن جميع مخلوقاته وقال القرآن الكريم

" ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأني تؤفكون (المؤمن:٦٢)

وقال " أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (طور:٣٥)

وقال : بديع السموات والأرض وإذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون (البقرة:١١٧)

تشير الآية إلي أن الكون وما فيه من الكائنات حادث لا قديم وهو مخلوق لا خالق ويقتضي هذا أن الكون قبل الإيجاد عدم وكان الله باقيا أزليا ثم أوجده ولم يكن الله جزءا من العالم وليس من جنس مخلوقاته وكان مباينا عنها قطعيا .

وجاء فلاسفة الإسلام ومن أجل إثبات وجود الله نهجوا منهج لوتس في الاستدلال وكانوا يشبهون الله بما يقارب الأصل عند لوتس فقال الكندي بأن الله هو العلة الأولي للعالم [556] بينما يقول الفارابي بأن الله هو السبب الأول للموجودات [557] وما هو السبب والعلة إلا أصل في تصور لوتس .

نشأة الكون:

لم يختلف العلماء في أن "داو" هو أصل العالم و مصدر الكائنات عند لوتس ولكنهم اختلفوا في كيفية نشأة العالم المتنوع الأجناس من "داو" الواحد إذ كان لوتس نفسه لم يقف

---

555 الإمام الغزالي < الاقتصاد في الاعتقاد> ، مطبعة الهلال ، ص:٥٧.

556 الكندي ، < رسائل الكندي > ،ج :٢ ص:١٨٣.

557 الفارابي : < لراء أهل المدينة الفاضلة > دار المشرق ، بيروت ، ص: ٣٧ ،

عند قول واحد بل ذكر أكثر من واحد مجملة يتعذر الجمع بينها فاختلف العلماء في تفاصيلها و كان نفس الإشكال قد واجه الفلاسفة المسلمين إذ سكت الشرع عن عملية الخلق بالتفاصيل فترك للفلاسفة مجالا واسعا للتصور والتخمين .

ولقد ذكرلوتس قولين فيما يتعلق بنشأة العالم وقد يكون بينهما اتصال داخلي يساند بعضهما بعضا، القول الأول :

" الكائنات في العالم تولدت من الوجود و الوجود تولد من العدم " (ف:٤٠)

يفهم من هذا النص أن الكائنات مرّت بمراحل ثلاث حتي صارت علي ما نراه اليوم من الأشكال وهذه المراحل هي العدم ثم الوجود ثم الكائنات . و واضح من النص أن "الوجود" هو الأصل المباشر للكائنات إذ تولدت منه دون واسطة وثم سبقه شيء آخر هو "العدم" وهو الأصل البعيد للكائنات . وكان لوتس نفسه لم يحدد معني "الوجود" و "العدم" في هذا النص وترك الأمر إلي تخمين اللاحقين فيخمّن كل واحد ما يراه مناسبا لكونه مصدرا للكائنات .

فيري معظم العلماء أن "العدم" يراد به "داو" نفسه إذ سمّاه لوتس بذلك في صريح النص : " والعدم أم الكائنات "[558] فيكون "داو" أصل بعيد للكائنات ولكن بين هذا الأصل وبين الكائنات وسيط وهو "الوجود" فيسأل مرة أخري ما هو " الوجود " الذي تولدت منه الكائنات مباشرة ؟

إختلفت الآراء حول تفسير هذه الكلمة إلي عدة أقوال : منها أن المراد من "الوجود" هو "داو" كذلك لأن لوتس عبّر عنه ب"الوجود" في نص: " والوجود مبدأ السماء والأرض " ويراد ب"الوجود" "داو" نفسه[559] . ولكن يبقي بعد هذا إشكال آخر وهو أن "داو" -- حسب ظاهر النص-- ولد نفسه قبل أن يلد الكائنات وهذا ما لا يقبله العقل إذ فيه تناقض و من جانب آخر يخالف معطيات النصوص الصريحة بأن "داو" وجود مطلق وقديم لا بداية ولا ضد له ولا ند وكان أمّا لا مولود لشيء و لوكان مولودا لغيره لصار حادثا وأصبح القديم حادثا وهذا محال .

ولكن من الذين علي هذا الرأي من حاول توفيقا بين معطيات النصوص وبين صريح العقل و شرح هذه النقطة شرحا كافيا يكاد يبلغ إلي حد مقبول فقال أحدهم [560]: [إن "الوجود" و "العدم " يقصد بهما "داو" ... لأن "داو" كان قوة متكمنة وقبل إيجاد

[558] راجع شرحنا للفصل الأول من نصوص < داو ده جين > ، ص : من هذا البحث .
[559] راجع شرحنا للفصل الأول من نصوص <داو ده جين> .
[560] العالم المشهور في الحاضر وهو (تشين قو يين) صاحب الكتاب < لوتس دراسة و تعليقا >.

الموجودات كان خفيا وهذا الخفي غير معروف لدينا بحواسنا ولذلك وصفه لوتس بالعدم وهو في نفس الوقت يعبّر عنه بالوجود لأنه ولّد الكائنات][٥٦١] و يعني ذلك أن "العدم" و "الوجود" ليسا شيئين مختلفين وإنما هما حالتان ل" داو" فالعدم هو الحالة التي كان "داو" قوة متكمنة بينما الوجود هو الحالة التي يتولد فيها الموجودات وكأن النص يقول بأن "داو" تحول من حالة إلي حالة . و الولادة في النص لم تكن ولادة حقيقية بل عبارة عن الانتقال من حالة إلي حالة وفي أثناء الانقال تولّدت الكائنات.

و قيل أن "الوجود" هو السماء والأرض كما شرح بذلك "خه شان قون" قائلا : [الوجود هو السماء و الأرض لأنهما ذوا الصور والأماكن ولذلك سمي بالوجود][٥٦٢]. وأما "العدم" فهو "داو" وإنه ولّد السماء والأرض أولا ثم تولدت منهما الكائنات .

وبناء علي هذا الرأي تكون نشأة الكائنات علي ترتيب تال : "داو" --- السماء والأرض ---الكائنات وهذا الشرح يوافق العقائد التقليدية للصينيين إذ يري الناس منذ القديم أن السماء كالأب و الأرض كالأم وتولدت منهما الكائنات وأما عملية الولادة فهي أن للأرض قوّة يقال لها الهواء الأرضي و للسماء قوّة يقال لها الهواء السماوي وتتزاوج القوتان بصورة إندراج بعضهما في بعض فتتولد الكائنات .

قيل إن العدم هو "داو" و "الوجود" هو قانون مجرد من الصورة و المادة [٥٦٣] وهو موجود بالقوّة قبل وجود الأشياء بالفعل و هو الذي يعطي كل شيء خصائصه ويحدّده و يجعله شيئا واقعيا بخصائص معينة وهو بمثابة المشروع أو الخطة قبل وجود الشيء بالفعل وحسب هذا القول تكون نشأة العالم علي ترتيب تال : كان "داو" وجودا أزليا ثم أحدث قانونا للكائنات ثم نشأت الكائنات حسب هذا القانون.

ونلاحظ أن هذه الشروح وان كانت متغايرة إلا أنها عموما لم تنكر كون "داو" وجودا أزليا ومغايرا عن العالم .

القول الثاني :

بجانب القول الأول قال لوتس في مكان آخر : إن "داو" ولد واحدا و الواحد ولد اثنين و الاثنان ولدا ثلاثة و الثلاثة ولدوا الكائنات " (ف:٤٢)

---

561 < لوتس دراسة و تعليقا > ، ص: ٦٣.
562 < تفسير خه شان قون > ص:١٦٢.
563 جو لي شين : < حكمة لوتس > ص: ٤٩ ، المطبعة الشعبية ، خه باي ، ١٩٩٧.

هذا النص وضع حجر الأساس لنظرية الصدور أو نظرية الولادة ويري العلماء عموما أن هذا النص يمثّل حقيقة فكرة النشأة عند لوتس وقد بيّن النص مراحل النشأة بأن العالم مرّ بمرحلةِ الواحد ثم مرحلة الاثنين ثم مرحلة الثلاثة حتي صار العالم ولا يخفي أن ظاهر النص يفيد نظرية الصدور لا نظرية الخلق .

ولكن بما أن لوتس لم يبّين المراد من كل هذه الأعداد حال الإشكال دون فهم كيفية الولادة فتعسر فهم حالةِ الوجود في كل المراحل ولذلك لجأ الناس إلي التخمين لشرح حقيقة هذه الأعداد فظهرت أراء مختلفة حولها :

قيل إن النص يشير إلي صدور العالم من "داو" ابتداء بالقلة وانتهاء إلي الكثرة الهائلة وأن هذه الأعداد ليس لها معني إلا دلالة علي عملية الصدور من القلة إلي الكثرة [٥٦٤].

وحسب هذا الرأي كان العالم صغيرا و قليل أنواع الموجودات ثم تطوّر و كبر حتي صار شكله اليوم و لم يخمّن القائل أكثر دقّة ما هو القليل في البداية وكيف كثر ولكن الفكرة الأساسية فيها واضحة أن الكائنات صدرت عن "داو" .

والرأي الآخر يقول بأن هذه الأعداد لها معني وكل عدد يعبّر عن شيء معيّن ولكن المراد من الأعداد لا يزال نقطة الخلاف بين العلماء :

فقال "خه شان قون" شارحا لمراحل الصدور [إن الواحد هو ما تولد من "داو" ثم من الواحد تولّد " يين" (القوة الأنوثية) و " يآن " (القوة الذكورية) ثم تولّد منهما هواء صاف و هواء كدر و هواء مشترك ثم من هذه الثلاث نشأت السماء و الأرض و الإنسان][٥٦٥].

وحسب هذا الرأي أن "داو" هو أصل الكل فصدر منه شيء يقال له الواحد وهو شيء مجهول مجرد من الصورة و المادة وأما الاثنان فهما "يين " و"يآن " (القوة الذكورية والقوة الأنوثية) والثلاثة هي الهواء الصافي و الهواء الكدر و الهواء المشترك ثم من اختلاط هذه الثلاثة نشأت الكائنات .

و يبدو من هذه المراتب أن الواحد والاثنين كانا من المعقولات المجردة من مادة وصورة وأما الثلاثة فقد تضمنت أنواع العناصر المادية لأن الهواء نفسه نوع من المادة ثم أن الهواء الكدر والهواء المشترك لا يكونان إلا إذا اختلطا بشيء غير الجوهر الهوائي

---

[٥٦٤] كوه شي مين : < ما ذا يقول لوتس فعلا > ، ص: ١٩٨، المطبعة الصينية ،١٩٩٩م.

[٥٦٥] - تفسير خه شان قون> ، ص:١٦٨-١٦٩.

ولا بد أنه قد نشأت المادة الأخري مع الهواء في المرحلة الثالثة بسبب إنفعال "يين" و "يآن "[٥٦٦] .

و يجدر بنا أن نذكر مفهوما مهمّا لا ينبغي أن يغفله كل من يدرس الفلسفة الصينية عامة والفلسفة الداوية بصفة خاصة وهو مفهوم "يين" و"يآن" وقد كرّس العلماء الصينيون منذ القديم شروحهم لظواهرالطبيعة كلها علي نظرية "يين يآن " فهي أساس لفهم الفلسفة الصينية ولا يتيسر لمن يجهل عنها الدخول في قلب الثقافة الصينية .

"يين" (Yin) لغة يعني ظلاما واصطلاحا القوّة الأنوثية و السلبية .

"يآن" (Yang) لغة يعني تنورا واصطلاحا القوّة الذكورية و الإيجابية.

لعل فكرة "يين يآن " جاءت في البداية من ملاحظة القدماء لحركة الشمس إذ حينما تدخل الشمس في السحاب يكون الظلام و حينما تخرج منه يكون التنور ، ثم عمّق الناس معني الكلمة وإستخدموا كلمة "يين" في معني الخفاء والإعراض عن الشمس والجهة الخلفية و الجانب الباطن و إستخدموا كلمة "يآن" في معني الإقبال إلي الشمس والجهة الأمامية و الجانب الظاهر وغير ذلك[٥٦٧] ولم يكتف القدماء بهذه المعاني بل وسّعوها إلي الأبعد وجعلوا كلمة "يين" تعبّر عن جميع الجوانب السلبية مثل السكون والبرودة والتأخر و الضعف والخفاء والطاعة والإناثة وغيرها من الأوصاف التي تختص بالأنوثية وتعبّر كلمة "يآن " عن جميع الجوانب الإيجابية من الحركة و الحرارة و التقدم والقوة والظهور والهجوم و الذكورة وغير ذلك من الأوصاف التي تختص الرجولية .

ويري القدماء الصينيون أن هذا الإزدواج متواجد في كل شيء . وعلي سبيل المثال توجد في الأشياء الحيّة : الحياة ("يآن ") و الموت (" يين") والرجل ("يآن ") والمرأة (" يين") والذكورة ("يآن ") والإناثة (" يين") والجسم("يآن ") والروح(" يين") .

وفي الطبيعة توجد: السماء ("يآن ") و الأرض (" يين") و النهار("يآن ") والليل (" يين") والشمس ("يآن ") و القمر (" يين") والنور ("يآن ") والظلام (" يين") .

وفي الجهة يوجد: الفوق("يآن ") والتحت (" يين") واليمين ("يآن ") واليسار (" يين") والأمام ("يآن ") والخلف (" يين") .

وفي هيئة الأشياء توجد : الحركة ("يآن ") والسكون (" يين") والاستقامة ("يآن ") والعوج (" يين") والكبر("يآن ") والصغر(" يين") والطول("يآن ") والقصر(" يين") .

[566] ما جون : < مناهج التفكير الكبري لحكماء الصين > ، ص : ٣٨٩.

[567] ٣٨٥.ـ المصدر السابق ، ص: ٣٨٤

وفي طبيعة الأشياء توجد: القوّة ("يآن ") والضعف (" يين") والحرارة ("يآن ") والبرودة (" يين") والثقل("يآن ") والخفّة(" يين")

هكذا يتواجد هذا الازدواج في كل شيء حتي تتواجد الازدواجات في شيء واحد نظرا إلي جوانبه المختلفة. وعلي سبيل المثال إن الرجل "يآن " بالنسبة إلي المرأة و ظاهره "يآن " بينما باطنه " يين" و جسمه "يآن " و روحه " يين" و حياته "يآن " و موته " يين" و الجانب اليمين من جسمه "يآن " و الجانب اليسار " يين" والجانب الأمامي من جسمه "يآن " و الجانب الخلفي " يين" وهكذا يعّم " يين يآن" في جميع الأشياء إلي ما لا نهاية له.

وقد اعتمد الصينيون علي هذه النظرية في شرح كل الأمور إذ يرون أن الصلاح هو توازن "يين يآن " في الأمور وأما الفساد هو تغلب أحد الجانبين علي الآخر ولذلك كان النظر إلي التوازن بين "يين يآن " هو المبدأ الأساسي للحكم علي صلاح شيء وفساده.

والجدير بالذكر أن لوتس وإن كان لم يحدد معني كلمة الاثنين بل شرحها الآخرون ب"يين ويآن " إلا أن مفهوم "يين يآن " كان معروفا لديه إذ يقول: [إن الكائنات تحمل "يين" وتعانق "يآن" ويتوازن بالهواء المعتدل] (ف:٤٠) . فتفسيرهم للاثنين ب"يين يآن " لم يكن بعيدا عن مذهب لوتس .

وربما المفهوم "يين يآن " ليس غريبا علي المسلمين لوتدبّرنا الآيات القرآنية المتعلقة بذكر الزوجين الاثنين الذكر والأنثي مثل قوله تعالي :[ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون](النجم :٤٥) وقوله تعالي :[ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين] (الرعد :٣) وقوله تعالي :[سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض] (يس : ٣٦) .

وقد نجد كلمة مقابلة للفظ "يين يآن" في القرآن هي كلمة الزوجين في الآية " ومن كل شيء خلقنا زرجين لعلكم تذكرون (الذاريات:٤٩) " ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين (الرعد:٣) فيمكن لنا أن نفهم كلمة الزوجين في الآية علي أنها تعبر عن نفس مفهوم "يين يآن" عند الصينيين غير أن المسلمين لم يعمّموا هذا المفهوم إلي جميع الأشياء سواء كانت أشياء طبيعية أو العقلية أوالروحانية .

لنعد إلي كلامنا السابق : إن "خه شان قون" يري أن الواحد هو ما تولد من "داو" وهو مجهول لدينا وأن الاثنين هما " يين" و"يآن" وأن الثلاثة هو ثلاثة أنواع الهواء : الهواء الصافي و الهواء الكدر والهواء المشترك وأن الكائنات --هي عبارة عن العالم المادي -- تكوّنت من هذه الأنواع من الهواء .

ومن الملاحظ أن "الواحد" (في المرتبة الثانية) والاثنان (في المرتبة الثالثة) لم يكونا من الأشياء المادية في تصور "خه شان قون" ثم بانفعال "يين" و"يآن" (القوة الذكورية والقوة الأنوثية) تولّد الجوهر المادي (الهواء) و مع اختلاط الهواء بعناصر أخري التي تكثّر الهواء تشكلت المادة الأولي للعالم وهكذا نشأت المواد وتكون منها العالم .

وقيل إن "الواحد" في النص المذكور يراد به المنتهي الأعلي (يراد به "داو") وأما الاثنان فهما السماء والأرض ثم تكوّن من القوّة السماوية والقوّة الأرضية وجود ثالث وهو هواء مشترك أو قوة مشتركة [٥٦٨] . ثم من مجموع الثلاث نشأت الكائنات .

ويبدو من هذا الرأي أن الواحد (وهو المنتهي الأعلي) كان وجودا روحيا عقلانيا وأما الاثنان (السماء والأرض) فكانتا ماديتين ولعل الكائنات يراد بها ماعلي الأرض من الحيوانات والنباتات لأن الأرض قد وجدت قبلها وأما الثالث فيكون قوّة منمّية لازمة لتنمية الأشياء الحية ، وحسب هذا الرأي إن المنتهي الأعلي (داو) خلق السماوات والأرض دفعة واحدة من غير المرور بالمراحل ثم منحهما قوي منمّية لنشأة الحيوانات والنباتات .

وقيل إن الواحد هو "داو" نفسه ثم الاثنان هما " يين" و"يآن" (القوّة الأنوثية والقوّة الذكورية) فتزاوج الاثنان وتولّد منهما الثالث وهو الهواء المشترك[٥٦٩] .
فالثالث له جوهر مادي وأما ما قبله فهو من المعقولات[٥٧٠]

وقيل إن "داو" هو "العدم" بالنظر إلي خفائه والواحد هو "الوجود" ولكن يراد بكلاهما "داو" نفسه بالنظر إلي وجوده الواقعي وكان القصد من عبارة ("داو" ولد واحدا والواحد ولد اثنين والاثنان ولد ثلاثة) أن العالم ينتقل من اللا شيء إلي الشيء وأما الإثنان فهما "يين" و"يآن" ويتزاوجان وتنتج منهما "حالة مخلوطة معتدلة " وصار مجموع الوجود ثلاثة : "يين " و"يآن" والحالة المخلوطة ثم نشأت الكائنات في الحالة المخلوطة بتفاعل "يين " و"يآن" .

وقيل إن الواحد هو "داو" وله حركة وسكون وهما اثنان وإن الحركة يقال لها "يآن" وأن السكون يقال له "يين" وذلك هو أن الواحد ولد اثنين ثم المجموع من الواحد والاثنين يكون ثلاثة وذلك هو أن الاثنين ولدا ثلاثة ولكنهم جميعا في الحقيقة واحد [٥٧١]

[٥٦٨] < ماذا يقول لوتس فعلا > ، ص: ١٩٨.
[٥٦٩] المصدر السابق ، ص: ١٩٨
[٥٧٠] < حكمة لوتس > ، ص: ٥٣.
[٥٧١] قاو دين يي : <دراسة داو ده جين > ص: ٢٣٨ مطبعة معهد الإذاعة ، بكين ، ١٩٩٩م .

والقصد من هذا الشرح التثليثي يبيّن أن "داو" خلق العالم من العدم ولم يعتمد علي عناصر قديمة وأن "داو" كان فاعلا عاملا حيث يتحرك ويسكن وبفعله هذا خلق العالم . والقائل بهذا القول يزعم أنه عرف هذه الحقيقة بالكشف الوجداني [٥٧٢]

وقيل إن "داو" هو الجوهر الأصلي للكائنات ثم تولّد من هذا الجوهر واحد وهو هواء مختلط من "يين" و"يآن" ثم انفصل "يين" عن "يآن" فصار اثنين ثم امتزج الاثنان مرة أخري وتزاوجا وانفعل بعضهما بعضا فتولّد وجود ثالث ونشأ من الثالث جميع الكائنات .

ويبدو أن هذا الشرح من العلماء الماديين حيث شرحوا كل شيء بالنظرية المادية حتي رأوا أن "داو" نفسه كان شيئا ماديا .

هكذا تعددت الأقوال والشروح حول القولين السابقين للوتس عن نشأة العالم وقد رأينا أن لوتس نفسه لم يخض في تفاصيل نشأة الكائنات واكتفي بذكر طريقة النشأة وهي الولادة ولكن عملية الولادة لاتزال مبهمة وغامضة ومن ثم ظهرت الأقوال والأراء حولها ولايخفي أن كل هذه الأقوال قائمة علي التخمين ولكن لا ننكر أن بعضا منها قد اقترب من قصد لوتس .

ومهما كان فإننا علي رأي بأن لوتس يعتقد ب"داو" كخالق الكائنات (أم الكائنات) ولكنه عبر عن ذلك باللغة الفلسفية فبدلا من القول بالخلق قال بالولادة وأن الأعداد قد تكون كما شرحوا ولكن النقطة الأساسية هي أن "داو" خلق واحد ثم خلق منه اثنانا ثم خلق منهما ثلاثة ثم خلق منها الكائنات وسيأتي ذكر الحكمة في هذا بعد قليل .

يؤمن الإسلام بأن الله خلق العالم بيديه ولم يكن خلقه عن طريق الصدور و لا الفيض ينشئ كل نوع من الموجودات بقدرته ولم يذكر القرآن ولا الحديث تفاصيلا لظهور العالم بل ذكر لنا مبدئين من عملية الخلق :

(١) أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام .

(٢) أنه إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون .

وهذان المبدآن يبدو منهما التناقض ولكنها في الحقيقة لا يناقض أحدهما الآخر إذ أن مجموعهما عبر عن فكرة أن الله قدير يقدر علي خلق العالم من غير مادة ولا آلة ولما أراد شيئا قال له كن فكان ذاك الشيء وكان قادر علي أن يخلق جميع العالمين في لحظة

---

[572] المصدر السابق ، ص: ٢٣٨-٢٣٩.

واحدة ولكنه لحكمة لا يعلمها إلا هو مدّ عملية الخلق إلي ستة أيام[٥٧٣] وأما خلق كل النوع من الأشياء خلال ستة أيام فتمّ بأمر منه في لحظة .

ويستحسن بنا أن نأتي ببعض الأيات والأحاديث فيما يتعلق بخلق العالم حتي نكون علي بصيرة .فقال القرآن :

بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (البقرة:١١٧)

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (الأعراف: ٥٤)

قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم (فصلت :٩-١٢)

خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين (لقمان :١٠-١١)

والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (الذاريات :٤٧-٤٩)

أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجلعنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (الأنبياء :٣٠-٣٣)

وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا (نوح:١٤-١٩)

[٥٧٣] اختلف العلماء في معني ستة أيام فقيل هي كأيامنا علي الأرض وقيل هي أيام الله ومقدارها لكل يوم ألف سنة مما نعد ومعظم العلماء علي القول الأخير .

وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (الحج:٤٧)

أما الأحاديث عن خلق العالم فهي :

صح الخبر عن رسول الله إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن و عن ابن عباس قال أول ما خلق الله من شيء القلم فقال له اكتب فقال وما أكتب يا رب قال اكتب القدر قال فجرى القلم بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة ثم رفع بخار الماء ففتق منه السموات[٥٧٤]

ورد الخبر عن رسول الله لما قيل يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء[٥٧٥]

قال الطبري عن عبدالله بن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله قالوا إن الله عز وجل كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء . وقال الطبري : حدثني محمد بن سهل بن عسكر قال حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم قال حدثني عبدالصمد بن معقل قال سمعت وهب بن منبه يقول إن العرش كان قبل أن يخلق السموات والأرض على الماء فلما أراد أن يخلق السموات والأرض قبض من صفاة الماء قبضة ثم فتح القبضة فارتفعت دخانا ثم قضاهن سبع سموات في يومين ودحا الأرض في يومين وفرغ من الخلق اليوم السابع[٥٧٦]

قال الطبري: عن عبدالله بن سلام أنه قال إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والإثنين وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات في الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة و حدثني موسى بن هارون حدثنا عمرو بن حماد حدثنا أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي قالوا جعل يعنون ربنا تبارك وتعالى سبع أرضين في يومين الأحد والإثنين وجعل فيها رواسي أن تميد بكم وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء ثم استوى إلى السماء وهي دخان فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين الخميس والجمعة [٥٧٧]

---

574 ابن جرير الطبري < تاريخ الطبري >، دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٤٠٧، ج:١،ص: ٢٨.
575 المصدر السابق
576 المصدر السابق ص:٣٢.
577 المصدر السابق،ص: ٣٨.

وحسب ما يروينا الحديث وما دلت عليه الآية لعل نشأة العالم مرت علي خطوات تالية : كان الله ولم يكن معه شيء وكان في عماء ثم خلق القلم وأمره بأن يكتب ما يجري في العالم إلي يوم القيامة ثم خلق سحابا رقيقا وهو غمام أو دخان وخلق أول المواد وهو الماء وخلق العرش علي الماء ثم خلق العالم في ستة أيام . ففي اليوم الأول والثاني خلق الأرض وفي اليوم الثالث والرابع خلق الرواسي والنباتات وفي اليوم الخامس والسادس خلق الحيوانات والطيور والملائكة والسموات والأفلاك وفي آخرة الوقت من اليوم السادس خلق أدم عليه السلام ، واليوم الذي تمّ فيه الخلق كان يوم الجمعة . ولعل خلق كل نوع من الموجودات كان بأمره :كن فيكون، واستغرق الخلق ستة أيام بأمره لحكمة لا يعلمها إلا هو.

والجدير بالذكر أن العلماء المسلمين في الصين تأثّروا بالفلسفة الصينية وأخرجوا فلسفة إسلامية في ثوب جديد علي طراز الفلسفة الصينية و خاصة فيما يتعلق بقضية نشأة العالم ونذكر علي سبيل المثال رأيا جاء به الشيخ السيد صالح محمد نور الحق بن لقمان ("ليو جي" Liu zhi)[578] وقد فسّر قضيّة الخلق بطريقة خاصة مزج فيها الفلسفة الصينية بالفكر الإسلامي و قال :[فهو مبدأ بلا إبتداء غير متصف وغير ملابسة وإنما وجود حقيقي وذات أحدية إندرجت فيها الشؤونات ولاندراج جميع الشؤونات فيها كانت صفاته كلها غير متمايزة فيها] ويعني أن الله تعالي هو مبدأ للعالم وكان وجودا حقيقيا غير متصف بشيء ولا متمايز الصفات وكان الشيخ صالح يصف الله كما يصف لوتس "داو" بأنه وجود مطلق بين الغيبوبة والخفاء واللبسة[579] ثم يقول :[فتجلّي ذاته بالصفات وصدرت الأفعال وتجري الحقيقة المحمدية ويكون الكون الأول] فالحقيقة المحمدية هي أول المخلوقات لله تعالي وهي تقابل الواحد عند لوتس [فبتضمنها العلم والقدرة قسّمه الله نفسا كلية وعقل كلي فبانشعابهما تمت ملكوت الإنسان والسماء] و من المعروف أن مفهوم العقل الكلي والنفس الكلية هو ما جاء به أفلاطون ولكن لا نظنّ أن الشيخ صالح أخذه منه مباشرة بل لا بد من أن أخذه من الفلاسفة المسلمين كالفارابي و ابن سينا ومن جانب آخر أن النفس الكلية والعقل الكلي عند الشيخ صالح تقابل الاثنين عند لوتس ثم يقول الشيخ صالح [وبقيت في ضمنهما درادي لطيفة سميت الهبا الأولي وهي آخر عالم الملكوت وأساس عالم الملك] والهبا الأولي هنا يقابل المادة الأولي المشتركة عند الفارابي [وتقسم أصلها ورقّها الله أولا إلي حرانية (مأخوذة من حرارة) و قرانية (مأحوذة من قرّة)] والحرانية والقرانية هنا ليستا إلا "يين " و "

---

[578] هو عالم جليل من العلماء المسلمين في الصين من القرن السابع عشر وهو من الأوائل الذين يكتبون عن الإسلام باللغة الصينية وكتبه تعتبر مصادر أساسية للصينيين في معرفة الإسلام إلي اليوم .

[579] انظر الفصل الواحد والعشرين من كتاب داو ده جين .

بأن " (القوة الذكورية والقوة الأنوثية) في الفلسفة الصينية . [فانبسطت الحرانية وانقبضت القرانية فجعلهما الله نارا وماء فبامتزاجهما وتضادهما أحدث الله الهواء والتراب وأما الهواء والنار فيتوجهان إلي الخارج فجعل الله الهواء السموات والنار الكواكب وأما التراب والماء فهما باقيان في الداخل فجعل الله التراب أرضا والماء بحارا فلما أمكن الفوقانية والتحتانية أحدث بينهما الأجناس بأن نزول التخليق إلي التراب ثم بعد انتهائه انقلب التخليق إلي العروج فبتركيب التراب مع الماء أحدث الله المعادن والأحجار ثم بتركيب الثلاثة مع النار أحدث الله النباتات وبتركيب الخمسة مع الهواء أحدث الحيوانات ثم بتركيب الحيوان مع الروح الإنسانية أحدث الله الإنسان] و هذه هي نظرية الخلق عند الشيخ صالح و نلاحظ أن هذه النظرية تشبه نظرية أحد الفلاسفة المسلمين وهو الفارابي في كيفية التركيب والاختلاط ولكنه أقرب إلي الإسلام من الفارابي إذ جعل تلك التركيبات إحداثا من الله تعالي بينما جعلها الفارابي عملا من العقل الفعال والأجرام السماوية ثم في قضية العناصر لم يقف الشيخ صالح مع فلاسفة الصين علي فكرة خماسية العناصر بل وقف مع الفلاسفة المسلمين في عدد العناصر الأساسية وهي الأربع ولكن لم يوافقهم علي مجموعة الأركان فقال: [أما الهواء والنار والماء والتراب فمسماة بالوالدات الأربعة وأما المعادن والنباتات والحيوانات فمسماة بالموالد الثلاث . و الوالدات والموالد مسماة بالأركان السبع] [فبانبساط هذه السبع حصّل الله الأجناس نتيجة وبتباين بعض صورها لبعض جعلها أنواعا متغايرة وتفاوت المواد جعل الله خواصها متفاوتة وملكوت كل شيء إنما تظهر بمتابعة ملكه وبها تنتج وتخليق العالم الكبير دائرة عاد منتهاها إلي مبدئها ولكون الإنسان منتهي المخلوقات عليهم انطبع ما فيها فلما أتم الملكوت والملك حصل التخلق][٥٨٠] .و هكذا نري أن علماء الصين في كثير من القضايا مرة كانوا مع فلاسفة الصين ومرة أخري مع الفلاسفة المسلمين . وإنما ذكرنا فكرة علماء الصين هنا لنشير إلي التقارب بين الفكر الإسلامي وبين الفلسفة الصينية في بعض القضايا حتي مزجهما العلماء المسلمون .

قضية الخلق :

قد لاحظنا أن لوتس لم يستخدم كلمة خلق في بيان نشأة العالم بل بدلا منها عبّر بكلمة ولادة أو توليد كما لم يذكر شيئا ما يعيننا علي فهم أن عملية النشأة كانت تجري تحت إرادة "داو" وعلمه كما هو واضح ذلك في الإسلام فإن العقيدة الإسلامية قائمة علي أن

[٥٨٠] العالم الجليل الصيني صالح ليو جي: < اللطائف > ، الفصل الأول .

الله خلق العالم بيده ثم يدبّره تدبيرا كاملا ولا شك أن جميع الأديان قائمة علي أساس الخلق الإلهي وعلي علمه وإرادته وكانت الديانة الصينية قبل لوتس تقرّ بهذه الحقيقة . فهنا قد يطرح سؤال لماذا ذهب لوتس إلي ما ذهب إليه ولم يقف مع الآراء الدينية ؟

فنقول : إن لوتس لم يكن جاهلا عن الآراء الدينية في القضايا المذكورة ولعله كان علي تلك العقيدة ولكنه كما ذكرنا كان فيلسوفا وحاول أن يبيّن قضية الخلق بطريقة فلسفية وهي طريقة ما يرضي عقول الناس وخاصة للعوام منهم . وكان لوتس حاول من مسألة الولادة أن يجيب عن سؤالين مهمين فيما يتعلق بقضية الخلق . ألا وهما : إذا كان العالم غير موجود ثم وجد فكيف جاء من العدم إلي الوجود ؟ وإذا كان "داو" عدما (بمعني وجود روحي وغير مرئي) وعديم الفعل فكيف خلق الموجودات المحسوسة ؟

وكان السؤال الأول ما حاك في عقول فلاسفة اليونان كذلك [٥٨١] ولكن حلّ لوتس هذه المشكلة بطريقة رائعة وجاء بنظرية الولادة . وكانت نظرية الولادة فيما يري لوتس أقرب إلي عقول الناس في فهم إيجاد الشيء من العدم . وذلك أن الولد لم يكن موجودا فحملته أمه ثم ولدته فوجد وكذلك العالم فهو لم يكن وكان "داو" أزليا قبله فهو كالأم ولد العالم فالعالم جاء من العدم إلي الوجود .

ثم إنّ الأم ، وإن كانت سببا لوجود أولادها إلا أن وظيفتها في أثناء نشأة الجنين هي الحمل فقط وأن إرادتها لا تتدخل في تكوين الجنين وعند كمال الجنين تلد الأم ولادة طبيعية من غير قصدها ولكن الأم تتضمن في نفسها جميع الأغذية التي يحتاج إليها الجنين في نشأتها من غير تصريف الأم فيها . فمن هذا المنطلق كان العالم مولودا من "داو" إذ أن "داو" وجود غيبي ويملك القوي التي تكوّن الكائنات فكوّن بها شيئا من الكائنات ثم تزداد الأشياء تحت تلك القوي حتي صار العالم فكأن العالم يولد منه ولادة طبيعية من غير تصريف "داو" فيه وظهر من العدم إلي الوجود .

وإجابة لوتس عن هذه المسائل قد لا تقنع عقول الناس في اليوم ولكنها إلي حد ما كانت جوابا معقولا وخاصة قد ترضي عقول الناس قبل خمس وعشرين قرنا وعلي الأقل هو قدّم تحليلا عقليا لنشاة العالم .

نكرر هنا مرة أخري أن الإله في فلسفة لوتس ينقص الصفات الوجودية أو الثبوتية ولذلك نجد أن لوتس في قضية الخلق سلب من "داو" صفة الإرادة والعلم وجعل فعل الولادة عملية طبيعية صرفا من غير تدخل اختياره فيها بينما الإسلام يؤكد في قضية الخلق أن الله له

---

[٥٨١] انظر بديع الجمر ، < قصة الإيمان > ، دار الثقافة المسلم ، قم ، إيران ، ١٣٤٢هـ ، ص: ٤٠.

القصد والإرادة والعلم وأن الله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد حتي يخالف أحيانا ما وضعه هو من القوانين والسنن في الكون . فإذن طبيعة الخلق عند لوتس هو صدور بالطبع دون العلم لا الإرادة بينما الخلق عند الإسلام كان علي علم تام وعلي قصد مراد .

المبحث الثاني النظام الكوني

إن النظام هو ما يختفي وراء الظواهر ويتكرر بنفسه تحت شروط معينة وإنه ليس شيئا ماديا بل هو طريق معنوي تتبعه الأشياء في حركتها وإن الإنسان لا يتوصل إلي معرفة قانون من القوانين إلا بعد ما تجرّب به مرارا واستخلصه من تأمل عميق وتفكر طويل فالنظام الكوني علي هذا المعني ليس ما يعرف من لمحة واحدة بل نتيجة من النظر عبر القرون ولذلك قل ما نجد القدماء يتحدثون عن نظام الطبيعة أو نواميس الكون بل يؤمنون أن كل الحوادث في الطبيعة والكون فعل من أفعال الآلهة وأن إرادة الآلهة تجري في جميع الشؤون الكونية كلية أو جزئية[٥٨٢] وهذه هي حالة فكر القدماء الصينيين ولم يختلف سائر الأقوام القديمة عنهم كثيرا في هذه المسألة .

وكان معظم شعوب الصين تحت إرشاد نوع من الديانة توصلوا إلي الإيمان بوجود القوة المسيطرة من ورائها فاعتقدوا بأن الإله يصرّف الكون والعالم الطبيعي ولم يكن للطبيعة نفسها قوة أن تتغير أو تتحرك[٥٨٣] وكان الناس علي هذه العقيدة منذ القديم حتي في عصر لوتس كانت هذه العقيدة سائدة وإنما كان الناس يتحدثون في تصريف الإله الظواهر الكونية والطبيعية لغرض من أغراض إلهية . وفي هذه البيئة برز لوتس كشخصية فذة يقول خلاف ما يعتقده الناس وأبعد الإرادة الإلهية من جزئيات التغيرات الطبيعة [٥٨٤] و أعطي للطبيعة قوة تتحرك حسب نظام معين[٥٨٥] .

وبناء علي هذا قيل إن فلسفة لوتس هي فلسفة طبيعية بحت وأنه عاد من نظرية النظام الإلهي إلي النظام الطبيعي [٥٨٦] ولا شك أن لوتس هو أول من تكلم عن النظام الطبيعي فيما نعلم أو علي الأقل كان من أوائل من يبحث عن أسباب التغيرات الطبيعية خارج الأغراض الإلهية و يراها نتيجة طبيعية من حركات الكائنات .

---

582 انظر < حكمة لوتس > ، ص: ٣٨.
583 انظر < حكمة لوتس > ، ص: ٣٨.
584 انظر :< حكمة لوتس > ، ص: ٤٠.
585 انظر المصدر السابق ، ص: ٣٨.
586 انظر المصدر السابق ، ص:٣٨- ٤١.

ولكن نري أن لوتس لم يذهب إلي مذهب طبيعي كاملا كما لم يفارق المذهب الإلهي كاملا بل مزج الاثنين وسار إلي الوسط بينهما حيث يري أن "داو" وهو الإله عنده كان خالقا ومدبرا للعالم من حيث المبدأ ويدبّره تدبيرا كليا ثم وضع للعالم نظاما بأن منح لكل أجزاء الموجودات طبيعته فيجري كل شيء حسب تلك الطبيعة جريانا طبيعيا .

فعلي هذا الأساس نقول بأن في فلسفته الكونية جانب طبيعي وجانب إلهي وأن الجانب الإلهي هو نظام كلي للكون بينما الجانب الطبيعي هو نظام جزئي للعالم

فالجانب الإلهي في نظام الكون عند لوتس هو أن "داو" يؤثّر في الكائنات بلا انقطاع كما قال :" إنه قيوم لا يتغير وفعّال لا يتوقف (ف: ٢٥) بحيث أن قوته تظهر في حركة الكائنات . وأن "داو" يربّي الكائنات ويحفظها وينميها كما قال لوتس في شأن العالم : ولذلك ولده "داو" ثم يحميه "ده" و ينميه ويربيه و يخرج إنتاجه و ينضجه ويراعيه ويحفظه (ف:٥١) فالعالم كله تحت تدبير "داو" وحده وكانت طريقة التدبير هي بواسطة عدم الفعل وهو كما ذكرنا سابقا أن ترك الأشياء علي طبيعتها لتعمل تلك الطبيعة فيها . ولا يخفي أن هذا يقتضي تقدير الطبائع للأشياء مقدّما ثم تجري الأشياء حسب طبائعها فكان "داو" واضعا لتلك الطبائع والنظام ثم يعمل هذا النظام في الأشياء وكانت العلاقة بين "داو" وبين الموجودات قائمة علي هذا الأساس وهناك نص يشيّد هذه العلاقة حيث يقول : يبقي "داو" علي عدم الفعل ولكن لا شيء ما لم يعمله (ف:٣٧) .

ونري أن هذا النص عبّر عن منهج كلي لعمل "داو" في الكائنات وهذا يحتوي علي جانبين : الجانب الأول أن "داو" نفسه عديم الفعل أي لا يعمل عملا ذاتيا ويتعالي عن العالم المحسوس والجانب الأخر هو أن "داو" فعال لا يتوقف وأنه يدبّر الكائنات بلا انقطاع ويؤثرها في كل حين وأن الموجودات لا يمكن بقاؤها دونه .

ويبدو من الظاهر أن هناك تناقض بين عدم الفعل ل"داو" وبين كونه قوة مؤثّرة في الكائنات ولكن الحقيقة أن "داو" لم يخض بنفسه في تحريك الكائنات بل وضع نظاما يعمل في الكائنات حتي يتمّ كل الأشياء حسب هذا النظام و لم ينقطع "داو" عن العالم مطلقا كما قال النص :

[السماء إهتدت إلي الواحد فصفت ثم الأرض إهتدت إلي الواحد فأمنت ثم الروح إهتدت إلي الواحد ففطنت ثم الوادي إهتدي إلي الواحد فامتلأ ثم الكائنات إهتدت إلي الواحد فنمت ثم الأشراف إهتدوا إلي الواحد فصلح العالم ، وذلك أن السماء إذا لم تصف ستتشقق وأن الأرض إذا لم تأمن ستعطّل، وأن الروح إذا لم تفطن ستفتر وأن الوادي إذا لم يمتلئ سيجفّ و أن الكائنات إذا لم تنبت ستهلك].(ف : ٣٩) . والواحد في النص يراد به "داو"

ويعني النص أن "داو" هو سبب وجود الكائنات وقوة مؤثّرة في صلاح العالم وبقائه و لا يحدث شيء بغير تأثير "داو" ولعل هذا التأثير يظهر في جريان النظام الذي وضعه .

فالكون في رأي لوتس يحكمه "داو" حكما كليا وقد نسمي هذا بالجانب الإلهي في نظام الكون .

وأما الجانب الطبيعي فيه فهو أن العالم بما فيه جميع أجزائه يتحرك ويعمل حسب الطبائع التي منحها "داو" وأن "داو" بعد ما منح لها الطبائع ترك الأشياء تعمل بطبيعتها وإلي ذلك أشار نص : ومن الفضيلة السرية إيجاد العالم بلا تملك و تزهيته بلا تفخر وتنميته بلا سيطرة (ف:٥١) بمعني أن "داو" بعد ما خلق العالم وقدّر له طبائع لم يتدخل فيه تدخلا ذاتيا ولم يسيطر علي حركاتها فكان العالم يتحرك حسب الطبائع المقدرة له .

وفي الحقيقة أن نظام الطبيعة عند لوتس عبارة عن جريان الأشياء حسب طبائعها .

لنكون علي علم تام بأن القرآن ليس كتابا مقصودا لبيان جميع الحقائق العلمية والنظم الكونية وإنمّا أراد الله به أن يهدي عباده إلي صراط الحق والرشاد وإلي طريق السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة ولكن مع ذلك قد احتوي القرآن علي نصوص تبين بعض الحقائق العلمية وتكشف النظم الكونية التي قد عرفناها أو لم نعرفها بعد فكل الحقائق العلمية التي اكتشفها الإنسان إلي اليوم لم تكن إلا جزءا من سنن الله تعالي في الكون وقد جعلها آية للناس لكي يتدبروا ما خلق الله وليعلموا أن الله وراء كل الحركات والسكنات .

ولعل نظرية الإسلام عن نظام الكون لا يختلف كثيرا عن نظرية لوتس بأن الله هو الخالق وواضع القوانين والسنن وأن الكون بما فيه جميع الأشياء الجزئية يبقي ويتحرك بقدرة الله ويجري علي النظام الذي وضعه الله وقد يخالف الله سننه الأحيانا إشارة إلي أن الله يملك العالم ونظامه ملكا تاما ويسيطر عليه سيطرة مطلقة وأنه علي كل شيء قدير وكان لوتس يبدو علي رأي أن الأشياء بعد ما طبعت علي خاصية معينة صارت لها قوة تتحرك بها وتتغير بها و لا يتدخل "داو" في حركات الكائنات ولا يسيطر عليها بعد ذلك .

ومن النظم التي وضعها "داو" للعالم ويجري عليها فيما يري لوتس نذكر بعضا منها :

(١) أن كل ما له بداية فلا بد له من النهاية .

فالكون لم يكن موجودا في الأزل ثم وجد ويبقي إلي أجل ثم يفني وذلك أن لوتس يري أن ما له البداية لا بد من أن يكون له نهاية في الأخير ، وعلي رأي لوتس أن الكون مرّ بمراحل في أثناء تطوره حيث نشأ من العدم ثم يتطوّر إلي قمّة الازدهار ثم يتدهور و ينتهي بالعدم في النهاية وقال لوتس : إنّ الكائنات تزدهر ولكنى أراها تعود فالكائنات

متنوعة ويعود كل نوع إلى أصله (ف:١٦) . فليست الأشياء الجزئية في العالم تمرّ بهذه العملية فقط بل العالم كالكل خاضع لهذا النظام .

ورأي لوتس في هذا لا يخالف العقيدة الإسلامية إذ يؤيد القرآن الكريم هذا النظر و يقول :ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمي (الأحقاف:٣) وأيضا " كل من عليها فان ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام (الرحمن :٢٧) وكما ذكرنا إثبات العلماء لحدوث العالم فحدوثه يقتضي هلاكه في وقت معين . فالعالم له النهاية كما له البداية.

(٢) من نظام الكون التطور المستمر .

يري لوتس أن العالم ليس ثابتا ولا ميتا بل يتغير في كل حين ويكون في التطور المستمر وذلك إما أن يتطور إلي الازدهار والقوة أو إلي التدهور والضعف .

يقول : وهو قيوم لا يتغير وفعّال لا يتوقف(ف:٢٥) بمعني أن "داو" يعمل بلا انقطاع وإن كان "داو" مؤثرا فيكون أثره مستمرا أبدا وبعبارة أخري أن الكائنات تكون في التغير المستمر ولكن لوتس يري أن كل التغير هو تطور وإن التغير قد يكون نحو إلي ما هو أعلي من حالة حالية أو إلي أدني منها وعلي أية حالة فهو --حسب قانون العودة الذي يلي ذكره—نوع من التطور . وهذا النظام لا ينقطع من النظام الذي نشرحه فيما يلي .

(٣) ومن النظام الكلي للكون نظام العودة وهو ان يتكرر كل شيء بالمراحل التي يمرّ بها أثناء النشأة والتطور مرة بعد أخري وأن العالم يكون في التطور والتغير المستمر كما قال النص [إنّ الكائنات تزدهر ولكنى أراها تعود فالكائنات متنوعة ويعود كل نوع إلى أصله] (ف: ١٦)

وقال كذلك : [أما العودة فهى حركة "داو"] (ف : ٤٠)

والعودة في النصوص المذكورة علي معنيين : عودة الشيء إلي نقيضه وعودة الشيء إلي أصله [٥٨٧] و الأولي تشير إلي عودة الكائنات من الضعف إلي القوة ومن القوة إلي الضعف أو إلي عودة الأمور من حالة إلي نقيضها والثانية تشير إلي تكرار الشيء بعملية النشأة والتطور والازدهار والتدهور والاضمحلال ثم العودة إلي النشأة من جديد

وهذا المبدأ يجري علي مستويين : مستوي العالم ككل ومستوي أفراد الموجودات كجزء . فالعالم حسب هذا المبدأ نشأ من العدم وسيعود إلي العدم وهذا ما لم نجرّب به

---

[٥٨٧] < حكمة لوتس > ، ص: ٥١.

ولكن مبدأ العودة يقتضي هذه النتيجة وأما مستوي أفراد الموجودات فهو ما نري عودته يوميا أوشهريا أوسنويا كما أن الشمس تطلع صباحا وتغرب مساء ثم تعود تطلع من جديد في اليوم التالي ثم تستهلّ من جديد وهكذا إلي نهاية العام وأن النباتات تنبت من البذر ثم تكبر وتصير زرعا ثم تنتج وتصير حبوبا وبذورا وهكذا تتكرّر في كل سنة أو كل فصل . فالنظام الطبيعي عند لوتس هو نظام دائري يجري في العودة المستمرّة .

إن نظام العودة عند لوتس لا يخالف مبادئ الإسلام إذ أن الله هو المبدئ والمعيد وأنه هو الذي يكور الليل علي النهار ويكور النهار علي الليل ويعيد الشهر تلو الشهر ويكرر السنة بعد السنة كما قال القرآن : خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل علي الهنار ويكور النهار علي الليل (الزمر:٥) . إلا أن هذه العودة تحدث تحت رعاية الله وإرادته في نظرية الإسلام وليست كما يعتقده لوتِس بأنها تحدث بالقوة الطبيعية فحسب ولا يتدخل الإله فيها .

لا شكّ أن فكرة لوتس في نظام الكون والطبيعة كانت في غاية البساطة ولم يذكر بالدقة كيف تنشأ و تتغير بها الموجودات ولعله لم يعرف أكثر من ذلك ولكن من الأهمّ أنه رأي قوة طبيعية تعمل في الكائنات تلقائية ويتحرك بها العالم تحركا طبيعيا وأن في الكائنات نظاما يعمل كل شيء حسبه .

يري الإسلام أن في الكون سنن وقوانين محكمة لا تتغير ولا تتبدل بتغير الزمان كطلوع الشمس من المشرق وغريبها من المغرب واختلاف الليل والنهار واستهلال القمر في كل بداية الشهر وغير ذلك وهذه كلها في الحقيقة سنن الله الكونية التي وضعها للعالم والتي تدل علي قدرة الله وعظمته ولو كانت من عند غير الله لزال وفسد فقال الله في القرآن :

ولا تجد لسنتنا تحويلا (الإسراء:٧٧)

ولن تجد لسنة الله تحويلا (فاطر:٤٣)

فلن تجد لسنة الله تبديلا (فاطر:٤٣)

من طبيعة القرآن أنه لا يعين شيئا ما يقال له نظام الكون ولم يرد الله به أن يبين سنن الكون بل يبين للناس آيات الله التي تشير إلي نعمه علي العباد وتدل علي قدرته وعظمته تعالي ليوجه عقول الناس إلي تدبرها وفهمها وفي أثناء هذا البيان كشفت لنا الآيات بعض القوانين الكونية والحقائق العلمية .

فمن النظام الكوني الذي أشار إليه القرآن أن جميع ما في الكون يتحرك ويجري وأن كل من الشمس والقمر والنجوم والأرض يسيرون في الفضاء ولا يتوقفون كما قال القرآن :

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (يس: ٤٠)

وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء (النمل:٨٨)

ثم إن الأفلاك لم تسر سيرا عشوائيا بل لكل الفلك مسير خاص لا يسير عليه غيره وأشار إلي ذلك القرآن الكريم :والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناها مناول حتي عاد كالعرجون القديم (يس:٣٨)

وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمي (الزمر :٥) فلا تصطدم الأفلاك بعضها بعضا ويجري كل في مسير بنظام متين . فبجريان الشمس والقمر والأرض في مسيرها علي حدة ظهر النهار والليل والفصول والسنة كما اكتشف لنا العلم الحديث .

ومن إتقان سنن الله في الكون أن الشمس والقمر صارتا حسبانا لعدد السنين والحساب ولا تتقدمان ساعة ولا تتأخران لحظة من الأزل .

ومن النظام الكوني أن كل سنة تحتوي علي اثني عشرة شهرا و أن كل شهر يحتوي علي إما تسع وعشرين يوما أو ثلاثين يوما ولا يتغير هذا النظام أبدا . وقال القرآن :إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله (التوبة:٣٦)

وقال النبي صلي الله عليه وسلم :إنما الشهر تسع وعشرون (رواه مسلم)

وقال عليه السلام : صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين .(رواه البخاري)

تدل الأية والأحاديث علي أن الشهور في تقدير الله اثنا عشر شهرا لكل سنة وأن لكل الشهر إما تسع وعشرين يوما أو ثلاثين . فلا يزيد ولا ينقص أبدا وذلك تقدير العزيز العليم .

ومن نظام الكون أن الحياة تنشؤ من الماء

وقد قال الله تعالي بأنه خلق كل شيء حي من ماء فالماء منبع الحياة ولعل فيه إشارة إلي القانون السببي بأن الله هو الخالق ولكنه جعل الماء سببا لنشوء الحياة .وقال القرآن :

وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم (البقرة:٢٢)

و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيي به الأرض بعد موتها (البقرة:١٦٤)

وجعلنا من الماء كل شيء حي (الأنبياء:٣٠)

ومن نظام الكون نشأة الأشياء من زوجين اثنين

إن الله خلق كل شيء زوجين الذكر و الأنثي والحكمة منها أن تنشؤ الأشياء من تزاوجهما وتفاعلهما وقد أثبت لنا العلم الحديث تلك الحقيقة القرآنية أن الأشياء ولو كانت ذرة تحمل

الزوجين الاثنين وقد اكتشف الصينيون هذه الحقيقة منذ القدم ولذلك رأينا لوتس كان علي هذا الرأي وقال: وإن الكائنات طبعت على حمل الذكور والأنوثة(ف:٤٢) وعلي كل حال هذا قانون من قوانين الله في الكون بغض النظر إلي من اكتشفه أو لم يكتشفه أحد وقال القرآن :

سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض (يس:٣٦)

ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (الذاريات:٤٩)

ومن نظام الكون وجود كل شيء بقدر معلوم

إن الأشياء في العالم متعددة لا تعد ولا تحصي إلا الله وكان كل شيء مقدرا بنسبة مناسبة حيث لو زاد عليه أو نقص منه لفسد نظام الكون ولبطل ما خلق له كما قال ابن رشد :إن الإنسان إذا نظر إلي شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ووضع ما موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة حتي يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل أو بغير ذلك الوضع أو بغير ذلك القدر لم توجد فيه تلك المنفعة علم علي القطع أن لذلك الشيء صانعا صنعه [٥٨٨]. وكان ابن رشد يتحدث عن جزئيات الموجودات ولكن نفس المعيار قد يطبق علي العالم ككل .وقال القرآن الكريم :

سبح اسم ربك الذي خلق فسوي والذي قدر فهدي (الأعلي :١-٣)

إنا كل شيء خلقناه بقدر (القمر :٤٩)

ولعل لوتس كان عارفا بهذه الحكمة في صنع الله إذ قال : أليست طريقة السماء كالقوس المشدود فلو كان مائلا إلى الأعلى يخفض ولو كان مائلا إلى الأسفل يرفع ولو كان زائدا فى القوة يخفف ولو كان ناقصا فى القوة يزاد و طريقة السماء أن تنقص الزائد و تزيد الناقص (ف:٧٧) وكلام لوتس بالوضوح يشير إلي توازن الأشياء في الكون وبعبارة أخري أن كل شيء في العالم مقدر بقدر مطلوب مناسب .

ومن المعروف أن نظام الكون كثير ودقيق وليس من مقدور الإنسان أن يعرفه بكامله وإنما ذكرنا بعض ما عرفناه من القرآن ومن الاكتشافات الحديثة قصدا للمقارنة بما عرفه لوتس ولم نقصد استيعاب كل ما عرفناه ولا شك أن ما عرفه لوتس من القوانين الطبيعية كان جزءا يسيرا من سنن الله في الكون فما دام يطابق واقع العالم نعترف بذلك من موقف الإسلام .

---

[٥٨٨] انظر : نديم الجسر: < قصة الإيمان > دار المثقف المسلم ، قم ، إيران ، ١٣٩٢هـ ص:١٠٣.

الفصل الثالث الحياة

إن مسألة الحياة هي من الموضوعات التي لا مفرّ للمفكرين أن يفكّروا فيها سواء كان في الشرق أو الغرب و حسب طبيعة الفلسفة الصينية كان التفكير في الحياة الإنسانية هو أهمّ وظائف الفلاسفة والمفكّرين لأن الصينيين يرون أن الإنسان هو رأس الموجودات و أفضلها وأن الأمور الإنسانية هي أصل كل الأمور حتي يروا أن الإله الأعلي يرسل أبنائه (وهم ملوك في الأرض) إلي العالم ليحل المشاكل الإنسانية ويهديهم إلي حياة سعيدة في الدنيا ولذلك كان المفكّرون القدماء جعلوا قضية الإنسان و الحياة أساس تفكيرهم .

وإن لوتس كأحد الفلاسفة والمفكرين وإن كان قد مال إلي حياة العزلة والتقشف إلا أنه في عصرالفوضي والإضطراب لم ينس واجبه كفيلسوف فلبّي نداء عصره و أجاب عن القضايا الحية حينذاك بعمله و فكره رغما علي أنه كان يلتزم بالاختفاء والبعد عن السياسة وكان من الناحية العملية يذهب إلي حياة الزهد والعزل والتقشّف فترك للناس قدوة لحفظ أخلاقه وحماية نفسه ومن الناحية الفكرية أنه كتب في آخر حياته كتابه الخالد < داو ده جين > وهو الكتاب الوحيد له الذي نشر فيه كل آرائه عن الإله والكون والإنسان والحياة والذي نعرف من خلاله فكرة لوتس عن منهج الحياة وقد اتخده الداويون بعده كأصول حياتهم و وكان لوتس يعبر عن أفكاره في هذا الجانب بكلمة "داو" كذلك ويسمي "داو" الإنساني بمعني الطريق الإنساني مقابلا للطريق السماوي الذي ناقشناه في الفصل الثاني فـ"داو" في هذا المقام قد تنزل إلي مرتبة الحياة الإنسانية . وقد نفهم منهج الحياة عند لوتس علي أنه سنة "داو" في حياة الإنسان ولذلك عبر عن ذلك بـ"داو" .

المبحث الأول : فلسفة الحياة

قبل أن نأتي إلي فلسفة الحياة عند لوتس يجب أن ننبّه القراء إلي عنصر مهم أثّر في لوتس لتكوين أفكاره وشخصيته وهذا العنصر هو أثر طبقة النساك الذين يختفون بأنفسهم في جبال شاهقة وغابات كثيفة في وقت الفتنة وهؤلاء النساك شكّلوا قوة مؤثرة في المجتمعات الصينية منذ التاريخ الطويل و يقال لهم " يين شي "(بمعني المختفين أو المستورين) وهم الذين تركوا أثرا عميقا في نفوس الصينيين عموما وفي نفس لوتس خصوصا فالكلام عن فلسفة الحياة للوتس لا يمكن الإغفال عنهم.

والنساك المستورون في الحقيقة هم أفراد من العلماء والفضلاء والحكماء وكان لهم مكان رفيع عند العوام وأثر عظيم فيهم وقد لجأوا إلي الزهد والستر تجنبا من الفتنة السياسية والاجتماعية ويلتزمون بمبدأ أن يشاركوا النشاطات الاجتماعية عندما يملؤ الاجتماع بالعدل والحق ويبتعدوا عنها في وقت الفتنة والفساد . وعلي حد تعبيرهم أنهم يظهرون عند ما يبقي "داو" في العالم و يختفون عند فقدانه.

ومن المعروف أنهم أصحاب الصفاء والتقي الذين فرّوا بأخلاقهم وصفائهم من الفساد وهم وإن كانوا لا يشاركون في الشئون الاجتماعية إلا أن لهم دورا حاسما علي مسرح الحياة لأن العوام كانوا يحترمونهم ويقفون معهم وقد روي أن أحد المختفين يقال له " شيو يو " (Xu You) قد بلغ من شهرته إلي أن الملك في وقته زاره في عمق الجبال وطلب منه الخروج إلي مسرح السياسة حتي وعده بأن يخلع له سلطة الملك ولكن "شيو يو" رفض ذلك ولم يقبل وبقي ناسكا في الجبل[٥٨٩].

وقد رجع تاريخ هذا الإتجاه إلي قبل عصر لوتس بزمن طويل[٥٩٠] ويبقي أناس من هذا الطراز بكل عصر في المجتمعات الصينيية وعلامة هولاء هي التمسك بالزهد والتقشف والتقرب من الطبيعة ومراعاة الأخلاق وكان لوتس رجلا من هذا الطراز وقد ذكرنا سابقا أن لوتس يعيش في عصر كان النظام القديم الذي يعتبر نظاما دينيا قد اختلّ وأبطل ولم يعد ينفّذ في المجتمعات ومن جانب آخر لم يظهر نظام جديد بديلا له والنتيجة من ذلك أن ظهر الفساد في الأخلاق والزيغ في العقائد والضلال في السلوك والصراع في السياسة ولذلك كان لوتس في البداية اشترك في النشاطات الاجتماعية وعايش الناس حين يدير دار الكتب المحفوظة للبلاط ثم إتجه إلي حياة العزلة والتقشف . و مما أدّي لوتس إلي ذلك الموقف هو ما حدث في البلاط الذي يعمل فيه وكان لوتس شاهد بنفسه إحدي الوقائع الدامية التي دارت بين أمراء الأسرة الملكية وكان الأمراء يتكالبون علي عرش أبيهم بعد موته وأشعلوا نيران القتال حتي هلك خلق كثير وكان لوتس لارتباطه بأحد الأمراء إنغمر في الفتنة ففرّ من البلد واختفي لمدة ثم رجع إلي منصبه بعد انتهاء الفتنة[٥٩١] كأنه أحيي سنة سابقيه بأن يختفي في أيام الفوضي والظلم و يظهر في أيام السلامة والعدل . وأخيرا انسحب لوتس في آخر حياته من الحياة الاجتماعية وانقطع إلي العزلة واختفي تماما وغاب عن الأنظار ولذلك اشتهر لوتس في تاريخ الصين بالزهد والتقشف و التقرب من الطبيعة .

---

[589] أنظر جوان تس : < كتاب جوان تس > ،،
[590] أنظر في < مناهج التفكير الكبري لحكماء الصين > ص:٦١٧.
[591] أنظر فصل الحرب من هذا البحث .

فــنري أن حياة لوتس مقسمة علي صورتين:حياة المعايشة و حياة العزلة وهذا من تقسيم زمنـــي . ولكـــن هذين الجانبين من حياته كانا تجريان جنبا بجنب إذ أنه حين يشارك في النشـــاطات الاجتماعية يتمسك بالزهد والتقشف والتخلف عن الناس . ولذلك من جاء بعده من الداويين اتخذوا هذا الموفق منهجا لحياتهم .

و قد رأي أكثر العلماء في العصر الحديث أن فلسفة حياة لوتس تنحصر في حب النفس والنفع الذاتي و التقرب إلي الطبيعة [٥٩٢] وأنه من أجل تحقيق غايته قد استعمل كل الوسائل وكانت فلسفته تدور حول هذه الغايات .

وقـــد نوافقهم علي بعض النقاط في هذا ونخالفهم في بعض إذ نري أن النفع الذاتي لم يكـــن مقصـــودا من لوتس ولا غايته في الحياة وكانت فلسفة لوتس أسمي من ذلك ولعل الـــنفع لنفسه جاء في الطريق كنفع إضافي غير مقصود . والذين رأوا أن النفع الذاتي هو أكـــبر غايـــة الحياة عند لوتس بنوا أفكارهم علي أسباب وعلي بعض الحجج من نصوص الكتاب ، فقالوا:[يمكننا أن نقول بأن "داو ده جين" من أوله إلي آخره يعلّمنا كيف يحصل الـــنفع لأنفسنا وليس لغيرنا] [٥٩٣] ويري بعضهم أن لوتس من ذكائه لم يدع إلي النفع الذاتـــي مباشـــرة لأن ذلـــك يخالف سلوك الفضلاء و يفسد صورة الحكماء فدعا في الظاهر إلي الفضائل العامة التي يستحسنه الجميع وأراد من ورائها النفع الذاتي كما قيل إن [النفع الذاتي لا يمكن أن يدعي مباشرة والدعوة إليه لا تكون علانية بل يجب أن يتخذ وســـائل معتوجة من باب الذكاء فيبدأ الدعوة بنفع الغير وكان القصد الحقيقي لذلك نفعا لذاته ...... فالنفع للغير وسيلة والنفع لذاته هو القصد][٥٩٤] . ويتبيّن من هذا الكلام أنهم يعتـــبرون لوتس ذا وجهين يختلف الظاهر عن الباطل وكأنه يوامر في الأمور وهولاء لم يبنوا كلامهم علي الفراغ بل لهم حجج من نصوص الكتاب كما يلي :

إن الحكمـــاء لمـــا أرادوا أن يســـتعلوا على الناس يتواضعون لهم باللسان ولما أرادوا أن يتقدموا على الناس يتخلفون أولا .(ف : ٦٦)

ألاوليس له طموح شخصي فقد حصل كل ما اشتهي .(ف:٤) .

الحكماء ... كانوا لا ينافسون فلا أحدا في العالم قادرا على منافستهم .(ف:٢٢)

"لأنه لا يستكبر أبدا فتحصل له العظمة (ف:٣٤).

" إن الحكيم يتخلف عن الناس ولكنه يقدم إلي الأمام" (ف:٧)

كلما بذل للناس أكثر زادهم ذخورا وكلما أعطوا الناس كثر لأنفسهم (ف: ٨١) .

---

[592] انظر في < مناهج التفكير الكبري لحكماء الصين > ص: ٦٣٤-٦٤٠.

[593] < مناهج التفكير الكبري لحكماء الصين > ما جون ، ص: ٦٣٥.

[594] المصدر السابق ، ص: ٦٣٥.

القــراءة العابرة لهذه النصوص تعطينا انطباع أن لوتس يدعو إلي النفع الذاتي ولم يكــن يدعو إليه مباشرة بل استخدم طرقا غير مباشرة للحصول عليها وقد يقال عنها " مــبدأ العودة" مؤداه أن الأشياء تتطوّر نحو نقيضها وكلما إزداد الشيء قوة من جانب الإيجاب أسرع الميل إلي جانب السلب ويتداول الشيء دائما بين النقيضين فكان لوتس مــن ذكائه يبدأ بالأمر من جانب سلبي أملا أن يتطوّر الأمر إلي نقيضه أي جانب إيجابي تلقائــيا بــناء علــي "مــبدأ العودة" و من ثم يبدو أن لوتس يلعب نوعا من الحيلة والمؤامــرة ولذلــك ذهــب كثــير مــن العلماء إلي أنه كان من المؤامرين[٥٩٥] أو أستاذا للمؤامرين يدعو إلي الفضائل في الظاهر حين قصد من ورائها نفعا ذاتيا .

ولكن الدراسة الدقيقة تثبت خلاف ذلك وإذ لو أمعنا النظر في نفس النصوص السابق ذكرها لوجدنا حقائق خلاف ذلك :

أولا : إن لوتــس لم يدع قط لنفسه نفعا وكانت النصوص كلها تصف أحوال الحكماء أو تنقل أقوالهم وإنّ الحكيم عند لوتس هو كامل الأخلاق وعالي الهمم ومستقيم السلوك[٥٩٦]. ويعــتقد لوتــس بــأن الحكمــاء هم الذين قد تحرروا من الأغراض النفعية ومن المصالح الشخصية فلا يتصوّر أنهم يحتالون أو يؤامرون من أجل المنافع الذاتية .

ثانيا : إن المنافع التي تعود عليهم إنما تأتي نتيجة حتمية سواء قصدوها أو لم يقصدوها ولكــنها تأتــي علــي الحكماء من غير القصد . ومن المعروف أن القصد للنفع الذاتي ينافي فضيلة الحكماء فلا يتصوروا أنهم يبتغون ذلك بصفتهم كحكماء .

ثالــثا : إن لوتــس بهذه النصوص يدعو الناس إلي التخلق بالحكماء لكي يصيروا مثلهم حتي يتمتعوا ما بهم و تأتيهم منافع الأفعال كنتيجة حتمية من غير القصد.

بــناء علي هذا نقول إنّ النفع الذاتي لم يكن غاية الحياة عند لوتس بل كان يدعو إلي فضائل الحكماء ولم يقصد من ورائها النفع الذاتي فحسب بل النفع العام . وإنما أخطأ الــناس في فهم كلامه وأخذوه علي معناه الظاهر كما قال "تشن قو يين" : "في الحقيقة لم يكن لوتس قط من المؤامرين وأن كتابه من الأول إلي الآخر لا يتضمن كلمة ما يحمل فكــرة المؤامــرة ، والذي أدّي إلي سوء الفهم هو عدم فهم الناس لمصطلحات فلسفة لوتس بمعناها الخاص" [٥٩٧]

---

[595] انظر تشن قو يين : < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ١٦ ، دار الكتب الصينية ، ١٩٨٥م .

[596] انظر المصدر السابق ،

[597] < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٣٤

فالرأي الذي يقول بأن لوتس كان يدعو إلي النفع الذاتي لم يكن قائما علي أساس متين فيما يري كثير من العلماء ونحن معهم .

وأما نحن فنري أن فلسفة الحياة عند لوتس هي حفظ النفس (الحياة) والإلتزام بالأخلاق الرفيعة و التقرب من الطبيعة ، وذلك أن الحياة هي أصل الإنسان وإذا فقدت الحياة فقد كل شيء لكن إذا فقدت الأخلاق من الحياة فقد ضاعت القيمة لها فتلحق بالإنسان الشرور[٥٩٨] وإن الحياة لا تحفظ إلا إذا ابتعد الإنسان عن الفتن الدنيوية و الشرور الإنسانية واتجه إلي العالم الطبيعي يسالمه بمتابعة قوانينه ونعني بالتقرب بالطبيعة اتباعا بالقوانين الطبيعية.

ومن ثم نري أن حفظ النفس هو أهم ما يعتني به لوتس في الحياة بينما الالتزام بالأخلاق والتقرب من الطبيعة لا يكونان إلا وسيلتين إلي تحقيق ذلك الهدف وقد نعتبر الاتباع بالقوانين الطبيعية منهج الحياة عند لوتس .

ويري لوتس أن حياة الإنسان محاطة بأنواع الخطرات فكلما غفل عنها فقد وقع في الهلاك كما قال: الخروج من الحياة هو دخول إلى الموت. وإن أصحاب الحياة هم ثلاثة من العشر وأصحاب الموت هم ثلاثة من العشر واللذين قضيت لهم الحياة ثم سبّبوا أنفسهم إلى الهلاك هم ثلاثة من العشر (ف: ٥٠) ومعني النص أن الحياة تعاقبها الموت و قد يلحق بالناس في أي وقت ومن ثم تكون الحياة عزيزة وفرصة الحياة قليلة فلو أهمل الناس نفسه فقد ألقوا بأنفسهم إلي التهلكة ولذلك يجب عليهم أن يتنبهوا ويتحذّروا في كل وقت حتي لا يدركه الموت"[٥٩٩] و إذا إبتعد الإنسان عن الخطرات المهلكة و اشتغل بما يفيد الحياة فقد نجي من الهلاك فيعيش عمرا طويلا .و قال لوتس : أيّهما أعزّ ،البدن أم الشهرة ؟ وأيّهما أثمن ، البدن أم البضاعة ؟ (ف : ٤٤)

يؤكّد لوتس بهذا الاستفهام الإنكاري أن الحياة أعظم شأنا من الشهرة و أكبر قدرا من البضاعة فيجب علي الإنسان أن يعتبر حياته أعزّ الأشياء وأثمنها إليه و يحافظ عليها و يضحّي كل الشيء في سبيلها حتي أن الشهرة والجاه و المنصب وغير ذلك مما يسعي إليه الناس لا تكون شيئا أمام الحياة .

وحسب أفكار المتأخرين من الداويين أن الحياة هي علامة وجود "داو" في نفس الإنسان وأن الموت دلالة علي خروج "داو" منها فالحياة و "داو" كانتا شيئا واحدا في نفس الإنسان وأن حفظ الحياة عبارة عن حفظ "داو" وأن تعظيم الحياة هو تعظيم "داو" ولذلك كان حفظ الحياة أهمّ ما يقوم به الإنسان علي مذهب لوتس .

---

[٥٩٨] سوف نفصل هذه النقطة بعد قليل في مبحث الأخق .

[٥٩٩] << مناهج التفكير الكبري لحكماء الصين > ص: ٦٣٦.

وقــد أتخذ لوتس خطوة عملية لحفظ الحياة واخترع لذلك طرق ووسائل متعددة وهذه الوســائل في الحقيقة هي بعض المبادئ الأخلاقية وكان لوتس يلتزم بها لكيلا تصيب حياته بالأخطـار والهــلاك ويدل هذا علي أن لوتس اتخذ الأخلاق وسيلة إلي حفظ الحياة. وهذه الوسائل كما نذكرها فيما يلي :

التقشف أو تقليل الشهوة :

يــري لوتــس أن الإنسان عموما مفتون بالشهوات ويسعي وراءها بلا حدود ويطمع بــلا نهاية و مهما كان سعيه لا يشبع طمعه وربما تنفد قواه في أثناء المجاهدة وتتفتر روحه من التعب حتي تهلك حياته و لو توقّف الإنسان من السعي وراء الشهوات قناعة بمــا لديــه لكــان أنفع له وأسلم لحياته كما قال لوتس : ومن ثم لو أراد الإنسان لنفسه مرجعا فليتقشف و ليقلّل من الشهوات (ف:١٩) ومعناه أن الإنسان إذا أراد لنفسه مقاما محمــودا ومرجعا سليما فعليه أن يعيش حياة التقشّف ويقلل من الشهوات حتي تسلم نفسه من الشرور التي تلحقه حين يسعي وراء الشهوات .

إن التقشــف أو الزهد هو فضيلة من الفضائل و خلق من مكارم الأخلاق ولكن لوتس لم يدع إليه من حيث الفضيلة الأخلاقية بل من باب حفظ الحياة .

عدم التقدم إلي أمام الناس:

مــن يحــب إظهار نفسه ويحب الرياسة علي الناس فقد أعرض نفسه للخطر لأنه جعل نفسه ظاهرا أمام الناس و مهيئا للهجوم ممن يخالفونه حتي لا تسلم حياته من شرورهم أحــيانا ولذلــك يري لوتس أنه يجب علي الإنسان أن يتخلّف عن الناس ويخفي نفسه من أجل السلامة لكيلا يصيبه شيء من الأخطار وقد جعل لوتس هذا المبدأ أحد ذخائره الثلاثة فــي سر الحياة وقال : إن لى ثلاثة ذخائر وأتمسك بها وأحافظ عليها :الأول الرحمة والثانى التقشف والثالث عدم التقدم إلي العالم (ف:٦٧) .

التمسك بالضعف واللين:

يقــول لوتس : ولذلك كان الأقوياء أصحاب الموت و الضعفاء أصحاب الحياة (ف: ٧٦) بمعني أن القوّة تجلب الخطر والموت بينما الضعف يحفظ الحياة وذلك أن القوّي يحب أن يظهر قوّته فيعتدي علي غيره فلا تسلم نفسه من الهلاك وأما الضعيف فينال شفقة الآخرين ولطفــتهم وبذلــك حفظ نفسه وقد مثّل لوتس علي القوّي الميّت والضعيف الحي بالشجرة اليابســة والناعمة بأن الشجرة تكون ليّنة وناعمة في حالة الحياة وصلبة و قوية في حالة

اليبســة فكذلك الإنسان فإن القوّي يهلك لميله إلي الاعتداء علي الغير وأن الضعيف يبقي لهدوءه.

وهــذا طبعا يخالف نظريّة التطوّر التي تري أن الكائنات في الصراع الدائم فيبقي القوي ويضمحل الضعيف ولكن لوتس يؤمن بعكس ذلك وقد استدلّ عليه بحالة الماء حيث أن قطـرة الماء ناعمة و ليّنة وخفيفة ولكنها تقدر علي تثقيب الصخرة [600] فالضعيف يبقي لأن ضـعفه ينقذه من الموت والقوي يهلك لأن قوته يؤدّيه إلي الخطر فالضعيف عند لوتس أفضل من القويّ .

الانسحاب بعد النجاح :

إن الإنســان بغرائــزه النفسية يأمل أن يحصل علي أقصي ما يمكن أن ينال فيسعي لنفسه نجاحا بعد نجاح ولا يتوقّف السعي في هذا السبيل ولكن يري لوتس أن النجاح المستمر مستحيل في حق الإنسان وذلك أن النجاح يأتي نتيجة من جهد جهيد ويصعب أن يتكرر النجاح مرة بعد مرة في حياة أحد فالسعي لاستمرار النجاح عبث .

و مــن ناحية أخري أن الإنسان لا يخلو من الحسد والحقد في طبيعته و يقذف سهام حسده علي من كان أعلي منه فمن نجح في شيء واشتهر أو فاز في مجال من مجالات الحــياة لم يسلم من شرور الحاسدين ولم يأمن من الأخطار علي نفسه ولذلك يري لوتس مــن الحكمة أن ينسحب الإنسان من ميدان الشهرة بعد النجاح حتي لا يكيد الحاسدون عليه ولا يلحق به شرورهم وقال : ومن الطريق السماوي إنسحاب بعد النجاح(ف:٩) .

عدم النزاع :

الإنســان لــم يعــش في الدنيا منفردا بل يعايش الآخرين و كل واحد يكون فردا من أفراد المجــتمع فكانــت المعاملــة لازمة للحياة الإنسانية ولكن لا يخلو من الاحتكاكات أثناء المعاملــة وعندئذ يغلب أو يغلب وفي كلتي الحالتين ضرر علي الإنسان بحيث لو غلب هوغــيره لسوف يعتدي عليه ولو غلبه غيره فقد لقي منه الشرور ولذلك يري لوتس أن من الحكمة عدم النزاع مع أحد في أية حال من الأحوال حتي تأمن نفسه وقال : وإن طريقة

---

600 ويقول لوتس :

إن أكثر الشيء نعومة في العالم يغلب على أكثره صلابة.(ف:٤٣) وقال : في العالم لا شيء أكثر لينة من الماء حتي لا يغلبه القوي المهاجم ولا ينوب عنه شيء وإن الضعف يغلب علي القوة واللينة تغلب علي الصلابة (ف: ٧٨) . والمراد من النص أن الماء أكثر شيء نعومة ولكنه في نفس الوقت أقوي من كل الأشياء

الحكـيم أن يعمـل ولا ينازع.(ف: ٨١) ويري أن عدم النزاع يوافق السنة السماوية لأن القـانون السـماوي يغلـب كل شيء ولا ينازع مع شيء[٦٠١] فالإنسان إذا كان بعيدا عن النزاع وموالیا الآخرين يتحرر من جميع العداوة ولسلمت نفسه.

نلاحـظ ممـا سبق أن الوسائل التي تؤدي إلي حفظ الحياة هي مبادئ أخلاقية وقد اتخذها لوتـس كوسائل لحفظ الحياة والدفاع عنها من الشرور . وبناء علي هذا نقول بأن حفظ الحياة أو تعظـيمها هو أهم مبادئ الحياة عند لوتس وكانت فلسفة حياته تدور حول هذه النقطة حتـي أن الرياضة التي قام بها لوتس والتي يقوم بها أصحاب الديانة الداوية تهدف إلي نفس الغاية . من طبيعة الإنسان أن يحب ما هو نفع لنفسه ويكره ما هو ضر لها ويفرح بما أصـابه من حسنة ويفزع بما يصيبه من سيئة حتي أن المؤمنين لا يستثنون من هذه الطبيعة ولذلـك يقولـون:ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.(البقرة: ٢٠١) وتـدل هـذه الآيـة علي أن الإسلام يراعي هذه الطبيعة من الإنسان ويقرّ بها فللإنسان في الإسلام حق أن يجلب كل ما ينفعه ويدرؤ كل ما يضره حتي يعيش حياة سعيدة ولكن لا شك أن الإنسان عاجز بطبيعته عن إدراك المصالح الحقيقية والمفاسد الحقيقية وأنه قد يعرف شيئا من المصالح والمفاسد للحياة الدنيوية ولكنه لن يستقل في معرفة المصالح الأخروية فلا بد له من أن يسير خلف الشريعة التي وضعها الله ضمانا لسعادة الدنيا والآخرة وأن يتبع أنبياء الله ورسـله المرسلين والمبلغين بما هو صلاح للناس في المعاد والمعاش فالإسلام هو ما شرعه الله لهدي الناس إلي الحياة السعيدة ولم يشرع الشارع هذا المنهج الرباني إلا لتحقيق مصالح العـباد في الآجل والعاجل ومن ثم إن مقاصد الشريعة هي جلب المنافع ودفع المضار .كما صـرح بذلـك علماء الإسلام ، قال الإمام العز بن عبد السلام "إن الشريعة كلها مصالح :إما درء مفاسد أو جلب مصالح "[٦٠٢] وقال الإمام الشاطبي :إنها –أي الشريعة – وضعت لمصالح العـباد"[٦٠٣] المصالح والمفاسد في الإسلام لا تعني بها مصالح الدنيا ومفاسدها بل تقصد منها مصـالح الدنيا والآخرة ومفاسدهما . ويري علماء الإسلام أن مصالح العباد التي يعني بها الإسـلام إيجادا وحفظا هي ثلاثة[٦٠٤] . أولا :المصالح الضرورية وهي التي تتوقف عليها حـياة الـناس وقيام المجتمع واستقراره بحيث إذا فاتت اختل نظام الحياة وساد الناس هرج ومـرج وعمـت أمورهـم الفوضـي والاضطراب ولحقهم الشقاء في الدنيا وفي الآخرة. المصالح الضرورية تتضمن أهم الأمور في حياة الإنسان وهي الدين والنفس (الحياة) والعقل والنسل والمال .

---

[601] قال لوتس : وإنّ طريقة السماء أن يغلب دون منازعة مع شيء (ف: ٧٣) .

[602] عزبن عبد السلام < القواعد > ، نقلا من عبد الكريم زندان < أصول الدعوة > ص،٣٠١.

[603] الإمام الشاطبي < الموافقات > ، نقلا من < أصول الدعوة > ص:٣٠١.

[604] انظر :عبد الكريم زندان :< الوجيز في أصول الفقه > ، دار نشر الكتب الإسلامية ،لاهور باكستان ص:٣٧٩.

ثانـيا :المصالح الحاجية وهي الأمور التي يحتاج إليها الناس لرفع الحرج والمشقة عنهم وإذا فاتـت لا يخـتل نظـام الحياة ولكن يلحق الناس المشقة والعنت والضيق .وقد اهتم الإسـلام بمـراعات هـذه المصالح كما قال القرآن : ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج (المائدة:٦) يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (البقرة:١٨٥)

و هذا النوع من المصالح يحتوي علي الرخصات في العبادات والمعاملات .

ثالـثا : المصـالح التحسـينية وهي التي تجعل أحوال الناس تجري علي مقتضي الآداب العالـية والخلـق القويم وإذا فاتت لا يختل نظام الحياة ولا يلحق الناس المشقة والحرج ولكن تصير حياتهم علي خلاف ما تقتضيه المروءة ومكارم الأخلاق والفطرة السليمة .

فالشريعة الإسلامية تكفلت للناس بإيجاد هذه المصالح وحفظها وقامت دفاعا عنهم من كل مـا يـناقض هـذه المصالح وإن الإنسان لو سار خلف الشريعة لتكفل لنفسه بكل هذه المصـالح وبعبارة أخري إن الإنسان حين يعيش حياة حسب الشريعة كان في الحقيقة يجلب لنفسه المصالح ويدرؤ من نفسه المفاسد . فكانت مقاصد الشريعة هي نفسها مقاصد الحياة للإنسان المسلم .

وبناء علي هذا يمكننا أن نقول بأن فلسفة الحياة للإنسان في الإسلام هي جلب المنفع ودرء المضر وإن المنفع والمضر يراد بهما في الإسلام المنفع الدنيوي والأخروي وكذلك المضـر . والنظرية الإسلامية قد تختلف عن نظرية لوتس في هذه النقطة إذ جعل لوتس حفـظ الحياة أعلي ما يسعي إليه الإنسان ولم ينكر الإسلام ضرورة حفظ الحياة بل جعله إحدي مقاصد الشريعة لأن الحياة غالية عند كل أحد إذ هي هبة من الله ومقدسة و يجب أن يحـافظ عليها ولكنها في ميزان الشريعة الإسلامية ليست الحياة أعلي في كل الأحوال وقد يمكن من أجل ما هو أعلي من الحياة أن تدفع ثمن الحياة وعلي سبيل المثال إذا نودي للجهاد في سبيل الله كان الجهاد فوق كل شيء حتي الحياة ويقول القرآن الكريم :وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم وذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

فـنظرا إلـي مصلحة الإنسان ومنافعه في الآخرة كانت الشهادة أعلي وأولي من الحياة. وإن الشـهادة في الظاهر تعني فوت الحياة في سبيل الله ولكنها تجزي بما يفوق منافع من الحـياة . وأساس الخلاف بين الإسلام ولوتس أن الإسلام قسّم الحياة إلي الحياة الدنيوية والأخـروية بينما لوتس لا يبدو له تصور يوم الآخرة فجعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه فلا غروة أن اعتبر الحياة الدنيوية أعلي شيء للإنسان .

المبحث الثاني : منهج الحياة

لقــد إشــتهر لوتس بين الناس بأنه فيلسوف طبيعي إذ بني كل فلسفته علي مبادئ الطبيعة وقد تسربت الفكرة الطبيعية في كل مجال من مجالاته ويري لوتس أن كل شيء فــي العــالم الطبيعــي مفطور علي طبيعة معينة وتعمل هذه الطبيعة في تطور الأشياء وتغــيرها اعتمادا علي القوي المتكمنة في الأشياء نفسها وهذه القوي جعلت الأشياء مستغنية عن قوي خارجية [٦٠٥] .

وبــناء علي هذا يري لوتس أنه لو يترك كل شيء علي طبيعته ولا يدخل إرادة الإنسان فيه لسار كل شيء علي طريق مستقيم . و من جانب آخر أن الإنسان جزء لا يتجزؤ من العــالم الطبيعــي فهو لم يكن منعزلا عن سائر الموجودات بل يعيش معها ولا ينقطع منها فالنظام الذي يجري في العالم الطبيعي يجب أن يجري في نفس الإنسان وفي شؤونه لأن الــنظام الطبيعــي لا يــتجزؤ [٦٠٦] بأن يؤثر في شيء ويعطل في شيء آخر فيجب علي الإنســان أن يتناسق مع العالم حوله و يقتفي نظام الطبيعة و لا يقطع نفسه من العالم الــذي يعــيش فــيه حتي لا يفسد النظام الكلي في الكون ويقول لوتس : إن الإنسان يتبع الأرض والأرض يتــبع السماء والسماء تتبع "داو" وداو يتبع واجب الوجود (ف: ٢٥) ومعنــي الــنص أن الإنســان أحــد مكونات العالم الطبيعي وله علاقة وثيقة مع الأرض والســماء ومن المفروض أن يخضع لنظام الطبيعة الذي يحكم السماء والأرض فعليه أن يحاول اقتفاء نظام الطبيعة وأن يجعل نفسه ينسجم مع العالم الطبيعي خارجه .

ولعل لوتس من أجل تطبيق هذا المنهج اتجه إلي الطبيعة وغادر المجتمع الإنساني في آخر حــياته وغــاب في العالم الطبيعي و لذلك نجد أصحاب الداوية من بعده يميلون إلي الطبــيعة ويختار ذلك كمصيرهم وهم يفضلون الحياة في الغابات والجبال بعيدة عن المجتمع الإنساني .

فكــان لوتــس انطلاقــا من فلسفة الحياة عنده اتجه نحو الطبيعة و حاول أن ينسجم معها انسجاما كاملا ولذلك نقول بأن الاتباع بالطبيعة هو منهج الحياة عند لوتس .

---

[٦٠٥] انظر < لوتس دراسة وتطبيقا > ، ص: ٢٩.

[٦٠٦] يقول لوتس : إن النظام العظيم لا يتجزؤ . (ف:) بمعني أن نظام الطبيعة أو نظام "داو" يغطي جميع الأشياء ولا يعطل في شيء .

والطبـــيعة تحتوي معنيين : العالم الطبيعي وطبيعة الأشياء وكلا المعنيين مطلوب فـــي منهج الحياة بأن يعامل الإنسان الأشياء حسب طبائعها ويتبع النظام الطبيعي في معاملته وفي حياته حتي ينسجم نفسه مع العالم الطبيعي .

ومن أجل الاتباع بالطبيعة اخترع لوتس أصلين مهمين يؤديان إلي تلك الغاية وهما عدم الفعل والسكون وهما طريقان إلي الانسجام مع الطبيعة .

(١) عدم الفعل (وو وي Wu wei)

وهو مفهوم جديد جاء به لوتس لأول مرة ليعبّر عن منهج الحياة عنده وصارت الفكرة فيما بعد أهمّ النظرّية عند الداوية وكان لوتس يدعو إليه كفضيلة سامية مطالبة لأن يتصـــف بهـــا الـــناس عموما والحكماء منهم بوجه أخص وفي فهم هذا المصطلح أهمية كبيرة إذ تعيننا علي فهم طبيعة الفلسفة الداوية عامة و فلسفة لوتس خاصة .

المعنـــي اللغـــوي ل"عدم الفعل" معلوم وهو يعني تعطيل العمل ووقوف عن الشغل وعـــدم اشتغال بشيء ولذلك أخذه بعض العلماء علي معناه الظاهر فيروا أن الإنسان من أجـــل حصول علي أغراضه ينبغي" ألا يشتغل بشيء" [٦٠٧] ولا يقوم بأي عمل ولكن هذا المعني الظاهر يبدو لا ينسجم مع منهج حياة لوتس إذ كان هو يعمل و يشتغل و يدعو إلي إصلاح المجتمع حتي أن حياة الزهد والتقشف نوع من الجهد والعمل فلا يتصوّر أنه قـــد دعا إلي تعطيل العمل ولذلك شرحه العلماء بغير ما يعطيه المعني الظاهر فمنهم من شـــرحه بعـــدم التصنّع بمعني أن الإنسان يجب عليه أن يعمل علي طبيعته وراحته دون التصـــنّع ومنهم من شرحه بعمل فطري مطبوع إذ يري أن كلمة "عدم" ليست نفيا بـــل تعبّر عن حالة أولي للأشياء لأن < داو ده جين > عبّر في مكان عن أصل الكائنات ب" العدم " [٦٠٨] فيري القائل أن "العدم" هي الحالة الأولي للكائنات فهي فطرة أو طبيعة للأشياء فالقصد من عدم الفعل يراد به الفعل البدهي الفطري المطبوع من قبل الإنسان [٦٠٩].

و ذهـــب أكـــثر العلمـــاء إلي أن معني "عدم فعل" هو عدم الفعل المفرط أو عدم الفعل الزائد [٦١٠] وهو ما أميل إليه و نوضّحه كما يلي :

---

607 لوه شي مين : < ما ذا يقول لوتس فعلا > ، ص : ٢٥.

608 انظر الفصل الاربعين من داو ده جين : إن الكائنات في العالم تولدت من "الوجود" وإن "الوجود" تولد من "العدم ".

609 < ما ذا يقول لوتس فعلا > ، ص : ٢٥.

610 قال لوه شي مين :" يبدو إن هذا الشرح حسن ويزداد من يذهب إلي هذا الشرح ولكن .... " . انظر في < ما ذا يقول لوتس فعلا > ، ص : ٢٥

أساس فكرة عدم الفعل قائم علي مبدأين : أولا أن كل شيء في الكون يمتاز بخاصية أو طبيعة معيّنة ولا يخرج بنفسه من طبيعته التي طبع عليها وأن الأشياء تجري علي طبيعتها . وثانيا أن الكون بما فيه من الأشياء متكامل بطبيعتها وقائم بها وكانت طبيعة الأشياء تتضمّن عملية النشأة والتطوّر والازدهار والكهولة والضعف والتلاشي فيكمل كل الشيء هــذا الــدور بطبيعته وما دام الشيء يجري علي طبيعته كان منتظما ومحكما في البقاء والــتطوّر فلو تدخّل الإنسان في شيء بما يخالف طبيعته لأفسد نظامه المتكامل وأوقف سيره الطبيعي وبذلك قد ارتكب الإفساد فالعمل الإنساني في هذه الحالة يعتبر زائدا ومفرطا بــل مفســدا و بناء علي هذا الأساس كان عدم الفعل يراد به عدم الفعل المفرط الزائد الذي يخالف طبيعة الأشياء[٦١١] وبعبارة آخري إن عدم الفعل ليس إلا حفاظا علي الأشياء من هذا الإفساد أو" ترك الأشياء علي طبيعتها "[٦١٢] كما شرحه أحد العلماء :

Non-action (wu –wei) is not meant literally 'inactivity ' but rather 'taking no action that is contrary to nature ' , in other words ,letting Nature take its own course .[613]

ولعل عدم الفعل بهذا المعني يقارب ما أشار إليه الفارابي بقوله حكاية عن القدماء : مت بالإرادة تحيي بالطبيعة[٦١٤] .

لا ينبغــي لــنا أن نفهم عدم الفعل علي أنه حال نفسي سلبي فقط وإنما هو حال فعلي إيجابــي كذلــك وذلــك أنــه من ناحية نفسية يعني عدم التدخّل في شيء لتغيير طبيعته وإفســادها و مــن ناحية عملية يعني حفظ الأشياء لكي تجري علي طبيعتها . و من هذا المنطلق إن عدم الفعل لا ينفي عمل الإنسان وجهده وإنما ينكر منه ما يغيّر طبيعة الأشياء ويخرجها من حد الاعتدال الطبيعي فهو نفسه نوع من الفعل والعمل. ولعل عدم الفعل بهذا المعنــي يشتمل علي الشريعة الإسلامية وذلك أن الإسلام هو دين الفطرة ويوافق المتطلبات الطبيعــية للإنسان فهو عدم الفعل ومن جانب آخر أن الشريعة الإسلامية تحاول أن تنسّق بين حــياة الإنسان وبين النواميس الطبيعية[٦١٥] فهو عدم الفعل فالشريعة الإسلامية في الحقيقة لم تعمل غير حفظ عدم الفعل عند لوتس.

[611] انظر تشين قو يين : < لوتس دراسة وتطبيقا > ، ص: ٦٧ ، دار الكتب الصينية ، بكين ، ١٩٨٢م.
[612] المصدر السابق ، ص: ٦٧.
[613] The source book in Chinese philosophy , p136 ,
والنص منقول من < لوتس دراسة وتطبيقا > ، ص:٦٧ .
[614] < آراء أهل المدينة الفاضلة > ص: ١٦٩.
[615] انظر: سيد قطب :< معالم في الطريق > ، دار دمشق ،إيران ، ص١٣٢.

إنمـــا كان لوتس يدعو إلي عدم الفعل لأنه يري أن عدم الفعل هو صميم طبيعة العالم الطبيعـــي لأن العالم يجري علي النهج الطبيعي الذي طبعت الأشياء عليه وأنه حسب ما يـــراه لوتس لم يدبره أحد إلا نفسه حسب نظام "داو" وكان يجري جريانا طبيعيا فعدم الفعل هو أهمّ ما يمتاز به العالم .

ومـــن جانب آخر أن عدم الفعل هو صميم أفعال "داو" و يعتقد لوتس بأن داو يعمل كل شيء ولكن عمله قائم علي عدم الفعل بأن طبع علي كل شيء بطبيعة ثم تركه يعمل حســب تلـــك الطبـــيعة ويقـــول لوتـــس : يبقي "داو" علي عدم الفعل ولكن لا شيء ما لم يعملـــه.(ف: ٣٧) بمعني أن "داو" يكون دائما في حالة عدم الفعل ولكن تتمّ جميع الأشياء علي يديه وذلك أن الطبيعة التي طبعها علي كل شيء كانت تعمل .

ولذلـــك إن الإنســـان كجزء من العالم الطبيعي ينبغي أن يتحلي بعدم الفعل ويتبع الطبيعة في هذه الخصلة وإذا يمسك به الإنسان تستقيم أموره وتتصلح شؤونه كما تستقيم حركات العالم الطبيعي بعدم الفعل .

يشير البحث الحديث إلي أن فكرة عدم الفعل إنما جاء بها لوتس للمقاومة ضد الحكام حيـــنذاك إذ كانوا يتدخّلون في شؤون الناس ويظلمونهم ويجبرونهم علي ما لا يرضون عـــنه وقد كان الشعب يعانون الضرر والضغط والضيق حتي كانوا يثورون علي الحكام بطريقة أو أخري وبذلك أبطلت الحياة العادية و عطّل النظام و تحت الإنطباع من هذه الأوضـــاع المؤلمـــة ابتكر لوتس فكرة عدم الفعل وقال : "ولو تمسّك به الحكام لصلحت الكائـــنات بنفسها"(ف:٣٧) ، " إعمل من أجل عدم الفعل فلا يكون شيء غير مصلح" (ف: ٣) . وقـــد بيّن لوتس منافع عدم الفعل علي لسان الحكماء : "يقول الحكماء أنا على عـــدم الفعل فيصلح الناس بأنفسهم وأنا على الصفاء والسكون فيستقيم الناس بأنفسهم "(ف: ٥٧)

هـــذه النصوص إلي حد ما تعطينا خلفيّات فكرة عدم الفعل لكن الفكرة لم تنحصر في جانب السياسة بل عممّ لوتس منهج عدم الفعل إلي كل أمر من أمور الدنيا ويطلب من كل واحد أن يتمسك به في جميع الأشياء والأمور ولعل حياة الزهد والاختفاء من لوتس كانت تطبيقا لهذا المنهج .

يري بعض العلماء أن فكرة عدم الفعل تدعو إلي التخلّف والتقاعد والتحفظ وعدم الجهد فهـي سـلبية [٦١٦] . ونـري أن عـدم الفعل عند لوتس ليس غاية بل وسيلة إلي الأعمال الإيجابية كما تترتب عليه نتيجة حتمية إيجابية وهي إتمام جميع الأمور وإصلاح جميع الشـؤون و أشـار إلـيه النص السابق : يبقي "داو" علي عدم الفعل ولكن لا شيء ما لم يعملـه.(ف: ٣٧) . ففكرة عدم الفعل لا تدعو إلي السلبيات بل يؤدي إلي العمل وإلي الكمال لأن عـدم الفعل ليس مجرد الترك والبعد عن التدخّل في الأشياء وإنما هو نفسه يحتاج إلي العمـل كمـا يقول النص : إعمل من أجل عدم الفعل فلا يكون شيء لم يصلح (ف:٣) ويشـير الـنص إلي أن لوتس لم يمنع العمل والجهد بل يشجع علي ذلك وإنما يمنع من العمل الذي يفسد طبيعة الأشياء .

فحفظ طبيعة الأشياء و إعادة الأشياء إلي طبيعتها والعمل حسب طبيعة الأشياء كلها نوع مـن عـدم الفعل . فهو من هذا المنطلق ليس سلبيا بل إيجابيا ويري لوتس أن عدم الفعل طريق وحيد لإصلاح النفس والمجتمع ولذلك دعا إليه . ومن جانب آخر أن الإنسان إذا تمسك به فقد أدخل نفسه في جملة الأشياء الطبيعية التي يحكمها هذا المبدأ ولانسجم نفسه مع العالم الطبيعي .

ثانيا السكون

يـري لوتس أن الكائنات كانت عدما ثم وجدت وفي حالة عدمها كان السكون سائدا حتي إذا ما ابتدأت النشأة واحدة بعد أخري وجدت الحركة فالكائنات في أصلها كانت ساكنة فالسكون هو أصل الكائنات كما يقول النص : فالكائنات متنوعة ويعود كل نوع إلى أصله ، والعودة إلى الأصل يقال لها السكون والسكون هو عودة إلى الفطرة (ف:١٦) .

وكمـا أن السكون أصل طبيعة الكائنات هو كذلك أصل فطرة الإنسان فيجتمع الإنسان مع الكائنات في هذا الأصل فإذا تمسك به الإنسان وعاد إلي هذا الأصل لشارك في جملة الكائنات وانسجم مع الطبيعة وتناسقت حياته مع القوانين الطبيعية حتي يعيش الإنسان حياة مطمئنة آمنة فقال لوتس : (عليك) أن تلتزم بغاية الخلاء وأن تحافظ على غاية السكون (ف:١٦) .

ومـن جانـب آخر أن للسكون أثر عظيم لحياة الإنسان إذ هو يغلب الضجر ويقضي علي الفـزع ويهـدئ القلق ويقول لوتس :" إن السكينة تغلب الضجر كما أن البرودة تغلب الحرارة وبالصفاء والسكون يعتدل العالم "(ف:٤٥) .

---

[٦١٦] أنظر في تشن كو يين : < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ١٦ ، ٦٧ ، دار الكتب الصينية ١٩٨٥م.

ويري لوتس يجب علي الإنسان أمام المشاغل المتراكمة وأمام العالم المتغير أن يعود إلي هذا الأصل ويحافظ عليه ويتمسك به حتي يعامل جميع الأشياء بالنفس الساكنة لكي تعتدل الأمور .

و أراد لوتس غالبا أن يطبق هذا المبدأ في مجال السياسة ويري أن الحكماء كانوا صالحين لأنهم يلتزمون بالسكون ويصلحون به الناس ويقول حكاية عن الحكماء : "أنا علي السكون فيعتدل الناس بأنفسهم " (ف:٥٧) .فالسكون ليس نوعا من الرياضة النفسية فحسب وإنما هو طريق إلي إصلاح العالم ولذلك يتمسك به الملوك السابقون .

وعلي كل حال إن السكون مبدأ هام في منهج الحياة عند لوتس سواء للحياة الفردية أو الحياة الجماعية وكان لوتس نفسه ملتزما به ثم طلب من الناس أن يلتزموا به لتستقيم لهم الأمور ولينسجموا مع العالم الطبيعي .

و قد ذكرنا أن فلسفة الحياة في الإسلام هي جلب المنفع ودرء المضر وأن الإنسان غير مستقل لمعرفة المنافع الحقيقية والمفاسد فلا بد من إتباع الشريعة في الوصول إلي ذلك فالاتباع بالشريعة هو منهج الحياة في الإسلام .والشريعة هي ما شرع الله تعالي لعباده في صورة الأحكام في العقائد والعبادات والمعاملات كما هي طريقة صحيحة إلي جلب المنفع ودفع المضر . ويعني ذلك أن الشريعة تراعي مصالح الإنسان في هذه الجوانب وتجمع لهم المنافع من جميع هذه المجالات فمن اتبع الشريعة في الحياة وأخضع نفسه لها فقد سار علي طريق السعادة في المعاد والمعاش فليست الشريعة إلا تنظيما لحياة الإنسان بأحسن الوجوه وأفضل الصور.

ثم إن الإسلام حين يستودع مصالح العباد في اتباع الشريعة المنزلة من الله أودعها كذلك في انسجام الإنسان مع نواميس الكون . ويستحسن بنا أن نأتي في هذا المقام ببعض الأقوال من أحد العلماء المشهورين في القضية فقال سيد قطب في كتابه < معالم في الطريق > :الإنسان من هذا الوجود الكوني والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله ولقد خلقه الله – كما خلق هذا الوجود – وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض وما وهبه الله من خصائص زائدة علي مادة الطين جعلت منه إنسانا إنما رزقه الله إياه مقدرا تقديرا وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنه الله له ... والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني وهو الذي سن للإنسان (شريعة) لتنظيم حياته الإرادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية فالشريعة علي هذا الأساس إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي

العــام الــذي يحكــم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام وينسقها كلها جلة واحدة .... وفي تحقــيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر .كما أن فيه الصيانة للحــياة مــن الفساد . وإنهم في هذه الحالة وجدها يعيشون في سلام مع الكون وفي سلام مع أنفسهم [٦١٧].

فــي ضــوء ما قاله سيد قطب نري أن الشريعة الإسلامية لم تكن تنظم علاقة الإنسان بين نفســه وبنــي جنســه أو بينه وبين خالقه فحسب بل ترمي إلي التنسيق بين حياة الإنسان ونوامــيس الكون فمنهج الحياة في الإسلام لم ينحصر في اتباع القوانين الدينية والاجتماعية فحسب بل يمتد إلي اتباع النواميس الكونية وتنسيقها مع الحياة الإنسانية .

مع هذا العرض لمنهج الإسلام ولوتس نلاحظ أن لوتس قطع شوطا مع الإسلام في طريق الحــياة ثم توقف ولم يصل إلي النهاية إذ هو يتفق مع الإسلام علي تنسيق الحياة الإنسانية مع القوانيــن الطبيعية ولكن بعد ذلك تنقص شريعة إلهية في فكره. والشريعة الإلهية قد تقسم إلي قسمين : الشريعة الإلهية للكائنات الطبيعية وهي ما نقول له النواميس الطبيعية والأخري هي الشريعة الإلهية للإنسان وهي ما نقول له الأحكام الإلهية من الأوامر والنواهي فمنهج الحياة عــند لوتــس فــي نظر الإسلام هو منهج ناقص إذ عني بجزء وغفل عن جزء آخر ولعل السبب فيه أن لوتس لم يتلق وحيا من الله ولم يعرف ذلك .

المبحث الثالث :الغاية الأسمي للحياة والمثل الأعلي فيها

"إنّ مســألة الاتحــاد هــي قضية أساسية في فلسفة الصين التقليدية" [٦١٨] فلو تتبعنا تاريخ نشأة المسألة في الصين لوجدناها ترجع إلي أقدم العصور حين بدأت تنشأ الثقافة الصــينية [٦١٩] فهــي قديمة قدم الثقافة الصينية نفسها غير أن مضمون الاتحاد يتجدّد من عصــر إلــي عصــر و تتغاير أشكالها بين حين وآخر وكانت الصورة الأولي للإتحاد عند الصــينيين هي "إتحاد السماء بالإنسان " بمعني ظهور إرادة السماء في مجتمع الإنسان كما أن القحــط والطوفــان والحريق وغيره من الكوارث الطبيعية تعبر عن غضب الإله علي الإنسان ثم تطور المفهوم وصار معناه إتحاد الطريق السماوي بالطريق الإنساني بمعني

---

[617] سيد قطب :< معالم في الطريق : ، دار دمشق ،إيران ، ص: ١٣٠-١٣٢.
[618] لو لوه لون : < فلسفة الداوية : ، ص: ١ ، المطبعة الصينية ، ١٩٩٧م .
[619] انظر المصدر السابق ، ص: ٤.

أن الطـريق السـديد الذي سار عليه الإنسان بطبيعته السليمة لم يختلف عن الطريق الذي يريده الإله من الإنسان أن يسير عليه .

ثم تطور مفهوم الاتحاد علي يد لوتس وجعل الاتحاد ب"داو" غاية أسمي للحياة عنده. [٦٢٠] إن لوتـس نفسـه لـم يستخدم كلمة الاتحاد بل عبر عنه ب" الوحدة السرية " ثم جاء بعده "جـوان تـس"[٦٢١] وأتـي بتعبير (تذوّق "داو") في مفهوم الاتحاد علي أساس " الوحدة السرية " ثم ظهر تعبير الاتحاد ب"داو" علي أيدي المتأخرين ونسبوا أصله إلي لوتس. ولعل لوتـس كـان يـريد بتعبير"الوحدة السرية" معني الاتحاد وإنما نقول بأن الغاية الأسمي عنده الاتحـاد ب"داو" لأنـه جعـل الـتقرب من الطبيعة منهج حياته وحاول أن ينسجم مع العالم الطبيعـي بملازمة خصائصه التي هي في الحقيقة خصائص "داو" وهذه الحياة لامحالة تؤدي فـي نهاية المطاف إلي الانسجام مع "داو" وهو في الحقيقة الاتحاد ب"داو". ولذلك قد ترجم كثير من العلماء " الوحدة السرية " باتحاد ب"داو". [٦٢٢]

قـال لوتـس: (علـى الإنسان) سد مداخله وإغلاق بابه وتفتير شوكته وإزالة خلافه وتلطيف روعته وتناسق معايشته و هذا هو "الوحدة السرية" (ف: ٥٦) .

ومعنـي النص هو أن يسد الإنسان جميع مداخل الشهوات و الرغبات و يغلق باب الأطماع والخـيالات أو يسـد وسائل العلم وإغلاق باب المعرفة [٦٢٣] ويعني ذلك أن يتوقف من الفكر والـنظر ثـم يـتوغل فـي الطبيعة و يزيل كل ما يمتاز به نفسه عن غيره من الكائنات الطبيعية و يسوّي نفسه بغيره في كل شيء حتي تحصل له حالة عدم التمييز وهذه الحال يقال لها عند لوتس " الوحدة السرية ". ولايخفي أن هذه الحالة يراد بها الاتحاد ب"داو".

و غاية ما في النص أن من توصل إلي مقام " الوحدة السرية " زالت أمامه فروق بين " أنا " وبين غيري و بين "أنا " وبين سائر الموجودات و اضمحلت كل شحصياته وذابـت نفسه في نفوس الآخرين و تحرّر من النزاع والمنافسة والاحتكاك مع الغير وسـلمت وبقـي مـع الطبيعة وبقي مع "داو". ولم يرد لوتس من التقرب من الطبيعة إلا لهذا الغرض.

ولعلنا نجد في أقوال لوتس إشارة إلي فكرة الاتحاد : " ألا يمكن تمسك الروح بالواحد دون انفصال (ف: ١٠)

620 انظر جيو لي شين : < حكمة لوتس > ،ص : ٧٤ ، المطبعة الشعبية ،خه باي ، ١٩٩٧.
621 أشهر العلماء الداوية ويعتبر مكمل لفلسفة لوتس ويعيش في القرن الرابع قبل الميلاد .
622 انظر <دراسة لوتس > ص: ٣٠٥ . وأيضا < الأيام العشرة للحديث عن لوتس> ص: ٣٢٥.
623 < الترجمة الجديدة للوتس > ،رون جو يو، ص:١٨١.

وقد كثر الكلام في ترجمة هذا النص واختلفت الآراء في مراد كل الكلمة فيه وقد ظهرت عدة الشروح لهذه العبارة وإنما ترجمناها علي هذا النحو وفقا لمعانيه الظاهرية ووفق منهج لوتس في الرياضة وقد يري أكثر العلماء أن الواحد في النص يراد به "داو" و أن التمسك بالواحد يقصد به "الإتحاد ب"داو". فالنص يتحدث أساسا عن مقام الاتحاد ويتحدث عن أحسن الحالة الروحية للإنسان

وسنتحدث قضية الاتحاد والطريق إليه في مبحث الرياضة الروحية بالتفصيل ونشير هنا إلي أن الاتحاد هو الغاية الأسمي للحياة عند لوتس.

ولو أمعنا النظر في حقيقة الإتحاد عند لوتس لظهر لنا أن الاتحاد عنده يعني الفناء في الطبيعة أو الفناء في الله علي اصطلاح الصوفية الإسلامية وسوف نفصّله في الفصل القادم.

وأما الإسلام لم يجعل الاتحاد أو الفناء غاية أسمي لعامة الناس في حياتهم وبالعكس يعتبر الاتحاد في معناه الحقيقي [٦٢٤] كفرا بالله تعالي لأن الله الخالق ولن يصير أحد من مخلوقاته خالقا أيا كان. ولعل الغاية الأسمي للحياة عند الإسلام هي رضوان الله تعالي وقد قال الله تعالي: رضي الله عنهم ورضوا عنه ،ذلك الفوز العظيم (المائدة:١١٩) وقوله تعالي : **رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون (المجادلة:٢٢).**

وقد شرح أبو الفضل الآلوسي هذه الآيات بقوله : قوله سبحانه رضي الله عنهم بيان لكونه تعالى أفاض عليهم غير ما ذكر وهو رضوانه عز وجل الذي لا غاية وراءه كما ينبيء عن ذلك قوله سبحانه ورضوا عنه إذ لاشيء أعز منه حتى تمد إليه أعناق الآمال. [٦٢٥]

ولما عرّف العلماء المسلمون كلمة العبادة أتوا بتعريف :هي كل ما يحبه الله ويرضاه.[٦٢٦] وكل هذه تدل علي أن رضوان الله هو الغاية الأسمي عند المسلمين.

وإذا أمعنا النظر في اختلاف الغاية بين الإسلام ولوتس قد لانجد فيه اختلافا حقيقيا لأن لوتس وإن كان يؤمن ب"داو" كالإله له إلا أنه في فلسفته جعل كل صفات الإله وإراداته تتجلي في الطبيعة فمن هذا المنطلق لو اتحد أحد ب"داو" أو بالطبيعة علي معني أن ينسجم مع قوانين الطبيعة في كل كبيرة وصغيرة فقد حقق علي نفسه ما أراده "داو" وأطاع "داو" وبالتالي نال رضوانه.

---

[624] (الاتحاد يعلى تصيير الذاتين واحدة) . أنظر : السيد الشريف على بن محمد الجرجانى : التعريفات . (المكتبة الحمادية ، كراجى ١٩٨٣) ص: ٤ .

[625] الألوسي < روح المعاني > ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت ،ج:٧،ص:٧٠.

[626]

المثل الأعلي في الحياة:

كل من يقرؤ كتاب لوتس لا يخلو له من انطباع أن الحكماء في ذهن لوتس يحتلون مكانا رفيعا إذ أننا كلما فتحنا كتاب (داو ده جين) لوجدنا أكثر من عشرين فصلا من بين الواحد والثمانيين فصلا قصيرا يتحدث عن شأن الحكماء وكان لوتس كلما يتحدث عن حقائق الأشياء و عن مبادئ الأمور و عن مكارم الأخلاق جعل الحكماء يمثّلون من له قدم راسخ في هذه الجوانب وأعطاهم حق الكلام في هذه المجالات ويبدو أن الحكماء هم ينابيع الحكمة للوتس ومصادر المعرفة عنده وبعبارة أخري أن لوتس جعل الحكماء المثل الأعلي في الحياة .

إن الحكيم له مفاهيم متعددة عند مختلف المذاهب والأديان في الصين ويحتلف مدلوله من مذهب إلي مذهب و له معني خاص عند كل المذهب و يجدر بنا أن نعرض هنا مفهوم الحكيم علي اختلاف المذاهب والأديان قبل أن نذكر خصائصه عند لوتس .

الكلمة التي ترجمناها إلي معني الحكيم هي كلمة "شين رن " (shen ren) باللغة الصينية وظهرت كلمة "شين رن " في شرح كتاب < التغيرات > الذي قام بشرحه كنفوشيوس وقال : [ليس أحد أكبر من "شين رن " في إعداد الأشياء للاستعمال والصنع منها آلات لتفيد الناس][٦٢٧] ومعناه أن "شين رن " هو الذي يحسن في إستعمال الأشياء و يخترع الآلات لتفيد الناس والذي يقدّم الخدمة للإنسانية . وعلي هذا يكون "شين رن " عند كنفوشيوس هو من كان له فضل علي الناس باختراعه لنوع من الآلات التي تفيد الإنسان في حياتهم.[٦٢٨] فهو صاحب الحكمة والإختراع ولعل معني الحكيم عند الفارابي يطابق هذا المعني إذ قال : [فإن الحاذق بإفراط في صناعة ما يقال إنه حكيم في تلك الصناعة][٦٢٩].

ولكن لكلمة "شين رن " معني آخر عند كنفوشيوس كذلك وقد ثبت لنا من كلامه أن "شين رن " هو من تحضّن إرادة الإله في صدره حتي إذا ما أمر بالتبليغ بلّغه بلسانه ويقول كنفوشيوس : " قلب الإله يكون في صدر "شين رين " حتي إذا ما أمر بالتبليغ ظهر علي لسانه " [٦٣٠] و واضح أن "شين رن " هو الذي يعلم إرادة الإله و يبلّغها بلسانه إلي الناس عند ما أمر بذلك . ولذلك نجد أن القدماء الصينيين كانوا يعتبرون بعض ملوكهم "شين رن " وأنهم يتلقون الوحي من الإله بل هم أبناء الإله أرسلوا إلي الناس ليبلغوا أوامر

---

[627] كتاب < التغيرات > والنص منشور في جيو كوي ديان : < الفلسفة التقليدية في الصين > ، ص: ٣٠٤، مطبعة جامعة المعلمين ببكي ، ١٩٩٠م .

[628] انظر جيو كوي ديان : < الفلسفة التقليدية في الصين > ، ص: ٣٠٤ ، مطبعة جامعة المعلمين ببكي ، ١٩٩٠م .

[629] < تحصيل السعادة > ، ص: ٨٩.

[630] كنفوشيوس : < الحوار > ، فصل "شان وون "

الإلـــه ونواهـــيه إلي الناس وليحكموا الناس بالقوانين الإلهية ومن أمثالهم كان الملك " يَو" (yao) و الملك " شون " (shun) والملك " يو"(yu) و الملك "وون"(wu wang) (هو مؤسس الأسرة "جيو") وهولاء ملوك في العصور القديمة قبل لوتس وكنفوشيوس .

بناء علي هذا فإن مفهوم "شين رن " عند كنفوشيوس قريب من مفهوم النبي عند المسلمين لأنهمـــا يشتركان في أساس النبوة وهو تلقي الوحي والأمر بالتبليغ ولذلك استعار المسلمون في الصين هذه الكلمة للتعبير عن معني "النبي " بالمفهوم الإسلامي.

ويـــري الصـــينيون أن نهايـــة الكمال للإنسان هي إتصاف ب" " شين رين "(النبي) في الباطـــن و الملك في الظاهر "[٦٣١] بمعني أنه ملك بالنظر إلي وظيفته الإجتماعية ونبي بالنظر إلي علاقته مع الإله وصفاء النفس[٦٣٢] ومن لم يصل إلي هذه الدرجة لم يكن ملكا كاملا .

و يـــتكرر ذكـــر لفظ "شين رين " في الكتب الكنفوشية المتأخرين و غالبا تفيد معني كامل الأخـــلاق أوالمثل الأعلي في الأخلاق فالناس عادة من القديم إلي اليوم يستخدمون هذه الكلمة بمعني كامل الأخلاق[٦٣٣] .

أما "شين رن " عند الداوية فيختلف معناه عما عند الكنفوشية في بعض الخصائص و قيل إن "شين رن " عند الداوية هو الذي يعيش عيشة طبيعة ويطوّر الحياة الداخلية ويتخذ من الســـكون وعـــدم المنافسة هدفا للحياة ويكره السمعة ويخرق جميع القيود التي تقيّد حرية الحركات البدنية والنفسية "[٦٣٤]

ف"شـــين رن " بهـــذا المفهـــوم يكون من يذوب في العالم الطبيعي ويهتم بتطور الحياة الروحـــية ويلـــتزم بالأخلاق الحسنة . ف"شين رن" بهذا المعني ليس من ضرورة أن تلقي الوحي من الإله .

وقـــيل: إن "شـــين رن " عند لوتس هو من بذل أقصي جهده في التخلق بأخلاق السماء والأرض لكـــي لا يـــبدع أمورا بنفسه "[٦٣٥] ف"شين رن " بهذا المعني يختلف عما عند الكنفوشـــية إذ أن "شـــين رن " يبتكر و يبدع في تصور كنفشيوس بينما هو عكس ذلك عند الداوية .

وقـــيل إن "شين رن" هو من يتبع السماء والأرض والطبيعة في رعاية الكائنات بلا غرض ولا شرط ويتعامل مع الكائنات بالسواسية دون التفريق بينها وينقذ العالم ويصلح الإنسان

---

٦٣١ فون يو لان : < التاريخ المختصر للفلسفة الصينية > ،ص: ١٢ ، مطبعة جامعة بكين ، ١٩٨٥م .

٦٣٢ المرجع السابق ,ص: ١٢.

٦٣٣ انظر < لوتس شرحا وتعليقا ، ص: ٦٦.

٦٣٤ < لوتس شرحا وتعليقا > ،ص: ٦٦.

٦٣٥ المرجع السابق ,ص: ٦٦.

ويملـــك قلبا عادلا كقلب السماء والأرض بلا أنانية ويعمل بما يجب عليه بلا غرض ذاتي ولا شـــروط ."[٦٣٦] فهو من ينسجم مع قوانين السماء والأرض و يتناسق مع القوانين الطبيعية ويملك مكارم الأخلاق .

وهـــذا مـــا يراه بعض العلماء عن مفهوم "شين رن " عند الداوية عموما وبما أن الكلمة عند الداويـــة لا تفيد معني النبوة ترجمناها إلي كلمة الحكيم والحكماء . ولعل مفهوم "شين رن " عند لوتس يمتاز بالخصائص المذكورة ولكن أهم الخصائص ل "شين رن " أو الحكيم – فيما نري – هي اتحاد ب"داو" و "شين رن " قبل كل شيء من اتحد ب"داو" . وذلك أن لوتس لما كـــان يضع عدم الفعل والسكون كمنهج الحياة كان قد نصب أخلاق الحكماء وفضائلهم أمام عيـــنه ثـــم قرّر منهج الحياة حسب سلوكهم و يقول < داو ده جين >: "يقول حكيم أنا علي عدم الفعل فيصلح الناس بأنفسهم "(ف: ٥٧) ويقول : ولذلك كان الحكماء يتعاملون مع الأمور ب"عدم الفعل" (ف:٢)

وتشير النصوص إلي أن عدم الفعل كان من أخلاق الحكماء وسلوكهم فلا شك أنهم بين الناس من يتمسكون بعدم الفعل علي أكمل الصور وأتمّ الوجوه. ولكن عدم الفعل في منتهاه يؤدي بصاحبه إلي الاتحاد ب"داو" [٦٣٧] لأن عدم الفعل هو أهم خصائص "داو" كما قال لوتس :يبقي "داو" علي عدم الفعل " (ف:٣٨) فإذا جاهد الإنسان وتخلق بأخلاق "داو" ويتمسك بعدم الفعل إلي منتهي مستواه لاتحد ب"داو" وحينئذ يصبح هو "شين رين " (حكيما) ولذلك قيل إن "شين رن" هـــو مـــن صـــاحب "داو" ومن له "داو"[٦٣٨]. فعدم الفعل همزة الوصل بين العوام وبين الحكمـــاء وأســـاس للاتحاد ب"داو" .فـ"شين رين" عند لوتس هو من اتحد ب"داو". وإن عدم الفعل هو صفة باطنية للحكماء وهناك صفات أخري تظهر علي الحكماء وهي كما يلي علي سبيل المثال :

عدم الأنانية:

مـــن مـــيزة "شين رن " أنهم يبعدون الأنانية من أنفسهم فيؤخرون أنفسهم عن الآخرين في كل شيء ويبيدون شهواتهم ويذيبون شخصيتهم في شخصية الآخرين وكانوا لا يفكّـــرون فـــي مصـــالحهم الشخصـــية ولا يسعون للمنافع الذاتية بل يفضلون مصلحة الآخريـــن علي أنفسهم و يعتبرون خدمة للناس أعلي الفضائل. ويقول النص: إن الحكيم لا يملـــك القلـــب بـــل يجعل قلوب الناس قلبه(ف: ٤٩). يعني أنهم لا يجعلون أنفسهم معيارا لغيرهم ولا يجعلون شعورهم حكما علي الأشياء ولايعتزون بأنفسهم بل يقدّرون أفكار الناس

---

[616] نان هوي جين : < جين البوذية والداوية > ،ص: ٢٤١ ، مطبعة جامعة فو دان ، ١٩٩٠م .

[617] قد يراد بالاتحاد هنا الفناء في مفهوم الإسلام كما سنشرح ذلك في الفصل القادم ولكن كلمة اتحاد كانت متداولة علي ألسنة الصينيين فأتينا بها ليفيد معني الفناء مجازا.

[618] أنظر < لوتس شرحا وتعليقا ، ص: ٦٦.

ويحـــبون لهم ما يحبون لأنفسهم ويكرهون لهم ما يكرهون لأنفسهم ويشاركونهم في كل شعورهم. وبالجملة أنهم يفنون أنفسهم في مصلحة العوام. ويؤكد هذا المعني نص آخر:

"لا يبصر من يزعم لنفسه البصيرة ولا يشتهر من يزعم لنفسه الصواب ولا يملك المأثرة من كان يعتزّ بنفسه ولا يبقى من يفتخر بنفسه" (ف: ٢٤).

عدم المنافسة:

مـــن ميزة "شين رين " عدم النزاع مع أحد وقد مثّل لوتس هذه الخصلة بخاصية الماء حيـــث أن الماء يفيد الكائنات ويغذي النباتات والحيوانات ويعمّم نفعه علي جميع الأشياء ولكـــنه من طبيعته ،كما يري لوتس ، لا ينازع مع شيء فهو إذا سد شيء طريقه وقف أو رجـــع أو سال إلي جهة أخري فكذلك "شين رن " فإنهم يفيدون الناس ويحسنون إليهم وإذا وقف شيء أمامهم تراجعوا خوفا من المنازعة ويقول النص :

لأنه (الحكيم) لا ينافس فلا لوم فيه (ف:٨)

و كانوا لا ينافسون فلا أحدا فى العالم قادرا على منافستهم(ف:٢٢)

إن طريف السماء أن ينفع ولا يضرّ وإن طريق الحكيم أن يعمل ولا ينافس (ف:٨١)

وإنهم لا ينازعون فلا ينازعهم أحد فى العالم(ف: ٦٦)

إن الـــناس أكـــثر شيء جدلا فلا يخلو من النزاع والمنافسة بينهم من أجل الحصول علي مصالح شخصية أو من أجل دعم مذهب أو موقف معين وهذه ظاهرة عامة في المجتمعات القديمـــة والحديثة ولكن "شين رن " لا يخوضون في المنافسة بأية حال من الأحوال ولكن ذلـــك لا يعني أنهم يبتعدون عن الأعمال التي تثير النزاع والمنافسة ، كلا بل إنهم يعملون ويفيدون الناس ولكنهم يقفون عندما ظهرت المنافسة ولا يخوضون فيها وبهذا لا ينازعهم أحد وبالتالي كانوا في حالة الأمن والإنتصار دائما[٦٣٩].

الاعتدال

هذه الفكرة مبنية علي أن الأشياء بطبيعتها كانت معتدلة. والاعتدال عبارة عن بقاء الأشياء علـــي طبيعـــتها وأما التطرف فهو زوال من هذا الاعتدال الطبيعي . وإن الناس يحبون الذهاب إلي التطرّف بأن يفرّطوا في الأمور أو يفرطوا فيها وقلّ من يتمسك بموقف الوسط والاعـــتدال إلا الحكمـــاء (شين رين) فهم-- فيما يري لوتس-- يستطيعون مراعاة طبائع

[٦٣٩]انظر: < لوتس شرحا وتعليقا : ، ص: ٤٢.

الأشـــياء و يحافظون علي الاعتدال بين التفريط والإفراط. ويقول النص : فكان الحكماء ينبذون التطرف و الغلو والترف (ف: ٢٩) .

فـ"شين رن " هو من يحافظ علي الإعتدال بين النقيضين ويتمسك بالوسطية في الأشياء فالاعتدال هو إحدي ميزاتهم .

وقـد ارتـبط بعض العلماء فكرة الاعتدال بالمجال السياسي فقط ويري أن الاعتدال هو حفـظ الموقف المحايد في الشؤون السياسية كما قال "تشين قو يين" : "إن السياسة المثالية هي إتباع بالطبيعة و توجيه إليها وانصراف عن الوسائل المتطرفة و بعد عن السياسة القاسـية "[٦٤٠] فهـو حصـر فكرة الاعتدال في مجال السياسة فقط ولكني أري أن قاعدة الاعـتدال يمكـن تطبـيقها في جميع مجالات الحياة إذ أن الأمور كلها سواء كانت متعلقة بالسياسة أو غيرها تحتاج إلي الاعتدال وكان لوتس نفسه لم يقيده في مجال السياسة.

الإحسان:

من ميزة "شين رن " إحسان إلي الناس و رحمة عليهم لأن من وظائفهم إصلاح المجتمع الإنساني فالإحسان هو إحدي الطرق التي يتقرب بها الإنسان إلي غيره ويؤلّف بها قلوبهم ويقول لوتس :

كان الحكماء يحبون إنقاذ الناس دائما فلا أحد قد أُهمل(ف: ٢٧)

(يقول حكيم) إن الصالح أحسن إليه كما أن الطالح أُحسن إليه كذلك (ف :٤٩)

معنـــي ذلــك أن "شين رن " ليس بعيدا عن الناس بأن يعزل عن الحياة العامة ويحاصر نفسه في زاوية خارج العالم البشري بل كان يعايش الناس و يرشد كل من كان في حاجة إلـــي الإنقاذ من الضلال والفساد فلم يكن أحد في عصر "شين رن " قد أهمل بأن لم يوجّه إليه الإرشاد والنصيحة ولم يقع أحد في الفساد من إهمال "شين رن " عنه و كان "شين رن " يعامل جميع الناس بالسواسية حيث يحسن علي البرّ والفاجرعلي السواء.

هــذه هي أهم الخصائص التي يمتاز بها "شين رن" في عين لوتس وهذه الخصائص كلها في الحقيقة مكارم الأخلاق فنقول بأن "شين رن " (الحكيم)عند لوتس هو من إتحد ب "داو" بممارسة عدم الفعل وتحلي بمكارم الأخلاق.

وعلـــي أي معني فإن لوتس جعل "شين رن " (الحكيم) المثل الأعلي للحياة و دعا الناس إلي اقتداء بهم وكانت أوصافهم بمثابة مبادئ السلوك الحسنة عنده .

---

[٦٤٠] المرجع السابق . ص : ١٨٧.

إن الإســلام هــو مـــا شرعه الله للناس كافة وكان الله يريد أن يهدي عباده إلي صراطه المســتقيم فأرسل أنبياءه ورسله إليهم ليبلغوا ما شرع الله لهم وكان الأنبياء لم يكونوا مبلغي أحكام الله فحسب بل كانوا يطبقون علي أنفسهم كل ما شرع الله ليكونوا أسوة حسنة واقعية للناس كما يقول القرآن :(أولئك الذين هدي الله فبهداهم اقتده) ومن ثم كان الأنبياء عموما هم الأمــثال الحسنة في الحياة للمسلمين ويكون آخر الأنبياء محمد صلي الله عليه وسلم المثل الأعلي بوجه خاص إذ يقول القرآن:

قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه (الممتحنة:٤)

لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر(الممتحنة:٦)

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة (الأحزاب:٢١)

ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (الحشر:٧)

والنصوص تؤكد أن الله تعالي أمر المؤمنين بالاقتداء بالأنبياء والسير علي طرقهم واعتبارهم نموذجا في العقائد والسلوك وباتخاذ محمد صلي الله عليه المثل الأعلي بوجه أخص .

فالنبي هو المثل الأعلي في الإسلام بينما المثل الأعلي عند لوتس هو الحكيم والفرق بينهما بيّن إذ أن النبي هو إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحي إليه[٦٤١] ومن أهم خصائصه تلقي الوحي مـــن الله ولا يكون كذلك للحكيم وأما النبي من ناحية الأخلاق فهو كامل الأخلاق الحسنة كما هو الحكيم عند لوتس. ويري العلماء أن الأنبياء يتفردون ببعض الأمور وهي العصمة وكمال الأخلاق وقد اشترطوا لهم بالذكورة وكمال العقل والذكاء والفطانة وقوة الرأي [٦٤٢]

ويـــري بعـــض العلمـــاء أن الأنبياء يمتازون بالأشياء مثل الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة والسلامة من العيوب المنفرة والعصمة [٦٤٣].

إن النبوة في الإسلام لم تكن من جهد الإنسان نفسه ولا يصل أحد برياضته إلي مقام النبي بل هي نعمة ربانية وهبة إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده ويخص لمن يريد من خلقه ولا ينال بكــثرة الطاعة والعبادة وإنما هي بمحض الفضل الإلهي [٦٤٤] . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضـــل العظيم (آل عمران:٨٤)، والمثل الأعلي عند لوتس قد يصل إلي مقامه كل من اجتهد وتفرغ للرياضة الشاقة والتزم بالأخلاق المحمودة.

---

[641] سعد الدين التفتازاني <شرح المقاصد في علم الكلام > ،دار المعارف النعمانية ،لاهور، باكستان، ١٩٨١، ج:٢،ص:١٧٣.

[642] المصدر السابق ، ج:٢،ص:١٩٨.

[643] محمد علي الصابوني < النبوة والأنبياء >،الطبعة الثانية ، ١٤٠٠، ص:٤٠.

[644] انظر محمد علي الصابوني < النبوة والأنبياء >،الطبعة الثانية ، ١٤٠٠، ص:٨.

المبحث الرابع : الأخلاق

يــزعم الصــينيون أنهم قوم الأدب والأخلاق وأنهم متميزون من غيرهم بالفضائل ومكــارم الأخلاق حتي اعتبروا الأخلاق أهم ميزتهم وقد اشتهر بين الباحثين خارج الصين بــأن الصين خالية من الدين وأن الأخلاق حلت محل الدين وربما الكلام هذا فيه نوع من المبالغة أو شيء من الإهمال بحقيقة النفسية للشعب الصيني فإن الديانة هي ظاهرة عامة طــوال تــاريخ الصــين وان كانت تأخذ في كثير من الأحيان أشكالا غير أشكال الأديان المعــروفة لــدي الناس ولكن روح الدين متكمنة دائما من وراء الأشكال المتعددة ومن جانــب آخر ليس لنا حق أن ننكر القول الشائع فيما يتعلق بأهمية الأخلاق في حياة الصينيين ولقد كانت الأخلاق جزءا مهما لحياة العام والخاص علي السواء حتي أنها في مقام الدين أحيانا تهيمن علي حياة الناس منذ القديم إلي العصر القريب .

ومن المعروف أن الأخلاق عند قوم تعبّر عن أهداف الحياة ومقاصدها عندهم كما تعبّر عن القيم والمعايير لديهم وبالجملة إن الأخلاق تدل علي مستوي القوم في مدارج الترقي من الناحية الروحية و الحضارية .

ونــري أن الأخــلاق في الحقيقة تلازم الدين بلا انفصال وإن كان الدين يمثّل الجوهر فإن الأخلاق تمثل صورته [٦٤٥] وإن كان الدين يمثّل الروح فإن الأخلاق تمثّل مظهرها[٦٤٦] فهمــا مرتــبط بعضهما ببعض ارتباطا وثيقا ولو نزع الدين من الأخلاق لضاع أساسها ولتعرضــت الأخلاق إلي الهلاك لأنها صارت مجرد شكل بلا روح ولذلك قال النبى صلي الله عليه وسلم:(وإنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق) .وقد جعل النبي إتمام الأخلاق أهم مقاصد البعثة والشريعة .

وعلي هذا فإن الأخلاق ذات أهمية كبيرة و تمثّل نواة ثقافة القوم كما لها دور كبير في حفــظ الثقافة وتوجيه التطوّر الحضاري وكان لوتس كأحد ممثّلي الثقافة الصينية لا مفرّ له من الحديث عن هذا الجانب وحقا إنه إهتمّ به وأبدي رأيه فيه.

---

[٦٤٥] قيل إن الأخلاق هي مسكن "داو" بمعني أن "داو" يبقي في صورة الأخلاق . أنظر سون بي كي : < مائة أسئلة عن لوتس > ص: ١٦٦ ، مطبعة شعبية بان هوي . وأيضا أنظر <لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ١٨٤.

[٦٤٦] قال تشين قو يين : إن "داو" لا صورة له ولا أثر و إذا ظهر في الكائنات أو أثرّ في شيء و ذلك هو الأخلاق . أنظر : المرجع السابق . ص: ١٦٦.

(١) فلسفة الأخلاق

لقد اختلف العلماء في نشأة الأخلاق ومبادئها وذهب قوم إلي أن الأخلاق ليست إلا مجموعة العادات والتقاليد التي توارثها الأبناء من الآباء[٦٤٧] وقيل إنها نشأت من وجدان الإنسان[٦٤٨] وقيل هي نشأت من القيم الدينية والعقل[٦٤٩].

وعلى كل حال لم يذكر لوتس كيف نشأت الأخلاق في الإنسان ولكن الواضح من مذهبه أن الشعور الأخلاقي مركوز في طبيعة الإنسان وليس طارئا من الأسباب الخارجية فكلما تتجلي الطبيعة الإنسانية وتستيقظ فطرته ويظهر الأثر الأخلاقي معها .

وقامت فلسفة الأخلاق عند لوتس علي أساس واضح وهو أن الأخلاق تبني علي متابعة "داو" وأشار إلي ذلك بقوله: صورة "ده"(الفضيلة) الكبرى لا تكون إلا في متابعة "داو"(ف: ٢١)

ونشرح هذه العبارة بأن "داو" كائن غيبي وهو الإله عند لوتس وله خصائص يقال لها "ده" أي الفضائل وإن أفعال الإنسان لا تكون فضيلة ولا أخلاقا إلا إذا توافقت مع هذه الخصائص فالأخلاق هي عبارة عن متابعة "داو" أو الفضيلة الخلقية هي ما تخلقه الإنسان بأخلاق "داو"[٦٥٠] وإن "داو" هو مصدر الأخلاق، فلعل مفهوم الأخلاق عند لوتس هو تحلي بخصائص"داو". وكان "شين رين" (الحكماء) أقرب إلي "داو" فكانوا أحسن الناس خلقا. ويبدو من هذا النص أن مبادئ الأخلاق متكمنة في "داو" وأن الأخلاق هي تخلق بها.

ومن جانب آخر أن "داو" كائن غيبي وقد استودع خصائصه في الكائنات الطبيعية وقال لوتس: إن الإنسان يتبع الأرض والأرض تتبع السماء والسماء تتبع "داو" (ف:٢٥) بمعني أن السماء والأرض تتخلقان بأخلاق "داو" دائما فالعالم الطبيعي يترجم أخلاق "داو" وإن الإنسان كجزء من العالم الطبيعي إذا رجع إلي أصل طبيعته وانسجم مع العالم الطبيعي لظهرت خصائص"داو" عليه وصارت له خلقا كما قيل [إن "داو" إذا كان كائنا في الإنسان فصار طبيعة له][٦٥١] . فالأخلاق عبارة عن عودة إلي أصل الفطرة ومن أحياها في نفسه فقد ظهر أثرها في صورة الأخلاق.

إن الأخلاق تحتل مكانا رفيعا في الإسلام إذ هي تعتبر روح الإسلام وكان رسول الله لم يرسل إلي العالم إلا لتتميم مكارم الأخلاق كما قال الحديث النبوي :"إنما بعثت لأتمم مكارم

---

(٦٤٧) هي نظرية دوركايم انظر :الدكتور أبو اليزيد العجمي، < الأخلاق بين العقل والنقل > ، دار الثقافة العربية، ص:٦٧-٧٠.
(٦٤٨) هي نظرية جماعة من العلماء الغربيين في العصر الحديث .انظر المصدر السابق ص:٥٦-٦٢.
(٦٤٩) هي نظرية "كانت "، انظر المصدر السابق ص:٤١.
(٦٥٠) جيو لي شين : < حكمة لوتس > ص: ، ٥٧ ، المطبعة الشعبية ، خه باي ، ١٩٩٧ م .
(٦٥١) المصدر السابق ، ٥٧.

الأخـــلاق" (رواه). وقد مدح الله رسوله الكريم بحسن الخلق إذ قال :وإنك لعلي خلق عظيم (القلم:٤) .

ذهــب بعــض العلماء المسلمين إلي أن الأخلاق هي صفات ومعان راسخة في نفس الإنسان ويظهــر أثــرها علي الجوارح بسهولة كما قال الإمام الغزالي:إنها عبارة عن هيئة في النفس راســخة ،عــنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلي فكر و رؤية [٦٥٢]. كما قال كذلــك :فإن كل صفة تظهر في القلب يظهر أثرها علي الجوارح حتي لا تتحرك إلا وفقها لا محالة فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقا سيئا "[٦٥٣] .

ونــري أن الإمــام الغزالــي لــم يخالف كثيرا عن لوتس في أصول قضايا الأخلاق وإنما الاخــتلاف فــي الفروع إذ أن الأخلاق صفات وخصائص راسخة في نفس الإنسان وقد اتفقا عليه لأن مذهب لوتس يقتضي أن الأخلاق مركوزة في فطرة الإنسان إلا أن الأخلاق فطرية في نفس الإنسان عند لوتس بينما هي نتيجة التعلم والتأدب عند الغزالي ثم إن مبادئ الأخلاق عند لوتس متكمنة في "داو" ويحصل عليها بواسطة متابعة خصائص "داو" وأما هي عند الإمام الغزالي فمتكمنة في الشرع والعقل[٦٥٤] ويحصل عليها بواسطة السلوك وفقا للحكمة التي عبارة عــن العقــل والشرع[٦٥٥]. وإن كان مصدر لمبادئ الأخلاق هو "داو" عند لوتس فكان القرآن الكــريم هو مصدر لها في الإسلام . ولذلك لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلي الله عليه وسلم قالت كان خلقه القرآن.

ومــن علمــاء المســلمين مــن ذهب إلي أن الله تعالي كامل ومكمل وله الأسماء الحسني والصــفات العلــيا وقد جعل عند الإنسان استعدادا وقابلية للتخلق بأسمائه وصفاته كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم :تخلقوا بأخلاق الله . فما من صفة الله أو اسم إلا و الإنسان عنده استعداد وقابلية للتخلق به[٦٥٦] وعلي هذا تكون الأخلاق هي التخلق بصفات الله وأسمائه، وهذا المفهوم قد يكون أقرب إلي مفهوم الأخلاق عند لوتس .

---

[٦٥٢] ابو حامد الغزالي < إحياء علوم الدين > ،ج:٣،ص:٥٣.
[٦٥٣] المصدر السابق :ج:٣،ص:٥٣.
[٦٥٤] المصدر السابق :ج:٣،ص:٥٣.
[٦٥٥] انظر : < إحياء علوم الدين > ،ج:٣،ص:٥٣.
[٦٥٦] سعيد حوي :< الإسلام > ، مكتبة وهبية ، القاهرة مصر ، ج:٢،ص:٧٢.

(٢) المبادئ الأخلاقية

وقد ذكرنا فيما سبق أن الأخلاق حسب نص الكتاب مبنية علي أساس متابعة "داو" ، وهذا هو مبدئ أصلي في الفكر الأخلاقي لدي لوتس وكانت خصائص "داو" تمثل مبادئ الأخلاق عنده فالمبادئ الأخلاقية عنده عبارة عن خصائص "داو" .

وقـد قسـم لوتس الأخلاق إلي الفضيلة العليا والفضيلة السفلي في النص الذي قاله : إن صـاحب الفضـيلة (ده) العلـيا لا يزعم بإمتلاك الفضيلة لأنه يمتلك الفضيلة وإن صاحب الفضيلة السفلى لا يزعم بضياع الفضيلة لأنه لا يمتلك الفضيلة . إن صاحب الفضيلة العليا يتمسك بعدم الفعل و لا يريد الفعل بينما صاحب الفضيلة السفلى يتمسك بعدم الفعل بل يريد الفعل (ف:٣٨) .

يـرئ العلماء أن الفضيلة العليا هي ما ينطبق تماما بمبادئ "داو" وأن صاحب الفضيلة العلـيا هـو مـن إتحد ب"داو" و من المعروف أن الطريق الوحيد إلي هذه الفضيلة هو الالـتزام بعـدم الفعل الذي سبق شرحه لأنه صميم طبيعة "داو" ولذلك كان عدم الفعل أكبر مكارم الأخلاق عند لوتس بل هو نهاية الحسنة عنده.

و أمـا الفضيلة السفلي فهي ما لم يبلغ إلي المقام السابق بحيث أن صاحب الفضيلة السفلي و إن يتمسـك بعـدم الفعل فلا يزال يعمل بالقصد والإرادة ولم يكن عمله طبيعيا فطريا فلا يبلغ إلي درجة الفضيلة العليا .

و الفضـائل السفلي تظهر بأشكال وصور متعددة وهي لم تخرج من القاعدة الكلية أن الأخلاق هي في متابعة "داو" إلا أن الفضيلة العليا هي متابعة كاملة بينما الفضائل السفلي هي ما يميل إلي جانب معين لأخلاق "داو" وقد ذكر لوتس بعض مبادئ الأخلاق من الفضئل السفلي ونأتي بها فيما يلي :

التواضع :

قال لوتس : لذلك كانت العزّة مبنية علي الذلّة و الرفع مبني على الخفض (ف:٣٩)
يعني أنه من أراد العزّة فليبدأ من الذلّة ومن أراد الرفعة فليبدأ من التواضع .

وبمـا أنهـم لا يدّعون فطانة كانوا على بصيرة و لا يدّعون صوابا فاشتهروا ولا يعتزّون بأنفسهم فكانوا ذوى المآثر و لا يفتخرون بأنفسهم فبقوا(ف:٢٢)

معنـى ذلك أن الحكماء ، وإن كانوا أصحاب الفطانة و الصواب والعزّة ، إلا أنهم لا يدّعون بذلك من تواضعهم .

وقال : إن الحكماء لما أرادوا أن يستعلوا على الناس يتواضعون لهم باللسان ولما أرادوا أن يتقدموا على الناس يتخلفون أو لا (ف:٦٦)

وقــد ذكرنا أن الحكماء لا يريدون لأنفسهم نفعا وإنما النفع يأتي تلقائيا من نتيجة حسن سلوكهم فكذلك الاستعلاء إنما يأتي نتيجة من تواضعهم ويذكر النص أنهم يريدون الاستعلاء و ربما في الاستعلاء نفع أكبر علي الآخرين وهذا نوع من الحكمة .

وعلي كل حال فإن التواضع أحد المبادئ الأخلاقية عند لوتس لأنه يطابق طبيعة "داو" و يتمسك به الحكماء السابقون .

حسن المعاملة :

لا يتعاطف الحكيم فيعتبر الشعب كلبا عشبيا (ف:٥)

بمعنــي أن الحكماء لا يتعاطفون مع شيء معين بأن يحبوا شيئا دون آخر بل يعاملون الكل بنفس الموقف ويعاملون جميع الناس معاملة واحدة بلا تفريق بينهم بالعاطفة .

وكان الحكماء يمسكون الميثاق اليسار و لا يجبرون الناس (ف: ٧٩)

صاحب الميثاق اليسار يراد به مدين ويعني النص أن الحكماء إذا أقرضوا لأحد قرضا لا يضــايقوه ولا يجــبرونه إلــي ردّ الدين بل يعاملونه بالرفقة واللطف ويحسنون إليه بالعفو والسماحة .

الزهد :

فلا يريدون أن يكونوا كروعة الزمرد بل يكونوا كغلظة الحجر(ف:٣٩)

إن الناس يحبون الشهرة والعظمة ويتمنون لأنفسهم شرفا ومكانا رفيعا لكن لوتس يدعو إلــي ترك هذه المفاخر الزائلة مبيّنا أن البساطة والزهد خير من الشرف الخالي والبهاء الظاهري بل الزهد أكثر نفعا للآخرين كما أن الحجر الغليظ يفيد الناس بعدة طرق للحياة بينما أن الزمرد الفاخر ليس له قيمة حقيقية إلا ظاهرة فاخرة مرئية .

لو أراد الإنسان لنفسه مرجعا فليتقشف و ليقلّل من الشهوات(ف:١٩)

بمعنــي أن الــزهد هو مرجع ينبغي أن يرجع إليه الإنسان إذا كان يريد لنفسه ولغيره خيرا حقيقيا . ومن المعروف أن لوتس نفسه كان ناسكا وزاهدا وقد إشتهر بذلك .

اللين :

إن أكثر الشيء نعومة فى العالم يغلب على أكثره صلابة (ف:٤٣)

أكـــثر نعومـــة هو ماء وإنه يغلب أصلب شيء وهو صخر وذلك أن قطرات الماء تثقب الصخرة مع مرور الزمن وأراد لوتس بهذا التمثيل أن يبيّن أن اللين أكبر قوة وأثرا من القسوة وأن اللين يغلب صلابة .

إن الإنسان ناعم فى حالة الحياة ثم يصبح متصلبا بعد الموت (ف:٦٤)

و" لذلك كان الأقوياء أصحاب الموت و الضعفاء أصحاب الحياة " (ف:٦٤) .

فكل القوى يقع فى الأسفل بينما كل الليّن يقع فى الأعلي (ف:٦٤)

لا شيء فى العالم أكثر لينة من الماء حتي لا يغلبه القوي المهاجم ولا ينوب عنه شيء وإن الضعف يغلب علي القوة واللينة تغلب علي الصلابة (ف: ٧٨)

تـــدل هـــذه النصـــوص علي أن من القوانين الطبيعية أن يغلب اللين صلابة فيجب علي الإنسان أن يلتزم بهذه الخصلة حتي يغلب جميع ما يشقّ عليه .

القناعة :

ولا كارثـــة أكبر من عدم القناعة ولا إثم أكبر من الطموع ولذلك من كان قانعا باقتناعه فهو مقتنع أبدا (ف:٤٦) .

ولا بد من كثرة الدفع من أجل الحبّ الجمّ كما لا بدّ من كثرة الفقدان من أجل الاكتناز الغنى ولذلك لا تصيب الذلّة من يقتنع ولا يصيب الخطر من يعرف الوقوف [عند الحد] (ف:٤٤).

تعنـــي هـــذه النصوص أن الناس عادة يسعون وراء الشهوات والطموحات حتي فقدت حـــياتهم مـــن أجل ذلك لأنه كلما يطمعون أكثر كان الخطرعليهم أكبر ولأن الحصول والفقـــدان يلازمان وعندما يحصل الإنسان علي شيء من جانب لا بد من أن يفقد شيئا مـــن جهة أخري ومن ثم يجب علي الإنسان أن يقنع بما عنده ولا يطمع فيما فيه تعب و خطر علي نفسه .

إقبال الشر بالخير :

بعد إصلاح العداوة الكبرى لا بد من بقاياها و هل هذا يكون إحسانا ؟

(علي الناس) إقبال العداوة بالفضيلة .(ف: ٦٣)

مــن عادة الناس أن يعقدوا العداوة بقصد أو بلا قصد ثم يصلحوا العداوة بالعدل ويعتبروا ذلك إحسانا ولكن لوتس يري أن ذلك ليس إحسانا وإنما الإحسان هو عدم عقد العــداوة أصلا حتي إذا يعتدي عليه أحد يقابل عداوته بالفضيلة فلا سبيل إلي إنعقاد العداوة وبهذه الصورة تتقلّع العداوة من أصلها .

هــذه من أهم المبادئ الأخلاقية التي يري لوتس أن يلتزمها الإنسان والحكماء منهم علي وجه الأخص لأن هذه الأخلاق هي من خصائص "داو" التي ظهرت في العالم الطبيعي والتــي عرفها الحكماء وإن كانت كلها خصائصا ل"داو إلا أنها لو تحلي بها الإنسان صارت أخلاقا حسنة .

ومــبادئ الأخلاقية التي جاء بها لوتس لا شك هي مكارم الأخلاق حتي في نظر الإسلام ودلت علي سمو نفسية لوتس وعن علو روحانيته وأما مكارم الأخلاق في الإسلام فهي أعم وأشــمل مــن ذلــك لأن الإسلام يراعي أمور الدنيا كما يراعي الآخرة وتشتمل الأخلاق الإســلامية علــي الحســنات الدنيوية والأخروية . ويري الإمام الغزالي أن أمهات الأخلاق وأصــولها أربعــة :الحكمـــة والشجاعة والعفة والعدل [٦٥٧] بينما بقية الأخلاق هي ثمراتها أو فــروعها. والحكمـــة يــراد بهــا حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختــيارية والعــدل يراد به حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما علي مقتضـــي الحكمة وتضبكهما في الاسترسال والانقباض علي حسب مقتضاها والشجاعة يراد بهـــا كـــون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها والعفة يراد بها تأدب قوة الشهوة بتأديـــب العقل والشرع [٦٥٨]. وباعتدال هذه الأركان في الإنسان تصدر الأخلاق الجميلة كلها، فباعـــتدال الحكمـــة يحصل حسن التدبير و جودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا أفات النفوس.

وباعـــتدال الشـــجاعة يصدر الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد .

وباعـــتدال العفـــة يصـــدر الســـخاء والحـــياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمســـاعدة والظرف وقلة الطمع [٦٥٩]. فجميع الأخلاق الحسنة في نظر الغزالي ناشئة من هذه الأصول الأربعة .

ونذكـــر فـــيما يلي بعض مبادئها علي سبيل المثال في ضوء القرآن بغض النظر إلي كونها أصولا أو فروعا في عين الغزالي .

---

[٦٥٧] أنظر < إحياء علوم الدين > ،ج:٣،ص:٥٤.
[٦٥٨] أنظر المصدر السابق . ،ج:٣،ص:٥٤.
[٦٥٩] أنظر المصدر السابق . ،ج:٣،ص:٥٤-٥٥.

الوفاء بالعهد :أوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا (الإسراء:٣٤)

النهي عن التكبر : ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا.(الإسراء :٣٧)

العدل : وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربي (الأنعام:١٥٢)
ولا يجرمنكم شنأن قوم علي أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوي.(المائدة:٨)

التعاون علي البر والتقوي : تعاونوا علي البر والتقوي ولا تعاونوا علي الاثم والعدوان (المائدة:٢)

الصبر : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم (الأحقاف:٢٥)
ياأيها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون(آل عمران:٢٠٠)

الصدق : وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا (الأسراء:٨٠)

الإحسان : وأحسنوا إن الله يحب المحسنين (البقرة:١٩٥)
وأحسن كما أحسن الله إليك (القصص:٧٧)

الزهد: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا (الكهف:٢٨)

دفع السيئة بالحسنة: ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون(المؤمنون :٩٦)

التواضع : وعباد الرحمن الذين يمشون علي الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما(الفرقان:٦٣-٦٤)

والقرآن هو خلق الإسلام كما هو خلق النبي محمد صلي الله عليه وسلم فهو مملوء ببيان الأخلاق الحسنة وكذلك الحديث الشريف ونحن نكتفي بهذا القدر علي سبيل المثال من أجل المقارنة بما عند لوتس. ولا نجد خلافا حقيقيا بين مبادئ الأخلاق في الإسلام وفي أفكار لوتس

إلا أن مـــبادئ الأخلاقية الإسلامية أدق وأعم مما عند لوتس .ولعل أكبر الاختلاف يكون في مصـــدر المبادئ الأخلاقية حيث أن مبادئ الأخلاق في الإسلام مأخوذة من الوحي والشرع بينما هي عند لوتس مأخوذة من الطبيعة التي تتجلي فيها خصائص "داو".

ملحق:

بعض الأقوال المؤثورة من لوتس في فنّ الحياة

كــلام لوتــس كلـــه قد يعتبر حكمة أو قولا مؤثورا حيث يحتوي جمالات لغوية وبراعة معنوية ويكشف حقائق عميقة عن جميع مجالات الحياة وقد كان معظم أقواله يتداول علي ألســـنة الناس منذ القديم وقد كتب كلامه علي نمط النثر والشعر ويتيسّر الحفظ والذكر علي اللسان فقلّ من أهل العلم في الصين من لا يحفظ قولا أو أقوال من كتاب (داو ده جين) . ونختار منه ما يعمّ ويشتهر علي ألسنة الناس .

إن الوجـــود والعـــدم يـــتوالدان كما كان الصعب والسهل يتكاملان والطول والقصر يتعاقبان والرفع والخفض يتضامنان والصوت والنطق يتطابقان والأمام والخلف يتتابعان (ف:٢)

لا تجـــل الفضـــلاء حتي لايجاريهم العوام و لا تعز الأشياء النادرة حتي لا تدفع الناس إلي السرقة؛ ولا تبد المغريات حتي لا تضطرب بها قلوب الناس (ف:٣)

كثرة الكلام تؤدي إلي النفاد وإنها ليست أفضل من حفظ التوسط (ف:٥)

إن الحكيم يتخلف عن الناس ولكنه يقدمه غيره إلي الأمام وإنه لا يبالي بنفسه ولكن حفظت حياته (ف:٧)

) يحب الأرض الطيب للبقاء ويحب التعمق عند التفكير ويحب الرحمة عند المعاملة ويحب الأمانة عند الكلام ويحب الإصلاح في السياسة ويحب تقدير القوة قبل العمل و يحب اختيار الوقت قبل الفعل (ف:٨) .

ومن الطريق السماوي إنسحاب بعد النجاح (ف:٩)

أعاني الكوارث لأني أملك جسدا وإذا لم يكن لي جسد فما لي من الكوارث (ف:١٣)

إذا تمسكت بالقانون الماضى تقدر على سيطرة الحاضر (ف:١٤)

(علي الحاكم) قطع القداسة وترك الفطانة حتى يفيد الشعب مائة مرة
(عليه) قطع المحبة و ترك العدالة حتى يعود الناس إلى الطاعة
(عليه) قطع الذكاء و ترك المنفعة حتى ينعدم اللصوص (ف:١٩).

إن كان الانحناء فسيكون الكمال وإن كان العوج فستكون الاستقامة وإن كان الانخفاض فسيكون الامتلاء وإن كان الترك فسيكون التجديد وإن القليل يسهل المنال بينما الكثير يثير الحيران (ف:٢٢)

لا يقوم من يقف على أطراف أصابع القدم ولا يقطع طويلا من يسرع في السير ولا يبصر من يزعم لنفسه البصيرة ولا يشتهر من يزعم لنفسه الصواب ولا يملك المآثر من كان يعتزّ بنفسه ولا يبقى من يفتخر بنفسه (ف:٢٤)

لذلك كان الصالح أستاذا للطالح بينما الطالح عبرة للصالح. ومن لم يعظم أستاذه ولم يتنبه عبرته كان ضالا مهما كان (ف:٢٧).

إن الذين يدعمون سيد القوم ب"داو" لا يقهرون العالم بالجيش لأن جزاء ذلك ميسور. أينما يصل الجيش فثمّ تزدهر الأشواك و يأتي عام مخيف بعد مرور الجيش الجبار (ف:٣٠)

العارف بالناس حكيم والعارف بالنفس بصير والغالب على الناس قوي والغالب على النفس قدير والقانع غني والساعي بالجدّ ذو العزم (ف:٣٣)

إذا قصد قبض أحد يُطلق أولا.
وإذا قُصد تضعيف أحد يقوّى أولا.
وإذا قُصد تعطيل أحد يُنشّط أولا.
وإذا قُصد غصب أحد يُعطَى أولا (ف:٣٦)

إنّ العـزّة مبنية علي الذلّة و الرفع مبني على الخفض ....ولذلك أعلى المدح هو عدم المدح . فلا يريدون أن يكونوا كروعة الزمرد بل يكونوا كغلظة الحجر.(ف:٣٩)

ولما سمع الإنسان العالى عن "داو" يطبّقه بالجدّ ولما سمع الإنسان الواسط عن"داو" يضطرب بين وجوده وعدمه [بين التصديق و التكذيب] و لما سمع الإنسان السافل عن "داو" يضحك عاليا وإنه لا يكون "داو" إذا لم يُضحَك عليه(ف:٤١)

ولا بد من كثرة الدفع من أجل الحبّ الجمّ كما لا بدّ من كثرة الفقدان من أجل الاكتناز الغنى ولذلك لا تصيب الذلّة من يقتنع ولا يصيب الخطر من يعرف الوقوف [عند الحد] (ف:٤٤)

وإذا كانـت الاسـتقامة الأكـبر فكأنها عوج وإذا كان الذكاء الأكبر فكأنه غباوة وإذا كانت الفصاحة الأكبر فكأنها بلادة (ف:٤٥)

الاشتغال بالعلم يزيد الناس يوما بعد يوم والاشتغال ب"داو" ينقص الناس يوما بعد يوم وينقص كل النقص حتى لا يبقى معه إلا عدم الفعل وإنه بعدم الفعل تتمّ جميع الأمور (ف:٤٨)

[قائلا] إن الصالح أحسن إليه كما أن الطالح أحسن إليه كذلك ومن ثم يحصل له الإحسان .

[قائلا] إن الصادق أثق به كما أن غير الصادق أثق به كذلك ومن ثم تحصل له الثقة.(ف:٤٩)

وإذا كـان الإصلاح علي النفس فحقت عليها الفضيلة وإذا كان الإصلاح على الأسرة فاضت الفضـيلة وإذا كان الإصلاح على القرية تبقي الفضيلة وإذا كان الإصلاح على البلد تتوفر الفضيلة وإذا كان الإصلاح على العالم تنتشر فالضيلة (ف:٥٤)

العارف لا يتكلم والمتكلم لا يعرف .(ف:٥٦)

كلما كثرت المحظورات زاد الشعب فقرا وكلما كثرت الأسلحة الصارمة عند الناس زاد البلد فوضى وكلما كثر الذكاء إزدادت العجائب وكلما كثرت القوانين إزداد اللصوص (ف:٥٧)

إنّ الشر معتمد الخير وأنّ الخير مختبئ الشر .(ف:٥٨)

إن حسن الكلام يجلب الاحترام وحسن السلوك يرفع الإنسان (ف:٦٢)

(علي الإنسان) أن يعتبر الكبير صغيرا والكثير قليلا و أن يقابل العداوة بالفضيلة وأن يتغلب علي الصعوبات عند سهولتها و يصنع الكبير من صغره فإن الصعوبة فى العالم تبدأ من السهولة كما أن الأمر العظيم يبدأ من البسيط (ف:٦٣)

إن الشجرة بملئ اليدين نبتت من بذرة صغيرة وأنّ البرج ذا الطبقات التسع ارتفع علي الكومة من التراب وأن القطع لالاف الأميال يبدأ من الخطوة (ف:٦٤)

إن لى ثلاثة كنوز أتمسك بها و أحافظ عليها :الأول يقال الرحمة والثانى يقال التقشف والثالث يقال عدم التقدم علي العالم (ف:٦٧)

العلم بجهل نفسه شرف والجهل عن جهل نفسه مرض (ف:٧١)

إنّ الشبك السماوى واسع عريض ولكن لا يفوته شيء (ف:٧٣)

فكل القوى يقع فى الأسفل بينما كل الليّن يقع فى الأعلي (ف:٧٦)

الكلام الصادق ليس جميلا و الكلام الجميل ليس صادقا .

المحسن لا يغالط بالكلام والمغالط لايكون محسنا والعارف لا يحيط والمحيط لا يعرف (ف:٨١).

الفصل الرابع السياسة

قد ذكرنا في الفصل الثالث أن لوتس تأثر تأثرا عميقا بالطبقة النساك المستورين حتي صار هو نفسه أحدا منهم في آخر حياته.

والذي أدّي لوتس إلي ذلك الموقف من الحياة هو عصره المظلم إذ أن النظام القديم الذي يعتبر نظاما دينيا قد اختلّ وأبطل ولم ينشأ نظام جديد بديلا له والنتيجة من ذلك أن ظهر الفساد في الأخلاق والزيغ في العقائد والضلال في السلوك والصراع في السياسة ووقع الناس في القلق والفوضي. ويروي أن عهد الأسرة "جيو"(Zhou من القرن الحادي عشر قبل الميلاد إلي سنة ٧٧٠ق.م) كانت تحكم بلاد الصين بالنظام الديني حيث يدعي ملوكها بتلقي الأمر من الإله الأعلي في السماء ويحكمون البلاد حسب إرادة الإله ومع سقوط هذه الأسرة في سنة ٧٧٠ق.م لم يعد ينفّذ النظام الديني في المجتمعات الصينيه فيما بعد وإضافة إلي ذلك أن البلاد المتحدة في عهد أسرة "جيو" قد إنقسمت بسقوطها إلي ولايات مستقلة في شكل الدويلات وكانت الولايات تحارب بعضها بعضا . وحسب التسجيل التاريخي ظهرت مائة وأربعون دويلة في عصر "الربيع والخريف " (ما بين سنة ٧٧٠ ق .م وبين سنة ٤٧٦ ق.م) [٦٦٠] وكان الصراع مستمرا بين الدويلات فيتقوي بعضها أثناء الحرب و يضمحل الأخر ولما كان عصر" الدول المتحاربة " (بداية من سنة ٧٧٠ ق.م إلي سنة ٢٢٥ق.م) لم تبق من تلك الدويلات إلا سبعة دول قوية وأثناء هذه الفترة حدثت الحرب أكثر من خمسمائة مرة .

وكان لوتس يعيش في تلك الفترة وقد افتتن بمصائب الحروب حتي وقع هو نفسه في إحدي الوقائع الدامية التي دارت بين أمراء بلده مما أدّاه إلي الفرار من البلد [٦٦١]. ففي هذه الأوضاع المؤلمة قام العلماء داعين إلي تأسيس نظام جديد وإعادة البلاد إلي الأمن والسلامة وكان لوتس وكنفوشيوس وأمثالهما هم الذين يدعون إلي الإصلاح و يقومون به ولكنهم كانوا يسلكون مسالك مختلفة مع وحدة غايتهم .

اختلف لوتس عن كنفشيوس في منهج الإصلاح وكان كنفوشيوس يحاول أن يرجع بالمجتمع إلي نظام أسرة "جيو" التي إنقرضت منذ قرون ولكن من الأسف أنه لم ينجح فلم يقبل أحد من الملوك رأيه في بلده ولا في خارج البلد . وأما لوتس فيري أن المجتمعات القديمة هي المجتمع المثالي حيث يحكمه الحكماء ويكون الناس بسطاء وأصفياء بلا علم ولا طموع ويبدو أن لوتس أراد بهذه المجتمعات ما ظهر قبل أسرة "جيو" وهو عصر يعقد الناس

---

[٦٦٠] انظر له شو جين : < الثقافة الداوية و الحضارة الحديثة > ، مطبعة الجامعة الشعبية بالصين ، بكين ، ١٩٩١م،ص:٢٨٢.
[٦٦١] انظر بحثنا هذا في فصل الحرب .

الحبال لذكر الأحداث والحسابات ولما رأي طموحه السياسية لا تتحقق في حياته اختفي وترك أفكاره إلي العالم منتظرا لعهد يطبّق فيه رأيه.

وقبل أن تفرّغ لوتس للعزلة و الرياضة تطورت في ذهنه خطة كاملة لدولة مثالية وفي الحقيقة كانت دولته هي نموذج لإصلاح المشاكل الواقعية وقد أدخل لوتس فيها كل أفكاره السياسة وطموحاته ولا شك أن فكرة الدولة المثالية تطورت تحت تأثير عناصر مختلفة منها الظروف الاجتماعية و الأوضاع السياسية والأحوال الخلقية وإن دولته مع أنها خيالية تساعدنا علي معرفة المشاكل الإجتماعية التي يعانيها الناس حينذاك كما في نفس الوقت أشارت إلي القضايا التي كانوا يواجهونها .

والتفكيرالسياسي لدي لوتس هو في الحقيقة عبارة عن الخيالات التي تصورها لكي يجعلها دستورا ونظاما لدولته المثالية ومن الأسف أن تفكيره لم يطبق قط في تاريخ الصين الطويل.

بما أن أفكار لوتس في السياسة لم تطبق قط في حياته ولا بعد مماته صارت النظرية السياسية له تصورا خياليا بعيدا عن الواقع ولذلك لا نقارن في هذه النقطة بالإسلام الذي تمكن علي الأرض وعاش أكثر من أربعة عشر قرنا والذي طبق نظامه علي يد رسول الله صلي الله عليه وسلم في دولته الإسلامية بالمدينة المنورة وعلي أيدي خلفائه الراشدين من بعده والذي أقام نموذجا مثاليا للعالم وأنار الدنيا بنوره الساطع . وإنما نريد هنا المقارنة بأحد الفلاسفة المسلمين وهو أبو النصر الفارابي الذي جاء بفكرة كاملة عن دولة ونظامها ولكنها لقت نفس المصير الذي لقت فكرة لوتس وإنها لم تطبق أصلا والجدير بالذكر أن فكرة الفارابي فيها لا تمثّل النظرية الإسلامية الخالصة ولكنها لا تخالف المبادئ الإسلامية وإنما نقارن بينهما لتشابههما في أكثر من وجه واحد.

والحياة السياسية للفارابي تشبه حياة لوتس إلي حد ما فكان الفارابي زاهدا في الحياة وبعيدا عن السياسة ولكنه لشهرته العلمية ومهارته الفنية نال احتراما بالغا من قبل السلطان سيف الدولة الحمداني وكان ذا مقام رفيع عنده وله طول الباع في الشؤون السياسية . وليس لدينا معلومات كثيرة تدلنا بالدقة إلي معرفة كل حياته ولكن من المتأكد أنه ارتحل بلاد كثيرة في حياته إبتداء من بلده فارب في خراسان التركية إلي العراق والشام ومصر و قد شاهد مجتمعات متنوعة و نظم إجتماعية مختلفة ولعله لم يرض عن أحوال المجتمعات حينذاك و أفعال الشعوب وسلوك الملوك فتطورت في ذهنه خطة كاملة لمجتمع فاضل .

وإذا صح القول بأنه كان إسماعيليا باطنيا أو كان من إخوان الصفا فلا بد من أن يكون وراء الفكرته السياسية طموح خطيرة و لعله أراد بذلك إسقاط الحكومة الإسلامية حينذاك وإقامة دولة جديدة نحو ما تقتضيه عقيدته .

وعلي أية حالة فإن الفارابي أتي بمفهوم المدينة الفاضلة وقد جاء تصميمه هذا مشبها في معظم نواحيه لتصميم أفلاطون لجمهوريته مع بعض فروق يسيرة وبهذا نقول بأن الفارابي قد تطور لديه تصور كامل عن الدولة والسياسة .

وكان الفارابي مثل لوتس مزج جميع أفكاره السياسية في الدولة المثالية ولم نعرف أفكاره السياسية إلا عن واسطة معرفة مدينته الفاضلة .

المبحث الأول الدولة المثالية

كثيرا ما نجد أن السياسيين و المفكرين إذا لم يتح لهم فرصة أن يطبقوا أفكارهم ولم تسمح لهم الظروف لأن يحقّقوا طموحهم يلجأون إلي الخيالات و يعلّقون عليها امالهم كما فعله أفلاطون في اليونان القديم و الفارابي في العصور المتوسطة و كارماركس في العصر الحديث وهولاء الناس لم يملكوا دولة ولا شعبا ولم يجدوا فرصة أن يحقّقوا أفكارهم فأطلقوا جواد عقولهم في ميدان الخيال فتخيلوا لأنفسهم دولة مثالية يحققون فيها جميع أفكارهم وقد اشتهر أفلاطون بفكرة الجمهورية و الفارابي بفكرة المدينة الفاضلة و كارماركس بفكرة المجتمع الشيوعي ولكن قلّ من يعرف أن الحكيم الصيني لوتس -- وهو أقدم من جميعهم -- كان علي نفس المنهج و قد تصوّر في أثناء خفائه صورة كاملة للدولة الناجحة التي يعيش فيها الشعب سعداء وتطيب فيها الحياة وسمي لوتس ذلك ب"الدولة الصغيرة مع قلة الشعب " . و قد صوّر لنا لوتس هياكل تلك الدولة بعبارات بسيطة:

[نعم] الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل حتي و لو كان لهم مئات آلة لا يستعملونها وليخش الناس الموت فلا يهاجروا إلى البعيد حتى ولو كان لهم سفن لا يركبون ولهم أسلحة لا يتسلحون وليرجع الناس إلى استعمال عقد الحبال. ليكن طعامهم لذيذا ولباسهم جميلا وليفرحوا بسكناهم ويرضوا عن عاداتهم . و ينظر الناس بعضهم بعضا من الدول المجاورة ويسمعون أصوات الديوك والكلاب و لا يتزاورون بعضهم بعضا أبدا إلى الموت (ف:٨٠)

رسم لنا لوتس بهذه العبارات القصيرة صورة لدولته الخيالية وأحوال معيشة الناس فيها والنص يمثّل دستورا عاما للدولة المثالية عنده وإن الدولة كهذه لم تأت إلي الواقع قط في تاريخ الصين ولكن لها أثرا عميقا في مجال السياسة فيما بعد ويمكننا أن نستخلص أهم خصائص هذه الدولة من أقوال لوتس في نقاط تالية:

(١) دولة صغيرة مع قلة شعبها

إن بلاد الصين التي يعيش فيها لوتس في القرن السادس قبل الميلاد كانت عبارة عن جزء قليل من الصين الحالية وتقع في وسط الصين اليوم علي المناطق الزراعية ما بين النهر الأصفر والنهر "يان تس" (Yang Zi) ويعيش أهلها علي العمل الزراعي وكانوا من طبيعة معيشتهم يتجمعون مجتمعا صغيرا في صورة القرية بين الحقول وكما هو المعروف أن إقتصاد القرية كان قائما علي الإكتفاء الذاتي بحيث يأكل أهلها من منتاجات الأرض ويلبسون من نسج أيديهم .ورأي لوتس أن ذلك هو أجمل الصور للحياة الإنسانية فتمني أن تقوم دولة مستقلة علي غرارها و يرأسها أفضل رجل من سكانها و يكون عدد الشعب قليلا حيث لا يكون عبأ علي الأرض الزراعي ويكون فيها أقل الفتنة وأكثر الأمن وتملؤ فيها السعادة والإنسانية و هذا المجتمع يكون دولة مثالية علي الأرض في عين لوتس .

(٢) تطبيق "داو"

إن "داو" كما ذكرنا ذو معان متعددة ونريد به هنا معني النظام الكامل للمجتمع الإنساني أو هو النظام الذي تتجلي به خصائص "داو" وكان لوتس يعتقد أن"داو" إذا طبق في المجتمع ونفّذ في جميع المجالات لصلحت الدنيا كلها وعاد الناس إلي الرشد والسداد كما يقول:

إن كان فى العالم "داو" يشتغل الجواد فى الحقل وإن لم يكن فى العالم "داو" تضع الخيل حملها فى المعركة (ف: ٤٦).

"لو كان لى علم ضئيل لَسرتُ على "داو" العظيم و لم أخش إلا الضلال .إن "داو" العظيم فى غاية الاستواء ولكن الإنسان يحب الإنحراف " (ف:٥٣) .

و هذه النصوص دلت علي أن "داو" نظام كامل وإذا كان "داو" حاكما حقيقيا في الشؤون السياسية لصلح العالم بنفسه وإذا فات "داو" في أي مجتمع لظهر الفساد فيه وسار علي طريق الهلاك فدعا لوتس إلي التمسك ب"داو" وهو الإله عنده وإلي الاهتداء بهديه في شئون السياسة وحكم البلاد .

وأراد لوتس من هذه النصوص أن يعبر عن أمله أن يعود المجتمع الإنساني إلي حكم "داو" وإلي السياسة العادلة وإلي حالة الأمن والسلامة والسعادة.

(٣) يحكمها الحكيم

دولة لوتس وإن كانت محكومة ب"داو" من حيث المبدأ إلا أنها تحتاج إلي من يدير شؤونها و يدبّر أمورها وبعبارة أخري لا بد هناك من أحد يطبّق "داو" وينفّذه فيها فالملك هو الذي يقوم بمسؤولية الإدارة والحكم . و يري لوتس أن الملك لا يمكن أن يكون أي واحد إتفق بل يجب أن يستأهل بتلك المسؤولية ويستحق الرئاسة روحيا ونفسيا . وقد تصفّح لوتس لأجل ذلك تاريخ الصين بعين الفاحص واكتشف أن الملوك الأكفاء كانوا حكماء كما قال : ولذلك يقول الحكماء : أتمسك بعدم الفعل فينصلح الناس بأنفسهم وأفضّل السكون فيستقيم الناس بأنفسهم ولا أحدث أمرا فيستغنى الناس بأنفسهم ولا أمسك شهوة فينقلب الشعب بسطاء بأنفسهم (ف : ٥٧) .

ولذلك كان من تربية الحكيم تخلية القلوب وإملاء البطون و تضعيف الهمم وتقوية الأبدان حتي لايكون لدي العوام العلم ولا الطمع و يتحذر العقلاء من تصرفاتهم (ف: ٣) .

تدل النصوص علي أن العصور التي يتمتع فيها الناس بكل الخير والسعادة هي عصور يحكمها الحكماء وذلك أن الحكماء لم يحكمهم بالقوانين فحسب بل يربّونهم من ناحية الأخلاق ويجعلونهم بسطاء صادقين فكان مجتمعهم مجتمعا آمنا مطمئنا. ويتمني لوتس أن يعود كل المجتمعات إلي حكم الحكماء وتكون الرئاسة محفوظة للحكماء لا لغيرهم حتي يتمتع الناس بما أعطي لعصور الحكماء من الخير والحسنات.

(٤) المساواة

يتمني لوتس أن تكون دولته سائدة بروح المساواة بأن لا يكون هناك طبقات بين الشعب ولا فضل لأحد علي الآخر وكل واحد بمفرده فرد مستقل بحيث لا يرؤس ولا يرأس ويعمل لمصلحته ولا يخضع لإرادة غيره وحقا أن الحكيم إذا يرأس علي الناس فإنه لا يثقل عليهم بل يتركهم أحرارا كأنه لم يرأس علي أحد .

يري لوتس أن الناس متساوون من حيث الطبيعة فلا بد أن يعاملوا بالمساواة كما قال : لا تجل فضلاء حتي لايجاريهم العوام (ف:٣) .

ففي دولة لوتس كان الناس سواسيا ولا فرق بينهم حتي لا فرق بين الفضلاء والعوام.

هذه الخصائص هي ما يمكننا أن نستخلصه من النصوص السابقة فيما يتعلق بخصائص دولة لوتس وهي تعطينا فكرة عامة عن الدولة المثالية له وهي " دولة صغيرة مع قلة الشعب" و لم يحدد لوتس حجم هذه الدولة ولكن النصوص تشير إلي أنها أصغر ما يمكن وقد تكون قرية أو بلدة أو مدينة أوإقليما .

قيل إن الدولة التي يقولها لوتس ليست دولة بمعني الكلمة بل المراد منها الحكومة المحلية بالحكم الذاتي وكان القدماء يستخدمون "الدولة " علي هذا المعني وخاصة في عصر لوتس وأما الدولة بالمعني الحديث فيعبّر عنها في القديم بكلمة "العالم "[٦٦٢].

و نري أن دولة لوتس مهما كان حجمها فإنها مستقلة كل الاستقلال بحيث أن رئيسها يملك السلطة الأعلي ويحكم دولته بإرادته وليس هناك من هو أعلي منه في البلد . فهي دولة مستقلة ولو كان حجمها صغيرا ولم تكن حكومة محلية تحت رئاسة ملك آخر.

ولا ننسي أن هذه الدولة هي دولة خيالية من صنعة عقل لوتس و ليس لها وجود في الواقع لا في زمن لوتس ولا بعده و لعل السبب في ذلك أن الدولة كهذه قائمة علي أساس الخيالات والطموحات ولا تساير مع الواقع الحقيقي ومن المعروف أن هناك خليج واسع بين الواقع الحقيقي وبين الخيالات فما بني علي الخيالات والتمنيات قد لا يتحقق في الواقع فلا نأخذها علي أنها كانت حقيقة واقعية . ولكن تفكير لوتس بالعكس كشف لنا مساوئ الأحوال السياسية حينذاك ودلّنا إلي بعض الحقائق التاريخية أن المجتمع الذي يعيش فيه لوتس كان يعاني ضغطا وظلما ومضايقة من قبل الحكام ويصيبه فقر واضطراب و بؤس وتعمّ فيهم الخدعة والمكايدة وغيرذلك من المشاكل الاجتماعية والفساد الأخلاقي ولما رأي لوتس نفسه عاجزا عن إصلاحها لجأ إلي الخيال فتخيل دولة يملؤ فيها كل الخير و يمكن تطبيق جميع أفكاره السياسية وطموحاته وآماله .

الدولة عند الفارابي :

يري الفارابي متأثرا بأفلاطون أن الإنسان بفطرته يحتاج إلي دولة يعيش تحت ظلها وكانت الدولة عنده عبارة عن اجتماع الناس في حكم واحد وذلك أن الإنسان من ناحية مادية يحتاج إلي أشياء كثيرة لا يستقل هو نفسه بأدائها ولا ينفرد بالقيام بها بل يعتمد علي جماعة من الخلق يقوم كل واحد بجزء ما يحتاج إليه هو وغيره و يتعاون الجميع بعضهم بعضا في أداء ما يحتاج إليه الجماعة .

[٦٦٢] انظر نان هوي جين : < جين البوذي والمدرسة الداوية > ص:٢٤٢ ، مطبعة الجامعة فو دان ، الطبعة الثالثة عشر ، ٢٠٠٠ م .

ومن ناحية معنوية يري الفارابي أن الكمال أوالسعادة هي غاية ما يسعي إليه الإنسان بطبيعته ولكنه ليس في وسعه أن يبلغ إلي ذلك المقام بجهد نفسه ويقوم هو وحده بجميع الأعمال التي تعبّد إلي تلك الغاية بل يحتاج إلي أفراد كثيرين يتعاون بعضهم بعضا علي تحقيق الغرض الذي طبع عليه .

وبناء علي هذه الحوائج الطبيعية من الناحيتين المادية والمعنوية احتاج الإنسان إلي إجتماع الخلق في صورة الجماعة وهذا الاجتماع هو دولة عند الفارابي . و قال الفارابي :[وكل واحد من الناس مفطور علي أنه محتاج في قوامه وفي أنه يبلغ أفضل كمالاته إلي أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده بل يحتاج إلي قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه وكل واحد من كل واحد بهذه الحال . فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين ، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه فتجتمع مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد جميع ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال ولهذا كثرت أشخاص الإنسان فحصلوا في المعمورة من الأرض فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية] [٦٦٣]

وكلام الفارابي واضح كل الوضوح و لا يقبل مزيدا من التوضيح وإن الاجتماعات الإنسانية قائمة علي ضرورة الحياة وبعبارة أخري أن الدولة هي حاجة أساسية لجنس البشر و يري الفارابي أن هذا الاجتماع قد يكون اجتماعا كبير بعدد هائل من أفراده أو يكون اجتماعا صغيرا بقلة أفراده و كلما ازداد أفراده يكون ذلك الاجتماع أفضل وأكمل ولذلك قسّم الفارابي الاجتماعات الإنسانية من حيث عدد أفرادها إلي كاملة وغير كاملة ثم قسّم الاجتماعات الكاملة إلي مراتب حسب عدد الأفراد كما أن غير الكاملة علي المراتب وفي ذلك قال الفارابي : الاجتماعات الإنسانية ... [منها الكاملة ومنها غير الكاملة والكاملة ثلاث : عظمي ووسطي وصغري . فالعظمي اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة والوسطي اجتماع أمة في جزء من المعمورة والصغري اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة][٦٦٤]. يعني أن الدولة المثالية عند الفارابي هي ثلاث : إجتماع سكان العالم كلهم في دولة واحدة وهي أفضل الدول وأكملها ويليها اجتماع أمّة واحدة كلها في دولة واحدة ويليه اجتماع أهل مدينة واحدة في دولة واحدة .

---

[٦٦٣] أبو نصر الفارابي : < آراء أهل المدينة الفاضلة > ، ص : ١١٧ ، دار المشرق ، بيروت ،الطبعة السابعة ،١٩٩٦م.
[٦٦٤] المصدر السابق ، ص : ١١٧.

أما الاجتماعات غير الكاملة فهي أقل السكان عددا من عدد أفراد المدينة وهي اجتماعات ناقصة كما قال :[وغير الكاملة اجتماع أهل القرية ثم إجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكّة ثم اجتماع في منزل وأصغرها المنزل][665] وبسبب أنها اجتماعات أفراد قليلة لم يجعلها الفارابي اجتماعات مثالية وإنما ذكرها لبيان أنواع المجتمعات الإنسانية الموجودة في الواقع فالدولة المثالية عند الفارابي لها خصائص بارزة لا تشترك فيها غيرها من الدول الخيالية ونذكر فيما يلي :

(١) اجتماع أهل مدينة واحدة

يري الفارابي أن الإنسان بمفرده لا يستقل بتحقيق كل ما يحتاج إليه في حياته المادية والروحية فهو مجبور علي التعاون مع الآخرين في حصول علي كل حاجاته فاجتمع الناس جماعة جماعة لتلك الأغراض وتلك الجماعة شكّلت دولة مستقلة عنده وهي قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة كما ذكرنا والأكبر هو اجتماع أهل الدنيا كلها في دولة واحدة . ولعل الفارابي في هذا قد انطلق من التعاليم الإسلامية بأن يتمني انتشار الإسلام في جميع العالم ويجتمع أهله كله تحت لواء الإسلام خاضعين للخلافة الإسلامية ويري العلماء أن هذا الرأي لم يسبقه أحد من الفلاسفة قبل الفارابي سواء كانوا اليونانيين أوالشرقيين فهو من إبداع الفارابي[666] وهذا الاجتماع يكون أفضل الاجتماعات عند الفارابي ويليه اجتماع آخر وهو جماعة وسطي وأخيرا جماعة صغري بأن يجتمع أهل مدينة واحدة في دولة واحدة . ومن هذه ثلاثة الجماعات الكاملة جعل الفارابي الأخيرة دولة مثالية وسماها المدينة الفاضلة , أهمل الأولين وكان جميع مباحثه السياسية يدور حول المدينة الفاضلة وجعلها أساسا لتعبير عن أرائه السياسية ولعل السبب في هذا الإهمال يرجع إلي أمرين : أولا أن اجتماع أهل الدنيا كلها في دولة واحدة يبدو محالا ومتعذر التحقيق . ثانيا أن المدينة هي الخلية الأولي للمجتمعات الكاملة كما يقول الفارابي : [الخير الأفضل والكمال الأقصي إنما ينال أولا بالمدينة][667] فالكلام عن الأمورالتي يجب أن يتوفر فيها يعد شرحا كافيا لدعائم سائر المجتمعات الكاملة . ولذلك اكتفي الفارابي بالتركيز علي المدينة الفاضلة كدولته المثالية دون القسمين الأولين .

ولا يخفي أن الفارابي في اعتباره المدينة دولة مثالية قد تأثر بأفلاطون ومن المعروف أنه كان مشهورا بفكرة الجمهورية وكانت الجمهورية عنده علي صورة المدينة فتبعه الفارابي في هذا.

[665] المصدر السابق ، ص: ١١٧-١١٨.
[666] < دولة الفارابي>
[667] المصدر السابق ، ص:١١٨.

(٢) مدينة يحكمها نبي

إن المدينة بعد ما تحولت إلي دولة ينبغي أن يتوفر فيها كل ما يجب علي الدولة ومن لوازم الدولة وجود رئيس لها لكي يرأس علي بقية الخلق ويدبّر شؤونهم ويقودهم إلي تحقيق ما طبعوا عليه من السعادة والكمال ولكن الرئيس لا يكون أي شخص إتفق بل يجب أن يكون أفضل الخلق بين سكان المدينة كما يقول الفارابي :[كذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصّه وله من كل ما شارك فيه غيره أفضله][٦٦٨] وهذا الأفضل هو النبي لأنه قد وصل إلي نهاية الكمال للحياة الإنسانية وذلك أنه قد إتحد بالعقل الفعال فأوحي الله إليه بواسطة العقل الفعال فيهدي الناس بالوحي الإلهي إلي سبيل السعادة كما قال الفارابي : [كان هذا الإنسان هو الذي يوحي إليه فيكون الله عز وجل يوحي إليه بتوسط العقل الفعال يكون ما يفيض من الله تبارك وتعالي إلي العقل الفعال يفيضه العقل الفعال إلي عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم إلي قوته المتخيلة فيكون بما يفيض منه إلي عقله المنفعل حكيما فيلسوفا ومتعقلا علي التمام بما يفيض منه إلي قوته المتخيلة نبيا منذرا][٦٦٩]

والمهم أن رئيس المدينة الفاضلة يجب أن يكون نبيا أوحي إليه وقد عرفنا أن رئيس الجمهورية عند أفلاطون كان فيلسوفا وأن ملك الدولة الصغيرة عند لوتس كان حكيما وأن رئيس المدينة الفاضلة يكون نبيا عند الفارابي ولكن كلمة النبي عند الفارابي تشمل معني الحكيم والفيلسوف كما أفاده النص المذكور آنفا كأن كلمة النبي والحكيم والفيلسوف عند الفارابي تعبّر عن وجوه مختلفة لحقيقة واحدة وبذلك قد جمع الفارابي كل أوصاف الملوك السابقين عند لوتس وأفلاطون علي رئيسه بكلمة النبي .

(٣) مدينة محكومة بالشريعة الإلهية

كما سبقنا الذكر بأن رئيس المدينة الفاضلة لم يكن أي واحد بل له شروط ومواهب يستأهل بها الإنسان لأن يكون رئيسا للمدينة وكان من أول شروطه أن يكون نبيا أوحي الله إليه فكان الرئيس النبي يحكم شعبه بما أوحي إليه وبعبارة أخري أنه يحكم دولته بشريعة الله وكانت الشريعة الإلهية بمثابة الدستور لدولته .

وإن دولة الفارابي لو تحققت علي الأرض لكانت دولة إلهية لأن الله هو في الحقيقة مدبّر المدينة كما هو مدبر العالم والرئيس لم يكن إلا خليفة لله علي الأرض .

---

(٦٦٨) المصدر السابق ، ص: ١٢٠.
(٦٦٩) المصدر السابق ، ص:١٢٥.

(٤) الناس علي مراتب

خلافا لدولة لوتس إن أهل المدينة عند الفارابي كانوا علي مراتب بحيث يفضل بعضهم علي بعض حسب طبائعهم وحسب الأعمال التي يقومون بها وفق طبيعتهم وقال الفارابي :[مراتب أهل المدينة في الرئاسة والخدمة تتفاضل بحسب فطر أهلها وبحسب الآداب التي تأدبوا بها والرئيس الأول هو الذي يرتب الطوائف وكل إنسان من كل طائفة في المرتبة التي هي استيهاله ، وذلك إما مرتبة الخدمة وإما مرتبة رئاسة فتكون هناك مراتب تقرب مرتبته ومراتب تبعد عنها قليلا ومراتب تبعد عنها كثيرا وتكون تلك مراتب رئاسات فتنحط عن الرتبة العليا قليلا قليلا إلي أن تصير إلي مراتب الخدمة التي ليست فيها رئاسة ولا دونها مرتبة أخري][٦٧٠] ومدلول العبارة واضح أن الناس باختلاف طبائعهم مرتبون في طبقات مختلفة و متفاضلون بحيث بعضهم في مقام الرئاسة وبعضهم في مقام الخدمة الأخرين وأن الطبقات بحسب قربها إلي الرئيس الأول يتفاضل بعضها علي بعض كذلك .

وبعد عرض موجز لخصائص الدولة المثالية عند لوتس والفارابي يمكننا أن نأتي بصورة مبسطة شاملة لدولتهما فالدولة المثالية عند لوتس :

جماعة من الناس يسكنون في مكان واحد وعددهم قليل وهم يشتغلون بالزراعة كأساس مهنتهم وقليل منهم يشتغلون بالحرف الأخري إما متخصصين أو يعملون في أوقات فارغة بعد العمل الزراعي . وكانت حياتهم معتمدة علي المنتاجات الزراعية وأما الحاجات اليومية الأخري فمصنوعة بأيدي أفراد الجماعة وهي تتوفر لكل واحد من الأفراد عن طريق تبادل البضائع وكان المجتمع يعتمد علي نفسه كل الاعتماد من غير حاجة إلي التعاون مع المجتمعات الأخري وتتحقق كل المتطلبات داخل المجتمع حتي لا يذهب أحد منهم إلي المجتمعات حوله لطلب المساعدة وكانت أصوات الديوك والكلاب مسموعة من المجتمعات القريبة ولا يتزاور أهلهما بعضها بعضا .

وإن الشعب يعيشون حياة سعيدة حيث تتوفر لهم كل لوازم الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب وغيره ويفرحون بما لديهم من جميع النعم فلا يطمعون فيما لغيرهم . والناس بسطاء وأنقياء وهم متساوون ويعيشون أحرارا ويعملون ما يشاؤون و يتعامل بعضهم بعضا بالصدق والأمانة ولا يعرفون كثيرا عن العالم خارج مجتمعهم .

---

[670] < السياسة المدنية > ، ص:٨٣.

ويملك الدولة أحد من الحكماء الذين يتمسكون بعدم الفعل حتي كاد الشعب لا يعرفونه لأنه لا يثقل عليهم بشيء ولا يقيدهم بالقوانين فكأنه لم يكن رئيسا لهم وكان لقلة عدد السكان لا يظهر في المجتمع فساد ولا شرور ويتمتع الشعب بكل الأمن والاطمئنان .

وأما المدينة الفاضلة عند الفارابي فهي :

جماعة من الناس يعيشون في مدينة واحدة وسكان المدينة يتكونون من أصناف الناس ويشتغل كل واحد بنوع من الحرف فمنهم من يشتغل بالزراعة لتقديم القوت لبقية السكان ومنهم من يشتغل بالصناعات ليوفر للناس كل حاجاتهم اليومية ومنهم من يقوم بخدمة الناس ولا بد كذلك ممن يشتغل بالعلم والتعليم وكل واحد من السكان يقوم بدوره لخدمة الآخرين ويشتغل بمهنة ما يلائم لطبيعته ولم تترك أية حرفة من الحرف التي تفيد حياة الناس إلا وقد اشتغل بها بعض الناس فتعددت الحرف وتنوعت المظاهر الاجتماعية و كل واحد من أهل المدينة يتعاون مع الآخرين علي حصول ما يحتاج إليه لحفظ قوامه والوصول إلي الكمال والسعادة . وفي كل الحرفة ظهر من برع بها وصار رئيسا في ذلك المجال .

هكذا يتشكل المجتمع من طبقات الناس يتفاضلون بعضهم علي بعض حسب طبيعة حرفهم وكان الرئيس في القمة فوق جميع الطبقات . والمجتمع يعتمد علي نفسه اعتمادا كاملا حيث أن أهله يقدر علي تكفيل كل ما يحتاج إليه المجتمع .

وأهل المدينة متدينون ويؤمنون بالله ويعيشون حياة طيبة حيث تتوفر لهم كل ما يحتاجون إليه لحياتهم الروحية والمادية وهم يتحلون بمكارم الأخلاق وكانت روح التعاون سائدة في أفعال أهل المدينة ويملكون أصناف العلوم ويعلمون كل ما يقتضيه إيمانهم . والنبي يحكم المدينة بشريعة الله ويحكم بالعدل ولم يظلم أحد منهم .

هذه هي عموم صورة الدولة للوتس والمدينة للفارابي و نري مدي تشابه أفكار الحكيمين فإن الدولة عندهما عبارة عن الاجتماع الطبيعي من الناس إذ يري الفارابي أن الدولة إما مكونة من سكان مدينة واحدة أو قرية واحدة أو سكة واحدة أو منزل واحد[٦٧١] لأنهم قد يجتمعون لإشتراك عاداتهم وتقاليدهم ولإقتراب طبائعهم ولا يخفي أن هذا التقسيم مبني علي الأساس الطبيعي بينما يري لوتس أن الدولة متكونة من أصغر ما يمكن أن يقال له المجتمع وقد يكون اجتماع أهل البلدة أو أهل القرية فهو مجتمع طبيعي وكانت الدولة المثالية عند لوتس هي اجتماع القليل من الناس من غير تحديد الحجم بينما هي عند الفارابي اجتماعة الناس في إطار المدينة ثم إن الدستور في دولتهما لم يكن من وضع الرئيس نفسه ولا من

[671] . اراء اهل المدينة الفاضلة . ، ص : ١١٧ .

الشعب وإنما وضعه الإله ويعبّر الفارابي عن الدستور بالشريعة أو السنة[٦٧٢] بينما عبّر لوتس عن ذلك ب"داو" . ولذلك كانت دولتهما لم يحكمها رجل عادي بل يحكمها الحكيم فيما اشترطه لوتس والنبي فيما اشترطه الفارابي .

إختلف الفارابي عن لوتس في حجم الدولة إذ أن الفارابي كان ذا فكرة العالمية بينما لوتس يفضل فكرة المحلية وكلما كبر الاجتماع يكون ذلك المجتمع أكمل عند الفارابي بينما أصغر الاجتماع يكون أفضل عند لوتس . والدولة المثالية عند لوتس قد لا تكون اجتماعا مثاليا عند الفارابي إذ هي أقرب إلي المدينة الجاهلة عند الفارابي ويري الفارابي من المدينة الجاهلة ما هو يكون التعاون علي إكتساب ما هو ضروري في قوام الأبدان وإحرازه و تكون المكاسب للضروري فيه بصناعة واحدة [٦٧٣] فدولة لوتس في الحقيقة من طراز هذا الاجتماع الجاهل عند الفارابي لأن أهل الدولة عند لوتس يعيش أساسا علي الزواعة وحدها.

ويبدو أن الدولة الصغيرة أكثر بساطة من المدينة الفاضلة إذ أن دولة لوتس كما ذكرنا قائمة علي أساس تحقيق الحوائج الضرورية و يشتغل شعبها بمكسب واحد وهو فلاحة ولم يكن بينهم طبقات إلا رئيس ومرؤوس ولا فضل لأحدهم علي الآخر بينما في المدينة الفاضلة أصناف من الناس يقومون بوظائف مختلفة ويشتغلون بالحرف المختلفة ويتفاضل بعضهم علي بعض حسب الوظائف والذين يقومون بأعمال رفيعة كانوا في طبقات عالية وفي القرب إلي الرئيس الأعلي والذين يقومون بالأعمال الخسيسة هم أراذل الناس وفي كل الطبقة رئيس لذلك الصنف ويكون هناك رؤساء علي المراتب تحت الرئيس الأول الذي يرأس ولا يرأسه أحد [٦٧٤]. ومن الغريب أن الفارابي يسمح للأديان المختلفة أن تبقي في المدينة الفاضلة فكأنه يريد أن يجعل الشريعة الإسلامية حكما عالميا علي جميع الناس .

[672] انظر : أبو نصر الفارابي : < السياسة المدنية > ، دار المشرق ببيروت ص:٨١.
[673] انظر < السياسة المدنية > ، ص: ٨٨.
[674] انظر المصدر السابق ، ص: ٧٧، ٨٣.

المبحث الثاني : رئيس الدولة وأوصافه :

من المعروف أن الصين بلاد قديمة ولها تاريخ طويل ولا نعرف كم مضي من قرون قبل التسجيل التاريخي وكان الصينيون يعتقدون أن ينابيع ثقافتهم ترجع إلي "الملك الأصفر" [٦٧٥] قبل خمسة آلاف سنة أو أكثر [٦٧٦] وكان لوتس وغيره من القدماء يعتبرون عصورما قبلهم كعصور السلف ويعتبرونها رؤوس ينابيع الثقافة الصينية[٦٧٧] ومن ثم جعل لوتس المجتمع القديم أفضل المجتمعات واعتبر الملوك القديمة أفضل الملوك ما ظهر علي الأرض و مدحهم لحسن سياستهم ومهارة تنظيمهم ويري أن العصر كلما كان أقدم كان أحسن ,كان أهله أكثر صفاء ونقاء وكما أن الملك عند أفلاطون لا بد من أن يكون فيلسوفا كذلك كان الملك عند لوتس لا بد من أن يكون حكيما و يري لوتس أن الملوك القدماء كانوا حكماء وكانوا المثل الأعلي للناس ولا سيما قدوة في الحياة السياسية فمن يرأس علي الشعب لا بد أن يمتاز بجودة الحكماء وقد إشترط لوتس علي رئيس الدولة خصائص لا يملكها إلا رجال من الحكماء وهي كما يلي :

(١) التمسك ب"داو"

يقول لوتس : ولذلك كان الحكماء يتمسكون بالواحد و يجعلونه نموذجا للعالم .(ف: ٢٢)

وعلي ما يتفق عليه العلماء أن الواحد في النص يراد به "داو" [٦٧٨] وأن النموذج يراد به قانون أو مبدأ فمعني النص يكون أن الحكماء يتمسكون ب"داو" يعتبرونه مصدرا

---

[٦٧٥] هو ملك في القديم ويعتبر الجد الأعلي للأمة الصينية .

[٦٧٦] قال نان هوي جين في كتابه < جين البونية والداوية > إن تاريخ الصين عند بعض مؤرخين قدماء يرجع إلي قبل مائة وعشرين سنة أو بأكثر تقدير مليون سنة . انظر كتابه ، ص: ١٦١.

[٦٧٧] وقد قسم (نان خوي جين) هذا التاريخ مع طوله إلي ثلاثة مراحل فالمرحلة الأولي هي ما بدأ منذ قدم إلي نهاية الأسرة "جيو" وبتعبير أدق انتهت المرحلة الأولي قبل عصر لوتس وكنفوشيوس ولعل تلك المرحلة تمتاز بنوع من البدائية في نظرنا إلا أن المتأخرين من أمثال لوتس وكنفوشيوس يعتبرونه عصر التقاليد الصينية الخالصة ويعتبرون الأفكار المتطورة منه تقليدا رسميا للثقافة الصينية وقد يمكن أن نقول عنها بعصر السلف للثقافة الصينية فهذه المرحلة لها أهمية كبيرة لما بعدها في تاريخ الثقافة في الصين لأن كل فرقة تزعم فيما بعد بأنها وارثة للتقاليد الخالصة وتعلق أفكارها بهذه الينابيع .
والمرحلة الثانية هي ما بدأت ثقافتها تحت تأثير المرحلة الأولي و نهضتها علي يد أمثال لوتس وكنفوشيوس وأصحاب المدارس الفكرية الأخري إلي تسلط الداوية والكنفوشية والمدرسة "مه " (هي مدرسة فكرية مشهور بقدر شهرة الكنفوشية وأسسها رجل يقال له مه تس يعيش ما بين السنة ٤٧٩ق.م وبين السنة ٣٨١ ق.م . وكان موقفه من الثقافة التقليدية عكس موقف كنفوشيوس منها إذ أنه يعارض التقاليد بينما كنفوشيوس يحافظ عليها) وانتهت هذه المرحلة تقريبا مع نهاية القرن ما قبل الميلاد وأما المرحلة الثالثة فهي ما تطورت الثقافة واختلطت المدارس بعضها في بعض و ظهرت الكنفوشية والبونية والداوية كفرق رئيسية في مسرح الثقافة و يعارض بعضها بعضا حينا ويقتبس بعضها من بعض حينا آخر و استغرقت هذه المرحلة من بداية التاريخ الميلادي إلي العصر الحديث .
وهذا التقسيم لتاريخ الثقافة الصينية يبدو موضوعيا فيما أري وإن كان علي وجه التقريب و إنما ذكرنا هذا التقسيم هنا لنثبت أن الثقافة الصينية نهضت في عصر لوتس وكنفوشيوس وما بعدهما بقرون وكانت النهضة لم تأت من الفراغ بل غرز أصلها في الينابيع القديمة أو كانت النهضة هي إمتداد من تطور المرحلة الأولي كما أن كل من لوتس وكنفوشيوس وغيرهما كانوا يأتي بشيء جديد بنسبه إلي عصر السلف .

[٦٧٨] انظر تشين قو يين : < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ١٥٤ ، دار الكتب الصينية ، ١٩٨٥م.

الحكم ثم يطبقون قوانين "داو" علي البلد وغاية ما في الباب أن قوانين "داو" يجب أن تكون دستورا للعالم كله وللدولة المثالية علي الأخص .

والتمسك ب"داو" خصلة مهمة للرئيس الحكيم وتترتب عليها سلامة العالم وصلاح الشعوب إذ لو تمسك به الرئيس لعاد الشعب إلي طريق الصواب والرشاد كما يقول لوتس : ثم الحكام إهتدوا إلي الواحد فصلح العالم(ف:٣٩) بمعني أن الملوك في العصور القديمة كانوا يعرفون "داو" ويؤمنون به ويتمسكون بقوانينه ولذلك إنصلح العالم بنفسه فعلي حاكم في أي عصر من العصور أن يتمسك ب"داو" و يحكم به دولته حتي يعود العالم إلي الرشاد .

(٢) عدم الفعل

عدم الفعل كما ذكرنا هو العمل الموافق لطبيعة الأشياء بلا تفريط ولا إفراط أو ترك الأشياء علي طبيعتها . وهو أهم أوصاف الحكماء ويري لوتس أن غاية ما يصل إليه الإنسان في الرياضة هو عدم الفعل بل هو بداية الطريق الذي يؤدي إلي الغاية الأسمي الحياة وهي الاتحاد .

وأما عدم الفعل إذا تحقق علي الرئيس الحكيم فيظهر عليه أنه لا يعمل شيئا خلاف رغبات الشعب وطبائعهم ولا يبدع أمورا تثقل علي الناس و تفتنهم .

يري لوتس أن الفساد كله ينشؤ من الطبقات العليا ثم يعمّ نازلا إلي الشعب فكان الحكام هم مصادر الفتن والبلاء وإذا صلح الحكام ينصلح الشعب بأنفسهم وإذا سلم الحكام أمن الشعب فطلب لوتس من الحكام أن يصلحوا أنفسهم أولا بكل الوسائل ويعتقد أن عدم الفعل هو خير الوسيلة للإصلاح فدعاهم إلي التمسك به وقال :

يقول الحكماء أتمسك بعدم الفعل فينصلح الناس بأنفسهم (ف:٥٧)

يعني أن الملوك الحكماء ينبغي أن يحافظوا علي مبدأ عدم الفعل ولا يعملوا أعمالا تناقض مصالح الشعب ورغباتهم ولايثقلوا عليهم بشيء فاستقام الشعب بأنفسهم .
ثم إن عدم الفعل قد يظهر في صور متعددة منها السكون وعدم إحداث الأمور وعدم الشهوة ولعل كل هذه جانب من جوانب عدم الفعل لأنها تمتاز بطبيعة عدم الفعل و قال لوتس علي لسان الحكماء:

" وأفضل السكون فيستقيم الناس بأنفسهم ولا أحدث أمرا فيستغني الناس بأنفسهم ولا أمسك شهوة فينقلب الناس بسطاء بأنفسهم" (ف: ٥٨)

أكّد لوتس في النص أهمية السكون واعتبره مناطا لاستقامة الشعب وسلامة البلد لأنه عكس الفوضى والفتنة كما دعا إلي عدم أحداث الأمور كنوع من عدم الفعل وهو يعني ألا يصدر القرارات واحدا تلو أخر و لا يزعج الناس بإثارة الحرب والفتن ولا يثقل عليهم بالرسومات والضرائب حتي لا يشعر الشعب بوجود الحكام لأن أفضل الحكام عند لوتس هو من سلم الشعب من فتنته وأذاه ولا يشعرون بوجوده[٦٧٩].

والنص كذلك يركّز علي عدم الشهوة كجانب من جوانب عدم الفعل وإنما يركّز لوتس علي هذا لأن الشهوة دفعت الملوك إلي الحرب والإحتلال وهي أصل الفتن ولذلك أراد لوتس من رئيس دولته أن يذكّي نفسه من الشهوات ويبتعد عنها لكي يحذو الشعب حذوهم حتي يأمن الجميع .

(٣) حمل المسئولية

إن الرئيس هو مسئول عن رعيته في كل حالات خيرا أو شرّا ويري لوتس إذا أصاب الشعب خير يرجع فضله إلي الشعب فقط وإذا أصابهم شرّ فالرئيس هو المسئول وهو الأثم ولا يلام إلا هو ويرجع إليه ذنبهم ولذلك يجب علي الرئيس أن يعرف جميع مسئولياته و يتحملها عن الشعب إذا أراد أن يكون رئيسهم ويقول لوتس :

من يتحمل الذلّة عن البلد يستحق أن يكون سيدا له ومن يتحمل شقاوة البلد يستحق أن يكون ملكا له (ف:٧٨)

بمعني أن الرئيس يكون أول من يتذلّل إذا ذلّ الشعب و أول من يتحمل الشقاء إذا شقي أهل البلد ويجب أن يعترف بأن الذنب كله يرجع إلي نفسه لا إلي الشعب .وخير ما يشرح هذا النص قول "جوان تس " وهو أشهر وارثي فكرة لوتس إذ قال : إن سيد القوم في

---

[٥٧٠] كما قال لوتس :

"ومن ثم لما يرأس الحكماء في الأعلى لا يشعر الناس بثقلهم في الأسفل ولما يقعون في الأمام لا يشعر الناس بالضرر منهم (ف:٦٦)

وقوله : إنه ندر كلامه حتى إذا اكمل الأمور لم يشعر بها الناس فيقولون نحن كنا كذلك (ف:١٧)

يعني إذا صار الحكماء ملوكا لا يثقلون علي الناس بإحداث الأمور الفارغة ويتمسكون بعدم الفعل والسكون حتي إذا عملوا ما يوافق طبيعة الأشياء و بهذا الفضل انجزوا شيئا لم يشعر الشعب بجهد الملوك فيه فيظنون أن الأمر يجري هكذا تلقائيا ويقع عليهم طبيعيا

القديم إذا حصل له شيء ينسبه إلي الشعب وإذا فاته شيء ينسب الخطأ إلي نفسه وكان ينسب كل الصواب إلي الشعب وكل الباطل إلي نفسه "[٦٨٠]. وقال نفس الكلام كنفوشيوس عن الملوك السابقين علي لسان أحد الملوك :" إن ذنبي عليّ لا علي الشعوب وإذا كان عليهم ذنب فهو عليّ "[٦٨١].

الحاصل أنه من كان رئيسا للدولة عليه أن يتحمل كل الشقاوة والذلّة عن الشعب و لا يكون جبارا ومتفوقا عليهم في كل شيء ويتحمل كل مسؤولياته حتي يتحمل مسؤوليات غيره كما يقول قول مأثور : يحزن قبل ما يحزن العالم و يفرح بعد ما فرح العالم .

(٤) الاستقامة

يقول المثل الصيني : "إذا لم يستقم الأعلي ينحني الأسفل " إشارة إلي أن من يقوم مقام الرئيس يلعب دورا حاسما للمرئوسين وأن تصرفاته سوف تأثر في سلوكهم وإن كان خيرا فخير وإن شرّا فشرّ وإذا كان الحكام لا يبالون بالشرور في الأخلاق والفساد في السلوك فما بال الشعب ولذلك يري لوتس أن الرئيس في دولته المثالية يجب أن يكون مستقيما وليس هذا فحسب بل عليه أن يحافظ علي مبدأ الاستقامة عند وضع السياسات حتي ينجو البلد من الفساد والشرور وقال لوتس :(عليهم) حكم البلد بالاستقامة (ف :٥٧)

يدل النص علي أن الاستقامة هي من أهمّ خصائص رئيس الدولة المثالية كما هي في نفس الوقت مبدأ رفيع من مبادئ السياسة . وقال " خه شان قون" شرحا لهذا النص :" إن السماء(يعني الإله) يرسل رجلا مستقيما ليملك بلدا "[٦٨٢] و من القدماء الصينيين لم يكن لوتس وحيدا يدعو إلي الاستقامة بل كان كنفوشيوس كذلك يدعو إلي ذلك وروي أنه لما سئل عن السياسة قال : إن السياسة هي الاستقامة "[٦٨٣] و كأن الاستقامة هي مبدأ وحيد السياسة الناجحة ونعرف من هذا مدي إهتمام القدماء بالاستقامة وإنما دعا لوتس إلي الاستقامة لكونها توافق مبادئ "داو" .

كما أن الحكيم هو المثل الأعلي عند لوتس ويستحق هو وحده أن يكون رئيسا كاملا الدولة المثالية كذلك اعتبر الفارابي النبي أو الفيلسوف المثل الأعلي في الحياة و رأي أن النبي أو الفيلسوف الحكيم هو وحده يستحق أن يكون رئيسا للمدينة الفاضلة . وقد

---

[٦٨٠] جوان تس : < جوان تس . ، الفصل زه يان .
[٦٨١] كنفوشيوس : < الحوار > ، الفصل قول "يو
[٦٨٢] خه شان قون : <تفسير خه شان قون > ، ص: ٢٢٠.
[٦٨٣] : الحوار > ، فصل يان هوي .

اشترط الفارابي علي الرئيس شروطا منها ما يتعلق بالجسم ومنها ما يتعلق بالعقل و منها ما يتعلق بالأخلاق و كانت الشروط عنده اثنتي عشر[٦٨٤] :

١-- تام الأعضاء ، ٢-- أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور ، ٣ -- أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه ، ٤-- جيد الفطنة ، ذكيا ، ٥ -- أن يكون حسن العبارة ، ٦-- أن يكون محبا للتعليم والاستفادة ، ٧-- غير شره علي المأكول و المشروب والمنكوح ، ٨-- أن يكون محبا للصدق وأهله ، مبغضا للكذب وأهله ، ٩-- كبير النفس ، محبا للكرامة ، ١٠-- الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده ، ١١-- أن يكون بالطبع محبا للعدل وأهله ومبغضا للجور والظلم وأهلهما ، ١٢-- قوي العزيمة علي الشيء جسورا عليه ،مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس [٦٨٥].

فرئيس المدينة الفاضلة يكون مفطورا علي هذه الأوصاف ومن المعروف أن رئيس المدينة هو أفضل البشر بين سكان المدينة وهو المثل الأعلي للناس كما أن الحكيم كان ملك الدولة الصغيرة وهو المثل الأعلي عند لوتس ولكن حسب الخصائص المذكورة نلاحظ هنالك فرق بين رئيس الدولة الصغيرة وبين رئيس المدينة الفاضلة وذلك أن رئيس المدينة قوي العزيمة وقوي النفس و جسور علي الأشياء و مقدام إلي الخطرات بينما الحكيم عند لوتس ضعيف النفس و لين القلب ولا يتقدم علي الناس وكذلك أن رئيس المدينة هو حسن التعبير وطليق اللسان بينما يري لوتس ذلك من علامات النقص في حق الحكماء وأن رئيس المدينة يميل أكثر إلي التعلم والتعليم بينما الحكيم عند لوتس يميل إلي التأمل والرياضة .

الملوك علي المراتب :

الخصائص المذكورة تخص بالرئيس المثالي في الدولة الخيالية ويتمني لوتس أن يخرج رجل من هذا الطراز ليكون رئيسا لدولته المثالية ولكنه يعلم أن الرجل علي الأوصاف المذكورة متعسر الوجود في الواقع فرأي هناك ملوك علي مراتب وكان المثل الأعلي هو أعلي رتبة بين الملوك مع أن هناك ملوك أدني منه و يقول لوتس : المنتهى الأعلي لا يُعرَف وجوده[٦٨٦] ثم يتقرب إليه بالمدح ثم يخشي ثم يطعن فيه (ف:١٧) .

---

٦٨٤ .. آراء أهل المدينة الفاضلة :> ، ص: ١٢٧ .
٦٨٥ المصدر السابق ، ص: ١٢٧-١٢٩.
٦٨٦ هناك خلاف بين نسخ < داو ده جين > فيما يتعلق بهذا النص وجاء النص في بعض النسخ بعبارة " المنتهي الأعلي يعرفه

لقد ذكرنا عند ترجمة هذا النص أن العلماء اختلفوا في المراد من كلمة "المنتهي الأعلي" [٤٧] ورأي معظم العلماء بأن المنتهي الأعلي هو أفضل الملوك . وحسب رأيهم أن النص يصف لنا أصنافا من الملوك ويميّز الملك الفاضل من غيره كما يلي :

(١) أفضل الملوك هو من كان جالسا علي عرشه ساكنا وهادئا وحاول أن يمسك الأشياء علي طريقها الطبيعي دون التدخّل فيها بنفوذه و حاول أن يخفّف أثره علي الناس ويسهّل الأمور عليهم حتي لا يشعر الشعب بوجوده ، ويعيشوا أحرارا دون أدني الضغط والمضايقة من قبل الملك و هذا طبعا لا يعني إلغاء نظام الملك وتعطيل الحكومة بل يشير إلي أهمية الهدوء والسماحة وعدم التشدد علي الشعب ممن كان يرأس علي الدولة.
وهذا الملك هو الملك الحقيقي للدولة المثالية عند لوتس .

(٢) الملك علي الدرجة الثانية هو من يحب الشعب و يعتني بهم ويهتم بشئونهم حتي تدخّله في حياة الناس عرفه الشعب و اعترفوا بفضله وكان تدخّله في حياتهم تدخّلا إيجابيا حسنا لم يشعر الشعب بالضيق منه ولا الضغط ومن ثم كنتيجة من ذلك يعزّزه الشعب ويمدحونه لفضله .

(٣) الملك علي الدرجة الثالثة هو من كان يتدّخل في شئون الناس ويوسّع نفوذه في حياتهم ويقيّدهم بشيء من القوانين أو الحدود أو يشدّد عليهم بشيء من التخويف أو كان يظهر هيبته أمام الشعب فخافوا علي أنفسهم من أذاه و المهم أنهم قد أحسّوا بالمضايقة منه فلم يرضوا عنه .

(٤) الملك علي الدرجة الرابعة هو أسوأ الملوك علي الأرض وهو من كان يشدّد علي الشعب ويتصرّف بما يخالف مصالحهم و قد أحسّ الناس بضرر كبير منه فأخذوا ينتقدونه و يستخفّونه ويلعنونه .

وهذه هي المراتب للملوك عند لوتس وأعلاها يكون أفضلهم ويكون رئيسا للدولة المثالية ويكون حكيما وأما بقية الأصناف فهم لم يبلغوا درجة الحكماء فليسوا من الرؤساء المثاليين ولعل لوتس توصّل إلي هذا التقسيم إستقراء من أحوال الملوك السابقين .

السافلون " بمعني أن أفضل الملوك هو من كان الشعب يحس بوجوده فقط ولكن أري أن هذا المعني يناقض مدلول العبارة الأخيرة من النص وهي " حتي إذا أحمل الأمور لم يشعر بها الناس فيقولون نحن كنا كذلك " ويدل هذا الكلام علي أن الشعب لم يعلموا بوجود الملك مع حصول فضله العظيم عليهم فاخترنا ما ترجمناه . انظر الصفحة ( ) من هذا البحث .

[٤٧] نحن علي الرأي بأن المنتهي الأعلي هو الإله الأعلي وهو "داو" بينما يراه معظم العلماء أنه أفضل الملوك ، راجع الشرح للفصل السابع عشر من نصوص · دام ده جين > .

،سنيا أن يخرج علي الأرض رجل من طراز الصنف الأول كي يقود الناس إلي حياة طبية . وقد نشعر بأن الملك الموصوف بالأفضل عند لوتس ليس له وجود في الواقع ومن جانب أخر أن الملك من الصنف الأول وإن كان موجودا فليس بأفضل ممن في الدرجة الثانية فيما يري كثير من الناس ونحن معهم إذ أنه لولم يكن له أي أثر علي الناس خيرا أو شرّا فما قيمة وجوده وإذا لم يشعر الناس بإحسانه عليهم فكان سواء عليهم عدمه ووجوده ، وربما يكون عدمه أولي من وجوده لأن الناس قد يشعرون بحرية أكثر و يتمتّعون باستقلال أتمّ و بتخلص من كل القيود والمحظورات . ولكن حسب مذهب لوتس وهو مذهب طبيعي كان الملك من الطراز الأول هو الحكيم و أفضل من الثاني لأن حكم الأول ينطبق تماما بمبادئ طبيعية وأن الثاني وإن كان خيرا إلا أنه قد أدخل عناصر إنسانية في الحكم وأفسد طبعية السياسة فهو أدني من الملك من الأول عند لوتس .

كذلك نري الملوك عند الفارابي علي مراتب ويبدو أن أعلاهم هو الرئيس الأول أو واضع النواميس وهو الذي اتحد بالعقل الفعال فما يفيض من الله إلي العقل الفعال يفيضه العقل الفعال إلي عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم إلي قوته المتخيلة فصار نبيا أو ما يفيض من الله إلي العقل الفعال يفيضه العقل الفعال إلي عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد فصار حكيما فيلسوفا . فالنبي أوالفيلسوف في رأي الفارابي هو شخص مؤهل لرئاسة المدينة الفاضلة وكل ما بينهما من فارق أن الأول يحظي بإتصال بالعقل الفعال عن طريق القوة المتخيلة والثاني عن طريق البحث والنظر [٦٨٨]، و سماهما الفارابي واضع النواميس أو الرئيس الأول فمعني الفيلسوف والرئيس الأول وواضع النواميس معني واحد [٦٨٩] وهم في درجة واحدة مع النبي .

ثم الدرجة الثانية من رئيس المدينة هو خليفة الرئيس الأول وهو الذي لم يتّصل بالعقل الفعال [٦٩٠] ولم يتلق الوحي من العقل الفعال بل [يدبر المدينة بالشرائع المكتوبة المأخوذة عن الأئمة الماضين][٦٩١]. وسمّاه الفارابي بملك السنة [٦٩٢] فإذا خلا عصر ممن تتوفر فيه شروط الرئيس الأول فيجوز أن يدبر ملك السنة شؤون المدينة بالشرائع التي دبّرها ورسمها الملك الأول .

---

٦٨٨ انظر حنا الفاخوري و خليل الجر : < تاريخ الفلسفة العربية > ، دار المعارف ، بيروت ، ص: ١٥٤.

٦٨٩ انظر أبو نصر الفارابي : ، كتاب تحصيل السعادة > ، ص: ٩٣.

٦٩٠ الدكتور مصطفي شاهين : ، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام > ، ص: ١٦١ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع .

٦٩١ أبو نصر الفارابي : < السياسة المدنية > ، دار المشرق ،بيروت ص:٨١.

٦٩٢ انظر المصدر السابق ص:٨١.

يري الفارابي أن هؤلاء هم رؤساء راشدون للمدينة الفاضلة وأما غيرهم من الملوك إذا تولي رياسة المدينة فهم ملوك غير أكفاء حتي أن خلو المدينة منهم أولي من رئاستهم عليها[٦٩٣] .

الرئيس المثالي عند لوتس وإن كان حكيما قد إتحد ب"داو" إلا لم يثتب أنه تلقي الوحي منه فهو إذن في مرتبة الفيلسوف عند الفارابي لا في مرتبة النبي .

أما الصنف الثاني من الملوك عند لوتس فهو قد يكون مقبولا عند الفارابي إذ هو يشبه الصنف الثاني عنده الذي يحكم بالشرائع السابقة ويحكم بالعدل .

وبقية أصناف الملوك عند لوتس لم يكونوا ملوكا مثاليين عنده كما أنهم في عين الفارابي لا يكونون إلا ملوكا لمدن جاهلة فاسقة ضالة .

المبحث الثالث مبادئ السياسة

إن لوتس يعيش في عصر كان القلق والاضطراب والفوضي في مجال السياسة قد وصل إلي الأوج حتي فرّ صاحبنا لوتس من هذه المفاسد السياسية وما يتبعها من الفساد الأخلاقي والاجتماعي وكما قلنا أن السبب في ذلك هو إنحلال النظام القديم وعدم إقامة الجديد بعد سقوط الأسرة "جيو" التي قد وصلت إلي الوحدة السياسية وحكمت بنظام ديني ومن ثم كان البلد قد إنقسم إلي الولايات المستقلة علي أيدي الإقطاعيين بعد حروب دامية وتحاول كل الولاية أن تبني لنفسها نظاما جديدا فتعددت أنواع النظم في البلاد وكان الناس لم يرضوا عن واحد منها ولم يرضوا عن الأوضاع السياسية والإجتماعية حينذاك فقام جهابذة من العلماء والحكماء أخذوا يقدّمون آراءهم لإقامة النظام الجديد وإصلاح المفاسد الإجتماعية . و من أوائل هولاء الحكماء كان لوتس وكنفشيوس ، يري كنفوشيوس أن نظام الأسرة "جيو" المسقوطة هو أفضل النظم علي الأرض فيجب أن يعود إليه بينما لوتس يري أن العصور القديمة التي يحكمها الحكماء كانت خير القرون وحكمهم كان أفضل الحكم الذي ظهر علي الأرض ولذلك دعا بالعودة إلي نظام الحكماء السابقين باعتبارهم المثل الأعلي للناس وقدوة حسنة في كل مجالات ولا سيما في المجال السياسي .

---

[٦٩٣] انظر : آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص: ١٣٠ .

ومن ثم كان لوتس يستقي من حكمة الحكماء في مجال السياسة ويستمدّ هم في وضع المبادئ السياسية ويتمني أن يعود المجتمع إلي عهد حكم الحكماء حتي يتمتع الشعب بكل ما أوتي للشعوب السابقية تحت ظل الحكماء من خير ونعم . ونذكر، فيما يلي ، مبادئ مهمّة إستمدّها لوتس منهم :

(١) المساواة:

إرتفع صوت " المساواة " في العصر الحديث حتي يظن بعض الناس أنها مبدأ جديد علي صعيد السياسة وقد جعلها معظم الناس في العالم اليوم شعارا لهم ضد الحكم العبودي وضد الحكم البيورقراطي . ولكننا نجد فكرة المساواة كانت موجودة عند القدماء في الشرق في أقدم العصور وليست حديثة كما يزعم .

ويثبت لنا التاريخ البشري أن الإنسان في حداثته قد مضي دهرا يعيشون فيه احرارا تحت ظل القبيلة أو الأسرة ويتمتعون بكل الحريات ولم تكن هنالك طبقات يتميز بها واحد من الآخر وكان يفعل كل واحد ما يشاء ولا يجبر علي طاعة أحد. ولعل هذه الصورة من المساواة كانت سائدة في مجتمعات البدائية قبل التاريخ .

ومن المتوقع أن هذه المساواة قد إنتهت بظهورالدولة التي فيها حاكم ومحكوم و فيها الرعية والأشراف علي مختلف الطبقات لأن ذلك من ملزمات الحكومة ولما طال وجود الدولة واشتدت نفوذها توسع الفراغ بين الطبقات وقلت المساواة بين الناس ... ومن الطبيعي أن المجتمع إذا فقدت فيه المساواة يظهر الفوضي والفساد . ولعل لوتس كان يعيش في مجتمع كهذه الحالة وكانت مسؤوليته الاجتماعية دفعته إلي الصياح بإصلاح تلك الحالة فرفعت قضية المساواة ودعا إليها .

و لعل لوتس من أقدم الدعاة بمبدأ المساواة وكانت دعوته قائمة علي أساس مراعاة الطبيعة إذ يري أن عدم المساواة لا يوافق النظام الطبيعي لأن الطبيعة تعامل الناس معاملة واحدة دون التفرقة فالسياسة الناجحة لا بد من مراعاة هذا المبدأ و يقول لوتس . لاتتعاطف السماء والأرض فتعتبر الكائنات كلبا عشبيا و لا يتعاطف الحكيم فيعتبر الشعب كلبا عشبيا (ف:٥)

يعني أن النظام الطبيعي لا يميل إلي نوع معين من الكائنات بالنفع أو الضرّ وإنما يعامل جميع الأشياء معاملة واحدة [٦٩٤] ولذلك كان الحكماء السابقون لا يميلون إلي أحد بالحب

---

[٦٩٤] انظر شرح النص في الصفحة ( ) من هذا البحث .

الخاص تمثلا بطبيعة السماء والأرض بل يعاملون الناس جميعا معاملة واحدة دون تفضيل بعضهم علي بعض .

وإن النص لا يتضمن معني تحقير الشعب[٦٩٥] بل عبّر بذلك عن الحب المطلق والمساواة الكاملة كما قال أحد العلماء تعليقا علي النص المذكور :" يمدح لوتس الطبيعة لما فيها من عدم الفعل و الحرية والمساواة ويتمني من الملوك أن يحذوا حذو الطبيعة في حكم البلاد حتي يعاملوا الشعب كما تفعله الطبيعة وهذا ليعبر عن أمل لوتس للمجتمع المثالي الذي فيه الحرية والحب المطلق والمساواة "[٦٩٦].

ويثبت لوتس بهذا النص أن الإنسان سواسي أمام الطبيعة حيث أنهم يواجهون نفس الظروف الطبيعية ولهم نفس الفرصة للحياة وإنما يتفاوتون لأسباب الوضعية غير الطبيعية مما أديّ إلي الفساد في الأخلاق والقلق في المجتمع والتكالب علي المنصب والجاه ولذلك أراد لوتس أن يوجّه الناس إلي المساواة .

ولكن لوتس بسبب تؤكيده للمساواة ذهب إلي المساواة المطلقة التي يتعذّر تحقيقها في العالم الواقعي . قال لوتس : لا تجل الفضلاء حتي لايجاريهم العوام (ف:٣) .

أراد بهذا أن الشعب لابد أن يكونوا علي السواء و في مرتبة واحدة ولا يكون الفرق بينهم حتي أن الحكماء يكونون مع عامة الناس في منزلة واحدة . ولا يخفي أن هذه الفكرة نشأت مقاومة لضد الجوّ السياسي في زمنه إذ كان الأشراف يتمتعون بكل الرفاهية والنعم جيلا بعد جيل بينما يعاني بقية الخلق إلي الأبد . ولذلك دعا لوتس إلي التسوية المطلقة.

وقد لا نوافق لوتس علي المساواة المطلقة إذ أن التسوية بين الحكماء والجهلاء ليست من مقتضي الحكمة ولا ينطبق مع مبدأ العدل . وقد دافع بعض الناس عن لوتس قائلا : "إن الحكماء لابد من أن يجلّوا ويعلم كل واحد بذلك ولكن نتيجة إجلالهم تعود إلي تكالب الشهرة وإيثار الفتنة ولذلك أراد لوتس أن يبعده "[٦٩٧]. بمعني أن لوتس أراد الابتعاد عن النتيجة السيئة ولم يرد إهانة الفضلاء .

وعلي كل حال لا يستوي العالم والجاهل ولا يستوي الفاضل والفاجر فالتسوية المطلقة ليست مقبولة علي أي الأساس في نظرنا.

---

[٦٩٥] قال خه شان قون : إن السماء والأرض أنجبتا الكائنات وكان الإنسان أفضلها ومع ذلك تراه السماء والأرض كلبا عشبيا ولا تريدان منه الشكر وإن الحكيم يعتني بالشعب ولا يحسن إليهم بالفضل وفقا لطبيعة السماء والأرض و تركا علي راحتهم ويعتبرهم كلبا عشبيا ولا يرجو منهم مراسم الشكر والتقدير . أنظر < تفسير خه شان قون > ص: ١٨.

[٦٩٦] قو دين يي : < دراسة داو ده جين > ص: ٨٤ ، مطبعة معهد الإذاعة بكين ، ١٩٩٩م.

[٦٩٧] دراسة داو ده جين > ، ص: ٧٠.

(٢) وحدة السياسة

يري لوتس أن الكون كله خاضع طبيعيا لقوانين "داو" فهذه القوانين تغطّي جميع أجزاء الوجود وجميع مجالات الحياة فكل جزء من الكون لا ينفصل بعضه عن بعض تحت هذا النظام الكلي فإذا حرّف أي جانب من جوانب الحياة بالقوة الإنسانية عن نظام "داو" فقد ضلّ عن طريقه الطبيعي وفسد .ولذلك قال لوتس : إن النظام الأعظم لا يتجزأ (ف:٢٨) .

القصد من النص أن نظام "داو" نظام جامع وشامل ويعمل خفيا في كل الحركات الطبيعية فيجب أن يطبق هذا النظام الكلي في جميع مجالات الحياة حتي تتناسق الحياة الإنسانية مع الطبيعة. ولما كانت السياسة هي أهمّ جوانب الحياة الإنسانية ينبغي أن يجري فيها نظام "داو" كاملا ولا يخرج أي جانب من جوانب الحياة من النظام الكلي ولا يجوز أن يفصل منه أو جزؤه عن أية قضية من القضايا ويبدّل بنظام بشري وإلا فقد فسدت طبيعة الأمر ولايعقب إلا الفشل.

ثم إن السياسة مجال مستقل من مجالات الحياة فهي كوحدة من وحدات النظام الكلي ولذلك يجب أن يتناسق جميع المقومات فيها بعضها مع البعض بتطبيق قوانين "داو" وبعبارة أخري أن جميع المقومات السياسية في داخل هذه الوحدة يجب أن يتبع قانون "داو" بحيث لا يعطل نظام "داو" في أية قضية من قضايا السياسة ولا يجوز من أي جانب من جوانبها أن يخرج من النظام الكلي ولذلك عندما شرح " تشن قو يين " النص المذكور قال : "إن السياسة الكاملة لا تتقطّع "[٦٩٨] .

فنريد من وحدة السياسة أن يكون مجال السياسة مجالا متكاملا حيث يتناسق كل أبعاده بقوانين "داو" ويكون هذا المجال كوحدة واحدة متكاملة.

(٣) الرفقة والرحمة

لم يزل الناس حتي عصر لوتس يتذكرون سقوط الأسرة " شان " (Shangمن القرن السابع عشر قبل الميلاد إلي القرن الحادي عشر قبل الميلاد) علي يد ملك جائر يقال له " شان جيو" (Shang Zhou) وكان آخر ملوك تلك الأسرة . ويحكي أنه كان رجلا قاسيا وفاجرا ونال شعبه من قسوته البؤس والشقاء و الجور ما لم يسبقه في العالم وكان الناس لشدة البغض عليه يتمنون إزالته من عرشه وإتفق أن شبّت الحرب بينه وبين دولة

[٦٩٨] تشين قو يين: < لوتس شرحا وتعليقا > ص: ١٨١ ، دار الكتب الصينية ، ١٩٨٥م .

ـجاورة فضمّ جميع شعبه إلي جنود العدو وساعدوهم ضدّ ه لإسقاط سلطته حتي قضوا ليه وعلي ملكه وأصبح هو فيما بعد مضرب المثل في القسوة والشدّة كما صار سقوط حكمه عبرة خالدة لمن يأتي بعده من الحكام .

وكان لوتس طبعا يعرف تلك الحادثة معرفة دقيقة فيري أن الوسائل الشديدة مثل القسوة و القهر والبطشة لا تنفع في السياسة ولا تدفع الشعب إلي الطاعة بل من العكس أن الشعب لا ينكسون رؤوسهم أمام الظلم والاضطهاد ولعل ذلك يدفعهم إلي الثورة والمقاومة ويضطرّهم إلي العداوة والعناد مما يؤدّي إلي إهانة السلطة و تحقير الدستور .

ومن الطبيعي أن الظلم إذا بلغ إلي قمته يخاطر الناس بحياتهم علي ضدّ الحكومة ومقاومة الظلم وإن التحمل للظلم أو الصبر عليه إذا تجاوز الحد يتدفّق الغضب كالسيل الذي لا سبيل الي تسكينه و قال لوتس : لو كان الشعب لا يخافون التخويف فينزل عليهم البلاء العظيم (ف: ٧٢) . والبلاء العظيم يراد به الفتنة والفوضي [٦٩٩] وقيل هو رجس من السماء [٧٠٠] فمعني النص : أن الناس لو فقدوا الخوف علي أنفسهم لشدة الظلم عليهم ليلجأون إلي كل الوسائل لمقاومة الظلم وبذلك سوف يصيبون البلاء لأن من عادات الملوك الفجّار في مثل هذه الحالات يفوّضون الأمر إلي السيف والقتل وكم مرة شاهد التاريخ وقائع من هذا القبيل ولكن كلما اشتدّ الجور والظلم إشتدّت الثورة والمقاومة معه لأن الناس يستخفّون الحياة ويهينون الموت عند غاية الشقاء فيعمّ البلاء في البلد حتّي لا ينفع القتل كما قال لوتس :

لو كان الشعب لا يخافون الموت فكيف يخوفون بالموت ؟ فلو كانوا يخافون الموت إذن نقبض علي المجرمين ونقتلهم فمن يجرأ بعد ذلك (ف: ٧٤) .

معني النص : من سوء طرق السياسة أن يخوّف الشعب بالموت والعذاب وإنّ التخويف بالموت قد ينفع في وقت يتمتع الناس بالسعادة والنعم ويرضون عن الـتهد ، أما في وقت الشدة و الذلة فلن ينفع التخويف لمن يستخفّ الحياة لأنهم لم يعودوا يبالون بالموت لشدة البؤس والشقاء فالتخويف بالموت لا يكون أسلوبا عاقلا في السياسة .

و إنطلاقا من هذه الحقيقة دعا لوتس إلي الرفقة والرحمة ويعتبرهما مناطا لصلاحة الشعب وأساس الأمن والسلامة وقال : في سماحة السياسة يستقيم الشعب و في قساوتها يحايلون (ف: ٥٨) ويدلّ النص علي أن الحكام إذا يعاملون الشعب بالسمح والرفقة

[٦٩٩] انظر أقوال العلماء في < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص:٣٣١.
[٧٠٠] انظر < دراسة داو ده جين > ، ص:٣٨٠.

رعاملهم الشعب بالطاعة والقبول كرد الفعل كما يقول "تشن قو يين" : " إن لوتس يفضّل سياسة عدم الفعل ويري أنّ جوّ السماحة السياسية يجعل عادات الناس صافية وحياة الناس نقية وأن المجتمع علي هذا النمط قد يستطيع أن يسير علي طريق الأمن والسلامة "[٧٠١].

فالسياسة يجب أن تقوم علي مبدأ السمحة والرحمة حتي يشعر الشعب بالحرية كما ينبغي لأن القسوة والشدة والغلظة وغيرها لا تنطبق مع خصائص "داو" الذي من أهمّ خصائصه اللين والرخاء .

(٣) حفظ البساطة

إن لوتس إنطلاقا من مذهبه الطبيعي دعا إلي التمسك بأصل الطبيعة في كل شيء ومن المعروف أن أصل الطبيعة لكل شيء هو الصفاء والبساطة . ويري لوتس أن البساطة لم تكن أصل طبيعة الأشياء فحسب بل هي أهم المبادئ التي يجب أن يراعيها الإنسان في جميع الأمور فلم ينس لوتس هذا المبدأ عندما يضع السياسة لدولته المثالية وقال :حكم البلاد بالذكاء يكون بلاء لها وحكم البلاد بلا ذكاء يكون سعادة لها (ف:٦٥) والذكاء عند لوتس يرادف الخدعة والمكايدة وهو عكس الصدق والبساطة[٧٠٢] و يري أن البساطة في الحكم تعود علي الناس بالسعادة والسلامة بينما الخدعة التي تخالف مبادئ "داو" تعود عليهم بالفساد والفتنة . ولعل لوتس قد رأي نجاح بعض من كان يحكم بالبساطة من الملوك القدماء أو كان من مجرّد تصوره يعتقد أن مبدأ البساطة يؤدّي إلي السعادة والنجاح فقال : إن الذين يحسنون الإشتغال ب"داو" في القديم لا يجعلون الناس بصراء بل يجعلونهم جهلاء وإنما تصعب سيطرة الناس لكثرة ذكائهم (ف: ٦٥)

الظاهر من النص أن لوتس يعارض العلم والحضارة ويدعو إلي الجاهلية والسفاهة وقد فهم كثير من الناس علي هذا النحو منذ القديم ولكن انتقد هذا الفهم الخاطئ جماعة من العلماء في العصر الحديث مؤدّاه أن الجهل هنا لا يراد به الخلو من العلم والمعرفة بل هو يرادف الصفاء والبساطة والسذاجة كما قال أحد الشراح لكتاب" داو ده جين" : لا يجوز لنا أن نفهم عبارة "يجعلونهم جهلاء " علي أنها تعارض الذكاء والبصارة للشعب وتدعو إلي الجهل والحقيقة أن لوتس أتي بكلمة " الذكاء " بدلا من الخدعة و "الجهل " بدلا من الفطرة "[٧٠٣] وقال (تشين قو يين) : إن الناس قد أساؤوا ظنهم في مراد هذا النص وظنوا أن

---

701 : لوتس شرحا وتعليقا ، ص: ٢٩٤.
702 المصدر السابق ص: ٣١٣-٣١٥.
703 دراسة داو ده جين > ، ص:٣٥١-٣٥٢.

اوتس يدعو إلي الجاهلية ولكن الجهل عند لوتس في الحقيقة يراد البساطة الحقيقية وكان اوتس يتمني للشعب البساطة الحقيقية بل يتمني للحكام أن ينصلحوا بالبساطة الحقيقية ..... , النص يدلّ علي أن البساطة الحقيقية (الجهل) هي حالة رفيعة لتهذيب شخصيات الحكام المثاليين ولكن هذه الدعوة تؤدّي بالسهولة إلي سوء النتيجة من الإضلال "[٤٠١]

وعلي كل حال إن كلام لوتس قد أثار سوء الفهم ولكن الحقيقة أنه يدعو إلي البساطة الفطرية و كان يتمني أن يطبق مبدأ البساطة في دولته المثالية فالبساطة هي من أهمّ مبادئ السياسة عنده .

(٤) حب الشعب

" يجب حب الشعب كحب الأبناء " وهذا هو شعار مشهور في ميدان السياسة بالصين منذ القديم وكانت العبارة أعلي الشرف يمدح بها حاكم لعدالته في القضاء وحسن تنظيمه في الشئون الإجتماعية ولذلك يقال لحاكم عادل "الحاكم الوالد " ويقال لشعب " الأبناء" وهو عبارة عن أن الحكام بالنسبة إلي الشعب في منزلة الأب والأم من الأولاد , أن الشعب كأهله وعياله فيجب علي الحاكم أن يحب شعبه كمحبة الأبوين لأولادهما.

ولكن لوتس لم يقف إلي هذا الحد بل كان يطالب من الحكام أكثر من ذلك بأن يحبوا الشعب كحب أنفسهم . وقال لوتس : و من ثم من كان يهتم بالعالم كاهتمامه بنفسه يستحق أن يولي عليه لأمور العالم و من كان يحب العالم كحبه لنفسه يستحق أن يوكل عليه العالم (ف: ١٣)

والإنسان قد لا يحب الأخرين حتي لا يحب أولاده أحيانا ولكن قلّ من يكره نفسه , الحب لنفسه يكون ناشئا من الفطرة ويظهر هذا الحب من حيث لا يشعر فكان لوتس يطالب من الملك أن يتجاوز رغباته الشخصية أو كراهيته ويتجاوز جميع الشهوات حتي يجعل الشعب أعزاء لديه ويبذل كل جهده لهم ولأجلهم ويحب لهم كل ما يحبه لنفسه .

(٥) الديموقراطية أو الشوري

لقد ظهرت في بداية القرن العشرين تيارة في الصين يقال لها حركة الثقافة الحديثة التي دعاها العلماء الذين تعلّموا في الغرب ومن تأثروا بهم وكانت الحركة ترفض

---

[٤٠١] : لوتس شرحا وتعليقا ، ص: ٣١٥.

جميع القيم التقليدية الصينية وتقبل الثقافة الغربية عمياء و كانت من الأفكار المستوردة فكرة الديموقراطية واعتبرها هولاء كمبدأ رفيع من مبادئ السياسة أو إنتاج حضاري في مجال السياسة . ولكنهم غفلوا عن حقيقة أن أسلافهم قد قدّموا للعالم نفس الفكرة قبل خمس وعشرين قرنا ولو راجع هولاء فكرة لوتس بالنظر الدقيق لوجدوا في ذلك عجبا إذ أن فكرة الديموقراطية واضحة عند القدماء إذ قال لوتس :

الحكماء...... بما أنهم لا يدّعون لأنفسهم فطانة كانوا على بصيرة ولا يدّعون لأنفسهم صوابا فاشتهروا ولا يعتزّون بأنفسهم فكانوا ذوى المآثر ولا يفتخرون بأنفسهم فبقوا (ف: ٢٢)

بمعني أن الحكام القدماء لا يزعمون الفطانة والذكاء ويحترمون آراء الآخرين ولا يستبدّون في الحكم والقضاء وكانوا لا يزعمون الصواب لأنفسهم بل يستمعون إلي الآخرين ويشاورونهم في الأمور .

و هذا ليس إلا نوعا من الديموقراطية في صورتها الأولي إذا كان الديموقراطية هي ضد الاستبداد، ففكرة الديموقراطية ليست جديدة في الفكر الصيني وقد عرفها القدماء منذ العصور المبكرة . ولعل فكرة لوتس في هذا أقرب إلي الشوري في الإسلام .

وكان لوتس يطلب من الرئيس في دولته المثالية ألا يستبدّ ولا يعتبر نفسه معيارا في كل شيء بل يجب عليه أن يشاورالآخرين ويأخذ آراء هم ويسمع صوت الشعب حتي يستقيم الحكم وأمور الدولة .

(٦) توفير وسائل العمل للشعب:

يقول النص : حتي و لو كان لهم مئات آلة لا يستعملونها(ف:٨٠).

السكان في الدولة الصغيرة يكون فلاحين يعيشون علي إنتاج الأرض فكانت مهنتهم الرئيسية هي عمل في الحقول و كانت الآلات الزراعية هي ما لا بد لهم فالدولة الصغيرة ينبغي أن توفّر للشعب كل ما يحتاجون إليه من الآلات الزراعية .

والنص لايعني عدم استعمال الآلات مع وجودها بل يعني توفرها عند الشعب ولعل (وان بي)[٧٠٥] قد أصاب حين شرح هذه العبارة قائلا :" يملك الشعب مئات آلة ولا يستخدمونها فكيف يخشي فقرهم"[٧٠٦] فعدم الاستعمال لا يدلّ علي تعطيل العمل بل علي غناهم وعلي كثرة الآلاتَ حيث يستعمل بعضها ويترك أكثرها في الخزانة .

---

[٧٠٥] هو عالم مشهور في القرن الميلادي، و شارح لكتاب "دلو ده جين " .

[٧٠٦] وان بي : < تفسير وان بي > ، النص منشور في < ماذا يقول لوتس فعلا > ،قوه شي مين ، ص: ٣٨٦.

(٧) إقناع الناس بحالتهم:

يقول النص : وليخش الناس الموت فلا يهاجروا إلى البعيد ولو كان لهم سفن لا يركبونها(ف: ٨٠).

يعني أنه من مسؤولية الدولة الصغيرة أن تجعل حياة الناس سعيدة وتقدم لهم كل ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية حتي يرضوا بما لديهم ولا يفكروا في الهجرة .

ومن الطبيعي أن الإنسان يعزّ الحياة ويحمي نفسه في حالة الرفاهية والسرور ويتمني لنفسه سعادة إلي الأبد بينما يستخفّون الحياة عند الشقاوة باعتبارها فاقدة القيمة .

فينبغي للدولة الصغيرة أن تكفّل للناس سعادة وأمنا حتي يشعروا بأنهم في أحسن حالة من سائر البشر فلا يشتاقون إلي ما لغيرهم ولوكان لهم كل وسائل النقل لا يستخدمونها للفرار من البلد الأصلي .

ومن المعروف أن الهجرة غالبا عبارة عن الفرار من الفتنة والظلم والجور ويتصور لوتس أن الدولة الصغيرة ينبغي أن تكون بريئة منها كما برأت القري من هذه الشرور فلا يهاجر الشعب إلي مكان بعيد لم يطمئنّوا فيه علي أنفسهم وحياتهم فليعتبر الناس أنفسهم في أحسن الوضع والآخرين في الشدّة والفقر وليقتنعوا بما يتمتعون به من النعم والغني .

(٨) تهذيب الأخلاق

يقول النص : وليرجع الناس إلى استعمال عقد الحبال(ف: ٨٠).

معناه : ليعود الشعب إلي ما كان عليه الناس قبل ظهور الحضارة المادية و عبارة " استعمال عقد الحبال " تعني عهد قديم كان الناس يعقدون الحبال للحساب وذكر الأحداث كما تفعله مجتمعات الصين في العصر البدائي .

قيل إن لوتس بهذه العبارات يدعو الناس بالعودة إلي الجاهلية وإلي العهد البدائي وأنه يعارض جميع المنتاجات الحضارية [٧٠٧].

ولكن الحقيقة كما يري بعض العلماء أن لوتس أذكي من أن ينكر فضل الحضارة ويرفض المنتاجات الحضارية لأن دولته المثالية لم تزل مملوئة بالمنتاجات الحضارية من الآلات و الوسائل ولم ينكر لوتس فوائد تلك الوسائل والأهمّ من ذلك أن فكرة الدولة والنظام والمبادئ الخلقية كلها من نتيجة الحضارة و هذا ليكفي أن يدافع عن لوتس بأنه لم يدع إلي الجاهلية والبدائية ولكنا نري أنه بتلك العودة لم يرد العودة من ناحية

[٧٠٧] انظر في < لوتس شرحا وتعليقا > ، ص: ٣٥٨.

الحضارة المادية وإنما يدعو بالعودة إلي العهد البدائي من ناحية روحية وخلقية ولا يخفي علي أحد جانبي الحضارات . وكأن لوتس أراد أن يجنب الجوانب السلبية من الحضارة المادية حين يعترف بإجابياتها ويحاول أن يعود إلي المجتمع البدائي من ناحية الأخلاق .

(٩) تطوير الحضارة المادية والمعنوية

يقول النص : ليكن طعامهم لذيذا ولباسهم جميلا وليفرحوا بسكناهم ويرضوا عن عاداتهم(ف: ٨٠).

من لوازم الحياة الإنسانية طعام وشراب ولباس وبيت وهذه حوائج أساسية لهم و من المعروف أن العوام لا يطالبون أكثر من الحوائج الأساسية كما قال كنفوشيوس " إن العوام يتخذون الأكل إلها " أي أن الإله هو أكبر شيئا عند العلماء والشرفاء. وأن الأكل هو أكبر شيء عند العوام وإذا توفّر لهم الطعام والشراب فقد تمكن لإسكاتهم .

ويري لوتس أن الدولة إذا كفلت لشعبها ما يحتاجون إليه من لوازم الحياة فقد سلطتهم وأنشأت في قلوبهم الاطمئنان والسكينة والثقة فلا يخرج من يقاوم الحكومة ويثور علي الحكام.

نلاحظ هنا أن النص لم يدع إلي كفالة اللوازم المادية فحسب بل يدعو إلي حضارية معنوية راقية من اللذة في الأكل والجمال في اللبس والحرية في اتباع العادات .

ومن الطبيعي أن الشعب في الدولة كهذه لا يفكرون في الثورة ولا الخروج علي الحكام . ومن هنا نري أن الكلام الذي قيل بأن لوتس يعارض الحضارة ليس له أساس متين لأن النص هذا يدلّ بالوضوح علي أن لوتس لم يعارض لذة الأكل وجمال اللبس ومتعة السكني والرضا عن التقاليد وهذه ليست إلا مقوّمات الحضارة .

(١٠) الاستقلال

يقول النص : ينظر الناس بعضهم بعضا من الدول المجاورة ويسمعون أصوات الديوك والكلاب و لا يتزاور الشعب بعضهم بعضا أبدا إلى الموت(ف: ٨٠).

هذه العبارة إن دلت علي شيء فإنما تدلّ علي استقلال الدولة المثالية والحكم الذاتي فيها وإن الدولة المثالية تعتمد علي نفسها كل الاعتماد من غير حاجة إلي مساعدة الآخرين ومعاونتهم وتقوم بكل أعمالها بنفسها .

وفكرة لوتس هذه تدلّ من جانب علي عناية الدولة بحياة الشعب بأن تجّهز لهم كل الحوائج ولكن من جانب اخر تدلّ علي عدم التفتح في السياسة بأن تحاصر حياة الناس في ارض صغير وتقيد أفكارهم في حدود ضيقة حتي لا يزور الناس من الدول المجاورة بعضهم بعضا وذلك أن لوتس يري لو كان الناس يتزاور بعضهم بعضا ويتبادلون الأفكار سوف يصبحون أذكياء وكاما يعرفون أكثر يطالبون أكثر ولا تنتهي المطالبات وأن العلم لا يزيدهم إلا القلق والاضطراب و الشهوات المادية وهذا رأس الفتن فيما يري لوتس ولذلك منع المزاورة بين الشعوب وأراد لوتس بذلك أن يجعل دولته دولة مستقلة كل الاستقلال.

وبعد هذا الدراسة التحليلية لا داعي لنا أن نبرّئ لوتس من التهمة التي وجّهت إليه بأنه يدعو إلي تعطيل الحكومة وإلي العودة إلي الحياة البدائية وإن فكرة "الدولة الصغيرة مع قليل الشعب" هي لكافية للدفاع عن لوتس من تلك التهمة إذ أن الدولة وما فيها من المبادئ السياسية والأخلاقية كلها ليست إلا منتاجات الحضارة . والتهمة ليس لها أساس أمام هذه المبادئ .

ويبدو أن الدولة المثالية عند لوتس أقرب إلي المدينة الجماعية عند الفارابي ولكنها عنده من الاجتماعات الجاهلة وكانت المدينة الجماعية في تصور الفارابي هي [التي كل واحد من اهلها مطلق مخلّي لنفسه يعمل ما يشاء وأهله متساوون وتكون سنتهم أن لا فضل لإنسان علي إنسان في شيء أصلا ويكون أهله أحرارا يعملون ما شاؤوا ولا يكون لأحد من أحد منهم ولا من غيرهم سلطان إلا أن يعمل ما تزول به حريتهم] [٧٠٨] . وهذه الأوصاف تنطبق تماما علي الدولة الصغيرة عند لوتس.

ولا شك أن دولة لوتس فيها شيء من الجاهلية إذ أننا لا نوافق علي السياسة الإغلاقية بسدّ أبوابها ومنع التبادل وهذا نوع من الجاهلية والتجهيل وليس لنا إلا أن نعترف بتخلّفها من ناحية التطور التاريخي إذ أن الرغبة في معرفة الجديد هي من طبيعة الإنسان وهو حق لكل واحد وليس لأحد حق أن يمنعه من هذه الحقوق بأية وسيلة وإن التجهيل قد يفيد الحكام مؤقتا لأغراض سياسية ولكنه لن يفيدهم في كل الحالات وإن المعلومات لا بد من النشر ولا يصده أحد فإغلاق باب الدولة لتجهيل الناس لن ينطبق مع الحكمة من نظرة التطور الاجتماعي.

---

[٧٠٨] . السياسة المدنية > ، ص: ٩٩.

إن الفارابي لم يذكر في كتبه كثيرا عن مبادئ السياسة و لمّح إلي بعض منها ولعل السبب في ذلك يرجع إلي أن المبادئ السياسية عنده هي شريعة الإسلام نفسها ما دام يؤمن بالإسلام و بختم النبوة كأنه اكتفي بما جاء في الشريعة وعلي كل حال يمكننا أن نستخرج بعض المبادئ السياسية من أقوال الفارابي :

(١) تحصيل السعادة

يمكننا أن نقول بأن تحصيل السعادة هو أساس فلسفة الفارابي إذ يعتبره ما يطلبه الإنسان بطبيعته ويسعي إليه بفطرته كما هو غاية ما تهدف إليه أفعال الإنسان . فالسعادة هي مبدأ من مبادئ سياسته كما هي مبدأ حياته ويري الفارابي أن الإجتماعات الإنسانية الكاملة ، سواء كانت اجتماع أهل المعمورة أو اجتماع الأمة أو اجتماع أهل المدينة، إنما اجتمعوا لغرض لم يكن غير تحصيل السعادة و أشار إلي ذلك بقوله :[وكل واحد من الناس مفطور علي أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلي أشياء كثيرة لايمكنه أن يقوم بها هو وحده بل يحتاج إلي قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه وكل واحد من كل واحد بهذه الحال .... فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية] [٧٠٩] فأساس الإجتماعات هو أن كل فرد من أفراد المجتمع يحتاج بعضهم إلي بعض وغاية الإجتماع هي حفظ قوام الإنسان نفسه ووصول إلي الكمالات وكان الكمال عند الفارابي هو عبارة عن السعادة [٧١٠] فغاية الإجتماعات في الحقيقة هي حصول السعادة ولم تكن سعادة في الدنيا فحسب بل سعادة في الدارين فالسعادة هي من المبادئ الأساسية لقيام الدولة .

(٢) الوحدة

قد شبّه الفارابي المدينة الفاضلة بجسد واحد وكما للجسد أعضاء داخلية وخارجية وبعضها أهمّ من البعض كذلك في المدينة الفاضلة فإن لها أصناف من الناس ويتفضل بعضهم علي بعض وأنهم علي طبقات مختلفة يقومون بالوظائف التي طبعوا عليها وإن للجسد عضو رئيسي وسائر الأعضاء تعمل خادمة له وكذلك للمدينة رئيس يرأس علي بقية الخلق و يقول الفارابي :[وكذلك المدينة ، أجزاؤها مختلفة الفطرة ،متفاضلة الهيئات وفيها إنسان هو رئيس وأخر يقرب مراتبها من الرئيس وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلا يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس وهولاء هو أولو المراتب الأول ودون هولاء قوم يفعل الأفعال علي حسب أغراض هولاء وهولاء هم في الرتبة الثانية ودونهم أيضا من يفعل الأفعال علي حسب

---

[٧٠٩] المصدر السابق ص: ١١٧.

[٧١٠] قال الفارابي في كتاب تحصيل السعادة : إن كل موجود إنما كوّن ليبلغ أقصي الكمال الذي له لن يبلغه بحسب رتبته في الوجود الذي يخصه فالذي للإنسان من هذا هو المخصوص باسم السعادة القصوي . (< كتاب تحصيل السعادة > ، الفارابي ، ص: ٨١ .

أغراض هولاء . ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلي أن تنتهي إلي أخر يفعلون أفعالهم علي حسب أغراضهم ، فيكون هولاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ويكونون في أدني المراتب ويكونون هم الأسفلين][٧١١]. وقال كذلك :[فإنه (الرئيس) متي أراد بعد ذلك أن يحدد وصية أو في أمر أراد أن يحمل عليه أهل المدينة أو طائفة من أهل المدينة وينهضهم نحوها أوعز بذلك إلي أقرب المراتب إليه وأولائك إلي من يليهم ثم لا يزال كذلك إلي أن يصل ذلك إلي من رتب للخدمة في ذلك الأمر فتكون المدينة حينئذ مرتبطة أجزاؤها بعضها ببعض ومؤتلفة بعضها مع بعض ومرتبة بتقديم بعض وتأخير بعض][٧١٢] وكلام الفارابي واضح أن المدينة الفاضلة وإن كان فيها عدد كبير من السكان وهم علي المراتب يعملون إلا أن جميع سكانها كجسد واحد يرتبطون برئيسهم ويعملون علي مختلف المراتب لغرض الرئيس ويمتثلون بأوامره نازلة عليه بواسطة المراتب السابقة وبذلك تتحد المدينة الفاضلة وهي وحدة واحدة .

(٤) التعاون

ان المدينة الفاضلة هي اجتماع أهل المدينة وإنما اجتمعوا لحاجة بعض أفرادها إلي البعض فيما يقوم به لحفظ قوام نفسه وحصول علي السعادة وذلك أن الإنسان بنفسه لا يمكن أن يقوم بكل ما يحتاج إليه بل يستعين بالآخرين لينال بعض ما يقومون به مما يحتاج إليه هو نفسه فكان الاجتماع عند الفارابي قائم علي أساس التعاون بين الأفراد كما قال: [فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال][٧١٣].

فالتعاون هو أساس اجتماع البشر سواء كان في صورة أهل مدينة واحدة أو في صورة الأمة أو صورة أهل قرية واحدة ومن المتوقع أنه إن لم يكن هناك روح التعاون والتناسق بين السكان لما استطاع الناس اجتماعا علي هدف معين ويدل هذا علي أن أهل المدينة الفاضلة كانوا في مستوي مترق علي مدارج الأخلاق بحيث لهم شعور جماعي ويضحي مصلحة نفسه احيانا من أجل المصالح الجماعية حتي يتناسق الجميع ويتقدم المجتمع بالأمن والسلامة .

(٥) العدل

---

٧١١ . آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص:١١٨-١١٩.
٧١٢ السياسة المدنية ، ص ٨٣.
٧١٣ آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص:١١٧.

يبدو أن العدل عند الفارابي علي نوعين: العدل الطبيعي والعدل في المعاملة فالعدل الطبيعي هو أن الإنسان يختلف واحد عن آخر بطبيعته وكل واحد مفطور علي طبيعة معينة فمراعاة هذه الطبيعة هي العدل كما قال الفارابي :" كل ما في الطبع هو العدل".[٧١٤]

وأما العدل في المعاملة فهو ما قد عرفناه من معاملة المثل بالمثل كما يطبق في معاملة البيع والشراء ورد الودائع أو عدم الغصب وعدم الجور وغير ذلك [٧١٥] ولكن الفارابي يري أن هذا النوع من العدل يستعمله الخائف الضعيف لأنه ناشئ من ضعف القلب وخوفه وأما القوي فيقهر وذلك هو عدله.[٧١٦]

ولعل العدل الطبيعي عند الفارابي قد لا يوافقه لوتس ونحن معه بوجه من الوجوه وذلك أن الفارابي من منطلق العدل الطبيعي يري أن السلامة والكرامة واليسار واللذات وغير ذلك من النعم هي ما تشتهيه نفوس الناس بالطبع ولكن هذه الأشياء يصعب منالها ولا يحصل عليها إلا بالتغالب فالتغالب من أجل هذه الأشياء هو العدل عند الفارابي وهذا يخالف مبدأ عدم النزاع عند لوتس. ثم إن الإنسان من خلال التغالب يسلب أحد الجانبين ما عند الآخر ويصير فائزا فالعدل هو أن يقهر الفائز خصمه حتي يهلكه أو يستعبد الفائز مقهوراً ويفعل به القاهر كل ما هو الأنفع لنفسه أويفعل المقهور ما هو الأنفع للقاهر[٧١٧] وهذا ما كرهه لوتس أشد الكراهية ولعنه أشنع اللعنة .

لا يخفي أن الدولة المثالية عند لوتس والفارابي تقوم علي ضرورة طبيعية وهي حفظ قوام البشر من ناحية مادية ومن جانب آخر تحقيق المتطلبات الروحية وهي تحصيل السعادة لشعبها غير أن السعادة عند لوتس تبدو محصورة في السعادة الدنيوية بينما السعادة عند الفارابي تشمل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة معا وإن الفارابي في هذا ملتزم بتعاليم الإسلام التي تراعي الفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة .

و يبدو أن الخلاف بين دولة لوتس ومدينة الفارابي في أن المجتمع الصيني كان مجتمعا زراعيا ويقوم الأكثرية العظمي من سكانها بالزراعة فدولة لوتس تمتاز بخصائص الثقافة الزراعية بينما مدينة الفارابي أكثر مدنيا إذ فيها جميع الصناعات والفنون فالمدينة عنده تمتاز بخصائص الثقافة الصناعية التجارية .

ثم إن دولة لوتس أقل تعقيدا من مدينة الفارابي إذ أن سكان الدولة يشتغلون أساسا بالزراعة واقتصادهم معتمد علي أعمال أيديهم و قائم علي أساس الإكتفاء الذاتي وكان

---

714 المصدر السابق :١٥٧.
715 انظر المصدر السابق :ص:١٥٧.
716 انظر المصدر السابق :ص:١٥٧.
717 انظر المصدر السابق :ص:١٥٧.

الناس متساوين في درجة واحدة فكلما قلّ عدد سكانها كثر خيرها وأما سكان المدينة فهم يقومون بمختلف الحرف والمهن و فيهم طبقات حسب طبيعة المهنة وكل واحد يحتاج إلي معاونة الآخرين في حياتهم فكلما إزداد عدد السكان كان المجتمع أكمل حتي لو كان العالم كله خاضعا لرئيس واحد لكان أفضل الاجتماعات الإنسانية عند الفارابي , الدولة المثالية عند لوتس قد يعتبرها الفارابي المدينة الجاهلة .

يتفق الفارابي مع لوتس علي أن الدولة يجب إقامتها علي صورة طبيعية إما في صورة العالم أو صورة اجتماع الأمة أو صورة المدينة أو صورة القرية ولم يذكر لوتس هذه الصور إلا أن مذهبه يقتضي ذلك لأنه يطلب الطبيعية في كل شيء فهذه الصور الطبيعية من الإجتماعات الإنسانية تطابق مبادئ لوتس لقيام الدولة.

والمبادئ التي ذكرها لوتس من المساواة وحب الشعب والرفقة وتهذيب الأخلاق وتوفير وسائل الحياة وغيرها كلها ليست غريبة للفارابي وإن لم يذكرها وإنها موافقة للشريعة الإسلامية التي يؤمن بها الفارابي.وأما ما ذكره الفارابي من المبادئ السياسية فمعظمها مقبولة في مذهب لوتس وإن لم يذكرها هو نفسه.

الفصل الخامس : المعرفة

إن الفلسفة لها عدة فروع فمنها ما يتعلق بالبحث في الكون وعلته وتكونت منه فلسفة الوجود ومنها ما يتعلق بالبحث في كنه الخير والجمال والقبح وتكونت منه فلسفة القيم ومنها ما يتعلق بالبحث في العقل وقدرته وتكونت منه فلسفة المعرفة.[٧١٨] ولكن قضية المعرفة قد تكون أهم الفروع في الفلسفة إذ هي تقدم أساسيات العلوم لبقية الفروع ولا يخفي أنه بلا علم ولا معرفة لا تقوم أية فلسفة ولذلك فلسفة المعرفة قد تمثل دور الأساس لسائر العلوم والفنون وبالتالي لا تكون فلسفة المعرفة منعزلة عن بقية الفلسفات بل تحتاج إليها سائر الفلسفات.

إن فلسفات لوتس كلها قائمة علي مفهوم "داو" وقد تفرع مفهوم "داو" إلي الفروع الفلسفية عنده وكانت فلسفة لوتس متكاملة ومترابطة بعضها بعضا وأهمية المعرفة عنده لم تختلف عن أهميتها عند غيره ففلسفة المعرفة عنده ترتبط بفلسفة الحياة ارتباطا وثيقا حيث تتوقف الحياة الناجية علي المعرفة والعلم وقد قال لوتس: لو كان لى علم بسيط لسرتُ على الطريق العظيم و لم أخش إلا الضلال (ف:٥٣). وربط لوتس السير علي الطريق المستقيم بالعلم والمعرفة وجعل العلم مناط الاستقام والسداد ومن جانب آخر أن الحياة الواقعية تقدم للمعرفة موادا ووسائل .

وكلام لوتس عن هذه المسائل كوّن فلسفة المعرفة عنده. ونكرر كذلك أن جميع أفكار لوتس قائمة علي أساس "داو" ففلسفة المعرفة عنده لم تخرج بالطبع من إطار مباحث "داو" حتي في قضية المعرفة لا زلنا في مسائل "داو" بمعني أننا نحاول أن نصل بالمعرفة إلي "داو" الذي يتجلي تجليا صفتيا في الكائنات كما سنناقش فيما يلي.

المبحث الأول: المعرفة ، موضوعها وغايتها

لقد شاع بين الناس أن لوتس يعارض العلم والتعليم ويرفض كل الحضارات بالدعوة إلي الجاهلية. وقد وجّهت التهمة من أمثالها إلي لوتس من قبل كثير من العلماء قديما وحديثا وتلك التهمة في الحقيقة لم تكن مبنية علي الفراغ بل لها أساس من أقوال لوتس نفسه حيث يشير بعض كلامه إلي إهانة العلم والاستخفاف بالتعليم مما أدي إلي تصور أنه يعارض العلم والارتقاء.

---

[٧١٨] < قصة الإيمان >، ص:٢٧.

يقول لوتس: ولذلك كان من تربية الحكيم تخلية القلوب وإملاء البطون و تضعيف الهمم وتقوية الأبدان حتي لايكون لدي العوام العلم ولا الطمع (ف:٣)

وقال أيضا: وليترك التعليم حتى لا يصيبه الحزن (ف: ١٩)

وقال: إن الذين يحسنون الاشتغال ب"داو" فى القديم لا يجعلون الناس بصراء بل يجعلونهم جهلاء وإنما تصعب سيطرة الناس لكثرة ذكائهم (ف:٦٥)

ولا يخفي علي كل من قرأ هذه النصوص أنها تعطي للقارئ إنطباعا أن التهمة السبقة قائمة حتي اتهمه كثير من الناس وعلي سبيل المثال قال "رين جي يو"(Ren Ji Yu) أحد العلماء المشهورين في الحاضر :" إن لوتس من أجل معارضة ثقافة الطبقة المستغلة عارض جميع الثقافات ومن أجل معارضة الخدعة و الخيانة عارض جميع العلوم و هذا ما أخطأ فيه " [٧١٩] وقال كذلك :"كانت الثقافة و العلم والفنون قد وصلت إلي مستوي راق ولكن لوتس يكره ذلك كله ويعارضها بالعنف والشّدة باعتبارها تسببّ المصائب للناس فيدعو بالعودة إلي العصور الجاهلية" [٧٢٠] .

ولكن إذا فهمنا مفهوم العلم عند لوتس فهما صحيحا لوجدنا القضية علي خلاف ذلك فإن لوتس في الحقيقة لم يكن داعيا إلي الجاهلية والجهل ولم يستحفّ العلم . ومن المعروف أنه كان عالما ومشتغلا بالعلم فلا يتصور أنه يعارض العلم والتعليم.

فما هو المبرر له من تلك التهمة ؟

إن القضية تقتضينا أن نرجع إلي فهم حقيقة العلم عند لوتس وإلي فهم نفسية الناس حينذاك .

إن عصر لوتس كما قلنا خلا من نظام ثابت ودستور عادل ويعاني المجتمع من إضطراب القيم والأخلاق فلم يكن لدي الناس هدف رفيع للحياة فكل واحد يحاول أن يجلب لنفسه منافع ومصالح واعتبر ذلك غايتهم في الحياة و زاد الطين بلة أنهم لما حصلوا علي شيء من العلم لم يفدهم ذلك في رفع أخلاقهم وزيادة معرفتهم بل زادهم ذكاءً في سبيل اختراع الوسائل والطرق التي يحققون بها طموعهم ويحصلون بها علي النفع الذاتي وكثيرا ما كانت هذه الوسائل مبنية علي الخدعة والمكيدة فعاب لوتس هذا النوع من العلم و يحذر الناس بأنهم قد ضلّوا بسبب العلوم التي تطلّعهم علي المنافع وتعينهم علي استخدام وسائل الخدعة والمكيدة فالعلم الذي دعا لوتس إلي نبذه هو ذلك

---

[719] رين جو يو : < التر جمة الجديدة للوتس > ، ص: ٢١ ، مطبعة الكتب القديمة شان هاي ، ١٩٨٧م .

[720] المصدر السابق ، ص:٢٣٢.

العلم المذموم كما قيل :"إن الجهل عنده في الحقيقة ليس دعوة إلي الجاهلية بل قضاء علي أفكار الخدعة والمكيدة "[721].

يري لوتس أن هذا النوع من العلم يناقض البساطة الطبيعية التي فطر الناس عليها و يخالف الصدق الذي يجب أن يتخلقوا به . وبناء علي هذا فإن العلم عند لوتس عبارة عن الذكاء في سبيل الخدعة والمكيدة و هذا العلم في الحقيقة يخالف الفطرة الإنسانية فدعا إلي نبذه حتي يعود المجتمع إلي السلامة والعدالة ويسير علي طريقه الفطري .
وإلي هذا أشار لوتس بقوله : (علي الناس) قطع الذكاء وترك الفطانة حتى يفيد الشعب مائة مرة (ف:١٩) .

فالعلم الذي ذمّه لوتس هو العلم من ذاك النوع وأما العلم علي خلاف ذلك فلم ينكره بل أعطي له مكانا رفيعا كما يقول :

العارف بالناس حكيم والعارف بالنفس بصير (ف:٣٣) .

لو كان لى علم بسيط لسرتُ على الطريق العظيم و لم أخش إلا الضلال (ف:٥٣).

واضح من النص أن لوتس يعظّم العلم والتعليم و يمدح من له علم بنفسه وبغيره وعلم بالطريق السماوي بل جعل هذا العلم مناطا للهدي والرشاد ، ومن هنا نقول إن العلم عند لوتس علي صنفين : الأول علم مذموم وهو العلم بوسائل الخدعة والمكيدة وهوعلم بطرق النفع الذاتي والمصالح الشخصية والثاني علم محمود وهو علم يرشد الناس إلي الحق والرشاد و هذا النوع من العلم لم ينكره لوتس ويمكننا أن نطلق علي الصنف الأول باسم العلم والأخير باسم المعرفة من أجل التفريق بين العلم المحمود والمذموم فنقول إن لوتس لم يعارض المعرفة .
والنصوص المذكورة تعطينا أفكارا هامة مما يعيننا علي فهم موقف لوتس من العلم والمعرفة :
أولا : إن النصوص تدل بالوضوح علي أن المعرفة ذات قيمة رفيعة عند لوتس حتي كان يتمنّي أن يملك معرفة يسيرة لكي يهتدي بها إلي الطريق المستقيم ويؤكد هذا علي أن العلم الذي عابه لوتس كان علما لا يؤدّي بصاحبه إلي الحقيقة وإلي الرشد بل يضلّه وأما المعرفة التي تعرف بها حقائق الأشياء فهي ما سعي لوتس إلي طلبه.
ثانيا : يري لوتس أن العلم الحقيقي او المعرفة مفيد للناس ويرمي إلي مقاصد سامية ، وهي معرفة النفس ومعرفة غيره علي وجه الحقيقة و معرفة الطريق العظيم وهو طريق "داو" وقد يراد به دين شرعه "داو" .

---

[721] < لوتس شرحا و تعليقا > ، ص: ٧٤.

ثالثا : من مقاصد المعرفة عمل بمقتضاها وهو بتعبير لوتس السير علي الطريق العظيم بعد ما عرفه. فالمعرفة عند لوتس ليست شيئا جافا محفوظا في الصدور بل تقتضي أن تطبق في السلوك لأن المعرفة تضيع قيمتها إذا خلت من العمل بها .

رابعا : من مقاصد المعرفة تمييز بين الحق والباطل وبين الهدي والضلال ويري لوتس أن الحق والضلال معروضان دائما أمام الناس فالإنسان إما يميل إلي الحق أو يقع في الضلال ولكنهم غالبا يميلون إلي الضلال لأهوائهم وشهواتهم كما يقول النص : إن الطريق العظيم فى غاية الاستواء ولكن الإنسان يحب الممشي(الضلال) .(ف:٥٣)

بمعني أن الإنسان يقدر علي معرفة الحق أو الصراط المستقيم ولكنه لا يسعي وراء الحق ولا يسير عليه بل يميل إلي الباطل فيضلّ ولذلك دعا لوتس إلي المعرفة الحقيقية ولو كانت قليلة حتي يتميّز بها الحق من الباطل .

فالحاصل مما سبق أن لوتس لم ينكر المعرفة او العلم المحمود و كانت المعرفة إحدي قضايا عالجها لوتس بل كانت مسألة ذات أهميّة كبيرة إذ هي ترتبط بغاية عليا للحياة وهي الإتحاد ب"داو" ويري لوتس أن المعرفة هي وسيلة لازمة إلي الإتحاد وفي نفس الوقت هي الأساس لحل المشاكل الإجتماعية والأزمات البشرية ومن ثم إهتم بها وقد قدّم كتابه الشهير إلي العالم أملا أن يبث به المعرفة لكي يتخلص بها الإنسان مما يعانون منه ولكي يترقوا بها إلي مستوي رفيع من الإنسانية .

ويتبيّن من هذا الموقف لدي لوتس أن المعرفة في حد ذاتها أمر ممكن يتوصل إليه إنسان بنوع من الاكتساب وإن لم يذكر لوتس هذه المسألة إلا أن كلامه يلمّح إلي ذلك.

وأما موقف الإسلام من العلم فواضح كل الوضوح ولا يحمل أدني شك في أنه يقدّر كل العلوم ويحث الناس إلي طلبها وقد أعطي لمن يسلك سبيل العلم مكانا رفيعا وأعدّ له جزاءا عظيما في الدنيا والآخرة وقد قال القرآن الكريم :

"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (المجادلة:١١)

"قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب (الزمر:٩)

إنما يخشي الله من عباده العلماء (الفاطر:٢٨)

وقال النبي صلي الله عليه وسلم : العلماء هم ورثة الأنبياء وورثوا العلم ، من أخذه أخذ بحظ وافر ومن سلك طريقا يطلب به علما سهّل الله له طريقا إلي الجنة (رواه البخاري ،كتاب العلم)

وقال النبي صلي الله عليه وسلم :من يرد الله به خيرا يفقهه وإنما العلم بالتعلم (رواه البخاري ، كتاب العلم)

وقال النبي صلي الله عليه وسلم:أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد[٧٢٢].
والنصوص التي تدل علي فضيلة العلم لاتحصي مما يشير إلي علو الشأن ورفعة المكان الذي أعطاه الإسلام للعلم والعلماء وكان الأمور التي تهم العباد في الإسلام قائمة علي العلم حتي قرر العلماء أن هناك أنواع من العلم مفروضة علي المسلمين فرض العين وهي واجبة المعرفة والتعلم لكل المسلم كما هناك أنواع من العلوم تعتبر فرض الكفاية عليهم فنعرف من هذا مدي اهتمام الإسلام بالعلم ولاشك أن حصول العلم عند من يقف هذا الموقف أمر حاصل ومتحقق .

موضوع المعرفة:

كما قلنا بأن فلسفة لوتس متكاملة ومترابطة بعضها بعضا فكانت لفلسفة الحياة عنده علاقة وثيقة مع فلسفة المعرفة وكان أحد مناهج حياته هو القرب من الطبيعة وهذا المنهج إذا سار عليه أحد لا محالة له أن تحصل له المعارف لأن العالم الطبيعي منصوب أمام عينه ويستدعاه إلي التأمل في الظواهر المتغيرة والعلاقة بين الظواهر والقوانين فيها وتلفّت نظره إلي الإتقان والإحكام والحكم في العالم الطبيعي. وكان لوتس يسمّي النظر في هذا المجال بمعرفة "الطريق السماوي"[٧٢٣]. فكان منهج الحياة عند لوتس يؤدي إلي هذه المعرفة.
ثم إن معرفة الطريق السماوي ليست مقصودة لحد ذاتها عند لوتس بل كان يرمي بها إلي معرفة "داو" صاعدا وإلي معرفة مبادئ السلوك الإنساني نازلا.
ذلك لأن "داو" كائن غيبي لا يري ولا يدرك بالحواس كما ذكرنا ولكنه قد أظهر خصائصه في العالم الطبيعي فكانت ذاته مجهولة للإنسان وتعالت عن الإدراك ولكن الإنسان بواسطة معرفة خصائص الكائنات وقوانين الطبيعة يعرف بعض جوانب وجوده.
لم يذكر لوتس بالصراحة عن موضوع المعرفة ولم يحدد ذلك ولكن الدراسة الدقيقة تشير إلي أن المعرفة عنده في نهاية مطافها ترجع إلي معرفة "داو" كما قيل: [إن لوتس قد جعل "داو" أصل الكائنات كما جعله موضوع المعرفة كذلك][٧٢٤].
ثم إن عصر لوتس كما قلنا عصر الفوضي والاضطراب حيث فقدت القوانين والقيم وضاعت مبادئ السلوك للإنسان وكان لوتس في تلك الأوضاع المضطربة حاول أن يقيم مبادئ ثابتة

---

722 حديث ابن عباس ،اخرجه ابو نعيم ، انظر الإمام الغزالي < إحياء علوم الدين> دار إحياء التراث العربي ،ج:١ ص:٥.
723 يقول لوتس: (إن الحكـيم) يعرف العالم دون الخروج من الباب و يرى الطريق السماوى دون الالتفات من النافذة ومن يخرج أبعد يعرف أقلّ (ف:٤٧)

724 - حكمة لوتس > ، ص: ٩٥.

للحياة الاجتماعية والحياة الفردية ويري أن النظام الطبيعي هو خير مثال للنظام الإنساني فلفّت نظره إلي الطبيعة وإلي النواميس الكونية أملا أن يستخلص منها مبادئ السلوك للحياة الفردية والنظم السديدة للحياة الاجتماعية. ويسمّي لوتس هذا الجانب الإنساني ب"الطريق الإنساني".

بناء علي ما ذكرنا نقول بأن موضوع المعرفة عند لوتس قد يقسم إلي ثلاثة: معرفة "داو" ومعرفة الطريق السماوي ومعرفة الطريق الإنساني.

وقد عرفنا أن "داو" هو أساس فلسفة لوتس فلا بد أن تكون معرفة "داو" إحدي موضوعات المعرفة وأما معرفة الطريق السماوي والطريق الإنساني فهما مجالان يتأمل فيهما لوتس دائما حتي قد توصل إلي المعارف لهما كما قال لوتس: وطريقة السماء أن تنقص الزائد و تزيد الناقص لكن طريقة الإنسان ليست كذلك فإنها تنقص الناقص و تزيد الزائد(ف:٧٧).

والنص يدل علي أن "طريقة السماء" و"طريقة الإنسان" كانتا في حدود ما يتأمله لوتس ويتفهمه وحاول أن يعرفه.

ومن ثم موضوع المعرفة عند لوتس يكون ثلاثة : معرفة "داو" ومعرفة الطريق السماوي ومعرفة الطريق الإنساني غيرأن معرفة "داو" كانت أعلي درجات المعرفة إذ أن "داو" مرجع الكل ومصير الجميع وحتي أن المعرفة كلها سترجع في نهاية المطاف إلي "داو"نفسه وسيأتي ذكره في مكانه.

لعل الإسلام في موضوعات المعرفة يوافق بعض ما ذهب إليه لوتس وقد قسم العلماء المسلمون الوجود إلي واجب الوجود وإلي ممكن الوجود وأما واجب الوجود فهو الله وحده بينما ممكن الوجود هو العالم وهو في تصور المسلمين كل ما سوي الله تعالي[٧٢٥].فكلاهما موضوع للمعرفة الإنسانية غير أن طريقة معرفة الله تختلف عن معرفة ما سواه. وكان الله جعل العالم المادي آية دالة علي وجوده وقدرته وألوهيته وربوبيته ودعا الناس إلي تدبره وتأمله حتي يصل إلي معرفة الله. و يقول القرآن الكريم :سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق (فصلت:٥٣)

والآية تؤكد أن الله جعل لمن بطلب الحق أطوارا في سبيل ذلك وهي

أولا : معرفة الآفاق وما فيها من الإتقان والعظمة والروعة والإعجاب وما فيها من القوانين الطبيعية والنوامس المتكاملة .

ثانيا : معرفة نفس الإنسان وحياته وطبيعته والحكمة في قدراته والاحتلاف في ألسنته وألوانه ومعرفة ضعفه وحاجته إلي الخالق والمدبر الحكيم وغيرها من الأمور الإنسانية.

---

[٧٢٥] الإمام الغزالي < الاقتصاد في الاعتقاد> ، مطبعة الهلال ، ص:٥٧.

ثالثا : بناء علي المعرفتين السابقتين يتوصل الإنسان إلي معرفة الله الحق تعالي والإيمان به.

فكانت الأفاق ونفوس الإنسان من العالم الطبيعي هما ما أراه الله تعالي لعباده كآياته ليهتدوا بها إليه. وبهذا يمكن لنا القول بأن موضوع المعرفة في الإسلام هو معرفة آياته وهي عبارة عن الكون وما فيه من الإنس وما يتعلق بهما من النواميس والحكم في وجود الكون وحياة الإنس.

ومعرفة الطريق السماوي عند لوتس تهدف إلي اكتشاف مبادئ السلوك الفردي والجماعي وأن هذا النوع من المعرفة تقارب معرفة الآفاق عند الإسلام ولكن الإسلام قد بيّنه الله تبيانا في كتابه العزيز ولم يغادر كبيرة ولا صغيرة فلم يطالب من المسلمين أن يستنبط أحكامه وشريعته من النواميس الكونية ونواميسه وان كانت شريعة الله موافقة للنواميس الكونية كما ذكرنا[٧٢٦] وكان النظر في الأفاق والأنفس يرمي به في الإسلام إلي معرفة عظمة الله وقدرته حتي يعلم الإنسان أن الله هو الحق و يتقين في الإيمان به .

غاية المعرفة:

فلسفة لوتس كلها تقوم علي أساس "داو" و تدور مباحثها حول هذه القضية ومن الطبيعي أن "داو" هو نقطة البداية والنهاية في المعرفة فيري العلماء أن معرفة "داو" هي الغاية في معرفة الإنسان أو كما قيل :غاية المعرفة هي "السماع عن "داو" والمعرفة به "[٧٢٧] .

ولا شك أن القصد الذي يرمي إليه لوتس في المعرفة عالي الشأن ورفيع القدر حتي يشعر الناس اليوم بسموها بعد ما مضي صاحبها أكثر من خمس وعشرين قرنا لأن المعرفة بهذا القدر قد تنوّر للناس طريقا إلي الحق و تأخذ بأيديهم إلي الرشاد .

ولكنا نري أن لوتس لم يرض بهذا القدر في المعرفة ولم يعتبر هذا الحد قد بلغ إلي الغاية لأن المعرفة بهذه الصورة لا تزال كآلة في يد العارف ومن ورائه طور آخر يترقي بها إلي ما هو أعلي منه . وأما الغاية الأسمي للمعرفة عند لوتس فيما نري فهي وصول إلي "الطاعة الكبري" حتي تكون المعرفة جزءا من شخصية الإنسان وتذوب في أخلاقه ويظهر أثرها في أعماله بصورة الطاعة الكاملة لجميع مبادئ "داو" . و مما يعيننا علي هذا الرأي ما قاله لوتس :دوام المعرفة بهذاالأصل يقال له الفضيلة السرية ويا لعمقها

١

---

[726] انظر الفصل الثاني من هذا البحث .

[727] ما جون : < المناهج الكبري لحكماء الصين > ، ص: ٦٥٣ ، المطبعة الشعبية ، شان شي .

،الفضيلة السرية ويا لبعدها وإنها تخالف الكائنات ولكنها (المعرفة) في النهاية تؤدي إلى الطاعة الكبري. (ف:٦٥)

النص أكثر وضوحا من أن نأتي بمزيد من التوضيح فغاية المعرفة عند لوتس هي حصول علي الطاعة الكبري .

أما الطاعة الكبري فقيل بأنها طاعة للطبيعة [٧٢٨] وقيل هي سلامة العالم وسعادة الشعب [٧٢٩] وقيل هي عدم المخالفة لمبادئ "داو" [٧٣٠] . ونفضّل القول الأخير مع تعبير آخر منا بأن الطاعة الكبري هي طاعة كاملة لمبادئ "داو".

وعلي هذا فالمعرفة إلي هذا الحد لم يبق كنوع من العلم أو تصور في الذهن بل تحولت إلي ملكة في نفس الإنسان تظهر في سلوكه ظهورا طبيعيا بلا تصنع ولا شعور .

ولعل الحكيم كنفوشيوس سار علي نفس النهج في سبيل العلم إذ قال :" إني عزمت علي التعلم في سن خمسة عشر وأستقلّ في سن الثلاثين و لم أضطرب في سن الأربعين وعرفت الفريضة السماوية في سن الخمسين وترضي أذني (عن سماع الحق) في سن الستين وأعمل بما أشاء في سن السبعين بلا تجاوز الحدود "[٧٣١].

بمعني أنه بدأ الدراسة في عفوان شبابه و رسخت قدمه في العلم عند سنه الثلاثين و امتلك قدرا من العلم يميّز به الحق والباطل في سنه الأربعين و لا يرتاب في الخير والشر ثم عرف الأوامر الإلهية و الواجبات القدسية في سنه الخمسين وهذا العلم هو أعلي مراتب العلوم ثم أصبحت هذا العلم ملكة ذاتية في سنه الستين حيث إذا سمع شيئا عرف حقيقته وفي نهاية لا يخالف الحدود الإلهية في سنه السبعين إذ كلما أراد شيئا عمل به بفضل تلك الملكة الذاتية .

فالحالة التي وصل إليها كنفشيوس في سنه الستين والسبعين ليست إلا حالة الطاعة الكبري عند لوتس فيما نري . فحصول هذه الملكة هو غاية المعرفة عند لوتس.

أما الإسلام فهو ما كان يدعو الناس إلي النظر إلي الآفاق والأنفس وإلي التدبر فيما خلقه الله ليمهد طريقا إلي معرفة ما وراء هذه الموجودات المحسوسة وظواهرها وليفتح بابا أمام الناس لينظر من خلاله كل الجمال والكمال والإتقان في الكون حتي تتراكم عليه الأدلة

---

٧٢٨ انظر < لوتس شرحا وتطبيقا > ، ص: ٣١٤-٣١٥.
٧٢٩ < دراسة داو ده جين > ، ص: ٣٥٤.
٧٣٠ < الترجمة الجديدة للوتس > ص: ٢٠٣.
٧٣١ < الحوار > ، كنفوشيوس ، فصل " الإشتغال بالسياسة " .

والشواهد علي وجود الله وعظمته ولاشك أن تلك الأدلة والشواهد تعطيه معرفة واضحة بالله تعالي فكانت معرفة الله هي غاية ما يهدف إليه الإنسان في النظر والتدبر والمعرفة .

ومن جانب آخر لا يختلف الإسلام عن لوتس في كون غاية المعرفة هي الطاعة الكبري إذ أن المعرفة والعبادة (الطاعة) في الإسلام متلازمتان وترتبط إحداهما بالأخري فأعلم الناس بالله هو أخشعهم وأكثرهم طاعة كما قال القرآن :إنما يخشي الله من عباده العلماء (الفاطر: ٢٨) .فالعلماء هم أخشي الناس وأكملهم عبادة وذلك أنه من عرف الله حق المعرفة فقد عبده حق العبادة ومن كان أكثر معرفة بالله كان أخلص دينا وعبادة له وما يؤيد نظرنا هذا قول بحر الأمة ابن عباس رضي الله عنه عندما يشرح الآية " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني " قائلا "أي يعرفوني " ويدل هذا الشرح علي أن المعرفة هي غاية خلق الإنسان فجميع الأمور الإنسانية يجب أن ترجع إلي تلك الغاية وإنما شرح ابن عباس الآية علي هذه الصورة –فيما نري – لأن المعرفة والعبادة متلازمتان حيث ان لم تكن معرفة لا تكون هناك عبادة كاملة وان لم تكن عبادة كاملة لا تكن هناك معرفة كاملة فكما أن العبادة كانت غاية لخلق الله كذلك العبادة أو الطاعة ملازمة للمعرفة.(والله أعلم)

المبحث الثاني: طرق المعرفة

إن طرق المعرفة تختلف باختلاف موضوعاتها ولكل نوع من الموضوعات طريق وقد سبق منا القول بأن موضوع المعرفة عند لوتس هو معرفة "داو" ومعرفة الطريق السماوي ومعرفة الطريق الإنساني فاختلفت الطرق لهذه الموضوعات لأن "داو" يختلف عن جميع الأشياء فطريقة المعرفة به طبعا تغاير الطرق التي يعرف بها سائر الموجودات .

ومن المعروف أن "داو" وجود مطلق لا يدرك وجوده بالحواس ولا يعرف كنهه بالعقل فكيف يتوصل إلي معرفته ؟

حقا إن الإنسان عاجز عن معرفة "داو" بطريقة مباشرة ولكنه ، فيما يري لوتس، يقدر علي معرفة بعض خصائص "داو" بطريقة غير مباشرة إبتداء من معرفة الموجودات المحسوسة. قال لوتس : للعالم بدء وهو أم الكائنات ومن يدرك الأم يعرف إبنها ومن عرف إبنها عاد يتمسك بالأم (ف : ٥٢)

وقد إتفق المفسرون علي أن "الأم " يراد بها "داو" وأن "ابن " يراد به الكائنات ويعني النص أن الإنسان إذا عرف أن الكائنات تولدت من "داو" فقد عرف حقيقة الكائنات

وإذا عرف حقيقة الكائنات فقد عرف "داو" بأحسن صور . ويوطّد لوتس بهذا النص علاقة "داو" بالكائنات باعتبارها علاقة الأم بأولادها . وإنما أثبت لوتس هذه العلاقة ليشير إلي أننا لا نستطيع أن نعرف الأم مباشرا ولكننا نقدر علي معرفة أولادها وهي الكائنات ولا شك أن الأولاد لا يخلون من أن يحملوا بعض خصائص الأم ولوازمها وإذا عرفنا الأولاد حق المعرفة فقد أدركنا شيئا من خصائص الأم وقد عرفنا بعض أحوال "داو" وأما ذات "داو" فلا تعرف حقيقتها ولا يدرك كنهها وإنما يصل إليه الإنسان بالمجاهدة والرياضة الروحية ففي هذا المبحث سوف نحصر أنفسنا في مناقشة طرق المعرفة للطريق السماوي والطريق الإنساني ولا نخوض في معرفة "داو" لأنه كما ذكرنا ليس مما يعرف بالطرق العادية بل هو ما يتذوّق عن واسطة الرياضة الروحية ولذلك سوف نتحدث عنها في فصل الرياضة إن شاء الله تعالي .

وأما الطريق السماوي والطريق الإنساني فيعرفهما الإنسان ومعرفتهما في حد ذاتها ممكنة ومتحقّقة عند لوتس فقد عرف لوتس نفسه كثيرا من الحقائق والأمور في هذين المجالين فيوجّه الناس إلي معرفتها بطرق متعددة ونجد أن طرق المعرفة عند لوتس ثلاثة : المعرفة بالضد والمعرفة بالقياس والإطلاع السري .

وسنلقي ضوءا لكل واحد منها بالتفاصيل فيما يلي :

(١) المعرفة بالضدّ

يري لوتس أن الأشياء في العالم نسبية و متغيرة فلا يكون شيء مطلقا بل وجوده مرتبط بشيء آخر وكانت معرفة أحدهما تتوقف علي معرفة الأخر كما معرفة أحدهما تؤدّي إلي معرفة الأخر وقال لوتس : لما عرف العالم الجمال جمالا نشأ القبح و لما أدرك الخير خيرا نشأ الشر ؛ إن الوجود والعدم يتوالدان كما كان الصعوبة والسهولة تتكاملان والطول والقصر يتعاقبان والرفع والخفض يتضامنان والصوت والنطق يتطابقان والأمام والخلف يتتابعان (ف:٢)

يدلنا هذا النص علي أن مسألة القيم كالخير والجمال وغيرهما ليست مستقلة ولا معزولة عن غيرها بل مرتبطة بشيء آخر وهو نقيضه أو ضده بحيث لو عرف أحدهما فقد عرف الآخر كما لو عرف الخير لصار الشر معروفا معه و العكس كذلك وهذه الطريقة لم تكن محصورة في معرفة الأشياء العقلية بل تكون الأشياء المحسوسة أولي بهذه الطريقة وربما المعرفة بشيء من خلال ضدّه تكون أوضح لأذهان الناس كما يقول العرب : يتبين الأمر من ضده . ولذلك جعل لوتس معرفة بالضد أحد طرق المعرفة .

ومن المعروف أن الضدين لا يجتمعان ولكنهما لا ينفصل أحدهما الآخر بل يلازم بعضهما بعضا كما ذكر لوتس ذلك بقوله : كان الصعوبة والسهولة تتكاملان والطول والقصر يتعاقبان والرفع والخفض يتضامنان(ف:٢).

ومن جانب آخر يري لوتس أنه من النظام الطبيعي أن تتطور الأشياء من نقيض إلي نقيض بلا استقرار علي حالة واحدة و قد نعرف ذلك من المشاهدة الواقعية حيث أن القمر تبدؤ من الهلال وتكمل في صورة البدر ثم تنقص إلي ما تصير كالهلال في آخر الشهر وأن النباتات تنبت من بذرة وتخرج زرعا ثم تستغلظ ولما وصلت إلي قمة الحياة تصفر رويدا وتعود إلي البذرة أخيرا ومن هنا استنبط لوتس أن الكائنات تتغير بين نقيضين فقال : إنّ الكائنات تزدهر ولكنى أراها تعود فالكائنات متنوعة ويعود كل نوع إلى أصله (ف:١٦) . يعني أن الأشياء تتردد بين الازدهار وبين الهلاك .

وعلي هذا المنطلق نهج لوتس في المعرفة إلي منهج أن الشيء يعرف بضده أو بعكسه باعتبار أن كل الحالة ستتحول حتميا إلي نقيضها وأن الاشياء حين تتجه إلي الازدهار ترجع خفية إلي نقيض ذلك. ولذلك يعرف الناس من ظاهرة شيء عكسها .

وقد نعترض علي لوتس في هذا بأن هذه القاعدة إن كانت تطابق الطريق السماوي لأنه يتكرر دائما بنفس العملية حيث تبدأ من نفس البداية وينتهي إلي نفس النهاية ولكن نفس القاعدة لا تطابق تمام التطابق في الطريق الإنساني إذ أن الأمور الإنسانية وإن كانت تتطور تطورا دورانيا إلا أنها لا تعيد نفس الدور في كل مرة بأن تبدأ دائما من نفس البداية وتنتهي إلي نفس النهاية بل تتغير وتتطور البدايات والنهايات فلا يعرف مدي تطورها ، ولا يمكن للإنسان التنبؤ بنهاية شيء حسب التجربة السابقة.

وكذلك حسب رأي لوتس أن الحكم علي الأشياء ليس ثابتا بل متغيرا ونسبيا فالشيء يكون كبيرا إذا نسب إلي ما كان أصغر منه وفي نفس الوقت يكون هو صغيرا إذا نسب إلي ما هو أكبر منه كما أن الطويل لا يكون طويلا إلا إذا نسب إلي ما هو أقصر منه وفي نفس الوقت لا يكون طويلا إذا نسب إلي ما هو أطول منه فلا يعرف شيء إلا من ضده فالشيء يكون علي حكم واحد من جانب حين يكون علي حكم آخر من جانب آخر .

لعل لوتس في هذه النقطة أصاب في جانب وقصر في جانب آخر وقد أصاب في أن الأمور كلها نسبية فالحكم عليها متغير من حال إلي حال ولكن القصور في هذه الطريقة

هو فقدان المعيار الثابت وإذا فات المعيار فقد فات الاساس الذي يترتب عليه الحكم فيتعسر الحكم علي شيء بوجه دقيق وتصعب معرفة حقيقة الأشياء بهذه الطريقة .

(٢) المعرفة بالقياس

إن لوتس لم يصرح باستخدام أسلوب القياس ولم يذكر كلمة القياس ولكن الدراسة التي وصلنا إليها تشير بالوضوح إلي أن القياس كان من أهم الطرق التي استخدمها لوتس في المعرفة .

القياس في اللغة يطلق علي تقدير شيء بشيء آخر وكذلك يطلق علي مقارنة شيء بغيره ليعرف مقدار كل منهما بالنسبة للأخر ثم شاع استعمال القياس في التسوية بين الشيئين حسية كانت التسوية أم معنوية [٧٣٢]. وإذا كان هذا هو مدلول لغوي لكلمة القياس فكان لوتس استخدم هذا الأسلوب بالضبط في المعرفة إذ كان يعتمد عليه لا في مسائل جزئية فحسب بل في قضايا مهمة كالقضايا الكونية .

يقول لوتس :

ولذلك تعرف النفس بالنفس وتعرف الأسرة بالأسرة وتعرف القرية بالقرية ويعرف البلد بالبلد ويعرف العالم بالعالم . كيف أعرف العالم ؟ بهذا .(ف: ٥٤)

إذا تمسكت بالقانون الماضى تقدر على سيطرة الحاضر. (ف:١٤)

بمعني أن طبائع الإنسان متقاربة من حيث المحبة والكراهية ومن حيث الشعور والعواطف ولذلك لا تختلف نفوس الناس بعضها من بعض وإذا عرفت نفسا واحدة فقد عرفت النفوس كلها قياسا علي النفس المعروفة وإن الإنسان أعلم بنفسه من غيره فالحكيم يعرف نفسه أولا ثم يحاول أن يعرف غيره علي مبدء القياس وهكذا يعرف الآخرين و لم يقتصر لوتس بهذا في معرفة النفوس فقط بل تعدي إلي معرفة البلدان والعالم كله ويري أن المجتمعات التي تتكون من الإنسان لا تختلف بعضها من بعض في الطبيعة ولذلك يمكن لأحد أن يتعرف علي مجتمعات أخري قياسا علي المجتمع الذي يعرفه حق المعرفة .

لا ننكر دور القياس في المعرفة وقد اعتمد عليه الناس منذ القديم شرقا وغربا ولكن القياس الذي قاله لوتس في النص المذكور قد يفيد بوجه العموم لا بوجه الدقّة لأن هذا النوع من القياس يفيد في مجال تشترك فيها الأسباب والظروف والعلل وأما في معرفة العالم فإن مبدأ القياس قد لا ينفع بوجه دقيق لأن البلد يتطبع بعناصر كثيرة غير العناصر

[٧١٤] الدكتور عبد الكريم زندان : < الوجيز في أصول الفقه > ، ص:١٩٤ دار نشر الكتب الإسلامية ،لاهور ،باكستان .

الإنسانية وكانت البيئة الطبيعية والعقائد الدينية والحالات الاقتصادية والتقاليد الشعبية كلها من العناصر التي تشكّل طبيعة البلد وكل البلاد لا تكون متقاربة في هذه العناصر وتكون طبيعة بعضها مختلفة من الاخر فمعرفة البلدان حسب مبدأ القياس قد لا تعطي نتائج دقيقة .

ولعل لوتس قد أصاب في استخدام القياس لمعرفة الحاضر من الماضي إذ قال : إذا تمسكت بالقانون الماضى تقدر على سيطرة الحاضر. (ف:١٤) . إن التاريخ يعيد نفسه دائما وما حدث في الماضي قد يحدث اليوم والغد ولا ينكر أحد دور التاريخ كالمرآة تعكس الماضي علي الحاضر و تطلع الناس علي حقائق الأمور و إن العبرة التاريخية دائما تكون مفيدة للحاضر .

لقد عاش لوتس في القرن السادس قبل الميلاد وهو الزمن الذي تظهر فيه البراعم الأولي للفلسفة اليونانية علي يد طاليس وهو أقدم الفلاسفة اليونانيين ولكن في الشرق قد عرف لوتس في ذلك العصر المبكر وسائل المعرفة التي وصل إليها الغرب في العصور المتأخرة ويمكن لنا القول بأن الشرق في العصور القديمة كان أرقي من الغرب في مجال الفكر الفلسفي والمنطق إلا أنهم لم يدوّنوا المنطق في تلك العصور وإنما دوّنه علماء اليونان بعد ذلك .

(٣) المعرفة بالإطلاع السري (Xuan Lan)

من المعروف أن الغنوصية إحدي طرق المعرفة عند بعض القدماء المسيحيين وهو "التوصل بنوع من الكشف إلي المعارف العليا أو هو تذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا بأن تلقي في النفس إلقاء فلا تستند علي الإستدلال أو البرهنة العقلية "[733].

رغما عن أن "الغنوصية " من كلمة يونانية وقد اشتهر هذا المنهج من المعرفة عند المسيحيين والفرس ولكنه كما قال الدكتور علي سامي النشار : " لا نعرف بالدقة أين ظهر ، هل أتي من فارس أو من الهند ؟!".[734]

و إذا قرأنا كتاب لوتس و تعرفنا علي مفهوم " الإطلاع السري " عنده لاستطعنا أن نجيب شيئا ما عن السؤال السابق ويقول لوتس:

---

[733] الدكتور علي سامي النشار : ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام < ، ص: ١٨٦ ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف .
[734] المرجع السابق ، ص: ١٨٦ .

[هل يمكن عدم اللطخة إذا يطهّر مع الإطلاع السري](ف:١٠): أي هل يمكن عدم اللطخة إذا يطهر القلب من الوساوس مع بقاء الإطلاع السري أو إذا طهّر الإنسان نفسه من الشهوات والأفكار الفاسدة وظهر له الإطلاع السري هل تبقي بعد ذلك لطخة ؟

القصد من النص أنه لا تبقي لطخة الشك والريبة بعد تخلية النفس من الشهوات مع بقاء الإطلاع السري .

والكلمة التي ترجمتها بمعني اللطخة[٧٣٥] هنا يراد بها في الأصل شائبة في داخل الأحجار الكريمة تلوث صفاءها وشفافيتها ثم استخدمها لوتس في النص بمعني عدم الوضوح في المعرفة أو الريب أو الشك.

وإن الإطلاع السري هو مفهوم خاص عند لوتس ولم نجده عند من قبله فشرح العلماء بمعان مختلفة فقال "خه شان قون" : أن يغسل القلب دائما حتي يكون نظيفا ويبقي عميقا فيطلع علي الأشياء وهذا ما يقال له الإطلاع السري وأما اللطخة فهي الشهوات "[٧٣٦] و قال "تشين قو يين": هو كناية عن الصفاء في أعماق القلب كالمرآة.[٧٣٧] ويري أن النص يدعو إلي تخلية الأفكار الفاسدة وترك الأراء الباطلة ويدعو إلي البصيرة الأصلية التي تطلع علي النفوس [٧٣٨].

و قيل أنه نور في القلب و مرآة تعكس ما وراء الطبيعة و تطلع علي الكائنات[٧٣٩] . وقيل هو إطلاع قلبي .

وبالجملة فالإطلاع السري ليس إدراكا حسيا ولا فهما عقليا بل هو فوق ذلك فهو عبارة عن المعرفة المباشرة الناشئة من القلب الصافي والنفس الذكية دون تعقل العقل ولا تحسس الحواس كما قال أحد العلماء :" الإطلاع السري هو أن يتوقف الإنسان من الحركات العقلية ولا يطلع علي الأشياء الخارجية بالقوي العقلية وبهذا يكون القلب صافيا كالمرآة وكالورقة البيضاء فيدخل في ميدان الحدس النفسي "[٧٤٠]. ويري أن هذه الحالة هي حالة الإطلاع السري فالإطلاع السري بهذا المعني يقارب معني الغنوصية في اليونانية غير أن الغنوصية عند أصحابها تعتبر وحيا من الله أو الإشراق والكشف الإلهي [٧٤١] ولم يذكر لوتس مصدره بل يميل إلي نشأته النفسية.

علي كل حال هي طريقة غير عادية و تخالف ما اعتاده الناس في المعرفة من طرق الحس والعقل فهو يطالب ما لا تطالبه المعرفة العقلية والحسية بل يطالب تذكية النفس

---

735 فاللطخة بمعني القذرة والغيم . انظر <لسان العرب> لفيروزآبادي ، ج: ١ ص: ٥٥٦.

736 خه شان قون : < تفسير خه شان قون > ، ص: ٣٤-٣٥ ، دار الكتب الصينية، ١٩٩٣م .

737 . لوتس شرحا و تعليقا> ، ص:٨٩.

738 المصدر السابق ص: ١٠١.

739 المصدر السابق : ص: ٨٩.

740 . حكمة لوتس > ، ص: ١٠٤.

741 انظر : <نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام > ، ص: ١٨٦-١٨٧.

وصفاء القلب . فيري لوتس أن الإنسان إذا طهّر قلبه من الشهوات وذكّي نفسه من الغرائز يحول عليه الإطلاع السري فيعرف به الحقائق ولذلك قال :(إن الحكيم) يعرف العالم دون الخروج من الباب و يرى الطريق السماوى دون الالتفات من النافذة ومن يخرج أبعد يعرف أقلّ (ف:٤٧)

معني النص أن الإنسان وإن لم يعتمد علي الوسائل الطبيعية للمعرفة من الحواس والعقل فإنه لا يزال يقدر علي حصول العلم[٧٤٢] و تظهر العلوم في القلب الصافي ظهورا مباشرا بالإطلاع السري.

إن لوتس فتح بالإطلاع السري طريقا جديدا للمعرفة والطريق صار منهجا نموذجيا للتفكير الصيني فيما بعد [٧٤٣] حتي يري بعض العلماء أنه صار ميزة لطريقة التفكير الشرقي كما قيل :إن التفكير الشرقي عموما يمتاز بنوع من الغنوصية والباطنية فإن لوتس هو ممثل هذا الإتجاه في الشرق وفي الصين[٧٤٤] .

وقد وجدنا أن الفيلسوف الألماني هيقل أعطي لوتس إهتماما كبيرا واعتبره ممثلا للفلاسفة الصينيين بل ممثلا روحيا للشرق القديم [٧٤٥] ولكنه لعنصريته لم ينصف في تقويم مكانة لوتس بين الفلاسفة إذ قسّم تطور العقلية الإنسانية إلي مرحلتين : مرحلة طفولية ومرحلة كهولية ففلسفة الشرق فيما يري تمثّل نتائج المرحلة الطفولية بينما فلسفة الغرب تمثّل نتائج المرحلة الكهولية وذلك أنه يري أن التفكير الشرقي في مدارج المعرفة لا يزال علي طريق النشأة والنمو لأن الشرقيين وإن توصلوا إلي معرفة حقائق الأشياء وطبيعتها بعد ما قطعوا مرحلة الإدراك الحسي ثم مرحلة التصور الكلي ثم مرحلة فهم المصطلحات إلا أنهم يستمدون في ذلك من المواد الطبيعية خارج نفوسهم وأما التفكير الغربي فقد وصل إلي مرحلة النضج إذ توصل الغربيون إلي الاعتماد الذاتي بأن عرفوا الأمور الإنسانية معرفة نفسية وأن عرفوا مبادئ الأشياء وحقائقها اعتمادا علي نفوسهم . ولذلك يري هيقل أن العقول الشرقية لا تزال مقيدة بالطبيعة بينما العقول الغربية قد تحررت من القيود الطبيعية ودخلت في ميدان المعرفة الحرة [٧٤٦].

ومن الواضح أن هيقل بنظره الغربي يريد أن يثبت تفوق الغرب علي الشرق في مجال الفلسفة والمعارف العقلية وهذا ما يفعله معظم العلماء الغربيين قديما وحديثا

742 قال له رون جين : يجب عليه من أجل المعرفة بالطريق السماوي أن يزيل التشويش من قبل الحواس كما يزيل التشويش من قبل العقل ". أنظر له رون جين : < الثقافة الداوية والحضارة العصرية > ، ص: ٢٨٧ ، مطبعة الجامعة الشعبية ،١٩٩١م.

743 قال صاحب كتاب < حكمة لوتس > ، جيو لي شين : إن المعرفة المباشرة هي أهم الطرق للمعرفة عند الصينيين وهذا معروف لدي الناس . أنظر كتابه ص: ١٠٧.

744 هو وي هو : < تاريخ الفكر الصيني > ، الجزء الأول ص: ٣٠٢ ، المطبعة الشعبية ، ١٩٩٥م .

745 أنظر < تاريخ الفكر الصيني > ، الجزء الأول ص: ٣٠٢.

746 أنظر المرجع السابق ، ص: ٣٠٢.

الصادق إلي نوعين أحدهما الخبر المتواتر من الناس كالعلم بالملوك الخالية في الأزمنة الماضية والبلدان النائية [752] والنوع الثاني خبر الرسول المؤيد بالمعجزة.[753] ويمكن لنا أن نرجع الخبر المتواتر إلي جملة الحواس لأن هذا النوع من الأخبار كان أصله من الحواس إما بواسطة السماع أو بواسطة الرأية ولا بد من أول من رأي وشاهد ثم يخبر الآخرين بما رأي ثم يخبر الأخرون غيرهم بما سمعوا وهكذا تتناقل الأخبار فالخبر الصادق بهذه الصورة يكون محصولا بواسطة الحواس . وأما خبر الرسول فهو سواء كان إخباره عن الله في صورة الآيات القرآنية أو في صورة الأحاديث النبوية يكون وحيا من الله . فلا يختلف قول النسفي عما ذهبنا إليه .

ومما يدل علي صحة قولنا رأي حجة الإسلام الإمام الغزالي في وسائل العلم إذ قسم أطوار المعرفة إلي ثلاثة وهي في الحقيقة تمثل ثلاث وسائل العلم وقال:اعلم أن جوهر الإنسان – في أصل الفطرة—خلق خاليا ساذجا ،لا خبر معه من عوالم الله ...وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك ... فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس فيدرك بها أجناسا من الموجودات كالحرارة والبرودة .... ثم تخلق له حاسة البصر .... ثم ينفخ فيه السمع فيسمع الأصوات والنغمات . ثم يخلق له الذوق وكذلك إلي أنيجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز.... ثم يترقي إلي طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأمورا لاتوجد في الأطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر ،تنفتح فيه عين أخري يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل وأمورا أخر ، العقل معزول عنها [754].

والطور الذي يقوله الغزالي فوق العقل هو طور النبوة أو نقول له طور الوحي .وبناء علي كل هذا نؤكد أن وسائل العام لعامة الخلق ثلاثة[755] .

والإطلاع السري عند لونس وسيلة أخري للمعرفة ولا يبلغ إليه إلا قليل من خواص الناس و هو إلي حد كبير يشبه الذوق الصوفي عند الإمام الغزالي لأنه يري ما عدا الوسائل المذكورة وسيلة أخري لا لعامة الناس بل للصوفية وقال :"أما ما عدا هذا من خواص النبوة إنما يدرك بالذوق من سلوك التصوف"[756] . وقال كذلك :"أما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ولا يوجد إلا في طريق الصوفية"[757] .

---

[752] المصدر السابق :ص:١٥.

[753] المصدر السابق :ص:١٦.

[754] أبو حامد الغزالي < المنقذ من الضلال . ، هيئة الأوقاف بحكومة البنجاب ،لاهور ،١٩٧١م،ص:٥٣-٥٤.

[755] إنما قلنا " لعامة الخلق " لأن هناك طرق أخري لأناس متخصصين مثل الحدس والإلهام والبداهة وغيرها ولكن هذه الطرق قد لا تفيد العلم اليقيني .

[756] . المنقذ من الضلال> ص:٥٦.

[757] المصدر السابق :ص:٥٩.

أخيرا يختلف لوتس عن الاسلام في حدود المعرفة إذ أن الإسلام وضع حدودا لكي يتصور فيها المسلم ولا يخرج منها وإلا لوقع في الضلال وكانت الشريعة تصون المسلم من أن يخر ج من هذه الحدود بينما منهج لوتس في المعرفة مطلق ومفتوح بلا حدود ولا قيود وفي الأخير بلا معيار وكان فكره يعتمد أساسا علي عقل الإنسان بلا كتاب مقدس مبين وإن الطبيعة هي مصدر وحيد له للمعرفة فهو قد يصيب في شيء ويخطؤ في الآخر. فنقول بأن منهج معرفته كان منهجا فلسفيا طبيعيا.

الناس ساق جدّهم إلي عثور علي هذا العالم آملين خلودا فيه وبلغ الأمر إلي حد أن أصحاب الديانة الداوية جعلوا فكرة الخلد ووجود عالم الخلد ركنين من أركان الإيمان[٧٦٥] .

و بما أن كلا من "جوان تس " و " ليه تس " من شخصيات المذهب الداوي و من أشهر أتباع لوتس، ينسب الناس بعد ذلك فكرة الخلد إلي لوتس . وأكثر من ذلك أن الناس أخذوا ينظرون لوتس وكتابه كأصول الرياضة ونجد أقدم تفاسير "داو ده جين " وهو تفسير "خه شان قون " قد فسر الكتاب علي غرار الرياضة البدنية وربط فكرة الخلود بأقوال لوتس. وقال لوتس : وإذا كان له أم البلاد يبقى طويلا و هذا هو الطريق إلي عمق الغور وثبوت الأصل و إلى طول الحياة وبقاء النظر (ف:٥٩) والنص بالوضوح يتكلم عن السياسة وعن بقاء الحكم ودوام السلطة وأكّد أهمية تطبيق "داو" في ساحة السياسة . ولكن شرح "خه شان قون" حمله إلي الرياضة البدنية لأجل الحصول علي الخلد وشرح النص بأن البلد مثل جسم الإنسان فإذا بقي البلد مع"داو" فيبقي جسم الإنسان بالهواء الذي يخزن في داخل الجسم فيخلد الإنسان.[٧٦٦]

ثم جاء مؤسس الديانة الداوية "تشان داو لين " (Zhang Dao Ling يعيش في القرن الأول الميلادي) و نهج نفس المنهج بأن يشرح نصوص " داو ده جين " بما يوافق فكرة الخلود وطول الحياة .[٧٦٧]

وبعد هذا صار لوتس من غير قصده رائدا ومؤسسا للرياضة التي ترمي إلي إطالة الحياة مع أننا لا نجد ذكرا عن خلد الحياة في كتاب "داو ده جين " وإنما شرحه الناس من بعيد بتلك المعاني ولعل الرياضيين أنفسهم بعد ذلك قد لاحظوا ذلك فقال أهم الكتب الرياضية < فصل تأمل الحق > :" إن الذين صعدوا طيرا إلي عالم الخلد إنما حصلوا علي الخلد عن واسطة معرفة التفسير الحقيقي لكتاب داو ده جين " [٧٦٨] . ومعني ذلك أن نص الكتاب لم يذكر شيئا عن فكرة الخلد وكانت الفكرة من تأويل المتأخرين .

وعلي كل حال فإن الداويين يخالفون سائر الأمم في مسألة الخلد والبقاء باعتقاد أن الإنسان يمكن الخلود في الدنيا أو يعيش عمرا طويلا علي الأرض وقد جعلوا هذا من أهم أركان الإيمان لهم. ويعتقد أصحاب الداوية أن الخلد إما في العالم البشري أو في العالم الملكي لأنهم يرون أن فى الدنيا عالمين عالم يعيش فيه عامة الناس وعالم أخر يعيش فيه أناس خالدون وسموه العالم الملكي وهو عالم " تدوم فيه الشباية وتخلد فيه السعادة وتنعدم فيه

---

٧٦٥ . التعريف بالداوية > ، ص:١٠.
٧٦٦ انظر < تفسير خه شان قون . ،ص:٢٣١-٢٣٢.
٧٦٧ انظر في < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ،ص: ١٧٤.
٧٦٨ تشان باي ري : < فصل تأمل الحق > ،ص: ٦٩ ، باي يون قوان ،بكين ، ١٩٩١.

الأمراض وتكثر فيه الأفراح [٧٦٩] و" لاتنفك الشمس مضيئة والقمر منيرا ، وفيه ما لا رأت العين ولا سمعت الأذن ، ولا شمّ الأنف في العالم البشرى" [٧٧٠] و تنبت فيه عقاقير الخلود" [٧٧١] ومن ترقّي إلي درجة عالية من الفضائل حتي تفوّق علي عامة الناس في الفضيلة والأخلاق يصعد إلي ذلك العالم ويصير إنسانا مقدسا ويخلد فيه .

والإنسان المقدس هو الذي قد تحرّر من القيود الطبيعية ومن الضوابط الإجتماعية فإما يطير في الفضاء راكبا السحاب ويسيح علي قمم الجبال أو يغيص إلي أغوار البحار أو يمشي بين الناس دون أن يعرفه أحد أوهو يستر فلا يراه أحد [٧٧٢] . وإنّ الإنسان المقدس لا تصيبه الأمراض ولا تلحقه المصائب الدنيوية ولا أحد يستطيع أن يسيطر عليه حتي يعجز ملوك الدنيا عن الوقوف علي طريقه وبالعكس هو يستطيع أن يؤدّب أي أحد شاء و يعذب أي مجرم أراد [٧٧٣] .

وكم سعدوا هولاء !

إن العالم الملكي عند الداوية يختلف عن يوم الآخرة عند الأديان السماوية فإن الخلد عند الداوية يكون في الدنيا ويدخل الإنسان إلي عالم الخلد حيا من غير تذوق غمرات الموت وأما الآخرة عند سائر الأديان فهي ما يرجع إليه الإنسان بعد الموت .

وفي الحقيقة أن عقيدة عالم الخلد عند الداوية عبّرت عن شوقهم إلي طول الحياة وإلي التحرّر من المصائب الدنيوية والتجاوز عن القيود الطبيعية والإجتماعية ولعل فكرة الخلود انعكست الأوضاع المؤلمة والمصائب الدنيوية التي يعانيها الناس في حياتهم لأن سوء الواقع يجر الناس إلي التخيل بعالم تمام عكس عالمه الذي يعاني فيه ولعل العالم الملكي في الدنيا هو نوع من هذا القبيل ولكن أصحاب الديانة الداوية يؤمنون بوجوده ويعتقدون أنه موجود إما بين جبال شاهقة أو في جزيرة جميلة يحيط بها البحر.

وقد إفتتن الناس بعالم الخلد والأنعم فيه فكان كثير من الناس يسيحون بين الجبال والبحار باحثين عن العالم الملكي ولما قيل إن فيه عقاقير الخلود بادر الناس إلي طلبها بالجنون وكان الملوك أشدّهم حرصا علي عثورها من غير مبالات بدفع أي ثمن حتيٰ يحكي أن أول إمبراطور الصين "تشين شي هوان"(Qing Shi Huang) [٧٧٤] أرسل بعض الكهنة إلي كل صوب وحدب ليعثروا له علي عقاقير الخلود كما بعث عددا كبيرا من الصبيان إلي

---

[769] : جوان تس > ، الفصل الأول .

[770] Lie Zi : "Lie Zi" (In Chinese Language) chapter : "King Zhou mu"

[771] Si Ma Qian : "Shi Ji" (In Chinese Language) Chapter : "offering posts" .

[772] انظر قه خون : < طبقات الإنسان المقدسين > النص منشور في < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، خو فو شين ، ص: ٥٠٧ ، مطبعة العلوم الإجتماعية ، ١٩٩٩م .

[773] انظر خو فو شين : < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ص: ٥٠٧ ، مطبعة العلوم الإجتماعية ، ١٩٩٩م .

[774] كان يحكم الصين ما بين السنة ٢٢١ ق.م وبين السنة ٢٠٨ ق.م وهو الذي وحّد بلاد الصين من أيدي الإقطاعيين .

بعض الجرز أملا أن يجدوا له الدواء بصفائهم ونقائهم [٧٧٥] ولكن جميع المحاولات إنتهت بالفشل [٧٧٦]. وتاريخ الصين ملأ بأمثال تلك القصص.

ومع ذلك لم يتوقف الناس عن طلب الخلد وعالم الخلود وإنّ أصحاب الديانة الداوية منهم خاصة لم ينطفئ أملهم للخلد في الدنيا. فهم بعد ذلك يرون أن الخلود لا يحصل إلا بالرياضة سواء كانت بدنية أو روحية وأن عالم الخلد لا يعثر عليه في البحار والجبال بل يصل إليه الإنسان حين بلغت رياضته إلي مرتبة الرجال المقدسين ويكون عالم الخلد يبرز بنفسه أمامه. وإن الأساس في إمكانية الخلد الدنيوي عند أصحاب الداوية هو أن "داو" خالد ودائم الوجود فمن يتمسك به ويتحد به يخلد معه لأن "داو" يحب أن يكون مع الذين يشتغلون به كما قال لوتس :" من كان مع "داو" كان "داو" يحب أن يكون معه" (ف:٢٣) وكذلك يعتقدون بأن "داو" يحفظ حياة الإنسان كما قال أحد الكتب الداوية :"إن "داو" خفي ولكنه يظهر في حياة الناس وإن الحياة لا تدوم إلا إذا احتفظت ب "داو" ... وإذا تتحد الحياة ب"داو" فيعيش الإنسان حياة طويلة بلا موت " [٧٧٧] . فالاتحاد ب"داو" أساس بقاء الحياة علي الأرض .

وبناء علي هذا يري الداويون أن حياة الإنسان تحت يده لا في يد الآلهة بحيث إذا أراد الإنسان أن يطوّل حياته لتحقق ذلك بجهده و من ثم يعتقدون أن طول الحياة وقصرها في اكتساب الإنسان نفسه وقد إشتهر علي ألسنتهم القول :" حياتي في يدي لا في يد السماء (يراد بها الإله) " ويعني ذلك أن الحياة مربوطة بإرادة الإنسان وإذا أراد طولها ثم اجتهد بالرياضة لأجلها فطالت ولذلك يسعي أصحاب الديانة الداوية منذ القديم إلي إكتساب الخلود بإشتغال بالرياضة ووجدوا لأنفسهم مثالا من الإنسان المقدسين الذين هم بزعمهم خلدوا في الأرض أو عاشوا حياة طويلة بممارسة الرياضة ومن أبرز هولاء ، كما يحكي ،رجل يقال له "بونغ تسو"(Pen Zu) وعاش ألفي سنة في الدنيا وكذلك " ثمانية مقدسين" أو " با شيأن" (Ba Xian بمعني ثمانية مقدسين) وهؤلاء ثمانية أشخاص ومنهم مرأة واحدة وكانوا بشرا كسائر الناس ثم اشتغلوا بالرياضة ويعتقد الداويون أنهم وصلوا إلي مرتبة الإنسان المقدسين فخلدوا في الدنيا ويسكنون في عالم الخلد ويأتون إلي المجتمع الإنساني بين حين وآخر ليقيموا العدل في العالم البشري .

وعلي كل حال فإن الداوية هي ديانة تعظّم الحياة وتقدّسها حتي تجعل صحة البدن صميم العبادة الدينية لأن الحياة عندهم تدل علي وجود"داو" في جسم الإنسان وأن "داو" يحفظ

---

[٧٧٥] سي ما تشان : < التسجيل التاريخي > ، النص منشور في < التعريف بالداوية > ، ص: ٨ ، دار الكتب الصينية .

[٧٧٦] لي يان جين : < التعريف بالداوية > ، ص: ٩ ، دار الكتب الصينية .

[٧٧٧] ، كتاب البصر الداخلي ل تي شان لو جون > والنص منشور في < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ، ص: ٥٠٤ ، مطبعة العلوم الإجتماعية ، ١٩٩٩م .

حياة الإنسان إذا كان معه ومن يشتغل بالرياضة من أجل الحياة فقد اشتغل بحفظ "داو" والتمسك به في نفسه فالرياضة البدنية لها قيمتان :قيمة إطالة الحياة وقيمة القيام بالواجبات الدينية ولذلك يقال إن الداوية هي ديانة لا تفرّق بين الحياة وبين "داو" ومعني ذلك أن الحياة عبارة عن بقاء "داو" في جسم الإنسان وأن اكتساب الحياة نوع من العبادة ل"داو" وأن الاشتغال ب"داو" يتضمن الاشتغال بالرياضة لتطويل الحياة .

ومن المؤكد أن بعض كلام لوتس قد لمس مسألة الرياضة وطريقتها ولكن لا نجد قط أن الإشتغال ب"داو" عند لوتس يرمي إلي اكتساب الخلد أو إطالة الحياة و يبدو أن هدفه كان لتذكية النفس و بتصفية القلب . وربما قدأصاب أحد العلماء الحاضرين عندما قال :" إن الرياضة عند القدماء كانت امعرفة "داو" العظيم و إكتساب الفضائل العظيمة " [٧٧٨] و أما فكرة الخلد و إطالة الخياة فهي بدعة علي فكرة لوتس وهو بريئ منها .

والجدير بالذكر أن فكرة الخلد وإن كانت إحدي العقائد الداوية منذ القديم إلا أنها قد إعتراها الشك في أوساط الداويين في العصور المتأخرة وقد أنكرها العالم الجليل الداوي "وان تشان يوه"(Wang Chang Yue)[٧٧٩] وقال :" أين الخلود وأين القدماء ؟ "[٧٨٠] ويري أن الخلود هو خلود روحي لا خلود جسدي ويقول" إن الإنسان يموت ولكن يجب أن يطيب له الموت فيموت نقيا ومتيقظا "[٧٨١] ويقول عالم آخر : إن الأشياء ما ظهر في العالم لا بد من أن يفسد في النهاية ...... وأن الإنسان الخالد الذي يعيش إلي الأبد لا يوجد علي الأرض وإذا كان شباب اليوم يريدون الخلود فأين الشباب القدماء ؟ " [٧٨٢] ومن ثم قال بأن الخلود بلا موت ليس له دليل إلي اليوم [٧٨٣] ولكنه أكّد أن الذين يشتغلون بالرياضة سوف يعيشون حياة طويلة وأتي بأمثلة من التاريخ القريب ومثلا[٧٨٤] أن الناسك "وان تشان يوه" عاش مائة وستين سنة (من السنة ١٥٢٠ م إلي ١٦٨٠م) وأن الناسك "شين تشان جين" عاش مائة وثلاثين سنة (من السنة ١٥٢٣م إلي ١٦٥٣م) وأن الناسك "وان يون نين" عاش مائة وأربع وثلاثين سنة (من السنة ١٥٩٧م إلي ١٧٢١م) وأن الناسك "فان تي تشين" عاش مائة واثنين وأربعين سنة (من السنة ١٦٠٦م إلي السنة ١٧٤٨م) وأكثر من ذلك أن الناسك "بأي ما نين" عاش مائتين وثلاثة سنة (من السنة ١٦١٥م إلي السنة ١٨١٨م) . وهؤلاء عاشوا عمرا طويلا وجعلهم أصحاب الرياضة مثلا لهم ويتشجعون بهم ولكن

[778] قاله (كه يون لو) من العلماء الحاضرين في كتابه < القرن الجديد > ، مطبعة شين شين

[779] هو مؤسس لإحدي الفرق الداوية و كان رئيسا للمعبد الداوي في بكين وعاش عمرا طويلا من سنة ١٥٢٠م إلي ١٦٨٠م.

[780] النص منشور في < التعريف بالداوية > ، ص: ١٩٩ ، دار الكتب الصينية ،بكين ، ١٩٨٩م.

[781] النص منشور في < التعريف بالداوية > ، ص: ١٩٩ـ٢٠٠.

[782] خو فو شين : < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ص: ٥٦٦ ، مطبعة العلوم الإجتماعية ، ١٩٩٩م .

[783] انظر في المصدر السابق ،ص: ٥٦٦.

[784] انظر في المصدر السابق ،ص: ٥٦٦.

الخلد مجرد أمل بعيد يتمناه الناس منذ القديم ويستحيل تحقيقه في الواقع وأما طول العمر فيكون حاصلا بالرياضة .

إن المسلمين في هذه المسألة يلتزمون بتعاليم الإسلام أن للإنسان حياة وموت وقد قضي لكل أحد أجلا مسمي في الدنيا ولم يجعل الله خلدا لأحد من أهل الدنيا فلم تكن هناك مسألة لقضية الخلود و طول العمر و أما الرياضة فهي تهدف إلي غير ما سار إليه الداوية فلا ترتبط الحياة بالرياضة ارتباطا حتميا ولا يغير ما قضي الله بأفعال العباد. فتكلم الإسلام عن الرياضة من جهة أخري و عالج قضاياها.

يري الصينيون منذ القديم أن الإنسان متكون من ثلاثة أجزاء : الصورة (الجسد) والتنفس (القوة) والروح (العقل) "[٧٨٥] و باجتماع هذه الثلاثة كانت الحياة و بانحلالها حصل الموت[٧٨٦] ، ولذلك كان الرياضيون يهتمّون بالرياضة من هذه النواحي الثلاثة وقد يمكننا القول بأن رياضة الصورة والتنفس متعلّقة بالبدن بينما رياضة العقل والنفس متعلّقة بالروح. ومن ثم سوف نتحدث عن الرياضة من ناحيتين : الرياضة البدنية والرياضة الروحية .

المبحث الثاني: الرياضة البدنية

الرياضة البدنية قد تشمل الرياضة للجسم والرياضة للتنفس عند الصينيين وقد إخترع القدماء طرقا أكثر من أن يعد و يحصي . والرياضة للجسم تختلف عن الرياضة للتنفس إذ أن الرياضة للجسم عملية حركية بينما الرياضة للتنفس عملية سكونية .

ومن أشهر طرق الرياضة الجسمية ما إخترعه الطبيب المشهور "هوا طه"(Hua Tuo) في عصر " الدول المتحاربة " (ما بين السنة ٤٤٧ ق.م --٢٢١ق.م) وتسمي تلك الطريقة ب "رقص الحيوان الخمس " وهي عبارة عن أفعال مختصة بخمسة أنواع من الحيوانات وهنّ النمر والغزال والدبّ والقرد والطير ويري هذا الطبيب أن لكل نوع من هذه الحيوانات حركات خاصة بها وهي حركات طبيعية فإذا تمثّل الإنسان بهذه الحركات يفيد ذلك صحته ويزعم أن الإنسان إذا لم يشعر بالراحة يستحسن له "أن يقوم ويلعب بحركات مختصة بحيوان معين فيجد عرقه" يخرج من الجسم كله ويشعر

---

[٧٨٥] الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ص: ٣٧٥.
[٧٨٦] المصدر السابق ص: ٣٧٥.

البدن بالخفّة فتزداد الرغبة في الأكل " [787] . و إذا كان الإنسان يقوم بهذه الرياضة دائما وتتحرك جميع أعضائه " فلا يصيبه التشيخ " [788].

وهذا الرقص ربما كان في البداية بسيطا ومجرد الحركات علي غرار الحيوان ولكن له أهمية كبيرة لمن جاء بعد إذ أرسي هذا الرقص أساسا للرياضة الجسمية للمذاهب اللاحقة فنجد كل المذاهب الرياضية بعد ذلك تأثرت بهذا الرقص قليلا أو كثيرا سواء كانت مذاهب بوذية أو داوية .

ولكن هذه الرياضة ليست لها أية علاقة مباشرة مع لوتس ولم يذكرها لوتس أصلا إلا أن الرياضيين من أصحاب الداوية مارسوا هذه الرياضة و تبنّوا الرقص كمبدأ من مبادئ الرياضة وربطوها بلوتس من بعيد.

وإذا ألزمنا أنفسنا إلي ربط هذا الرقص بلوتس فما وجدنا سبيلا غير أن نقول بأن الرقص هذا ليس إلا حركات طبيعية وهي توافق منهج لوتس الذي يتبناه بأن كل شيء يجب أن يجري علي نظام الطبيعة كما قال : [الإنسان يتبع الأرض و الأرض تتبع السماء والسماء تتبع "داو"] (ف: ٢٥) وطلب من الإنسان أن يعمل عملا طبيعيا كالسماء والأرض فالنص يتضمن فكرة التمثّل بالطبيعة وبالحركات الطبيعية .

ولعل هذا يكون وجها وحيدا للربط بين لوتس وبين الرياضة الجسمية علي الرغم من أننا لم نجد في تاريخ لوتس أنه قد مارس الرياضة الجسمية .

أما رياضة التنفس أو ما يقال رياضة الهواء فهي نوع من الرياضة البدنية وهي عبارة عن ضبط التنفس وتسييره في داخل الجسم وإيجاد قوة منه فرياضة التنفس في الحقيقة رياضة الهواء في الجسم . وأساس الرياضة هو أن الإنسان يشهق هواء من الخارج ويبقيه في الداخل ثم يحوله في الداخل إلي القوة الحيوية لكي يتغذي بها الجسم وهذا ما يقال عنه "تشي قون " (Qi Gong بمعني فاعلية الهواء). وهذا النوع من الرياضة كان شائعا منذ القديم وإنتشر اليوم في أنحاء العالم و إتخذه الناس في الشرق والغرب علي أنه طريقة مفيدة للصحة .

والعجب أن بعض الناس نسبوا أصل "تشي قون" إلي لوتس حتي قال أحد العلماء في الحاضر :[ومن الذي يخطر بباله أن مؤسس علم "تشي قون " التقليدي في الصين ليس غير لوتس وأتباعه الداويين] و قال أيضا :[إن لوتس قدّم خدمة كبيرة في مجال " تشي قون" وبعد ما أسّس علم "تشي قون " اشتغل به أناس كثيرون] [789]

---

787 الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ،ص:٣٧٦.

788 المرجع السابق :ص: ٣٧٦.

789 له رون جين : < الثقافة الداوية ، الحضارة العصرية > ،ص: ٦٩ ، مطبعة الجامعة الشعبية ، ١٩٩١م.

وأرادوا بهذا أن لوتس وضع علم "تشي قون" و الحقيقة أن هناك قبل لوتس أناس من القدماء يمارسون رياضة التنفس أو الهواء ولكنهم لم يتركوا لنا كتابا عن أفكارهم ومناهجهم وكان لوتس هو أول من تكلم عنه مع أن كلامه عنه بسيط في الغاية حتي في أكثر الأحيان يلمح بعبارات ضمنية ثم حمّلها المتأخرون إلي معني رياضة الهواء التي قد لم يقصدها لوتس نفسه.

ونري أن الكلام الصريح عن رياضة الهواء في كتاب (داو – ده – جين) قول واحد فقط وهو : ألا يمكن جمع التنفس لأجل التليين ليكون كالوليد(ف: ١٠) وقد ذكر لوتس هنا "جمع التنفس" وواضح أنه يريد رياضة الهواء . ثم شرحه "خه شان قون" بقوله " إذا يركّز الإنسان علي الهواء الجوهري كيلا يضطرب فيلين جسمه حتي يكون كالصبيان الذين لا يزعجه التفكير في الداخل ولا تشغله الشؤون في الخارج ولذلك لا تنصرف عنه روحه "[٧٩٠] ولا يخفي علي أحد ، إذا قارن بين النص الأصلي وبين تأويله ، أن هناك الفرق بين ما قاله لوتس وبين ما شرحه "خه شان قون" إذ أن الشرح أضاف أشياء ما لم يصرّح به النص . وهكذا تطوّرت مناهج رياضة الهواء من تفاسير كلام لوتس . ولو سلمنا علي أن قصد لوتس من النص هو نفس ما شرحه "خه شان قون" فإن النص يحتوي علي نقاط هامة لرياضة الهواء وهي كما يلي :

أولا : إن في جسم الإنسان الحي هواء جوهري يحيي به الإنسان وهو هواء حيوي[٧٩١] أو هو هواء أصلي في جسم الإنسان وقد وجد مع الولادة و تولّد من "داو" [٧٩٢]

ثانيا : رياضة الهواء عبارة عن جمع هذا الهواء وتركيز الذهن عليه وتنظيمه في داخل الجسم .

ثالثا : بواسطة رياضة الهواء يلين جسم الإنسان كأجسام الصبيان . والقصد من ذلك أن تعود علي الإنسان الشبابة حتي يري "خه شان قون" إذا يتمسك الإنسان بهذا الهواء يخلد الجسد [٧٩٣].

والعودة إلي حالة الطفولة تعني توفر القوة الحيوية في الجسم وإن الإنسان بواسطة رياضة الهواء تزداد القوة الحيوية له ويعود إلي حالة الطفولة ويري القدماء أن الصبيان في أحسن حالة من ناحية الصحة وأكثر توفرا لقوة الحياة وأقرب إلي الطبيعة كما يقول

---

[٧٩٠] خه شان قون : < تفسير خه شان قون > ، ص: ٣٤ دار الكتب الصينية ١٩٩٣م ..

[٧٩١] ترجم بعض الناس ب
Vital force

[٧٩٢] تفسير خه شان قون ، ص: ٣٤.

[٧٩٣] انظر المصدر السابق ، الفصل العاشر ، ص:٣٤ .

لوتس : إن الطفل .... ويبكي طول اليوم من غير بحاحة الصوت (ف: ٥٥) ويعني أن قوة الحياة عند الأطفال أوفر مما عند الكبار

رابعا : إن الرياضي يجب أن يتحرر من المشاغل الفكرية ومن الأمور الخارجية حتي يكون خاليا من جميع التعلقات .

هذا ما يحتويه النص بعدما شرحه "خه شان قون" سواء قصد لوتس ذلك أو لم يقصده وإن النص بهذا المعني المؤول يحتوي علي موقف الداوية من الرياضة وعلي عناصر هامة للرياضة ولذلك جعل الناس هذا النص أصلا لرياضة الهواء حتي نشأ منه مئات طرق الرياضة مما لم يخطر ببال لوتس نفسه .

مهما كثرت طرق الرياضة للقوة الهوائية فإن جميعها قائم علي مبدأين : تنظيم التنفس والملازمة ل"دان تيان" (Dan Tian).

أولا : تنظيم التنفس

يري القدماء أن التنفس أساس الحياة وله نظام دقيق متقن بأن يشهق الإنسان الهواء الصافي من الخارج ويزفر الهواء الكدر من الداخل وبهذا يكون هو في حالة الصحة لأن التنفس يجري علي الطريق الطبيعي و إنما الأمراض تنشأ من تشوش نظام التنفس [٧٩١] . فأهمّ الأعمال في الرياضة هو أن يعيد التنفس إلي النظام الطبيعي ويتمرن عليه حتي يكون التنفس خفيفا وطويلا ومنظما .

ثانيا : ملازمة الذهن ل"دان تيان "

" دان تيان " معناه مصنع الإكسير وقد يمكننا أن نفهمه بمعني مخزن الجوهر الإنساني أو مخزن القوة الحيوية وهو عبارة عن مكان مخصوص في داخل جسم الإنسان تخزن فيه القوة الحيوية ويري الرياضيون أن مكان "دان تيان " يقع تحت السرة بمقدار اليد عرضا وهذا المكان يكون موقعا لاختزان المني للرجال كما هو مكان الرحم للنساء ويري الرياضيون أن المني هو جوهر الإنسان ومنبع القوة الحيوية .

ويري بعض العلماء أن هناك ثلاثة "دان تيان " في جسم الإنسان كما قال العالم الداوي المشهور "قه خون" : "دان تيان " الأعلي يقع بين حاجبين علي الجبهة والأوسط يقع تحت القلب والأسفل تحت السرة. والقول المشهور هو أن مكان "دان تيان " يقع تحت السرة.

---

٧٩١ الثقافة الداوية والحضارة المصرية > ،ص:٥٨.

المطلوب من ملازمة الذهن ل"دان تيان " أن يقود الإنسان الهواء بالذهن إلي مكان "دان تيان " و يمسكه هناك ويركّز عليه ذهنه ويلازمه دائما . وهذا العمل يقتضي من الرياضي أن يبعد عن جميع المزعجات من الذهن ويخلّي الفكر من جميع العلاقات الخارجية و يركّز الذهن علي التنفس حتي ينشغل باله في حركة التنفس . والمراد من هذا أن يجتمع الهواء في مكان "دان تيان " لكي يزداد الهواء الجوهري هناك ولذلك يقال ل"دان تيان " "بحر الهواء" أيضا . وإذا تقوي الهواء في "دان تيان " يتقوي الجسم ويسلم من جميع الأمراض .[٧٩٥]

وبما أن كلام لوتس قد لمس فكرة الهواء ورياضته سواء قصد ما ذهب إليه الرياضيون المتأخرون أو لم يقصد ذلك فإننا نودّ أن نعرّف ، علي سبيل المثال دون الحصر، ببعض الطرق الرياضية الهواء التي إخترعها المتأخرون والتي نسب أصله إلي لوتس .

(١) من طرقها طريقة تناول الهواء وهي عبارة عن إدخال الهواء في داخل الجسم لتتغذي به الحياة . ويري الرياضيون الداويون أن الهواء الطبيعي الصافي يحفظ الحياة و[إذا شهقه الإنسان يصير الهواء حياة في داخل الجسم وسوف يملؤ جميع الأعضاء الداخلية].[٧٩٦] فتنتشر قوة الحياة في كل الجسم ولذلك كان الرياضيون يختارون أطيب الهواء ويتناولونه ففي الربيع يشهقون الهواء الأصفر عند الفجر وفي الخريف يشهقون الهواء الأصفر والأحمر عند غروب الشمس وفي الشتاء يشهقون الهواء في منتصف الليل وفي الصيف يشهقون الهواء عند الظهر [٧٩٧]

وبعد ما شهقوا الهواء أو بتعبير أدقّ بعد ما تناولوا الهواء يخزنوه في " دان تيان " وطرق تناول الهواء كثيرة منها أن يغلق الإنسان فمه ويلتفت إلي دخول الهواء من الخارج عن طريق الأنف وإذا تنفس ثلثي النَفَس يوقف التنفس ويبقي ثلث النفس في الجسم ثم يزفره ولكن عند ما زفر ثلثي ما في الداخل من الهواء الذي بقي ثلثه فقط يوقف التنفس مرة ثانية ويمسك ثلثه في داخل الجسم وعندئذ يحس الإنسان بالضيق كأن في الداخل هواء خانق ولكن يجب أن يستمر فيزفر الهواء الباقي و يمسك ثلثه أيضا في الجسم إلي أن ينتهي الهواء في الداخل وهكذا يعيد نفس العملية مرة بعد مرة حتي إذا طال الوقت علي هذا التمرين يملؤ الهواء الطبيعي كل الجسم [٧٩٨] فيخلد الجسم .

---

[٧٩٥] المصدر السابق ، ص: ٥٨.

796 <The handbook of Toism > by Li Yang Zheng , old book press ,1993, p.2.

[٧٩٧] المصدر السابق ، ص: ٢٨١.

[٧٩٨] أنظر المصدر السابق ، ص: ٢٨١.

ومن طرق تناول الهواء أن يشهق الإنسان هواء ثلاث مرات بالأنف مع الهدوء ثم يزفره مرة واحدة وإذا طال الوقت علي هذا التمرين يتقدّم إلي خطوة تالية بأن يشهق الهواء بالأنف خمس مرات ويزفر مرة واحدة وإذا طال الوقت علي هذا التمرين يتقدم إلي خطوة تالية بأن يشهق سبع مرات ويزفر مرة واحدة ويواظب علي هذا التمرين وإذا تيسّر له ذلك يتقدم إلي خطوة تالية وهي عسير جدا بأن يشهق واحد وثمانين مرة ويزفر مرة واحدة[٧٩٩] وفي كل مرة يجب أن يقود الهواء بالذهن إلي "دان تيان" و يخزنه فيه وإذا توصل إلي هذه الدرجة فقد نجح في الرياضة أو بتعبيرهم أنهم قد وجدوا "داو" فيحصل الخلد .

(٢) من طرق رياضة الهواء زفر القديم وشهق الجديد وهو ما ابتكره "جوان تس" وإنما نذكره لكونه طريقا أشار إليه أقدم وأشهر أتباع لوتس ولعله أقرب إلي فكرة لوتس . وقال "جوان تس":[يتنفس الإنسان بالهدوء فيزفر القديم ويشهق الجديد ويفعله كما يستوي الدبّ (في القيام) ويبسط الطيور (أظافرها عند الطير) حتي يعيش الإنسان حياة طويلة وهذا ما سعي إليه أصحاب "داو" والذين يحفظون ظاهر الجسم و الذين كانوا يبحثون عن سر خلد "بون تسو" (Pen Zu)][٨٠٠].

يبدو أن العبارة ركيكة وتحتاج إلي مزيد من التوضيح .

أولا :إن عملية التنفس هي عملية إستمرار الحياة بحيث يشهق الإنسان هواء جديدا ويتغذي به و ذلك الهواء بعد ما إستهلك يصير كدرا قديما فيزفره إلي الخارج ويشهق جديدا وما التنفس إلا إعادة هذه العملية لإستمرار الحياة .

ثانيا : كلام "جوان تس" [زفر القديم وشهق الجديد] صار مبدأ من مبادئ الرياضة ومؤداه أن يزفر الإنسان هواءا كدرا قديما إلي الخارج و يشهق هواءا صافيا جديدا باعتبار أن الهواء الجديد يغذي الحياة .

ثالثا : مراعاة الهيئة الطبيعية عند الرياضة وقد ذكر "جوان تس" استواء الدبّ و بسطة الطير أظافره ولعله أراد بذلك أن يبيّن كيف يتناول الإنسان هواء وبأية هيئة يقوم بالرياضة وأن يثبت أن هذه الهيئة طبيعية ينبغي للإنسان أن يراعيها عند الرياضة فيطلب من الرياضي أن يبسط نفسه بسطا تاما جسديا وفكريا عند التنفس كما يقوم الدب أو يطير الطير.

---

(٧٩٩) انظر < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ص:٣٨١.

(٨٠٠) كتاب جوان تس > ، جوان تس ، فصل " كه يي" .

رابعا : الهدف من رياضة الهواء إطالة الحياة وتحسين ظاهر الجسم وقد نقل "جوان تس" قصة رجل يقال له "بون تدو"(Pen Zu) بأنه عاش ألفي سنة في الدنيا ولم يزل في صحة تامة ولعل سر طول حياته أنه كان يقوم بالرياضة الهوائية .
خامسا : رياضة الهواء إحدي الطرق لإطالة الحياة والذين كانوا يشتغلون برياضة الهواء هم ثلاث أصناف من الناس : أولا من يجتهد في طلب "داو" و ثانيا من يهتمّ بظاهر الجسم وصحته وثالثا من كان يتمني الخلد ويبحث عن سر طول حياته .

هذا ما يمكن إستخلاصه من كلام "جوان تس" والعبارة قصيرة بل وضعت حجر الأساس لفلسفة الرياضة و تركت أثرا عميقا علي المذاهب الرياضية فيما بعد . وربما طريقة الرياضة عند "جوان تس" كانت بسيطة ولكنها كبذرة نبتت منها فروع وأشجار ولم يظهرمذهب من المذاهب الرياضية بعده إلا يزعم بإصالتها من لوتس و"جوان تس".

قد لاحظنا مما سبق أن الرياضة الهوائية تفرعت من كلام لوتس إلي فرق ومذاهب وأصبح هدفها إطالة الحياة وتحسين الصحة ومن توصّل إلي النجاح في الرياضة لا يمرض أو يستطيع أن يعالج الأمراض لنفسه ويعالج الأمراض لغيره حتي ولو كان المريض بعيدا عنه بمائة أميال والرياضي إذا دخل في جبال لا تفترس عليه السباع [٨٠١] كما قال لوتس : ونسمع أن الذين يحسنون رعايةالحياة لا يدركهم الكركدنى ولا النمر فى البر ولا يحتاج إلى لبس الدروع فى المعركة] (ف: ٥٠) .
وأخيرا ربط الرياضيون فكرة الخلد مرة أخري بكلام لوتس : [هذا هو الطريق إلي عمق الغور وثبوت الأصل و إلى طول الحياة وبقاء النظر] (ف: ٥٩) . وقالوا بأن العبارة (طول الحياة وبقاء النظر) يراد بها خلود الجسم بممارسة الرياضة سواء قصد لوتس ذلك أم لم يقصده فإن الناس بعده حمّلوا هذا الكلام إلي معني خلود الجسم وبالتالي رفعوا لوتس إلي مكان مؤسس الرياضة الهوائية و رائدها .
نكتفي بهذا القدر في الكلام عن رياضة الهواء مقترنا بنصوص (داو – ده – جين) ولم نخض أكثر فيما تطور علي كلام لوتس حتي لا نتقول عليه ما لم يخطر بباله و لايخرج الكلام من موضوع البحث الذي نحن بصدده .

إن الطرق التي اتخذها أصحاب الداوية في الرياضة البدنية قد يعترف بها الإسلام من حيث الوسيلة لا من حيث الغاية ان كانت تؤدي فعلا إلي تقوية الجسم فإن تقوية الجسم بكل

[٨٠١] انظر < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ص:٣٨٧.

الوسائل لا تخالف مبادئ الإسلام بل هي مطلوبة من كل مسلم وقال النبي عليه السلام : المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف (رواه مسلم) . وإن الرياضة ليست إلا أخذ الأسباب لتقوية الجسم وأما الغاية من الرياضة في الإسلام فهي من أجل القدرة علي طاعة الله وعلي الجهاد في سبيل الله.

وأما طرق الرياضة البدنية فكان المسلمون لم يطوروها بأنفسهم ولم يعرفوا ما اخترعه الصينيون ولذلك يجوز لهم أخذ أية وسيلة إذا كانت تؤدي إلي تلك الغاية إلا أن بعض الطرق ذكرت في الحديث الشريف وقال النبي عليه السلام :وارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا (رواه أبو داود)

وقال كذلك: من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا (أخرجه مسلم)

وقال : كل شيء ليس من ذكر الله فهو لعب لا يكون أربعة ملاعبة الرجل امرأته وتأديب الرجل فرسه ومشي الرجل بين الغرضين وتعلم الرجل السباحة (رواه البيهقي)

فالرمي والسباحة والركوب كلها ليست إلا طرق الرياضة والاستعداد للجهاد في سبيل الله فالرياضة البدنية أصلا مأمورة بها في الإسلام والمسلمون أحرار في أخذ طرقها .

والجدير بالذكر أن المسلمين في الصين يشتغلون بالرياضة البدنية من وقت طويل ويعتبرونها سنة من سنن النبي صلي الله عليه وسلم وقد اخترعوا طرقا لأنفسهم وأنسبوا بعضها إلي علي رضي الله عنه وبعضها إلي الملائكة و سموها بأسماء تدل علي خصوصيتها المسلمين مثل " جين جين جوان "[٨٠٢] و " تان بين جوان "[٨٠٣] و " علي جيان "[٨٠٤] وغيرها وهي كلها نوع من فن الملاكمة .

ومما لا نغفل أن بعض المسلمين اخترعوا طريقة ذكر الله علي غرار رياضة التنفس فيما نري وكان الغرض هو حضور القلب لله و الالتزام بحضرة الذات الإلهية كما يفعله أصحاب الطريقة النقشبندية وطريقة ذاك هي أن يحبس السالك نَفَسَه تحت السرة ويلصق لسانه بأعلي الحنك ثم يسوق النفس باللسان الخيالي من تحت السرة إلي المخ في أثناء نطق كلمة "لا " بالذهن ويمضي النفس بالكتف الأيمن عند نطق كلمة "إله " ثم يضرب به قلبه عند تصور كلمة "إلا الله " حتي يتسرب أثرها في اللطائف الخمسة وفي هذه الأثناء ينطق بالذهن كلمة "محمد رسول الله ". و هذه الطريقة يقال لها عندهم طريق ذكر النفي والإثبات [٨٠٥]. ولعل الطريقة هذه شبيهة بما عند الداوية غير أن الغاية مختلفة عنها اختلافا جوهريا إذ هي ترمي

---

[٨٠٢] " تشين جين تشوان " تعني العلامة الإسلامية .

[٨٠٣] " تان بين تشوان " تعني علامة الإبريق والإبريق خاصة للمسلمين للوضوء و نجد صورة الإبريق أصبحت في معظم أماكن الصين علامة للإسلام .

[٨٠٤] " علي جيان " تعني سيف علي رضي الله عنه أو يقال سيف ذو الفقار .

[٨٠٥] شاه غلام علي الدهلوي < إيضاح الطريق > ، خانقاه سراجية بباكستان ١٤١٩هـ ص:٢٩.

إلي معرفة الله وإلي حضور القلب مع الله لا من أجل الرياضة البدنية ولا لأجل الخلود وطول العمر .

المبحث الثاني . الرياضة الروحية

يبدو أن الرياضة الروحية كانت شائعة جنبا بجنب مع الرياضة البدنية في البداية عند أصحاب الداوية وباختلاف المشرب كان بعضهم يميلون إلي الرياضة البدنية وبعضهم إلي الرياضة الروحية غير أن الرياضة الروحية أصبحت سائدة بعد حوالي القرن الرابع [٨٠٦] وكما ذكرنا أن كلام لوتس عن رياضة الجسم لم يكن صريحا ولا نتوقع أنه كان يمارس هذا النوع من الرياضة بل إن الرياضة الروحية كانت واضحة كل الوضوح عنده وقد تكلم عنها ووضع بعض الأسس وان لم يكن هو مؤسس هذا الاتجاه فإنه قد ساهم في هذا المجال مساهمة عظيمة وربما نجد فكرة الرياضة الروحية أكثر وضوحا في النص التالي وقد ذكر لوتس فيه المتطلبات الروحية لمن يقوم بالرياضة وربما كان لوتس تابعا لهذه الطريقة فقال : إنّ اللذين كانوا يحسنون الاشتغال ب"داو" فى القديم هم أصحاب الأسرار والأبصار وهم فى غاية العمق لا يعرفون وبما أنّهم مجهولون يوصفون على وجه التقريب:

يا للتحير كأنهم يعبرون أنهار الشتاء.
يا للحذر كأنهم يتوقّون الجيران.
يا للتوقير كأنهم يحضرون مجلس الضيافة.
يا للمودة كأنهم يذيبون الجليد.
يا للبساطة كأنهم مواد خام
يا للتفتح كأنهم أودية خالية.
يا للغفلة كأنهم ماء عكر.
من ذا الذى يتصفّى رويدا من الكدرة بالسكون .
ومن ذا الذى ينشئ رويدا بالحركة فى السكون (ف : ١٥)

إن النص يصف لنا أحوال من كان يشتغل ب"داو" و ان لم يذكر طريقة الرياضة علي الترتيب إلا أن الأحوال المذكورة صارت مبادئ للرياضة الروحية وفي ضوء هذا

[٨٠٦] انظر المصدر السابق ص: ٣٨٢.

النص رأينا أن المشتغلين بالرياضة في القديم كانوا علي تلك الأحوال : الورع والحذر و التوقير والمودة والبساطة والتفتح والغفلة ولا شك أن هذه الحالات هي أحوال نفسية لكل من يشتغل بالرياضة سواء في القديم أو الحديث .

وقد أشار النص إلي بعض النقاط الهامة في مجال الرياضة الروحية كما يلي:

أولا : إن لوتس لم يكن أول من قام بالرياضة الروحية بل سبقه الآخرون في هذا المجال ولم يكن لوتس مؤسسا بل مقلدا غير أن الرائدين في الرياضة الروحية قبل لوتس لم يتركوا لنا شيئا مكتوبا حتي نبني عليه منهج الرياضة بينما لوتس ترك للمتأخرين أقوالا مما يؤخذ كمبدأ أو أصل في الرياضة فصار لوتس رائدا للرياضة الروحية بهذا الوجه .

ثانيا : إن الذين يشتغلون بـ"داو" يغايرون سائر البشر من حيث الهيئة النفسية والحالة الفكرية والطريقة العملية وكانت أحوالهم تمتاز بنوع من الباطنية الرمزية حتي يتعسر علي من كان خارج صفوفهم أن يعرفوا حقيقة أحوالهم . فإطلاق اسم الباطني علي هذا النوع من الرياضة ليس صدفة بل كان القدماء علي نفس النظر حتي يري لوتس أن الرياضيين غير معروفين لعمق نفوسهم ومغايرة أحوالهم عن سائر الناس فلا غرابة أن يطلق علي الرياضة الروحية اسم "المذهب الباطني".[٨٠٧]

ثالثا : إن الرياضيين القدماء ، سواء كان هدف رياضتهم للغرض الديني أم للغرض الصحي ، كانت أحوالهم تطابق أحوال المتصوفين والرياضيين المتأخرين في مختلف الأديان وإن كان غرضهم غير الغرض الذي يسعي إليه أصحاب الداوية .

رابعا : الأحوال المذكورة في النص كلها تتعلّق بالرياضة الروحية فالرياضة الروحية عبارة عن مجاهدة الروح والنفس لحصول علي تلك الأحوال أو نقول أن تلك الأحوال هي ثمرة الرياضة الروحية ولكن لا ننكر أن تلك الثمرة هي ثمرة أخلاقية حسنة ولذلك يمكن لنا القول بأن الرياضة الروحية عند لوتس تهدف إلي تهذيب الأخلاق وتحسين السلوك .

من أجل توضيح مدلول هذا النص يستحسن بنا أن ننقل بعض الكلمات من أحد العلماء المشهورين في العصر الحاضر حيث يقول :[إن هذا الفصل يصف أحوال من يتذوّق "داو" وإن "داو" سر غامض لا يدرك لغيبوبته ولذلك كان أصحاب "داو" متعمقين وصامتين فتتعسّر معرفتهم وأما أصحاب الدنيا فكانت صورهم ومزاجهم متدنسة وتتحرق قلوبهم للمصالح والشهوات وتتكشف أعماقهم بمجرد النظرة ...... وقد وصف النص هيئة أصحاب "داو" وأحوالهم النفسية بالورع والتنبه و الوقار والسماحة

---

[807] It is called in English "Mysticism".

والصدق والكرم والبساطة والسكينة والحرية وغيرها من حالات روحية للرياضة ..... ويجب علي أصحاب "داو" أن يلجأوا إلي التربية الذاتية وإلي الاطمئنان القلبي حتي يحصلوا علي حالة الصفاء والنقاء إستعانة بقوة السكون في حين كانوا في أوضاع القلق والاضطراب][٨٠٨].

والحاصل أن صفاء القلب ونقاء النفس وسكينة الفؤاد ومكارم الأخلاق كله كان من أحوال الرياضيين القدماء فيبدو أن الأخلاق كانت أساسا و ثمرة في الرياضة الروحية .

وقد نري أن المنهج الذي سار عليه لوتس أوأشار إليه كان أقرب إلي الرياضة الروحية منها إلي الرياضة البدنية حتي يري بعض الذين يتمسكون بالرياضة الروحية أن الرياضة الروحية هي الحق والطريق الأصيل في الداوية بينما غيرها باطل كما قيل [إن الطريق الباطل يدمي ظاهر الجسم وأما الطريق الحق فيحمي الروح وإن الروح الحقيقية تتصل بـ"داو"][٨٠٩] ويعني ذلك أن الرياضة الروحية هي طريقة الحق . وعلي كل حال صارت الرياضة الروحية سائدة عند الداوية عموما ولكن لا نعرف طريقا واحدا بالتفصيل علي الوجه الذي سار عليه لوتس نفسه.

إن الرياضة الروحية عند الداوية تتضمن رياضة من عدة الجوانب : الفكر والأخلاق والنفس [٨١٠] وقد إتّخذ الرياضيون لذلك أصولا من كلام لوتس [(عليك) أن تلتزم بغاية الخلاء وأن تحافظ على غاية السكون] (ف: ١٦) ويحتوي النص علي أهمّ العناصر في الرياضة و هو مجاهدة لأجل الخلاء والسكون.

ويبدو لنا أن الرياضة الروحية عند لوتس عبارة عن المجاهدة لأجل الخلاء والسكون ولعل الطريق إلي ذلك هو تطهير القلوب وتزكية النفوس ولم يوضح لوتس ذلك ولكنها واضحة مما شرحه المتأخرون وقال "خه شان قون" شارحا لهذا النص : إن أصحاب "داو" ينبذون الشعور والشهوات لتكون الأعضاء الخمسة الداخلية صافية وساكنة حتي تتوصّل إلي غاية الخلاء "[٨١١].

وفي ضوء ما شرحه "خه شان قون" يبدو أن المراد من الخلاء والسكون هو خلو النفس من الشهوات والغرائز و خلو الفكر من الشواغل والهموم حتي يصل الإنسان إلي هيئة الهدوء والإطمئنان فيتحلي بأوصاف "داو" المحمودة ويبقي معه .

---

[٨٠٨] تشين قو يين ، < لوتس شرحا وتطبيقا > ، ص: ١٢٢-١٢٣.

[٨٠٩] سي شين جين > والنص منشور في < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ص: ٣٨٢.

[٨١٠] ، الثقافة الداوية والحضارة المصرية > ، ص:٥٧.

[٨١١] تفسير خه شان قون : ، ص: ٦٢.

وهذا المقام يمكن لنا أن نعبر عنه بلسان التصوف الإسلامي بالفناء والبقاء وهو سقوط الأوصاف المذمومة من النفس وقيام الأوصاف المحمودة [٨١٢].

طرق الرياضة الروحية :

ولم نجد لوتس قد سلك مسلكا معينا لأجل حصول علي الخلاء والسكون ولكن الرياضيين بعده سلكوا مسالك عديدة فمنها [أن يبقي الرياضي وحيدا في غرفة خالية ويتفرغ للتفكير في "داو" و يكرس همته عليه] [٨١٣] و [يعتبر جسمه خاليا وقلبه معدوما] [٨١٤] حتي يأتيه السكون والخلاء ويتجلي له "داو" .

و قيل إن الذين يشتغلون ب"داو" أول ما يهمّهم أن يتفرغوا من كل الأمور ويقطعوا أنفسهم من الخارج ولا يربطوا قلوبهم بالأمور الخارجية وبعد ذلك يجلسون بهدوء وينظرون في الداخل حركات القلب وإذا ظهر أي فكر يبيدونه ويلزمون أنفسهم إلي الهدوء ...] [٨١٥] ولو واظبوا علي هذا التمرين لتبقي حالة الهدوء والسكينة في جميع الأحيان حتي عند المشي والنوم و تطمئنّ قلوبهم وان كانو قد دخلوا في موقع الحوادث ومكان الأصوات المزعجة فكأنهم لا يملكون القلوب سواء كانوا مشتغلين أو فارغين وتكون هممهم ترتكز علي شيء واحد سواء كانوا في مكان الأمن أو في مكان الإزعاج] [٨١٦] فيحصل السكون والخلاء ويقال لهذا المقام الاطمئنان الحقيقي .

ومن طرق الرياضة [أن تهدأ روح الإنسان ويطمئنّ قلبه فلا تطرأ عليه أفكار مشوشة ولا تدخل فيه شرور] [٨١٧]. فيأتيه السكون والخلاء .

إن الرياضة الروحية علي هذه الطريقة في الداوية قد لا تكون بعيدة عن طرق الرياضة في التصوف الإسلامي وان اختلفت الغاية بينهما فالصوفية الإسلامية اتخذوا طريقة شبيهة بتلك المذكورة من أجل حصول علي المعرفة وقد رسمها لنا الإمام الغزالي بعبارة واضحة كما يلي : "أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلي حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه" [٨١٨].

---

812 - الرسالة القشيرية >، ص:١٢٩.
813 قاله أحد الكتب الداوية والنص منشور في :
<The handbook of Toism > by Li Yang Zheng , old book press ,1993,p 297.
814 المصدر السابق .
815 < دين كوان جين > ، النص منشور في المرجع السابق .
816 المصدر السابق .
817 المصدر السابق .
818 < إحياء علوم الدين > ، ج:٣ ص:١٩.

وإلي هنا قد وصل السالك إلي حالة السكون والخلاء الذين يقول عنهما لوتس ولكن غاية السالك في الإسلام لم تكن حصول علي السكون بل أبعد من هذا فرسم لنا الغزالي بقية الطريق الطويل بقوله :" ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار علي الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة القرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوي الله تعالي فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه :الله الله علي الدوام مع حضور القلب حتي ينتهي إلي حالة يترك تحريك اللسان ويري كأن الكلمة جارية علي لسانه ثم يصبر عليه إلي أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا علي الذكر ثم يواظب عليه إلي أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقي معني الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلي أن ينتهي إلي هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالي بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقي إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها علي الأنبياء والأولياء بهذه الطريق ، وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه"[٨١٩] ... انتهي

وأراد الغزالي بلوامع الحق المعرفة والإلهام . فطريق الداوية تتحد بطريق الصوفية في الشطر الأول في حصول علي السكينة والخلاء ثم افترقا حيث ذهبت الداوية إلي التحلي بأوصاف "داو" والخلود معه بينما الصوفية ذهبت إلي المعرفة ثم يري الصوفية أن المعرفة تعود تسكن القلوب وتهدئ النفوس كما قال أبو علي الدقاق :"المعرفة توجب السكينة في القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته"[٨٢٠] .

ونجد في بعض أقوال لوتس ما يشير إلي الرياضة الروحية دون التفصيل ولا نعرف كيف كان لوتس يمارس تلك الرياضة ولكن نشأت من أقواله طرق ومذاهب فيما بعد وقال لوتس : " ألا يمكن تمسك الروح بالواحد دون انفصال (ف: ١٠)

وقد نفهم هذه العبارة علي أن قلب الإنسان يجب أن يحضر دائما مع الإله الواحد أو يفني في الإله ولكن كثر الكلام في ترجمة هذه العبارة وفي معاني كل الكلمة منها ولا نعرف القصد الحقيقي لدي لوتس، ويشرح كل واحد حسب ما فهمه هو و مهما كانت معانيها فإن الرياضيين قد استخلصوا من هذه العبارة إحدي الطرق الرياضية وهي طريقة يقال لها " التمسك بالواحد " .

---

[819] المصدر السابق ،ج:٣، ص:١٩.

[820] أبو القاسم عبد الكريم القشيري : < الرسالة القشيرية > دار إحياء التراث العربي،ص:٣٩٠.

ومن المعروف أن " الواحد " هنا يراد به "داو" فالتمسك بالواحد يقصد به " الإتحاد ب"داو". وثم اشتهر بين العلماء بأن غاية الرياضة عند لوتس هي الاتحاد ب"داو" أو أن الرياضة الروحية هي نفسها عبارة عن الاتحاد به. فيجدر بنا في هذا المقام أن نلقي ضوءا علي فكرة الاتحاد عند لوتس.

"إنّ مسألة الاتحاد هي قضية أساسية في فلسفة الصين التقليدية" [821] فلو تتبعنا تاريخ نشأة المسألة في الصين اوجدناها ترجع إلي أقدم العصور حين بدأت تنشأ الثقافة الصينية [822] فهي قديمة قدم الثقافة الصينية نفسها غير أن مضمون الاتحاد يتجدّد من عصر إلي عصر و تتغاير أشكالها بين حين وآخر وكانت الصورة الأولي للإتحاد عند الصينيين هي "إتحاد السماء بالإنسان " بمعني ظهور إرادة السماء في مجتمع الإنسان كما أنّ القحط والطوفان والحريق وغيره من الكوارث الطبيعية تعبر عن غضب الإله علي الإنسان ثم تطور المفهوم وصار معناه إتحاد الطريق السماوي بالطريق الإنساني بمعني أن الطريق السديد الذي سار عليه الإنسان بفطرته السليمة لم يختلف عن الطريق الذي يريده الإله من الإنسان أن يسير عليه .

ونري أن قضية الإتحاد غير منحصرة في الفلسفة الصينية بل كانت متواجدة عند كثير من الأمم علي أشكال مختلفة فإن فكرة الاتحاد عند الهندوسية كانت أظهر وأقدم وإنما نتحدث عن هذه القضية لأن مسألة الاتحاد تحمل أهمية كبيرة عند الداويين وقد أنسبوها إلي لوتس وليس هذا فحسب وإنهم يرون أن الاتحاد ب"داو" هو غاية أسمي للحياة عند لوتس.[823]

إن لوتس نفسه لم يستخدم كلمة الاتحاد بل عبر عنه ب" الوحدة السرية " ثم جاء بعده "جوان تس"[824] في القرن الرابع قبل الميلاد وتطور علي يديه مفهوم "الوحدة السرية" وأتي بمفهوم (تذوّق "داو") بدلا من "الوحدة السرية" في معني الاتحاد ثم تطوّر المفهوم بعد ذلك حتي ظهر اسم الاتحاد ب"داو" علي غرار المفهوم القديم عند الصينيين وهو "إتحاد السماء بالإنسان " ونسب الناس فكرة الاتحاد إلي لوتس.

فالوحدة السرية عند لوتس هي أن يزيل الإنسان كل ما يمتاز به نفسه عن غيره و يسوّي نفسه بغيره في كل شيء وقد قال لوتس: (على الإنسان) سد مداخله وإغلاق بابه وتفتير شوكته وإزالة خلافه وتلطيف روعته وتناسق معايشته و هذا هو "الوحدة السرية" (

---

[821] لو قوه لون : < فلسفة الداوية . ، ص: ١ ، المطبعة الصينية ، ١٩٩٧م .

[822] انظر المصدر السابق ، ص: ٤.

[823] انظر جيو لي شين : < حكمة لوتس > ، ص : ٧٤ ، المطبعة الشعبية ، خه باي ، ١٩٩٧.

[824] أشهر العلماء الداوية ويعتبر مكمل لفلسفة لوتس ويعيش في القرن الرابع قبل الميلاد .

ف: ٥٦). بمعني أن يذوب الإنسان في الأخرين ويذوب في العالم الطبيعي وتضمحل شخصيته حتي يكون مع "داو" روحيا وفكريا وقيل إن الوحدة السرية تعني إنسجاما تاما مع "داو".[٨٢٥] ولا يخفي أن هذه الحال هي حال الاتحاد، ولذلك قد ترجم كثير من العلماء " الوحدة السرية " باتحاد ب"داو" [٨٢٦].

و غاية ما في النص، أن من توصل إلي مقام " الوحدة السرية " زالت أمامه فروق بين " أنا " وبين غيري، و بين "أنا " وبين سائر الموجودات و اضمحلت كل شخصياته ونزوعاته الخاصة وذابت نفسه في نفوس الأخرين و تحرّر من النزاع والمنافسة والاحتكاك مع الغير. ويري الداويون المتأخرون أنه من توصل إلى الاتحاد يذوب روحه في "داو" ، فلا يفرق بين نفسه وبين "داو" كما قال أحد كتب الداوية فلا يعرف من أنا، ومن "داو" ويشعر بان "داو" أنا و أنا "داو"(٨٢٧).

ونجد كذلك في أقوال لوتس إشارة إلي فكرة الاتحاد : " ألا يمكن تمسك الروح بالواحد دون انفصال (ف: ١٠)

وقد كثر الكلام في ترجمة هذا النص واختلفت الأراء في مراد كل الكلمة فيه وقد ظهرت عدة الشروح لهذه العبارة ورأي أكثر العلماء أن الواحد في النص يراد به "داو" و أن التمسك بالواحد يقصد به " الإتحاد ب"داو". فالنص يتحدث أساسا عن مقام الاتحاد ويتحدث عن أحسن الحالة الروحية للإنسان

و أساس الإتحاد أن الإنسان يستطيع بنوع من الرياضة أن ينسجم مع "داو" وكانت نقطة الانسجام هو عدم الفعل الذي ذكرناه من قبل وذلك أن عدم الفعل هو طبيعة "داو"[٨٢٨] أو صفة أساسية له إذ أن " داو" عديم الفعل ويعمل كل شيء من خلال طبيعة الأشياء وأن الإنسان إذا تمسك بعدم الفعل لشارك "داو" في ذلك الوصف واتحد به .

وقال لوتس: الاشتغال بالعلم يزيد الناس يوما بعد يوم والاشتغال ب"داو" ينقص الناس يوما بعد يوم وينقص كل النقص حتى لا يبقى معه إلا عدم الفعل (ف:٤٨) وربما أراد لوتس بهذا النص أن يبين لنا الطريق إلي الاتحاد وأوضح لنا أن الرياضة أو الاشتغال ب"داو" هي عبارة عن التهذيب والتخلية بمعني أن يخلي الإنسان جميع الأوصاف البشرية والخصائص المادية ويفرغ نفسه من الشهوات والغرائز والطموحات وغيرها من المتطلبات الإنسانية حتي لا يبقي معه شيء ما يتعلق بالعالم الإنساني ولا يبقي معه إلا عدم الفعل الذي هو طبيعية

[825] انظر المصدر السابق ،ص: ٧١.
[826] انظر <دراسة لوتس > ص: ٢٠٥. وأيضا < الأيام العشرة للحديث عن لوتس> ص: ٣٢٥.
[827] Lui Ting Wang Shu Bao Ting Ji Zhu : والنص منقول من العريف بالداوية ص: ١٧٣ .
[828] ليو شيو مين :< لوتس يجيب عن أسئلة الضيف> ،ص: ٩١ ، المطبعة الشعبية ،شان هاي ، ١٩٩٩.

"داو" الخالصة وعندئذ يتحد الإنسان ب"داو" علي أساس عدم الفعل الذي يتواجد بينهما. ولعل الاتحاد عند لوتس كان علي هذا الوجه. وبما أن لوتس نفسه لم يعطنا التفاصيل بالدقة ليس لنا سبيل، إلا أن نتخيل بهذه الصورة غير أن هذا التخيل ليس بعيدا عن منهج لوتس.

وعلي كل حال يري لوتس أن هذه الحال ،سواء سمّاها هو نفسه ب"الوحدة السرية" أو سمّاها الآخرون بالاتحاد ، هي الغاية الأسمي عنده للحياة ، وهي لا تحصل إلا بالمجاهدة والرياضة الروحية.

لو وقفنا علي معني الاتحاد عند لوتس والداويين لوجدناه أقرب إلي معني الفناء الصوفي منه إلي الاتحاد كما أشار إليه الإمام الغزالي بقوله: العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق ، ولكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانا علميا ومنهم من صار له ذلك ذوقا وحالا ، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستهرت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضا فلم يبق عند الله فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم فقال بعضهم انا الحق وقال الأخر سبحانى ما أعظم شأنى وقال الأخر ما فى الجبة إلا الله ، كلام العشاق فى حالة السكر يطوى ولايحكى ، فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى الأرض عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الإتحاد بل يشبه الإتحاد"[(٨٢٩)] ... انتهى .

ولو أمعنا النظر فى حقيقة الإتحاد لظهر لنا أن أصحاب الداوية لم يفعلوا نحو الإتحاد غير ما فعله الصوفية الإسلامية للفناء . فحقيقة الفناء هي فناؤ العبد عن نفسه وعن الخلق ويكون واحدا مع الله وذلك أن "نفس الإنسان عند الفناء موجودة والخلق موجودون ولكنه لا علم له بهم ولا به ولا إحساس ولا خبر فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين غير محس بنفسه وبالخلق "[٨٣٠] فيري الناس أن ذلك اتحاد بالإله ولكنه فناء وسقوط الشعور ب التمييز بين نفسه وغيره ويرى الكل مع الحق واحدا [(٨٣١)] ويقول عند الفناء" أنا الحق" ولا يرى أمامه إلا الله وتصير الأشياء كلها له شيئا واحدا[(٨٣٢)]

فالاتحاد عند لوتس علي ما شرحه العلماء ليس إلا الفناء عند المسلمين ويدل علي أن غاية الرياضة عند لوتس هي فناء في "داو" سواء سمي به الاتحاد أو الوحدة السرية .

([٨٢٩]) الإمام الغزالى ، مشكاته الأنوار والاتس منشور فى دائرة معرف القرن العشرين ، لمحمد فريد وجدى ، (در المعرفة بيروت لبنان ١٩٧١) المجلد ١٠ ص ٦٨٥ .

[٨٣٠] . الرسالة القشيرية >، ص: ١٣٠.

([٨٣١]) أبو بكر محمد الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف"الازهر القاهرة . ص ١٥٢.

([٨٣٢]) المصدر السابق ص ١٤٨ .

لنعود إلي السابق أن بعض أقوال لوتس أدي إلي ظهور طرق الرياضة سواء قصد لوتس ذلك أم لم يقصده فمن كلامه "التمسك بالواحد" اتخذ الرياضيون مبدأ لرياضتهم. ويحكي أن "جوان تس" (القرن الرابع قبل الميلاد) هو أول من جعل "التمسك بالواحد" طريقة للرياضة وقد ذكرها بصيغة واضحة علي لسان أحد الرجال الخالدين قائلا: [أتمسك بالواحد وأنسّق (بين " يين " و " يان" أي بين القوة الذكورية والقوة الأنوثية) وأقوم بالرياضة منذ ألف ومائتي سنة ولم تظهر في صورتي شيخوخة] [833] فمن المحتمل أن اسم "التمسك بالواحد" كمنهج الرياضة اشتهر من هنا في أوساط الرياضيين وسواء قصد منه لوتس في البداية إطالة الحياة وإدامة الشبابة أو لم يقصد ذلك فإن "جوان تس " ومن بعده يعتقدون أن هذا الطريق يؤديهم إلي تلك الغاية كما قال أحد كتاب الداوية :إذا تمسك به الإنسان شهرا يزداد عمره سنة وإذا تمسك به شهرين يزداد العمر سنتين وهكذا كلما طال التمسك به يزداد العمر".[834] ولعل التمسك بالواحد عند "جوان تس" كان مرادفا للاتحاد ب"داو" وكان "داو" عنده الإله وكائن روحي لا مادي وربما منهج "جوان تس" كان أقرب إلي منهج لوتس.

وثم تطوّر مفهوم "الواحد " فيما بعد علي يد بعض الرياضيين و أعطوا له معني ماديا حيث يسوّون بين " الواحد" بالهواء الأصلي [835] . فمن العلماء وعلي رأسهم " خه شان قون " من كان يشتغل برياضة الهواء الأصلي في داخل الجسم باسم "التمسك بالواحد " وقال "خه شان قون" [إن الواحد هو ما تولّد من "داو" وهو الهواء الجوهري الذي في غاية التوافق والاختلاط ...... وإذا تمسك به الناس بلا إخراجه من الجسم يبقي الجسم] [836] وعلي هذا فإن التمسك بالواحد يراد به محافظة علي الهواء الأصلي في داخل الجسم من أجل بقاء الحياة وطول العمر .[837]

وأخيرا تغيّر مفهوم "التمسك بالواحد" تماما علي يد الرياضيين المتأخرين وصار " التمسك بالواحد " عبارة عن ملازمة الذهن أو الروح ل " دان تيان " و إنه يقع في مكان تحت السرة بقليل فطريقة الرياضة هي أن يجعل الرياضي بصره ناظرا إلي داخل الجسم ويركز ذهنه في "دان تيان " مع محافظة علي سكون النفس وصفاء القلب

---

[833] < جوان تس > ، الفصل، تساي يو .

[834] <Tai Ping Jing> see <The handbook of Toism > by Li Yang Zheng , old book press ,1993, p300 .

[835] يري جوان تس أن العالم متحد في الجوهر وهو الهواء حتي كان "داو" هواء يتحد مع سائر الكائنات في هذا الجوهر والهواء الأصلي هو ما جاء من "داو" ويحيي به الإنسان .

[836] < تفسير خه شان قون > ، ص: ٣٤.

[837] أنظر في < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، ص:٢٨٤.

فلو بقي علي هذا الوضع تجتمع في جسمه القوة الحيوية والهواء والروح إذ هذه الثلاثة تشكل عناصر الحياة و إذا إجتمعت الثلاثة في الجسم دائما تبقي الحياة دائما. [٨٣٨] ونلاحظ أن المكان تحت السرة مكان مهم للرياضيين الداويين وللصوفية المسلمين علي السواء ولا ندري ما العلاقة بينهما وأغلب الظن أن الصوفية تأثروا ب"يوجا" الهندوسية التي تهتم بعدة مواضع في جسم الإنسان ولعل التأثر كان بين الهندوسية والداوية ولا يمكن بين الصوفية والداوية مباشرا والله أعلم .

من الطرق الرياضة الروحية الزهد والتقشف

تري الداوية أن الإنسان يجب أن ينسجم مع "داو" في كل شيء بواسطة التخلّق بجميع أخلاقه حتي يعود إليه "داو" ويخلد معه ، ولكن الدنائس القلبية و الشهوات النفسية عوقت الناس عن حصول الصفاء والسكون الذين هما من أبرز خصائص "داو" و حالت بين المرء ومصيره (الرجوع إلي "داو") ، فلو أراد الإنسان الإتحاد ب"داو" ثم الخلد معه يجب عليه أن يسلك طريق الزهد والتقشف حتي يزيل تلك العوائق ، و يقول كتاب (دو ــ ده ــ جين): "لو أراد الإنسان أن يجد المصير له فليتقشف وليقلل الرغبات والشهوات"(ف:١٩) بمعنى أنه من أراد الرجوع إلى "داو" ويبقي معه فليزهد في الحياة لأن الشهوات والرغبات تمثّل عوائق قوية عن الوصول إلى الغاية ولا تمحي من قلوب الإنسان بسهولة إلا بالمجاهدة والزهد والتقشف .

والشهوات عند الداوية تشتمل على أنواع شتى منها الشهوات المادية والشهوات المعنوية وجميع الشهوات تضلّ الإنسان عن سواء السبيل وتجره إلي الشر والعصيان ، كما يقول لوتس :[إن الألوان الخمسة تعمي الأبصار وأن الأصوات الخمسة تصم الأسماع وأن الطعوم الخمسة تضعف الأذواق كما أن السعي للصيد وراء الرغبات يجن القلوب وأن البضائع النادرة تجر الناس إلي الفواحش.] (ف : ١٢) و قال أحد الكتب الداوية :[إن الألوان الخمس تجعل الإنسان أعمى وأن الأصوات الخمس تجعل الإنسان أصم ، والروائح الخمس تجعل الإنسان متذللا ، وهذه الثلاث مصائب البدن] [٨٣٩].

ويعني ذلك أن هذه الأشياء تفسد طبيعة الإنسان وتقصّر حياته و تبعده عن "داو" و تسد الطريق إلى البقاء والخلد ، فمن يرغب فى الاتحاد بــ "داو" والخلود معه فليزهد . فالزهد هو عبارة عن الامتناع من الملذات المادية والروحية وإزالة العوائق التى تحول بين الإنسان

[838] <The handbook of Toism > by Li Yang Zheng , old book press ,1993,p 299.
[839] < Xi Sheng Jing > see < Dao , Xian , Ren > , Cheng Yao Ting , Social Science Academy press , Shang Hai , 1992 , P 10.

والوصول إلي الهدف فالرياضة بهذه الصورة عبارة عن تطهير القلوب والنفوس من الشهوات وتهيئة طريق الرجوع إلي "داو".

إن الرياضة الروحية عند المسلمين هي عبارة عن تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب [840] وذلك أنهم يرون أن الأخلاق الحسنة صفة الأنبياء وعمل الصديقين وفعل الصالحين ورياضة المتعبدين وهي باب مفتوح إلي التقرب إلي الله وإلي معرفته وأما الأخلاق السيئة فهي أمراض القلوب وأسقام النفوس ومهلكة للعزة الدنيوية و السعادة الأخروية وهي تبعد الناس عن الله وتصدهم عن سبيله . ولذلك تقتضي الحكمة أن يتحلي الإنسان بالأخلاق الحسنة ويتخلي من الأخلاق السيئة فكانت الرياضة الروحية عندهم ليست إلا لأجل هذا .

وبالجملة إن الرياضة يراد بها معالجة أمراض القلوب لأن الأخلاق السيئة تمرّض القلوب بإبعادها عن الله وإن أهملت دون تهذيبها لأدت الناس إلي الشقاوة في الدنيا والخسران في الأخرة وقال الله تعالي في الشأن هذا : "قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها " والآية ربطت فلاح الإنسان بتزكية النفوس من الأوصاف المذمومة وخيبتهم بإهمالها . وبناء علي هذا اهتم المسلمون بتزكية النفس وقد سار جماعة منهم إلي طريق التصوف من أجل هذا الغرض .

ولا شك أن أمراض القلوب عديدة و عنيدة لاتعالج إلا بالمجاهدة المريرة ومن هذه الأمراض الكبر والشهوة والحسد والبخل والخداع والكذب والشره والرياء وغير ذلك وكل ذلك تعتبر الأمراض القاتلة .

وطريقة المعالجة أن يعرف الإنسان أمراضا ثم يعالجها واحدا بعد الأخر قد اتخذ فريق منهم طريقة معالجة شيء بضده كما أن البخل لا يعالج إلا بحمل النفس علي عمل السخاء ومواظبتها عليه . وها نحن نأتي هنا بالطريقة الصوفية في الرياضة علي سبيل المثال كما رسم لنا الإمام الغزالي إذ قال: طريقة الرياضة هي "حمل النفس علي الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتي يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب علي أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلي أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق ." [841]

---

[840] < إحياء علوم الدين > ،ج:٣،ص:٤٨.
[841] المصدر السابق ،ج:٣،ص:٥٨.

ولعل هذه الطريقة الصوفية تمثل تماما الطريقة الإسلامية في معالجة الأمراض النفسية إذ هي مبنية علي الكتاب والسنة .ولو قارننا نظرية لوتس بما قلنا من أفكار الصوفية في رياضة النفس لوجدنا أن لوتس قد عرف أهمية تزكية النفس وعرف طريقتها وقد سار علي ما يسير الصوفية بعده في تهذيب الأخلاق إلا أن الغاية الأقصي للرياضة عنده تغاير غايات المسلمين كما ذكرنا سابقا.

وبعد هذا العرض الموجز لنظرية لوتس في الرياضة مقارنة بالنظرية الإسلامية لعل أمامنا صورة واضحة لمن يشتغل بالرياضة من المسلمين وأتباع لوتس ولا يخفي علينا أن فكرة لوتس يبدو أن تختلف كثيرا عما تطور من كلامه علي أيدي المتأخرين من أتباعه ومن الرياضيين علي المذاهب الأخري وقد لاحظنا من هذه المقارنة أمورا تالية:

أولا: أن رياضة الجسم لم تكن منهجا للوتس في الرياضة كما هي ليست منهجا للصوفية المسلمين وإن كان ذلك لا يخالف مبادئهم كما لا يخالف مبادئ لوتس .

ثانيا: أن طول العمر وإطالة الحياة لم تكن غاية الرياضة عند لوتس لأنه لم يصرح بذلك قط وإنما هي آمال المتأخرين ونسبت إلي لوتس وهو منها بريئ كما أن الإسلام ينكر ذلك إنكارا شديدا .

ثالثا: يختلف لوتس عن الإسلام في غاية الرياضة وكانت الغاية عند لوتس هي رجوع إلي الحالة الطبيعية وإلي الاتصاف بخصائص "داو" أو اتحاد به بينما الغاية في الإسلام هي تطهير القلوب للحصول علي معرفة الله وفكرة الاتحاد عند لوتس قد نفهمه بمعني الفناء وعلي هذا فإن لوتس كان يسير علي نفس الطريق الذي سار عليه المتصوفون غير أنه توقف في وسط الطريق واعتبره النهاية بينما الصوفية ذهبوا إلي الأبعد وجعلوا المعرفة الغاية الأقصي للرياضة وللحياة كلها .

رابعا: لم يختلف لوتس كثيرا عن الصوفية في منهج الرياضة الروحية إذ أن أساس الرياضة عند الجميع تطهير القلب وتزكية النفس فالقلب كان أهم الشيئ لدي الجميع للإصلاح بواسطة الرياضة ولا شك أن ثمرة تلك الرياضة متماثلة عند الجميع وهي ظهور الأخلاق الفاضلة وغياب الأخلاق السيئة .

خامسا: أن ظهور الأخلاق الحسنة هو طابع عام لمن يشتغل بالرياضة الروحية اشتغالا حقيقيا سواء كان مسلما أو من أتباع لوتس .

الفصل السابع : الفكر العسكري عند لوتس

إن العالم "لما طالت وحدته لا بد من التفرق ولما طال التفرق لا بد من الوحدة " و هذا يمثّل رأيا عاما للصنيين عن أحوال البلاد عبر التاريخ إذ شاهد التاريخ مرة بعد مرة هذا التغير بين وحدة البلاد وتفرقها وتكررت هذه العملية بين حين وآخر. ففي العالم القديم حيث لم يكن هناك حدود واضحة لكل دولة كانت الحرب شيئا مما لا يبتعد عنه وأن اعتداء القوي علي الضعيف أمر عادي ولذلك كان القدماء الصينيون يعتبرون عبادة الإله والحرب من أكبر شؤون الدولة وأهمّ أمورها في كل سنة "[٨٤٢] ولا شك أن العبادة كانت واجبة علي الإنسان نحو الإله وخاصة الملوك منهم فيهتمون بها ثم إنما اهتموا بالحرب لكثرة حدوثها ولأنها صارت أمرا ضروريا لحماية الأرض والشعب أو للقضاء علي الطغيان والظلم ."[٨٤٣] فأصبحت الحرب لازما من لوازم الحكم وجزءا لا يتجزؤ من السياسة.

وبما أن لوتس كان مفكرا ومصلحا في عصره لا مفر له أن يفكر في مثل هذه الأمور ذات الأهمية الكبيرة ويبدي رأيه فيها مع أنه يعيش في زمن قد افتتن الناس فيه بالحروب. حقا إن لوتس تكلم فيها كلاما بعيد الغور و عميق النظر مما تشكّلت منه فكرته العسكرية وقد سجّل رأيه في كتاب <داو ده جين> الذي نحن بصدده. ونلاحظ أن القضية العسكرية مسألة ذات الأهمية الكبري عند لوتس وملأت القضية صفحات غير قليلة من كتابه، وقد قام أحد العلماء بالإحصائية الدقيقة عن عدد المرات الذي ذكر كتاب <داو – ده – جين > عن الأمور العسكرية فوجد أن عشر فصول من مجموعة واحد وثمانين فصلا قصيرا يتحدث عن أمور عسكرية ومن بين العشرة كان خمسة فصول تخص بالأمور العسكرية والباقي يذكر شيئا ما يتعلق بالحرب [٨٤٤] وقيل أن عشرة فصول تتحدث مباشرا عن الأمور العسكرية بينما أن عشرين فصلا يلمح إليها بطريقة غير مباشرة، [٨٤٥] ولكن بعض العلماء ذهب إلي الأبعد من ذلك وقالوا بأن الكتاب هو كتاب عسكري في الأصل كما قال "وان جينغ" (Wang Zhe)، أحد العلماء في القرن السابع الميلادي : " لم يكن في كتاب <داو ده جين> أي فصل من فصوله لم يتحدث عن الشؤون العسكرية " [٨٤٦] ولم يكن "وان جين" وحيدا علي هذا الرأي بل سار عليه كثير من الناس بعد ذلك إلي اليوم [٨٤٧] ولعلهم

---

[842] < زو جوان > من أقدم الكتب الصينية ، النص منشور في < حكمة لوتس > ص:٨٣.

[843] كان الملوك لا يشنون الحرب إلا باسم إرادة الإله للقضاء علي الظلم والطغيان وإنقاذ الأناس البائسين .

[844] أنظر في < تاريخ لوتس > ، ص: ٢٥٥.

[845] أنظر ليو شيو مين : < يجيب لوتس عن أسئلة الضيف > ، ص: ٢٨٠ ، المطبعة الشعبية شان هاي ، ١٩٩٩م.

[846] أنظر في < الثقافة الداوية و الحضارة الحديثة > ص:١٤١.

[847] أنظر في المرجع السابق : ص:١٤٣-١٤٦.

تعسفوا في هذا الرأي ولكن يدل هذا علي أن الفكرة العسكرية كانت من أهم الجوانب من تفكير لوتس.

لم يكن لوتس قائدا لجيش ولو ليوم واحد ولم يشارك في أية حرب من الحروب بل كان فيلسوفا و شأنه أنه أبدي رأيه عن الحرب والعسكر ولكن لعمق نظريته وشمول تفكيره قد ترك أثرا عظيما علي من جاء بعده إلي اليوم ومنهم العلماء العسكريون والقادة المشهورون ونذكر بعضهم علي سبيل المثال : " سون تس "(song zi) و " وون تس "(wen zi) و " مه تس " (mo zi) و " يان تس " (yan zi) [848] وغيرهم من أشهر العسكريين في تاريخ الصين حتي تأثر به مؤسس جمهورية الصين الشعبية في الحاضر "مو تس دون " (mao ze dong). وبما أن أفكار لوتس عميقة الغور وبعيدة النظر من ناحية الفن العسكري اتخذوا منها أصولا ومبادئ واعتبروا كتابه كتابا عسكريا من هذه الناحية .

ولكننا مع جمهور العلماء علي أن كلام لوتس قد تطرق إلي شؤون العسكر وفنون الحرب تحت الإنفعال بالأوضاع القاسية حينذاك ولكن الكتاب لم يكن كتابا عسكريا بتمامه علي أي إعتبار بل كان الكتاب كتابا فلسفيا في الأصل وتناول الحرب والعسكر من الناحية الفلسفية.

والجدير بالذكر أن لوتس يري أن مبادئ "داو" يجب أن تسود في كل شيء و في كل مجالات الحياة ولا سيما في مجال الحرب و في الشؤون العسكرية فالكلام عن الحرب والعسكر مبحث من مباحث "داو" ومن هذا المنطلق تحدث لوتس عنه وكان قصده كيف يجعل شؤون الحربية والعسكرية منتظمة في إطار "داو" .

المبحث الأول : الموقف من الحرب:

ومن طبيعة الإنسان أن يحب الأمن و يكره الحرب لما فيها من سفك الدماء وهلاك النفوس وتعطيل الحياة وهذا ما لا يرضي عنه كل نوع الإنسان.

وإن العصر الذي عاش فيه لوتس كان عصر القلق والفوضي من محاربة الولايات بعضها بعضا والصين المتحدة التي كانت في أسرة "جيو" لم تعد تبقي بل إنقسمت إلي ولايات مستقلة في شكل الدويلات. وحسب تسجيل تاريخي ظهرت مائة وأربعون دولة

---

[848] هؤلاء العلماء العسكريين والسياسيين في القديم ولهم مؤلفات في فن الحرب والسياسة وإشتهروا بمهارتهم في فنون الحرب .

في عصر "الربيع والخريف " (وهو ما بين السنة ٧٧٠ قبل الميلاد وبين السنة ٤٧٦ قبل الميلاد ويعيش بينها لوتس) [٨٤٩] وكانت الدولة الكبيرة تغزو الصغيرة دائما بزعم القضاء علي الظلم وإعادة العدل وتتحارب الدول الكبيرة بعضها بعضا فيتقوي بعضها أثناء الحرب و يضمحل البعض الأخر حتي إذا ما في العصر الذي يليه وهو عصر يقال له " الدول المتحاربة " لم تبق من تلك الدويلات إلا سبع دول قوية وقد تجاوزت الحروب خمسمائة مرة طول عصر "الربيع والخريف " (في خلال مائتين وأربعين سنة) وكان لوتس يعيش في نهاية هذا العصر.

و شاهد لوتس بنفسه أحد الوقائع الدامية التي دارت بين أمراء بلده وسبب ذلك أن الملك حينذاك يقال له "جين " (Zhen يحكم ما بين السنة ٥٤٤ قبل الميلاد وبين السنة ٥٢٠ قبل الميلاد) يحب أحد أبنائه وهو الأمير "جاو "(Zhao) وأراد أن يخلفه بعده ولما مات الملك سنة ٥٢٠ قبل الميلاد قام ولده الآخر يقال له الأمير "قاي" (Gai) ينازع الأمير "جاو" في السلطة وبينما كانا ينازعان في السلطة أقام الشعب أميرا آخر غيرهما كملك جديد و يقال له الأمير "مون "(Men) ، وهذا أثار غضب الأمير "جاو" وإتفق أن بعض عمال في البلد قاموا بالثورة ضد الحكومة لشدة العطالة فانتهز الأمير "جاو" هذه الفرصة وتحالف مع العمال واستخدمهم ضد الأمير "مون " وقتله إعتمادا علي قوتهم وتولي الحكم ولكن بعض الأشراف عارضوه .وخرجوا عليه وإلتمسوا المساعدة من ولاية مجاورة يقال لها "جينغ "(Jing) فأرسلت الولاية "جينغ" جنودها وأقام الأشراف الأمير " قاي " ملكا جديدا بمساعدة القوة العسكرية من الولاية "جينغ" فبدأ القتال بين الأميرين وإمتدت الحرب خمس سنوات وإنتهت الحرب بهزيمة الأمير "جاو" [٨٥٠] . وكان للوتس إرتباط مع أحد الأمراء اضطرّ إلي الفرار من الفتنة خلال أيام الحرب[٨٥١] .

وهذا ما حدث في بلد واحد بين الأمراء في البلاط وأما الحروب بين الولايات فكانت مستمرة والبلاء كان أشدّ وعلي سبيل المثال أن حربا شبّت بين الولاية " تشو"(Chu) وبين الولاية "سون"(Son) قبيل ولادة لوتس إذ حاصر جنود الولاية "تشو" إحدي المدن التابعة لولاية "سون " وإمتدّ الحصار أكثر من تسع شهور ولم يستسلم جيش ولاية "سون " معاونا من أهل المدينة ولكن لطول الحصار نفدت حميع الأقوات في المدينة

[٨٤٩] أنظر له شو جين: < الثقافة الداوية و الحضارة الحديثة >ص:٢٨٢، مطبعة الجامعة الشعبية الصينية ، بكين ،١٩٩١م.
[٨٥٠] أنظر سون يي كاي : < تاريخ لوتس، > ،ص: ٣٧ ، المطبعة الشعبية ،آن هوي ، ١٩٩٦.
[٨٥١] أنظر المصدر السابق ،ص: ٣٤.

ودافع أهل المدينة مع الجيش عن المدينة بالجوع و اشتدّت المجاعة إلي حد فوق التصور أن الناس أخذوا يبدّلون أطفالهم ثم يأكلونهم بعد الذبح [٨٥٢].

ومن الغريب أن كل من يشنّ الحرب يري نفسه علي الحق لامتثال بأوامر الإله فأصبحت الحرب مشروعة في عين المهاجمين والمدافعين علي سواء فكثرت الحرب في العالم القديم باسم الحق والعدل .

ونستطيع أن نتصور كيف كانت حياة الناس وكيف بؤسها وشقاؤها ولا شكّ أن كل من يعيش في مثل هذه الأوضاع المؤلمة يكره الحرب أشد الكراهية ويتمني الأمن بكل قلبه ويصيح بأعلي صوته للسلامة، فهكذا كان موقف الناس من الحرب. وكان لوتس بالطبع لا يختلف عن عامة الناس في النظر إلي الحرب وما يترتب عليها. فكان لوتس لم يعارض الحرب من وجهة النظر العام فحسب وإنما بني موقفه علي أساس آخر وذلك هو مراعاة مبادئ "داو" و يري لوتس أن الحرب مهما كانت دوافعها فإنها تخالف مبادئ "داو" وتناقض تعاليمه. وإن الذين يشنّون الحرب كثر ما يجمّلون دوافعهم ويربطونها عادة بالإرادة الإلهية ولكن الدوافع الحقيقية للحرب فيما يري لوتس لم تكن إلا لتحقيق الشهوات من الحكام للثروة والأراضي والسلطة وهي بعيدة كل البعد عن الحق و عن تعاليم "داو" كما أن الفتنة والحرب والقتل كلها ناشئة من فقدان تعاليم "داو" في المجتمع وقال لوتس : إن كان فى العالم "داو" يشتغل الجواد فى الحقل وإن لم يكن فى العالم "داو" تضع الخيل حملها فى المعركة (ف:٤٦). ويعني النص أن "داو" هو مناط سلامة العالم وإذا فقد لظهرت الفتنة فيه ولم يكن ذلك البلاء محصورا في الإنسان بل عمّ سائر الحيوانات حتي لم تسلم الخيول الحبلي من الفتنة و إستخدمت في المعركة و وضعت حملها أثناء القتال فالحرب علامة فقدان "داو" في المجتمع.

إنما يعارض لوتس كل الحروب لكونها تأتي بعواقب مخيفة من سفك الدماء و قتل النفوس وهلاك الحرث وتعطيل الحقول وغير ذلك مما يعود علي الناس بكل بلاء كما قال: أينما وصل الجيش فثمّ تزدهر الأشواك و يأتى عام مخيف بعد مرور الجيش الجبار (ف: ٣٠). ولعل هذا هو نتيجة لازمة لكل حرب حيث يفرّ أهل البلد عند وصول جيش العدو ويعطّلون الحرث وأينما وصل العدو يدمّرون البيوت ويقتلون النفوس فينتشر بعد ذلك الجوع والأمراض وغيرها من البلاء. ولعن لوتس صانعي البلاء أشدّ اللعنة فقال: إن الجبابرة لا يجدون حسن الموت (ف: ٤٢) وسيجدون عقابا أليما وقد حذّرهم لوتس بأنهم سوف يلقون جزاء وفاقا وقال " جزاء ذلك ميسور" (ف:٣٠) فكما يظلمون

---

[٨٥٢] انظر في < تاريخ لوتس ٠٠، ص: ٤٦.

يظلمون وكما يقتلون يقتلون فالحرب بأي سبب من الأسباب كانت مكروهة عند كل أحد من الشعب.

و إن من خصائص "داو" عدم الفعل والصفاء والسكون وهي مبادئ أعلي لحياة الإنسان عند لوتس وهي تتطلب من الحكام أن يحافظوا علي الأمن والسلامة و يخلّوا نفوسهم من الشهوات والغرائز ولا يزعجوا الناس بشيء من المشقات وقد كان لوتس يكرّر التنبيه علي الحكام بحفظ عدم الفعل والصفاء. ويبدو أن الحكام في زمن لوتس يسيرون علي عكس هذا الطريق فضلّوا عن سبيل "داو" فظهر كل الفساد والفوضي حتي الحرب و هي أشدّ فتنة علي الناس ويري لوتس أن كل ذلك نشأ من فقدان "داو" عند الحكام وفقدانه في المجتمعات و إنها تخالف طبيعة الإنسان كما تخالف مبادئ "داو" ولذلك عارض كل الحروب بأي اسم بدأ وكان يتمني أن يعود الناس إلي " الدولة الصغيرة ذات الشعب القليل " حيث لم يكن هنالك الحرب ولا قتال و يسود فيها الأمن والسلامة ولم يكن شيء يخالف "داو" وينازع الطبيعة.

ومن شدة معارضة لوتس للحرب لم يكن يكره القتال فحسب بل يكره الجيش الذي هو آلة الحرب ويعتبره علامة الشؤم والشرور و قال : إن الجيش سلاح مشئوم يكرهه الجميع ولذلك لا يستخدمه أصحاب "داو" (ف:٣٢)

ويري لوتس أن القوة العسكرية لا يمكن أن تخضع شعبا من الشعوب لأحد طغاة جبابرة وأن كل المحاولات لحل النزاعات بالقوة العسكرية يفضي في النهاية إلي الفشل فقال : إذا أراد أحد أن يحتل العالم و يتصرف فيه فإنه ، فيما أرى، لا ينجح لأن العالم شيء مقدس فلا ينبغي أن يتصرف فيه ولا أن يسيطر عليه ومن تصرف فيه أفسده و من سيطر عليه فاته (ف:٢٩) .

وكأن لوتس يقول أن العالم مملكة "داو" المقدسة و ليس لأحد أن يتدخل في ملكه ويتصرف فيه لأن ذلك ليس إلا إفساد العالم ومن يريد سيطرة علي العالم بالقوة أو يريد إحتلاله بالجيش سينهزم هو نفسه في النهاية لمخالفته تعاليم "داو" ومن لم يتبع "داو" يضمحل سريعا[٨٥٣] . وكان لوتس يتمني من الحكام ألا يلجأوا إلي الحل العسكري في قضاء النزاعات بل يرشدهم إلي "داو" حتي ينصح لوتس الوزراء بأن يؤيّدوا ساداتهم ب"داو" ولا يوجهوهم إلي الطريق المتطرف أي طريق الحرب والقتل وقال لوتس : إن اللذين يدعمون سيد القوم ب"داو" لا يقهرون العالم بالجيش (ف:٣٠) . ومعني ذلك أن للوزراء مسؤولية كبيرة لتقديم النصائح الصالحة للحكام وينبغي لهم أن ينصحوا

---

[٨٩١] يقول داو ده جين : وما يخالف "داو" يفني سريعا ، (الفصل :٥٥) .

الحكام بما يوافق تعاليم "داو" ولا يضلّوهم بخلاف ذلك حتي لا يستعد الحكام جيشا عظيما للغزوة ولا يجهّزوا للقتال ولا يخوّفوا الناس بالقوة الجبارة لأن حسب قوانين "داو" يوم تقوّي شيء قد قرب من الهلاك كما أن الخشب اليابس قوي ولكنه عرضة للكسرة وكذلك الجيش إذا تقوّي إقترب من الهزيمة وقال لوتس :

ولذلك كان الأقوياء أصحاب الموت و الضعفاء لصحاب الحياة كما أن الجيش القوى لا ينتصر والخشب الصلب يتعرض للكسر فكل القوى يقع فى الأسفل بينما كل الليّن يقع فى الأعلي (ف:٧٦)

ومن المعروف أن القوة العسكرية هي سبب حاسم للإنتصار في الحرب ولكن حسب قوانين "داو" فيما يري لوتس أن القوة لا تدوم وإذا وصل شيء إلي قمته يتراجع قهقريا إلي الضعف وأن الجيش يوم يظهر قويا قد سار علي طريق الضعف والهزيمة ومن ثم دعا لوتس إلي الإبتعاد عن إظهار القوة والتجنب من سيطرة علي العالم بها.

وقد بلغت كراهية لوتس للحرب إلي حد أنه يعتبر الزحف إلي الحرب حضورا لمراسم الجنازة فطلب من قادة الجيش أن يرتبوا الجيش علي غرار الجنازة . وقال لوتس: [إن الأمر السعيد يقع فى اليسار بينما الأمر المشئوم يقع فى اليمين . والقائد الجناحى يقف فى اليسار بينما القائد الأعلي يقف فى اليمين ويعني هذا أن الحرب لا بد أن تعتبر جنازة وإذا قُتل خلق كثير لا بد أن يتأسى عليهم بالبكاء و يُحتفل النصر بالجنازة.] (ف:٣١) .

وإن القدماء الصينيين يعتبرون جهة اليمين جهة الشر واليسار خيرا فيرتبون جهة اليمين لقيام بالأعمال في حالات المصيبة مثل موت أحد الناس بينما يتخذون جهة اليسار للقيام بالأعمال في حالة السعادة كالزواج وولادة المولود وأما في الحرب فيجعلون القائد الأعلي علي الميمنة والقائد الجانبي علي الميسرة وتدل هذه التعبئة علي أن القتال يرتب علي غرار الأمر المشؤوم الشرير إذ أن القائد الرئيسي يكون في جهة اليمين . و من عادة الناس أنهم إذا نجحوا في شيء يفرحون به و يحتفلون به مع كل السرور والبهجة وكذلك يفعل الجيوش عند الإنتصار دون المأساة علي من فات الحياة في ميدان القتال ولكن لوتس يري ذلك يخالف الإنسانية تماما فلا ينبغي أن يحتفل بالغلبة للحرب لأن الفرح بذلك يدل علي الفرح بالقتل والتدمير وهذا ما لا يحبه جميع العالم ولذلك قال لوتس :

و إذا غلبوا لا يفرحون وأما إذا فرحوا فإنما يفرحون بالقتل ومن يفرح بالقتل لا يرضى عنه العالم ...... و يُحتفل النصر بالجنازة (ف: ٣١) .

لعل لوتس أقام لنا نموذجا حسنا لحل النزاعات في الشؤون الدولية إذ يري أن الحرب لا تنفع في قضاء النزاعات بل تعقد الأمر وأحسن الطرق هو إتباع تعاليم "داو" التي من ضمنها السكون (السلامة) والرفقة واللين و رعاية مصالح الشعوب.

ثم إن لوتس مع كراهته الشديدة للحرب لم يمنعها مطلقا بل جوّزها أحيانا ومن الصورة التي رسمها لوتس للدولة الصغيرة لا نجد مشهدا للمعركة والقتال ولا نشعر بالدعوة إلي الحرب بل بالعكس كان لوتس يحاول بكل جهده أن يبعد عن الحرب ويذكّر العواقب المخيفة التي تنشؤ منها ولكن يعترف بأن الحرب قد تأتي من غير توقع الإنسان فيضطر إليها حتي لا سبيل إلي المفر منها و ذلك أن البلد قد يضطرّ إلي الحرب عندما يعتديه بلد آخر ظلما فيري لوتس أن الحاكم الفاضل لا يجرّ شعبه إلي الحرب إلا للضرورة وذلك لدفاع عن الأرض والمال والأنفس كما يقول: إن الجيش سلاح مشئوم وهو ليس آلة للفضلاء . وقد يستعملونها عند الضرورة (ف:٣١). ويدلّ النص علي أن الحرب جائزة عند الضرورة مع كراهية شديدة وأن الجيش علامة الشؤم وآلة الفسق ولكن إذا إضطرّت الظروف إلي إستعماله يجب ذلك لمصالح الشعب بشرط أن يوقف الحرب عند أدني حدّ النجاح ولا ينتهز الفرصة لقضاء علي العدو قضاء تاما أو يهلك بلد العدو إهلاكا شنيعا.

ومن جانب آخر يري لوتس أنه إذا إضطر الإنسان إلي الحرب لا ينبغي أن يبدأ من طرفه القتال بل ينتظر فإذا هجم العدو يجب عليه الدفاع وإلا فينسحب من المعركة كما يقول : لا أتجرأ علي أن أكون مضيفا بل أكون ضيفا (ف: ٦٩) [٨٥٤] ومعني النص أن أصحاب "داو" لا يريدون أن يكونوا متقدمين لإثارة المعركة بل منفعلين في الدفاع وقد شبّه ذلك بشأن الضيف والمضيف إذ أن المضيف يكون حرا عاملا وفاعلا و يتصرف في بيته كيفما يشاء بينما الضيف لما نزل في بيت المضيف يحذر حذرا بالغا ويحافظ علي حرمة الضيافة و يلتزم بآدابها ويقصد من النص أن أحدا لا ينبغي أن يكون أول من يهاجم علي غيره بل يكفيه أن يدافع عن نفسه فقط .

يتبين من هذا الموقف عند لوتس أن غاية الحرب عنده ليست إلا دفاعا عن النفوس والأموال وتوفير السلامة لأهل البلد لأن من مبادئ السياسة للدولة الصغيرة أن تقدم سلامة لشعبها وتزيل أسباب العداوة "حتي تضع الحرب أوزارها " و قال لوتس : ولهم أسلحة لا

---

[٨٥٤] والمضيف هو صاحب البيت الذي نزل عنده واحد وكان للمضيف حرية كاملة ويتصرف في بيته كما يشاء بينما الضيف هو من نزل عند المضيف بقصد حسن واكنه في بيت المضيف يتقيد بآداب ويبقي بحذر بالغ و ليست له حرية أن يتصرف بإرادته ويسمع كل ما يقوله المضيف وهذا كناية علي أن المضيف متصرف وفاعل في كل شيء والضيف متحذر و منفعل وقد شبه لوتس من كان يشبّ الهجوم بالمضيف الفاعل المتصرف وشبّه من كان علي حذر و لا يتصرف بالضيف .

يتسلحون بها..... ليكن طعامهم لذيذا ولباسهم جميلا وليفرحوا بسكناهم ويرضوا عن عاداتهم (ف:٨٠).

ويبدو أن لوتس قسّم الحرب إلي حرب الحق وحرب الباطل وأما حرب الحق فهي جرب الدفاع بينما حرب الباطل هي إحتلال والاعتداء.

ويري لوتس أن الذين قاموا بحرب الحق إذا إنتصروا يجب ألا يفرحوا بها وأن يعتبروا أنفسهم غير قاصدين لذلك الانتصار بل وقعوا في الحرب من باب الاضطرار كما قال لوتس : فلا يفتخر عند النتيجة ولا يتكبر عند النتيجة ولا يتبجح عند النتيجة و (عليه أن) يعتبر النتيجة شيئا مضطرا إليه (ف:٣٠).

"النتيجة" في النص يراد بها الفوز أو تعذيب الطغاة أو إنقاذ المظلومين أو إعلاء الحق وغير ذلك من الأهداف النبيلة وحتي إذا انتصر فريق الحق ينبغي أن يشعر بالمأساة علي المنهزمين ويعتبر ذلك الفوز غير مقصود بل كان نتيجة غير منتظرة ولا متوقعة .

إن الإسلام دين السلام ودين اللطف والرحمة وأن المسلمين لا يختلفون عن الآخرين في أصل فطرتهم من حب الحياة وكراهية الموت فكان الإسلام يراعي هذه الفطرة ولذلك يدعو الناس إلي المسالمة مع أنفسهم ومع الآخرين ومع العالم الطبيعي فالإسلام من حيث المبدأ يكره الحرب والقتال وقال النبي صلي الله عليه وسلم :"ياأيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية "[٨٥٥]. وروي أن رسول الله بعث معاذا في سرية وقال لا تقاتلوهم حتي تدعوهم فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتي يبدؤكم فإن بدؤكم فلا تقاتلوهم حتي يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك القتيل وقولوا لهم هل إلي خير من هذا سبيل فلأن يهدي الله تعالي علي يديك خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت.

ولا شك أن الأمن والسلام من أهم ما يهم حياة الإنسان سواء كان مسلما أو غيره ومن ثم كان من أحد مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ النفس والحياة وتقديم السلامة للعالم .

ولكن ذلك لا يعني أن الإسلام يمنع الحرب منعا قاطعا أو يحرم القتال مطلقا ولا يبدأ بالهجوم علي العدو قط بل الإسلام يبيح ويسمح بالقتال إذا اضطر إلي ذلك وقال الله تعالي :

أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير (الحج:٣٩).

وهذه الآية أول ما أنزل في شأن القتال و تشير إلي أن القتال قد أذن للمسلمين بما لقوا من ظلم وجور وأذي من الكفرة فكان القتال في البداية أو في حالة الضعف علي سبيل الدفاع لا

---

[٩٦٦] رواه مسلم ،كتاب الجهاد

علي الهجوم . وقال الله : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .(الأنفال:٦٠) ولعل هذه الآية تضمنت الموقف الدفاعي وذلك لأسباب :

أولا ، أمر الله بالإعداد للحرب والقتال حتي يكون لدي المسلمين قوة كافية للقاء العدو إذا برز فلم يطالبهم في هذه الاية أن يهاجموا علي العدو كلما وجدت لهم القوة بل أن ينتظروا باستعداد كامل ومعني ذلك أنه إذا قاتلهم العدو قاتلوهم وإلا يسالموهم بالمواعدة .

ثانيا :تدل الآية علي أن قصد الإعداد هو إرهاب العدو لا قتالهم فإذا خاف العدو برؤية القوة الجبارة لدي المسلمين ثم انسحبوا من ميدان القتال بلا قتال فقد تحقق القصد لإعداد القوة.

وبناء علي الآيات المذكورة يمكن لنا القول بأن أول موقف الإسلام من الحرب هو موفق دفاعي ولكن هذا الموقف لم يكن موقفا دائما للإسلام وكان الإسلام له موقف أخر كذلك وهو موقف هجومي وذلك أن الحرب لها أسباب فإذا اضطر المسلمون إليها فلا مفر لهم من الخوض فيها ويبدأون بها وربما أول الأسباب هو الدفاع ورد الاعتداء كما ذكرنا وثم هناك أسباب أخري تقتضي من جانب المسلمين أن يبدأوا بالحرب والهجوم وذلك أن النبي صلي الله عليه وسلم اشترك هو نفسه تسع عشرة غزوة [٨٥٦] كما أرسل السرايا إلي أرض المشركين وكذا فعل الخلفاء الراشدون ومن بعدهم .ولذلك أجمع الفقهاء علي أن الجهاد فرض الكفاية علي جميع المسلمين إن لم يكن النفير عاما وأما إذا كان النفير عاما فيصير الجهاد من فروض الأعيان [٨٥٧]. ولقد وردت آيات في القرآن تحض المؤمنين علي الجهاد والقتال وتقرر فرضية الجهاد . قال الإمام السرخسي :"والحاصل أن الأمر بالجهاد وبالقتال نزل مرتبا فقد كان النبي مأمورا في الابتداء بتبليغ الرسالة والإعراض عن المشركين قال الله تعالي [فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين](الحجر:٩٤) وقال [فاصفح الصفح الجميل](الحجر:٨٥) ثم أمر بالمجادلة بالأحسن كما قال :[أدع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة](النحل :١٢٥) وقال [ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن](العنكبوت:٤٦) ثم أذن لهم في القتال بقوله [أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا](الحج:٣٩) ثم أمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم كما قال [فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين](التوبة:٥) ثم أمروا بالقتال مطلقا بقوله [وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم](البقرة:٢٤٤) فاستقر الأمر علي هذا ومطلق الأمر يقتضي اللزوم"[٨٥٨].

---

[٨٥٦] انظر سنن الترمذي في كتاب الجهاد.

[٨٥٧] برهان الدين أبو الحسن المرغناني : < الهداية > ، المكتبة العربية ، كراتشي ، ج:٢ ص: ٥٣٨-٥٣٩. وكذا أبو الوليد ابن رشد < بداية المجتهد > دار الفكر ، بيروت ،ج:١ ص:٢٧٨.

[٨٥٨] محمد أحمد السرخسي : < شرح كتاب السير الكبير>، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ،١٩٥٨، ج:١ص: ١٨٧-١٨٨.

وسبب إباحة القتال هو كما يري الفقهاء القدماء إعزاز الدين وقهر المشركين [859] أو إعزاز الدين وكسر شوكة المشركين[860] أو إعزاز دين الله ودفع الشر عن العباد[861] ويري بعض العلماء أن شرط إباحة الجهاد شيئان أحدهما امتناع العدو عن قبول ما دعي إليه من الدين الحق وعدم الأمان والعهد بيننا وبينهم والثاني أن يرجو الشوكة والقوة للإسلام باجتهاده[862].

ولا يخفي علي أحد أن هذه الأسباب تتضمن دوافع الهجوم علي العدو لا دوافع الدفاع فقط لأن إعزاز الدين وكسر شوكة المشركين وإكتساب القوة للإسلام كل هذه يقتضي ابتداء الحرب من جانب المسلمين فلا نبالغ إذا قلنا إن موقف الإسلام من الحرب موقف دفاعي وهجومي.

وقد ذكرنا أسباب القتال عند قدماء الفقهاء ولكن تلك الأسباب عامة ونحن في ضوء ما ورد في القرآن نستطيع أن نفصل هذه العمومية فنري كما فعله بعض العلماء المحدثين[863] أنه من أسباب الحرب المشروعة في الإسلام نصرة ضعفاء المسلمين الذين يعانون مظالم الكفرة. وقال القرآن الكريم : وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (النساء :٧٥)

ومنها القضاء علي الحروب الداخلية وقال القرآن :

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما علي الأخري فقاتلوا التي تبغي حتي تفيء إلي أمر الله (الحجرات:٩)

ومنها حرب المرتدين : وإذا خرج أناس علي طاعة الإمام أو الخليفة بغير حق حاربهم المسلمون لإخضاعهم إلي الطاعة كما فعل ذلك خليفة النبي صلي الله عليه وسلم أبو بكر الصديق مع المرتدين وقاتلهم قتالا حتي رجعوا إلي الطاعة[864].

ومنها قتال الكفرة لرفضهم الإسلام وردّ الأحكام الإسلامية بعد ما دعاهم المسلمون إلي الإسلام أو عرضوا لهم أداء الجزية كما جاء في القرآن:قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

---

[859] شرح كتاب السير الكبير ، ج ١ ص:١٨٨.

[860] محمد أحمد السرخسي < كتاب المبسوط > ، دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت، لبنان ،١٩٧٨م، ج:١٠ ص:٣.

[861] الهداية > ، المكتبة العربية ، كراتشي ، ج:٢ ص: ٥٣٨.

[862] مولانا الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند الأعلام < الفتاوي العالمكيرية > ، بلوجستان بك دبو ، بلوجستان ،باكستان ، ١٩٨٥ م، ج: ٢ ص:١٨٨.

[863] انظر سعيد حوي :< الإسلام > ،مكتبة وهبة ،ج:٣ص:١١٤-١٢٣ وأيضا عبد الكريم زندان :< أصول الدعوة > ص:٢٧٢-٢٧٧

[864] وذلك لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله قال أبو بكر لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فوالله فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر بالقتال فعرفت أنه الحق (رواه الترمذي).

الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ..." (سورة التوبة:٢١). والآية صريحة في بدء المؤمنين لغيرهم بالقتال إذا رفضوا الإسلام ورفضوا الأحكام الشرعية.

ومنها قتال الكفرة لإعلاء كلمة الإسلام وقال القرآن الكريم :

وقاتلوهم حتي لا تكون الفتنة ويكون الدين كله لله (الأنفال:٣٩) ويري العلماء أن الفتنة هي الكفر والشرك[٨٦٥] وأن الدين هو الانقياد لله بالطاعة والاستسلام له.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله [٨٦٦]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله. [٨٦٧]

فموقف الإسلام من الحرب ليس موقفا دفاعيا فحسب وإنما هو موقف هجومي كذلك ولكن يختلف اتخاذ المواقف باختلاف الأسباب والظروف وأولي للمسلمين أن يتخذوا موقفا أنفع لهم في كل الظروف. فإذا بدأ المسلمون بالقتال كان ينبغي عليهم أن يراعوا تلك الأسباب المشروعة ولا يجوز لهم الخوض في القتال دون الدوافع الشرعية وإلا فقد وقعوا في الظلم.

فالإسلام لم يختلف عن لوتس في الموقف من الحرب فهي مكروهة عند الجميع سواء كان المسلمين أو غيرهم ، لا يستثني لوتس من هذا الموقف العام ولكن الحرب المشروعة عند لوتس هي حرب دفاعية فقط دون غيرها ولا يدعو إلي الهجوم ولا شن الحرب. أما الإسلام فهو يعترف بطبيعة الإنسان أن تكره القتال والحرب ولكن إذا شبت الحرب أو قامت الأسباب للحرب وجب علي أهل البلد الجهاد وحث الإسلام إلي القتال ووعد للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم درجات في الجنة ومغفرة في الآخرة. ومن هنا نري الاختلاف بين فكر لوتس والفكر الإسلامي بأن فكر لوتس يمتاز بالمحافظة وعدم التفتح وكان هدفه حفاظا علي نفسه أو علي أهل بلده من الشرور ولم يقصد إنقاذ غيرهم من الجور والظلم كما لا يجاهد لأجل نشر الحق بينما الإسلام يمتاز بالحيوية والتفتح وكان جهاده ليس للدفاع فحسب بل للهجوم علي العدو للأسباب المذكورة منها إنقاذ المظلومين وإعلاء كلمة الحق فبذلك صار الإسلام دين التفتح ودين العالمية.

---

[865] انظر < تفسير القرطبي > المجلد الأول ص:٣٥٤.

[866] رواه مسلم بكتاب الجهاد.

[867] أخرجه الترمذي في كتاب الجهاد.

المبحث الثاني : مبادئ الحرب

إن الحرب أمر قاس لما يفضي إليه من هلاك النفوس وسفك الدماء وتعطيل الحياة وغير ذلك من أنواع البلاء فمن طبيعة الإنسان يكره الحرب ويحب السلم ويتمنّي أن يعيش في مجتمع بعيد من القتال والحروب وكان لوتس يعارض الحرب مراعيا لهذه الطبيعة الإنسانية فيتخذ موقفا يوافق تعاليم "داو" وهي اللين والرخاء والضعف والرحمة فمن حيث المبدأ يكره لوتس جميع الحروب ويدعو إلي الحل السلمي ولكنه يري أن البلد قد يضطرّ إلي الحرب أحيانا من غير قصد من نفسه فلا يمنع أن يخوض فيها من أجل الدفاع وقد وضع لوتس للحرب مبادئ لكي يتبعها الحكام وقادة الجيش في المعركة وإنما فعل لوتس هذا تمنّيا لتقليل فقدان النفوس و تخفيف شدائد القتال أو لتجنب من الحروب ونذكر هذه المبادئ فيما يلي :

(١) تخطيط الحرب بالإستراتيجية النادرة

قال لوتس : (علي الحاكم) حكم البلد بالاستقامة وتخطيط الحرب بالندرة (ف:٥٧) والمراد من الندرة كما فهمه بعض العلماء هو أسلوب نادر غير معروف ويراد بذلك طريقة غريبة لم يعرفها العدو حتي ينتصر عليه من حيث لا يعلم أو كان مراده هجوما مفاجئا ولا يبعد أن يستخدم طريق الخدعة.

قال "سون تس " (song zi)[٨٦٨] في كتابه المشهور < قوانين الحرب ل سون تس > : "إن جميع الحروب تتساوي بالإستقامة وتنتصر بالندرة " . وفهم الناس منذ القدم أن الإستقامة يراد بها قتالا وجها بوجه بجيش من جانبين وأن الندرة هي الهجوم المفاجئ من إحدي الأطراف وذلك أن الجيش القديم لما إلتقي الجمعان للقتال وقفا وجها بوجه في الصفوف ثم تبدأ المقاتلة بين الفريقين عند سماع الصوت من الطبل العسكري ويتوقف القتال بصوت الطبل كذلك ويلتزم الفريقان هذا القانون ولا يتقدّم أحد إلي القتال من غير سماع الصوت. وهذه الصورة من القتال أقرب إلي المسابقة منه إلي الحرب فيري "سون تس" أن الحرب بهذه الصورة لا تأتي بنتيجة و لا يغلب أحد غيره إلا بكثرة عدد الجيش وإذا يتساوي العدد تتساوي النتيجة بلا غلبة ولا هزيمة وأما الحرب

[٨٦٨] وهو أشهر العلماء العسكريين في تاريخ الصين و عاش في القرن الثالث قبل الميلاد و كتابه في فن الحرب يسمي < قوانين الحرب ل"سون تس" > لا يزال مرجعا أساسيا إلي اليوم في فن الحرب .

الناجحة فهي ما يستخدم فيه أسلوب نادر وغير معروف حيث لا يقاتل الفريقان وجها بوجه ولا يلتزمون بالقوانين القديمة بل يهاجم علي العدو مفاجأة من الخلف أو من جانبين .

ولعل " سون تس" في هذا الأسلوب قد تأثر بفكرة لوتس من كلامه " وتخطيط الحرب بالندرة". فالندرة عند لوتس فيما يراه الناس هي خدعة أو هجوم مفاجئ .

من روائع القصص الحربية عند الصينيين من هذا القبيل أن الرجل يقال له " جُو قَه لان " (zhu geliang) في عهد المماليك الثلاثة (٢٢٠ -٢٨٠ م) ولا يزال هو إلي يومنا هذا مضرب المثل في الذكاء و كان مستشارا لملك مملكة "شُو" (shu) و ذات مرة كان في إحدي المدن الخالية و معه عدد قليل من الرجال فجاء جيش مملكة "وِي" (wei) بعدد هائل تحت قيادة القائد اسمه "سِي مَا يِي " (si mayi) فرأي " جُو قَه لان " أنه لو يحارب هو ورجاله القليلون مع العدو أو يفر من المدينة سيهلك هو ومن معه شر الهلاك و في هذه الحالة الحاسمة أمر رجاله بفتح بوّابات المدينة و أمرهم بتنظيف الشوارع خارج البوابات و داخلها وهو صعد إلي فوق البوّابة حاملا آلة الموسيقي ثم يعزفها كأنه مستعد لإستقبال الضيوف. و لما إقترب جيش مملكة "وِي" (wei) من المدينة رأي "سِي مَا يِي " حالة علي خلاف العادة بأن البوّابات مفتوحة و أن " جُو قَه لان " يعزف بالهدوء والإطمأنان فتقدّم "سِي ما يِي " يسمع صوت الموسيقي و لم يجد فيه أثرالفزع و الرعب فخاف وظنّ أن هنالك مؤامرة خطيرة وراء ذلك فأمر جيشه بالإنسحاب بأسرع ممكن فلما إنسحب "سِي مَا يِي " مع جيشه قام " جُو قَه لان " و أمر رجاله بالفرار و بعد يوم وصل الخبر الصادق إلي "سِي مَا يِي " بأن المدينة كانت خالية و أن " جُو قَه لان " مع رجاله قد فر بعد ذلك إلي حيث لا يمكن الإدراك .

ولا شك أن " جُو قَه لان " استخدم فكرة لوتس بأروع صورها في هذه القصة. وهذه الإستراتيجية ليست غريبة علي المسلمين وقد نجد أروع الأمثلة في استخدام الإستراتجية النادرة في غزوات الرسول صلي الله عليه وسلم وعلي سبيل المثال ما فعله الرسول في غزوة الخندق إذ أتاه خبر بأن مشركي مكة قد جمعوا لمحاربة المسلمين في المدينة وهم قد قربوا منها فأمر النبي صلي الله عليه وسلم أصحابه بحفر خندق حول المدينة علي اقتراح سلمان الفارسي رضي الله عنه وهي طريقة لم يعرفها العرب من قبل ولما قدموا إلي خارج المدينة وجدوا الخندق بينهم وبين المسلمين واندهشوا فحاول جيش المشركين أن يقتحم الخندق ولم يستطيعوا وبذلك فشل هجومهم للمدينة وإنتهت الغزوة بهزيمة المشركين . وعلاوة من هذا قال النبي عليه السلام :الحرب خدعة . ولعل الخدعة عند النبي يراد به الاستراتيجية النادرة .

(٢) عدم شنّ الهجوم

يجوّز لوتس الحرب إذا أضطرّ البلد إليها إلا أنه يطلب من قائد الجيش أن يحاول الابتعاد عنها حتي إذا دخل الفريقان في المعركة لا يبدأ القائد الفاضل قتالا مع العدو تمنيا أن ينسحب العدو بنفسه فتنتهي الحرب بلا قتال قال لوتس : لا أتجرأ علي أن أكون مضيفا بل أكون ضيفا (ف: ٦٩) [٨٦٩] والقصد من النص أن القائد الحكيم لا يثير القتال ولا يهاجم علي العدو بل يحذر حذرا بالغا كالضيف الذي نزل في بيت الصديق ولا يتصرف كما يشاء و قصد النص واضح أنه لا يكون أول من يهاجم بل إذا هاجم عليه العدو يدافع عن نفسه فقط أو ينسحب قليلا وقال لوتس : ولا أتجرأ علي التقدم بشبر بل أتخلف ذراعا(ف:٦٩) حتي لا يجد العدو من يحاربه فيترك القتال وتنتهي الحرب واعتبر لوتس هذا من أروع مهارة التخطيط إذ قال : وهذا هو التخطيط بلا تخطيط والتهزيز بلا يد والمواجهة بلا عدو (ف:٦٩) بمعني أن العدو لا يجد من يقاتله ويعاديه وليس له سبيل إلي القتال . ولنا مثال رائع في ذلك من قصص عهد المماليك الثلاثة و يحكي أنه ذات مرة جاء " جُو قه لان " بجيشه من مكان بعيد لمحاربة جيش "سِي مَا يِي " فأراد " جُو قَه لان " أن يغزو جيش عدوه ويقضي عليه بسرعة ممكنة لأنه بتأخير الحرب سينفد الزاد والقوت لجيشه وأما "سي مَا يِي " فاكتشف ما يريده " جُو قَه لان " وعرف ما يواجهه من قلة الأقوات فعزم علي أن يبقي في قلعة ولا يخرج منها للقتال وعلم أن جيشه لو بقي علي هذه الحالة لانهزم العدو بنفسه من غير القتال .وفعلا بقي هو وجيشه في القلعة و حاول " جُو قه لان " بكل جهده أن يخرجه خارج القلعة للقتال واستخدم كل حيل لذلك حتي أمر بعض رجاله بأن يأتوا أمام بواب القلعة و يشتموه بأشنع اللسان ولكن مهما حاول ذلك لا يخرج جيش "سِي مَا يِي " . وأخيرا أرسل " جُو قَه لان " لباس المرأة إلي "سِي مَا يِي " ليخزيه علي أنه كالمرأة لا يخرج إلي القتال ولكن الرجل صبر علي ذلك وقبل منه تلك الهدية المخزية بالشكر ولم تمض علي هذه الحالة إلا شهور حتي نفدت أقوات جيش " جُو قَه لان " وبدأ القلق والاضطراب في الجيش فمرض " جُو قه لان " من شدة الحزن حتي مات بعد أيام وبعد ما مات " جُو قَه لان " بدأ جيشه ينسحب من المعركة وفي هذا الوقت أمر "سي مَا يِي " جيشه بأن يفتحوا بوابة القلعة ويطاردوا

---

[٨٦٩] أنظر الهامش ١٨ من هذا الفصل .

جيش العدو ثم هاجموا عليهم من الخلف وهزموهم هزيمة مهلكة وانتهي الأمر بهزيمة من كان يصر علي الهجوم.

والقصة توحي لنا أن عدم الهجوم ليس علامة الخوف والضعف وهو أحيانا يكون نوعا من الإستيراتيجية و هو أخف ضررا علي الفريقين فإذا أطفئ نار الحرب بهذا السبب لكان خيرا فكان لوتس يفضل هذا الطريق.

(٣) عدم تحقير العدو

قال لوتس : ولا فتنة أكبر من تحقير العدو و بتحقير العدو كادت تفقد ثلاثة ذخائر لى (ف: ٦٩)

إن الكرب الذي نشأ من تحقير العدو إما يعود علي الجانب الذي يثير الحرب أو علي الجانب الآخر وذلك أن الدولة لما أحست بقوتها و بتفوقها علي الغير بالنفوذ بدأت تستكبر وتحتقر غيرها وبالتالي تغزو علي الآخرين كما تشاء بلا خوف فتلحق المصائب علي الآخرين وربما تحقير العدو يعود علي نفس الدولة القوية بالمصائب وذلك أنه عندما إلتقي الفريقان فالجانب الذي يتكبر ولم يقدر غيره حق التقدير ينهزم لأنه بتكبره لم يستعدّ لمحاربة عدوه إستعدادا كما ينبغي.

فالنتيجة من تحقير العدو ليست إلا الهلاك وسفك الدماء وهذا يخالف مبادئ لوتس ويناقض كنوزه الغالية للحياة وهي الرحمة والبساطة وعدم تجاوز العالم[٨٧٠]

وإن لوتس لم يرد من تحقير العدو أن يشجّع علي القتال بالجد والعنف لأن ذلك لا يوافق مذهبه وإنما يريد أن ينبّه الناس إلي التفكير في النتائج التي تأتي بها الحرب.

(٤) تقليل القتل

من المعروف أن الحرب عبارة عن فقدان النفوس وجرح الأجساد وتنتج منها أنواع البلاء ولذلك يفرّ الناس منها و يكرهونها أشد الكراهية وإنّ أكثر الأشياء مخافة في الحرب هو القتل و لذاك دعا لوتس إلي تقليل القتل إذا أضطرّ بلد إلي الحرب ويري أن قاتل النفوس لا يمدح عقباه ومن يحب القتل فيكون عدوا للناس جميعا و لا يرضي عنه العالم مهما كبرت مآثره وقال: ومن يفرح بالقتل لا يرضى عنه العالم (ف: ٣١) . حتي إذا قتل أحد عددا من النفوس في الحرب يجب عليه أن يتأسي عليهم ويبكي علي

[٨٧٠] قال لوتس إن لى ثلاثة كنوز أتمسك بها وأحافظ عليها
:الأول يقال الرحمة والثاني يقال التقشف, الثالث يقال عدم التقدم علي العالم (ف: ٦٧)

موتهم ولوكانوا أعداء له وقال لوتس : وإذا قُتل خلق كثير لا بد أن يتأسى عليهم بالبكاء و يحتفل النصر بالجنازة(ف:٣١).

ويبدو أن خير الحروب عند لوتس هو ما لم يكن فيه القتل وقد تأثر العسكريون المتأخرون بهذه الفكرة فقال " سون تس" : طريقة الحرب أعلاها إكمال البلد وأدناها تكسيره كما أن أعلاها إكمال الجيش وأدناها تدميره " ومعناه أن أعلي صورة الحرب إنتصار العدو من غير تدمير بلده ولا تدمير جيشه وقال أيضا : أحسن المحسنين من يخضع جيش العدو إلي الاستسلام بلا حرب. وهذا النوع من الحرب يحتاج إلي حكمة بالغة و مهارة فائقة ولعل هذا هو ما أراده لوتس بالندرة .

(٥) وقوف الحرب عند أدني حد النجاح :

قال لوتس : ومن الأحسن وقوف عند نتيجة ولايقهرَ بالقوة (ف:٣٠) وقد اختلف العلماء في المراد بالنتيجة فقيل هي إنقاذ الناس من الشدائد وقيل قضاء علي فتنة وقيل إنتصار في الحرب [871]. وكل هذه قد تكون غاية الحرب عند لوتس فالدفاع عن البلد والشعب أو قضاء علي الظلم والفتنة أو إنقاذ المظلومين من الجور والشدة تكون دوافع مشروعة للحرب العادلة وأغراضا نبيلة مقبولة لديه . وعلي كل حال يري لوتس أن الحرب إذا حصلت علي شيئ ما يقال له نتيجة يجب أن تتوقف وتكتفي به ولا يجوز لأحد أن ينتهز الفرصة لتدمير الأخرين بالكامل أو السيطرة عليهم بالقوة و يجب أن تتوقف الحرب عند حصول أدني الحد من هذه الأغراض حيث لو دافع عن البلد من هجوم العدو أو أنقذ المظلومين من الظلم أو قضي علي الفتنة التي تصيب الناس أو إنهزم العدو فيتوقف عن القتال و لا يذهب إلي أبعد من ذلك . وإلا فيقع في الظلم والباطل الذي أراد أن يبيده بالحرب.

هذه المبادئ هي ما يراه لوتس واجبا أن يلتزمه أهل الحق وأصحاب "داو" في أثناء الحرب وتمثّل هذه المبادئ الفكرة العسكرية للوتس بكاملها ونعلم أن لوتس نفسه لم يشترك في أية معركة ولم يقد جيشا و كلامه في الحرب لم يقم علي أساس التجربة بل بني فكرته علي مبادئ "داو" حيث أن تعاليم "داو" تقتضي تلك المبادء العسكرية. و يتبيّن من هذا أن أفكار لوتس كلها لم تخرج من نطاق "داو" وأن المبادئ كلها يرمي بها إلي تحقيق السلم في المجتمع.

---

[871] انظر في <لوتس شرحا و تعليقا : ، ص:١٨٩.

و من المعروف أن عدم الفعل الذي هو من أهمّ خصائص "داو" كان أساس جميع أفكار لوتس حتي فكرته العسكرية وأنه يلعب هو دورا حاسما لموقف لوتس من الحرب ولما كانت الحرب مخالفة لمبدأ عدم الفعل وضع لوتس حدودا ليقيّد بها الحروب من أجل القضاء عليها حتي يتحقق مبدؤ عدم الفعل في المجتمعات وكانت فكرته الحربية أقرب إلي طريق السلم منه إلي فنون الحرب مما دلّت علي روحه الرفيعة في حب السلم واحترام الإنسانية .

ومما عرضناه نجد أن معظم المبادئ التي وضعها لوتس للحرب تنسجم مع مبادئ الإسلام ولقد وضع فقهاء الإسلام مبادئ وأصولا للحرب وقيدوا القتال بالشروط وهي أنه "إذا دخل المسلمون دار الحرب فحاصروا مدينة أو حصنا دعوهم إلي الإسلام فإن أجابوا كفوا عن قتالهم وإن امتنعوا دعوهم الي أداء الجزية فإن بذلوها فلهم ما للمسلمين وعليهم ما علي المسلمين ولا يجوز أن يقاتل من لم تبلغه الدعوة إلي الإسلام فإن أبوا ذلك استعانوا بالله عليهم وحاربوهم"[٨٧٢]. فالجهاد لا يبدأ مفاجأة بل تتقدمه الدعوة إلي الإسلام وإلي أداء الجزية وبدون الدعوة لا يثبت الجهاد لقوله تعالي [وما كنا معذبين حتّي نبعث رسولا](الإسراء:١٥) وبه أوصي رسول الله أمراء الجيش فقال "فادعوهم إلي شهادة أن لا إله إلا الله" ولأنهم ربما يظنون أن المسلمين يقاتلون طمعا في أموالهم وسبي ذراريهم ولو علموا أن المسلمين يقاتلون علي الدين ربما أجابوا إلي ذلك من غير أن تقع الحاجة إلي القتال[٨٧٣]. وهذا نوع من الرحمة واللطف وتقليل القتل ثم نهي الإسلام عن قتل الشيوخ والنساء والصبيان وكذلك نهي الرسول قتل أصحاب الصوامع و روي عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا [٨٧٤] وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيوشه قال، لا تقتلوا أصحاب الصوامع[٨٧٥] ولذلك قال مالك رحمه الله : لا يقتل الأعمى ولا المعتوه ولا أصحاب الصوامع ويترك لهم من أموالهم بقدر ما يعيشون به وكذلك لا يقتل الشيخ الفاني.[٨٧٦] ومنع العلماء الأحناف قتل يابس الشق والمقطوع اليمني والمقطوع يده ورجله من خلاف[٨٧٧].

وإن فكرة لوتس العسكرية يتقيد بفلسفته العامة وهي حفظ خصائص "داو" و التمسك بعدم الفعل ولعل الإسلام أنشط بكثير من لوتس في قضايا الحرب إذ أذن القتال وجوّز الهجوم وإذا يغلب طابع "عدم الفعل" علي فكرة لوتس في الحرب فإن طابع الرحمة واللطف كان

---

872 : الهداية > ج:٢ ص:٢٣٩-٢٤٠.
873 < شرح كتاب السير الكبير > ، ج:١ ص:٧٥.
874 أخرجه الترمذي ،كتاب الجهاد.
875 أخرجه الترمذي ،كتاب الجهاد.
876 أبو الوليد ابن رشد :< بداية المجتهد > ، ج:١ ص:٢٨٠.
877 أنظر <: الهداية >، ج ٢ ص:٥١٢.

غالبا في الفكر الإسلامي. وفي ختام هذا الفصل نأتي بالحديث الشريف الجامع الذي نري أنه قد احتوي علي جميع مبادء لوتس وهو ما روي عن سُفْيَانُ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ[٨٧٨].

ولو تأملنا الحديث المذكور لوجدنا أن مبادء الحرب عند لوتس كلها مشمولة فيه بل يمكن لنا أن نستنبط منه أكثر و لم يختلف لوتس عن الإسلام في حب السلام والأمن ويتفق مع الإسلام علي أن القتال هو آخر الطريق لحل النزاع. والله أعلم !

[٨٧٨] رواه مسلم ، كتاب الجهاد.

الخاتمة

لقد عشت مع هذا البحث أكثر من ثلاث سنوات وبذلت شيئا من الجهد لإنجازه مع تحمل مشقات شتى فالعمل الذي قدمت أمام القارئ هو ثمرة جهدي ونتيجة دراستي خلال هذه السنوات ولا أدعي له بالكمال والشمول ولكنه بلا شك يغطي قدرا كبيرا من جوانب الكتاب وأفكار مؤلفه وإن الموضوع ليس جديدا في الدراسة الداوية إذ سبقها آخرون وهم قاموا بدراسته من مواقف متغايرة وبلغات مختلفة وقد كونت من الدراسة مكتبة ضخمة وأصبحت جزءا من التراث الصيني ولكن لا يعني هذا أنهم قد استوعبوا جميع جوانب كتاب "داو ده جين" ولم يتركوا للاحقين شيئا وأن دراستنا هذه ليست إلا إعادة ما قاله السابقون أو مجرد التكرار . كلا ! إن بحثنا له خصائصه ومزاياه التي لم توجد عند اللآخرين وهو بهذه المزايا يعتبر جديدا في الدراسة الداوية ويمكن أن يعتبر لبنة لازمة في بناء الدراسات الداوية.

إن الميزة الأولي لهذا البحث أنه كتب بالعربية وأن القضايا والمسائل التي يحتوي عليها البحث لم يتناولها كتّاب العرب. وقد أملئنا هذا الفراغ للكتابات العربية.

والميزة الثانية أننا وضعنا كتاب "داو ده جين" في ضمن الكتب المقدسة الدينية وناقشنا القضايا فيه من موقف ديني ، وهذا قل ما يفعله العلماء المحدثون بل يعارضونه.

والميزة الثالثة أننا بصفة الباحثين المسلمين حاولنا أن نكشف من وجهة النظر الإسلامي بعض الحقائق التي لم يتيسر الآخرين معرفتها أو لم يبلغوا إليها وهي قد تكون جوهر أفكار لوتس.

فمن هذا المنطلق توصلنا من خلال الدراسة إلي بعض نتائج هامة وهي كما يلي:

إن معظم العلماء في الحاضر يعتبرون لوتس فيلسوفا طبيعيا ويهملون الجانب الديني في أفكاره أو ينكرون ذلك ولكن الحقيقة أن لوتس فيلسوف ديني ومفكر مصلح وأن فلسفته لم تنفصل عن دينه إذ أن "داو" كان نقطة البداية والنهاية لجميع أفكاره وأن "داو" هو الإله عنده أو عبارة عن الدين فتكون جميع فلسفته تنشؤ في إطار الدين أو في إطار الفكرة اللاهوتية فلم نبالغ إذا قلنا بأن لوتس فيلسوف لاهوتي ويؤيد هذا أن كتابه أصبح كتابا مقدسا دينيا بعده علي يد مؤسس الديانة الداوية .

ولا شك أن لوتس فيلسوف ، غلب في أفكاره وتعبيراته الطابع الفلسفي حتي أخذه الناس علي أنه مفكر ولكن الأفكار التي يتفلسف فيها لم تخرج من دئرة القضايا الدينية وإنما كان يعبّر عنها باللغة الفلسفية و يوضح الأمور اللاهوهية بالأسلوب العقلي والحقيقة أن لوتس يتفلسف في القضايا الدينية ولذلك قد خصصنا الفصل الأول من قسم الدراسة بالألوهية وأما

بقية الفصول فلم نضع لها عناوين ذات طابع ديني ولكن كلها قد تدخل في إطار النظريات الدينية .

إن مفهوم "داو" في الكتاب ليس بواضح كل الوضوح حيث يحمل معاني متعددة وقد قام العلماء بتأويله حسب فهمهم فذهب كل واحد إلي ما يراه وتدخل أفكار لوتس في إطار النظرية الدينية إلا إذا يؤخذ مفهوم "داو" علي أنه الإله وهذا لم يرض عنه معظم العلماء بل يعارضونه ولذلك اعتبروا أفكار لوتس نوعا من الفلسفة.

إن لوتس مبتكر ومصلح ، ومن جانب أخر مقلد ومحافظ وقد مزجت هذه العناصر في شخصيته وإنه يقلد الثقافة القديمة عموما ثم يتبع أحسنها ويصلح مفاسدها وقد قلد السابقين عليه في الإيمان بوحدانية الإله وأصلح ما طرأ عليه من الوثنية والريبة حتي جاء بمفهوم جديد يعبر عن الإله الواحد.

وأهم ما توصلنا إليه هو إثبات أن لوتس يؤمن بإله الكون ورب العالمين وليس ملحدا كما اتهمه بعض الناس وكان لوتس علي دين نفسه وليس رافضا لجميع الأديان كما قيل وأن "داو" هو إله لوتس.

وقد أتينا بالإسلام للمقارنة ولم نقصد منها وصولا إلي أشياء جديدة بل نثبت بعض الحقائق التي يعترف بها السابقون وأهملها اللاحقون ومن هذه الحقائق :أن عقيدة التوحيد هي أصل جميع الأديان وأن الأديان المتعددة –– منها الديانة الداوية بالذات ––ليست إلا صورا محرفة من هذا الأصل التوحيدي وأن الإيمان بالإله وبوحدانيته فطرة فطر الناس عليها وكان لوتس علي تلك الفطرة متمسكا بعقيدة التوحيد ولذلك نجد طرق الاستدلال علي وجود الإله وعلي وحدانيته كانت متقاربة بين الأقوام وخاصة بين لوتس وبين المتكلمين والفلاسفة المسلمين ، وبالتالي أن الإله الذي عرفه المسلمون قد عرفه السابقون بنفس الطريق وإن لم يصلوا إلي نفس القدر الذي عرفه الإسلام بالقرآن.

ولا ننكر أن لوتس قد وصل إلي مستوي عال في معرفة الأشياء وربما كان معتمدا في المعرفة علي عقله ووجدانه كما يزعم فكان دينه أقرب إلي دين طبيعي أو دين فطري.

ولكن لا نبعد أن الديانات القديمة السابقة عليه قد أثرت فيه. ويبدو لي أن لوتس لم يكن نبيا ولا رسولا لانه لم يتلق الوحي من الله تعالي أو علي الأقل أنه لم يصرح بذلك ولكن لا ننكر أن في أفكاره بقايا من الرسالة السماوية السابقة.

ومن الأخطاء التي وقع فيها أصحاب الديانة الداوية ومن تبعهم من العلماء أنهم يعتمدون في بناء العقائد علي كتب أخري غير كتاب "داو ده جين" ويبحثون ينابيع ديانتهم منها مهملين الينبوع الحقيقي فضلوا الطريق وانحرفوا عن سواء السبيل الذي سار عليه لوتس

فيجب علي من يعرف أصل الديانة الداوية أن يرجع إلي أصلها وهي كتاب "داو ده جين" وألا يشغله تعبيره الفلسفي عن فهمه للحقائق الدينية .

إن كتاب "داو ده جين" يعتبر أحد الأسرار الثلاثة وهو فعلا يستحق هذا الوصف إذ أنه مع صغر حجمه يتضمن أشياء ما لا تنتهي دراستها وإن دراستنا قد غطت جانبا من جوانب الكتاب فضلا عن استيعاب جميع قضاياه وأنها قد تعتبر بداية في هذا المجال ولن تنحصر أفكار لوتس في الجانب الديني فيما كتبناه وإنما فتحنا بابا وقدمنا رأينا فيها وهناك مجالات تنتظر من اللاحقين الخوض ونتمني أن تظهر فيما بعد كتابات قيمة في هذا المجال وأن تنكشف حقائق مفقودة من فكر لوتس.

والله المستعان وبه التوفيق .

المراجع الصينية :

(١) تشان باي ري : < فصل تأمل الحق >، باي يون قوان ، بكين ، ١٩٩١.

(٢) تشين قو يين: < لو تس دراسة و تعليقا> ، دار الكتب الصينية ، ١٩٨٤.

(٣) جوان تس : كتاب < جوان تس >

(٤) جيو قوي ديان : < الفلسفة التقليدية في الصين > ، مطبعة جامعة المعلمين ببكين ،١٩٩٠م .

(٥) جيو لي شين : <حكمة لو تس> ، المطبعة الشعبية ب خه باي ، ١٩٩٧ م.

(٦) خه شان قون: < تفسير خه شان قون > ، دار الكتب الصينية ، سنة ١٩٩٣.

(٧) جو فو شين : < الدراسة العامة عن العلوم الداوية > ، مطبعة العلوم الإجتماعية ، ١٩٩٩م .

(٨) رون جو يو : < الترجمة الجديدة للوتس > ، مطبعة الكتب القديمة ، شان هاي ، ١٩٨٥م.

(٩) سون تس: < قانون الحرب >.

(١٠) سُون يى كَاىْ : < تاريخ لوتس >، المطبعة الشعبية بَانْ خِوْ ١٩٩٢م.

(١١) سون يي كاي : < مسائل مائة عن لوتس > ، المطبعة الشعبية ،أن هوي ،١٩٩٦م.

(١٢) سي جان تشان : < توضيح معالي داو- ده- جين >. طبع في معبد باي يون . بكين ، ١٩٩٠م.

(١٣) شا شأو خي :< الترجمة الكاملة ل"لو تس " > ، المطبعة الشعبية في قوي جيو ،١٩٩٢.

(١٤) شيو دي شان : < تاريخ الديانة الداوية > ، مطبعة الكتب القديمة ، شان هاي ، ١٩٩٩.

(١٥) قه شو جين: < الثقافة الداوية و الحضارة الحديثة > ، مطبعة الجامعة الشعبية بالصين ، بكين ،١٩٩١م

(١٦) فون يو لان: < التاريخ المختصر للفلسفة الصينية > ، مطبعة جامعة بكين ، ١٩٨٥م

(١٧) قاو دين يي ، < دراسة داو ده جين > ، مطبعة معهد الإذاعة ، بكين ، ١٩٩٩م.

(١٨) قوا شي ملي: < ما ذا يقول لوتس فعلا >، مطبعة اللغة الصينية ، ١٩٩٩م

(١٩) قو لي : <عشرة أيام للحديث عن لوتس >، المطبعة الفنية في مقاطعة آن خون ١٩٩٤م

(٢٠) كنفوشيوس : < الحوار >.

(٢١) كه يون لو: < القرن الجديد > ، مطبعة جامعة منغوليا الداخلية .

(٢٢) لوتس : < داو ده دين >

(٢٣) لو فو لون : < فلسفة الديانة الداوية> ، المطبعة هوا شيا ، ١٩٩٧ م.

(٢٤) لين يو تان : < حكمة الصين > ، (باللغة الإنجليزية).

(٢٥) ليو خاو وان : <تفسير داو ده جين > ،جامعة فو دان ،١٩٩٧م.

(٢٦) ليو شيو مين : < يجيب لوتس عن أسئلة الضيف > ، المطبعة الشعبية بشان هاي ، ١٩٩٩ م.

(٢٧) لي يان جين :< التعريف بالداوية> ، دار الكتب الصينية،١٩٨٠م.

(٢٨) ما جون : <المناهج الكبر ي للحكماء الصينية> ، المطبعة الشعبية في شان سي ، ١٩٩٣م.

(٢٩) لان هوي جين : < جين البوذية والداوية > ، مطبعة جامعة فو دان ، ١٩٩٠م .

(٣٠) لان خواي جين: < الحديث عن لوتس> ، مطبعة الجامعة فو دان، ١٩٩٦م.

(٣١) هو وي هو : < تاريخ الفكر الصيني > ، الجزء الأول ص: ٣٠٢ ، المطبعة الشعبية ، ١٩٩٥ م.

(٣٢) وا ده جون :< تاريخ الداوية> ، ، مطبعة الترجمة ب شان هاي ١٩٧٨م.

(٣٣) وان شاو دون: < العقائد البدائية والآلهة القديمة في الصين>، مطبعة الكتب القديمة بشان هاي".

(٣٤) وان يو ده :< مقاصد داو >، دار الكتب تشي لو ، ١٩٨٧ م.

(٣٥) وو لين به : < شرح جديد للوتس > ، مطبعة جين هوا ، بكين ، ١٩٩٧م.

(٣٦) يوان بو جيا : < الديانة الصينية والمسيحية >، مطبعة العلوم الإجتماعية بالصين ،١٩٩٧م.

(٣٧) يوان بو جيا : < لوتس و المسيح > ، مطبعة العلوم الإجتماعية بالصين ،١٩٩٧م.

(٣٨) يان جون بين : < المرجع إلى لوتس > ، دار الكتب الصينية ،١٩٩٤م.

(39) Cheng Yao Ting , < Dao , Xian , Ren > , Social Science Academy press , Shang Hai , 1992 .

(40) Paul Lin, < Lao Tzu s Tao Te Ching and Wang Bis commentary>,1977.

(41) The handbook of Taoism . Edited by Li Yang Zhang . Zhong Zhou book press . 1993 .

(42) Lao Zi , The Chinese English Bilingual series of Chinese classics

(43) Max Muller :<Sacred books of the East >, Translated by Oriental scholars Dehli ,India, 1965.

(44) The source book in Chinese philosophy .

المراجع العربية:

(١) القرآن الكريم

(٢) الصحيح البخاري

(٣) صحيح مسلم

(٤) إبن جرير الطبري: < تاريخ الطبري > ،دار الكتب العلمية ،بيروت.

(٥) ابن رشد < بداية المجتهد > ،دار الفكر ، بيروت.

(٦) إبن رشد : < مناهج الأدلة في عقائد الملة> ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة.

(٧) أبو بكر محمد الكلاباذى : < التعرف لمذهب أهل التصوف>، الازهر القاهرة .

(٨) أبو حامد الغزالي:< إحياء علوم الدين >،دار إحياء التراث العربي،بيروت.

(٩) الإمام أبو حامد الغزالي: < الاقتصاد في الاعتقاد> ، مطبعة الهلال.

(١٠) أبو حامد الغزالي: < المنقذ من الضلال> ، هيئة الأوقاف بحكومة البنجاب ،لاهور ،١٩٧١م.

(١١) أبو الفضل محمود الآلوسي :< روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني >. دار إحياء التراث العربي ،بيروت.

(١٢) الإمام أبو القاسم عبد الكريم القشيري :< الرسالة القشيرية > ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولي ، ١٩٩٨م.

(١٣) أبو نصر السراج الطوسي :< اللمع > ، دارالكتب الحديثة بمصر ،١٩٦٠، ص:١٦٧.

(١٤) أبو نصر الفارابي : < إحصاء العلوم > ، مكتبة الأنجلو المصرية.

(١٥) أبو نصر الفارابي : < اراء أهل المدينة الفاضلة > دار المشرق ، بيروت.

(١٦) أبو نصر الفارابي :< تحصيل السعادة >. دار الأندلس ،الطبعة الثانية،١٩٨٣.

(١٧) أبو نصر الفارابي : < السياسة المدنية > ، دار المشرق ،بيروت.

(١٨) أبو نصر الفارابي : < عيون المسائل > ، النص منشور في < المجموع للمعلم الثاني والفيلسوف الإسلامي >.

(١٩) الدكتور أبو اليزيد العجمي: < الأخلاق بين العقل والنقل > ، دار الثقافة العربية.

(٢٠) برهان الدين أبو الحسن الفرغاني: < الهداية > ،المكتبة العربية ،كراتش.

(٢١) جمال الدين أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد < كتاب أصول الدين > ، دار البشائر الإسلامية ،بيروت ،١٩٩٨م.

(٢٢) الدكتور حسن محمود الشافعي:< المدخل إلي دراسة علم الكلام>،إدارة القرآن والعلوم الإسلامية،كراتشي ،باكستان.

(٢٣) حنا الفاخوري و خليل الجر:< تاريخ الفلسفة العربية> ، دار المعارف ، بيروت.

(٢٤) ديو رالت.ول : < قصة الحضارة > الإدارة الثقافية ، القاهرة ،١٩٧١م.

(٢٥) سعد الدين التفتازاني: < شرح العقائد النسفية > ، مكتبة خير كثير، كراتش .

(٢٦) سعد الدين التفتازاني < شرح المقاصد > ، دار المعارف النعماني ، لاهور ،باكستان.

(٢٧) سعيد حوي :< الإسلام > ، مكتبة وهبة ، القاهرة ،مصر.

(٢٨) السيد الشريف على بن محمد الجرجانى :< التعريفات >، المكتبة الحمادية ، كراجى ١٩٨٣م.

(٢٩) سيد قطب :< معالم في الطريق > ، دار دمشق ،إيران.

(٣٠) شاه غلام علي الدهلوي < إيضاح الطريق > ، خانقاه سراجية ،باكستان ١٤١٩هــ.(الفارسية)

(٣١) العالم الجليل الصيلي صالح ليو جي: < اللطائف > (المخطوط).

(٣٢) عبد الكريم زيدان: < أصول الدعوة >.

(٣٣) عبد الكريم زندان :< الوجيز في أصول الفقه > ، دار نشر الكتب الإسلامية ،لاهور ،باكستان.

(٣٤) عضد الدين الأيجي : < المواقف في علم الكلام > ، عالم الكتب ، بيروت.

(٣٥) الدكتورعلي سامي النشار : < نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام >، الطبعة الثامنة ، دار المعارف .

(٣٦) العلام عبد الله بن أحمد النسفي: < تفسير النسفي > ،مكتبة حقانية، بشاور،باكستان .

(٣٧) ابو الفضل جمال الدين ابن منظور الا فريقى : لسان العرب' نشر ادب الحوزة' قم ' ايران

(٣٨) الإمام القرطبي: < تفسير القرطبي > دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٢ الهجرية .

(٣٩) محمد ابن أحمد السرخسي:< شرح كتاب السير الكبير > ،مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ، ١٩٥٧ م.

(٤٠) محمد ابن أحمد السرخسي:< كتاب المبسوط > ،دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان، ١٩٧٨.

(٤١) الدكتور محمد عبد الله دراز: < الدين البحوث المعهدة لتاريخ الأديان>، دار القلم ـــ كويت ١٩٧٠م.

(٤٢) الدكتور مصطفى شاهين : < تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام > ،دار الثقافة للنشر والتوزيع.

(٤٣) نديم الجسر: < قصة الإيمان > ، دار الثقافة المسلم ، قم ، إيران ، ١٣٤٢هـ.

(٤٤) الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند :< الفتاوي العالمكيرية > ، بلوجستان بك ديو ،بلوجستان ،باكستان.

(٤٥) محمد علي الصابوني < النبوة والأنبياء >،الطبعة الثانية ، ١٤٠٠.

(٤٦) محمد فريد وجدى: <دائرة معرف القرن العشرين> دار المعرفة بيروت.